كان التاريخية

ISSN: 2090 - 0449
https://kan.journals.ekb.eg
Dawriyyaẗ Kān al-Tārīẖiyyaẗ

52
السنة الرابعة عشرة

تصدر عن مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر



أول دورية عربية إلكترونية محكّمة ربع سنوية متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

يونيو ٢٠٢١
شوال ١٤٤٢

Historical Kan Periodical

رقمية الموطن عربية الهوية عالمية الأداء

ISSN 0209-004X
9 770209 004499

تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هـ وصدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨ م



دورية كان التاريخية.- س١٤، ع٥٢ (يونيو ٢٠٢١/ شوال ١٤٤٢)

Dawriyyaẗ Kān al-Tārīẖiyyaẗ
Iliktrūniyyaẗ, muḥakkamaẗ , rub' sanawiyyaẗ
Vol. 14, no. 52 [June 2021]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
http://www.kanhistorique.org
Information on this issue: https://kan.journals.ekb.eg

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر.- س١، ع١ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة، ٢٠٠٨ – ٢٠٢١.

دورية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردمد ٠٤٤٩ – ٢٠٩٠

١- تاريخ ٢- الآثار

٣- التراجم ٤ - التراث

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical
Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo: Organization, 2008 – 2021.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.

أول دورية عربية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول 1429هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر 2008م



ISSN: 2090 – 0449 Online

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات الببليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأدلة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

https://kan.journals.ekb.eg



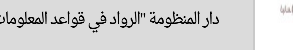
أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ – الكويت
www.nashiri.net

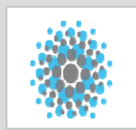


أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية – سان فرانسيسكو – الولايات المتحدة

www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" – السعودية

www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة بيانات المنهل
أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ – الإمارات
www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن

www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:
دليل الدوريات العربية المجانية
الدوريات العلمية المُحكّمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً
www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:
هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ – كاليفورنيا
www.icann.org



معتمدة من مركز مؤشر - برلين:
المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية
عن الالتزام بشروط النشر العلمي المعتمدة عالميًا.
https://indexpolls.de

المشرف العام

أ.د. عبد العزيز غوردو
أستاذ التاريخ والحضارة
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
وجدة – المملكة المغربية

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام



"كان التاريخية" أول مبادرة عربية مستقلة متخصصة، تدعم مبدأ "المعبر المفتوح" في تداول المعرفة على شبكة الإنترنت بتشجيع النشر الرقمي للدراسات التاريخية. "كان التاريخية" غير هادفة للربح وتتيح نصوصها كاملة على شبكة الإنترنت، وتسعى إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي.

الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمّل دورية كان التاريخية أيّة مسؤوليّة عن الموضوعات الّتي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكُتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكيّة أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

حقوق الطبع والنشر والترجمة

جميع حقوق الطبع والنشر الورقي والرقمي والترجمة محفوظة لدورية كان التاريخية، وبموجب الاعتماد والتسجيل الممنوح للدورية يحق لرئيس التحرير اتخاذ الإجراءات القانونية تجاه أي فرد أو مؤسسة أو موقع على شبكة الإنترنت يعيد استخدام محتويات الدورية بدون اتفاقية قانونية.

رخصة التشارك الإبداعي

دورية كان التاريخية مسجلة تحت التراخيص العامة غير التجارية لدى منظمة التشارك الإبداعي في سان فرنسيسكو استنادًا إلى موقعها الإلكتروني. "كان التاريخية" غير تجارية ولا تفرض رسوم على المراجعة والتحكيم والنشر.

إدارة المعرفة

كَان التَّارِيْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.

GO GREEN – GO PAPERLESS

الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.



حاصلة على "**معامل التأثير العالمي**" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية.

حاصلة على "**معامل التأثير العربي**" (AIF) للدوريات العلمية العربية المّحَكَّمة.

مسجلة في **دليل أولريخ الدولي للدوريات** (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨٨١٤.

عضو في **الجمعية الدولية للمجلات العلمية** الناشرة باللغة العربية.

رئيس التحرير

أ.م.د. أشرف صالح محمد سيد

أستاذ مشارك تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد



VISITING THE SCRIBE
Clemente Pujol de Gustavino
(Spanish, b. ca. 1850 – d. ca. 1905)

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com


historicalkan

groups/kanhistorique

kanhistorique
kanhistorique.blogspot.com

goodreads.com/kanhistorique

www.kan.nashiri.net



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

أخلاقيات النشر والنزاهة العلمية

يستند بيان أخلاقيات النشر وسوء الممارسة الخاص بدَّورِيةُ كَان التَّارِيْخية على مدونة قواعد السلوك والمبادئ التوجيهية لأفضل الممارسات التي تهمّ محرري المجلاّت العلمية والتي أصدرتها (COPE) لجنة أخلاقيات النشر (Committee on Publication Ethics) وتتخذ هيئة التحرير جميع الإجراءات اللاّزمة ضد أي نوع من الممارسات الخاطئة في مجال النشر، وذلك بحفاظها على مراقبة جميع المراحل والإجراءات المتضمنة في عملية النشر العلمي. وبناءً على هذا يعتبر منع سوء الممارسة في النشر مثل الانتحال أو إعادة الطبع غير المصرّح به، أحد المسؤوليات الملزمة لفريق عمل الدورية، الذي لا يتسامح بدوره مع أي نوع من السلوك الذي لا يلتزم بأخلاقيات النشر، وهو مدرك تمامًا مسؤولياته والتزاماته الأخلاقية.

كان التّاريْخية هي أول دورية عربية مُحكمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني، تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، وصدر العدد الأول منها في أيلول ٢٠٠٨. كان التّاريْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

مسؤولية رئيس التحرير

يتكون فريق عمل دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية من متخصّصين معترف بهم في مجال الدراسات التاريخية والأثرية والتراثية. ويتولّى رئيس تحرير الدورية نشر أسماء أعضاء الهيئة الاستشارية وهيئة التحرير وانتماءاتهم ومعلومات الاتصال بهم على موقع الدورية الرسمي عبر شبكة الإنترنت.

قرار النشر

يتحمل رئيس التحرير مسؤولية التصرف النهائي في جميع عمليات التقديم للنشر والمراجعات الرئيسة أو الجزئية أو القبول أو الرفض. ويستند قرار النشر أو عدم النشر إلى تقارير المحكّمين وملاحظاتهم والقيمة العلمية للبحث وأصالته ووضوحه وجدواه وصلته بمجال تخصص الدورية. وقد يحتاج رئيس التحرير إلى استشارة المحرّرين الآخرين أو المحكّمين المتخصصين في اتخاذ القرارات حول البحوث المقدمة. ويأخذ رئيس التحرير أيضًا بعين الاعتبار المسوّغات القانونية المتعلقة بالتشهير وانتهاك حقوق الطبع والنشر والسرقة الأدبية.

السرية

رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير ليسوا ملزمين بالكشف عن أي معلومات حول البحث المقدّم لأي شخص آخر غير المؤلف والمحكّمين والمراجعين المحتملين ومستشاري التحرير الآخرين والناشر حسب الاقتضاء. إن عملية المراجعة العلمية سرية للغاية، والدورية ملتزمة التزامًا تامًا بسياسة مراجعة الأقران المزدوجة التعمية.

عملية التحكيم

تتم مراجعة المقالات في البداية من طرف رئيس التحرير. وقد يرفض رئيس التحرير المقال المقدم قبل إخضاعه لعملية مراجعة الأقران، إما لأنه لا يتّصل بنطاق وموضوعات الدورية أو لأنه ذو جودة متدنّية تجعله لا يرتقي للتحكيم على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير تقييم المقالات بغض النظر عن انتماءات المؤلفين العرقية أو جنسهم أو معتقداتهم الدينية أو جنسيتهم أو مواقفهم الفكرية. وينبغي أن يستند قرار رئيس التحرير بقبول أو رفض المقال المقدم للنشر إلى أهمية العمل وأصالته ووضوحه وصلته بأهداف ومجال تخصص الدورية.
يتم إرسال المقالات التي اعتبرت مؤهلة للمراجعة إلى محكّمين اثنين على الأقل ممّنْ لديهم خبرة في مجال المادة المقدمة. ويجب أن يكون المحكّمون للمقال غير معروفين لبعضهم البعض. كما يطلب منهم أن يقرروا ما إذا كان المقال قابلاً للنشر كما هو، أم أنه قابل للنشر مع تغييرات طفيفة، أو تغييرات جذرية، أو لا يمكن نشره على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير عدم النظر في إعطاء المؤلفين إمكانية ترشيح محكّمين أو طلبهم ألا يقوم محكّمون معينون بمراجعة أوراقهم.

النزاهة الأكاديمية وتضارب المصالح

يجب على رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير عدم استخدام المواد غير المنشورة التي تم الكشف عنها في الورقة المقدمة لأغراضهم البحثية. ويجب الحفاظ على سرية الأفكار المبتكرة أو البيانات المكتسبة في عملية مراجعة الأقران بكل حزم ويجب عدم استخدامها للمصلحة الشخصية. ويجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين الكشف عن أي تضارب مصالح عند قبولهم تحكيم عمل ما وعند إرسال تقارير التحكيم. كما يجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين رفض المشاركة في التحكيم إذا كانوا في وضع لا يسمح لهم بالقيام بمراجعة غير متحيزة.

COPE

دَّورية كـان التَّاريْخيـة هـي دوريـة علميـة عالميـة مُحَكَمـة تعتمـد سياســة المراجعــة المزدوجــة وتصدرها مؤسسة كان للدراسات والترجمــة والنشرــ. إن الهـــدف الـرئيس مـن الدوريـة هـو دعـم الدراسـات التاريخيـة المتخصصـة وتوفير منصة فكرية للباحثين من كافة أنحاء العالم. تصدر الدورية أربعـة أعـداد في السـنة وتقبـل الأوراق البحثية المكتوبة باللغتين العربيـة والإنجليزيـة. كمـا تنشرـ الدوريـة مقـالات أصلـية وعاليـة الجــودة في مجـــالات العلــوم المسـاعدة ذات العلاقـة، ويشـمل ذلـك كـل العلـوم نظـرًا لطبيعـة التَّــاريْخ كعلـم يتنـاول النشـاط الإنســاني كافــة. ويشــمل ذلــك مجموعـة واسـعة مـن مواضيـع ومناهج ورؤى متخصصة تستجيب لطيــف كبــير مــن القــراء ذوي التخصصات المتعددة.

مسؤولية المؤلف (الكاتب)

يلتزم المؤلفون بمبادئ ومعايير أخلاقيات البحث والنشر العلمي، وتخضع جميع الأوراق العلمية لكشف السرقة الأدبية، وتُرفض كل ورقة بحثية لا تلتزم بسياسات وقواعد النشر المحددة من قبل دَّوريةُ كَان اَلْتَّارِيْخية. ويجب على المؤلف عند تقديم البحث تجنب الموضوعات غير الأخلاقية، والعرقية، والمذهبية، والمعلومات المزيفة، مع إدراج تفاصيل المصادر والمراجع ضمن الورقة البحثية.

الأصالة وسلوك التأليف المسؤول

يجب على المؤلفين الابتعاد عن جميع أنواع السلوك غير الأخلاقي مثل الانتحال والافتعال والتزوير. وتجنب السلوك غير الأخلاقي بتقديم البحث نفسه إلى أكثر مـن مجلـة واحدة في الوقت نفسـه. كما يجب على المؤلفين تقديم أعمـال أصلية خالصـة، ويجب ذكر مساهمة الآخرين فيها بشكل صحيح، مع الاستشهاد بالأبحاث التـي كان لها أثر في تحديد طبيعـة البحث المقدم. وإذا اكتشـف المؤلـف خطأً فادحًا في عمله المنشـور يجـب عليـه إبـلاغ رئيـس التحرير أو الناشر بحذف الخطأ أو تصويبه.

حقوق النشر

يحـتفظ المؤلفـون بحقـوق الطبـع والنشـر لعملهـم، وبمجرد قبول الورقة للنشر فإن حقوق الطبع والنشر والترجمـة لورقتـه العلميـة تنقـل إلـى دَّوريـةُ كَـان اَلْتَّارِيْخية، وتُوزع بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) والـذي يسـمح بالاسـتخدام غيـر المقيـد والتوزيـع والاستنساخ في أي وسيط بشرط ذكر كل ورقة علمية وتوثيقها توثيقًا صحيحًا وعزوها إلى مصدرها.

تضارب المصالح

إذا كان هناك أي تضارب مصالح محتمل أثناء أو بعد عملية مراجعة الأقران يجب على المؤلفين الإفصاح عنه لرئيس التحرير أو الناشر على الفور. ومن أجل تأمين عدم تضارب المصالح يتم اختيار مراجع ليس له علاقة أو مصلحة مع المؤلف، أو أحد المؤلفين، أو المؤسسـات الجامعية أو الهيئة العلمية التي ينتمي إليهـا المؤلـف، وفي كـل الأحـوال تُعتمـد المراجعـة المزدوجة للأبحاث المقدمة للنشر.

مسؤولية المحكم (المراجع)

تتبنـى دَّوريةُ كَان اَلْتَّارِيْخية أسلوب مراجعة الأقران المزدوجة التعمية. ويساعد المحكّمون رئيس التحرير على اتخاذ القرارات التحريرية، كما يمكن أن يساعدوا المؤلـف علـى تحسـين الورقـة البحثيـة مـن خـلال تقاريرهم العلمية.

سلوك التحكيم المسؤول

لا يفترض أن يقوم المحكّمون بفحص البحوث التي تقـع خـارج مجـال تخصـص دَّوريـةُ كَـان اَلْتَّارِيْخيـة. ويجـب علـى أي محكّـم خـارجي غيـر مؤهـل أو غيـر مسـتعد لمراجعـة البحـث المقـدم أن يعلـم رئـيس التحرير وينسحب من عملية التحكيم. وعلى المُحكم المبـادرة والسـرعة في القيـام بتقييم البحث الموجه إليــه فــي الآجــال المحــددة، ويجــب ألا يســتخدم المحكّمون أي معلومات أو بيانات تم الحصول عليها من البحث التـي تم تحكيمه لمصلحتهم الشخصية. ويجـب ألا يقبـل المحكّمـون بتحكيـم البحـوث التـي يكـون لهـم فيهـا تضـارب مصـالح نتيجـة لعلاقـات تنافسية أو تعاونية أو غيرها مع المؤلف (المؤلفين). كما يجب على المحكّمين أن يعلموا رئيس التحرير بـأي تشـابه أو تـداخل كبيـر بـين البحـث الـذي تـم تحكيمه وأي أعمال أخرى منشورة يعرفونها.

السرية والموضوعية

يجب على جميع المحكّمين الذين يقومون بمراجعة الأوراق العلمية أن يفهموا ويتقيدوا بمعايير السريّة، ومعاملة البحوث التي تم استلامها للتحكيم كوثائق سرية. ويجب عليهم عدم الكشف عنها أو مناقشتها مـع الآخـرين باسـتثناء مـا يـأذن بـه رئـيس التحرير. وينبغي على المحكّمين إجراء عملية التحكيم بشكل موضـــوعي ويجـــب ألا يوجّهـــوا أي نقـــد شخصـــي للمؤلف. ويجب على المحكّمين التعبير عن وجهات نظـرهم بنزاهـة ووضـوح مـع ذكـر الأدلـة والحجـج الداعمة.

شرح العملية التحكيمية

- هيئة التحرير تدير عملية التحكيم السري للمقالات والدراسات المقدمة لتحديد صلاحيتها للنشر، ويلتزم الباحث بالأخذ بملاحظات المحكمين.
- يتم تقييم وفحص جميع الأوراق المقدمة للنشر مبدئيًا من قبل المحرر للتأكد من ملاءمتها للمجلة.
- يتم إرسال المقالات والدراسات التي تعتبر مناسبة عادةً إلى ما لا يقل عن اثنين من الخبراء المستقلين المراجعين لتقييم الجودة العلمية للورقة.
- مدة التحكيم ثلاثة أسابيع ويبلغ المحكم بذلك، وبعدها يجب أن يرد المحكم أما (قبولاً) وهو قبول البحث للنشر، أو (قبولاً بشرط التعديل)، وهو قبول البحث للنشر بشروط إجراء بعض التعديلات عليه، أو (رفضاً) وهو التوصية بالاعتذار عن نشر البحث.
- المحرر مسؤول عن القرار النهائي بشأن قبول المقالات أو رفضها.
- لا يشارك المحررون في القرارات المتعلقة بالأوراق التي كتبوها بأنفسهم أو التي كتبها الزملاء. ويخضع أي إرسال من هذا القبيل لجميع الإجراءات المعتادة للمجلة، مع التعامل مع التحكيم (مراجعة الأقران) بشكل مستقل عن المحرر المعني ومجموعات البحث الخاصة بهم.

التسليم

- ترسل الأوراق العلمية مع مرفقاتها بالبريد الإلكتروني إلى الدورية.
- يقدم المؤلف نسخة من البحث مكتوبة على برنامج Microsoft Word.
- يرفق الباحث سيرته العلمية وبيانات التواصل معه.
- يتلقى المؤلف إشعارًا بالاستلام من مديرة التحرير.

الفحص الأولي

- تقوم هيئة التحرير بفحص الورقة العلمية للنظر إذا ما كانت مطابقة لقواعد النشر الشكلية المعلن عنها ومؤهلة للتحكيم العلمي.
- يعتمد في الفحص الأولي على ملاءمة الموضوع للدورية، ونوع المادة العلمية (مقال/ دراسة/ ترجمة/ تقرير/ عرض كتاب/ عرض أطروحة)، وسلامة اللغة، ودقة التوثيق والإسناد بناءً على نظام التوثيق المعتمد في الدورية، بالإضافة إلى عدم خرق أخلاقيات النشر العلمي.
- يجري إبلاغ المؤلف باستلام الورقة البحثية وبنتيجة الفحص الأولي.
- في هذه المرحلة إذا وجدت هيئة التحرير أن الورقة البحثية بحاجة إلى تحسينات ما قبل التحكيم، فتقدم للمؤلف إرشادات أو توصيات ترشده إلى سبل التحسين مما يساعد على تأهيل الورقة البحثية لمرحلة التحكيم.

التحكيم

- تخضع كل دراسة للمراجعة المزدوجة من أعضاء لجنة المراجعة والتحكيم العلمي.
- يُبلغ المؤلف بتقرير من هيئة التحرير يبين قرار المراجعة العلمية، وخلاصة الملاحظات والتعديلات المطلوبة إن وجدت، ويرفق معه تقارير المراجعين أو خلاصات عنها.
- تبقى أسماء المراجعين مغفلة في التقرير الذي يُرسل إلى المؤلف.

إجراء التعديلات

- يقوم المؤلف بإجراء التعديلات اللازمة على الدراسة استنادًا إلى نتائج التحكيم.
- يعيد المؤلف إرسال المقال/ الدراسة إلى الدورية بعد استيفاء طلبات المراجعون.

القبول والرفض

- تحتفظ الدورية بحق القبول والرفض استنادًا إلى التزام المؤلف بقواعد النشر وبتوجيهات هيئة التحرير.
- يرسل إلى المؤلف خطاب قبول النشر، ويأخذ المقال دوره في جدول النشر حسب أسبقية الوصول، وترسل نسخة من الدورية إلى البريد الإلكتروني للمؤلف فور النشر.

دَّورية كان التَّاريْخية مفهرسة وتم اعتماد محتوياتها ضمن عدد وافر من قواعد البيانات العلمية العربية والعالمية التي تتيح مجال الاستفادة منها والرجوع إليها باستمرار. وهي ضمن المجلات العلمية المعتمدة من اتحاد الجامعات العربية منذ نوفمبر ٢٠١٩. وحاصلة على معامل التأثير العالمي منذ (٢٠١٥) ومعامل التأثير العربي منذ (٢٠١٦)، ومعتمدة من المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية (٢٠١٨)، ومسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم (٦٨٨٨١٤). وحاصلة على الجائزة العربية للتميز العلمي والتكنولوجي (٢٠١٩).

أعضاء هيئة التحكيم

تتميز دَّوريةُ كَان التَّاريْخية بهيئة تحكيم متخصصة ذات كفاءة من أساتذة الجامعات العربية والخبراء ممَنْ عُرِفوا بطول الباع في مجال الدورية والمجالات ذات العلاقة، وممَنْ أصدروا كتبًا أو أبحاثًا علميًّة متميزة في تخصُّص الدورية. وتعتمد هيئة التحكيم مبدأ الحياد والموضوعية في تحكيم المواد العلمية المرشحة للنشر مع الحرص على خلو الأعمال من التطرف الفكري أو مساسها بمبادئ الأشخاص أو الأنظمة.

- تاريخ الحروب الصليبية.
- تاريخ العصور الوسطى.
- تاريخ الأمراض والأوبئة.
- تاريخ الأدب العربي.
- تاريخ العالم القديم.
- التراجم والأنساب.
- التاريخ المقارن.
- التاريخ الحديث والمعاصر.
- تاريخ الأديان والتصوف.
- تاريخ الكتب والمكتبات.
- منهج البحث التاريخي.
- المستكشفون والرحالة.
- العمارة والعمران والمدن.
- الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.
- الآثار والتراث المادي والشفهي.

المُقيمّون والمُحكّمون

أ.د.	إبراهيم القادري بوتشيش	جامعة مولاي إسماعيل	المغرب
أ.د.	إبراهيم خليل العلاف	جامعة الموصل	العراق
أ.د.	أحمد السري	جامعة صنعاء	اليمن
أ.د.	أحمد عبد الله الحَّسُّو	مركز الحسو للدراسات الكمية والتراثية	بريطانيا
أ.د.	أسامة عبد المجيد العاني	كلية الفارابي الجامعة	العراق
أ.د.	إمام الشافعي محمد حمودي	جامعة الأزهر	مصر
أ.د.	أمين محمد علي الجبر	جامعة ذمار	اليمن
أ.د.	بديع العابد	جامعة الإسراء	الأردن
أ.د.	بشار محمد خليف	مركز حضارات المشرق العربي	سوريا
أ.د.	بوحسون العربي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د.	حبيب البدوي	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د.	الحسن تاوشيخت	المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث	المغرب
أ.د.	حنيفي هلايلي	جامعة جيلالي ليابس	الجزائر
أ.د.	خالد حسين محمود	جامعة عين شمس	مصر
أ.د.	رضوان شافو	جامعة الوادي	الجزائر
أ.د.	سعاد يمينة شبوط	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر
أ.د.	سعيد بن محمد الهاشمي	جامعة السلطان قابوس	سلطنة عمان
أ.د.	شعيب مقنونيف	جامعة " أبوبكر بلقايد " تلمسان	الجزائر
أ.د.	صالح محمد زكي اللهيبي	جامعة الجزيرة	الإمارات
أ.د.	عادل بن يوسف	جامعة صفاقس	تونس
أ.د.	عبد الرحيم مراشدة	جامعة جدارا	الأردن
أ.د.	عبد العزيز رمضان	جامعة الملك خالد	السعودية
أ.د.	عبد القادر سلامي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د.	العربي عقون	جامعة قسنطينة (٢)	الجزائر
أ.د.	عطاء الله أحمد فشار	جامعة زيان عاشور	الجزائر
أ.د.	عماد جاسم حسن الموسوي	جامعة ذي قار	العراق
أ.د.	كرفان محمد أحمد	جامعة دهوك	العراق
أ.د.	لمياء بوقريوة	جامعة الحاج لخضر باتنة	الجزائر
أ.د.	مبارك لمين بن الحسن	جامعة ابن زهر	المغرب
أ.د.	محمد دوكوري	الجامعة الإسلامية	النيجر
أ.د.	مصطفى غطيس	جامعة عبد الملك السعدي	المغرب
أ.د.	وجدان فريق عناد	جامعة بغداد	العراق

" حسب الترتيب الأبجدي

يتم تحديث القائمة حسب مساهمات الأساتذة للمرة الأولى في نشر أبحاثهم على صفحات الدورية، وبعد الاطلاع على السيرة العلمية، ومراعاة الخبرات الأكاديمية والإنتاج الفكري والإشراف على الأطاريح الجامعية ومدى الاستعداد للانضمام إلى فريق عمل الدورية بصفة تطوعية.



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتاز ت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

قَوَاعِدُ النَّشْرِ

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألاّ يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لـم يسـبق نشـرها أو تقـديمها للنشـر في مجلـة إلكترونيـة أو مطبوعة أخرى.

تقبـل البحـوث والدراسـات المنشـورة مـن قبـل في صـورة ورقيـة، ولا تقبـل الأعمـال التـي سـبق نشـرها في صـورة رقميـة: مـدونات/ منتـديات/ مواقـع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلـك المواضيـع القيمـة حسـب تقييم رئيس التحرير.

يجـب أن يتسـم البحث العلمي بـالجَوْدة والأصالـة في موضوعه ومنهجـه وعرضـه، متوافقًا مـع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوهـا لأصـحابها، وتوثيقهـا بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابـة البحـث مـن توثيـق وهوامش ومصـادر ومراجع، مع الالتـزام بعلامـات التـرقيم المتنوعة.

- **عنوان البحث:**

يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشـرين (٢٠) كلمـة، وأن يتناسـب مـع مضمون البحـث، ويـدل عليـه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.

- **نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمـة تبـين آخر درجـة علميـة حصـل عليهـا، واسـم الجامعـة (القسـم/ الكليـة) التـي حصـل منها على الدرجـة العلميـة والسـنة. والوظيفيـة الحاليـة، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التـي يعمـل لـديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنـوان المراسـلة (العنـوان البريـدي)، وأرقـام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).

- **صورة شخصية:**

ترسـل صـورة واضحة لشخص الكاتب لنشـرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

- **ملخص البحث:**

يجـب تقـديم ملخـص للبحـوث والدراسـات باللغـة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة.

البحـوث والدراسـات باللغـة الإنجليزيـة، يرفـق معهـا ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

- **الكلمات المفتاحية:**

الكلمـات التـي تسـتخدم للفهرسـة لا تتجاوز عشـرة كلمـات، يختارهـا الباحث بما يتواكـب مـع مضمون البحـث، وفي حالـة عـدم ذكرهـا، تقـوم هيئـة التحرير باختيارهـا عنـد فهرسـة المقـال وإدراجـه في قواعـد البيانـات بغـرض ظهـور البحـث أثنـاء عمليـة البحـث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

- **مجال البحث:**

الإشـارة إلى مجـال تخصـص البحـث المرسـل "العـام والدقيق".

- **المقدمة:**

تتضـمن المقدمـة بوضـوح دواعـي إجـراء البحـث (الهـدف)، وتسـاؤلات وفرضـيات البحـث، مـع ذكـر الدراسـات السـابقة ذات العلاقـة، وحـدود البحـث الزمانية والمكانية.

- **موضوع البحث:**

يراعـي أن تـتم كتابـة البحـث بلغـة عربيـة سـلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيـدًا عـن الحشـو (تكرار السرد).

- **الجداول والأشكال:**

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحـواه، والإشـارة إليـه في مـتن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

- **الصور التوضيحية:**

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيـث أن وضـع الصـور في ملـف الكتابـة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)

- **خاتمة (خلاصة):**

تحتـوي على عـرض موضـوعي للنتـائج والتوصيات الناتجـة عـن محتـوى البحـث، على أن تكـون مـوجزة بشـكل واضـح، ولا تـأتي مكـررة لمـا سـبق أن تناولـه الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

- **الهوامش:**

يجـب إدراج الهـوامش في شـكل أرقـام متسلسـلة في نهايـة البحـث، مـع مراعـاة أن يذكـر اسـم المصـدر أو المرجـع كـاملاً عنـد الإشـارة إليـه لأول مـرة، فـإذا تكـرر يسـتخدم الاسـم المختصـر، وعلى ذلـك فسـوف يـتم فقـط إدراج المسـتخدم فعـلاً مـن المصـادر والمراجـع في الهـوامش. يمكـن للباحـث إتبـاع أي أسـلوب في توثيـق الحواشـي (الهـوامش) بشـرط التوحيـد في مجمـل الدراسـة، وبإمكـان الباحـث اسـتخدام نمـط American Psychological Association " APA" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشـار إلى المرجـع في المـتن بعـد فقـرة الاقتبـاس مباشـرةً وفـق الترتيـب التـالي: (اسـم عائلـة المؤلـف، سـنة النشـر، رقـم الصـفحة)، على أن تـدون الإحـالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

- **المراجع:**

يجـب أن تكـون ذات علاقـة فعليـة بموضـوع البحـث، وتوضـع في نهايـة البحـث، وتتضـمن قائمـة المراجـع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشـارة إليـه ضـمن البحـث. وتـرتب المراجـع طبقًـا للترتيـب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسـمية.... إلـخ، ويمكـن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

قَوَاعِدُ النَّشَرِ

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفى الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخِية أربع مرات في السنة: (مارس– يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات إلى صفحة الدورية
  https://www.facebook.com/historicalkan
- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير:
  mr.ashraf.salih@gmail.com

مُحْتَوَيَاتُ الْعَدَدِ

كُتَّاب الْعَدَدِ



دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

أشهر بُلدان ومُدُن وواحات إقليمَي طرابلس الغرب وبرقة وأهميتها في إرساء تاريخ ليبيا الإسلامي وصياغته من خلال نُصُوص الجُغْرافِيّين والرَّحّالة المسلمين

(ق١ - ق٧هـ/ ق٧ - ق١٣م)



د. رمضان محمد رمضان الأحمر
عضو هيئة التدريس
قسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة بنغازي – دولة ليبيا

مُلَخّصْ

يقع إقليما طرابلس الغرب وبرقة في شمال القارة الأفريقية بين بِلَدَي مصر وتونس، وتحديدًا في الجزء الأمامي من بلاد المغرب الإسلامي للقادمين من مصر وما وراءها من بلاد المشرق، وهو ما يُعرف اليوم بدولة ليبيا. وهما بموقعهما هذا أصبحا بمثابة الجسر الرابط بين المشرق والمغرب وبَوّابةً للدخول والخروج بينهما. وفي الوقت نفسه أصبحت أراضيهما -بفضل هذا الموقع-مجالاً لمرور الكثير من الجُغرافيين والرّحّالة والمستكشفين، مُشَرّقين ومُغَرّبين، الذين دَوّنوا عنهما في كتبهم ما جادت به قرائحهم وما دَبّجَت به أقلامهم وإن كان في المجمل قليلٌ من كثير. وفي هذا البحث نهدف إلى التعريف بأهم بلدان ومدن وواحات إقليمي طرابلس الغرب وبرقة من خلال تلك المدَوّنات التاريخية والجغرافية لهؤلاء الرّحّالة والجُغرافيين. وبفضل استخدام المنهج التاريخي الاستردادي الذي يعتمد على السرد من ناحية وعلى التحليل والوصف والمقارنة من نواحٍ أخرى، استطاعت هذه الدراسة من التعرف على أشهر بلدان ومدن وواحات إقليمي طرابلس الغرب وبرقة، التي كانت لها بروزًا ومَعَالَم وفَاعليّة واضحة عبر تاريخها الطويل ولاسيّما الإسلامي منه، مما جعل لها أهمية في إرساء تاريخ دولة ليبيا الإسلاميّ والوسيط والحديث وصياغته من خلال ما أورده عنها أولئك الكُتّاب والرّحّالة والجُغرافيّون. ومن خلال الدراسة عرفنا أيضًا أنّ جغرافية مُدُن وبلدان وواحات الإقليمين خلال العصر الإسلامي ووحدتها الطبيعية، مع ما تَوَفّر فيها من طُرُقٍ ومَسَالِكَ ربطت فيما بينها، وسُكّان مُتّفقون منتشرون في الاستيطان فيها، كل ذلك أدّى دوره في المساعدة على رسم الحدود الجغرافية لمُسَمّى ليبيا خلال العصور الحديثة والمعاصرة، وربطه بأرضيتها التاريخية وهويتها الإسلامية التي كانت بالأمس تحت مُسَمّى طرابلس الغرب وبرقة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٧ مارس ٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر: ٢٦ أبريل ٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

طرابلس الغرب؛ برقة؛ فَزّان؛ جبل نفوسة؛ ليبيا

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.230842

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

رمضان محمد رمضان الأحمر. "أشهر بُلدان ومُدُن وواحات إقليمي طرابلس الغرب وبرقة وأهميتها في إرساء تاريخ ليبيا الإسلامي وصياغته من خلال نُصوص الجُغرافيين والرَّحالة المسلمين (ق١-ق٧هـ/ ق٧-ق١٣م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة -العدد الثاني والخمسون؛ يونيو ٢٠٢١. ص ١٤ – ٣٤.

Corresponding author: r.alahmer@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةٌ

إن النّاظرَ والمتطلع لما كتبه المؤرخون العرب المسلمون وأصحاب المؤلفات الْمَصْدَرِيّة في مجملهم عن تاريخ ليبيا الإسلامي (طرابلس الغرب وبرقة وفَزّان)، يجده أقل بكثير مما كتبوه عن البلدين المجاورين لها وهما تونس ومصر، وذلك على الرغم من أهمية الموقع الجغرافي التي تتمتع به ليبيا بأقاليمها الثلاث: طرابلس وبرقة وفَزّان، فهي بحدودها الجغرافية والتاريخية كانت ولازالت تتوسط بين بلادَيْ مِصْرَ وتونس في موقعها وتربط بينهما، فالمسافر بينهما بَرًّا كان لا بُدّ له من عبور الأراضي الليبية والاستراحة والتزود من مُدنها، فكانت ليبيا خلال العصر الإسلامي بمثابة العصب الحيوي الذي يربط بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه. وذلك إلى جانب ربطها فيما بين قارتي أفريقيا وأوروبا عبر إطلالتها الواسعة والمميزة على البحر الأبيض المتوسط بحوالي ٢٠٠٠كم، مما جعلها مليئة بالموانئ والمراسي البحرية التي تورد منها البضائع والسلع التجارية وتصدر في الوقت نفسه الرقيق والذهب والمواد الخام المختلفة... الخ.

وإنّ عدم إسهاب المؤرخون الإسلاميون في الحديث عن تاريخ ليبيا الإسلامي الذي يصل إلى القُصُور في بعض حقبه التاريخية، مَرَدّه في اعتقادنا إلى أنّ طرابلس الغرب وبرقة وفَزّان (ليبيا) خلال العصر الإسلامي لم تقم فيهما دولة مُوَحّدة ذات ثقلٍ سياسي مثل الدول المستقلة التي قامت في مصر، أو تلك التي قامت في إفريقية. فَفِي معظم فترات التاريخ الإسلامي كانت برقة تابعة لمصر من الناحية الإدارية، كما كانت طرابلس تابعة لولاية إفريقية وللدول التي تعاقبت في حكمها، أما فَزّان فكانت متداخلة في تصنيف رقعتها الجغرافية وهويتها، فتارة تندرج مع إقليمي طرابلس الغرب وبرقة، وتارة تدخل ضمن بلاد السّودان[١] في توصيفها.

لكل ذلك لم يَنل تاريخ أقاليم طرابلس وبرقة وفَزّان نصيبًا كبيرًا من اهتمام المؤرخين المسلمين، الذين كانوا يُرَكّزون اهتمامهم -كما هو معروف- على الأحوال السّياسية للدول والإمارات وعلى ما يجري من أحداث في عواصمها، أو في قُصُور الخلفاء والسّلاطين والأمراء، فجاءت لذلك المادة الإخبارية عن تاريخ ليبيا الإسلامي مبعثرة ما بين المصادر التي تتحدث عن التاريخ الإسلامي بصفة عامة، وتلك التي عن تاريخ مصر الإسلامية، والأخرى المهتمة بتاريخ المغرب الإسلامي، وغيرها من كتب الرّحّالة والجُغْرافِيّين الذين عبروا أراضي ليبيا أو الذين نقلوا عنهم.

وكل تلك المصادر -في المجمل العام وفي أسوأ الأحوال-لم تكن تخلُو من ذكرٍ لبعض المدن والقرى والواحات الليبية ممّن كان لها أهمية جغرافية أو أنشطة اقتصادية أو شواهد حضارية معينة لَفَتَتْ نظر هؤلاء الكُتّاب في كتابتهم عن هذا القطر الواسع، فكانت إشاراتهم ولمحاتهم تلك -التي جاءت من بطون كتبهم وبين مضامين موضوعاتهم وكانت في أكثرها تؤرخ لتاريخ المنطقة ككل-كعلامات بارزة يُستضاء منها في كتابة تاريخ ليبيا الإسلامي والوسيط وديباجته في شكل متسلسل وعصري.

وإننا في هذا البحث نهدف إلى التعريف بأهم بلدان ومُدُن وواحات ليبيا التي كان لها بروز خلال عصرها الإسلامي من خلال ما كتبه عنها المؤرخون والجُغرافيون والرّحّالة المسلمون، وما أكمله من بعدهم المحدثون، في تبيان لمواقعها وأهميتها الجغرافية وأهم محطاتها التأسيسية والتاريخية التي شَكّلت في مجموعها وصاغت تاريخ ليبيا الإسلامي والوسيط، وبفضلها وضعت أساسًا لتاريخها الحديث والمعاصر.

أولاً: أشهر البلدان والمُدُن والوَاحات في إقليمي طرابلس الغرب وبرقة

يجب التنويه أننا سنعتمد في عرضنا لِمُدُن الإقليمين وواحاتهما على التقسيم العربي الإسلامي القديم للرقعة الجغرافية التي تحتلها أرض ليبيا اليوم، وهي إلى إقليمين رئيسين؛ إقليم طرابلس الغرب وإقليم برقة، من دون إقليم فَزّان. حيث أنّ العرب في أول عهد الفتوح لم يطلقوا على هذا الإقليم -الذي نعرفه بحدوده اليوم-اسم فَزّان، وأنهم في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي كانوا يقصرون اسم فَزّان على بعض الإقليم دون سائره، ربما مَنْطَقَتَي الشاطئ والآجال منه[٢]. فأول مرة ورد اسم فَزّان في العصور الإسلامية حسب علمنا كان عند اليعقوبي (ت: سنة ٢٨٤هـ/٨٩٧م) الذي أورده كونه جِنسٌ من البشر، حيث ذكر: "وجِنسٌ يُعرف بِفَزّان أخلاطٌ من الناس لهم رئيس يُطَاع فيهم وبَلَدٌ واسع ومدينة عظيمة، وبينهم وبين مزاتة حرب لاقح أبدًا"[٣]. فهو لم يُسَمّ هذه المدينة التي وصفها بأنها "عظيمة"، ولا البلد الذي قال عنه أنه "واسع"، وهذا يعني أنه لا يعطي فَزّان السّعَة التي نعرفها على ذات الإقليم اليوم[٤]. لذلك نجد أغلب مُدُن فَزّان وواحاته المشهورة -خلال العصور الإسلامية الأولى-قد جاءت في كتب الجُغْرافيين والرّحّالة إمّا كونها مُدُن وبُلدان مستقلة بذاتها، وإمّا مضمومة إلى شمالهما ومنسوبة إلى إقليم طرابلس الغرب أو إقليم برقة.

ومن ذلك على سبيل المثال مدينة زَويلة أو أرض زَويلة التي ظَلّت -حسب ما أورده الرّحّالة والجُغرافيّون-حَتّى القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي منفصلة عن فَزّان، بل ينسبها أبو عبيد البكري (ت: سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م) الجُغرافي الأندلسي المشهور إلى إقليم طرابلس جهارةً بقوله: "وزويلة من إطرابلس بين المغرب والقبلة"[٥]. ويظل الحال على ذلك إلى بداية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، ليكتب ياقوت الحموي (ت: سنة ٦٢٦ه/١٢٢٨م) في كتابه معجم البلدان (مادة فَزّان)، التي يذكر فيها أنّ فَزّان ولاية واسعة ومدينتها زَويلة السودان[٦]. ويجرى مجراه في القرن السابع الهجري أيضًا ابن سعيد المغربي (ت: سنة ٦٨٥ه/١٢٨٦م) بذكره: "قاعدة فَزّان مدينة زَويلة"[٧]. أي فإلى قُبَيل زمن ياقوت الحموي كانت زَويلة لا تُنْسَبُ لِفَزّان.

والحال نفسه مع مدينة زَلّة الواقعة في الجنوب اللّيبي وهي من إقليم فَزّان حاليًا، ففي النصف الأول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، يصفها أبي الفدا (ت: سنة ٧٣٢ه/١٣٣١م) بأنها: "بلدة ولها ملك بذاتها وفي السّمت المذكور عنها مدينة فزّان"[٨]. أي زَلّة لا تنتمي لفَزّان زمن أبي الفدا بل هي بلدة قائمة بذاتها، كما أنّ فَزّان عنده ليس بإقليم إنما هو مدينة فقط. وبالتّالي ونتاجًا لما سبق، نجد أنّ أغلب مُدُن إقليم فَزّان التي نعرفها اليوم كانت تتبع إمّا لإقليم طرابلس الغرب أو لإقليم برقة حسبما أوردها الكتاب المسلمون في كتبهم. ولما كانت دراستنا تُغَطّي العصور الإسلامية الأولى لهذه المدن، لذلك سنلتزم بهذا التقسيم الذي حَدّدته لنا المصادر التاريخية والجغرافية لتلك العصور عن الأرض التي تحتلها تسمية ليبيا اليوم، محدّدَةً في إقليمي طرابلس الغرب وبرقة.

١/١-إقليم طرابلس الغرب

إقليم طرابلس الغرب هو بداية الجزء الشرقي من ولاية إفريّقية، التي سَمّاها العرب بالمغرب الأدنى لأنها أقرب إلى بلاد العرب ودار الخلافة بالحجاز والشام، وهي تمتد من طرابلس شرقًا حتى بجاية أو تاهرت غربًا[٩]، وتَعد "مملكة طرابلس أول مُدُنها مما يلي بَرقة"[١٠]. وقد كانت حدود إقليم طرابلس من جهة الغرب على عهد الفينيقيين والرومان والمسلمين هي قابس وشط الجريد[١١] اللّذان يعدان اليوم من أراضي الجمهورية التونسية. ولم تلبث أن اتّسعت حدود الإقليم بعد ذلك وتمدّدت في اتّجاه الغرب إلى ما بعد قابس، وشملت إلى ما وراء سَفَاقُس (صفاقس) غربًا في أوائل الحكم العثماني لليبيا[١٢].

أمّا حُدود الإقليم الشرقية فهي متداخلة مع إقليم برقة بصفتهما أرض واحدة لا فواصل بها، وإن كان قد أقيم بينهما حَدًّا سياسيًا هو أول حد اصطناعي من نوعه، كان في الصّراع السّياسي على مَوَاطن القوى بين اليونانيين في برقة، والفينيقيين في قرطاجة، فيما بين سنتي ٣١٣، و٣١٠ق.م، والذي تَمَخّض عنه اتّفاقهما على سباقٍ للعَدو (الجَري) يقام بين مبعوثين مكلفين منهما، فيما يُعرف بقصة الأخوين فِيلّيني (Phillaeni) الأسطورية[١٣]، وكان نتيجته تحديد منطقة الْعُقَيْلة[١٤] -بقرب عين الكبريت- نقطة تماس بين القوتين، كونها حَدٌّ شَرقيّ لإقليم طرابلس والفاصل بينها وبين إقليم برقة. وفي العصر الحديث سنة ١٩٢٩م بَنَى الإيطاليون قوسًا هناك جعلوا منه حَدًّا رسميًا بين الإقليمين[١٥].

أما خلال العصر الإسلامي-فترة دراستنا- فقد اختلف الجُغْرافيّون والرّحّالة المسلمون ومن حَذا حَذْوَهم في تحديد الحَدّ الشرقي من إقليم طرابلس المتداخل طبيعيًا مع إقليم برقة، فكان منهم من يَتّفق تقريبًا مع الحَدّ القديم -السالف الذكر- ويجعله في ما رَدّت عين أقيان من غربي أجدابية[١٦]. ومنهم من يزيده غربًا إلى ما بعد مدينة سرت عند حَسّان[١٧] أو ما يُعْرَف بقُصُور حَسّان[١٨]، وهناك من جعله عند تَورْغَة[١٩]، وغيرهم جعلوه عند قصر أحمد[٢٠] من ضواحي مدينة مصراتة في ذلك الوقت، وآخرون استطالوا وزادوه إلى سُوَيْقَة ابن مَكْتُود[٢١]، التي كانت أقصى قرية غربية من قُرَى مصراتة[٢٢]، وآثارها اليوم تقع في الجنوب الغربي من مدينة زليتن بنحو ٣٠كم[٢٣].

وهذا الاختلاف في المعلومات فيما بين المؤرخين والجغرافيين والرّحّالة في تحديدهم للحَدّ الشرقي لإقليم طرابلس مع الحَدّ الغربي لإقليم برقة جاء كونه نتيجةً طبيعية لوحدة الأرض والطبيعة والجغرافيا بينهما. ويَرى صاحب كتاب معجم البلدان الليبية بأنّ هناك خَلْطًا كان قد وَقَعَ فيه بعض أصحاب كتب التاريخ والجغرافيا والرّحلات في نسبهم للأراضي التي تقع غرب منطقة قصة الأخوين فيلّيني (العُقَيلة) وجعلها ضمن إقليم برقة، وكان تعليله في ذلك في أنّ الجُغْرافيين والرّحّالة عندما كانوا يخرجون من عمران منطقة طرابلس ويدخلون الصحراء التي تُوصلهم إلى إقليم برقة، يزعمون أنّ هذه الصحراء تابعة لبَرقة -لأنها قليلة العمران منذ القدم- فَيُضيفون بذلك أراضي إلى إقليم برقة لم تكن أبدًا منها، وهي في الأصل من صميم الأراضي الطّرابلسيّة[٢٤].

ومهما يكن من الأمر، فإننا نُنَبّه القارئ بأننا -هنا- عندما نأخذ بأحد حُدُود الجُغرافيين والرّحّالة المسلمين المذكورة آنفًا -

سواء قُصُور حَسّان أو تاورغاء أو قصر أحمد أو سُوَيْقَة ابن مَكْتُود[٢٥]- ونعتمدها ونجعلها حَدًا لإقليم طرابلس الشرقي من جهة إقليم برقة، فإنّنا بذلك نسلخ بعض المدن والواحات المشهورة المتعارف عليها بأنها من ضمن الرقعة الجغرافية لإقليم طرابلس حسب الحَدّ بين الإقليمين في العصور القديمة والمعاصرة، ونضيفها إلى إقليم برقة وذلك حسب الحَدّ بينهما في العصر الإسلامي كما أسلفنا، وهو ما يَتَمَاشَى مع فترتنا الزمنية التي تُغَطّيها هذه الدراسة.

وبالتالي ستكون أشهر بلدان ومدن وواحات إقليم طرابلس الغرب خلال العصر الإسلامي على النّحْوِ الآتي:

(١/١) ١-طرابلس المدينة:

طرابلس المدينة هي عاصمة إقليم طرابلس وأهم مُدُنه وبه تَسَمَّى خلال العصور الإسلامية[٢٦]. وهي مدينة أزليّة تقع على ساحل البحر[٢٧] (الأبيض المتوسط)، لم يُعْرَف تاريخ إنشائها بالضبط، وإن قيل بأنها بُنِيَت قبل الهجرة بألف وثلاثمائة سنة، من قبل مجيء الفينيقيين إليها، ولم يُعْرَف أيضًا من الذي بناها[٢٨]. احتلها الفينيقيّون تقريبًا سنة ٧٩٥ق.م، زمن انشغال الليبيين بالحرب مع المصريين. وهي إحدى المراكز الفينيقية الأربعة التي أنشأوها على السّاحل الأفريقي وهي: قرطاجنة، وصبراته، وأُويا، ولبتس مانيا (لبدة)[٢٩]. أطلق عليها الفينيقيّون اسم وايات - أويات (Viaiat). ولكن الرّومان حَرّفوا هذا الاسم وسَمّوها اوئيا - أويا (Oea). واعْتَقَدَ اليونانيّون بأنه لا يوجد على السّاحل الليبي غير طرابلس ولبدة وصبراته، فَسَمّوها تريبولي (Tripoli)[٣٠]، أو تريبوليس (Tripois) بمعنى الْمُدُن الثلاث، وبالأحرى إقليم المدن الثلاث (تريبوليتانيا - Tripolitania)، ولكن الاسم لم يلبث أن اقتصر فيما بعد على مدينة أويات، فَحَمَلَتْ اسم تريبوليس التي خُفِّفَت في الأعجمية إلى تريبولي، وفي العربية إلى طرابلس.[٣١]

وقد أطلق عليها العرب الفاتحون -في بداية أمرهم- اسم "أطرابلس" برسم الألف في أولها، وهو ما جاء واضحًا في الجواب الذي أرسله عمرو بن العاص، إلى الخليفة عمر بن الخطاب بعد فَتْحِهِ لها[٣٢]. وقد لفظها معظم الجُغْرافيين والمؤرخين العرب القُدَامى "أطرابلس" في كِتَابَاتِهم[٣٣]. وإن كان اخْتُلِفَ بينها وبين طرابلس الشام أَيُّهُمَا تُكتب بالألف في بداية الكلمة، وأَيُّهُمَا من غير الألف. فمنهم من يرى بأنّ الألف في "أطرابلس" هي مخصصة لطرابلس الغرب[٣٤]، ومنهم من يرى العكس في ذلك ويعتبرها مخصوصة لطرابلس الشام[٣٥]. وإنْ كان من يريد تميزها عن أطرابلس الشام، يُضيف إليها لفظة "الغرب" كما فعل ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان[٣٦]. ولم تلبث الألسن أنْ حذفت الألف من الاثنتين، ومُيِّزَت بعد ذلك طرابلس الغرب بإضافة الغرب إليها زمن الأتراك العثمانيين، الذين سَيْطروا على الاثنتين، فكان لزامٌ عليهم التمييز بينهما، فأصبح يُطْلَق على طرابلس ليبيا "طرابلس الغرب"[٣٧].

وقد اتّصَفَتْ مدينة طرابلس في العصر الإسلامي بأنها مدينة كبيرة وعامرة، مُكتظة بالسُّكّان ومَحَطّ رحال تجار بلاد الرّوم والأندلس[٣٨]. كما اتّسمت بالنظافة والبهاء وحسن التنسيق والبناء[٣٩]. وكانت مُحَصّنة جيدًا ومُسَوّرة بسورٍ حجري متين به أربعة أبواب: باب البحر، وباب الشرق، وباب الجوف، وباب الغرب[٤٠].كما أنها عُرِفَت بالمدينة البيضاء، ربما لأنها بُنِيَت بأحجارٍ بيضاء[٤١]. وأصدق من عبّر عن بياضها، الرّحّالة التّجاني (ت: بعد سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م) في رحلته المشهورة ذاهبًا للحَجّ، بقوله: "ولَمّا تَوَجّهنا إلى طرابلس وأشرفنا عليها كاد بياضها مع شعاع الشمس يعشي الأبصار، فَعَرَفْتُ صدق تسميتهم لها بالمدينة البيضاء"[٤٢].

وقد نالت طرابلس أهميتها التاريخية في المنطقة لما تجمعت لها من مزايا وحسنات متعددة، منها موقعها الجغرافي المطل على البحر من ناحية، ومن ناحية أخرى ارتباطها بأغلب مُدُن الإقليمين والأقاليم المجاورة لها، فكانت دائمًا مجمعًا للقوافل والركاب الْمُشَرّقين والْمُغَرّبين سواء طلبًا للتجارة أو الحج أو العلم أو غيره، وذلك على مَرّ الأيام والسنين بشهادة الرّحّالة والجُغرافيين الذين أثنوا على فضائلها وفضائل أهلها بما تجمّع لكليهما من مكارم الأخلاق وجمال الصفات، ويكفينا في ذلك شهادة ابن حوقل في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي إذ قال عنها:

وفيها "... مراكب تحطّ ليلاً ونهارًا، وترد بالتجارة على مَرّ الأوقات والساعات صباحًا ومساءً من بلد الروم وأرض المغرب بضروب الأمتعة والمطاعم. وأهلها قومٌ مرموقون من بين من جاورهم بنظافة الأعراض والثياب والأحوال، متميزون بالتجمّل في اللّباس وحسن الصور والقصد في المعاش، إلى مروآت ظاهرة وعِشرة حسنة ورحمة مستفاضة ونيّات جميلة، إلى مراءٍ لا يفتر وعقول مستوية وصِحّة نِيّةٍ ومعاملة محمودة ومذهبٍ في طاعة السلطان سديد، ورباطاتٍ كثيرة ومَحَبّة للغريب أثيرة دائعة. ولهم في الخير مَذهبٌ من طريق العصبية لا يُدانيهم أهل بلد..."[٤٣].

وهذا إلى جانب ما أتحفها به غيره من الرحّالة والمؤرخين والجُغرافيين من جميل الأوصاف التي لا يسعنا المجال هنا لذكرها، والتي تشهد لها بالعراقة والازدهار والبُروز ضمن الْمُدُن المهمة التي قامت على السّاحل الشمالي من قارة أفريقيا. وكانت دائمًا ما تَبْرز فيها ملامح "الدولة المدينة" التي نجدها منتشرة في كثير من بلدان البحر الأبيض المتوسط، وازدياد هذه الملامح رسوخًا ووضوحًا عبر المراحل التاريخية التي مَرّت بها المنطقة، بحيث يُصبح تاريخ المدينة تاريخًا للإقليم بأسره، أو البلاد بأسرها[٤٤]. فلا غرو أنْ أطلق العثمانيون في العصر الحديث على أرض ليبيا ككل اسم ولاية طرابلس، أو إيالة طرابلس الغرب.[٤٥]

(ا/ا) ٢-جبل نفوسة[٤٦]:

هو سلسلة جبال صَخرية تمتد من الغرب إلى الشّرق، وهو جزء من سلسلة جبال أطلس، التي تبتدئ من بحر الظلمات، وتمر بمراكش والجزائر وتونس وطرابلس، وتنتهي عند جبال قُمَاطَة[٤٧]. وهي الهضاب التي تُسَمّى "النّقّازة" غربي مدينة الخُمس الليبية[٤٨]. وهذه السّلسلة بذلك تمتد من المغرب الأقصى، فَتَمَرّ بالمغربين الأوسط والأدنى. وهذا ما أشار إليه البكري في حديثه عن جبال أطلس بقوله: "إنه أكبر جبال الدنيا، وهو يتصل بجبل أوراس وبجبل نفوسة المجاور لطرابلس"[٤٩]. ولهذه السّلسلة الجبلية تسميات مَحليّة في كثير من أقسامها عبر البلدان التي تمر بها، ففي المغرب الأقصى يُطْلَق عليها "جبال درن"، وفي المغرب الأوسط يُطْلَق عليها "جبال الأوراس"، أما في تونس فَتُعْرَف بـ "جبل دُمّر"، وعندما تصل إلى إقليم طرابلس الغرب يُطْلَق عليها "جبل نفوسة"[٥٠].

ويمتد جبل نفوسة إلى مسافة تبلغ حوالي ٢٠٠كم في الجزء الأساسي لسلسلة من الجبال المتقاطعة، حيث تمسّ نهاياته قابس[٥١]، ويبلغ عمقه حوالي ٢٠كم، وبذلك تصل مساحته إلى حوالي ٤٠٠٠كم٢[٥٢]. وهو يحيط بمنطقة طرابلس السّاحلية كالهلال (خريطة رقم ١)، حيث يفصل بينها وبين الصّحراء في فزّان التي تُمثّل الحدّ الجنوبي لجبل نفوسة. لذلك كان اتّصال فزّان ببَرقة وتونس والجزائر أسهل من اتّصالها بطرابلس؛ نظرًا لموقع جبل نفوسة الجُغْرافي. الذي بطبيعة الحال بشكله هذا قد ضَيّق على إقليم طرابلس، لدرجة أنّ كثيرًا من الرّحّالة والجُغْرافيين العرب لم يجعلوه كيانًا خاصًا، بل اعتبروه أول مدينة بولاية إفريقية. كما أنّه لوضعية هذه اصْطُلِحَ على تسمية الأقاليم السّاحلية من طرابلس بـ "الجفارة"، والاقاليم الداخلية المرتفعة بـ "الجبل"، والهضبة القاسية التي تنحدر بالتّدريج إلى الصّحراء بـ "الظّهر"[٥٣].

وقيل إن جبل نفوسة سُمِّيَ بهذا الاسم نسبة إلى نفوسة أكبر القبائل البربرية[٥٤] القاطنة فيه وأشهرها[٥٥]. ولازالت تسميته هذه متداولة إلى يومنا هذا. وهو يحتوي على الكثير من المدُن والقُرَى والبَلْدات المختلفة، من أهمها مدينة "شروس"[٥٦]، أو "سروس"[٥٧]، حسب رسم الكلمة عند الجغرافيين. وهي تقع في وسط الجبل[٥٨]، كما أنها عاصمته ومدينته الأولى. وفي محيطها أكثر من ثلاثمائة قرية، ولذلك سُمّيَت بـ"أُمّ قُرَى جبل نفوسة"[٥٩]. وبعدها تأتي "جادوا"[٦٠]، وتُعرف اليوم بـ "جادو" من غير ألف في آخرها. وهي تقع على حافة الجبل[٦١]، وكانت عاصمة الجهة الشرقية منه[٦٢]. لذا قال عنها ابن حوقل: "بالجبل مدينة ثانية تُعرف بجادوا"[٦٣].

هذا إلى جانب المدُن والقُرَى الأخرى المتفاوتة في الأحجام والأهمية، والمتناثرة على شمال الجبل وجنوبه، وشرقه وغربه، وعلى سفوحه وتلاله، وهضابه وسهوله، ولاسيّما حول مصادر المياه. فَعَلَى ضِفّة وادي لالوت (نالوت حاليًا) تقع مدينة "تيغيت"، التي تُعرف حاليا باسم "أولاد محمود"، وإلى الشمال من "لالوت"، وعلى بعد عشرين كيلو مترًا تقع بلدة "تاغرويت" المشهورة بعيونها وغزارة مياها. وإلى الجنوب منها تقع قرية "تكوت" المعروفة بكثرة نخيلها، وإلى الشرق من "تيغيت"، تنتشر مجموعة من القرى أشهرها قديما "تالات"، ومنها إلى بلدة تسمى "تيركت". أما وادي "كرّاين"، الذي يتفرع إلى فرعين عند عين جارية تسمى "عين الثرارة"، بالقرب من مدينة "كباو"، تقع على ضفافه مجموعة من القرى والمُدن مثل مدينة "إبناين"، و"القلعة"، و"تلات"، و"بودير"، و"نململ". وغير بعيد عن هذه القرى تقع مدينة "تمزين"، ومعناها مدينة الشعير[٦٤].

وإلى الشّرق من "كباو" تقع بلدة "فرسطا"، وفي شمالها تقع بلدة "قنطرارة"، المسماة حاليًا "تيجي". وعلى الضفة الشرقية لوادي شروس تقع بلدة "الجزيرة"، وإلى الغرب منها نجد مجموعة من القرى المشهورة في الجبل مثل: "دركل"، و"بغطورة"، و"دجي"، و"تنزغت"، و"جريجن"، و"ويغو"، و"تمنكرت"، و"زغرارة" وغيرها. وغير بعيد عن "ويغو" تقع مدينة "تندميرة"، وإلى الغرب منها تقع مدينة "تملوشايت". وتقع على وادي "أمسين"، ووادي "جلازن" مجموعة من القرى منها "فساطو". وعلى ضفاف وادي "الزرقاء" تقع "الجماري"، و"ندباس"، و"مزغورة"، و"ويفات"، و"توكيت"، المعروفة كذلك باسم "تمزدة"، وقرية "إرجان". وإلى الشمال من هذه المدينة

وعلى أرباض مدينة جادو تقع قُرَى "إجناون"، و"تموقط"، و"طرميسة". وعلى ضفاف وادي "الآخرة" الذي ينحدر هو الآخر من الجنوب إلى الشمال تنتشر مجموعة من القُرى مثل: "تاردية"، و"سنتوت"، و"ميري"، و"أدرف"، و"تغرمين" التي تُسَمّى اليوم "الزنتان"[٦٥].

وآخر شيء يجب أنْ نعرفه هنا عن جبل نفوسة، هو أنّ سُكّانه مسلمون كان معظمهم على المذهب الإباضي[٦٦]، الذي يَعدّه بعض الكُتّاب والمؤرخين القُدَامى بأنه نِحْلة من نِحَل الخوارج. ومنهم على سبيل المثال لا الحصر، الشّريف الإدريسي (ت: سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م)، في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بقوله: "وأهل جبل نفوسة كلهم إسلام لكنهم خوارج نُكّار ..."[٦٧]. في حين أنّ كل مُؤرّخي الإباضية القُدَامى والمحدثين ينفون عن أنفسهم صفة الخارجية، ويرون أنّ مذهبهم مخالف عقائديًا وفقهيًا للمذهب الخارجي. بل إنهم يرون أنفسهم أنهم يشكلون المذهب الخامس بين مذاهب أهل السّنة، ويصرّون في كل مناسبة على أنّ رميهم بالخارجية إنما هو خَطأٌ تاريخي عظيم ارتُكِبَ بحقهم[٦٨]. ويبدو أنّ عددًا من المؤرخين القُدَامى والباحثين المحدثين يوافقون الإباضية في نظرتهم تلك عن أنفسهم، بناءً على ما لاحظوه من الاعتدال الذي صبغ مذهبهم في النّواحي العقائدية والفقهية والسياسية[٦٩].

وقد نال جبل نفوسة مكانته السياسية والدينية بالخصوص لدى الإباضية، إذ أصبح قلعةً لإباضية العالم الإسلامي يحجون إليه لطلب العلم وغيره، ولا سيّما بعد زوال الدولة الرستمية سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م، وسقوط عاصمتها تاهرت[٧٠] في أيدي الفاطميين، وهي عاصمة الإباضية وتمركزها الرئيس، فبهذا يكون الإباضية قد طَووا إمامة الظهور مؤقتًا لينتقلوا إلى إمامة الكتمان. حيث أصبحوا من غير كيان سياسي، مما جعلهم يتفرقون في وَارْجَلان[٧١] ونواحيها، وفي جبل نفوسة، وبلاد الجريد[٧٢]، وجبل أوراس وغيرها من المناطق، وأصبحت الرابطة المذهبية والثقافية هي الرابط الوحيد بين التجمعات الإباضية في كل مكان، وإن ظلّ جبل نفوسة معقلاً رئيسًا لهم، حيث تمكن أهل الدعوة الإباضية فيه من الحفاظ على استقلاليتهم مُدّة طويلة من الزمن، ولهم كان الفضل في الحفاظ على استمرارية المذهب الإباضي بعد سقوط إمامة الظهور وإحياء الإمامة بعد اندثارها[٧٣]. فكان الجبل دائمًا ما يَعُجّ بالطلبة القادمين من مختلف مواطن الإباضية في بلاد المغرب وغيره. وإذا كانت تاهرت معدن الدواب والكراع على حد تعبير الجُغرافيين، فإن جبل نفوسة كان معدن العلماء ورجال الفكر الأباضي[٧٤].

(أ/أ) ٣-غدامس:

بعين معجمة مضمومة أو مفتوحة، وبدال مهملة، أو ذال معجمة[٧٥]. ويُقال لها "ردامس"، وكانت تُسَمّى قديمًا "سيداموس". وهي "مدينة لطيفة قديمة أزليّة"[٧٦]، بربرية لا يُعْرَف تاريخ تأسيسها بالتحديد. احتلها القرطاجيّون سنة ٧٩٥ق.م، واحتلها الرومان سنة ١٩ق.م، وفتحها العرب بقيادة عقبة بن نافع سنة ٤٢هـ/٦٦٢م. وهي واحة من واحات طرابلس الصّحْراوية، ومركز من أقدم مراكز الحضارة فيها، تبعد عنها إلى الجنوب الغربي بنحو ٤٩٥كم، وجنوبي نالوت بنحو ٣١٨كم[٧٧].

كانت لها علاقات وثيقة جدًا بجبل نفوسة، حيث دخلها المذهب الإباضي حينما دخل إفريقية في أوائل القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، وكانت في نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، إباضيّة بالكامل[٧٨]. ولم يلبث أنْ تَقَلّص منها في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وخَلَفَه مذهب الإمام مالك (ت: سنة ١٧٩هـ/٧٩٥م)، فأصبح سُكّانها يتعبدون بالمذهبين، وإنْ كان الغالب مذهب مالك[٧٩].

ولَمّا كانت غدامس تقع في الجنوب الغربي من طرابلس على طريق مطروقة، فمنها كان يُدْخَلُ إلى بلاد السّودان[٨٠]، لذلك نالت أهميتها كونها مركزًا تجاريًّا ومُلْتَقَىً للعديد من الطّرق التّجارية، حيث تصلها القوافل التّجارية قادمة من أربعة اتجاهات عبر مَفَازات الصّحراء الكبرى[٨١]. فهي مدينة كبيرة كثيرة السّكان، وتُمَثّل مكانًا للراحة من مَشَاق السّفر للحُجّاج والتّجّار المنطلقين من السّودان إلى الإسكندريّة والقاهرة، حيث إنها تُعْتَبر مثل الميناء للتجّار والحُجّاج الذين يُريدون الدخول إلى الصّحراء والعودة منها من عند بلاد السّودان[٨٢].

كما نالت غدامس مكانتها التّجاريّة بفضل سُكّانها الذين برعوا في التّجارة مع طرابلس والسّودان ومصر، وكانوا يتحدثون العربية والبربرية على السّوَاء، بل إنّ بعضهم كان يتكلم السّودانية بفضل رحلاتهم التّجاريّة الكثيرة صوب بلاد السّودان[٨٣]، وقيل عنهم إنهم أول من أَحْيَا التّجارة السّودانية مع أهل تونس، ودخلوا ممالك السّودان وانتشروا في أصقاعه وتَسَلّطوا على تجارته وربحوا الأرباح الباهظة[٨٤]، لذلك اشتهروا بِالْغِنى من وراء تجارتهم مع بلاد السّودان[٨٥].

وقد اشتهرت غدامس خلال العصور الإسلامية بإنتاج الجلود الغُدَامِسِيّة، وهي من أجود أنواع الجلود دباغةً في ذلك الوقت، لا شيء يفوقها في الجودة، كأنها ثياب الخَزّ في النعومة

والإشراق[٨٦]. ومن معالم غدامس الشهيرة منذ عصورها السّحيقة إلى عصرنا الحالي عين الماء التي تقع في وسطها، وهي عينٌ أزلية قديمة، يَفيض الماء منها باستمرار، ويقسمه أهل البلد قسمة معلومة، فإن أخذ أحدٌ أكثر من قدره غاض ماؤها، لذلك هم حريصون على ألّا يُمَكّنوا أحدًا من ذلك خوفًا من نضوبها[٨٧]. وتُسَمّى اليوم بـ"عين الفرس"[٨٨].

والبُعد الحضاري لواحة غدامس قد يصل إلى عشرة آلاف سنة قبل الميلاد أو أكثر فلا أحد يدري، ولكن أغلب الظّنّ أنه كان هناك تاريخ ما قبل التاريخ فيها، حيث عثر على آثار عصر حَجَري من سكاكين وخناجر من الصوان...الخ. وقد تعاقب عليها الغُزاة في التاريخ كما أسلفنا الذكر من القرطاجيين والرومان والوندال والبيزنطيّين، ومازالت بها إلى الآن آثار رومانية، وطرز العمارة البيزنطية واضحة في طابع مبانيها[٨٩]. وبعد الفتح العربي جاءها الأتراك العثمانيون في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، ثم احتلها الطليان سنة ١٩٢٤م من ضمن الغزو الأوروبي الحديث للقارة الأفريقية، وانتهت قصة استعمار غدامس في يناير ١٩٤٣م، حين أغارت قاذفات القنابل الفرنسية على مطارات إيطاليا وثكناتها في الواحة في الحرب العالمية الثانية، ونزل الستار على التاريخ الطويل الدامي الذي مَرّ بها[٩٠].

(١/١) ٤-زَويلَة:

تقع مدينة زَويلَة في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بنحو ٧٧٠كم[٩١]. ويجعلها البكري جُغرافياً -خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي- تتبع لإقليم طرابلس الغرب "ما بين المغرب والقبلة."[٩٢] وكما يُفْهَمُ من كلامه فإنها تُعتبر الحَدُّ الجنوبي لإقليم طرابلس وآخره من جهتها، فهي: "أول حَدّ بلاد السودان" كما ذكر.[٩٣]

وزَويلَة مدينة غير مُسَوّرة في وسط الصحراء، بها جامع وحَمّام وأسواق عامرة.[٩٤] فتحها عقبة ابن نافع سنة ٢٢هـ/٦٤٢م، ونقض أهلها العهد، فأعاد عقبة فتحها من جديد سنة ٤٩هـ/٦٦٩م[٩٥]. وقد وصل إليها الْمَدّ الإباضي فأصبحت منذ القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، حصنًا إباضيًّا[٩٦]، الأمر الذي جعل اليعقوبي يقول عن أهلها في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، "وهم قومٌ مسلمون إباضية كلهم يحجّون البيت الحرام..."[٩٧].

كما عُرِفَت مدينة زَويلة في التاريخ باسم "زَويلة ابن خَطّاب"[٩٨]، نسبةً إلى بَني خَطّاب الذين مَلَكوا المنطقة بما فيها فَزّان منذ القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي -وتحديدًا منذ سنة ٣٠٦هـ/٩١٦م[٩٩]-وأقاموا فيها مُلْكًا توارثوه سلفًا عن خلف، استمرّ إلى سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م، أو سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م، لذلك نُسِبَت المدينة إليهم وسُمّيَت "زَويلة بَني خَطّاب"[١٠٠]. كما يُقال لها أيضًا "زَويلة السّودان"[١٠١]، تمييزًا لها عن زويلة إفريقية التي بَنَاها الخليفة الفاطمي الأول عُبَيْد الله المهدي (٢٩٧-٣٢٢هـ/٩٠٩-٩٣٣م) بالقرب من تونس[١٠٢].

وقد نالت زَويلة أهميتها التاريخية والجغرافية في المنطقة كونها مَحَطّة للتّجارة السّودانية تجتمع على أرضها القوافل التّجارية الصّادرة والواردة من بلاد السّودان إلى جميع جهات ولاية إفريقية[١٠٣]، ومصر[١٠٤]، وغيرها من البلاد. فكانت مسيطرة على الطّرق العابرة للصحراء من جهتها والتي كانت هي أحد أهم ملتقياتها[١٠٥]، حيث كان فيها خلال العصور الإسلامية الأولى "أسواقًا يجتمع بها الرّفاق من كل جهةٍ منها، ومنها يَفترق قاصدهم وتَتَشَعّب طُرُقُهُم"[١٠٦].

٢/١-إقليم بَرْقَة

إقليم برقة هو أول بلاد المغرب الإسلامي للقادم من المشرق إلى المغرب، وهو بمثابة بوابة الدخول إلى بلاد المغرب، و"أوّل منبر يَنزله القادم من بلاد مصر إلى القيروان"[١٠٧]. وهو في الوقت نفسه الْمُكَمّل الطبيعي والجُغرافي لإقليم طرابلس الغرب للقادم من المغرب إلى المشرق، ويبتدئ إقليم برقة غربًا من حدوده مع إقليم طرابلس -كما أسلفنا الذكر- عند قُصُور حَسّان أو تاورغاء أو قصر أحمد أو سُوَيقة ابن مَكْتُود، ويمتد شرقًا إلى مِصر بالقرب من الإسكندرية أو عند تُخُومها (حدودها)[١٠٨].

وحُدود برقة هذه جعلت منها أرضًا مُتّسِعَةً جِدًّا، لذلك جرى أهلها على تقسيمها إلى عِدّة أقسام يعرفونها، ويرجع الفضل إلى أبي سالم العياشي (ت: سنة ١٠٩٠هـ/١٦٧٩م) الذي أورد لنا هذا التقسيم في كتابه عن رحلاته إلى الحَجّ ومروره عبر أراضي برقة ومُدُنِها، ومن العياشي تناقل هذا التقسيم من جاء بعده من الرّحّالة في كتبهم، وقد جاء فيه أنّ:

"أرض برقة منقسمة في عُرْفِ أهلها على أقسام؛ أولها من حَسّان إلى ما وراء الأحمر[١٠٩] بيومين يُسَمّى سُرْت، ومن هناك إلى قرب الْمُنعِم[١١٠] يُسَمّى برقة البيضاء، ومن هناك إلى سُلُوك[١١١] يُسَمّى برقة الحمراء[١١٢]، ومنه إلى التّميمي[١١٣] يُسَمّى الجبل الأخضر[١١٤]، ومنه إلى العَقَبَة الكبرى[١١٥] يُسَمّى البُطْنَان[١١٦]، ومن العَقَبَة الكبرى إلى الصغرى يُسَمّى العِقَاب[١١٧]، ومن العَقَبَة الصغرى إلى الإسكندرية يُسَمّى العَقَبَة الصغرى"[١١٨].

وتقسيم العياشي هذا عن أجزاء أرض برقة ليس الأول من نوعه، فقد سبقه تقسيم آخر ذكره أبو عبد الله الْعَبْدَري (ت: بعد سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م)، كان متعارفٌ عليه في اصطلاح أهل زمانه[١١٩]، وإنْ كُنّا لن نأخذ به لمخالفته للحدود التي أقررناها للإقليم فيما سبق، والتي كان عليها شبه اتفاق من أغلب الرّحالة والجُغرافيين المسلمين خلال فترة دراستنا.

وخلاصة مما سبق، فإنّ أشهر مُدُن إقليم برقة وواحاته التي تقع ضمن حدوده سالفة الذكر هي:

(٢/١) ١-بَرْقَة المدينة:

برقـة المدينـة هـي إحـدى الْمُـدُن الخمـس الـتي أسّسَـها اليونانيون في المنطقة، والتي كان إقليم برقة يُسَمّى من أجله "أنطـابلس"، أو "بنطـابوليس" أو "بنتـابوليس"؛ لأنّ أنطـابلس هـي تحريف لكلمة بنتابوليس (Pentapolis)، التي تعني اتحاد الْمُـدُن الخمـس[١٢٠]. وهــذه المــدن هــي: يوهســبيريدس (برنيق=بنغـازي)، وتـوخيرا (تـوكرة)، وبرقـة (المـرج)، وأبولونيـا (سوسـة)، وقـوريني (شَـحّات)[١٢١]. وأول اسـم عُـرِفَ لمدينـة برقـة اليونانية هو اسم باركي (Barke) الذي ذكره المؤرخ الإغريقي هيرودوتوس Herodotus (ت: حوالي سنة ٤٢٠ق.م) في القرن الخامس قبل الميلاد، عندما كان يتحدث عـن وقائع في الإقليم تعود إلى حوالي عام ٥١٥ق.م[١٢٢]. وبعد الفتح الإسلامي للمنطقة حوالي سنة ٢٢هـ/٦٤٢م، سَمّاها العرب المسلمون بَرقة تعريباً لاسمها الأعجمي باركي، ولم يلبث اسم برقة أنْ تَعَمّمَ وأصبح يُطلق على كامل الإقليم الذي كان يُعرف قديماً باسم قورينائية (كيرينـايكي)، نسـبةً إلى مدينـة قـوريني (كيريـني)[١٢٣]. وقيـل إنّ العرب المسلمين الفاتحين أبدلوا اسم أرض أنطابلس باسم بَرقة لكثرة حجارتها المختلطة بالرّمال[١٢٤].

ومهمـا يكـن مـن أمـر التّسـمية، فعنـد مَـجيء المسـلمين للمغـرب كانـت برقـة هـي عاصـمة الإقلـيم وأهـم مُدُنـه، ومنهـا اسْـتَمَدّ اسـمه. وقـد وصـفها ابـن حوقـل في القـرن الرابـع الهجري/العاشر الميلادي، بأنها: "مدينة وسطة ليست بالكبيرة الفخمـة ولا بالصـغيرة الزَّرِيَّـة، ولهـا كُـوَرٌ عـامرة وغـامرة"[١٢٥]. في حـين يراهـا معاصـره المقـدسي بأنهـا: "قصـبة جليلـة عـامرة نفيسة"[١٢٦]. وفي القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، ذكـر الإدريسي بأنهـا: "مدينـة متوسـطة المقـدار ليسـت بكبـيرة القطر ولا بصغيرة"[١٢٧]. في حين عَرّفَها صاحب كتاب الاستبصار بأنها: "مدينة كبيرة أزلية قديمة، فيها آثار كثيرة للأُوَل، وهي في صحراء حمراء التُّربة والمباني..."[١٢٨].

ومنذ النصف الثاني من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، تَبَدّلَ اسم برقة وأصبحت تُسَمّى بـ"الْمَرْج". وأول من أشار إلى ذلك من الجُغرافيين -على حسب علمنا- هو ابن سعيد المغربي بقوله: "... مدينة برقة التي كانت قاعد البلاد البَرْقِيّة... ويُقَال لها اليوم مدينة الْمَرْج"[١٢٩]. ويحذو حَذْوَهُ ابن عبد الظاهر المتـوفي بَعْـدَهُ بِسَـبْعِ سـنوات (٦٩٢هـ/١٢٩٢م) عنـد حديثـه عـن إقليم برقة، قائلاً: "وهذه بَرقة بلادٌ عظيمة بها عِدّة مُدُن...وأكبر مُـدُنها الْمَـرْج"[١٣٠]. ويبـدو أنهـا عُرِفـت بهـذا الاسـم لاتّسـاعها وخُصُـوبة أرضـها وكـثرة مَراعيهـا[١٣١]، فـالمرج لُغَـةً يعـني: "أرضٌ واسعةٌ فيها نَبْتٌ كثيرٌ تَمْرُجُ فيها الدّواب"[١٣٢]. لذلك وصفها اليعقـوبي بقولـه: "ومدينـة برقـة في مَـرْجٍ واسـعٍ"[١٣٣]. وكـذلك المهلبي العزيزي (ت: سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م) يصفها بأنها "مَرْجٌ أَفْيَحُ وَاسِعٌ"[١٣٤].

وفعلاً، فقد اشتهرت برقة عبر تاريخها الطويل منذ القدم مرورًا بالعصر الإسلامي ثم الحديث إلى وقتنا الحاضر، بأنها دائمة الرخـاء غَنِيّـة بالخـير كثـيرة الخصـب والفواكـه والعُيُـون والميـاه الجارية، تسرح فيها السّائمة (هي الإبل والماشية التي تُرْسَل للرعي ولا تُعْلَف) وتنمى على مراعيها، وكان أكثر ذبائح أهل مصر منها[١٣٥].

وقد زاد من أهمية مدينة برقة في الإقليم والمنطقة برمتها موقعها الجغرافي الفريد، فهي تبعد عن البحر المتوسط بحوالي ستة أميال[١٣٦] (١١,٣١٠كم تقريبًا)[١٣٧]، ويطوف بها من كل جانب بادية آهلة بطوائف السّكّان، وهي بَرّيّة بحريّة جبليّة[١٣٨]. وعلى الجبل أو سلسلة الجبال التي تحيط بها توجد عِدّة قُرَى وضِيَاع صغيرة. وهذا الجبل هو الذي يُعْرَف اليوم بالجبل الأخضر، والذي يمتدّ في سهول برقة الشمالية الساحلية من الغرب إلى الشرق على مسافة ٤٠٠كم تقريبًا، وهو الغابة الوحيدة في دولة ليبيا كلها على حسب ما ذكر الطّاهر أحمد الزّاوي[١٣٩] (١٨٩٠-١٩٨٦م).

وممّـا اجتمـع بهـا مـن أهميـة جغرافيـة وثـروات طبيعيـة وإمكانيـات بشريـة كـل ذلـك جعـل منهـا مَحَطّـةً مشـهورة مـن محطّات الشمال الأفريقي، التي لا غِنَى للمسافرين عبر المنطقة -بأغراضهم المختلفة- بالنّزول فيها، فـ"هي أَوّل مَنبر ينزله القادم مـن مصـر إلى القـيروان، وبهـا مـن التُّجّـار وكـثرة الغُـرَباء في كـل وقـت مـا لا ينقطـع طُلّابًا لما فيها مـن التّجارة وعـابرين عليهـا مُغَرّبين ومُشَرّقين"[١٤٠]. فكان "الصّادر عنها والوارد إليها كثيرًا في الأحايين؛ لأنها بعيدة عن البلاد المجاورة المقاومة لها في جميع حالاتها"[١٤١].

(٢/١) ٢-أَجْدَابِيَة:

تقع مدينة أجدابية شَرقي مدينة برقة، في منطقة شبه صحراوية(١٤٢)، على أرضٍ حجرية، بناؤها بالطين والآجر وبعضها بالحجارة(١٤٣)، وليس لمبَانيها سقوف خشب إنما قبب من الطوب لكثرة رياحها ودوام هبوبها(١٤٤). تبعد عن البحر بحوالي أربعة أميال(١٤٥) (٧,٥٤٠كم). وهي مدينة قديمة كانت مشهورة في القُرون الأولى من حُكْمِ العرب المسلمين، وقد أُنْشِئَت في مكان مدينة رومية قديمة، حيث وُجِدَ فيها من آثار الرّوم ما يَدلّ على ذلك(١٤٦). وقيل إنّ موقعها كان موقعًا حربيًّا للرومان قبل الفتح الإسلامي(١٤٧). فتحها عمرو ابن العاص مع فتح برقة وصالح أهلها على خمسة آلاف دينار وأسلم كثيرٌ من أهلها البربر(١٤٨). وهي اليوم تقع على الطريق الساحلي على بعد حوالي ١٦٠كم جنوب مدينة بنغازي(١٤٩).

وقد ازدهرت مدينة أجدابية ونَمَتْ بعد الفتح الإسلامي لشمال أفريقيا، وقد أثنى عليها البكري في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، ومن أوصافه لها بأنها: "مدينة كبيرة... طَيّبَة الماء وبها عين ماء عذب ولها بساتين لِطَاف ونخل يسير... وبها جامع حسن البناء بَنَاهُ أبو القاسم بن عبيد الله(١٥٠)، له صومعة مثمنة بديعة العمل، وحمامات وفنادق كثيرة وأسواق حافلة مقصودة وأهلها ذَوُو يسار... ولها مَرْسَى على البحر يعرف بالماحور، لها ثلاثة قُصُور بينه وبينها ثمانية عشر ميلاً... وهي راخية الأسعار..."(١٥١).

ويرجع ازدهارها إلى أهمية موقعها الجغرافي، فقد عُرِفَت بأنها مركز تجاري لتوسطها بين بَرقة وفَزّان وطرابلس(١٥٢)، وهي تقع على طريق القوافل والحج الشمالي، إضافةً إلى أنها كانت نقطة انطلاق القوافل إلى بلاد السّودان عبر واحة أوجلة(١٥٣)، فكانت القوافل الصادرة والواردة عليها من بلاد السودان كثيرة. زِدْ على ذلك أنها قريبة من البحر المغربي(١٥٤) (المتوسط)، تبعد عنه بحوالي أربعة أميال(١٥٥) (٧,٥٤٠كم). لذلك كانت تَرِدُ عليها المَراكب بالمتَاع والجهاز وتُصَدّر عنها بضروب من التّجارة المختلفة ولاسيّما الواردة من بلاد السّودان(١٥٦).

وللأهمية التي حَقّقتها مدينة أجدابية في إقليم برقة خلال العصور الإسلامية الأولى، فقد كانت تتبعها عدد من المدُن والقُرَى ولاسيّما التي من حولها، فهي تُعَدّ حتى نهاية العصر الفاطمي (٢٩٧-٤٤٣هـ/٩٠٩-١٠٥١م) بمثابة حاضرة للمنطقة التي تقع ما تحت الجبل الأخضر وما غربه حتى أرض طرابلس، في حين تكون مدينة بَرقة هي حاضرة الجبل الأخضر وما شرقه إلى الحدود المِصْرِيّة(١٥٧). وإجْدَابية بالرغم من أهميتها وتحكمها فيما حولها إلا أنها في الغالب تكون تابعة لمدينة برقة(١٥٨).

(٢/١) ٣-سُرْت:

شُيّدَت مدينة سُرْتُ قديمًا على أنقاض أو بالقرب من المدينة الرّومانية الْمُسَمّاة "أتشينا"، والتي تُسَمّى اليوم "سلطان"، أو كما تُعْرَف عند سُكّان المنطقة بـ "أَلِمْدَيْنَه"، تصغير كلمة "مَدِينَة". وتقع حاليًا إلى الشّرق من مدينة سرت الحديثة بنحو ٥٥كم، عند خليج سرت(١٥٩).

وسُرْتُ الإسلامية مدينة عامرة تقع غربي مدينة أجدابية، بينها وبين مدينة طرابلس ثلاثون ومائتا ميل (حوالي ٤٣٣,٥٥٠كم)، وبينها وبين البحر ميلان (٣,٧٧٠كم)، عليها سور من تراب(١٦٠)، أو طين وطابية(١٦١)، أو من طوب. وبها جامع وحَمّام وأسواق، ولها ثلاثة أبواب: قِبْلِي (جنوبي) وجَوفي (داخلي) وباب صغير على البحر. ليس حولها أرباضٌ (أحياءٌ خارجية)، وفيها نخل وآبار عذبة وجِبَاب كثيرة(١٦٢). فتحها عمرو بن العاص في طريقه عندما كان ذاهبًا لفتح طرابلس، ولم يجد عناءٌ في فتحها، ولم يذكر أحد أنها فُتِحَت عنوةً أو صلحًا، مما يدل على أنها لم تكن ذات خطر، فاكتفى منها المسلمون بالاستسلام(١٦٣).

وفي القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي إبّان الحكم الفاطمي لليبيا، أشاد ابن حوقل بازدهارها وحسن إدارتها ورخائها حتى أنه فَضّلَهَا على مدينة أجدابية المزدهرة آنذاك، وفيها قال: "... لها من وُجُوه الأموال والغَلات والصدقات في سائمة الإبل والغنم ما يزيد على حال أجدابية ومالها في وقتنا هذا، وبها نخيل تجنى أرطابها... بقدر كفاياتهم. ولهم أعناب وفواكه وأسعارهم صالحة على مَرّ الأوقات. والمتّلى [أي المتولي] صدقاتهم وجباياتهم وخراجاتهم وما يجب على القوافل المجتازة بهم صاحب صلاتهم. وإليه جميع مجاري أمر البلد والنظر فيه وفيما ورد إليه وصدر في استيفاء ضرائبه ولوازمه، واعتبار السجلات والمناشير بمواجب ما على الأمتعة وتصفحها خوف الحيلة الواقعة دون الأداء عنه بأفريقية، ودَخْلُهَا أوفر من دخل أجدابية لما ذكرتُ"(١٦٤).

ولا غَرابة في مدح ابن حوقل لازدهارها، فَمَدينة سُرْت كانت -ولا زالت- تقريبًا تتوسط الطّريق الواصلة فيما بين مَدينتي طرابلس وبرقة، فهي بالتالي تُشَكّل أهمية كُبْرَى لِسَيرِ القوافل التّجارية عبر الطّريق السّاحلي الشّمالي، ومنها كانت تَتَزَوّد القوافل القادمة من بلاد السّودان إلى برقة بالماء والْمُؤَن(١٦٥). كما هي تقع -كما أسلفنا الذكر- على البحر المتوسط مباشرةً، بينها وبينه حوالي ميلين(١٦٦) (٣,٧٧٠كم)، لذلك كانت مُوَصّلة -

أيضًا- لتجارة البَرّ مع البَحْرِ، فَدائمًا ما كانت تنزل على ساحلها المراكب المليئة بالبضائع، وقد اشتهر أهلها خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، باستخدام الحيلة والدّهاء والخداع مع تُجّار هذه المراكب من الغُرَباءِ، مما جعلهم يَتَعَرّضون لِذَمّ الرّحّالة الجغرافي أبو عبيد البكريّ وشتمه نثرًا وشعرًا[١٦٧]، ومنه تناقل تلك النّصوص من جاء بعده من الجُغْرافيّين والرّحّالة ودوّنوها في كُتُبهم[١٦٨].

(٢/١) ٤-أَوْجَلَة[١٦٩]:

واحة أَوْجَلَة ناحية ذات نخيل عظيمة وغَلّات من التّمر جسيمة[١٧٠]، تقع في الصحراء في الجنوب الغربي من مدينة أجدابية بنحو ٢٦٠كم[١٧١]، وهي مدينة عامرة كثيرة النخل[١٧٢]، تتبع برقة ومن أعمالها ولاسيّما خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي[١٧٣]. كان بها مدينة من مُدُن البربر القديمة تُسَمّى "أرزاقية"، وبها عِدّة قُرَى تحتوي على نخلٍ وشجرٍ كثيرٍ وفواكه، وبمدينتها مساجد وأسواق[١٧٤].

وقُرَى أوجلة المكونة لها ثلاث هي: "مازوز"، و"السّواني"، و"البلاد"، وثلاثتها مع بعض هي ما يُعْرَف بواحة أوجلة؛ البلاد وواديها في الجنوب، ومازوز في الشمال، أما السّواني ففي الوسط، وكل واحدة منها تشغل مساحة مزروعة تفصل بينهما الصّحْراء[١٧٥]. وقد أدّتْ أَوْجَلَة دورًا تجاريًّا مهما منذ قديم الزّمان بفضل ما تتميز به من موقع جُغْرافي، فكانت بمثابة الوسيط في حركة التّبادل التّجاري بين الشّمال والجنوب من جِهَتِهَا، فمنها كانت تصل البضائع القادمة من شمال الإقليمين إلى أواسط أفريقيا عن طريق الواحات التي تقع في وسط الصّحراء الكبرى، وبالعكس تصل بضائع الجنوب إلى السّاحل عن طريقها ومن خلالها، فكانت بذلك مَحَطّة للقوافل وإحدى مراكز تجارة الصّحراء[١٧٦].

ويخبرنا الشّريف الإدريسي بأنّ على الرغم من صغر حجمها إلّا أنها كانت مدينة مُتَحَضّرة وأهلها كثيرو التّجارة، ومنها يُدْخَلُ إلى كثير من أجزاء بلاد السّودان، نحو بلاد كُوّار[١٧٧]، وبلاد كُوكُو[١٧٨]، وهي -أي أوجلة- في رصيف طريق والوارد عليها والصّادر كثير[١٧٩]، وخيرها غزير تُجْلَبُ لها الأرزاق من مختلف الأقطار والآفاق[١٨٠].

(٢/١) ٥-زَلّة:

اختلف في كتابة اسم مدينة زَلّة فيما بين الرّحّالة والجُغرافيين المسلمين، حيث نجدها مكتوبة "زَلهى" عند البكري[١٨١]، و"زَالَة" عند الشريف الإدريسي[١٨٢]، و"زَلّى" عند صاحب كتاب الاستبصار[١٨٣]، و"زَالّة" عند أبي الفدا[١٨٤]، و"زَلّة" عند ابن سِبَاهي زادة[١٨٥]، والأخيرة هي الكلمة المتعارف عليها للمدينة إلى وقتنا الحاضر.

وزَلّة واحة قديمة اكْتُشِفَ فيها فَخّار رُومَانيّ من القرن الثاني الميلادي وآثار حصن من النوع الذي يوجد على طول الطُّرُق الرّومانية[١٨٦]. وقد ورد ذكرها لأول مرة في المصادر العربية –حسب علمنا- خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلاد، عند البكري الذي وصفها بأنها: مدينة كبيرة واسعة فيها جامع، ولها نخلٌ كثيرٌ وعينُ ماء نزة، يسكنها قومٌ من بربر مزاتة[١٨٧]. أما الإدريسي فَيَراها في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، بأنها: مدينة صغيرة ذات سوق عامرة وبها أخلاط من البربر من هوارة، وفيها تجارات وفي أهلها حماية ومُرُوّة[١٨٨]. ويضيف في موقعٍ آخرٍ بأنّ بها حصن مَنيعٌ به رجلٌ ثائرٌ[١٨٩]. في حين ذكر أبي الفدا في منتصف القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، بأنّ: "زالّة مدينة صغيرة ذات سوق عامر وهي حصن مَنيع"[١٩٠]. كما أضاف "وهي بلدة ولها مُلك بذاتها"[١٩١].

وتكمن أهمية زَلّة التاريخية في تاريخ ليبيا الإسلامي في كونها إحدى بَوّابات إقليمي طرابلس الغرب وبرقة التي يُدْخَلُ منها إلى بلاد السّودان[١٩٢]. وهي تقع في موضع مِثَالي على الطّريق المباشر من إقليم برقة نحو زَويلة، وكانت الطُّرُق تربطها بأَوْجَلَة ووَدّان وسُرْت والكُفْرة[١٩٣] نحو بلاد السّودان. لذلك نالت أهمية لاعتبارها إحدى المحَطّات التّجارية التي تربط ما بين جنوب الإقليمين وشمالهما، كما أنها تربط ما بين إفريقية ومصر إذا كانت الطّريق المسلوكة عبر الواحات، حيث الدخول إلى بلاد الواحات[١٩٤] يكون من أَوْجَلة وزَلّة وغيرها من المواطن التي تكون في صحراء مدينة طرابلس[١٩٥].

(٢/١) ٦-ودّان:

من أوجلة غربًا عبر الصّحراء في طريق من الرمال نجد "ودّان"، وهي ناحية ومدينة في جنوب مدينة سُرْت -بحوالي ٢٧٠كم[١٩٦]- وكانت مضمومة إليها إداريًّا[١٩٧]، ومن أعمالها[١٩٨]، في حيّز برقة[١٩٩]. وهي تعتبر حَدّ من حُدود إقليم برقة من ناحية جنوبه الغربي، فمنها يُدْخَل إلى بلاد السودان وغيرها[٢٠٠]. وهي من مُدُن البربر القديمة، كانت مُسَوّرة وقد تهدّم سورها ولم يَبْقَ منه الآن إلّا آثاره. افتتحها بسر بن أرطأة سنة ٢٢هـ/٦٤٢م، ثم نقض أهلها العهد، فَفَتَحَهَا عقبة بن نافع سنة ٤٩هـ/٦٦٩م، في أيّام الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ/٦٦١-٦٧٩م)[٢٠١].

وفي القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، ذكر اليعقوبي بأن ودّان كان يقطنها قومٌ مسلمون يَدّعُون أنهم عَربٌ من اليمن وإنْ كان أكثرهم من قبيلة مزاته البربرية وهم الغالبون عليه. أما في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، فيخبرنا البكري بأنه كان لودّان قلعة حصينة، وفيها دروب، وهي تنقسم إلى مدينتين تستوطنهما قبيلتان من العرب سَهميّون وحَضرميّون، تُسَمّى مدينة السّهميين "دلباك"، ومدينة الحضرميين "بوصي"، ولِودّان جامعٌ واحدٌ يقع بين مَوْضِعَي المدينة[٢٠٢]. وكان أكثر مَعيشة أهل ودّان -خلال العصور الإسلامية الأولى- تعتمد على ما ينتجه نخيلهم من تمور[٢٠٣]، ولا سيّما أنها لا تقصر في رخص التّمور وكثرتها وجودتها عن أَوجلة، وإن كانت أوجلة أوسع قُسوبًا وأفسح ناحية، فَتُمُور ودّان الرّطبة العذبة أغزر وأكثر[٢٠٤].

وقد نالت ودّان أهميتها في المنطقة كونها مركزًا تجاريًا مباشرًا للدخول إلى بلاد السودان، كما أنها تتوسط أغلب المحَطّات التّجارية الْمنْتَشرة على مختلف أرض ليبيا، فمنها يمكن السّير للتجارة إلى طرابلس أو إلى زَلّة ومنها إلى أَوْجَلة[٢٠٥]، ومن أَوْجَلة يمكن مواصلة الطّريق إلى برقة عبر أجدابية، أو إلى مصر عبر بلاد الواحات كما سبق أن ذكرنا.

وهكذا من خلال العرض السابق تَعرّفنا على أشهر بلدان ومدن وواحات إقليمي طرابلس الغرب وبرقة خلال العصر الإسلامي. وبطبيعة الحال نظرًا لضَخَامة مساحة الإقليمين واتساع رقعتهما الجُغْرافية، فقد كان فيهما الكثير من الْمُدُن والقُرَى والواحات والبلدات الصغيرة الأخرى، ولكن لا يسعنا المجال هنا للكتابة عنها، ولا سيما أنها كانت في ذلك الوقت أقل أهمية وأنقص فاعلية من المدن التي ذكرناها.

ثانيًا: أهمية بُلدان ومُدُن وواحات إقليمي طرابلس الغرب وبرقة في إرساء تاريخ ليبيا الإسلامي وصياغته

خلال العصور الإسلامية الأولى لم تكن لفظة "ليبيا" مستخدمة أو متداولة للدلالة على الرقعة الجغرافية التي تحتلها حاليًا إقليما طرابلس الغرب وبرقة مع إقليم فَزّان. على الرغم من أنّ اسم "ليبيا"، أو "لوبيا" -حسب طريقة ذكرها في المصادر القديمة- تاريخيًّا كان موجودًا في الغالب منذ أيام الفراعنة، ثم الاستعمار الإغريقي للمنطقة، ومن بعدهم الرّومان الذين في عصرهم أخذ الاسم في التّلاشي تدريجيًا إلى أن اسْتُبْدِل بكلمة "أفريقيا"[٢٠٦]. واسم ليبيا أو لوبيا لا يَدلّ بالضّرورة -تحديدًا- على الرّقعة الجُغْرافية التي تحتلها مساحة الإقليمين في العصر الإسلامي، فَمَعْنَاهُ يَضيق ويَتّسع حسب العصور. ففي العصر الإغريقي يَتّسع ليشمل كل ما هو معروف من قارة أفريقيا في ذلك الوقت، وهذا ما يُؤكّده المؤرخ الإغريقي هيرودوتوس في كِتَابَاتِه، فاسم ليبيا عنده يعني قارّة من ثلاث قارات تُكَوّن العالم القديم أنذاك. حيث ورد عنده أنّ الأرض مُقَسّمة إلى ثلاث: ليبيا وآسيا وأوربّا[٢٠٧]. في حين يَتَقلّص الاسم في معناه في بعض فترات العصر الروماني بحيث أصبح لا يُطْلَقُ إلّا على تلك المنطقة التي تَأثّرت بالحضارة الإغريقية وخضعت لسيطرة قُوْرينا أو اتّحاد الْمُدُن الخمس[٢٠٨]، وهو ما يُعادل تقريبًا مساحة إقليم برقة فقط خلال العصر الإسلامي.

ولم تلبث تسمية "ليبيا" أو "لوبيا" في التلاشي تدريجيًا بمرور الزمن، حتى أنه عندما جاء العرب المسلمون إلى الشمال الأفريقي فاتحين للمنطقة في الثّلث الأول من القرن الأول الهجري/النصف الأول من القرن السابع الميلادي، كان هذا الاسم قد اضْمَحَلّ فلم يجد العرب بدًّا من تسمية الإقليمين بأهم مُدُنهما، وهي "طرابلس" و"برقة"[٢٠٩]. لذلك لم يكن اسم "ليبيا" مستخدمًا بكثرة بين المسلمين في العصور الإسلامية الأولى والوسطى والحديثة للدلالة على الإقليمين، بل كان المعتاد بينهم هو استخدام اسْمَيْ "برقة"، و"طرابلس". وحتى بداية القرن العشرين الميلادي لم يكن اسم "ليبيا" قد شاع استخدامه، واستمرت تسمية الأقاليم الليبية تتبع الأسلوب القديم الذي يُسَمّي البلاد بأسماء عواصمها أو مُدُنها المهمة كما أسلفنا الذكر. ولهذا فقد ظلّ الكُتّاب والمؤرخون يستخدمون كلمتي "طرابلس"، و"برقة"، أو يستخدمون كلمة "طرابلس" وحدها في بعض الأحيان للدلالة على الإقليمين معًا[٢١٠].

ولَعَلّ أول مَرّة يُطْلَقُ فيها اسم ليبيا للدلالة على الأراضي التي تشغلها دولة ليبيا حاليًا (تقريبًا)، أو بالأحرى على إيَالَتَيْ طرابلس وبرقة -اللتين كانتا تحت الحكم العثماني- كانت في سنة ١٩٠٣م، عندما استخدمها أحد الكُتّاب الإيطاليين وهو: ف. مينوتيلي (F. Minotelli)، وذلك في كتابه ببلوغرافية ليبيا، أثبت فيه المراجع التي نُشِرَت عن البلاد[٢١١]. أمّا أول مرة يُسَجّل فيها هذا الاسم في المجال السياسي الدولي الحديث، فكانت في المرسوم الملكي (الإيطالي) الصادر في الخامس من نوفمبر سنة ١٩١١م. وهو المرسوم الذي أصبح فيما بعد قانونًا بسطت إيطاليا بموجبه -من طرفٍ واحدٍ فقط-سيادتها القانونية على الإقليمين عقب العدوان الْمُسَلّح عليهما مباشرةً[٢١٢].

ومهما يكن من الأمر، فإنه ما كان يَتَسَنّى للعثمانيين في إقليمي طرابلس الغرب وبرقة والإيطاليين من بعدهم، أنْ يرسموا حدود مستعمراتهم فيهما فيما عُرِفَ تاريخيًا بـ"إيالَة طرابلس الغرب" أو بعدها بـ"ليبيا"، إلا بما وَفّرته لهم مُدُن الإقليمين وواحاتهما من عوامل ساعدت على تأسيس أرضية تاريخية تُصَاغ عليها وحدة هذه التسميات، وهذه العوامل هي:

٢/١-وحدة الأرض والجغرافية التي تقع عليها تلك المدن والواحات

إذا نظرنا إلى مُدُن إقليمي طرابلس الغرب وبرقة وواحاتهما سالفة الذكر فإننا نلاحظ أنها كانت تُغَطّي أغلب مساحة دولة ليبيا بحدودها الحالية وأقاليمها الثلاث: طرابلس وبرقة وفَزّان، وما ذلك إلا لِسُهولة التواصل بين تلك المدن، لعدم وجود موانع طبيعية أو جغرافية، فالناظر إلى توزيع تلك المدن على خريطة ليبيا فإنه لا يجد من المظاهر الطبيعية -كالبحار والأنهار والجبال- ما يَصْلُح لأنْ يكون حَدًّا طبيعيًا بينها. وهذا الاتّصال الطّبيعي هو الذي جعل من الجُغْرافيّين والمؤرخين القُدَامى يختلفون في تحديد كل إقليم من أقاليم ليبيا الإسلامية ويخلطون بينه وبين الآخر.[٢١٣] فهذا المقدسي عندما يعرض لأقاليم المغرب في كتابه يجعل من طرابلس مدينة من مُدُن إقليم برقة[٢١٤]. ويحذو حَذْوَهُ ياقوت الحموي، عندما يتحدث عن طرابلس فإنه يذكر بأنها "مدينة في آخر أرض برقة وأوّل أرض إفريقية."[٢١٥] وكأنه يجعل من إقليم برقة يمتد غربًا حتى مدينة طرابلس. وعلى عكسهم العثمانيون عندما امْتَدّ نفوذهم إلى طرابلس وبعدها ضَمّوا إليها برقة وفزّان، أطلقوا على الأقاليم الثلاثة (ليبيا) اسم ولاية، أو إيالة طرابلس الغرب.[٢١٦] وكَأَنّ بإقليمي برقة وفَزّان جزءًا من إقليم طرابلس. وهذا اليعقوبي عند حديثه عن فَزّان جعلها قديمًا تتبع لِبَرقة عندما ذكر بأنّها كانت تُسَمّى "بُرْقَة انطابلس"[٢١٧]. و"انطابلس" هذه هي الاسم القديم لإقليم برقة. وإضافة اليعقوبي لها هنا إلى مصطلح بُرْقَة -الذي يعني الأرض التي تُرْبَتها بيضاء ذات حجارة حمراء وسوداء، مما جعلها تَبْرقُ بلون حجارتها وترابها، وإنما بَرْقُهَا اختلاف ألوانها[٢١٨]- يَقْصد به الأرض التي تتبع انطابلس (أي الأرض التي تتبع إقليم برقة).

وهذا الخلط من الكُتّاب والرّحّالة والجغرافيين إنْ دَلّ على شيء فإنما يَدُلّ على الوحدة الطّبيعية والجغرافية والتّاريخية لِمُدُن إقليمي طرابلس وبرقة إضافةً إلى إقليم فَزّان مما جعلهم متداخلين مع بعض.

٢/٢-وفرة الطُّرُق الرابطة بين مُدُن الإقليمين وواحاتهما

إنّ الطّرق التي كانت تَسْلُكُهَا قوافل التّجّار والحُجّاج وطلبة العلم وغيرهم من المسافرين، سواء من المتجولين المحليين الذين كانت تُلْزِمُهُم متطلبات الحياة للتجول بين مُدُن الإقليمين، أو القادمين من خارج الإقليمين إلى داخلهما وبالعكس من داخلهما إلى خارجهما، فإنّ هذه الطّرق نجدها قد شَكّلَت شبكة واسعة متداخلة ربطت بين المدن المختلفة وغَطّت مُعْظَم أراضي الإقليمين من الشّرق إلى الغرب ومن الجنوب إلى الشّمال[٢١٩]. وقد حاول معالجة موضوع الطّرق على أرض الإقليمين أكثر من رَحّالة وجُغْرافي في كُتُبهم، فكان فيهم من أعطى المسافات مُقَدّرة بالأميال كابن خُرْدَاذْبَة[٢٢٠] (ت: سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م)، وقُدَامة بن جعفر[٢٢١] (ت: سنة ٣٣٧هـ/٩٤٨م). ومنهم من أعطاها مُقَدّرة بالْمَرَاحل أو بِأَيّام السَّيْر من نقطة إلى أخرى كالبَكريّ[٢٢٢]. ومنهم من استخدم النِّظَامَيْنِ معًا كالشّريف الإدريسي[٢٢٣].

وكان من أشهر الطرق الرئيسية -التي تَفَرّعت منها الكثير من المسالك- التي ربطت بين مدن الإقليمين ووَحّدَت فيما بينها هي:

الطّريق من بَرقة إلى طرابلس، بِمُحَاذاة السّاحل شمال الإقليمين، فلمّا تخرج من **برقة** تصل إلى **"وادي مسوس"**، ومنها تسير إلى مدينة **"أجدابية"**، ومن برقة إلى أجدابية حوالي ستّ مراحل، ومن أجدابية تسير سِتّ مراحل أخرى إلى مدينة **"سرت"**، ومنها تصل إلى مدينة **"طرابلس"** بعد عشر مراحل سَير[٢٢٤]. ومن طرابلس تستطيع القوافل الذهاب إلى **"قابس"** ولكن بعد المرور على مدينة **صَبْرة**[٢٢٥]، وأيضًا منها تستطيع الوصول إلى **"جبل نفوسة"** بعد مسيرة ثلاثة أيام، ومن طرابلس إلى **"شروس"** عاصمة الجبل حوالي خمسة أيام[٢٢٦].

الطّريق من طرابلس إلى ودّان، ومن أراد أنْ يسلك هذا الطريق فإنه يسير في بلد "هوارة"، إلى الجنوب في قَياطين وبُيُوت شعر وهناك مَرئيّات ومنازل إلى قصر **"ابن ميمون"**، وذلك كله من عمل طرابلس. ثم من قصر ابن ميمون تسير ثلاثة أيام إلى صنم حجارة بُنِيَ على رَبْوَة يُسَمّى **"كرزة"**، ومن هذا الصّنم على مسيرة ثلاثة أيام تصل إلى **"ودّان"**[٢٢٧]. ومن ودّان تستطيع السَّيْر إلى **"زَلّة"** ومنها إلى **"أَوْجَلة"**[٢٢٨]، ومن أَوْجَلة يمكن مواصلة الطّريق إلى **"برقة"** عبر **"أجدابية"**، أو إلى مصر عبر **"بلاد الواحات"** كما سبق أنْ ذكرنا.

الطّريق من جبل نفوسة إلى زَويلة، وفيها تخرج من مدينة "**جادوا**"، وتسير ثلاثة أيّام في الصّحراء إلى أنْ تصل إلى موضع يُسَمّى "**تبرى**" على سفح جبل، بعدما تصعد الجبل تمشي في صحراء مستوية نحو أربعة أيام إلى أنْ تنزل بئر تُسَمّى "**أودرب**"، ومنه تسير ثلاثة أيام في جبال "**تارغين**"، إلى أنْ تصل إلى بلدة "**تامرما**"، ومنها بعد مسير يومين تصل إلى بلدة "**سباب**"، ومن سباب تسير في صحراء مستوية بعدها على مسيرة يوم تُلاقِيك مدينة "**زَويلة**"[٢٢٩].

الطّريق من زَويلة إلى تَاجّرِفت[٢٣٠]، من زَويلة إلى مدينة "**تمسَّى**" يومان، ومنها إلى مدينة "**زَلّة**" ثمانية أيام في صحراء تجد في وسط الطّريق منزلاً لأهل "**ودّان**". ومن مدينة زَلّة تمشي ستّة أيام إلى فحص "**بركانة**"، ثم إلى "**قصر القاروج**"، الذي بينه وبين مدينة سُرْت خمس مراحل. ثم إلى مدينة "**أجدابية**" مرحلة واحدة، ومنها ثلاثة أيام إلى "**قصر زيدان الفتى**"، فَتَمْشِي أربعة أيام إلى مدينة "**أوجلة**"، ومنها مسيرة ثلاثة أيام تجد "**تاجّرفت**"[٢٣١].

هذه عَيّنة فقط من الطّرق والمسَالك التي أتاحتها طبيعة مُدُن الإقليمين وجغرافيتها لمن كان يريد التنقل بينها خلال العصر الإسلامي. وهي كما عرضنا نجدها كانت تربط بين أقاليم ليبيا الحديثة الثلاث (طرابلس وبرقة وفَزّان) شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا بكل يسر، الأمر الذي سَهّل عملية صياغة التاريخ المشترك فيما بينها.

٣/٢-سُكّان المنطقة وانتشارهم في الاستيطان على مُدُن وقُرَى الإقليمين وواحاتهما

من الأمور التي ساعدت على رسم هوية تاريخ ليبيا الإسلامي هو سُكّان المدن سالفة الذكر، ففي كثير من الأحايين كانت قبائل بعينها قد تشارك أفرادها استيطان رقعة واسعة من الأرض، احتوت هذه الأرض على العديد من المُدُن والقُرى الواقعة جغرافيًا فيما بين طرابلس وبرقة، فهم بالتالي مَثّلُوا لُحْمَةٌ بشرية تربط بين أرض الإقليمين خلال العصر الإسلامي دون اعتبار لحدودهما الجغرافية التي أَقَرّها الكتاب المسلمون في كتبهم كما أسلفنا الذكر. فعندما جاء الفتح العربي الإسلامي للإقليمين كان جُلّ سُكّانهما من البربر[٢٣٢]، وهم أُمَم وقبائل كثيرة لا تُحْصَى، يُنْسَبُ كل موضع إلى القبيلة التي تنزله، ويُقَال لمجموع بلادهم: "بلاد الْبَرْبَر"[٢٣٣]. وقد انتشر البربر فيما بين برقة والبحر المحيط (المحيط الأطلسي) شرقًا وغربًا، وما بين بلاد السّودان والبحر الرومي (البحر الأبيض المتوسط) جنوبًا وشمالاً[٢٣٤]. فهم بالتالي -ضمنيًا- غَطّوا المساحة الجغرافية التي تحتلها أرض ليبيا اليوم.

ومن قبائل البربر على سبيل المثال التي انتشرت في استيطانها على عدة مدن من أرض الإقليمين هي قبيلة هوارة، التي انتشرت فروعها في السكن بين طرابلس الغرب وبرقة[٢٣٥]. وكذلك قبيلة لواتة التي استوطنت بطونها أرض برقة وامتدت إلى طرابلس حتى حدودها في قابس[٢٣٦]. وذلك إلى جانب قبائل زناتة ومزاتة ولمطة الذين انتشروا بين الكثير من مدن الإقليمين[٢٣٧]. وقد أجمع المؤرخون على أنّ البَرْبَر بقبائلهم المختلفة يتفقون في الغالب في العادات والتقاليد التي لم تتغير كثيرًا عبر القرون منذ القدم مرورًا بالعصر الإسلامي[٢٣٨].

وإلى جانب البربر شارك العرب في الاستيطان على أرض طرابلس وبرقة خلال العصر الإسلامي، وعاشوا فيها كونهم جند الدولة الإسلامية الفاتحين، الذين انتشروا في أغلب مُدُن ليبيا المعاصرة بأقاليمها الثلاث واستقروا بها[٢٣٩]. ولم يلبث أنْ تزايدت أعدادهم وطَغوا على التركيبة السّكّانية في الإقليمين ولا سيما بعد هجرة قبائل بَني سليم وبَني هلال إليهما حوالي منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وأصبح تأثيرهم واضحًا فيهما وعلى المغرب الإسلامي بكامله، الذي ظهر جَلِيًا في تعريبه وصبغه بالصبغة العربية.[٢٤٠]

فالبَربر ثم العرب من بعدهم، بفضل انتشارهم في السكن على أرض الإقليمين، وما اتّسَمَ به كل منهما في جنسه من الاتفاق في الصّفات والعادات والتقاليد والأعراف، كل ذلك زاد الوحدة الجغرافية للمدن والواحات فيهما، وساهم بفعالية في تأصيل الهوية التاريخية الإسلامية للرقعة الجغرافية التي يحتلها مُسَمّى ليبيا اليوم بما يعادله من المساحة الأرضية لما يُعرف بإقليمي طرابلس الغرب وبرقة خلال العصر الإسلامي.

خَاتِمَةٌ

من خلال عرضنا السابق تعرفنا على أشهر بلدان ومُدُن وواحات إقليمي طرابلس الغرب وبرقة، التي كانت لها معالم بارزة وسِمَات ظاهرة لَفَتَتْ نَظَرَ الرّحّالة والجغرافيين المسلمين المارّين منها وحواليها، الأمر الذي جعلهم يُدَوّنون عنها في كتبهم كلمات وأسطر جاءت في الغالب شحيحة، استطعنا بفضل استقطاعها وترتيبها ثم تجميعها وتركيبها بطريقة علمية منهجية من تحديد هوية هذه المدن في محيطها الإقليمي، والتعرف على أبرز محطاتها التأسيسية في تاريخها القديم والإسلامي، ودورها في إرساء تاريخ ليبيا المعاصر وصياغته بما تَوَفّر لها من عوامل مساهمة كوحدة الأرض والجغرافية الواقعة عليها، ووفرة الطرق والمسالك الرابطة بينها، إلى جانب اللُّحْمَة الجنسية للسُّكّان المنتشرين على أراضيها.

نتائج الدراسة

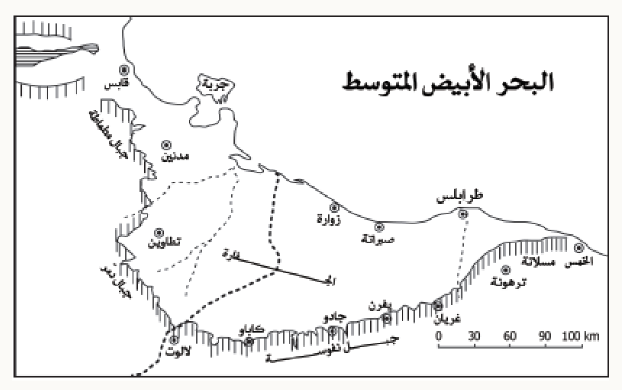
ومن خلال سردنا لما ذكرنا نجد أنفسنا أمام عِدّة استخلاصات نستطيع اختزالها في ثلاث نتائج مهمة على النحو الآتي:

إنّ بُلدان ومُدُن وواحات إقليم طرابلس وإقليم برقة تميزت بالأصالة والعَراقة والحضارة عبر عصورها التاريخية المختلفة ولاسيّما العصر الإسلامي، وهذا ما شهد به المؤرخون والجُغرافيون والرّحّالة المسلمون الذين مَرّوا بهما أو أولئك الذين أخذوا عنهم. ومما ساعد مُدُن الإقليمين على تحقيق ذلك هو موقع الإقليمين نفسه على البحر المتوسط، الذي جعلهما يُؤَدّيان أدوارًا مهمة في تاريخيهما السياسي وتطورهما البشري. حيث كانا -وما يزالا- لا يفصلهما عن سواحل أوروبا إلّا هذا البحر، الذي لم يكن في أيّ وقت من الأوقات عَقَبَة يصعب اجتيازها للوصول إلى الإقليمين، لذلك نجد أنه قد مَرّ على تاريخيهما حضارات عتيدة أَسّسَتها قُوَى عُظْمَى في زمانها، كالإغريق والفينيقيين والبطالمة والرومان والوندال والبيزنطيين، ثم العرب المسلمين الفاتحين ومن جاء بعدهم.

ممّا زاد من أهمية مُدُن وواحات طرابلس وبرقة في المنطقة وتأثيرها على محيطها الجغرافي هو أهميتها التجارية، كونها كانت بفضل مواقعها الطبيعية مَحَطّات تجارية ومراكز تتجمع بها الأركاب والقوافل المحملة بالمسافرين والسّلع التجارية، وتَتَفَرّق منها -ذهابًا وإيابًا- إلى الأصقاع الأخرى، سواء شرقًا إلى مصر وما بعدها من البلاد، أو غربًا إلى إفريقية وبقية بلدان المغرب الإسلامي، أو جنوبًا إلى بلاد السودان ومنها إلى أواسط القارة الإفريقية، أو شمالاً عبر البحر إلى المدن والبلدان الأوروبية.

إنّ جغرافية مُدُن إقليمي طرابلس وبرقة خلال العصر الإسلامي ووحدتها الطبيعية، مع ما تَوَفّر فيها من طُرُقٍ ومَسَالكَ ربطت فيما بينها، وسُكّان مُتّفقون منتشرون في الاستيطان فيها، كل ذلك أدّى دوره في المساعدة على رسم الحدود الجغرافية لْمُسَمّى ليبيا خلال العصور الحديثة والمعاصرة، وربطه بأرضيتها التاريخية وهويتها الإسلامية التي كانت بالأمس تحت مُسَمّى طرابلس الغرب وبرقة.

الملاحق



خريطة رقم (١)

مشهد عام لجبل نفوسة [٢٤١]

الاحالات المرجعية:

(١) أَطلَق العرب لَفظَة بلاد السّودان على الجهات الأفريقية التي تسكنها الجماعات سود البشرة، والتي يحدها شمالاً مصر والصّحراء الكُبْرى، وجنوبًا المقاطعات البَحْريّة على شاطئ أفريقيا الغربي وحوض الكونغو والبُحَيْرات الاستوائية، وشرقًا الحبشة ومرتفعات الْجَلا = العدوي، إبراهيم أحمد: **يقظة السّودان**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٧٩م، ص١٠، هامش (١).

(٢) بازامه، محمد مصطفى: **صفحات من تاريخ فزان**، طرابلس، الهيئة العامة للثقافة، ط١، ٢٠١٨م، ص١٠-١١.

(٣) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب إسحق بن جعفر بن وهب بن واضح: **البلدان**، وضع حواشيه محمد أمين ضنّاوي، بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت، ص١٨٤.

(٤) محمد مصطفى بازامه: **تاريخ فزان**، مرجع سابق، ص١٠، هامش (١).

(٥) البَكْري، أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز: **الْمُغْرِبُ في ذكر بلاد إفريقية والْمَغرب** (وهو جزء من كتاب المسالك والممالك)، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، د.ت. ص١١.

(٦) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله: **معجم البلدان**، بيروت، دار صادر، ١٩٧٧م. ٢٦٠/٤.

(٧) ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك: **كتاب بسط الأرض في الطول والعرض**، تحقيق خوان قرنيط خينيس، تطوان، معهد مولاي الحسن، ١٩٥٨م، ص٦١. كذلك أبو الفدا: عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر: **تقويم البلدان**، اعتنى بتصحيحه وطبعه رينود وماك كوكين ديسلان، باريس، دار الطباعة السلطانية، ١٨٣٠م، ص١٢٧. (أعادت طبعه بالأوفست دار صادر ببيروت).

(٨) أبو الفدا: **تقويم البلدان**، مصدر سابق، ص١٢٩.

(٩) سالم، السّيّد عبد العزيز: **تاريخ المغرب في العصر الإسلامي**، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ط٢، ١٩٨٢م ص٤٠.

(١٠) ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى: **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، أشرف على تحقيق الموسوعة وحَقّق هذا السِّفْر كامل سلمان الجبوري، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠١٠م، ٦٣/٤.

(١١) شعيرة، محمد عبد الهادي: **ليبيا الاسم ومدلولاته التاريخية**، مجلة كلية الآداب والتربية، بنغازي، الجامعة الليبية، المجلد الأول، ١٩٥٨م، ص١٠. نقلاً عن: الغَنّاي، مراجع عقيلة: علاقات الإمارة الصنهاجية بجيرانها وأثرها في ليبيا، بنغازي، مطابع الثورة للطباعة والنشر، د. ت، ص١١.

(١٢) الزّاوي، الطّاهر أحمد: **تاريخ الفتح العربي في ليبيا**، بيروت، دار المدار الإسلامي، ط٤، ٢٠٠٤م، ص٦١، ٣٠٨.

(١٣) للمزيد ينظر: ساللوستيوس: **الحرب اليوغرطية (الحرب ضد يوغرطة)**، نقله عن اللّاتينية محمد المبروك الذويب، بنغازي، جامعة بنغازي، د. ت، ص١٠٢-١٠٣.

(١٤) **الْعُقَيْلَة**: منطقة صغيرة عل ساحل البحر المتوسط، تقع في الجنوب الغربي من مدينة بنغازي بنحو ٢٨٥كم، وغربي مدينة أجدابيا بنحو ١٠٠كم، وغربي البريقة بنحو ٤٥كم. بها بئر تردها البادية لسقي حيواناتها = الطّاهر أحمد الزّاوي: **معجم البلدان الليبية**، طرابلس، مكتبة النور، ط١، ١٩٦٨م، ص٢٢٨.

(١٥) الطّاهر أحمد الزّاوي: **الفتح العربي**، مرجع سابق، ص٦٢-٦٣.

(١٦) الْعَبْدَري، أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود: **رحلة الْعَبْدَري، حقّقها وقدّم لها علي إبراهيم كردي**، دمشق، دار سعد الدين، ط٢، ٢٠٠٥م، ص٢٠٦، ٤٨٢-٤٨٣.

(١٧) الْعَيّاشي، أبو سالم عبد الله بن محمد: **الرحلة العَيّاشيّة ١٦٦١-١٦٦٣م**، حقّقها وقدّم لها سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، أبو ظبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٦م، مج٢٠٦/١. كذلك ابن ناصر الدرعي، أبو العباس أحمد بن محمد: **الرحلة الناصرية ١٧٠٩-١٧١٠م**، حَقّقَها وقَدّم لها عبد الحفيظ ملوكي، أبو ظبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١١م، ص٢٤٢.

(١٨) **قُصُور حَسّان**: بناها القائد العربي حَسّان بن النّعمان إبّان فتحه لإفريقية، فعندما هزمته جيوش الكاهنة اضطرّ للرجوع لسرت والإقامة فيها مُدّة خمس سنوات (٨٠-٥٨٤/٦٩٩-٧٠٣م) أثناءها بَنَى هذه القُصُور، وقد اندرست الآن ولم يبقَ إلا آثارها. وكانت تقع شمالي قصر سرت بنحو ٧٠كم = الطاهر أحمد الزاوي: **البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص٢٧٨-٢٧٩.

(١٩) اليعقوبي: **البلدان**، مصدر سابق، ص١٨٢. **تَوَرْغة أو تاورغة أو تاورغا أو تاورغاء**: كيفما يَصِحّ كتابة اسمها، بلدة جنوبي مدينة مصراته بنحو ٤٠كم في غرب ليبيا. بها عين غزيرة النبع عذبة المياه، استبحرت من كثرة ما تجمّع من مياهها حتى أصبحت سبخة. بها نخل كثير فيه أنواع جيدة من التمور. وسُكّانها سمر البشرة قلّ أن يوجد فيهم بيض= الطاهر أحمد الزاوي: **البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص٧٩.

(٢٠) ابن سعيد: **بسط الأرض**، مصدر سابق، ص٨٠. كذلك ابن سعيد: **كتاب الجغرافيا**، حَقّقَه ووضع مقدمته وعَلّق عليه إسماعيل العربي، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٧٠، ص١٤٦. القلقشندي، أبو العبّاس أحمد بن علي: **كتاب صُبْحِ الأَعْشَى في كتابة الإنشا**، تصحيح محمد عبد الرسول إبراهيم، القاهرة، دار الكتب الخديويّة، ١٩١٥م، ١٠٥/٥.

(٢١) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، مصدر سابق، مج٢٨٨/٣. كذلك ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله: **كتاب المشترك وضعًا والمفترق صقعًا**، بيروت، عالم الكتب، ط٢، ١٩٨٦م، ص٢٦٢. البغدادي، صفيّ الدين عبد المؤمن بن عبد الحق: **مراصد الاطّلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، تحقيق وتعليق علي محمد البجاوي، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٩٩٢م، ٧٦٠/٢.

(٢٢) الْعَبْدَري: الرحلة، مصدر سابق، ص٤٨٣. كذلك برنشفيك، روبّار: **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥م**، نقله إلى العربية حَمّادي الساحلي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٨م، ٣٥٣/١.

(٢٣) الطاهر أحمد الزاوي: **البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص١٩٩.

(٢٤) المرجع نفسه، ص١٩٩.

(٢٥) ورد اسم هذه السُّوَيْقَة على عِدّة أوجه حسبما كتبها الرّحّالة والجُغرافيون في كتبهم، فإلى جانب ذكرها سُوَيْقَة ابن مَكْتُود جاءت كذلك: سويقة ابن مذكور، وسويقة ابن مثكود، وقصر ابن مظكود = ابن حوقل النّصيبي، أبو القاسم: **كتاب صورة الأرض**، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٩٢م، ق٧١/١. المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي: **كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، تحقيق م. ج. دي غويّا، لَيْدن، مطبعة بريل، ط٢، ١٩٠٦م، ص٧١ (أعادت طبعه بالأوفست دار صادر ببيروت). كذلك الطّاهر أحمد الزاوي: **البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص١٩٩.

(٢٦) عندما أكمل المسلمون فتح مصر ودخلوا لشمال أفريقيا في النصف الأول من القرن السابع الميلادي مستكملين لعملية الفتح، كانت أسماء ليبيا أو لوبيا، ومرماريقا (مرماريكا) أو مرماردايي، وقورينى(كيريني) وقورينائية (كيرينايكي) وغيرها من الأسماء التي كانت تُطلق على المنطقة التي تحتلها أرض ليبيا اليوم كلها قد تلاشت، فلم يجد العرب بدّاً من تسمية الإقليم بأهم مدنه، وهو "طرابلس"، و"برقة"؛ فأصبح هناك طرابلس المدينة والإقليم، وبرقة المدينة والإقليم، وللمزيد عن هذا الموضوع يُنظر= محمد مصطفى بازامه: ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية، بنغازي، مكتبة قورينا، ط٢، د.ت، ص٩٢-٩٣. كذلك شَلّوف، عبد السلام محمد: مُعجم المواقع والوقائع الليبية -أسماء وتواريخ المدن والقرى والأماكن الليبية، بنغازي، شركة المجموعة الوطنية للهندسة والانشاءات العامة -دار ومكتبة الفضيل، ٢٠٠٩م، ص٥٣٤.

(٢٧) مجهول، كاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري: **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار (وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب)**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، د.ت، ص١١٠.

(٢٨) ناجي، محمود: **تاريخ طرابلس الغرب**، ترجمة عبد السلام أدهم ومحمد الأُسْطَى، د. م، منشورات الجامعة الليبية، د. ت، ص٨٥.

(٢٩) الطّاهر أحمد الزاوي: **البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص٢٣.

(٣٠) محمود ناجي: **طرابلس الغرب**، مرجع سابق، ص٨٥.

(٣١) عبد السلام محمد شَلّوف: **المواقع والوقائع الليبية**، مرجع سابق، ص٤٢٣.

(٣٢) ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله: **فتوح مصر والمغرب**، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، الهيأة العامة لقصور الثقافة، د. ت، ص٢٣٢.

(٣٣) اليعقوبي: **البلدان**، مصدر سابق، ص١٨٤. المهلبي العزيزي، الحسن بن أحمد: **الكتاب العزيزي أو المسالك والممالك**، جمعه وعَلّق عليه ووضع حواشيه تيسير خلف، دمشق، دار التكوين، ط١، ٢٠٠٦م، ص٤٥. كذلك ابن حوقل: **صور الأرض**، مصدر سابق، ق١/٧٢، ص٢٢٤. البكري: **الْمُغرب**، مصدر سابق، ص٦. الشّريف الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمّودي الحسني: **كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٢م، مج١/٢٩٧. مجهول: **الاستبصار**، مصدر سابق، ص١١٠. أبو الفدا: تقويم البلدان، مصدر سابق، ص١٤٧. وغيرهم مما لا يسع المجال لذكرهم.

(٣٤) التّجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد: **رحلة التّجاني** ليبيا-تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٨١، ص٢٧١. كذلك ابن ناصر الدرعي: الرحلة، مصدر سابق، ص١٨٤.

(٣٥) ياقوت الحموي: **المشترك وضعًا**، مصدر سابق، ص٢٥.

(٣٦) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، مصدر سابق، مج١/٢١٧.

(٣٧) الطاهر أحمد الزاوي: **البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص٢٨.

(٣٨) مؤلف مجهول: **حدود العالم من المشرق إلى المغرب**، ترجمه عن الفارسية وحَقّقَهُ يوسف الهادي، القاهرة، الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠٢م، ص١٨٠.

(٣٩) التجاني: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٢٣٨.

(٤٠) المقدسي: **أحسن التقاسيم**، مصدر سابق، ص٢٢٤.

(٤١) ابن حوقل: **صورة الأرض**، مصدر سابق، ق١/٧١. كذلك الشّريف الإدريسي: **نزهة المشتاق**، مصدر سابق، مج١/٢٩٧.

(٤٢) التجاني: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٢٣٧.

(٤٣) ابن حوقل: **صور الأرض**، مصدر سابق، ق١/٧٢.

(٤٤) التّلّيسي، خليفة محمد: **حكاية مدينة طرابلس لدى الرّحّالة العرب والأجانب**، د. م، ط٣، ١٩٩٧م، ص٢٣، ٥١.

(٤٥) النّائب الأنصاري: **المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، طرابلس الغرب**، مكتبة الفرجاني، د. ت، ١/٩. كذلك فيرو، شارل: **الحوليّات الليبية منذ الفتح العربي حَتّى الغزو الإيطالي**، نقلها عن الفرنسية وحَقّقَها بمصادرها العربية ووضع مقدمتها النّقدية محمد عبد الكريم الوافي، بنغازي، جامعة قاريونس، ط٣، ١٩٩٤م، ص٢٧ (دراسة نقدية للمترجم).

(٤٦) ابن حوقل: **صور الأرض**، مصدر سابق، ق١/٩٢. كذلك البكري: **المغرب**، مصدر سابق، ص٩.

(٤٧) **قُماطَة**: أرض بين مَدينتي مَسَلّاته والخُمس، يسكنها قومٌ من العرب، لا يدري صاحب الكتاب الذي أستقي منه معلوماتي من أي قبائل العرب هم ينتسبون، وإن كانت تتوافر فيهم خِصَال العرب من الكرم والشّجاعة وسماحة الأخلاق = الطاهر أحمد الزاوي: **البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص٢٨٤.

(٤٨) الطاهر أحمد الزاوي: **الفتح العربي**، مرجع سابق، ص٥٩. **والخُمس**: مدينة صغيرة تجاور مدينة لبدة الأثرية من الشمال. أُسِّسَت في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، على البحر المتوسط تماماً. تقع شرقي طرابلس بنحو ١٢٠كم، وغربي مدينة زليتن بنحو ٣٨كم = الطاهر أحمد الزاوي: **البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص١٢٥-١٢٦.

(٤٩) البكري: **المغرب**، مصدر سابق، ص١٦٠.

(٥٠) التّجّاني: **الرحلة**، مصدر سابق، ص١٨٥. كذلك كوردي، محمود حسين: **الحياة العلمية في جبل نفوسة وتأثيراتها على بلاد السودان الغربي (خلال القرون ٢-٨هـ/٨-١٤م)**، د.م، مؤسسة تاوالت الثقافية، ٢٠٠٨م، ص١٩.

(٥١) الطّاهر، عبد الجليل: **المجتمع الليبي دراسات اجتماعية وأنثروبولوجيّة**، صيدا-بيروت، منشورات المكتبة العصرية، ط١، ١٩٦٩م، ص١٥.

(٥٢) المرجع نفسه، ص٢١.

(٥٣) عبد الحميد، سعد زغلول: **تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية**، منشأة المعارف، ١٩٧٩م، ١/٦٦. كذلك مسعود مزهودي، مسعود: **جبل نفوسة في العصر الإسلامي الوسيط (٢١-٤٤٢هـ/٦٤٢-١٠٥٣م)**، سلطنة عمان، مكتبة الضّامري للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٠م، ص٢٩.

(٥٤) **البربرية** نسبةً إلى البربر وهم سكان المغرب الإسلامي الأوائل.

(٥٥) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: **تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأعظم**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٠م، ص١٤٩.

(٥٦) ابن حوقل: **صورة الأرض**، مصدر سابق، ق١/٩٢. كذلك البكري: **المغرب**، مصدر سابق، ص٩.

(٥٧) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، مصدر سابق، مج٣/٢١٧. كذلك الحِمْيَرِي، محمد بن عبد المنعم: **الرَّوْضُ الْمِعْطَارِ في خَبَرِ الأقطارِ**، حقّقه إحسان عبّاس، بيروت، مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٨٤م، ص٣١٦.

(٥٨) ابن حوقل: صورة الأرض، مصدر سابق، ق١/٩٢.

(٥٩) البكري: **المغرب**، مصدر سابق، ص٩. كذلك الحِمْيَرَي: **الرَّوْضُ الْمِعْطَار**، مصدر سابق، ص٣١٦.

(٦٠) ابن حوقل: **صورة الأرض**، مصدر سابق، ص٩٣. كذلك البكري: **المغرب**، مصدر سابق، ص٩.

(٦١) مُعَمّر، علي يحيى: **الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية (الإباضية في ليبيا)**، د.م، مؤسسة تاوالت الثقافية، د. ت، ٤٢٢/٢.

(٦٢) ليفيتسكي، تاديوش: **تسمية شيوخ جبل نفوسة وقُرَاهم دراسة لُسْنِية في اذلأنوميا والطوبونوميا الأمازيغية**، ترجمة عبد الله زارو، د.م، مؤسسة تاوالت الثقافية، ٢٠٠٦م، ص٨٢.

(٦٣) ابن حوقل: **صورة الأرض**، مصدر سابق، ق٩٣/١.

(٦٤) علي يحيى معمر: **الإباضية في ليبيا**، مرجع سابق، ٣٩٥/٢-٤٠٠. كذلك مسعود مزهودي: جبل نفوسة، مرجع سابق، ص٣٢.

(٦٥) علي يحيى مُعَمّر: **الإباضية في ليبيا**، مرجع سابق، ٤٠١/٢-٤٣٥. كذلك مسعود مزهودي: جبل نفوسة، مرجع سابق، ص٣٢-٣٤.

(٦٦) **الإباضيّة:** جماعة من المسلمين يتعبّدون على مذهب عبد الله بن إباض، صاحب المذهب وإليه يُنسَبون. وهذا المذهب منتشر في مَسْقط وعُمان من بلاد العرب بالمشرق، وفي الزنجبار من بلاد السودان، وفي إفريقية، في طرابلس وتاهرت بالجزائر. وأول دخول هذا المذهب إلى إفريقية في أوائل المائة الثانية من الهجرة سنة ١٢٠هـ/٧٣٣م، وما بعدها تقريبًا. وهذا المذهب معدود من مذاهب المسلمين التي تعتمد في أصولها على الكتاب والسنة، ويتفق في كثير من أصوله وفروعه مع مذاهب أهل السنة، ولا يختلف معها إلا في مسائل قليلة. وقد قال ابن حزم الظاهري (ت: ٤٥٦هـ/١٠٦٣م) في كتابه الفصل في الْمِلَل والنِّحَل: "إن أصحاب عبد الله بن يزيد الإباضي الفزاري الكوفي، أقرب إلى أهل السنة من بقية الفرق الأخرى" = الطاهر أحمد الزاوي: **الفتح العربي**، مرجع سابق، ١٢٦-١٢٧.

(٦٧) الشّريف الإدريسي: **نزهة المشتاق**، مصدر سابق، مج٢٩٩/١.

(٦٨) للاطّلاع على معظم آراء المؤرخين القدامى والمحدثين من الإباضية عن بعد مذهبهم عن الخوارج ينظر: مُعَمّر، علي يحيى: **الإباضية بين الفرق الإسلامية عند كتّاب المقالات في القديم والحديث**، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، ط٢، ١٩٩٤م. (الكتاب من جزأين).

(٦٩) حواله، يوسف بن أحمد: **الحياة العلمية في إفريقية "المغرب الأدنى" منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري (٩٠-٤٥٠هـ)**، مَكّة الْمُكرّمة، جامعة أم القرى، ط١، ٢٠٠٠م، ص٤٩-٥٠.

(٧٠) **تاهرت:** مدينة قديمة عريقة تقع حاليًا في وسط شمال جمهورية الجزائر، كان يقطنها البربر تحت سلطة الروم البيزنطيين إلى أن فتحها المسلمون بقيادة عقبة بن نافع سنة ٦٢هـ/٦٨٣م، وفي سنة ١٦١هـ/٧٧٧م اتخذها عبد الرحمن بن رستم عاصمة لدولته وأطلق عليها اسم تاهرت. وبحلول القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، غدت المدينة في غاية الازدهار والرقي والاتساع والتحصين، ولشِدّة إعجاب الناس بها فقد وصفها بعض الرحالة بأنها عراق المغرب = العفيفي، عبد الحكيم: **موسوعة ١٠٠٠ مدينة إسلامية**، بيروت، أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٠م، ص١٥٩-١٦٠.

(٧١) **وَارْجَلان:** هي كورة بين إفريقية وبلاد الجريد، ضاربة في الْبَرّ كثيرة النخل والخيرات، واسم مدينتها فجوهة. وتُعرف حاليًا باسم "ورقة"، وتقع في الجنوب الشرقي لجمهورية الجزائر على بعد ٨٠٠كم عن العاصمة = ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، مصدر سابق، مج٣٧١/٥. كذلك ذكار، أحمد: **مدينة ورقلة التسمية والتأسيس (دراسة تاريخية)**، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، العدد ١٧، ديسمبر ٢٠١٤م، ص١٥٩.

(٧٢) **بلاد الجريد:** سُمّيّت بالجريد لكثرة النّخيل بها، وهي مُدُن كثيرة وأقطار واسعة وعمائر مُتّصلة، كثيرة الخَصْب والتّمر والزّيتون والفواكه وجميع الخيرات، وفيها المياه السائحة والأنهار والعيون الكثيرة. وهي آخر بلاد إفريقية على طرف الصحراء، أولها من جهة الساحل مدينة قابس، وآخرها مدينة درجين، وبينهما مدن وبلدان وكور عديدة من أهمها: مدينة حامّة مطماطمة ومدينة قفصة ونفطة ونفزاوة وكورة قسطيلية وغيرها الكثير مما لا يسع المجال لذكره = مجهول: **الاستبصار**، مصدر سابق، ص١٥٠-١٥٩.

(٧٣) مسعود مزهودي: **جبل نفوسة**، مرجع سابق، ص٢٠٧-٢٤١.

(٧٤) المرجع نفسه، ص٢٠٧، ٢٤١، ٤٣٧.

(٧٥) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، مصدر سابق، مج١٨٧/٤. كذلك الطاهر أحمد الزاوي: **الفتح العربي**، مرجع سابق، ص٩٢. ويكتبها ابن خلدون "غذامس" بالذال وليست الدال، على خلاف المؤرخين الآخرين = **تاريخ ابن خلدون**، مصدر سابق، ١٣١/٦.

(٧٦) مجهول: **الاستبصار**، مصدر سابق، ص١٤٥. كذلك الحميري: الروض المعطار، مصدر سابق، ص٤٢٧.

(٧٧) الطاهر أحمد الزاوي: **البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص٢٤١-٢٤٢.

(٧٨) تيري، جاك: **تاريخ الصّحْراء الليبية في العصور الوسطى**، ترجمة جاد الله عزّوز الطّلحي، مصراته، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ٢٠٠٤م، ص٤٣٥.

(٧٩) الطاهر أحمد الزاوي: **الفتح العربي**، مرجع سابق، ص٩٢-٩٣.

(٨٠) مجهول: **الاستبصار**، مصدر سابق، ص١٤٦.

(٨١) الطيف، علي حامد خليفة: **المراكز التّجاريّة الليبيّة وعلاقتها مع ممالك السّودان الأوسط وأثرها على الحياة الاجتماعيّة خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريّين/ الرابع عشر والخامس عشر الهجريّين**، طرابلس، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ط١، ٢٠٠٣م، ص٤٥.

(٨٢) جاك تيري: **الصحراء الليبية**، مرجع سابق، ص٤٤٠.

(٨٣) بوتشيش، إبراهيم القادري: **الصّلات التّجاريّة بين عمان وبلاد المغرب في العصر الإسلامي أُسُسُهَا مَظَاهرها ونتائجها على البلدين**، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق، العددان ٦٩-٧٠، كانون الأول ١٩٩٩م، ص١٤٨.

(٨٤) الحشائشي، محمد بن عثمان: **رحلة الحشائشي إلى ليبيا سنة ١٨٩٥م (جلاء الكرب عن طرابلس الغرب)**، تقديم وتحقيق علي مصطفى المصراتي، بيروت، دار لبنان للطباعة والنشر، ط١، ١٩٦٥م، ص١٢٧.

(٨٥) الْوَزّان، الحسن بن محمد المعروف بليون الأفريقي: **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حَجّي ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٣م، ١٤٦/٢.

(٨٦) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، مصدر سابق، مج١٨٧/٤. كذلك القزويني، زكريا بن محمد بن محمود: آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، د.ت، ص٥٧.

(٨٧) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، مصدر سابق، مج١٨٧/٤. كذلك القزويني: آثار البلاد، مصدر سابق، ص٥٧.

(٨٨) البابور، منصور محمد: **غدامس التّحَضّر والقاعدة الاقتصادية**، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، ط٢، ١٩٩٥م، ص٢٤.

(٨٩) محمود، مصطفى: **مغامرة في الصحراء**، القاهرة، دار المعارف، ط٧، ١٩٩٧م، ١٤.

(٩٠) المرجع نفسه، ص١٥-١٦.

(٩١) الطاهر أحمد الزاوي: **البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص١٧٧. كذلك الطاهر أحمد الزاوي: الفتح العربي، مرجع سابق، ص٣٩.

(٩٢) البكري: المغرب، مصدر سابق، ص١١.

(٩٣) المصدر نفسه، ص١٠.

(٩٤) المصدر نفسه والصفحة.

(٩٥) الطاهر أحمد الزاوي: **البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص١٧٧.

(٩٦) جاك تيري: **الصحراء الليبية**، مرجع سابق، ص٤٦٠.

(٩٧) اليعقوبي: **البلدان**، مصدر سابق، ص١٨١.

(٩٨) الشّريف الإدريسي: **نزهة المشتاق**، مصدر سابق، مج٣١٢/١-٣١٣.

(٩٩) المصدر نفسه، مج٣١٢/١-٣١٣.

(١٠٠) الطاهر أحمد الزاوي: **البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص١٧٧.

(١٠١) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، مصدر سابق، مج١٥٩/٣.

(١٠٢) الطاهر أحمد الزاوي: **الفتح العربي**، مرجع سابق، ص٣٩.

(١٠٣) البكري: **المغرب**، مصدر سابق، ص١١. كذلك علي حامد خليفة الطيف: **المراكز التّجاريّة**، مرجع سابق، ص٤٦.

(١٠٤) التّطيلي، بِنْيَامين بن يونة: **رحلة بِنْيَامين التّطيلي ٥٦١-٥٦٩هـ/١١٦٥-١١٧٣م**، ترجمها عن النّص العبري وعلّق على حواشيها وكتب ملاحقها عَزْرا حَدّاد، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ط١، ٢٠٠٢م، ص٣٤٧.

(١٠٥) جاك تيري: **الصحراء الليبية**، مرجع سابق، ص٤٦٠.

(١٠٦) البكري: **المغرب**، مصدر سابق، ص١٠.

(١٠٧) الشّريف الإدريسي: **نزهة المشتاق**، مصدر سابق، مج٣١٠/١.

(١٠٨)ابن حوقل: **صورة الأرض**، مصدر سابق، ق64/1. المقدسي: **أحسن التقاسيم**، مصدر سابق، ص٢١٥-٢١٦. الْعَبْدَري: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٢٠٦. الْوَزّان: **وصف أفريقيا**، مصدر سابق، ١١٢/٢. العيّاشي: **الرحلة**، مصدر سابق، مج٢٠٦/١-٢٠٧. الحشائشي: **رحلة الحشائشي**، مصدر سابق، ص١٣٥. محمد مصطفى بازامه: **تاريخ برقة في العهد العثماني الأول**، بيروت، دار الحوار الثقافي العربي الأوروبي، ط١، ١٩٩٤م، ص٢٩.

(١٠٩) **الأحمر**: مكان بأرض سُرْت، يقع شرقي مدينة سُرت بنحو ٨٥كم = الطاهر أحمد الزاوي: **البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص٢١.

(١١٠) **الْمُنعِم**: مكان شرقي مقطاع الكبريت في أرض رملية، فيها كثير من الأعشاب التي تنبت في الأرض السبخة وبه أحساء ماء عذب = الطاهر أحمد الزاوي: **معجم البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص٣٢٥.

(١١١) **سُلُوك**: أو سلوق: مكان بإقليم برقة جنوبي مدينة بنغازي إلى الشّرق قليلاً بنحو ٥١كم، وهو لا يزال موجودًا إلى يومنا هذا، قرية من قُرَى برقة العامرة، بها مدرسة ومركز شرطة = الطاهر أحمد الزاوي: **معجم البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص١٩٣.

(١١٢) كان عربُ الإقليم يُطْلِقُون على برقة اسمين: "برقة البيضاء"، و"برقة الحمراء"، باسم لون الأرض. حيث إنّ المسافرين إذا دخلوا أرضًا يَتَلَوّنون بلون الأرض، فَتَرَى ثيابهم تَبْيَضُّ إنْ دخلوا البيضاء، وتَحْمَرُّ إنْ دخلوا الحمراء = الحشائشي: **رحلة الحشائشي**، مصدر سابق، ص١٣٥-١٣٦.

(١١٣) **التّميمي**: وادٍ على ساحل البحر، شرقي مدينة بنغازي بنحو ٣٥١ كم، وبه أحساء ماءٍ عذب = الطاهر أحمد الزاوي: **معجم البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص٨٣.

(١١٤) **الجبل الأخضر** اشتهر بهذا الاسم أو الصّفة بسبب ما يُغَطّي سطحه من النباتات والأحراش دائمة الخُضْرة، الأمر الذي جعل الأهالي يُطْلِقُون عليه في بعض الأحيان اسم "الغابة" = شرف، عبد العزيز طريح: **جغرافية ليبيا**، الإسكندرية، منشأة المعارف، ط٢، ١٩٧١م، ص٥٣، ٥٤.

(١١٥) **العَقَبَة الكبرى**: تُعرف اليوم باسم "عَقَبَة السّلّوم"، وهي عَقَبة صَخْرِيّة يختلف ارتفاعها بين ٢٥٠ و٣٠٠ مترًا على سطح البحر، وتُعتبر في التاريخ المعاصر هي الحَدّ الطبيعي العادي بين البلاد المِصْريّة وبلاد برقة = الطاهر أحمد الزاوي: **معجم البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص٢٢٨.

(١١٦) **البُطْنَان**: تُعرف اليوم بالمنطقة الممتدّة من جنوب شرق خليج بمبة نحو الشرق إلى مدينة طبرق، وهو هضبة لا يزيد ارتفاعها عن ٢٠٠م، تفصلها عن البحر سَهْلٌ سَاحليٌّ ضَيّق يختلف اتّساعه من مكان إلى آخر، ولكنّه لا يزيد عمومًا على ٤٠كم = عبد العزيز طريح شرف: **جغرافية ليبيا**، مرجع سابق، ص٥٨.

(١١٧) **الْعِقَابُ أو الْعَقَبَات**: مفردها الْعَقَبَةُ، وهو طريق في الجبل وَعَرٌ، والْعَقَبَةُ: الجبل الطويل، يَعْرِضُ للطريق فيأخذ فيه، وهو طويلٌ صعبٌ شديدٌ. = ابن مَنْظور، عبد الله بن محمد بن الْمُكَرّم بن أبي الحسن بن أحمد الأنصاري الخزرجي: **لسان العرب**، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، القاهرة، دار المعارف، د. ت، ٣٠٢٨/٣٤ (مادة عقب).

(١١٨) العيّاشي: **الرحلة**، مصدر سابق، مج٢٠٦/١-٢٠٧. كذلك ابن ناصر الدرعي: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٢٤٢. ابن الطَّيّب الشّرقيّ الفاسيّ، شمس الدين محمد: **الرحلة الحجازيّة**، مخطوط بجامعة لايبزيك بفيينا تحت رقم حفظ (٧٤٦)، ورقة ٤٧ وجه.

(١١٩) للمزيد ينظر: الْعَبْدَري: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٢٠٦.

(١٢٠) لا يُعرف بالدقة متى أُطْلِقَ على إقليم برقة اسم اتحاد المدن الخمس (البنتابوليس)، ذلك لأنّ هذا الاصطلاح لم يبرز في التاريخ إلا في القرن الميلادي الأول (أي خلال العصر الروماني)، ولكن من المرجح أنه كان موجودًا من قبله، تحديداً في العصر البطلمي للإقليم (٣٢٢-٩٦ق.م). علمًا بأنه كان يُعرف قبل ذلك بإقليم قورينائية (كيرينايكي)، نسبةً إلى أول مدنه وأهمها مدينة قورينى (كيريني)، التي أسسها مستوطنون من جزيرة ثيرا (سانتوريني الحالية باليونان) سنة ٦٣١ ق.م تقريبًا. للمزيد يُنظر = بطوليميوس: **جغرافية كلاوديوس بطوليميوس (بطليموس)- الكتاب الرابع وصف ليبيا (أفريقيا) ومصر**، نقله عن اللغة الإغريقية محمد المبروك الذويب، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، ط١، ٢٠٠٤م،

ص٥٧. كذلك محمد مصطفى بازامه: **مدينة بنغازي عبر التاريخ منذ نشأتها حتى الغزو الإيطالي**، بنغازي، دار ليبيا للنشر والتوزيع، ١٩٦٨م، ص١٧٨.

(١٢١) الطاهر أحمد الزاوي: **معجم البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص٦٠، ٦٤، ٨٤، ١٩١، ٢٨٥، ٣٠٨-٣٠٩.

(١٢٢) هيرودوتوس: **الكتاب الرابع من تاريخ هيرودوتوس (هيرودوت) - الكتاب الليبي والكتاب السّكيثي**، نقله عن الإغريقية محمد المبروك الذويب، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، ط١، ٢٠٠٣م، فقرة رقم (١٦٠)، ص١١١.

(١٢٣) عبد السلام محمد شَلّوف: **المواقع والوقائع الليبية**، مرجع سابق، ص٣٢، ٥٣٢، ٥٣٤.

(١٢٤) ابن سعيد: **بسط الأرض**، مصدر سابق، ص٨١. كذلك أبو الفدا: **تقويم البلدان**، مصدر سابق، ص١٢٧.

(١٢٥) ابن حوقل: **صورة الأرض**، مصدر سابق، ق١/٦٩.

(١٢٦) المقدسي: **أحسن التقاسيم**، مصدر سابق، ص٣٢٤.

(١٢٧) الشّريف الإدريسي: **نزهة المشتاق**، مصدر سابق، مج١/٣١٠.

(١٢٨) مجهول: **الاستبصار**، مصدر سابق، ص١٤٣.

(١٢٩) ابن سعيد: **بسط الأرض**، مصدر سابق، ص٨٠. كذلك ابن سعيد: **الجغرافيا**، ص١٤٦.

(١٣٠) ابن عبد الظاهر، محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين: **الرَّوْض الزّاهر في سيرة الملك الظّاهر**، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط١، ١٩٧٦م، ص٤١٥.

(١٣١) عبده، عبد الله كامل موسى: **مدينة برقة وآثارها الإسلامية عبق التاريخ وطُرُز العمارة**، القاهرة، دار الآفاق العربية، ط١، ٢٠٠٢م، ص٣٩.

(١٣٢) ابن منظور: **لسان العرب**، مصدر سابق، مج٦، ٤٧/ ٤١٦٨ (مادة مرج).

(١٣٣) اليعقوبي: **البلدان**، مصدر سابق، ص١٨١.

(١٣٤) المهلبي العزيزي: **المسالك والممالك**، مصدر سابق، ص٤٧.

(١٣٥) البكري: **المغرب**، مصدر سابق، ص٥. كذلك مجهول: **الاستبصار**، مصدر سابق، ص١٤٣. الحميري: **الروض المعطار**، مصدر سابق، ص٩١.

(١٣٦) اليعقوبي: **البلدان**، مصدر سابق، ص١٨١. كذلك الحميري: **الروض المعطار**، مصدر سابق، ص٩١.

(١٣٧) اعتمدنا في حساب الأميال هنا بالكيلومترات على مقدار ما يُسَاويه الميل عند المالكية، وهو ٣٥٠٠ ذراع، فالميل إذًا يساوي = (٣٥٠٠×٥٣=١٨٨٥ مترًا). وسنلتزم بتلك العملية الحسابية في كل ما يَرِدُ علينا من أميال لتحويلها إلى كيلومترات = محمد، علي جمعة: **المكاييل والموازين الشرعية**، القاهرة، القدس للإعلان والنشر والتسويق، ط٢، ٢٠٠١م، ص٥٠، ٥٣.

(١٣٨) ابن حوقل: **صورة الأرض**، مصدر سابق، ق١/٦٩.

(١٣٩) **البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص٩٥-٩٦.

(١٤٠) ابن حوقل: **صورة الأرض**، مصدر سابق، ق١/٦٩.

(١٤١) الشّريف الإدريسي: **نزهة المشتاق**، مصدر سابق، مج١/٣١٠-٣١١.

(١٤٢) البكري: **المغرب**، مصدر سابق، ص٥. كذلك مجهول: **الاستبصار**، مصدر سابق، ص١٤٤.

(١٤٣) ابن حوقل: **صورة الأرض**، مصدر سابق، ق١/٦٩-٧٠.

(١٤٤) البكري: **المغرب**، مصدر سابق، ص٥.

(١٤٥) الشّريف الإدريسي: **نزهة المشتاق**، مصدر سابق، مج١/٣١١. كذلك الحميري: **الروض المعطار**، مصدر سابق، ص١٢.

(١٤٦) الطاهر أحمد الزاوي: **البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص٢٠.

(١٤٧) حامد، سعيد علي: **تاريخ ومعالم الحضارة والعمران في ليبيا**، بحث منشور ضمن كتاب معالم الحضارة الإسلامية في ليبيا، القاهرة، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٦٣.

(١٤٨) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، مصدر سابق، مج١/١٠٠.

(١٤٩) الطاهر أحمد الزاوي: **البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص٢٠.

(١٥٠) أبا القاسم هو الخليفة الفاطمي الثاني في بلاد المغرب، والمُتَلقّب بالقائم بأمر الله (٣٢٢-٣٣٤هـ/٩٣٣-٩٤٥م). ولا تزال آثار الجامع المذكور موجودة إلى اليوم في مدينة أجدابية.

(١٥١) البكري: **المغرب**، مصدر سابق، ص٥.

(١٥٢) الطاهر أحمد الزاوي: **البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص٢١.

(١٥٣) سعيد علي حامد: **الحضارة والعمران**، مرجع سابق، ص١٦٣.

(١٥٤) ابن حوقل: **صورة الأرض**، مصدر سابق، ق١/٧٠.

(١٥٥) الشّريف الإدريسي: **نزهة المشتاق**، مصدر سابق، مج١/٣١١. كذلك الحميري: **الروض المعطار**، مصدر سابق، ص١٢.

(١٥٦) ابن حوقل: **صورة الأرض**، مصدر سابق، ق١/٧٠.

(١٥٧) محمد مصطفى بازامه: **واحات الجنوب البَرْقي بين الأسطورة والتاريخ**، بيروت، دار الحوار الثقافي العربي الأوروبي، ط١، ١٩٩٤م، ص٢٢٣-٢٢٤.

(١٥٨) جاك تيري: **الصحراء الليبية**، مرجع سابق، ص٣٩٧.

(١٥٩) سعيد علي حامد: **الحضارة والعمران**، مرجع سابق، ص١٥٦.

(١٦٠) الحميري: **الروض المعطار**، مصدر سابق، ص٣١٢.

(١٦١) ابن حوقل: **صورة الأرض**، مصدر سابق، ق١/٧٠.

(١٦٢) البكري: **المغرب**، مصدر سابق، ص٦.

(١٦٣) الطاهر أحمد الزاوي: **الفتح العربي**، مرجع سابق، ص٤٢.

(١٦٤) ابن حوقل: **صورة الأرض**، مصدر سابق، ق١/ص٧٠.

(١٦٥) علي حامد خليفة الطيف: **المراكز التّجاريّة**، مرجع سابق، ص٤١، ٤٢.

(١٦٦) الحميري: **الروض المعطار**، مصدر سابق، ص٣١٢.

(١٦٧) البكري: **المغرب**، مصدر سابق، ص٦.

(١٦٨) مجهول: **الاستبصار**، مصدر سابق، ص١٠٨-١٠٩. كذلك ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، مصدر سابق، مج٣/٢٠٦- ٢٠٧. الحِمْيَرِي: **الرّوض المعطار**، مصدر سابق، ص٣١٢.

(١٦٩) وردت عند أبي الفدا: "أوجلى" بالجيم واللام، وهو الوحيد الذي كتبها بهذه الطريقة، حيث اتفق بقية الجُغرافيين والرّحّالة على كتابتها "أوجلة"= أبو الفدا: **تقويم البلدان**، مصدر سابق، ص١٢٨.

(١٧٠) ابن حوقل: **صورة الأرض**، مصدر سابق، ق١/٧٠.

(١٧١) الطاهر أحمد الزاوي: **البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص٤٢.

(١٧٢) البكري: **المغرب**، مصدر سابق، ص١٢.

(١٧٣) ابن حوقل: **صورة الأرض**، مصدر سابق، ق١/٧٠.

(١٧٤) البكري: **المغرب**، مصدر سابق، ص١٢.

(١٧٥) محمد مصطفى بازامه: **الجنوب البرقي**، مرجع سابق، ص٢٥.

(١٧٦) سعيد علي حامد: **الحضارة والعمران**، مرجع سابق، ص١٧٦، ١٧٨.

(١٧٧) **بلاد كُوّار**: هي أرض مشهورة وبلادها مقصودة، ومنها يُستخرج الشّبّ المعروف بالشّبّ الكُوّاري، ومن أكبر مُدُنها "انكلاس"، و"القصبة"، و"أُمّ عيسى" = (الشّريف الإدريسي:

نزهة المشتاق، مصدر سابق، مج١/١١٦، ١١٧). وتقع مدينة كُوّار حاليًا في الشّمال الغربي لجمهورية تشاد، وقاعدتها مدينة كُوّار = علي حامد خليفة الطيف: **المراكز التّجاريّة الليبيّة**، مرجع سابق، ص٥٢.

(١٧٨) **كُوكُو**: مدينة مشهورة الذكر من بلاد السّودان، كبيرة الحجم تقع على ضفّة نهر يخرج من ناحية شمالها، لها مَلِك خاص بها، وأهلها لهم بأس وقهر لمن جاورهم من الأمم المحيطة بهم، وهم يُدْخِلُون التّجّار ويجالسونهم ويبضعونهم بالبضائع على جهة المقارضة = الشّريف الإدريسي: **نزهة المشتاق**، مصدر سابق، مج١/٢٨.

(١٧٩) المصدر نفسه، مج١/٣١٢. وعنه نقل أبو الفدا: **تقويم البلدان**، مصدر سابق، ص١٢٨. كذلك ابن سِبَاهي زَادَه: **أوضح المسالك**، مصدر سابق، ص١٧٩.

(١٨٠) ابن مليح، أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي: **أُنْس السّاري والسّارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيّد الأعاجم والأعارب (١٠٤٠-١٠٤٢هـ/١٦٣٠-١٦٣٣م)**، حَقّقه وقَدّم له وعلّق عليه محمد الفاسي، فاس، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، ١٩٦٨م، ص٣٥.

(١٨١) **الْمُغْرِبُ**، مصدر سابق، ص١٢.

(١٨٢) **نزهة المشتاق**، مصدر سابق، مج١/٣١٢.

(١٨٣) مجهول: **الاستبصار**، مصدر سابق، ص١٤٧.

(١٨٤) **تقويم البلدان**، مصدر سابق، ص١٣٨.

(١٨٥) ابن سِبَاهي زَاده، محمد بن علي البروسَوي: **أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك**، تحقيق المهدي عيد الرّوَاضيّة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٦م، ص365.

(١٨٦) جاك تيري: **الصحراء الليبية**، مرجع سابق، ص٤٤٥.

(١٨٧) **الْمُغْرِبُ**، مصدر سابق، ص١٢.

(١٨٨) **نزهة المشتاق**، مصدر سابق، مج١/٣١٢.

(١٨٩) المصدر نفسه، مج١/١٢٠.

(١٩٠) أبو الفدا: **تقويم البلدان**، مصدر سابق، ص١٢٨

(١٩١) المصدر نفسه، ص٢٩.

(١٩٢) الشّريف الإدريسي: **نزهة المشتاق**، مصدر سابق، مج١/٣١٢. كذلك أبو الفدا: **تقويم البلدان**، مصدر سابق، ص١٢٨. ابن سِبَاهي زَادَه: **أوضح المسالك**، مصدر سابق، ص٣٦٥. المقريزي، تَقِيّ الدين أحمد بن علي: **جَنّى الأزهار من الروض الْمِعْطَار**، تحقيق محمد زينهم، القاهرة، الدار الثقافية للنشر، ط١، ٢٠٠٦م، ص٧٥.

(١٩٣) جاك تيري: **الصحراء الليبية**، مرجع سابق، ص٤٤٦-٤٤٧.

(١٩٤) **بلاد الواحات**: هي بلاد كثيرة في الصحراء ما بين بلاد إفريقية وبلاد مصر. يكون الدخول إليها من أوجلة وزَلّة، وغيرها التي في صحراء مدينة طرابلس. وبلاد الواحات كثيرة التّمر والنّخل، وبها مُدُن كثيرة مُسَوّرة وغير مُسَوّرة، وكل مدينة منها لها اسم يعود إلى الواح، مثل: أريس الواح، وتنيس الواح، والواح الخارج، والواح صَبْرُوا، وكلها لها اسم مثل هذا، وأهلها مسلمون = مجهول: **الاستبصار**، مصدر سابق، ص١٤٧-١٤٨.

(١٩٥) مجهول: **الاستبصار**، مصدر سابق، ص١٤٧.

(١٩٦) الطاهر أحمد الزاوي: **البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص٣٤٩.

(١٩٧) ابن حوقل: **صورة الأرض**، مصدر سابق، ق١/٧٠.

(١٩٨) اليعقوبي: **البلدان**، مصدر سابق، ص١٨٣.

(١٩٩) الحميري: **الروض المعطار**، مصدر سابق، ص٦٠٨.

(٢٠٠) الشّريف الإدريسي: **نزهة المشتاق**، مصدر سابق، مج١/٣١٢.

(٢٠١) الطاهر أحمد الزاوي: **البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص٣٤٩.

(٢٠٢) البكري: **الْمُغرب**، مصدر سابق، ص١١.

(٢٠٣) المصدر نفسه والصفحة.

(٢٠٤) ابن حوقل: **صورة الأرض**، مصدر سابق، ق١/٧٠.

(٢٠٥) علي حامد خليفة الطيف: **المراكز التّجاريّة**، مرجع سابق، ص٤٤.

(٢٠٦) محمد مصطفى بازامه: **ليبيا**، مرجع سابق، ص٨٣-٩٠، ٩٢، ٩٦-٩٧.

(٢٠٧) هيرودوتوس: **الكتاب الرابع من تاريخ هيرودوتوس (هيرودوت) - الكتاب الليبي والكتاب السّكيثي**، نقله عن الإغريقية محمد المبروك الذويب، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، ط١، ٢٠٠٣م، فقرة رقم (٤٢)، ص٥٠.

(٢٠٨) محمد مصطفى بازامه: **ليبيا**، مرجع سابق، ص٩١.

(٢٠٩) المرجع نفسه، ص٩٢-٩٣.

(٢١٠) عبد العزيز طريح شرف: **جغرافية ليبيا**، مرجع سابق، ص ٨-٩.

(٢١١) LA BIBLIOGRAFIA DELLA LIBIA. وقد نُشِرَ هذا الكتاب سنة ١٩٠٣م بمدينة تورينو بإيطاليا، ثم أعيد طبعه بعد ذلك = محمد مصطفى بازامه: **ليبيا**، مرجع سابق، ص١٤، ٢٠ هامش (٦). كذلك عبد العزيز طريح شرف: **جغرافية ليبيا**، مرجع سابق، ص٩.

(٢١٢) محمد مصطفى بازامه: **ليبيا**، مرجع سابق، ص١٤.

(٢١٣) بَعَيُّو، مصطفى عبد الله: **دراسات في التاريخ اللوبي**، الإسكندرية، مطابع عابدين، د.ت، ص٨٩.

(٢١٤) المقدسي: **أحسن التقاسيم**، مصدر سابق، ص٢١٦.

(٢١٥) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، مصدر سابق، مج١/٢١٧.

(٢١٦) النّائب الأنصاري: **المنهل العذب** مصدر سابق، ١/٩. كذلك شارل فيرو: **الحوليّات الليبية** مرجع سابق، ص٢٧ (دراسة نقدية للمترجم).

(٢١٧) اليعقوبي: **البلدان**، مصدر سابق، ص١٨٤.

(٢١٨) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، مصدر سابق، مج١/٦٥.

(٢١٩) سويسي، محمد بشير: **أوجلة نقطة عبور ومَحَطّة للسلع التّجارية بينها وبين طرابلس**، بحث من ضمن أعمال الندوة العلمية الثالثة التي عُقِدَت بمركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية في ١٩٩٨/١٠/٣م ونُشِرَت في كتاب تحت عنوان الدور الاقتصادي لمدينة طرابلس كحلقة وصل بين أوروبا وأفريقيا (١٨٣٥-١٩٥٠)، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٨٨.

(٢٢٠) ابن خُرْدَاذْبة، أبو القاسم عبد الله بن عبد الله: **المسالك والممالك** (ويليه نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي)، مدينة ليدن المحروسة، مطبعة بريل، ١٨٨٩م، ص٨٤-٨٨.

(٢٢١) ابن جعفر الكاتب البغدادي، أبو الفرج قُدَامة: **نُبَذ من كتاب الْخَرَاج وصَنْعَة الكتابة (جاء مع كتاب المسالك والممالك لابن خُرْدَاذْبَة)**، مدينة ليدن المحروسة، مطبعة بريل، ١٨٨٩م، ص٢٢٠-٢٢٥.

(٢٢٢) البكري: المغرب، مصدر سابق، ص٤-١٦.

(٢٢٣) الشّريف الإدريسي: **نزهة المشتاق**، مصدر سابق، مج١/٣١١، وما بعدها.

(٢٢٤) البكري: **المغرب**، مصدر سابق، ص٥-٦.

(٢٢٥) المصدر نفسه، ص١٧. **وصَبْرَة أو صبراته:** مدينة قديمة أنشأها الفينيقيون حوالي سنة ٩٠٠ أو ٨٠٠ق. م، وكانت من أعظم المدن في الشمال الأفريقي، ومركزًا من أهم المراكز التجارية الفينيقية في تلك المنطقة. وكانت هي ومدينة أويا (طرابلس) ولبدة، يكونان إقليمًا واحدا هو إقليم طرابلس الآن، الذي كان يُطلق عليه في ذلك العصر كلمة "تريبولي"، ولا تزال آثارها شامخة إلى يومنا هذا = الطاهر أحمد الزاوي: الفتح العربي، مرجع سابق، ص٥٦-٥٧.

(٢٢٦) البكري: **المغرب**، مصدر سابق، ص٩.

(٢٢٧) المصدر نفسه، ص١٢.

(٢٢٨) علي حامد خليفة الطيف: **المراكز التّجاريّة**، مرجع سابق، ص٤٤.

(٢٢٩) البكري: **المغرب**، مصدر سابق، ص١٠.

(٢٣٠) **تَاجِّرِفْت:** مدينة آهلة تقع بين مَدِيْنَتَيْ وَدّان وزويلة، بينها وبين كل واحدة منهما حوالي أَحَدَ عَشَرَ يومًا، متوسطة بينهما، زويلة في غَرْبَيْهَا ووَدّان في شَرْقَيْهَا = ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، مصدر سابق، مج٥/٢.

(٢٣١) البكري: **المغرب**، مصدر سابق، ص١٢.

(٢٣٢) الشّعوب المنسوبة إلى الْبَرْبَرِ في وقتنا الحاضر لا يرغبون بتسميتهم بـ " الْبَرْبَر" وينفرون منها. ولديهم حاليًا اسم آخر يُعْرَفُون به ويُفَضّلونه ولا يُريدون سواه، وهو: "الأمازيغ"، ومفردها "أمازيجي"، أو "أمازيغي"، ومعناها الرجل الحُر النّبيل. وهو اسم يقال أنّ له جُذُورًا فينيقية، حيث أُطْلِقَت لفظة "مازيس"، على الشّعوب القَوِيّة التي تمَرّدت على الإمبراطورية الرومانية = الزّيْني، نُهَى: **أَيَّام الأمازيغ أضواء على التاريخ السّياسي الإسلامي**، القاهرة، دار الشروق، ط٢، ٢٠١٢م، ص١٥.

(٢٣٣) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، مصدر سابق، مج١/٣٦٨.

(٢٣٤) النّاصري، أبو العبّاس أحمد بن خالد: **كتاب الاستقصا لأخبار دُوَل المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق جعفر النّاصري وخالد النّاصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٩٧م، ١/١٢٠.

(٢٣٥) كمالي، إسماعيل: **سُكّان طرابلس الغرب**، تعريب وتعليق حسن الهادي بن يونس، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ١٩٩٧م، ص٢٠.

(٢٣٦) اليعقوبي: **البلدان**، مصدر سابق، ص١٨١، ١٨٢، ١٨٥.

(٢٣٧) المصدر نفسه سابق، ص١٨٣، ١٨٤، ١٨٥.

(٢٣٨) صفر، أحمد: **مَدَنيّة المغرب العربي في التاريخ**، تونس، دار نشر بو سَلامة، ١٩٥٩م، ص٥٧.

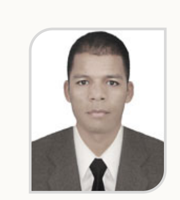
(٢٣٩) طليمات، عبد القادر أحمد: **سُكّان ليبيا عند اليعقوبي**، المؤتمر التاريخي ليبيا في التاريخ، الذي انعقد بكلية الآداب بالجامعة الليبية، الفترة ما بين ١٦-٢٣ مارس، ١٩٦٨م، ص١١٢.

(٢٤٠) رايت، جون: **تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور**، تعريب عبد الحفيظ الميّار وأحمد اليازوري، دار الفرجاني، طرابلس، ط٢، ١٩٩٣م، ص٨١.

(٢٤١) ديبوا، جون: **جغرافيا جبل نفوسة (دراسة ميدانية في الجغرافيا الطبيعية والبشرية)**، ترجمة عبد الله زارو، د.م، مؤسسة تاوالت الثقافية، ٢٠٠٥م، ٣١.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الفضاء العام في الغرب الإسلامي
بين السلطة الحاكمة والقوى المنافسة
قضايا ونماذج (ق٦ – ٨ هـ/ ١٢ – ١٤م)



د. المحجوب قدار
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
الأكاديمية الجهوية للتربية الوطنية (فاس)
وزارة التربية الوطنية – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

تحاول هذه الدراسة مقاربة موضوع الفضاء العام من الناحية التاريخية، من خلال تقصي مدى حضور هذا المفهوم في دول الغرب الإسلامي خلال الفترة الوسيطية، وتتبع تجليات علاقة كل من السلطة الحاكمة والقوى المنافسة بهذا الفضاء. وقد أبانت مباحث الدراسة على احتضان حواضر الغرب الإسلامي لفضاءات عامة متعددة اتسمت بطابع العمومية، واحتفظت برمزية مهمة في نظر السلطة والمجتمع، كما هو الحال بالنسبة للرحاب والمساجد الجامعة والأبواب الرئيسة في المدن. وبحكم أهمية هذا الفضاء في التأثير على سير الأحداث وتوجيهها، فقد كان مجالاً للصراع السياسي بين القوى المتنافسة خلال العصرين الموحدي والمريني، كما دفع بالسلطة الحاكمة إلى محاولة فرض الحصار على مختلف مكونات الفضاء العام وتشديد الرقابة عليه، فضلاً عن استغلاله لتعزيز شرعيتها في نظر المجتمع. إلا أنه على الرغم من الطابع المغلق الذي ميز دول الغرب الإسلامي خلال هذه الفترة، فإن ذلك لم يمنع "المعارضين" من استغلال هذا الفضاء من أجل توجيه رسائل النقد وعدم الرضا على بعض قرارات السلطة الحاكمة. قد يكون الفضاء العام في الغرب الإسلامي في الفترة الوسيطية مخالفًا في جوهره للمفهوم الذي ظهر به في الغرب، بحكم الاختلاف الحاصل بين الجانبين على مستوى المكان والزمان وطبيعة الثقافة المؤطرة، إلا أن الدراسة خلصت إلى حضور هذا الفضاء العام في ثقافة العصر الوسيط سواء على مستوى تخطيط المدينة مثل الرحاب، أو على المستوى الوظيفي لبعض الفضاءات التي منحتها الشريعة الطابع العام الوظيفي مثل المساجد. لكن الظاهر أن الطابع الديني قد طغى على معظم الفضاءات العامة، وذلك بحكم تحكم الشريعة الإسلامية في تأطير مختلف جوانب الحياة العامة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٦	فبراير	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٢٠	مارس	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

الفضاء العام؛ الموحدون؛ المرينيون؛ الغرب الإسلامي؛ السلطة الحاكمة؛ القوى المنافسة

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.231084

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

المحجوب قدار. "الفضاء العام في الغرب الإسلامي بين السلطة الحاكمة والقوى المنافسة: قضايا ونماذج (ق٦- ٨هـ/ ١٢-١٤م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثاني والخمسون؛ يونيو ٢٠٢١. ص ٣٥ – ٤٤.

Corresponding author: elmahjoubkeddar@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

على الرغم من أن ولادة مفهوم الفضاء العام قد ارتبط بالتجربة الغربية الأوربية خلال الفترة المعاصرة، إلا أن وجود الفضاء العام أو المجال العام لم يكن يوما مقتصرا على حضارة دون أخرى؛ إذ توفرت معظم الشعوب والدول والمجتمعات على فضاءات عمومية، أتاحت فرصة اللقاء والتداول في قضايا مختلفة، اتخذت طابعًا رسميًا أحيانًا وعفويًا أحيانًا أخرى. ويمكن التمييز بين عدة أنواع من الفضاء العام، فمنها الفضاء العام الديني والفضاء العام السياسي وغيرها من الفضاءات.

وقد احتضنت حواضر الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط عددًا من الفضاءات العامة في بنيتها الداخلية وتخطيطها العمراني مثل الرحاب والساحات، بينما أكسبت الشريعة الإسلامية بعض الفضاءات الأخرى طابعا وظيفيا عاما مثل المساجد. ومن نافلة القول إن هذه الفضاءات قد اضطلعت بأدوار مهمة في تطور المجتمع الإسلامي على مر تاريخه، لا سيما خلال الفترة الوسيطية التي شهدت على نشأة دول قوية في الغرب والشرق الإسلاميين. إذ مثلت مجالا للكثير من المداولات الجماعية في مختلف الأمور التي تهم الجماعة، كما كانت شاهدة على عدد من القضايا والأحداث الكبرى التي شغلت بال العامة والخاصة.

وبحكم أهمية هذا الفضاء في التأثير على سير الأحداث وتوجيهها، فقد كان مجالا للصراع السياسي بين القوى المتنافسة، كما دفع بالسلطة الحاكمة إلى محاولة فرض الحصار على مختلف مكونات الفضاء العام وتشديد الرقابة عليه. إلا أنه على الرغم من الطابع المغلق الذي ميز دول الغرب الإسلامي خلال هذه الفترة، فإن ذلك لم يمنع "المعارضين" من استغلال هذا الفضاء من أجل توجيه رسائل النقد وعدم الرضا على بعض قرارات السلطة الحاكمة.

تتوخى الدراسة الإجابة على إشكالية مركزية مفادها: ما مدى حضور وأهمية الفضاء العام في توجيه الأحداث داخل الدول الحاكمة بالغرب الإسلامي خلال الفترة المدروسة؟ ونروم من خلال هذه الإشكالية رصد أشكال حضور الفضاء العام في الغرب الإسلامي وأدواره، والتعرف على بعض أوجه استغلال هذا الفضاء العام سواء من قبل السلطة، أو من قبل المنتقدين و"المعارضين"، وأثر ذلك على التطور العام للأحداث خلال تلك الفترة، وبالضبط خلال العصرين الموحدي والمريني بالمغرب الأقصى بين القرنين السادس والثامن الهجريين الثاني عشر والرابع عشر الميلاديين.

وقد استندنا في معالجة الإشكالية أعلاه إلى مقاربة تاريخية تحليلية مقارنة، حرصنا خلالها على تتبع معاني الفضاء العام في الأدبيات الغربية والإسلامية، ومحاولة إبراز الفضاءات العامة في تراث الغرب الإسلامي التي عم النظر إليها على أنها مجالات عامة. معتمدين في كل ذلك على باقة مصدرية معاصرة للفترة المدروسة، إلى جانب جملة من المراجع والدراسات الحديثة التي اهتمت بالموضوع.

أولاً: الفضاء العام في الغرب الإسلامي (المفهوم والأدوار)

١/١-مفهوم المجال العام في السياق الغربي

ارتبط مفهوم المجال العام في الأدبيات المهتمة بهذا المبحث بالمرجعية الغربية بشكل يكاد يقصي حضوره في الثقافات والحضارات الأخرى الواقعة خارج حدود هذه المرجعية، إذ كثيرا ما يحيل المهتمون بهذا المجال إلى الأغورا أو الساحة عند الإغريق، أو الفوروم عند اليونان[١]. أما التأصيل النظري للمفهوم فتشير معظم الدراسات إلى فضل الألماني هابرماس Jürgen Habermas في سك المفهوم والتأسيس له، لا سيما بعدما نشر كتابه "التحولات الهيكلية للمجال العام البرجوازي" خلال ستينيات القرن الماضي، واكتسبت أفكاره حول هذا المفهوم شهرة وانتشارا أكبر لما تمت ترجمة كتابه إلى الإنجليزية في تسعينيات نفس القرن. كما أوجد المفهوم لنفسه مكانا في عدة حقول معرفية بعدما شهد الحقل السياسي على ولادته.

وينطلق تعريف هابرماس للمجال العام من كونه "مجال للممارسات الفكرية المبنية على الاستعمال العام للعقل والمنطق من طرف أفراد خواص، حيث قدراتهم النقدية غير مرتبطة بانتمائهم إلى جهاز رسمي ما، أو إلى بلاط الملك، ولكن يرتبط بنوعية قراءاتهم ومشاهديهم الذين جمعتهم متعة الحوار التعايشي"[٢]، ويبدو أن هابرماس لم يشر في تعريفه إلى البعد المادي في المجال العام، لكن مع ذلك يبقى هذا البعد المادي المكاني حاضرا من خلال إعطائه أهمية كبيرة للنوادي والمقاهي الأدبية في السياق البورجوازي[٣].

وقد كان من الطبيعي أن تواجه أفكار هابرماس بالنقد بخصوص المجال العام، لعدة اعتبارات، فقد حصره بالطبقة البورجوازية مقصيا باقي الفئات الأخرى، كما أقصى باقي الفترات السابقة عن ظهور هذه الطبقة وباقي الحضارات. وفي هذا الصدد يؤكد البعض أن المجال ضم إلى جانب الطبقة البورجوازية فئات عريضة من الجماهير التي تكن بالضرورة

تهضم ما يقدم لها بقدر ما كانت تسعى إلى تشكيل هويتها من خلال التحرر والنقاش السياسي[٤]. لا سيما وأن المجال العام لم يكن دائما مكانا للاجتماع الديمقراطي الحر، بل كان مطبوعًا أحيانًا بالصراع الذي يسود العلاقات الاجتماعية.

٢/١-الفضاء العام في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط: مقاربة في المفهوم والأدوار

(٢/١) ١-الفضاء العام في الحضارة الإسلامية ولد مع نشأة أول مدينة إسلامية

إذا كانت المرجعية الغربية للمفهوم قد حصرت الفضاء العام في المدينة، وربطته بطبقة اجتماعية معينة وفترة زمنية محددة، فإن بروز هذا الفضاء في الحضارة الإسلامية قد ولد شكلا ومضمونا مع إنشاء أول مدينة إسلامية، وهي مدينة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم، ثم تمدد حضوره مع تمدد رقعة الإسلام فيما بعد، فالمدينة الإسلامية لم تكن مجرد حاضنة للسكان فقط، بل كانت تعبيرا عن ثقافة وفكر العصر الذي ولدت فيه[٥]. ويكفي الرجوع إلى أصول تخطيط وعمارة المدن الإسلامية لفهم مقاصد هذا العمران[٦]، فتخطيط هذه المدن لم يكن خاضعا لتخصص العمارة أو التخطيط الهندسي فقط بل خضع لأسس الشريعة الإسلامية بالدرجة الأولى، كما أنه يمثل نتاج تراكم كبير امتد لقرون، وصقل عبر خبرات الأجيال المتعاقبة. وهكذا شكلت تلك المدن فضاء مميزا انعكست فيه عبقرية الحضارة الإسلامية خلال تلك الفترة. فكانت بذلك ذات هوية حضرية مميزة، سمحت باستخدام الأماكن العامة كأداة من قبل السكان من أجل حماية حقوقهم وحرياتهم السياسية. ومن اليسير على الزائر للمدينة الإسلامية القديمة أن يميز بين المجالين الخاص والعام، فبحكم حق التملك الذي أقرته الشريعة الإسلامية فقد اشتملت المدينة الإسلامية على مجالات خاصة متعددة تدخل في حيز الملك الخاص مثل الدور والدكاكين والحمامات والأفران وغيرها، وإلى جانب ذلك ضمت مجالات عامة يمكن للجميع الوصول إليها، فهي بذلك مفتوحة في وجه الجميع للاستفادة منا، مثل المساجد والأسواق والرحاب والطرق والمسالك والمنتزهات والمحجات التي لا حق للفرد فيها سوى الانتفاع المادي والروحي[٧].

(٢/١) ٢-المسجد: أبرز فضاء عام في الدولة الإسلامية

إن القول بولادة المجال العام في الحضارة الإسلامية مع بناء مدينة الرسول ينطلق من حقيقة أن المسجد مثل أبرز فضاء عام في هذه الثقافة، فكان أول ما قام النبي صلى الله عليه وسلم بتشييده بعد وصوله للمدينة، فدوره وفق الرؤية الإسلامية يتجاوز كونه مكانا للصلاة والعبادة، بقدر ما كان مركزًا سياسيًا واجتماعيًا وحضاريًا وملتقى علميًا[٨]، وبالنظر لدوره المركزي في الحياة العامة للمسلمين فقد أخذ أيضًا مركزا وسطيا حتى على مستوى تخطيط المدينة، إذ عادة ما يأخذ قلب المدينة بينما تتحلق حوله باقي مكونات المدينة.

وعلى الرغم من التراجع الذي لحق دور المسجد في الحياة العامة وخاصة السياسية منها خلال الفترة الوسيطية، إلا أنه ظل يحتفظ بقدسية هامة في ذهنية الجميع، مما جعله في كثير من الأحيان ملجأ للمستضعفين والمظلومين من جور السلطة الحاكمة، أما دوره التعليمي والتربوي كمجال عام فقد استمر دون انقطاع خلال تلك الفترة. فضلاً عن استغلاله من طرف السلطة الحاكمة من أجل فرض الأمر الواقع وتعزيز شرعيتها، ولا غرو فالمداولة في شأن إحراق كتاب الإحياء للغزالي قد تمت بين الفقهاء في المسجد الجامع، وتمت عملية الحرق في صحن جامع السلطان[٩].

(٢/١) ٣-تعدد الفضاءات العامة في حواضر الغرب الإسلامي

لم يكن المسجد الفضاء العام الوحيد في المدينة الإسلامية الذي أتاح فرصة المشاركة في المداولات الجماعية، بل ضمت المدينة إلى جانب ذلك العديد من الفضاءات الأخرى ذات البعد التداولي في الأمور العامة، ومنها الرحبة[١٠]، تلك الظاهرة المدينية التي تتمثل في ترك فضاء ما أمام البنايات العمومية، كما أنها كانت تمثل امتدادا للمسجد، وقد ظهرت رحاب المسجد في الحواضر الإسلامية الكبرى خلال القرنين الأول والثاني الهجري[١١]. واستمرت في معظمها بعد ذلك كعنصر معماري، إذ غالبا ما نجدها في معظم الحواضر الإسلامية[١٢]. وفي هذا السياق يطالعنا الإدريسي بأن مدينة مراكش احتضنت الكثير من الرحاب، واصفا إياها بأنها "من أكبر مدن المغرب الأقصى لأنها كانت دار إمارة لمتونة ومدار ملكهم وسلك جميعهم وكان بها أعداد قصور لكثير من الأمراء والقواد وخدام الدولة وأزقتها واسعة ورحابها فسيحة ومبانيها سامية وأسواقها مختلفة وسلعها نافقة"[١٣]. وغالبا ما كانت تخصص تلك الرحاب للاحتفالات العسكرية واستعراض الجيوش، كما استقبل فيها الخلفاء الموحدون وفود البيعة، واحتضنت عملية التمييز[١٤]، إلى جانب فضاءات أخرى مثل فضاء البحيرة خارج مراكش[١٥]، كما احتضنت الرحاب في مراكش الموحدية مداولات جماعية للتداول في أمور عامة، كقراءة كتب الخليفة أو الحضور لعقاب أحد العصاة أو المعارضين[١٦]، إلا أن تلك

المداولات قد غلب عليها الطابع العمودي الموجه من طرف السلطة.

احتفظت بعض الأبواب الرئيسة في الحواضر الكبرى بدورها بأهمية كبرى كجزء من المجال العام، فقد كانت شاهدة على عدد من عمليات عقاب المعارضين، كما استغلها المعارضون لإظهار معارضتهم وتنفيذ انتفاضاتهم. فتصميم المدينة الإسلامية القائم على التحصين وفق نمط الأبواب والأبراج أعطى للأبواب مكانة خاصة، وجعل منها معلما رئيسيا لساكنة المدينة، لذلك عادة ما كانت السلطات تستغل هذه الرمزية لإظهار قوتها وفرض هيبة الدولة عبر تنفيذ عقوباتها على المعارضين وقطاع الطرق في هذا المكان قصد بث الخوف والرعب في قلوب كل سولت له نفسه شق عصا السلطة، ومن بين تلك الأبواب باب الشريعة وباب الرب..[١٧]. كما كان يلقى قطاع الطرق نفس المصير حيث كان يتم القبض عليهم ويلقى بهم في السجون، وقد يتم إعدامهم وصلبهم على أسوار المدن كما حدث مع قطاع من عرب بلاد تامسنا أيام السلطان المريني أبو ثابت[١٨]. واستعانت السلطة إلى جانب ذلك بالأسوار التي كانت تعلق عليها رؤوس هؤلاء[١٩]. كما استغل الثوار والمعارضون بدورهم فضاءات الأبواب لتجسيد معارضتهم، فلما ثار قائد مراكش يوسف بن عياد على السلطان أبي ثابت المريني ودعا لنفسه عليها سنة ٧٠٧ هـ، قتل عددا كبيرا من جند الإفرنج مع قائدهم بمراكش وعلق رؤوسهم على أبواب مراكش[٢٠]. لكن السلطان تمكن منه فقتله بالسوط، وقطع رأسه وبعث به إلى مدينة فاس فطيف بها، كما أعدم عددا كبيرا ممن آزره وعلق رؤوسهم على باب الرب أحد أبواب مدينة مراكش[٢١].

أما شوارع المدن فقد وظفت أيضًا كمجال عام لترعيب الناس، فعادة ما كانت عقوبات زعماء الانتفاضات تتم عبر الطواف بجثتهم في الشارع العام وعبر المدن[٢٢]، فتطبيق العقوبات بها على المعارضين كان الهدف منه ترهيب كل من يحاول مخالفة السلطان أو الثورة عليه[٢٣]. ويبدو مما سبق ارتفاع مستوى الحجر الذي كانت تفرضه السلطة الحاكمة على المجال العام، لا سيما في وجه المخالفين لها، إلى درجة احتكار السلطة لهذا المجال، وقد يبدو هذا أمر طبيعي بحكم طبيعة الحكم الشمولي الذي ميز دول المغرب الوسيط. كما حول المتصوفة بدورهم رباطاتهم وأماكن إقامتهم إلى ما يشبه الفضاء العام، يستقبلون فيه المريدين ويخطبون فيهم، لكن غالبا ما كانت هذه الفضاءات تتميز بدورها بالطابع العمودي في الخطاب.

٣/١-الشريعة: المؤطر الرئيس للفضاء العام في السياق الإسلامي

وعلى العموم، فمهما كانت طبيعة الفضاء داخل المدينة الإسلامية سواء كان عامًا أو خاصًا، فقد كان مؤطر بإطار الشريعة الإسلامية. فعلى الرغم من التحول الكبير الذي طرأ على نظام الحكم في الدولة الإسلامية مع مرور الزمن، إلا أن الشريعة ظلت مركزية في أبعاد نموذج الحكم الإسلامي بل هي الشعار المميز له[٢٤]. ولما كانت الشريعة قانونًا أخلاقيًا فقد أنشأت مجتمعا جيد التنظيم كما ساعدت على استمراره[٢٥]، كما طال نطاقها كل أفعال الإنسان الظاهرة بما فيها العبادات والمعاملات، والأنشطة الاقتصادية والأحكام الجنائية وقواعد تنظيم الدولة وإدارة الشأن العام وضوابط المجال العام وغيرها. ولا شك أن الصفة التشريعية للإسلام مثلت العامل الحاسم في نزعته السياسية التي لازمت أدواره التاريخية وأوجبت على المؤمنين به الانشغال المستمر بالمجال العام ومحاولة ضبطه وتوجيه مساره حتى يبدو موافقا للقانون الإلهي الذي نزل به الوحي. وعلى الرغم من اتساع الفجوة بين الدين والدولة على الأقل على مستوى الممارسة منذ العهد الأموي وما تلاه، فالجانب السياسي ضل يطغى عليه الجانب الديني في تجربة الحكم العملية[٢٦].

والظاهر أن الشريعة لم تكن موجهة للمجال العام في حال انضباط الحاكم لأحكامها فقط، بل لزامت الحياة العامة للمسلمين حتى في حالة جريان الحاكم على خلاف أحكامها، إذ يضل على المسلمين الالتزام بها والحرص على إقامتها في خاصة أمرهم وفيما قدروا عليه من المجال العام، وتأييد من يعلن سيادتها ويسعى إلى تطبيقها من الحكام والسلاطين[٢٧]. ومن الطبيعي أن الدولة إذا ما زاغت عن طرائق الحكم المخالفة للشريعة كلما فقدت شرعيتها وزال مبرر بقائها[٢٨]. وذلك ما يصدقه الواقع التاريخي وتتواتر عليه أخبار المؤرخين في التاريخ الإسلامي عامة.

ومع التطور الحاصل في الدولة في الرقعة الإسلامية على امتداد العصر الوسيط فقد كان من الطبيعي أن يحصل تطور على مستوى تأطير المجال العام، إذ لم يبق حبيس الشريعة الإسلامية فقط، بل انضافت إليها متغيرات الواقع التاريخي المستمد من رؤية الدولة الحاكمة للواقع السياسي والتوازنات السياسية، وتصريفها للحكم بما يخدم مصالحها ويطيل عمرها

السياسي، مما أفرز بونا واسعًا أحيانًا بين مقتضى الشريعة ونظر الواقع بخصوص المجال العام وغيره من شؤون التدبير السياسي العام. ومع ذلك فالملاحظ أن جميع الدول غالبا ما كانت ملزمة بتطبيق الشريعة الإسلامية حتى تكتسب صفة الشرعية، في أعين الرعية، وهكذا ظل مفهوم الأمة الإسلامية المخاطبة بالشريعة مفهومًا ثابتًا في تجربة الحكم الإسلامي خلال العصر الوسيط[٢٩]، وهذا ما شكل من الشريعة القانون المتعال على الأقاليم الجغرافية التي تشكلت منها دار الإسلام[٣٠].

ولسنا في حاجة إلى التأكيد على الفرق الواضح بين الفضاء الخاص والفضاء العام على مستويات متعددة، فطبيعة الفضاء تؤثر على جوانب كثيرة من الحياة العامة، وحسبنا أن فعل العقاب كان يتأثر بالفضاء الذي يجري فيه العقاب، فللفضاء الخاص نواميسه وللفضاءات العامة قوانين أخرى تختلف عن الأولى اختلافا جذريًا في الكثير من الأحيان، ولذلك كان للعامة سجونهم وللخاصة سجونهم، وكان إخفاء ما يجري في القصر والبلاطات من هيبة الدولة[٣١].

ثانيًا: جوانب من احتكار السلطة للفضاء العام (نماذج من الدولة الموحدية والمرينية)

١/٢-دور العصبية في تشديد الحكام الرقابة على الفضاء العام

ارتبطت نشأة الدول في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط بعناصر متعددة، في مقدمتها العصبية، فالدولة الموحدية انطلقت من عصبيتها المصمودية، أما الدولة المرينية فقد استندت إلى العصبية الزناتية. ولأن بلوغ الحكم كان يقتضي التغلب على باقي العصبيات المنافسة بما في ذلك تلك الماسكة بزمام الأمور، فقد كان الانفراد بالمجد هو الأساس الذي قامت عليه سياسة معظم دول تلك المرحلة. فالعصبية الأقوى تعمل على التغلب على باقي العصبيات الأخرى وتصيرها جميعها في ضمنها، فيتعين الرئيس من بيت الرئاسة فيها، "فيجدع _هذا الأخير_ أنوف العصبيات ويكبح شكائمهم عن أن يسموا إلى مشاركته في التحكم ويقرع عصبيتهم عن ذلك، وينفرد بما استطاع حتى لا يترك لأحد منهم ناقة ولا جملا، فينفرد بذلك المجد بكليته ويدفعهم عن مساهمته فيه"[٣٢].

وما دام أن الأمور كانت تسير وفق هذا النمط، فقد كان من الطبيعي أن يطال احتكار السلطة الحاكمة للفضاء العام على اختلاف أنواعه، سواء كان دينيا أو سياسيا أو علميا أو غيره. فكل ما من شأنه أن يعكر صفو هذا التفرد بالمجد كانت الدولة تقوم بوأده أو تشديد الرقابة عليه بطرقها المختلفة. وتبعا لذلك فليس غريبا أن يغلب على أخبار المؤرخين حول الفضاءات العامة في الدولة أنها كانت تستغل لفرض هيبة الدولة الحاكمة واستعراض مظاهر قوتها وتعزيز حضورها في المشهد العام داخل البلد وفي ذهنية عامة الناس وخاصتهم، سواء من خلال مراسيم تقديم البيعة أو مشاهد الاحتفالات واستعراض الجيوش. فقد دأبت الدولة الموحدية على استغلال الرحاب الفسيحة في الحواضر الكبرى خاصة في مدينة مراكش من أجل تمرير طقس التمييز الذي اقترن بإنعام الخليفة على من فازوا بالتمييز[٣٣]، فالقبائل التي كانت سباقة إلى الدخول في الدعوة الموحدية كانت تسبق غيرها في التقديم والبروز وقس على ذلك الأفراد. وقد طال هذا الاحتكار المجالس العلمية بدورها، فقد كانت محاطة بنوع من الرقابة لا سيما في الدولة الموحدية، وعلى الرغم من أن بعض المجالس قد تتسم بنوع من الخصوصية التي قد تخرجها من تصنيف الفضاء العام، لا سيما تلك التي تتم بحضور الخليفة، إلا أنها مع ذلك اتسمت بالاحتكار من قبل السلطة على مستوى الخطاب.

ولم يكن المسجد خارج حسابات الدول الحاكمة، بل كان خاضعا بدوره لرقابة الدولة، وقد بلغ تقدير الدولة الموحدية لأهمية هذا الفضاء ودوره في إكساب الشرعية مستوى إلغاء المصامدة للمسجد الجامع الذي أقامه المرابطون بمراكش، وتركوه معطلاً مغلق الأبواب وصنعوا لأنفسهم مسجدا جامعا يصلون فيه[٣٤]. كما يخبرنا نص آخر أن فقهاء فاس لما عرفوا بعقيدة الموحدين قاموا بطمس معالم المرابطين بجامع القرويين خوفا من انتقادهم[٣٥].

٢/٢-استعمال الفضاء العام الديني لشرعنة العقوبة على ابن رشد

تقف حادثة نكبة ابن رشد الحفيد على حجم استغلال السلطة الحاكمة للفضاء العام من أجل تأمين وجودها، فقد اشهر الرجل بسعة علمه وتقدمه على علماء عصره، مما جعله وجيها عند الملوك وفير المكانة لدى الخاصة والعامة، كما عرف عنه انتقاده للسلطة السياسية الحاكمة في الأندلس رغبة منه في تحسينها، ولعل هذا ما جر عليه نقمة السلطة، التي بدأت تترصد هفواته بغية إثبات التهمة عليه لتبرير نكايتها به، ومن

أجل إضفاء الشرعية على هذا العقاب لجأ المنصور إلى التداول في تهم ابن رشد في المسجد الجامع بقرطبة وبحضور طلبة مجلسه وفقهاء دولته والملأ من قومه بقصد "تعريف الملأ بأنه مرق من الدين وأنه استوجب لعنة الضالين"[٣٦]. ومن أجل إبعاد الشبهة عن النظام فإنه لم يؤاخذ الرجل بانتقاده للنظام أو بعلاقته المحتملة بأبي يحيى أخي المنصور الذي دعا لنفسه في قرطبة لما كان المنصور مريضًا[٣٧]، بل اتهمه بخروجه عن الشريعة لما زعم خصومه بأنه قال أن الزهرة أحد الآلهة[٣٨]. فإدراك السلطة لمكانة ابن رشد العلمية اضطرتها إلى اللجوء إلى الفضاء الديني من أجل النيل منه، وذلك بحكم الحساسية الكبيرة لهذا الفضاء لدى العامة والخاصة، بينما أخفت المبرر الحقيقي تجنبا للإحراج الذي كان سيتسبب فيه للمنصور الموحدي لو كشف. ومع أن ابن رشد قد منح حق الرد والدفاع عن نفسه بالجامع نافيا ما نسب إليه ومبينا أن ما ذهب إليه وتفنيد ما لفقوه له، إلا أن القعوبة كانت شبه مقررة، ولم تعد تنقصها سوى المراسيم المشرعنة لها بمباركة زملائه في الحرفة وهم الفقهاء، ومنهم الخطيب أبو علي بن حجاج الذي ابتدر الكلام بالجامع معرفا " الناس بما أمر به، من أنهم مرقوا من الدين، وخالفو عقائد المؤمنين فنالهم ما شاء الله من الجفا"[٣٩]. وتجدر الإشارة إلى المداولة طالت إلى جانب ابن رشد القاضي أبو عبد الله بن إبراهيم الأصولي لأشياء نقمت عليه في مجالس المذاكرة لم يتم ذكرها[٤٠].

وليس غريبا أن تلجأ السلطة إلى نكبة ابن رشد، فالسلطة الحاكمة لم تكن تتخوف من نقده لها فقط، بل من الشعبية والمصداقية التي كان يتمتع بها لدى الناس أيضًا، فقد كان "حسن الخلق جميل المداراة فصيح العبارة وجادا للكلام في المجالس السلطانية والمحافل الجمهورية"[٤١]، مما أهله لمنافسة السلطة في احتكارها للفضاء العام. ومما زاد من خطورته في نظر السلطة أن وقع كلمته كان نافذا في أوساط العامة والخاصة، وحسبنا أنه كان يحض الناس على الجهاد والغزو في المسجد الجامع بقرطبة بقصد موقعة الأرك[٤٢].

ولأن فكر ابن رشد هو من تسبب للسلطة في كل تلك المتاعب، فقد لحقت النكبة كتب ابن رشد أيضًا، حيث طالها الحرق والتدمير[٤٣]. ولا ريب أن السلطة الموحدية قد نجحت في زعزعة صورة ابن رشد في عيون العامة، حتى أنه طرد وابنه من إحدى مساجد قرطبة من طرف سفلة العامة[٤٤].

وما إعفاء المنصور عن ابن رشد بعد ذلك إلا دليل على حاجته لأفكاره، خاصة بعد تأكده من ذهاب أسباب البأس بإحراق كتب الفلسفة كلها بما فيها الكتاب الذي أثار كل هاته المشاكل، بل إن إحراق تلك الكتب لم يكن انتقاما للفلسفة بقدر ما كان تغطية للكتاب المقصود.[٤٥]

ثالثًا: جوانب من استغلال الثوار والمعارضين للفضاء العام

على الرغم من أن السلطة الحاكمة بالغرب الإسلامي قد ضيقت من مساحة التعبير في الفضاء العام على المخالفين لتوجهها العام، إلا أن النصوص لا تعدمنا من بعض الإشارات الدالة على استغلال منتقدي النظام لهذا الفضاء من أجل إيصال رسالتهم. وقد تفاوت نقدهم بين المجاهرة والتلميح، بينما أخذ أحيانا شكل ثورات وانتفاضات انطلقت من فضاءات عامة. وسنحاول التدليل على استغلال المعارضين للفضاء العام من خلال ثلاث نماذج:

١/٣-العبدري يوجه انتقادًا خفيًا للمنصور الموحدي في فضاء عام

لما كان النقد الصريح للسلطة يعد مخاطرة حقيقية، فقد لجأ البعض إلى طرق غير مباشرة في توجيه رسائل النقد والتصويب للحكام، اتسمت بالتلميح، وطبعت بطابع السخرية السياسية، مع ما كان يتطلبه هذا النوع من النقد من مهارات أدبية وفنية إلى جانب الشجاعة السياسية والجرأة على الحكام، وكلها كانت صفات تمتع بها أحمد بن يحيى العبدري (ت. ٥٩٩هـ) الذي عرف بجرأته على الأمراء من بني عبد المؤمن، إلى جانب تمتعه بمكانة خاصة لدى الخاصة والعامة. فلما قدم المنصور بنيه وصغار إخوته وبني عمومته وذوي قرابته ولاة على البلاد، عمد العبدري إلى السخرية من هذا الإجراء الذي أنكره هو، كما أنكره الأشياخ والرؤساء داخل الدولة ولم يقدروا على مجاهرته. فاستغل العبدري فضاء مجلس الطلبة من أجل توجيه سهام نقده، "فعمد إلى أزياء الملابس التي جرت عادة المترفين باستعمالها في فصل شدة القر كالفرو وثياب الملف والقباطي والبرانس، فاستكثر من لباسها وظاهر بعضها ببعض؛ وحضر بها بمجلس خواص الطلبة ومجتمعهم بدار الإمارة، فعجبوا من استعماله مثل تلك الشارة في ذلك الفصل واستشعروا أن فعله ذلك لإحدى فواقره، ومقدمة لبعض نوادره فسألوه عن سبب مظاهرته بتلك الملابس في ذلك الفصل الذي لا يستطيع أحد استعمال مفرداتها، فقال لهم: إنما قدرت أنه فصل القر وشدته وأنا منه في شهر ينير بلسان الروم ... فقيل له: وما الذي حملك على هذا التقدير فقال: إني رأيت المدائن فرقت على الصبيان والأطفال يعبثون بها ويعيثون فيها ثم

يأكلونها، يوري عن المدائن وهي البلاد بالمدائن التي عهد ببلاد المغرب والأندلس عملها في النيروز من الدقيق ... ثم يدفع ذلك كله إلى الأصاغر إدخالا للسرور وتوسيعًا في الترفيه لأحوالهم، وتبشيرًا بخصب عامهم وتفاؤلا لبسط الرزق فيه لهم فيبهجون ويتمكن جذلهم ويتفاخرون بمقاديرها بينهم ويتمادى ... لديهم أياما بحسب كثرتها وقلتها ثم يأتون عليها أكلا وتفكها بما معها من أصناف الطرف والفواكه"[٤٦].

ويعكس النص أعلاه تجاوب الطلبة وغيرهم ممَنْ حضروا سخرية العبدري من المنصور بتلك الطريقة إنكارهم للتقديم السالف الذكر أيضًا، كما كان من الطبيعي أن تثير تلك السخرية السياسية لأعلى هيئة سياسية في البلاد حنق المنصور، لا سيما وأنها تمت في فضاء شبه عام أمام علماء وطلبة الحضرة، كما ألبست لباس التهكم. لكن يبدو أن المنصور لم يتخذ أي إجراء عقابي في حق العبدري كما كان متوقعا، لكنه في المقابل لم ينس له ذلك، بل أرجأ له العقوبة إلى حين تلبسه بجرم مشهود، وهو ما حدث حينما وجد منه يوما بمجلس المنصور ريحا مسكرا، وحينئذ كان مسوغ عقابه مبررًا، فأنزل به الخليفة الحد، بل غضب عليه وأبعده عن مجلسه وحظر عليه لقاء الناس[٤٧].

وليس غريبًا أن يكون وقع تلك السخرية قويًا على المنصور، فالنقد المغلف بالسخرية كانت له قدرة كبيرة على ترك الأثر في الناس والتأثير عليهم، وتحريك غضبهم وسخطهم على السلطة[٤٨]. ولعل هذا ما جعل المنصور يقدم على "فسخ ذلك التقديم وصرف أولئك الأصاغر عن تلك الولايات في البلاد"[٤٩]. ومهما يكن فالعبدري وإن كان حصاد جرأته السياسية هو الإقصاء الرمزي، إلا أنه استطاع أن يحقق ما لم تقدر عليه الكثير من الثورات الصريحة على السلطة في كثير من الأحيان، إذ استطاع أن يدلي برأيه السياسي بطريقة مضمرة، جاعلا السلطة تتفاعل مع مطلبه. لكن عقاب السلطة له بتلك الطريقة ينبع من طابعها المغلق، ومن تقديرها لخطورة استغلال مثل هؤلاء الأشخاص للفضاء العام، بحكم امتلاكهم رصيدًا علميًا وأدبيًا وسياسيًا مهمًا، بإمكانه أن يؤثر على تفرد السلطة بالمجد.

٢/٣-مداولات جماعية بالمسجد تفضي إلى الثورة على النظام بفاس المرينية

تأثر دور المسجد كفضاء عام ديني في المداولات في الشأن العام السياسي بالتحول الذي طرأ على نظام الحكم في الدول الإسلامية، فبانتقالها إلى دولة القوة والتغلب تقلص دور المسجد بشكل كبير في الشأن العام للمسلمين، لكن ذلك لم يمنع من اضطلاعه بهذه المهمة في بعض الفترات من عمر الدول التي حكمت الغرب الإسلامي، فمكانة المسجد الدينية في الرؤية الإسلامية كمجال مقدس وموحد للناس، جعلته يحظى باحترام الجميع. وهكذا كان شاهدا على عدد من المداولات الجماعية التي خرجت بقرارات هامة، فالثورة ضد السلطان المريني عبد الحق كانت قد انطلقت من الفضاء العام الديني. فلما تعاظم دور اليهود في تدبير شؤون الدولة المرينية بمباركة من حكامها، أثار ذلك حفيظة السكان لا سيما بعد حادثة ضرب امرأة شريفة من طرف اليهودي الحسين صاحب الشرطة وتعذيبها وإهانتها؛ فكانت هذه الحادثة حافزا على مبادرة الأشياخ إلى الاجتماع بالشيخ عبد العزيز الورياكلي خطيب مسجد القرويين من أجل وضع حد لهذا الواقع، وكان معروفا بتشدده للحق والصرامة في تطبيقه. فأفضت المداولات إلى إعلان الثورة على السلطان المريني الضعيف عبد الحق ووزرائه اليهود والقضاء عليهم، فقاموا بخلع السلطان عبد الحق ومبايعة الشريف أبي عبد الله الحفيد الجوطي، فتم القبض على السلطان وقتله، كما تقدموا إلى حارة اليهود وقتلوا معظمهم واستولوا على أموالهم وقسموها[٥٠].

والواقع أن المداولات التي شهدها الفضاء العام بخصوص هذه النازلة كانت تحديًا للسلطة الحاكمة التي لم تكن لتسمح بمثل هذا الأمر، لكن عوامل كثيرة شجعت على القيام بها، فتنفذ العنصر اليهودي في جهاز الحكم كان يتعارض مع الشريعة الإسلامية، مما يفيد بأن الدافع الديني المؤطر بالشريعة هو الذي حرك الناس إلى الثورة على السلطان. ومما زاد من غيظ الناس ونقمتهم على اليهودي مبالغته في تعذيب المرأة لما سمعها تتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم، فـ "سمع الناس ذلك فأعظموه"[٥١]. كما أن وجود العالم المؤثر والموجه في شخص الفقيه الورياكلي كان مهما في إلهاب حماس الناس بالثورة، فقد "كانت له صلابة في الحق وجلادة عليه، بحيث يلقى نفسه في العظائم ولا يبالي"[٥٢]. والواقع أن ما شجعهم أكثر على الثورة غياب السلطان عن المدينة في حركة في بعض النواحي من جهة الهبط[٥٣].

٣/٣-استحرام القاضي الزرويلي بالفضاء الديني هروبًا من بطش السلطة

أمام الاستبداد الذي كانت تمارسه السلطة أحيانًا في حق العلماء كان الفضاء العام الديني ملاذا آمنا عادة ما كان يستحرم به هؤلاء للنجاة من بطش الحكام، وفي هذا السياق تطالعنا النصوص أن القاضي علي بن عبد الحق الزرويلي

المعروف بأبي الحسن الصغير (ت. ٧١٩ هـ) قد اعتصم بالمسجد بمدينة فاس لما علم بعزم الوزير الفتك به، على إثر تطبيق القاضي لعقوبة الحد في حق أحد سفراء الأندلس بعدما تم ضبطه في حالة سكر علني، وكان أبو الحسن شيخا معروفا بعدله وتشدده في إقامة حدود الله. والواقع أن القاضي لم يكتف بالاستحرام بالمسجد بل نادي بالمسلمين في المدينة، فاستجاب سكان المدينة الذين ثاروا على الوزير وحاشيته[٥٤]، ولما عم المرج والمرج في المدينة أحضر السلطان حاشية الوزير وأمر بقتلهم مهدئا الأمور في المدينة[٥٥]. وقد أثار هذا الحدث الفتنة بين السلطان سليمان المريني ووزيره عبد الرحمان الوطاسي، مما يدل على المكانة التي كان يمثلها الفضاء العام الديني في تغيير ميزان القوى وتغيير مسار الأحداث.

والظاهر أن الاستحرام بالمسجد إنما ينبع من الوعي الجماعي بحرمة هذا الفضاء وقدسيته، فالسلطة نفسها لم تكن قادرة على انتهاك حرمته، ليس خوفًا من العقاب الإلهي فحسب، وإنما خوفا على وجودها واستمراريتها، فشرعية الدول الوسيطية عامة كانت مستمدة في معظمها من الحقل الديني، وبالتالي فمن شأن انتهاك حرمة المسجد، أو الاعتداء على أي معارض كيفما كان داخل هذا الفضاء أن يسبب في سقوط شرعية الدولة. ولا غرو فقد شكلت مختلف الفضاءات الدينية بما فيها الأضرحة والمزارات فضاءات استحرم بها المغاربة في فترات زمنية مختلفة[٥٦].

خَاتِمَةٌ

قد يكون الفضاء العام في الغرب الإسلامي في الفترة الوسيطية مخالفًا في جوهره للمفهوم الذي ظهر به في الغرب، بحكم الاختلاف الحاصل بين الجانبين على مستوى المكان والزمان وطبيعة الثقافة المؤطرة، إلا أن الدراسة خلصت إلى حضور هذا الفضاء العام في ثقافة العصر الوسيط سواء على مستوى تخطيط المدينة مثل الرحاب، أو على المستوى الوظيفي لبعض الفضاءات التي منحتها الشريعة الطابع العام الوظيفي مثل المساجد. لكن الظاهر أن الطابع الديني قد طغى على معظم الفضاءات العامة، وذلك بحكم تحكم الشريعة الإسلامية في تأطير مختلف جوانب الحياة العامة.

اضطلع الفضاء العام بالغرب الإسلامي بمهام متعددة، وكان دوما مجالا للصراع بين السلطة والمعارضين، فالسيطرة على الفضاء العام كان يمثل إحدى مفاتيح السيطرة والتحكم والتفرد بالحكم بالنسبة للسلطة، لذلك لم تأل هذه الأخيرة جهدًا في سبيل فرض الرقابة على هذه الفضاءات. من جهتها "المعارضة" حاولت ما أمكنها أن تستغل هذا الفضاء من أجل تجميع كلمتها وتحريض الناس على السلطة، عبر أصوات قادرة على النفاذ إلى عموم الناس وخاصتهم وإقناعهم، لا سيما عندما يتعلق الأمر بطغيان السلطة.

الحصار الذي فرضته السلطة في معظم الأحيان على الفضاء العام زكى من مركزية هذه السلطة وشموليتها، من خلال إقصاء كل الأصوات المناوئة، ومما زكى من تلك المركزية طبيعة العقوبات التي كانت تنزلها بالمخالفين لتوجهها. ولعل هذا ما دفع بالبعض إلى الحذر في المداولات داخل هذه الفضاءات، أو اختيار أساليب أخرى في انتقاد الحكام كما فعل العبدري. وقد كان من الطبيعي أن يغلب على الخطاب داخل الفضاء العام الطابع العمودي في ظل سيادة السلطة الحاكمة المغلقة، لا سيما عندما يتعلق الأمر بتدبير الشأن السياسي.

تميز الفضاء العام في الغرب الإسلامي خلال هذه الفترة أيضًا بنوع من التراتبية، فمجلس السلطان مثلا، والذي كان يحضره العلماء والأشياخ وطلبة الحضر في الدولة الموحدية، لم يكن يتمتع بنفس العمومية التي كان يتيحها المسجد المفتوح أمام الجميع.

يمكن للفضاء العام أن يفصح عن الكثير حول المجتمعات التي أنشأته، فبعض الأبواب مثلت مجالا لاستعراض القوة والنفوذ، والاستعداد الدائم لممارسة القهر والتسلط خصوصًا على أولئك الذين يشقون عصا السلطة، مما جعلها رمزا للسلطة زمن الدولتين الموحدية والمرينية.

وعمومًا فالفضاء العام في الغرب الإسلامي خلال الفترة الوسيطية لازال في حاجة إلى الكثير من البحث والتنقيب، فلما كان الحدث يتأثر بطبيعة الفضاء الذي وقع فيه، فمن المؤكد أن حصيلة هذا المبحث ستكون ذات فائدة كبيرة في إعادة تفسير الكثير من الأحداث وإعادة تركيبها.

الاحالات المرجعية:

(١) يوسف نكادي، **مباحث في غرب المتوسط في العصر الوسيط**، أي-كتب، لندن، ط. ١، ٢٠١٨، ص ١١١.

(2) H. Jannière, V. Devillard (1997) "Espace public, communauté et voisinage". In : les espaces publics modernes. Collectif sous la direction de Picon Lefebvre. Moniteur, Paris p 16.

(3) Lahouari Addi (2004) «espace public et société en Algérie» In' le quotidien d'Oran. N° 24/04/2004.

(٤) إدريس نوري، **استعمال المجال العام في المدينة الجزائرية**، دراسة مكملة لنيل شهادة الماستر في علم الاجتماع الحضري، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة محمد منتوري، قسنطينة، ٢٠٠٦-٢٠٠٧، مرقونة، ص ٥٢.

(٥) خالد محمد مصطفى عزب، **تخطيط وعمارة المدن الإسلامية**، كتاب الأمة، رقم ٥٨، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط. ١/ يوليوز - غشت ١٩٩٧، ص ٤٢-٤٤.

(٦) نال فقه العمارة اهتمامًا كبيرًا في التراث الفقهي الذي اهتم بالتأصيل للعمران، برز في كتابات الفقهاء في فقه العمارة الإسلامية من قبيل "كتاب البنيان" للفقيه المصري عبد الله بن عبد الحكم الذي لم يكتب له الوصول إلينا، ثم كتاب ابن الفقيه المهندس ابن الرامي ط الإعلان بأحكام البنيان"، كما تزخر المدونات النوازلية للفترة الوسيطية بالعديد من النزاعات وحلولها على ضوء الفقه الإسلامي. ولعل هذا ما جعل أحد الباحثين يخلص إلى أن دور السلطات في مجال العمارة التخطيط العمراين كان محدودا إذ لم يتعدى الشوارع الرئيسية وتنظيم الأسواق. عزب، **تخطيط وعمارة**...، ص ٤٥.

(٧) يوسف نكادي، **مباحث في غرب المتوسط**، ص ١١١- ١١٢.

(٨) عزب، **تخطيط وعمارة**، ص ٤٩.

(٩) ابن الزيات أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. ٢، ١٩٩٧، ص ١٤٥.

(١٠) وقد أخذت الرحبة بعدها السياسي في العديد من الأمثلة في التاريخ الإسلامي، إذ شكلت البدايات الأولى لبعض الانتفاضات، كما حدث مع الأشخاص الذين قرروا الانتفاض في رحبة الجامع ببغداد خلال سنة ١٤٣ هـ؛ هشام جعيط، **الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية**، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ط. ١، ١٩٨٦، ص ١٤٤، الطبري، التاريخ، ج. ٩، ص ٣٥٨.

(١١) جعيط، **الكوفة**، ص ١٤٣- ١٤٤.

(١٢) ابن عذاري أحمد بن محمد المراكشي (ت بعد ٧١٢ هـ)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، قسم الموحدين، تحقيق الأساتذة محمد إبراهيم الكتاني ومحمد زنيبر ومحمد بن تاويت وعبد القادر زمامة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط. ١، ١٩٨٥، ص ٣٤٦.

(١٣) الإدريسي الشريف أبو عبد الله أحمد بن عبد الله بن ادريس الحمودي الحسني (ت ٥٥٩ هـ)، **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٦، ج. ١، ص ٢٣٤.

(١٤) ابن عذاري، **البيان**، ص ١١٧- ١١٨.

(١٥) المصدر السابق، ص ١٥٥.

(١٦) المصدر السابق، ص ٣٣٧.

(١٧) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م، ص ٢٩٥؛ ابن عذاري، البيان، ص ٣٣٧.

احتفظ باب الشريعة بحضور قوي في ذاكرة هذه الفترة على مستوى عقوبة الإعدام وقطع وتعليق الرؤوس، لا سيما عندما يتعلق الأمر بالثوار والمعارضين، والملفت للانتباه أن بعض الرؤوس المحزوزة كان يتم ترحيلها من مناطق بعيدة بالمغرب إلى مراكش من أجل تعليقها على باب الشريعة، كما حدث مع الثائر ابن ياوجي الذي قطع رأسه في بلاد السوس ونقل في قفة وعلق على الباب المذكور. كما احتضنت مدينة فاس بدورها بابا بنفس الاسم، تم بناؤه سنة ٦٠٠ هـ واحتفظ هو الآخر بالدور نفسه، وممن علقت رؤووسهم عليه رأس الثائر العبيدي بجبال ورغة، بينما أحرقت جثته وسط الباب المذكور، ومن حينها أضحى الباب يسمى بباب المحروق.

وغالبًا ما كانت الفرحة تعم أرجاء البلاد بمقتل الثوار، إذ تقرع الطبول ويعم السرور وتقرأ الأشعار المهنئة، وأحيانا كان يجازى قاتل الثائر بالمال الوفير. وليس غريبا أن يفرح الناس بمقتل الثوار، فغالبا ما كان ظهور ثائر مرادفا لانعدام الأمن وكثرة القتل وسفك الدماء. لكن الغريب أنه بالرغم من حرص السلطة على حز رؤوس الثوار وتعليقها، فإن ذلك لم يمنع من تردد الانتفاضات والثورات بشكل مستمر على امتداد عمر الدولتين الموحدية والمرينية. ابن عذاري، ص ٣٤١- ٣٤٨؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص ٢٧١. ٢٩٦.

(١٨) ابن أبي زرع، ص ٣٩١- ٣٩٢.

(١٩) ابن عذاري، البيان، ص ٣٤٧

(٢٠) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٣٩٠- ٣٩١.

(٢١) المصدر السابق، ص ٣٩٠- ٣٩١.

(٢٢) المصدر السابق، ص ٣٩٠- ٣٩١.

(٢٣) محمد محمد أحمد إسماعيل، **ثورات العرب والبربر واليهود في المغرب الأقصى والأندلس في عهد دولة بني مرين (٦١٥هـ- ٧٩١هـ/ ١٢١٣م-١٣٦٥م)**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ٢٣١.

(٢٤) وائل حلاق، **الدولة المستحيلة: الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي**، ترجمة عمرو عثمان، منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ط. ١، أكتوبر ٢٠١٤، ص ٤٣.

(٢٥) المرجع السابق، ص ١٩.

(٢٦) ارفن روزنتال، **الفكر السياسي الإسلامي في العصور الوسطى**، ترجمة أحمد محمود إبراهيم، وترجمة: د. أسامة شفيع السيد، ص ١٦. ٣٤.

(٢٧) المرجع السابق، ص ٣٤.

(٢٨) المرجع السابق، ص ٣٤.

(٢٩) حلاق، **الدولة المستحيلة**، ص ١٣٦. روزنتال، **الفكر السياسي**، ص ٣٥ - ٣٦.

(٣٠) روزنتال، **الفكر السياسي**، ص ٣٥.

(٣١) كريسيان لانغ، العدالة **والعقاب في المتخيل الإسلامي خلال العصر الوسيط**، ترجمة رياض الميلادي، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط.١، يونيو ٢٠١٦، ص ١٧.

(٣٢) ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمان بن أبي بكر الحضرمي (ت ٨٠٨ هـ)، **المقدمة**، تحقيق عبد السلام الشدادي، بيت الفنون والمعرفة والآداب، الدار البيضاء، ط.١، ٢٠٠٥، ج. ١، ص٢٨١.

(٣٣) البيدق أبو بكر بن علي الصنهاجي، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١، هامش ص ١٩؛ ابن عذاري، **البيان**، ص ٢٢٢؛ ابن صاحب الصلاة (٥٩٤ هـ)، **المن بالإمامة**، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.٣، ١٩٨٧، ص ٢١٦؛ الحسين أسكان، **الدولة والمجتمع المغربي في العصر الموحدي**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعاريف، الجديدة، ٢٠١٠، ص ١٠٤.

(٣٤) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ج. ١، ص ٢٣٤.

(٣٥) ابن صاحب الصلاة، **المن**، مقدمة المحقق، ص ٥٤.

(٣٦) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط. ١، ١٩٧٣، س. ٦، ص ٢٤ - ٢٥.

(٣٧) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل...، س. ٦، م. س، ص ٢٦؛ محمد عابد الجابري، **المثقفون في الحضارة العربية محنة أحمد بن حنبل ونكبة ابن رشد**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط. ٢، يناير ٢٠٠٠، ص ١٥١ - ١٥٣.

(٣٨) المراكشي عبد الواحد (ت.٦٤٧ هـ)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق محمد سعيد العريان، نشر لجنة إحياء التراث الإسلامي، الجمهورية العربية المتحدة، د.ت، ص ٣٨٥.

(٣٩) ابن عبد الملك، الذيل، سفر ٦، ص ٢٦.

(٤٠) المصدر السابق، ص ٢٦

(٤١) المصدر السابق، ص ٢٤.

(٤٢) المصدر السابق، ص ٢٤.

(٤٣) يُشار إلى أن خوف السلطان من علوم الفلسفة والحقوق وطبائع الاجتماع والتاريخ المفصل، ونحو ذلك من العلوم التي ترفع الغشاوة وتوسع العقول وتعرفها بحقوقها وكيفية نوالها هو ما جعله يقدم على إحراق هذا النوع من الكتب. عبد الرحمن الكواكبي، **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**، كلمات، القاهرة، د. ت، ص ٤٥.

(٤٤) ابن عبد الملك، **الذيل**، س٦، ص ٢٤.

(٤٥) الجابري، **المثقفون**، ص ١٥٣.

(٤٦) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل والتكملة**، سفر١، القسم الأول، تحقيق محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، ص ٥١٥- ٥١٦.

(٤٧) ابن عبد الملك، **الذيل**، س.١، ص ٥١٦ - ٥١٧.

(٤٨) المحجوب قدار، "**السخرية السياسية في عصر الموحدين من خلال نموذج أحمد بن يحيى العبدري**"، دورية كان التاريخية، السنة الحادية عشرة، العدد ٤٢، ديسمبر ٢٠١٨، ص ١٤.

(٤٩) ابن عبد الملك، **الذيل**، س.١، ص ٥١٦.

(٥٠) الناصري أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق محمد الناصري وجعفر الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء،١٩٥٤، ج. ٤، ص ٩٩.

(٥١) الناصري، **الاستقصا**، ص ٩٩.

(٥٢) المصدر السابق، ص ٩٩

(٥٣) المصدر السابق، ص ٩٩.

(٥٤) ابن خلدون عبد الرحمن (ت ٨٠٨ هـ)، **تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، خليل شحاذة، مراجعة، سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٠، ج. ٧، ص ٣١٨.

(٥٥) ابن الأحمر، **روضة النسرين في دولة بني مرين**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط. ١، ١٩٦٢، ص ٢٣؛ ابن خلدون، العبر، ج. ٧، ص ٣١٨.

(٥٦) انظر كتاب: محمد العمراني، **الاستحرام في تاريخ المغرب**.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

جزيرة قبرص
في الاستراتيجية الدفاعية المملوكية عن مصر
(٨٢٥هـ/١٤٢٤م – ٨٢٩هـ/١٤٢٦م)



د. بسّام عبد السلام البطوش

أستاذ مشارك – كلية العلوم الأساسية والاجتماعية

جامعة الحسين بن عبد الله الثاني التقنية

عمّان – المملكة الأردنية الهاشمية

مُلَخّصْ

تختص هذه الدراسة بتسليط الأضواء على الحملات العسكرية الثلاث التي وجهتها الدولة المملوكية نحو جزيرة قبرص في عهد السلطان الأشرف برسباي للحد من المخاطر والتهديدات القادمة من الجزيرة. وذلك من خلال دراسة الظروف والأسباب التي دفعت المماليك للتصميم على السيطرة على جزيرة قبرص. وإبراز أهمية الجزيرة في أمن البحر الأبيض المتوسط والحركة التجارية فيه وأمن المدن والموانئ المطلة عليه. واهتمت هذه الدراسة بالتعريف بالحملات والغارات والتهديدات التي انطلقت من جزيرة قبرص في عصر الحروب الصليبية، وما ألحقته من أذى بالمسلمين ومصالحهم في مصر وبلاد الشام، وكانت الحملة الصليبية التي قادها ملك قبرص بطرس الأول على مدينة الإسكندرية ١٣٦٥م من أبرز حوادث الاعتداء القادمة من قبرص ضد الدولة المملوكية، كما شكّلت دافعاً لشن الحملات المملوكية الثلاث ضد قبرص ما بين سنتي سنة ٨٢٥هـ/١٤٢٤م - ٨٢٩هـ/١٤٢٦م، وهي موضوع هذه الدراسة. واعتنت هذه الدراسة بالدرجة الأولى بدراسة الحملات الثلاث من حيث الاستعدادات، والقوات المشاركة، والمساهمة الشامية فيها، ومجريات كل حملة وخط سيرها ونتائجها، وصولاً إلى نهاية الحملة الثالثة بفتح جزيرة قبرص وإخضاعها للسيطرة المملوكية حتى نهاية الدولة المملوكية. واعتمد الباحث في أجراء هذه الدراسة على عدد كبير من المصادر الأولية المتخصصة بتاريخ هذه المرحلة، إلى جانب عدد من المراجع والدراسات الحديثة حول علاقة المسلمين في العهد المملوكي بجزيرة قبرص.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٢	فبراير	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٢٧	مارس	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

المماليك؛ جزيرة قبرص؛ الحروب الصليبية؛ البحرية الإسلامية؛ مصر؛ سوريا

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.231085

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بسام عبد السلام البطوش. "جزيرة قبرص في الاستراتيجية الدفاعية المملوكية عن مصر (٨٢٥هـ/١٤٢٤م – ٨٢٩هـ/١٤٢٦م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثاني والخمسون؛ يونيو ٢٠٢١. ص ٤٥ – ٥٨.

Corresponding author: Bassam.Btoush@htu.edu.jo

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تهتم هذه الدراسة بتسليط الأضواء على الجهود المملوكية في عهد السلطان الأشرف برسباي (٨٢٥هـ/١٤٢١م-٨٤١هـ/١٤٣٧م) في السيطرة على جزية قبرص، بعد أن شكّلت تهديدًا متواصلاً للدولة المملوكية، والتجارة والسفن والموانئ والمدن الساحلية على طول الشواطئ السورية والمصرية المطلة على البحر الأبيض المتوسط. فعنيت هذه الدراسة بتوضيح حجم التهديدات القادمة من قبرص لا سيما في عصر الحروب الصليبية، فقد استخدمها الصليبيون نقطة تجمّع وارتكاز وانطلاق لإلحاق الذى بالمسلمين وبمصالحهم، وكانت قبرص سببًا في ويلات كبيرة لحق بالمسلمين في مدن عدة، وكان آخرها في مدينة الإسكندرية يوم الجمعة ٢٢ محرم ٧٦٧هـ/ ٢٨ سبتمبر ١٣٦٥م، واستباحة المدينة لمدة ثمانية أيام، والتسبب بقتل أعداد كبيرة من أهلها، وأسر أعداد أخرى، وتخريب المدينة، فكانت هذه الحادثة واحدة من أبرز الدوافع لتصميم المماليك على التخلص من التهديدات والمخاطر القادمة من جزيرة قبرص. وتركز هذه الدراسة على دراسة ظروف ومجريات ونتائج إرسال السلطان المملوكي الشرف برسباي ثلاث حملات عسكرية بحرية بجهود موحدة بين مصر وبلاد الشام لفتح جزيرة قبرص وإحكام السيطرة عليها، وهذا ما تحقق في نهاية المطاف.

مشكلة الدراسة:

الكشف عن الدوافع والظروف والأسباب التي وقفت خلف تسيير السلطان المملوكي الأشرف برسباي ثلاث حملات عسكرية بحرية بمشاركة شامية لفتح جزيرة قبرص وإخضاعها للسيطرة المملوكية. ومواكبة أهداف كل حملة والاستعدادات والإجراءات والمراحل التي مرّت بها، والتعرف على القوات المشاركة فيها، وخط سيرها وعملياتها العسكرية وما حققته من أهداف.

أهداف الدراسة:

تركّز هذه الدراسة على الحملات العسكرية التي شنتها الدولة المملوكية على قبرص وأدت إلى السيطرة عليها وإخضاعها للسيادة المملوكية بهدف وقف المخاطر والتهديدات القادمة منها، بعد أن شكّلت جزيرة قبرص قاعدة للعدوان على السواحل المصرية والشامية في العهد المملوكي وتهديدها بشكل دائم عسكريًا وأمنيًا واقتصاديًا.

منهج الدراسة:

اتبع الباحث في هذه الدراسة المنهج التاريخي القائم على تحديد الإطار الزماني والمكاني للدراسة، وجمع المادة العلمية من المصادر الأولية والمراجع المتخصصة، ونقد المادة وتصنيفها وتبويبها وصياغتها وعرضها في نسق نقدي تحليلي وفقًا لقواعد البحث العلمي وأصوله.

أسئلة الدراسة:

- ما مدى الاهتمام بجزيرة قبرص عبر مراحل التاريخ الإسلامي؟
- ما دور جزيرة قبرص في تهديد سواحل مصر وبلاد الشام في العهد المملوكي؟
- ما هي دوافع دولة المماليك للسيطرة على جزيرة قبرص؟
- كيف سيطر المماليك على جزيرة قبرص؟
- ما هي الحملات العسكرية التي شنتها الدولة المملوكية على قبرص؟

أولاً: قبرص في دائرة الاهتمام الإسلامي

اكتسبت جزيرة قبرص أو قبرس (Cyprus) أهمية خاصة، وأخذت حيزًا واسعًا في دائرة الاهتمام العربي الإسلامي، عبر عهود متتالية، والمقصود هنا تلك الجزيرة الواقعة في البحر الأبيض المتوسط وتعدّ ثالث أكبر جزره، بعد جزيرتي صقلية وسردينيا، وتعود هذه التسمية إلى النحاس الذي يتواجد بكثرة في الجزيرة، وتبلغ مساحتها ٩٢٥١ كيلو متر مربع، منها ٩٢٤٠ كم. تمتعت بأهمية استراتيجية عبر قرون طويلة، واهتمت بالسيطرة عليها جميع الإمبراطوريات والقوى الراغبة في إحكام قبضتها على الملاحة في البحر المتوسط.

وفيما يخص الاهتمام الإسلامي بالجزيرة، فقد بدأ مبكرًا منذ عهد المسلمين الأول بالبحرية وركوب البحر، ففي خلافة عثمان بن عفّان (ت ٣٥هـ/٦٥٦م) – رضي الله عنه- كانت أول حملة إسلامية موجهة نحو جزيرة قبرص، نظّمها والي الشام – آنذاك- معاوية بن أبي سفيان- سنة ٢٨هـ، ففتحت الجزيرة صلحًا، ثم كانت حملة، سنة ٣٣هـ نتج عنها فتح الجزيرة عنوةً. ومنذ تلك المرحلة بقيت جزيرة قبرص في دائرة السيطرة الإسلامية بشكل أو آخر حتى أصاب الدولة الإسلامية الضعف زمن البويهيين (٣٣٤-٤٤٧ هـ)، فسيطرت عليها الدولة البيزنطية سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م، بقيادة نقفور ملك القسطنطينية.[1] وخلال مرحلة الحروب الصليبية لعبت قبرص دورًا هامًا وفعّالاً. إذ

أصبحت خلال السنين الأخيرة من القرن الثاني عشر للميلاد، طرفًا في الحركة الصليبية على يد ريتشارد قلب الأسد، ثم قيام بيت لوز جنان –حكام قبرص- بجهود كبيرة في مساندة الصليبين في الشام وإمدادهم بالمؤن والسلاح والرجال.

وأصبح الرابط بين الصليبين في الشام وإخوانهم في قبرص كبيرًا وواضحًا، وخصوصًا إذا عرفنا بأن مملكة قبرص ومملكة بيت المقدس الصليبيتين كثيرًا ما اتحدتا في القرن الثالث عشر الميلادي. وبعد تحرير عكا عام ١٢٩١م، على يد الأشرف بن خليل بن قلاوون، أصبحت قبرص أهم المعاقل الصليبية وأقواها، واعتبرت ملاذًا للاجئين والمشردين من بقايا الصليبيين الفارين من بلاد الشام، ورحّب ملكها هنري الثاني بالفرسان الاسبتارية، وأصبحت (ليماوسول) مركزهم إلى أن غادروها إلى جزيرة رووس مقرهم الجديد، سنة ١٣٠٩م.

قدَّم هنري الثاني ملك قبرص مشروعًا صليبيًا للبابا كلمنت الخامس، يقضي بإعلان الحرب الاقتصادية على دولة المماليك، وفرض الحصار الاقتصادي على تجارتها وموانئها، وكل من يتعامل معها من التجار الأوروبيين، وفعلاً نفذت قبرص هذا المشروع ضد الدولة المملوكية من خلال شن الهجمات والغارات على المدن الساحلية وأعمال القرصنة ضد السفن الإسلامية والإيطالية المتاجرة مع المسلمين.[٣]

وفي سياق الهجمات والغارات، وأعمال القرصنة المنطلقة من جزيرة قبرص، كانت الغارة القبرصية الكبيرة على مدينة الإسكندرية ٧٦٧هـ-١٣٦٥م، بقيادة ملك قبرص الملك بطرس الأول لو دي زينيان، الذي أعدّ لهذه الغارة أو لهذا الهجوم أفضل إعداد، وطلب العون والمساعدة من أوروبا، واستنجد بالبابا ليساعده في إقناع ملوك أوروبا بتقديم العون له، فحصل فعلاً على الأموال والرجال والمراكب الحربية من ملوك أوروبا.

وعلى الرغم من ورود المعلومات إلى الإسكندرية، بأن قبرص تستعد وتتهيأ لمهاجمتها، فلم تؤخذ هذه المعلومات والأخبار بنظر الاعتبار، وأُهملت، ولم يجرِ الاستعداد للمواجهة بشكل جدّي وفعلي، وكان مقدّم الجيوش الأمير يلبغا الخاصكي[٣] يرى أن القبرصي أقل وأذل من أن يأتي إلى الإسكندرية.[٤] إن هذا الإهمال في الاستعداد لمواجهة الحملة، وفي تحصين الموانئ والمدن، وتركها خالية من وسائل الدفاع، كل هذا الإهمال كان جزءًا من الحالة العامة للدولة، إذ كانت تعاني من حالة عدم الاستقرار بسبب صغر سنّ السلطان الأشرف زين الدين أبو المعالي شعبان، وقيام وصي جائر هو يلبغا الخاصكي الذي تحكّم في البلاد.

وكان الهجوم القبرصي على الإسكندرية يوم الجمعة ٢٢ محرم ٧٦٧هـ/ ٢٨ سبتمبر ١٣٦٥م، هجوماً عنيفًا ترك آثارًا كبيرة من الدمار والخراب، والنهب والقتل، حيث استمرت هذه الأعمال الوحشية مدة ثمانية أيام هي أيام بقاء القبارصة في الإسكندرية يسرحون ويمرحون وينهبون ويقتلون ويدمّرون، ولم يخرجوا إلا بعد أن جمعوا كثيرًا من البضائع والنفائس، وعددًا كبيرًا من الأسرى نحو خمسة آلاف أسير. وكان الدمار الذي لحق بالمدينة لا يمكن وصفه.[٥] لم يكن من السهل تناسي هذه الوحشية الصليبية التي عوملت بها الإسكندرية؛ فبقيت محفورة في وجدان أهلها، ووجدان مصر كلها، كما في وجدان المسلمين في العالم ، ونجم عنها ردود فعل تضامنية في مناطق عدة، وكان كل هؤلاء ينتظرون ساعة الرد على المعتدين بضربة موجعة.[٦]

ولم تكتفِ قبرص بما حلَّ بالإسكندرية، بل واصل الملك القبرصي بطرس الأول لو دي زينيان، هجماته ضد السواحل العربية والإسلامية، فهاجم مدينة طرابلس الشامية سنة ١٣٦٧م هجومًا فاشلاً، وقام بعدها بعدة غارات على جبله واللاذقية وبانياس وصرفند وصيدا.[٧] واستمرت أعمال القرصنة ضد السفن الإسلامية وقطع طرق التجارة على المسلمين، وعلى من يتعامل معهم من أوروبا. وحدث أن قاموا بمهاجمة مركب يحمل هدايا من السلطان الأشرف برسباي إلى سلطان الدولة العثمانية، ونهبوا هذا المركب.[٨] وكذلك هاجم القبارصة مركبين من مراكب المسلمين قرب دمياط، فيهما بضائع كثيرة وأعداد من الناس يزيدون على مائة رجل، مما دفع السلطان برسباي إلى التفكير جديًّا بوقف سلسلة أعمال القرصنة والاعتداءات القبرصية على الموانئ والسفن والتجارة المملوكية.[٩]

بدأ السلطان الأشرف برسباي(٨٢٥هـ/١٤٢١م-٨٤١هـ/١٤٣٧م) بمجموعة خطوات لوقف هذه الاعتداءات القبرصية، ووضع حدٍ لها، فأمر بالاستيلاء على أموال التجار الفرنج داخل حدود السلطنة، ومنعهم من مغادرة البلاد، وتجميد نشاطاتهم التجارية والمالية داخل حدود السلطنة، بالإضافة إلى إصدار السلطان أوامره ببناء السفن والمراكب الحربية والاستعداد لشن حملات تأديبية ضد قبرص مركز انطلاق الاعتداءات المتكررة ضد المسلمين، ووضع حدّ لاعتداءات القراصنة الصليبيين (الفرنجة) المتواصلة على السفن والموانئ والسواحل العربية الإسلامية، فكانت هذه المرحلة بحق تشكل العصر الذهبي لأسطول المملوكي في البحر المتوسط.

وفعلاً تمّ تنفيذ الحلم المملوكي بالثأر من القبارصة بما فعلوه من جرائم في الإسكندرية، وفي سواها من المدن الإسلامية التي تعرّضت لهجمات الفرنجة، ولإعادة الهيبة والأمن لمدن وموانئ وثغور وسواحل ومراكب وتجارة المسلمين، وإبعاد خطر القراصنة وقطّاع الطرق عنها، وبهدف تطوير النشاط التجاري المملوكي، لكل هذه الأسباب وبفعل كل هذه الظروف والعوامل جاءت الحملات الثلاث على قبرص.[١٠] فكانت ثلاث حملات مملوكية متتالية إلى جزيرة قبرص، الأولى وقعت سنة ٨٢٥-١٤٢٤م، والثانية وقعت سنة ٨٢٨هـ-١٤٢٥م، والثالثة الأخيرة والتي نتج عنها فتح قبرص وإخضاعها للتبعية المملوكية، كانت سنة ٨٢٩هـ-١٤٢٦م.

ثانيًا: الحملة الأولى (٨٢٧هـ/١٤٢٤م)

١/٢-الاستعدادات للحملة

كان من أبرز الإجراءات والخطوات التي اتخذها السلطان الأشرف برسباي استعدادًا للحملة المملوكية الأولى على قبرص، أنه بدأ بإصدار أوامره "بإيقاع الحوطة على أموال تجار الفرنج التي ببلاد الشام والإسكندرية ودمياط والختم عليها، وتعويقهم عن السفر إلى بلادهم.[١١] يضاف لذلك، أوامر السلطان برسباي بتجهيز السفن الحربية، فجهزت، وجهزت آلاتها، وصرف السلطان عليها أموالاً كثيرة، وجهّز العِدد والرجال.[١٢] ومنذ بدأت الاستعدادات روعي فيها طبيعة الأهداف المبتغاة من هذه الحملة، فكان الاستعداد والتجهيز بقدر الأهداف المنشودة، وأهداف هذه الحملة لم تتجاوز الناحية الاستطلاعية أو الاستكشافية وجس" النبض والوقوف على القوة الحقيقية للعدو، ومدى قدرته على المقاومة "وعسى أن يجدوا من يتجرّ في البحر من الفرنج".[١٣]

٢/٢-القوات المشاركة في الحملة

ونظرًا لمحدودية الأهداف، فقد كانت القوات والسفن الحربية المشاركة فيها محدودة هي أيضًا. فقد تراوح عدد من أمر السلطان بتجهيزهم من الرجال للاشتراك في هذه الحملة يتراوح بين السبعين والثمانين رجلاً.[١٤] يُضاف لهم المتطوعة[١٥]، ومن التحق بالحملة من أهل الشام أثناء مرورها بالسواحل الشامية، فنجد رواية تصل بعدد رجال الحملة الأولى عند وصولهم قبرص حوالي ستمائة رجل.[١٦] أما عدد السفن الحربية المشاركة في هذه الحملة فقد تراوح بين الأربع أو الخمس سفن، هذا مع اختلاف الروايات في هل كونها جميعًا خرجت من السواحل المصرية، أم شاركت فيها سفن شامية.[١٧] وتولى قيادة هذه الحملة مملوكان أحدهما يقال له الأمير يشبك والآخر يدعى إياس الطويل.[١٨]

٣/٢-انطلاق الحملة

غادرت الحملة مصر في التاسع من رمضان من سنة سبع وعشرين وثمانمائة (٩ رمضان، ٨٢٧هـ).[١٩] وبدأت رحلتها في البحر المتوسط (البحر الملح) متجهة صوب السواحل الشامية. وكان عدد المراكب المغادرة لسواحل مصر، عند بوابة انطلاق الحملة اثنان "غرابان"[٢٠] أو "مركبين".[٢١] وهذا يؤكد اشتراك السفن الشامية في هذه الحملة.[٢٢] حيث مرّت الحملة بصيدا، فانضم لها مركب جرى تجهيزه في صيدا ليشارك في الحملة.[٢٣] ثم وصلت الحملة إلى طرابلس، فأقامت الحملة فيها عدة أيام لمزيد من الاستعداد.[٢٤]

ثم انطلقت الحملة من طرابلس نحو جزيرة قبرص. فوصلت أولاً إلى منطقة الماغوصة (فماغوستا) (Famagusta) الواقعة شمال قبرص، فما كان من حاكمها إلا أن رفع الراية البيضاء، وأعلن رغبته في السلم والتعاون مع المسلمين.[٢٥] وكان هذا الأمر عامل تشجيع ورفع لمعنويات المشاركين في الحملة، ولم يسبب لهم تأخيرًا طويلاً في الماغوصة، فتركوها متوجهين نحو منطقة أخرى من جزيرة قبرص.

وخلال مسيرة الحملة بعد مغادرتها الماغوصة، وجدت سفينة تجارية راسية في منطقة يقال لها رأس الياق، فلما رأى رجالها السفن الإسلامية تركوها وهربوا، فقام المسلمون بنهبها وأشعلوا فيها النار.[٢٦] وواصلت الحملة سيرها إلى أن وصلت إلى منطقة تسمى اللمون (ليماسول) (Limassol)، فكان ميناؤها ثلاثة مراكب مجهزة للإغارة على المسلمين، فصادروا ما بداخلها، ثم أشعلوا النار فيها.[٢٧]

٤/٢-حصار اللمون (ليماسول) (Limassol)

وكانت اللمون (ليماسول) قد اتخذت استعدادات كبيرة لمواجهة الحملة، كان أهمها مناعة أسوار قلعتها، التي أفادت في مقاومة الحملة كثيرًا، وساهمت في عدم دخول المسلمين إليها. وكان من استعدادات أهل اللمون أنهم خرجوا لملاقاة المسلمين خارج أسوار القلعة، وكان عدد من خرج منهم حوالي سبعين فارسًا وثلاثمائة من المشاة.[٢٨] حدثت معركة عنيفة بين المسلمين وأهل اللمون (ليماسول)، كانت نتيجتها هزيمة أهل اللمون، وتكبيدهم خسائر، منها مقتل فارس واحد وعدة رجال من المشاة، وإحراق ثلاثة مراكب وإغراق ثلاثة أخرى.[٢٩] هذا بالإضافة إلى عدد من الأسرى، اختلفت الروايات في عددهم، فقد قيل أنهم "نحو الثلاثة عشر"[٣٠] وقيل أنهم بلغوا "ثلاثة

وعشرين أسيرًا".[٣١] وغنائم كثيرة، من العسل والسمن والجوخ، والقطن وأثاث البيوت.[٣٢] وقيل بأن السلطان عندما رفعت له قطع الجوخ هذه، وعددها مائة وثلاث قطع قام ببيعها على التجار وكُرم المجاهدون منها،[٣٣] في حين يذكر العيني بأن السلطان "تصرَّف فيها على العادة الشرعية".[٣٤]

وعلى الرغم من هذه النتيجة الجيدة لهذه المعركة بالنسبة للمماليك. إلا أن حصانة قلعة اللمون (ليماسول)، وحسن استعداد أهلها لهجوم المسلمين، جعلا سقوطها بحاجةٍ إلى صبر وطول حصار، لم يكن في إمكان حملة كهذه الحملة "الاستطلاعية أن تفعله"، فكان القرار بترك هذه القلعة، والعودة إلى مصر.[٣٥]

لقد حققت هذه الحملة أهدافها في مجال الاستطلاع، والاستكشاف، وجمع المعلومات عن العدو، وقد أثبتت المعلومات التي تحصّلت عليها هذه الحملة دور قبرص الخطير فيما تتعرض له الموانئ والسفن والتجارة الإسلامية من أعمال عدوانية في البحر المتوسط وموانئه الإسلامية. كما أثبتت هذه الحملة إمكانية القضاء على بؤرة التهديد والقرصنة بمزيد من الاستعداد والإعداد من قبل الدولة المملوكية، خصوصًا وأن هذه الحملة كشفت عن هشاشة الدفاعات القبرصية بشكل عام إذا ما أحسن التعامل معها بالوسائل المناسبة. واستطاعت هذه الحملة أن تكسر الحاجز النفسي، حاجز الوهم بقوة الفرنجة، كما رفعت معنويات المسلمين، مما دفعهم إلى إعادة الكرَّة مرة أخرى، ولكن ضمن معطيات واستعدادات أفضل.

٢/٥-عودة الحملة

وعادت هذه الحملة في يوم السبت العشرين من ذي القعدة سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م،[٣٦] وعندما اطلع السلطان الأشرف برسباي على ما حدث لها، وما حققته من أهداف، سُرَّ لذلك، وصمّم على مواصلة الحملات ضد قبرص، حتى يتم تحقيق الهدف الأكبر وهو إخضاعها لسيطرة الدولة المملوكية، بشكل نهائي. ووجدنا أن السلطان اتخذ قراره بالبدء فورًا بالاستعداد لحملة جديدة ضد جزيرة قبرص-قبل أن تلتقط أنفاسها-وحتى لا يدع لها مجالاً للمبادرة، فأصدر الأوامر، ببناء مراكب جديدة، لتشارك في الحملة القادمة.

ثالثًا: الحملة الثانية (٨٢٨هـ/ ١٤٢٥م)

١/٣-الاستعدادات للحملة

بعد عودة الحملة الأولى في أواخر ذو القعدة من سنة ٨٢٧هـ١٤٢٤م، بدأت الاستعدادات المملوكية للحملة الثانية لغزو جزيرة قبرص، فتنفيذًا لأوامر السلطان برسباي بدأ العمل في صنع السفن الجديدة في محرّم سنة ٨٢٨هـ.[٣٧] كما بدأت عملية واسعة من الاستعدادات العسكرية بالإضافة إلى بناء السفن، تمثّلت في تحصين البلاد والسواحل،[٣٨] فكانت أوامر السلطان تقضي "بتركيز الجند في السواحل حفظًا لها من عادية الفرنج".[٣٩] وفي شهر صفر من سنة ٨٢٨هـ قام السلطان الأشرف برسباي(١٣٦٩-١٤٣٨م) بتفقد عملية بناء المراكب والاطمئنان على حسن سيرها، حيث كانت موجودة بساحل بولاق.[٤٠]

وفي أثناء انشغال الدول المملوكية بالاستعداد والتحضير لحملة عسكرية ثانية ضد جزيرة قبرص، نجد قبرص تستمر في نفس الطريق ولم تتعظ بما حلّ –قبل فترة قصيرة- في مدينة اللمون (ليماسول)، فنجدها ترسل مركبين مشحونين بالرجال والسلاح، للقرصنة قرب السواحل المصرية والشامية، لكن السواحل كانت جيدة الحراسة، ودخل المركبات إلى منطقة تدعى نهر الكلب للحصول على ماءٍ عذب، فقاموا بإطلاق مدافعهم ليتأكدوا من أمان المنطقة، لكن الكمائن المملوكية أعطتهم الفرصة بالظن بالآمان، فنزلوا إلى الساحل، فخرج الكمين مهاجمًا لهم، فأمسكوا ببعضهم فأخذوهم أسرى، في حين هرب الباقون وكان بعضهم جريحًا خلال هربه.[٤١] وازدادت أعمال القرصنة الفرنجية، والتحرش بالسواحل الإسلامية، فكان الرد المناسب هو ازدياد وتيرة الاستعدادات الإسلامية لتجهيز الحملة الثانية.[٤٢]

تواصلت عملية البناء والاستعداد على قدم وساق دون توقف، ففي جمادى الآخرة ٨٢٨هـ/١٤٢٥م، صدرت الأوامر السلطانية بتمديد مجموعة من المماليك السلطانية والأمراء، لتشارك في الحملة، "وألزم كل أمير أيضًا أن يُجّهز عشرة مماليك من مماليكه"[٤٣]. وفي هذا الشهر أيضًا انتهى بناء المراكب الحربية "الأغربة والطرائد"[٤٤]. وفي (١٢ رجب ٨٢٨هـ١٤٢٥م) قام السلطان بجولة تفقّد خلالها المراكب البحرية الجاهزة والموجودة بساحل بولاق.[٤٥] وفي اليوم التالي وزّع السلطان النفقة أي المخصصات المالية على الجنود المشاركين في الحملة وبلغ عددهم حوالي ألف رجل.[٤٦] وبما أن الحملة ستنطلق أولاً صوب السواحل الشامية، ومنها إلى قبرص، فقد أرسلت أعدادًا كبيرة من الخيول إلى الشام، لتُحمل من هناك في المراكب مع الحملة, وبلغ عددها ما يزيد على ثلاثمائة فرس،[٤٧] حيث خرجت هذه الخيول في العشرين من رجب سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٥م.[٤٨] وعُيِّن على رأس الحملة الأمير جرباش الكريمي الظاهري حاجب الحجّاب المعروف بقاشق ومعه ثلاثة أمراء آخرين هم، الأمير قرا مراد فجا من الطبلخانات، ومن الطبلخانات الأمير يشبك شاد

الشراب خاناة الشريفة، والأمير كانصوة، والأمير تيخ رأس نوبه، والأمير أقبغا الناصري، والأمير كشيغاى الأحمدي.(٤٩)

٢/٣-إنطلاق الحملة

بدأ سفر الحملة يوم ٢٣ رجب ٨٢٨هـ/ ١٤٢٥م، وتواصل نزول المراكب وانطلاقها بالجند في عرض البحر متوجهة نحو السواحل الشامية حتى الثامن من شعبان (٨شعبان ٨٢٨هـ/١٤٢٥م).(٥٠) وعند خروج هذه المراكب من دمياط يوم السبت (٢٠ شعبان ٨٢٨هـ/١٤٢٥م)، وجدت تسعة مراكب حربية قبرصية على بوابة دمياط.(٥١) ربما كانت لأهداف استخبارية، لكنها انهزمت دون قتال.

٣/٣-الحملة في السواحل الشامية

كانت بيروت هي المحطة الأولى للحملة بعد خروجها من السواحل المصرية، حيث وصلتها يوم الثلاثاء ٢٣ شعبان، سنة ٨٢٨هـ/ ١٤٢٥م وسافرت منها – بعد قضاء فترة فيها-إلى طرابلس حيث تم الوصول إليها يوم ٥ رمضان ٨٢٨هـ/١٤٢٥م، وأقامت الحملة فيها أيامًا للراحة والاستعداد، وقام الأمير خسرو نائب طرابلس بتسهيل أمور الحملة وتقديم كل التسهيلات الممكنة. وفي يوم الاثنين ١٤ رمضان، انطلقت الحملة من طرابلس قاصدةً جزيرة قبرص، بعد أن أتمت الاستعدادات المطلوبة، وتم تنظيم متطوعي الشام بشكل جيد في صفوف الحملة، فرفع الإقبال على التطوع للمشاركة في الجهاد، عدد المراكب المغادرة لطرابلس إلى حوال أربعين مركبًا.(٥٢) قبل مغادرة الحملة لسواحل طرابلس بعث الأمير جرباش، رسولاً يحمل رسالة إلى ملك قبرص (جانوس) (Janous)، يطلب إليه إعلان الاستسلام والدخول في طاعة السلطان، ولكن الرسول تأخر في العودة، فانطلقت الحملة قبل عودته، ولمّا عاد بعد انطلاقها كان حاملاً رد جانوس برفض الصلح والتسليم.(٥٣)

٤/٣-التوجه إلى الماغوصة

يوم الأحد العشرين من رمضان (٢٠ رمضان ٨٢٨هـ/١٤٢٥م) وصلت الحملة إلى منطقة رأس الماغوصة (فاماجوستا). نزلت الحملة فيها وأقامت معسكرًا لها هناك، وسارع حاكمها إلى إعلان استلسامه ورفع الراية السلطانية المملوكية على قلعة الماغوصة، وقدّم معلومات مفيدة حول استعدادات وإمكانات القوات القبرصية بقيادة الملك جانوس.(٥٤) خلال ثلاثة أيام مكثتها الحملة في الماغوصة، قام رجال الحملة بشنّ غارات كثيرة، نتج عنها تكبيد الفرنج خسائر كثيرة، وجمع المسلمون غنائم كثيرة أيضًا، وفي يوم الأربعاء (٢٣ رمضان ٨٢٨هـ/١٤٢٥م) غادرت الحملة الماغوصة قاصدة نحو منطقة تسمى الملاّحة.(٥٥)

وانقسمت الحملة عند خروجها من الماغوصة إلى قوتين بحرية وبرية تتكوّن من (٤٠٠) رجل من رجال المشاة. كان خط سير القوتين متوازيًا بحيث تقوم كل قوة بتطهير المناطق التي تسير فيها من جيوب المقاومة، ولئلا تكون بعيدة عن الأخرى تقدم لها العون والنجدة عند الحاجة.

٥/٣-المعركة البحرية الحاسمة

وأثناء سير القوة البحرية المملوكية ظهرت أمامها مجموعة من المراكب الحربية القبرصية يتراوح عددها ما بين ثمانية وعشرة مراكب (٨-١٠) تحمل جنودًا من الفرنجة يزيدون على ألفين. وبعد أن تبادل الطرفان الرماية بالمدفعية، لاذت المراكب الفرنجية القبرصية بالفرار، بعد أن تكبدت خسائر فادحة.(٥٦) وظلت المراكب الحربية القبرصية تعاود الظهور من حين لآخر أمام المواكب الإسلامية، محاولةً استدراجها إلى أعماق البر، وفصلها عن القوة البرية المحاذية للساحل. وفي نفس الوقت كانت معارك كثيرة تحدث على الجبهة البرية، ويحاول القبارصة استدراج المشاة إلى التوغل في داخل الجزيرة وإبعادهم عن الساحل، في محاولة لتشتيت قوتهم.(٥٧)

٦/٣-المعركة البرية الحاسمة

حدثت معركة برية حاسمة بين القوات البرية للحملة، وقوات قبرصية يقودها شقيق لملك قبرص، وبلغ تعداد القوات القبرصية حوالي ثلاثمائة فارس، ونتج عن هذه المعركة خسائر فادحة في صفوف القبارصة، فقد قتل منهم خمسة عشر رجلاً، وأصيب منهم أكثر من خمسين، بالإضافة إلى الأسرى والغنائم التي حصل عليها جنود الحملة.(٥٨) بعدها قامت الحملة بشن غارات مكثفة على القرى القبرصية. أحدثت تدميرًا وخرابًا كبيرين، بالإضافة إلى القتلى والأسرى والغنائم التي لكثرتها لم تعد تستوعبها المراكب، وأحرقت قرى بأكملها،(٥٩) وبلغ عدد الأسرى الذين جمعهم المسلمون من العمليات العسكرية في الملّاحة حوالي أربعمائة أسير.(٦٠) هذا بالإضافة إلى إلقاء القبض على أمير الملّاحة المدعو (عين الغزال) وصودرت المعدات والذخائر التي بعثها له جانوس ملك قبرص.(٦١)

٧/٣-التوجّه نحو اللمون (ليماسول)

وفي ليلة الاثنين الثامن والعشرين من رمضان (٢٨ رمضان،٨٢٨هـ)، انطلقت الحملة إلى قلعة اللمون (ليماسول) وهو أعظم حصون جزيرة قبرص،(٦٢) حيث فرض حولها حصار شديد انتهى بتدميرها والسيطرة التامة عليها، وبلغ عدد من قتل من الفرنج فيها نحو ألف وستين فارسًا وأُسر حوالي مائتي أسير.(٦٣) بعث الأمير جرباش بمن يحمل أخبار هذه الانتصارات

إلى نائب طرابلس لينقلها بدوره إلى السلطان، فعندما وصلت هذه الأخبار إلى السلطان أمر بإعلانها في القاهرة من على منبر المدرسة الأشرفية، وجامع عمرو بن العاص، ففرحت القاهرة وتزيّنت سبعة أيام.[٦٤] بعد هذه الانتصارات الكثيرة، التي توّجت بتدمير أهم حصون الجزيرة وهي قلعة ليماسول. وبعد أن علمت قيادة الحملة بوصول كثير من المدد والعون الفرنجي إلى ملك قبرص، فقد نقل بعض أسرى المسلمين الهاربين من عند ملك قبرص، أخبار وصول العون والمدد الفرنجي إلى ملك قبرص، ومثل ذلك السفينة التي أرسلها ملك البندقية وشاهدها الأسرى، وخوفًا من أن يتطرق الملل إلى نفوس الجنود المشاركين في الحملة، إن طال غيابهم عن أهاليهم.[٦٥] بعد هذا، وبسببه، نجد الأمير جرباش يعزم على العودة إلى مصر. "على أجمل وجه".[٦٦]

٨/٣-عودة الحملة إلى مصر

بدأت رحلة العودة يوم الثلاثاء السادس من شوّال ٨٢٨هـ/١٤٢٥م، ووصلت أول طلائعها إلى الساحل المصري يوم السبت العاشر من شوال، وعندما وصلت الأخبار إلى السلطان في القاهرة استبشر بذلك كثيرًا، بعد أن كان قلقًا على الحملة، فطلب من الراغبين في الجهاد الابتعاد ليلحقوا بالحملة نجدةً لها.[٦٧] فلما جاءت أخبار رجوعهم، اطمأن واستبشرت القاهرة التي أُعلن الخبر لأهلها من المدرسة الأشرفية، وأمر السلطان بخروج مجموعة من الفرسان والهجّانة لاستقبال العائدين.[٦٨] وفي يوم السبت الخامس والعشرين من شوّال وصلت الحملة إلى ساحل بولاق، وفي اليوم التالي صعدت الحملة إلى جبل القلعة، وسط الزحام الشديد الذي سبّبه الناس المتزاحمون لمشاهدة المجاهدين،[٦٩] وهم يعودون بالنصر وحوالي ألف إلى ألف وستمائة أسير،[٧٠] بالإضافة إلى كميات كبيرة من الغنائم محمولة على "مائة وسبعين حمّالاً وأربعين بغلاً وعشرة جمال".[٧١]

وبناءً على الأدوار السلطانية جرى بيع الغنائم والأسرى يوم (٢٧ شوال) بشرط أن يُراعى في بيع الأسرى عدم التفريق بين الآباء وأولادهم ولا بين الأقارب.[٧٢] وكان حصيلة بيعهم حوالي ثمانية عشر ألف وثمانمائة دينار،[٧٣] وتمّ بيع بعض أصناف الغنائم بحوالي ألفي دينار.[٧٤] وجرى توزيع هذه المبالغ، لكل مقاتل مبلغ يتراوح ما بين ٣,٥-٧ دنانير.[٧٥] ولا بد من معرفة العدد الضئيل من الخسائر في الأرواح في صفوف المماليك، بالنسبة إلى عدد قتلى القبارصة، فلم يزد العدد بين المماليك من ثلاثة عشر شهيدًا، في حين بلغ عدد قتلى القبارصة حوالي خمسة آلاف قتيل.[٧٦] كل هذا لم يحقق الهدف الاستراتيجي المملوكي بعد، ألا وهو السيطرة على الجزيرة بشكل تام وكامل، وإخضاعها للسيطرة المملوكية. لهذا تبدأ مرحلة جديدة من الإعداد والاستعداد لحملة جديدة على قبرص، هي الحملة الثالثة على الجزيرة.

رابعًا: الحملة المملوكية الثالثة على جزيرة قبرص (٨٢٩هـ/١٤٢٦م)

ولأن الحملتان السابقتان لم تحققا الهدف الاستراتيجي، جاءت الحملة الثالثة بهدف تخليص السواحل الإسلامية من الغارات الدائمة للفرنجة عليها، وتخليص طرق التجارة الإسلامية في البحر المتوسط من القراصنة الذين يقطعونها ويعيثون فيها فسادًا، والتخلص من القاعدة التي تدعم وتموّل وتنطلق منها الأعمال التخريبية وأعمال القرصنة. الحملتان الأولى والثانية وإن لم تحققا الهدف الاستراتيجي والنهائي، فإنهما خدمتا تحقيقه، وتعتبران بمثابة مقدمات للوصول له، فمن خلالهما تكوّنت خبرة ودراية ومعرفة كبيرة بظروف وإمكانات الجزيرة، وجرى اختبار حقيقي لقوتها، ومعرفة تامة بنقاط القوة والضعف فيها. إن هذا الرصيد الكبير من المعلومات الاستخبارية والخبرات العسكرية الذي تحقق من خلالها، يُضاف له الرصيد الأكبر من الروح المعنوية العالية لصالح المماليك، ومن الخوف والرعب الذي دبَّ في نفوس القبارصة خصوصًا والفرنجة عمومًا.

جاءت الحملة الثالثة لتكمل المشوار الذي بدأ منذ سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٤م، وبدأت الاستعدادات لها فور قدوم الحملة الثانية، على اعتبار أنه في نظر القيادة المملوكية لا مجال للتراخي، فلا بد من تعاقب الضربات الموجعة، وبشكل متواصل حتى يمكن التخلص من الخطر، وتحقيق الهدف. كان ملك قبرص على يقين من أن المحاولات ستتكرر، وأن هدفها لم يتحقق بعد، فلجأ إلى الإمبراطور البيزنطي (صاحب اصطنبول) (يوحنا الثامن باليولوج) حكم (١٤٢٥-١٤٤٨م) ليتوسط في هذه القضية، وفعلاً قام الإمبراطور البيزنطي بدور الوساطة، لكن السلطان الأشرف برسباي رفض أي وساطة في هذا الموضوع.[٧٧] وأمر ببذل كل الجهود، وتركيز كل الإمكانات لتجهيز حملة جديدة، قبل أن يلتقط ملك قبرص أنفاسه، ويعيد ترتيب جيشه، ويستنجد بأوروبا. وفعلاً كان ملك قبرص قد سارع إلى بناء أسطوله الحربي من جديد، وأعاد تحصين قلاعه، وتنظيم جيشه وطلب العون من أوروبا، ووصلته بعض المساعدات الأوروبية.[٧٨]

٤/١-الإستعداد للحملة ومسيرها

في الثالث من ربيع الثاني ٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م، صدر الأمر السلطاني بتعيين قادة الحملة الثالثة، وهم: الأمير اينال الجكمي قائدًا بحريًا للحملة، والأمير تغري بردي المحمودي قائدًا بريًا للحملة، بالإضافة إلى عدد من الأمراء والقادة كمساعدين لهما.[٧٩] وبما أن خطة سير هذه الحملة قائمة على أساس الانطلاق مباشرة من السواحل المصرية صوب قبرص، دون المرور بالسواحل الشامية كما حدث في الحملتين السابقتين، لهذا نجد أن القوات الشامية المشاركة في هذه الحملة بدأت بالمرور إلى مصر لتنضم إلى القوات المصرية. ففي يوم الاثنين الثالث عشر من شهر رجب من سنة تسع وعشرين وثمانمائة للهجرة (١٤٢٦م) وصلت القوات الشامية المؤلفة من قوات من كل من وصفد وغزة وطرابلس، وصلت إلى مصر، فسعدت القاهرة واحتفلت بهم كثيرًا.[٨٠]

كان إقبال الناس على المشاركة في هذه الحملة كبيرًا، مما دفع السلطات للاعتذار لأعداد كبيرة من الراغبين في الجهاد لصعوبة تأمين السفن الكافية لحملهم. قام السلطان بتفقد الحملة عند اكتمال استعداداتها ووزّعت النفقة على المشاركين فيها. وبلغ عدد السفن المهيأة للمشاركة تقريبًا مائة وثمانون سفينة، وبلغ عدد الجنود المشاركين حوالي خمسة آلاف جندي، وفي يوم الجمعة الثاني من شهر رجب بدأت الحملة بالانطلاق، وظل خروج القوات متواصلاً على دفعات حتى كان يوم السبت الرابع والعشرين من رجب، حيث اكتمل خروج كامل الحملة.[٨١] وخلال خروج الحملة وفي بداية ذلك حدث أن غرق بعض المراكب- أو بالأحرى أربعة مراكب- بسبب عاصفة بحرية، فنتج عن ذلك غرق عشرة من المسلمين، وتم إصلاح ما حدث للمراكب الأربعة، وواصلت سفرها.[٨٢] حيث انطلقت يوم الأربعاء العشرين من شعبان، ووصلت إلى قلعة اللمون (ليماسول) في السابع والعشرين من شعبان لسنة ٨٢٩هـ/١٤٢٦م.[٨٣]

٤/٢-حصار اللمون (سيماسول)

عند وصول الحملة إلى قلعة اللمون يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شعبان، كانت في أتم استعداد للمواجهة، فحاصرها المسلمون، وبعثوا برسولهم إلى ملك قبرص الذي كان قد اتخذ استعدادات كثيرة لمواجهة الحملة، وكان المطلوب من ملك قبرص من خلال الرسالة، أن يعلن دخوله في طاعة السلطان المملوكي، لكنه قام بالاعتداء على الرسول وقتله حرقًا بالنار.[٨٤] فكان هذا سببًا ودافعًا لشن الغارات ضد القرى والضياع القبرصية بشكل عنيف وقوي، وتشديد الحصار حول قلعة اللمون الحصينة، التي سبق وأن دمرها المسلمون في السنة الماضية في حملتهم الثانية زمن السلطان برسباي على الجزيرة، لكن القبارصة أعادوا تحصينها وبناء أسوارها وشحنوها بالمقاتلة.[٨٥]

بعد مقاومة عنيفة من قبل مقاتلي القلعة تم السيطرة عليها، وجرى تدمير أسوارها مرةً ثانية، ودخلها المماليك، وقتلوا فيها عددًا كبيرًا من القبارصة، ورفعوا الراية السلطانية عليها، وبعثت الحملة بهذه الأخبار إلى السلطان.[٨٦] ولما تم فتح قلعة اللمون، غادرتها الحملة متوجهة لمواجهة ملك قبرص، الذي استعد استعدادًا كبيرًا وحشد من الجنود حوالي "خمسة آلاف فارس وسبعة آلاف راجل"[٨٧] وقيل "ثلاثة وعشرون ألف خيَّال"[٨٨] وقيل "ألفي فارس ونحو ثمانية آلاف راجل".[٨٩] وكانت الحملة تسير في خطين بري وبحري، لتأمن المفاجئات والكمائن، ولتستطيع تطهير المناطق التي تقطعها على الجبهتين البرية والبحرية. "وكان في ذلك أكبر المصالح".[٩٠] خلال توغل الحملة في داخل الجزيرة متجهةً نحو منطقة تدعى الملاّحة، اصطدمت بقوة قبرصية قوامها ثلاثمائة فارس وعدد كبير من المشاة، قابلهم جزء من المسلمين يتراوح عددهم بين الثلاثين والسبعين مقاتلاً، ودارت معركة قصيرة، فرّ القبارصة في نهايتها.[٩١]

وبعد قليل وخلال مسير الحملة متوجهة نحو الملاّحة، دارت المعركة الفاصلة، التي تعتبر أعنف وأشد معارك المسلمين في قبرص. حيث كان عدد من شارك فيها من القبارصة حوالي عشرة آلاف أو أكثر تحت قيادة الملك جانوس ملك قبرص نفسه، وشارك في صفوف القبارصة مجموعات من الفرنجة من طرف الإمبراطور البيزنطي (صاحب قسطنطينة)، وقوة قادمة من جزيرة رودس، وكذلك قوة تركمانية أرسلها علي بك بن قرمان نجدة لجانوس، ولكثرة جنود القبارصة قيل في وصف جيوشهم بأنها "قد ملأت الفضاء". وبالرغم من ذلك، تكبَّد القبارصة خسائر فادحة في هذه المعركة الفاصلة، فقد قُتل منهم في ذلك اليوم حوالي ستة آلاف رجل، ووقع منهم في الأسر أعداد كبيرة كان الملك جانوس نفسه على رأسهم.[٩٢] يضاف لذلك كميات كبيرة من الغنائم، حتى أصبح من الصعب على المسلمين القدرة على حملها، وقتل من المسلمين أعدادًا لم تحددها المصادر، فقيل: "وقتل من قُتل من المسلمين".[٩٣] وخلال المدة من الثاني إلى الخامس من رمضان، هي المدة التي قضتها الحملة في الملاحة، قامت بغارات كثيرة أوقعت خسائر كثيرة في صفوف القبارصة، حيث توجّهت يوم الخامس من

رمضان إلى "الأفقيسة مدينة قبرص"[٩٤] ووصف أيضًا بأنها "مدينة الجزيرة ودار مملكتها"[٩٥] وقيل فيها "وبها تخت الملك"[٩٦] وقيل فيها "وهي كرسي الملك"[٩٧] وقيل فيها "كرسي صاحب قبرص"[٩٨]. ويعتقد بأنها مدينة "نيقوسيا".[٩٩]

وبعد انطلاق الحملة من الملاّحة إلى الأفقسية (نيقوسيا)، وكانت حسب الخطة التي تسير في خطين متوازيين، أحدهما على الجبهة البحرية بقيادة الأمير اينال الجكمي، والأخرى على الجبهة البرية بقيادة الأمير تغري بردي المحمودي والأمير تغري برمش،[١٠٠] حدث أن لقيت المراكب الإسلامية في عرض البحر مجموعة من المراكب الحربية القبرصية، تتألف من حوالي خمسة عشر مركبًا.[١٠١] بعث الأمير إينال الجكمي طالبًا العون من القوات البرية، فبعث الأمير تغري بردي المحمودي غالبية القوات البرية بقيادة الأمير تغري برمش، وكانت المعركة حامية الوطيس، قاتل فيها الفرنجة بشجاعة وبسالة لعدم علمهم بأن ملكهم جانوس وقع في الأسر. وعندما وصلت النجدة الإسلامية من القوات البرية، ساعد ذلك في ترجيح كفة المسلمين وتحقيق النصر المبين، وهزيمة القبارصة وتكبيدهم خسائر فادحة في الأرواح، فسقط منهم قتلى حوالي "مائة وواحداً وسبعين نفسًا" وقيل " ألفًا وخمسمائة قتيل"، يُضاف لذلك أعداد من الأسرى، والغنائم كان من ضمنها أحد المراكب الحربية القبرصية، عاد مع المسلمين إلى مصر.[١٠٢]

استمر القتال في هذه المعركة طوال نهار وليل الأربعاء (٤ رمضان سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٦م)، وأظهر المقاتلون المماليك خلالها براعة حربية كبيرة، لدرجة أن بعضهم كان يُلقي بنفسه على مراكب القبارصة بالرغم من "تكاثر المدافع والسهام".[١٠٣] أما على الجبهة البرية، فقد واصل الأمير تغري بردي المحمودي تقدّمه نحو العاصمة القبرصية، وفي صباح الخميس(٥ رمضان) استطاع دخولها وإخضاعها لسيطرة المسلمين. وتم دخول القصر الملكي والاستيلاء على ما فيه من محتويات ثمينة.[١٠٤] وأُعلن عن إعطاء الأمان لأهل العاصمة وضمان جميع حقوقهم إن هم أبدوا التعاون التام مع المسلمين، وفعلاً تمّ ذلك، وتم إعلان منحهم الأمان، وأن المدينة أصبحت من "جُملة مدن السلطان".[١٠٥] إن هذا الأمان الذي أُعطي للعاصمة، تم خرقه من قبل الأمير تغري برمش، عندما لحق بالقوات التي فتحت المدينة، ولم يكن لديه علمٌ بما تمّ الاتفاق عليه بين القوات الإسلامية والأهالي، فقامت قواته أثناء دخولها العاصمة بغارات عنيفة ضد السكان نتج عنها عدد كبير من القتلى والأسرى والخسائر المادية وجمع كميات كبيرة من الغنائم.[١٠٦]

٣/٤-العودة إلى الملاّحة

لم تطل إقامة القوات المملوكية في العاصمة الأفقسية(نيقوسيا)، فقد مكثوا فيها يومين وليلة واحدة،[١٠٧] فعادت الحملة إلى نقطة تجمعها بشقيها البحري والبري في منطقة الملاّحة، فمكثوا فيها تقريبًا مدة أسبوع من (٥-١٢ رمضان)، للراحة والاستعداد للعودة إلى مصر. وعملت قيادة الحملة على تقييم النتائج، وما حصلت عليه من أسرى وغنائم، فقد بلغ عدد الأسرى ما بين الألف والألف وسبعمائة أسير في مقدمتهم الملك جانوس.[١٠٨] وبعثت قيادة الحملة، الأمير جانباك رأس نوبه حاملاً أخبار الانتصارات التي حققتها الحملة، وأنها ستعود قريبًا إلى مصر.[١٠٩]

٤/٤-وصول الأخبار إلى القاهرة

وصلت الأخبار إلى القاهرة من الساحل المصري يوم الأحد ٢٢/رمضان/٨٢٩هـ تفيد بأن الأمير جانباك ومعه بعض المماليك وصل عائدًا من قبرص يحمل معه أخبارًا سارة. ويوم الاثنين ٢٣/رمضان/٨٢٩هـ/١٤٢٦م وصل الأمير جانباك إلى القاهرة، ونقل أخبار الحملة إلى السلطان الذي فرح كثيرًا،[١١٠] حتى أنه "كاد يطير فرحًا" وبكى من شدة الفرح.[١١١] وأمر بنشر الأخبار القادمة من قبرص على الناس، فأعلنت من المدرستين الأشرفية والمؤيدية، إذ كانت المدارس تحلّ محلّ وسائل الإعلام في عصرنا، وهذا يشير إلى دورهما الهام في الحياة العامة آنذاك. كما أمر السلطان بإرسال حوالي أربعمائة مملوك وأربعة أمراء ليكونوا في استقبال الحملة المظفرة،[١١٢] وليقوموا بحماية المراكب الإسلامية بعد نزول الجنود منها إلى الساحل خوفًا من أن تهاجمها قوات الفرنجة، ولكي "يأخذوا المراكب العائدة ويقوموا بتجميعها من كافة مراسيها إلى الإسكندرية، وكان هذا من أكبر المصالح".[١١٣]

٥/٤-العودة إلى مصر

عادت الحملة على هيئة دفعات خلال المدة من الأول وحتى السابع أو الثامن من شوّال،[١١٤] ففي الثامن من شوال احتشدت القاهرة لتستقبل المقاتلين العائدين، وأخذت القاهرة زينتها، "وكان يومًا مشهودًا"[١١٥] ازدحم فيه الناس "حتى سدوا الأفق".[١١٦] ودخلت القوات العائدة مكلّلة بالنصر المبين والفتح التام للجزيرة، والقضاء على قاعدة التخريب والقرصنة، وإشفاء الغليل من العدو الذي طالما سبب جراحًا عميقة في نفوس المسلمين، والذي طالما عاد إلى بلاده منتشيًا بما حقق من تخريب في البلاد الإسلامية، وبما ألحق من خسائر بالمسلمين.

دخلت القوات العائدة القاهرة في موكب مهيب اخترق المدينة من الميدان الكبير مارًا بشوارع وأحياء القاهرة حتى وصل إلى جبل القاهرة، وكان الفرسان في المقدمة، يأتي بعدهم المشاة من القوات الشامية والمتطوعة المصرية، ومن ثمّ الغنائم المحمولة على رؤوس الحمّالين الذين قيل بأن عددهم بلغ ثلاثة آلاف حمّال،(١١٧) وعلى ظهور الجمال والبغال والحمير، ومن ضمن هذه الغنائم كانت فيل الملك جانوس، وأعلامه وراياته المنكسة، يأتي من بعدهم الأسرى من الرجال والسبي من النساء والأطفال وقيل بأن عددهم تراوح بين الألف والألف وخمسمائة، وفي مؤخرة الأسرى الملك جانوس وحاشيته، وقد ركب بغلاً أعرجًا تحقيرًا له، وقُيّد بالحديد، وكان الأميران تغري بردي المحمودي وإينال الجكمي يركبان عن يمينه ويساره.(١١٨)

استقبل السلطان الأشرف برسباي الموكب المهيب، وهنأ القادة والجند بالنصر الذي تحقق على أيديهم، وأنفق عليهم بالرتب وأجزل لهم العطاء، ووزّع الكسوات التقليدية والخلع عليهم.(١١٩) وقُدّم ملك قبرص جانوس بن جاك بين يدي السلطان، فقبّل الأرض بين يديه، ووقع مغشيًا عليه، فحُمل وأُبعد، ولما فرغ السلطان أُعيد مرةً أخرى ليراه السلطان ويتأمله بشكل جيد، فأُغشي عليه مرةً أخرى، فأمر السلطان بنقله إلى أحد أبراج القلعة ليسجن فيه.(١٢٠)

٤/٦-وفود مشاركة في احتفالات الاستقبال

كان السلطان قد استقبل وفودًا كثيرة لتشهد هذا النصر الذي حققته الدولة، فقد حضر دخول موكب الحملة العائدة من قبرص، وشارك في احتفالات السلطنة بهذا النصر، وفودٌ تمثل الدولة العثمانية، وبلاد تونس، ومجموعة من أمراء التركمان، ووفدٌ يمثل أمير حماة ابن نصير، وأيضًا الشريف بركات أمير مكة، بالإضافة إلى وفود تمثل النيابات الشامية.(١٢١) وفي اليوم التالي لقدوم الحملة، أي في التاسع من شوّال تم تقويم الأسرى والغنائم، وجرى بيعها يوم العاشر من شوال، وأعطي كل مقاتل نصيبه، وأعطي الأمراء ما يستحقه أبناؤهم ليوزعوه عليهم.(١٢٢) وما كان من نصيب الدولة وضع في بيت المال.(١٢٣)

٤/٧-مصير جانوس ملك قبرص

خلال وجوده في السجن جرت مفاوضات، وعَرض عليه السلطان إخلاء سبيله مقابل مجموعة من الشروط، كأن يدفع مبلغ خمسمائة ألف دينار كفدية،(١٢٤) وأن يلتزم بدفع مبلغ عشرين ألف دينار سنويًا لبيت مال المسلمين، وأن يُقرّ بأنه نائب للسلطان في جزيرة قبرص، وإعلان التبعية للدولة المملوكية.(١٢٥)

حاول جانوس التهرب من هذه الشروط، واعتذر بعدم مقدرته على دفع هذه المبالغ، ولكن بعد تهديد السلطان له بالقتل، وبعد أن تطوّع عدد من قناصل وتجار الفرنج بمساعدته، وبعد مفاوضات طويلة، تم دفع مبلغ مائتي ألف دينار كفدية، على أن يَدفع نصفها قبل سفره والباقي يُرسله بعد رجوعه إلى قبرص، مع إقراره بالتبعية للدولة المملوكية، والتزامه بدفع مبلغ عشرين ألف دينار سنويًا، وفي المقابل طالب هو بأن تقدم له الدولة المملوكية العون والمساعدة لمواجهة أعدائه من البنادقة والكيتلان.(١٢٦) وعلى ذلك قرّر السلطان برسباي إخلاء سبيل الملك القبرصي جانوس بن جاك، فأُخرج من السجن يوم السبت السابع والعشرين من شهر ربيع الآخر من سنة ثلاثين وثمانمائة للهجرة (٢٧ ربيع الآخر ٨٣٠هـ/١٤٢٧م).(١٢٧) وقيل أن خروجه كان في الحادي والعشرين من ربيع الأول لسنة ثلاثين وثمانمائة للهجرة (٢١ ربيع الأول ٨٣٠هـ/١٤٢٧م).(١٢٨)

وأُعدت له دارٌ ليسكنها، وكان يخرج ليتجوّل بكامل حريته في أحياء القاهرة، وصُرفت له النفقة التي تليق به، ثم انتقل إلى الإسكندرية ليقضي فيها أيامًا قبل أن يسافر إلى جزيرة قبرص في اليوم السادس عشر من جمادي الآخرة من سنة ثلاثين وثمانمائة للهجرة.(١٢٩) كان النصر العظيم الذي حققته الحملة المملوكية الثالثة على جزيرة قبرص الحلقة الختامية من حلقات سلسلة الحملات المملوكية على قبرص التي بدأت بالحملة الأولى سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٤م، وتلتها الحملة الثانية سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٥م. وفي سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٦م كانت الحملة الثالثة التي تعتبر خاتمة المطاف.

لقد كانت نتيجة الحملة الثالثة ذات أهمية خاصة، ووصف النصر الذي تحقق فيها بأنه كان "على غير القياس"(١٣٠) بسبب قلة عدد القوات المشاركة في الحملة مقارنة مع الجموع الكثيفة التي حشدها ملك قبرص، وما وصله من عونٍ ومساعدة من الفرنجة.(١٣١) ويضاف لهذا كله، قلة خبرة المسلمين في الحرب البحرية، فلم "يكن لهم عادة بركوب البحر ولا بالقتال فيه"،(١٣٢) في حين كان القبارصة أصحاب خبرة كبيرة، ودراية تامة بالحرب البحرية وفنونها ومهاراتها، كما تميّزت هذه الحملة بتحقيق نصر سريع وبأقل الخسائر في صفوف المسلمين.(١٣٣) وبهذه النتيجة أمكن إنهاء حالة دائمة من القلق والإزعاج الدائمين كانت تسببهما قبرص كمستقر وممر للحملات العسكرية والغارات والإعتداءات على السواحل المصرية والشامية في العهد

المملوكي، مما أنعكس أمنا واستقرارًا في هذه السواحل وموانئها، فتضاعفت التجارة فيها، وعمّ فيها الأمن والرخاء، ولو إلى حين.

خَاتِمَةٌ

أظهرت لنا هذه الدراسة أهمية الدور الذي قامت به جزيرة قبرص في تهديد السواحل العربية والإسلامية على امتداد الساحل المصري والشامي بحكم موقعها القريب، وبحكم استخدامها قاعدة تجمع للقراصنة والقوات الصليبية إبّان الحروب الصليبية. وعرفنا ما قامت به من هجمات على السفن والموانئ الشامية والمصرية، وإلحاق أكبر أذى بالمسلمين.

وأتاحت لنا هذه الدراسة الاطلاع على منهجية المماليك في التخلص من الأخطار والتهديدات القادمة من جزيرة قبرص، واخذ القرار في عهد السلطان الأشرف برسباي، وإجراء الاستعدادات وتوحيد الجهود وتنسيقها بين فكيّ القوة الإسلامية في مصر والشام، للإطباق على جزيرة قبرص، فكانت الحملات العسكرية البحرية المملوكية الثلاث المتتالية خلال سنوت ١٤٢٤-١٤٢٦م، ونجح المماليك في حملتهم الثالثة في فتح جزيرة قبرص وإخضاعها للسيادة المملوكية التي استمرت عليها وتواصلت حتى نهاية دولة المماليك، وتولى العثمانيون إدارة دفة الأحداث.

الاحالات المرجعية:

(١) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٧، ص٢٠٨-٢٠٩، د. العسلي، بسام: **الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية**. دار النفائس-بيروت، ١٩٧٨، الطبعة الأولى، ص ٢٩١-٢٩٧.

(٢) عاشور، سعيد عبد الفتاح: **الحركة الصليبية**. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٣م، الطبعة الأولى، ج٢، ص١٢٢٣-١٢٢٤. طرخان، إبراهيم علي: **مصر في عصر دول المماليك الجراكسة (١٣٨٢-١٥١٧)**، مكتبة النهضة المصرية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٩٦-٩٨.

(٣) عاشور، المرجع السابق، ج٢، ص١٢٢٤. طرخان، المرجع السابق، ص٩٦-٩٨. النويري، "محمد بن قاسم الاسكندري"، **الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام، الأمور المقضية في واقعة الإسكندرية**، بدأ تحقيقه من مخطوطات برلين والقاهرة، د. أنيس كومب. وأتمّ تحقيقه والتعليق عليه من مخطوطات برلين والقاهرة وبانكي بور، د. عزيز سوريا عطية. طبع بإعانة وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية. تحت مراقبة د. محمد عبد المعيد فان، مدير دائرة المعارف العثمانية. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن-الهند.١٣٨٨هـ - ١٨٦٨م،

(٤) النويري، **الإلمام بالإعلام**، ج٢، ص١١٠.ج٢، ص١١١.

(٥) النويري، **الإلمام بالأعلام**، ج٢، ص ١٧٨-١٧٩. عاشور، **الحركة الصليبية**، ج٢، ص ١٢٢٥-١٢٢٦. حول تفاصيل الحملة على الإسكندرية، أنظر، السخني، محمود خالد، **النشاط البحري لدولة المماليك في البحر المتوسط (٦٩٠-٩٢٣هـ/١٢٩١-١٥١٧م)**، رسالة ماجستير في التاريخ، كلية الآداب، جامعة دمشق، ٢٠١١/٢٠١٢، ص ١٥٠-١٧١.
https://en.calameo.com/books/0057998413b9ba20e4693

(٦) السخني، المرجع السابق، ص١٧١-١٧٣.

(٧) عاشور، **الحركة الصليبية**، ج٢، ص١٢٢٨.

(٨) ابن شاهين: "عز الدين خليل بن شاهين الظاهري"، **زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، اعتنى بتصحيحه بولس راديس، المطبعة الجمهورية، باريس، ١٨٩٣م، ص١٣٨.

(٩) أبو المحاسن: "جمال الدين يوسف بن تغري بردي"، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**. تحقيق د. جمال محمد محرز، والأستاذ فيهم محمد شلتوت. الهيئة العامة للتأليف والنشر. القاهرة، ١٣٩١هـ، ١٩٧١م، ج١٤، ص٢٦٦. المقريزي: "تقي الدين أحمد بن علي"، **السلوك لمعرفة دول الملوك**. حققه وقدّم له ووضع حواشيه، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، وزارة الثقافة، مركز تحقيق التراث، مطبعة دار الكتب، القاهرة. ١٩٧٢. الجزء الرابع- القسم الثاني، ص٦٦٠-٦٦١.

(١٠) السخني، **النشاط البحري لدولة المماليك في البحر المتوسط**، ص ٦٨-٦٩.

(١١) أبو المحاسن، **النجوم الزاهدة**، ج١٤، ص٢٦٦.

(١٢) العيني، **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، ج١١، ص٢٦٢.

(١٣) عاشور، **الحركة الصليبية**، ج٢، ص١٢٢٩.

(١٤) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ق٢، ص٦٦٨.

(١٥) العيني: "بدر الدين محمود"، **عقد الجُمان في تاريخ أهل الزمان**، تحقيق وتعليق د. عبد الرزاق الطنطاوي القرموط، الزهراء للإعلام العربي ١٤٠٩-١٩٨٩م، الطبعة الأولى، (مجلد واحد يتحدث

عن أحداث السنوات من ٨٢٤هـ إلى ٨٥٠هـ)، ص٢٦٢. المقريزي، **السلوك** ص٥، ص٢، ص٦٦٨. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٦٨. الصيرفي: "الخطيب الجوهري علي بن داود"، **نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان "٨١٩-٩٠٠هـ)**، تحقيق د. حسن حبش. وزارة الثقافة: مركز تحقيق التراث، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٣، ج٣، ص٧٧.

(١٦) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص ٢٦٨.

(١٧) ابن حجر العسقلاني: "شهاب الدين بن علي"، **إنباء الغمر بأبناء العمر**، طبع بإعانة وزارة المعارف للحكومة العالمية الهندية، تحت مراقبة بروفسور السيد عبد الوهاب البخاري، مدير دائرة المعارف العثمانية وعميدها، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٦-١٩٨٦م، ج٨، ص٤٨.

(١٨) العيني، **عقد الجمان**، مجلد١، ص ٢٦٣. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٧٧. المقريزي، **السلوك**، ج٤، ص١٦٨. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٦٨. ابن حجر، **إنباء الغمر**، ص٤. ابن شاهين، **الزبدة**، ص ١٣٨.

(١٩) العيني، **عقد الجمان**، مجلد١، ص٢٦٣. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٧٧.

(٢٠) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ص٣٦٨.

(٢١) ابن حجر، **إنباء الغمر**، ج٨، ص٤٨.

(٢٢) العيني، **عقد الجمان**، ج١، ص٢٦٣. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٧٣. ابن حجر، ج٨، ص٤٨.

(٢٣) العيني، **عقد الجمان**، ج١، ص٢٦٣. الصيرفي، مصدر سبق ذكره، ج٣، ص٧٧. ابن حجر، **أنباء الغمر**، ج٨، ص٤٨.

(٢٤) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ص٦٧١. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٧٠. العيني، **عقد الجمان**، مجلد١، ص٢٦٣. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٧٧.

(٢٥) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ص٦٦٨. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٦٨.

(٢٦) ابن شاهين، **الزبدة**، ص١٣٨.

(٢٧) المصدر نفسه، ص١٣٨.

(٢٨) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ص٦٧٢. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٧٠.

(٢٩) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ص٦٧٢. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٧٠.

(٣٠) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ص٦٧٢.

(٣١) العيني، **عقد الجمان**، مجلد١، ص٢٦٣. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٧٧.

(٣٢) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ص٦٧٢. العيني، **عقد الجمان**، مجلد١، ص٢٦٣.

(٣٣) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ص٢٦٣.

(٣٤) العيني، **عقد الجمان**، مجلد١، ص٢٦٣.

(٣٥) ابن شاهين، **الزبدة**، ص١٣٨.

(٣٦) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٦٩.

(٣٧) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ف٢، ص ٦٧٩. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٧١. ابن إياس: "أبو البركان محمد". **بدائع الزهور في وقائع الأمور**. حققه وكتب له المقدمة والفهارس، محمد مصطفى. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٤-١٩٨٢، الطبعة الثانية، ج٢، ص٩٠.

(٣٨) ابن شاهين، **الزبدة**، ص ١٣٨-١٣٩.

(٣٩) ابن حجر، **أنباء الغمر**، ج٨، ص ٧١.

(٤٠) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٧١. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٧٣.

(٤١) ابن شاهين، **الزبدة**، ص١٣٩. ابن حجر، **أنباء الغمر**، ج٨، ص٧١.

(٤٢) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص٩٧. أبو المحاسن، **النجوم الزاهرة**، ج١٤، ص٢٧٣.

(٤٣) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٧٥. ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٣، ص٩٧-٩٨.

(٤٤) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٧٥.

(٤٥) المقريزي **السلوك**، ج١٤، ص٦٨٩.

(٤٦) المقريزي **السلوك**، ج٤، ص٦٨٦. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٧٦.

(٤٧) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص٩٨.

(٤٨) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٧٦. المقريزي، **السلوك**، ج٤، ف٢، ص٦٨٩.

(٤٩) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٧٦. العيني، **عقد الجمان**، مجلد١، ص٢٦٤. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٧٧-٧٨.

(٥٠) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ص٦٩٠. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٧٦.

(٥١) ابن حجر، **أنباء الغمر**، ج٨، ص٧٢.

(٥٢) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص ٢٧٨، ج٤، ص٦٩٤. العيني، **عقد الجمان**، مجلد١، ص٢٦٤. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٧٨، ابن شاهين، **الزبدة**، ص١٣٩-١٤٠.

(٥٣) ابن حجر، **أنباء الغمر**، ج٨، ٧٢.

(٥٤) العيني، **عقد الجمان**، مجلد، ص٢٦١. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص ٧٨. المقريزي، **السلوك**، ج٤، ص٦٩٤. أبو المحاسن **النجوم**، ج١٤، ص ٢٧٨. ابن شاهين، **الزبدة**، ص ١٤٠.

(٥٥) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ص ٦٩٤-٦٩٥. أبو المحاسن، **النجوم**، ج ١٤، ص ٢٧٨-٢٧٩

(٥٦) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ص٢، ص٦٩٥. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٧٩. العيني، **عقد الجمان**، ص٢٦٧-٢٦٨. ابن حجر، **أنباء الغمر**، ج٨، ص٧٣. ابن شاهين، **الزبدة**، ص ١٤٠.

(٥٧) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٧٩.

(٥٨) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ص٢، ص٦٩٥. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٧٩. العيني، **عقد الجمان**، مجلد١، ص٢٦١. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٧٩.

(٥٩) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٧٩.

(٦٠) العيني، **عقد الجمان**، مجلد١، ص ٢٦٨.

(٦١) ابن حجر، **أنباء الغمر**، ج٨، ص٧٣. العيني، **عقد الجمان**، مجلد١، ص٢٦٨. ابن شاهين، **الزبدة**، ص١٤١.

(٦٢) ابن شاهين، **الزبدة**، ص١٤١.

(٦٣) العيني، **عقد الجمان**، مجلد١، ص٢٦٩. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٨١-٨٢.

(٦٤) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٨٠. المقريزي، **السلوك**، ج٤، ص٦٩٥. ابن حجر، **أنباء الغمر**، ج٨، ص٧٣. العيني، **عقد الجمان** مجلد١، ص٢٧١. الصيرفي، نزهة النفوس، ص٨٣. ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٠٠.

(٦٥) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ف٢، ص٦٩٥. العيني، **عقد الجمان**، مجلد ١، ص٢٧٠. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٨٢.

(٦٦) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٨٠.

(٦٧) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٨٠. المقريزي، **السلوك**، ج٤، ص ٦٩٥. العيني، **عقد الجمان**، مجلدا، ص٢٧١. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ص ٨٣.
(٦٨) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٨٠. ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٠٠
(٦٩) العيني، **عقد الجمان**، ص٢٧١. ابن شاهين، الزبدة، ص١٤١. أبو المحاسن، **النجوم**، ج٤، ص٢٨١.
(٧٠) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ص٦٩١. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٨١. ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٠١. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ص٨٤.
(٧١) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ف٢، ص٦٩١. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٨١.
(٧٢) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ف٢، ص٦٩١. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٨١. ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٠١.
(٧٣) العيني، **عقد الجمان**، ص٢٧٢. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٨٤.
(٧٤) العيني، **عقد الجمان**، ص٢٣٢-٢٣٣. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٨٤.
(٧٥) أبو المحاسن، **النجوم**، ج٢، ص٢٨١. المقريزي، **السلوك**، ج٤، ف٢، ص٦٩١. ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٠١.
(٧٦) ابن حجر، **أنباء الغمر**، ج٨، ص٧٣.
(٧٧) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ف٢، ص٧١٨. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٨٧.
(٧٨) ابن شاهين، **الزبدة**، ص١٤٢. ابن حجر، **أنباء الغمر**، ج٨، ص ٩٨.
(٧٩) المقريزي **السلوك**، ج٤، ص٧١٩. أبو المحاسن، **النجوم**، ص٢٨٨. العيني، **عقد الجمان**، ص٢٧٣. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٨٤-٨٥. **أنباء الغمر**، ج٨، ص٩٨. ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٠٦. ابن شاهين، **الزبدة**، ص١٤٢.
(٨٠) المقريزي السلوك، ج٤، ف٢، ص٧١٨. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٨٧. الصيرفي، **نزهة** النفوس، ج٣، ص٨٥.
(٨١) المقريزي **السلوك**، ج٤، ف٢، ص٧١٩. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٨٧. ابن شاهين، **الزبدة**، ص١٤٢، **أنباء الغمر**، ج٢، ص٩٨. العيني، **عقد الجمان**، ص٢٧٥-٢٧٦. الصيرفي، **نزهة النفوس** ج٣، ص٨٥-٨٦.
(٨٢) المقريزي **السلوك**، ج٤، ف٢، ص٧٢٠. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٨٩-٢٩٠. العيني، **عقد الجمان**، ص٢٧٦-٢٧٦. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٨٦-٨٧. ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص١٠٦. ابن حجر، **أنباء الغمر**، ج٨، ص٩٩.
(٨٣) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٨٩. العيني، **عقد الجمان**، ص٢٧٨.
(٨٤) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٩٠. **الزبدة**، ص١٤٢. ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٠٧.
(٨٥) ابن حجر، **أنباء الغمر**، ج٨، ص٩٩.
(٨٦) المقريزي **السلوك**، ج٢، ص٧٢١-٧٢٢. **النجوم**، ج١٤، ص٢٩٢. العيني، **عقد الجمان**، ص٢٧٨-٢٧٩. **نزهة النفوس**، ج٣، ص٨٧-٨٨، ابن حجر، **أنباء الغمر**، ج٨، ص٩٩.
(٨٧) **أنباء الغمر**، ج٨، ص١٠٠.
(٨٨) ابن شاهين، **الزبدة**، ص١٤٢.
(٨٩) الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٨٨.
(٩٠) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٩٢.
(٩١) العيني، عقد الجمان، ج، ص٢٨٠-٢٨١. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٨٩-٩٠. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٩٣. المقريزي، **السلوك**، ج٤، ص٣٢٢. ابن شاهين، **الزبدة**، ص١٤٢.
(٩٢) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٩٣-٢٩٤. العيني، **عقد الجمان**، ص٢٨١-٢٨٢. ابن حجر، **أنباء الغمر**، ج٨، ص١٠١.
ابن شاهين، **الزبدة**، ص١٤٣.
(٩٣) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٩٤.
(٩٤) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٩٤.
(٩٥) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ص٧٢٢.
(٩٦) ابن شاهين، **الزبدة**، ص ١٤٣.
(٩٧) ابن حجر، **أنباء الغمر**، ج٨، ص١٠٢.
(٩٨) العيني، **عقد الجمان**، ص٢٨٣.
(٩٩) سعيد، إبراهيم حسن: **البحرية في عصر سلاطين المماليك**. دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م، بلا طبعة، ص٢٦٤.
(١٠٠) العيني، **عقد الجمان**، ص٢٨٢. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٩١.
(١٠١) العيني، **عقد الجمان**، ص٢٨٢. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٩١. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٩٤. المقريزي، **السلوك**، ج٤، ص٧٢٢.
(١٠٢) العيني، **عقد الجمان**، ص٢٨٢-٢٨٣. **أنباء الغمر**، ج٨، ص١٠٢. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٩٤. المقريزي، **السلوك**، ج٤، ف٢، ص٧٢٢.
(١٠٣) الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٩١.
(١٠٤) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٩٥. المقريزي، **السلوك**، ج٤، ص٧٢٢. العيني، **عقد الجمان**، ص٢٨٣. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٩١-٩٢. ابن شاهين، **الزبدة**، ص١٤٣. **أنباء الغمر**، ج٨، ص١٠٣
(١٠٥) العيني، **عقد الجمان**، ص٢٨٣. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٩٢.
(١٠٦) العيني، **عقد الجمان**، ص٢٨٣-٢٨٤. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٩٢.
(١٠٧) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٩٥.
(١٠٨) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ف٢، ص٢٥. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٩٥. ابن حجر، **أنباء الغمر**، ج٨، ص١٠٣.
(١٠٩) العيني، **عقد الجمان**، مجلدا، ص٢٨٤.
(١١٠) العيني، **عقد الجمان**، ص٢٨٥-٢٨٦. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٩٣. ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٠٧.
(١١١) العيني، **عقد الجمان**، ص٢٨٥-٢٨٦. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٩٣. المقريزي، **السلوك**، ج١، ف٢، ص٧٤٣. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٩٦. ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٠٧.
(١١٢) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٩٨.
(١١٣) ابن حجر، **أنباء الغمر**، ج٨، ص١٠٣.
(١١٤) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ف٢، ص٧٢٣-٧٢٤. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٩٩. العيني، **عقد الجمان**، ص٢٨٦. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٩٣-٩٤. ابن حجر، **أنباء الغمر**، ج٨، ص١٠٣.
(١١٥) المقريزي، السلوك، ج٤، ف٢، ص٧٢٤.
(١١٦) ابن حجر، **أنباء الغمر**، ج٨، ص١٠٣.
(١١٧) ابن شاهين، **الزبدة**، ص١٤٤.
(١١٨) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ق٢، ص٧٢٤-٧٢٥. العيني، **عقد الجمان**، مجلدا، ص٢٨٦. ابن شاهين، الزبدة، ص١٤٤. أبو

المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٩٩-٣٠٠. ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٠٨. ابن حجر، **أنباء الغمر**، ج٨، ص١٠٤.

(١١٩) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص ١٠٨. المقريزي، **السلوك**، ج٤، ق٢، ص٧٤٥. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٣٠١-٣٠٢.

(١٢٠) المقريزي، **السلوك**، ج٢، ق٢، ص٧٢٥، العيني، **عقد الجمان**، مجلدا، ص٢٨٦، أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٣٠٠، ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٣، ص٩٤.

(١٢١) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ق٢، ص٧٢٥. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٣٠٠. **أنباء الغمر**، ج٨، ص١٠٤. ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٠٨.

(١٢٢) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ق٢، ص٧٢٦. العيني، **عقد الجمان**، ص٢٨٦-٢٨٧. **نزهة النفوس**، ج٣، ص٩٤. **إنباء الغمر**، ج٨، ص١٠٤.

(١٢٣) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٠٩.

(١٢٤) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٣٠٣.

(١٢٥) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٠٩. ابن شاهين، **الزبدة**، ص١٤٥. ابن حجر، **أنباء الغمر**، ج٨، ص١٠٤.

(١٢٦) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ق٢، ص٧٢٦. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٣٢-٣٤. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٩٤.

(١٢٧) العيني، **عقد الجمان**، ص٢٨٧. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٩٤.

(١٢٨) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٣٠٦.

(١٢٩) المقريزي، **السلوك**، ج٤، ق٢، ص٧٤٣. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٣٠٦. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٩٤-٩٥

(١٣٠) **إنباء الغمر**، ج٨، ص١٠٥. ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٠٧.

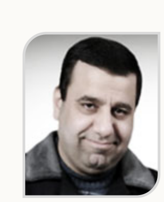
(١٣١) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٠٧. أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٩٧.

(١٣٢) ابن حجر، **أنباء الغمر**، ج٨، ص١٠٥.

(١٣٣) أبو المحاسن، **النجوم**، ج١٤، ص٢٩٧.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

تفسير عملية الاحتراق والتنفس عبر العصور
وضع النظرية العربية في سياقها التاريخي العلمي
دراسة سردية تحليلية



د. سائر بصمه جي
دكتوراه في تاريخ العلوم الأساسية
باحث في تاريخ العلوم العربية
حلب – الجمهورية العربية السورية

مُلَخّصْ

حاول كل العلماء ومن مختلف الحضارات أن يقدموا رؤيتهم لتفسير ظاهرة عملية الاحتراق (بغض النظر عن المصدر الحراري)، خصوصًا وأنها مسؤولة عن تشكّل النيران بالدرجة الأولى. لم تبحث الدراسات العلمية التاريخية (سواء العربية أو الأجنبية) كثيرًا في تأصيل الإسهامات العلمية العربية المتعلقة في نظرية الاحتراق والتنفس. لذلك فإننا نهدف من خلال هذا البحث وضع النظرية العربية في مجال الاحتراق والتنفس في سياقها التاريخي العلمي. كما نسعى من خلال هذا البحث إلى التأريخ لبداية الكشف وجود صلة وعلاقة بين الاحتراق والتنفس منذ أيام اليونانيين مرورًا بالعلماء العرب الذي تأكدوا من هذه الصلة تجريبيًا في القرن العاشر الميلادي، إلى الأوربيين الذين توصلوا إلى هذه العلاقة بشكل نهائي في القرن السابع عشر الميلادي. وقد ركزنا جهودنا في استقصاء هذه الإسهامات في مظانها ومصادرها المخطوطة، متبعين المنهج المقارن والمنهج التاريخي الاستردادي لاستجلاء أوجه الشبه والاختلاف بين مختلف الآراء والأفكار المطروحة لتفسير الظاهرة. وذلك ضمن المجال الزمن الواقع بين القرنين (٥ ق.م) و(١٩م). وقد توصلنا إلى أن أول إشارة نظرية لدور الهواء في عملية الاحتراق ظهرت عند أبو بكر الرازي في القرن العاشر الميلادي. وقد لحقه في هذا الاتجاه الفارابي. كما أنه قد يكون ابن الحائك الهمداني أول عالم عربي يقدم لنا دليل تجريبي علمي على وجود علاقة بين الهواء الجوي وعملية الاحتراق، قبل ظهور أي نظرية مماثلة في أوربا بنحو ستة قرون.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٤ أكتوبر ٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر: ٢٣ نوفمبر ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

الاحتراق؛ التنفس؛ الحرارة؛ الاحتكاك؛ الوقود؛ الهواء؛ تفاعل كيميائي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.231220

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

سائر بصمه جي. "تفسير عملية الاحتراق والتنفس عبر العصور: وضع النظرية العربية في سياقها التاريخي العلمي: دراسة سردية تحليلية".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثاني والخمسون؛ يونيو ٢٠٢١. ص ٥٩ – ٨٢.

Corresponding author: saerbasmaji@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةٌ

يعرّف الاحتراق Combustion على أنه تفاعل كيميائي ينتج عنه حرارة وضوء. وغالبًا ما يتضمن الاحتراق الامتزاج السريع للأكسجين مع وقود من نوعٍ ما ليتولد عنه الاشتعال. وأحيانًا تحلُّ بعض المواد الكيميائية كالفلور والكلور محل الأكسجين في عملية الاحتراق. وعندما يمتزج الأكسجين ببطء بمادة أخرى يُطلق على التفاعل الناتج اسم الأكسدة. وتُعَدُّ عملية صدأ الحديد مثالاً حيًا على عملية الأكسدة[١]. إذًا حتى يتشكل الاحتراق التقليدي[٢] لابد من توفر ثلاثة عناصر: الأكسجين (المأخوذ غالبًا من الهواء)، والوقود (أو المادة القابلة للاحتراق)، والحرارة (وسيلة الإشعال كالاحتكاك أو البرق). والمادة التي تحترق تخضع لتفاعل كيميائي غير عكوس، أي لا يمكننا استعادة المادة بعد حرقها كما كانت عليه. فالروابط الجزيئية بين ذرات المادة المحترقة (خصوصًا الكربون والهيدروجين والأكسجين) تتكسر صانعةً مركبات جديدة.

يشعر الإنسان بالاحتراق عندما تقترب النار من الجلد، وذلك لأن ذرات الجلد تبتدئ في التحرك بسرعة حين ملامستها للحرارة، فكلما ازدادت الحرارة ازدادت حركتها، فإذا تخطت الحرارة المعدل الطبيعي قامت الذرات بكسر الروابط التي تربط بينها. وقد يتحول الهواء إلى نار من خلال النفخ الشديد في جذوة مشتعلة فذلك لأنه يزيد من اشتعالها، وهو ما يعتبر دليلاً على أن شيئًا من الهواء نفسه يشتعل ويتحول إلى نار[٣]. ومع حاجة عملية الاحتراق التقليدي إلى عنصر الهواء، ومع كل التقدم الذي أحرزته نظرية الاحتراق من ناحية قدرتها التفسيرية، إلا أن آلية حدوث الاحتراق وما يتعلق به في ظروف انعدام الجاذبية والهواء لا تزال محط أنظار علماء وكالة الفضاء ناسا، فقد أجروا تجربة عام ٢٠١٧ على مركبة فضائية غير مأهولة يستبينوا من خلالها كيف تتم هذه العمليات في تلك الظروف، ومن شأن نتائج هذه التجربة أن تساعدهم في تجنب الحرائق التي يمكن أن تحدث في المركبات الفضائية المأهولة مستقبلاً.

تكمن أهمية هذا البحث في أنه يسلط الضوء، ربما لأول مرة، على نظرية الاحتراق والتنفس عند العلماء العرب والمسلمين. وقد كان من دواعي قيامنا به هو ندرة البحوث العربية والأجنبية التي أجريت حوله بشكل دقيق وشامل.

أولاً: اليونانيون والصينيون

يطغى الجانب النظري في أعمال اليونانيين الذين حاولوا تفسير عملية الاحتراق وعملية التنفس على جانبه التجريبي. وقد بدأت ملامح التفسير ترتسم بشكل مشترك بين الأطباء والفلاسفة، خصوصًا أرسطو، الذي ستكون له اليد الطولى في ذلك.

١/١-أبو قراط (القرن ٥ ق.م)

كان ثمة إشارة إلى وجود علاقة بين التنفس والتغذية منذ عهد أبوقراط. فقد كان أبوقراط (توفي ٣٧٠ ق.م) Hippocrates يرى -كما أخبرنا جالينوس- بأن غاية التنفس هو "النترات والتبريد" والذي عنى به بأن وجود النترات يمد الحياة الداخلية للكائن الحي بالوقود وفي الوقت نفسه يمنع الحرارة الداخلية من استهلاك وقودها بسرعة كبيرة بوساطة التبريد[٤].

٢/١-أرسطو (القرن ٤ ق.م)

أخذ أرسطو بنظرية العناصر الأربعة التي نظّمها إمبيدوقليس، ووافق على أنّ النار أحد العناصر الأربعة التي تتكون منها المادة، وقد فسّر الاحتراق بأنه إطلاق النار من المادة[٥]. ومع تبني أرسطو لنظرية العناصر الأربعة وإضافته للكيفيات الأربع (الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة)، وأن كل عنصر من العناصر الأربعة ينتج عن اتحاد زوجين من هذه الكيفيات (انظر الشكل الآتي)؛ تأسست نظرية الاحتراق الأرسطية وتمّ تبنيها من قبل معظم العلماء والفلاسفة اللاحقين من عرب وأوربيين[٦].

ولبناء نظريته، شرع أرسطو في توضيح أثر الحرارة سواء على الجماد أو الحيوان، فالأجسام لا تحترق إلا لأنها مهيأة للاحتراق، قال أرسطو: " وقد يدل أيضًا دلالة عظيمة على أن الحرارة والبرودة فاعلتان أن كل واحدة منهما توجد سببًا لكون الأجسام وفسادها. وذلك أن الحرارة يتولد عنها الحيوان ويغتذي، والأجسام التي فيها تهيؤ للاحتراق تحترق ... والحرارة أيضًا تبرد بالعرض، ولهذه العلة نجد الاستمرار والنضج في الصيف أقل"[٧].

وكان أرسطو يرى بأن الجسم المحترق" هو الذي له منافذ تقبل النار، وفيه رطوبة قابلة للأثر منها. وأما غير المحترق فالمضاد له. فمتى كان الجسم يابسًا، ولم تكن له منافذ تقبل النار، لم يحترق، بمنزلة الجليد والخشب الرطب. وبعض الأجسام المحترقة لا تشتعل منها النار، وهذه الأجسام إما أن تشتعل وحدها، وإما مع جسم. والمشتعلة وحدها منها ما لها جمر، بمنزلة خشب البلوط والزيتون، ومنها ما يفضي إلى الرماد بمنزلة القصب والبردي، وأما التي تشتعل مع أجسام أخر فبمنزلة الزيت مع الفتيلة والشمع مع البردي"[٨].

وقد حاول تفسير وتصنيف سبب حدوث عملية الاحتراق في بعض المواد وعدم حدوثها في البعض الآخر إلى أربعة أنواع:

١- أجسام تحترق وتذوب مثل الشمع، ويعود ذلك إلى وجود رطوبة في كلا المادتين.

٢- أجسام تنصهر ولا تحترق مثل النحاس، وسبب ذلك استجابة رطوبته للانصهار وعدم استجابتها للاحتراق.

٣- أجسام تحترق ولا تنصهر مثل الخشب، وسبب ذلك استجابة رطوبته للاحتراق وعدم استجابتها للانصهار.

٤- أجسام لا تحترق ولا تنصهر مثل الحجر، وسبب ذلك لأن رطوبته لا تستجيب لا للاحتراق وللانصهار. طبعًا ولكل قاعدة شواذ، إذْ يوجد حجر أسايطس الذي يمكنه أن يحترق إذا سكب عليه زيت، وربما قصد النفط.

قال أرسطو: إنّ "بعض الأجسام تشتعل وتذوب معًا، بمنزلة الشمع، والسبب في ذلك أن بعض رطوبته متصلة وبعضها متبددة، ولهذه العلة يقبل الأثرين جميعًا. وإذا أفرد وحده ذاب، وإذا تركّب مع البردي اشتعل. وبعضها يذوب ولا يشتعل، بمنزلة النحاس، فإن هذا يسبب تبدد الرطوبة فيه يجيب إلى الذوبان ولا يجيب إلى الاشتعال. ومنها مشتعلة غير ذائبة، بمنزلة الخشب: فإن هذا لسبب اجتماع الرطوبة التي فيه يجيب إلى الاشتعال ولا يجيب إلى الذوبان. وبعضها لا يشتعل ولا يذوب، بمنزلة حجر المطر وسائر الأجسام التي لا توجد فيها رطوبة – لا مجتمعة ولا متفرقة- خلا الممسكة لأجزائها مثل الحجر المسمى باليونانية أسايطس[9]، فإن هذا الحجر لا يحترق إذا كان مفردًا بسبب يبسه، فمتى سكب عليه زيت احترق لأنه رطب"[10].

وقد أكد أرسطو في مواضع أخرى على نظريته في احتراق المواد، متوسعًا في الأمثلة التي طرحها والحالات التي تكون فيها نسبة كيفية الرطوبة أو الهوائية أو اليبوسة زائدة عن الحد "فأما الخشب فإنه يحترق بالنار ولا ينحلّ ولا يذوب، لأن الغالب عليه الهواء والأرض لا المائية والأرض. والدليل على ذلك أنه يطفو على الماء ما خلا خشب الأبنوس فإنه يغرق لأن الأرضية أغلب عليه من الهوائية، والدليل على ذلك سواد لونه"[11]. "وبعض الأشياء تحترق بالنار وتشتعل بها كالخشب والصوف والعظام، وما أشبه ذلك من الأجسام التي منافسها ومجاريها الطبيعية غير مضادة للنار، بل شبيهة بها فتحترق لمخالطة النار إياها. وأما ما كان رطبًا مفرطًا في الرطوبة فإنه لا يحترق ولا يشتعل كمثل الجليد والثلج وما أشبه ذلك. وبعض الأجسام تنحرق وتفسد وتصير يابسة أرضية إذا عادت رطوبتها بخارًا، وبعضها يصير ريحًا وبخارًا بالنار كالدهن وما أشبهه. والبخار هو هواء محتقن في الجسم الخارج منه غائص فيه مخالط لقوة ذلك الجسم. وقد يقال إن ذلك الجسم يحترق إذا كان ممكنًا أن يصير رمادًا. والتي تحترق فهي الأجسام الجامدة بالحر والبرد، فأما المحترقة بالحرارة الجامدة فالعظام وما أشبهها. وأما المحترقة الجامدة بالبرد فكالأحجار المحترقة والمتكلسة"[12].

أما موقفه من عملية التنفس فقد أوضحه أرسطو قائلاً: "لا يمكننا أن نقبل الفكرة بأن الغرض من التنفس هو التغذية، وبذلك يعني بأن النار الداخلية تغذيها النفس، وأن التنفس هو إلقاء الوقود في الفرن"[13]. وبذلك فإنّ عملية التنفس التي تحدث عند الكائنات الحية فإن مهمتها دعم الحرارة الحيوية التي هي حالة الحياة. ومن ناحية علم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا) الأرسطية فإن تشكيل الجسم يتم بوساطة النسل والتغذية. وهو يقدّم معيارًا لتصنيفه لكل أشياء الحياة: الأعلى تلك التي إمدادها للحرارة يسمح للأجيال الولودة والبياضة بأن تتشكل. الروح المغذية الموجودة في الأرواح الحساسة والعاقلة التي "تحرك" كل من التغذية والنسل وهي متوضعة في القسم الأكثر حرارة من الجسم، في منطقة متوسطة بين تلك حيث يدخل الطعام إليها وتلك التي يتم إفراغ الطعام منها، أي القلب في الحيوانات ذات الدم الحار أو القاني. النار هي في القلب الذي يغذيه الوقود وهذا معني به الطعام الذي يتصاعد على شكل بخار. إذا استهلكت النار الوقود أسرع من المعدة يمكن استبدالها أو إذا كانت النار مستعرة، فإن الأعضاء الحية تموت من الإنهاك. لمنع هذا، يجب الإبقاء على النار ضمن روابط. هذه هي وظيفة التنفس، إنه يقوم بتلطيف حرارة القلب بالتبريد. بالإضافة إلى أن جالينوس تصور تلك الحركات التنفسية زفرت أبخرة بادية، والتي ماعدا ذلك فإنها ستتجمع وتخنق اللهب الحيوي التي نشأت منه.

إن اعتماد الحياة على الحرارة والتنفس ضمن نشاط التغذية تصوره علم وظائف الأعضاء القديم والذي عبر عنه أرسطو كما يأتي: "النسل هو أساس المشاركة وهو توسط بالمادة الخام الدافئة، في نشاط التغذية والحياة هي صيانة هذه المشاركة: الشباب هو فترة نمو العضو الأولي للتبريد، والشيخوخة انحدارها، في حين أن الزمن الفاصل مقتبل العمر". تتفاوت آلية التنفس. حيث إنّ الحيوانات الشاحبة تنتج حرارةً طفيفة جدًا ليس لها ترتيبات خاصة ضرورية لتبريدها، إذْ أن استحمام بسيط على أدمتها بوساطة الهواء أو بالماء يكون كافيًا عادةً. أما الحيوانات ذات الدم الحار فهي ذات طبيعة أسخن وتتطلب آلية خاصة، كما في الأسماك وخياشيمها والتي تسبح بالماء،

ولهذا في الطبيعة فإن الحيوانات الأسخن أكثر نبلاً وذات رئات يغمرها الهواء. يشبه عمل الرئتين كيرين: عندما تصبح الحرارة في القلب زائدة، تسبب التمدد للرئة المجاورة مباشرةً، ويتدفق الهواء البارد فيها ويخفف من الحرارة، وتهمد الرئة والهواء المستنشق والذي قد سخنه الاتصال بالدم تم زفره. ثانيًا ترتفع الحرارة وتتكرر العملية. فيما بعد وفي عصر جالينوس هذا التفسير المبدع عن التنفس والزفير نبذتهما فكرة استندت على الفعل العضلي. على أي حال، فإن وظيفة التنفس في التعاليم القديمة كان للمحافظة على لهب الحياة من الاستنفاد وذلك بالحرارة المفرطة ومن خنقه بالأبخرة الظاهرة[١٤]. هذه الأفكار سيكتب لها الظهور في الأدبيات العلمية العربية والأوربية، لكن مع تعديل وتفصيل أكثر أهمية.

١/٣-بيرو (القرن ٣ ق.م)

ظهر تيار الفلسفة الشكية في الفترة الهلنستية، وقد انتشر هذا المذهب على امتداد القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد، ثم راج في القرنين الأول والثاني للميلاد. وقد انطلق الشاك من تعليق الحكم، أو التوقف عن تفضيل أحد الحكمين المتناقضين على الآخر، فالحكم ونقيضه متعادلان عندهم. ويعد بيرّو (حوالي ٣٦٥-٢٧٥ق.م) Pyrrho رائد المدرسة الشكية. فقد اعتبر أن الإنسان الذي يطمح لبلوغ السعادة، أن يجيب على الأسئلة الآتية:

١. مم تتألف الأشياء؟
٢. كيف يجب أن يكون موقفنا منها؟
٣. ما الفائدة التي نجنيها من موقفنا؟

كما ناقش في إطار فلسفة الشك خاصية الإحراق في النار، إذْ من البديهي أن يسلم الإنسان بوجود خاصية الإحراق في النار، ولكنه قد يعجز عن إطلاق حكم لماذا تملك هذه الخاصية. قال بيرو: " إن الشك يقر بأن الشيء الفلاني يبدو لنا أبيض، وأن العسل يبدو حلو المذاق، وأن النار تحرق، ولكنه يمتنع عن الحكم بأن الشيء الفلاني أبيض بحد ذاته، أو أن العسل حلو، وأن من طبيعة النار أن تحرق"[١٥].

١/٤-أبولونيوس التياني (القرن ١م)

قدم لنا أبولونيوس التياني ربما أول إشارة مباشرة لوجود علاقة بين النار والهواء عند بدء عملية الإشعال، حيث إن الأصل في تسمية النار هو انقداحها من الهواء، وهكذا يصبح سبب حمرة النار هو الهواء الذي يستمد هذه الخاصية من الرطوبة واللين، قال أبولونيوس:" إنما سميت النارُ نارًا لما اقتدحت من الهواء، ولذلك سمّى قرسطوفر وإرسانوس[١٦] محدّث العجائب، يعني الهواء احمرّ وزعم أن النار لا تحمرّ أبدًا دون أن تتصل بالهواء، فعلّة حُمرة النار الهواءُ، وعلة الهواء الرطوبة وعلة الرطوبة اللين وعلة اللين الحرّ، فجميع الأشياء إنما تكوّنت من الحرّ الذي هو الجوهر الباقي، وما كان سواه فهو فانٍ زائل"[١٧].

١/٥-المفيدروس (القرن ٦م)

اعتقد المفيدوروس (توفي نحو ٥٧٠م) Olympiodorus أن شدة الحرارة وجفافها هو السبب في عملية الاحتراق، والتي غالبًا ما تكون سطحية، وقد بنى اعتقاده على نظرية أرسطو في العناصر والكيفيات الأربع. كما عزز كلامه بضرب مثال المادة المشوية حيث إن سطحها يتأثر بشدة الحرارة أكثر من عمقه، قال المفيدوروس: "الشَّيءُ يكون عن حرارةً يابسةٍ بفعل رطوبة ذلك المشوي. والمشوي بالصناعة يصير قبوله للشيّ على الاستواء في جميع أجزائه، وذلك أن النار بسبب قوة حرارتها ويبسها تحرق ظاهره بسرعة فيتكاثف سطحه ولا يمكنها أن تغور في عمقه"[١٨]. أما في الفكر العلمي الصيني فترتكز فكرة الاحتراق على أن الأشياء تقبل ما هو مماثل لها وترفض ما هو مخالف، فإذا تعرّضت قطعتان متماثلتان من الخشب للنار فإن النار ستتجنب القطعة الرطبة وتشعل القطعة الجافة. وهذا نوع من التناغم والتجاوب بالرنين[١٩].

ثانيًا: العلماء العرب والمسلمين

فعل الحرق من الناحية اللغوية العربية يفيد معنى احتكاك جسمٍ بآخر مع ظهور حرارة، وهو يقترب من المفهوم الاصطلاحي العلمي، كونه يشير إلى توليد الحرارة التي يرافقها لهب. فقد ورد في معجم مقاييس اللغة لابن فارس مادة (حَرَقَ): "الْحَاءُ وَالرَّاءُ وَالْقَافُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا حَكُّ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ مَعَ حَرَارَةٍ وَالْتِهَابٍ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ فُرُوعٌ كَثِيرَةٌ. وَالْآخَرُ شَيْءٌ مِنَ الْبَدَنِ. فَالْأَوَّلُ قَوْلُهُمْ حَرَقْتُ الشَّيْءَ إِذَا بَرَدْتَ وَحَكَكْتَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ. وَالْعَرَبُ تَقُولُ: "هُوَ يَحْرُقُ عَلَيْكَ الْأُرَّمَ غَيْظًا"، وَذَلِكَ إِذَا حَكَّ أَسْنَانَهُ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ. وَالْأُرَّمُ هِيَ الْأَسْنَانُ"[٢٠].

أما من الناحية الاصطلاحية العلمية، فقد ميز العلماء العرب والمسلمين علميًا بين مصطلحين هما "الاحتراق" و "الإحراق" إذْ يقول أبو عبد الله الخوارزمي في كتابه (مفاتيح العلوم) فيما يتعلق بمصطلح الاحتراق من الناحية الفلكية هو "أن يكون الكوكب مقارنًا للشمس وبينهما أكثر من دقائق التصميم"[٢١]. وقد شرحه البيروني بمعنى اختفاء الجرم السماوي بسبب نور الشمس كما في كتابه (القانون المسعودي) أن " الكوكب عديم العرض من الكواكب الثابتة، فإذا لحقته الشمس وقارنته كان محترقًا ولكن أصحاب الصناعة قلما أوقعوا هذا

الاسم على الثوابت من أجل أن احتراق الكوكب هو تشبيه لخفائه في الشعاع المشبه باللهيب بالشيء المدخل للنار وحصوله مع الشمس وصولاً إلى صميم الجحيم، وما كثر عرضه في الشمال فغير مختفٍ بالشعاع"[٢٢].

وقد استخدام مصطلح "الاحتراق" من قبل الكيميائيين أيضًا للتعبير عن عملية الحرق إذْ يقول الجلدكي في كتابه (البرهان):" إن في بيان حقيقة المماثلة ما تراه من مماثلة الكبريت للنار العنصرية في الحرارة واليسر لسرعة قبوله لها واحتراقه بها بخلاف بقية الأدهان، وإن كانت قابلة للاحتراق بالنار فلا تحترق إلا بالتدريج لمقارنتها النار بما فيها من الرطوبة الزائدة على رطوبة الكبريت مع برودة ما"[٢٣]. كما استخدم مصطلح الإحراق – من الناحية الفيزيائية- ليعبّر عن فعل وأثر النار في الأجسام القابلة للحرق. وقد كانت تتم تفسيرات بعض العلماء العرب لظاهرة الإحراق اعتمادًا على نظرية الكيفيات الأربع السائدة في ذلك الوقت، وتجنب بعضهم الآخر الاعتماد عليها.

أما بخصوص عملية التنفس وما يرافقها من تغير في طبيعة الهواء وأنها تشبه عملية الاحتراق؛ فإن الطوسي والجلدكي والإيجي وغيرهم، ميزوا بين مفهومي (الحرارة الغريبة) التي تكون من خارج الجسم، و(الحرارة الغريزية) التي تكون من داخل الجسم الحي. وسنجد لاحقًا أنّ التميمي وابن سينا قد أدركا هذه الحقيقة وعبر عنها بمصطلحات عصرهما وبطريقة أفضل من اليونانيين.

٢/١-الإمام جعفر الصادق (القرن ٢هـ/٨م)

قد يكون الإمام جعفر الصادق (توفي ١٤٨هـ/ ٧٦٥م) أول من خرج على نظرية أرسطو في العناصر الأربعة، معتبرًا أنه لابد وأن الهواء وبقية العناصر، مكونة من أجزاء أخرى وليست عناصر أساسية كما يقول أرسطو. والجزيئات التي يتركب منها الهواء تحديدًا ضرورية للتنفس ولبقاء الحياة والاحتراق[٢٤]. ويرى أحد الباحثين أن جعفر الصادق قام بإجراء تجارب قادته للتوصل إلى النتيجتين الآتيتين[٢٥]:

١- وجود عنصر في الهواء، لم يسمّه جعفر، يفوق بأهميته للحياة والتنفس العناصر الأخرى المكونة للهواء.
٢- هذا العنصر قادر بمرور الوقت على التغيير على الأشياء (من ناحية فسادها وتحللها وتآكلها) والتأثير فيها.

لكن الدعوى الحماسية التي قدمها الباحث أعلاه تفتقر إلى الدليل، فهو لم يذكر لنا في أي كتاب عثر على ذلك وما هو النص الذي جعله يقدّم دعواه السابقة تلك. نحن نعلم أن الإمام كانت له ميول نحو الكيمياء، وربما اطلع على كتب ابن خالته خالد بن يزيد الذي كان له اهتمام واسع بالكيمياء القديمة والصنعة، واستقى ثقافته العلمية منها[٢٦]، لكننا لا نستطيع التأكيد على وجود أية رسالة أو عمل علمي قام بتأليفه الإمام جعفر، باستثناء ما ينسب إليه[٢٧].

٢/٢-جابر بن حيان (القرن ٣هـ/٩م)

لم يتقبل جابر بن حيان نظرية إنبادوقليس[٢٨] وأرسطو في تفسير عملية الاحتراق التي تنال الأجسام، فأدخل عليها بعض التعديل بإعلانه نظرية الزئبق والكبريت البديلة، والتي شرحها في الكثير من أعماله، مثل كتاب الإيضاح، وكتاب المائة وغيرهما[٢٩]. وهي النظرية التي تميز بها جابر عن أسلافه الهلينستيين، فالزئبق يحوي على عنصري التراب والماء، أما الكبريت فيحوي على النار والهواء، وبذلك بات الزئبق والكبريت يحويان على العناصر الأربعة[٣٠].

ومفاد نظرية الزئبق والكبريت الجابرية –كما يلخصها لنا هولميارد- أن المعادن لها مقومان (دخان أرضي) و (بخار مائي)، وتكثيف هذه الأبخرة في جوف الأرض ينتج الكبريت والزئبق، وباجتماعهما تنتج المعادن، وتنجم الاختلافات بين المعادن الأساسية بسبب الاختلاف في النسب التي يدخل بها الكبريت والزئبق في تكوينها. ففي الذهب تكون نسبة الكبريت إلى الزئبق متساوية، وفي النحاس يكون فيه العنصر الأرضي أكثر من الفضة. ونظرًا لوجود مقومات مشتركة بين المعادن، فإن تحويل بعضها إلى بعض يصبح أمرًا ممكنًا، وعندما يقوم الكيميائي بهذا التحويل فإنه يؤدي خلال وقت قصير، ما تؤديه الطبيعة في وقت طويل، ولذلك يقال إن الطبيعة تستغرق ألف سنة لصناعة الذهب. لكن يجب التنبه إلى أن جابر لم يأخذ نظرية الكبريت والزئبق هذه مأخذًا حرفيًا ظاهريًا، وإنما فهمها على أنها صورة تقريبية لما يحدث (أي تشبيه لما هو غائب بما هو معروف)، فهو يعلم تمامًا بأن الزئبق والكبريت العاديين إذا تفاعلا مع بعضهما لن ينتجا سوى الزئبق الأحمر، لذلك فإن المقصود بالكبريت والزئبق عنصرين افتراضيين تتكون منهما المعادن ويكون الكبريت والزئبق المألوفين أقرب مادتين إليهما[٣١]، وإلى الأفهام بشكل عام.

وهكذا فإن (الزئبق الافتراضي) يمثل العنصر الأصلي في المعادن، والباعث على لمعانها وقابليتها للطرق، أما (الكبريت الافتراضي) فيدل على العنصر المحترق والملون[٣٢]. وانطلاقًا من تحديده لخصائص (الكبريت الافتراضي)، فإن زيادة نسبة الكبريت في المعدن تكسبه صلابةً أكثر، ويصبح أخف وزنًا،

وهشًا، وأكثر قابليةً للصدأ. أما إذا زادت نسبة (الزئبق الافتراضي) في المعدن فإنه يصبح أثقل وزنًا، وأكثر ليونةً، وأقل قابليةً للصدأ[٣٣]. ويرى هولميارد أن نظرية جابر في الاحتراق تعد تقدمًا واضحًا على النظريات العلمية السابقة لليونانيين، وأصحاب مدرسة الإسكندرية[٣٤]. وعلق مؤرخ العلوم جورج سارتون على هذه النظرية بقوله: منذ أن شرع المسلمون يتشككون في النظريات الكيميائية القديمة بدأت مرحلة وصولهم إلى مستوى عالٍ من التفكير الكيميائي. ومع أن هذه النظرية عديمة القيمة من الناحية العلمية في كيمياء القرن العشرين، إلا أنها تمثل إضافةً علمية، وتطويرًا لنظرية العناصر الأربعة، ومحاولة أخرى لفهم طبيعة المادة، كما تدل بشكل واضح على معرفة جابر بن حيان، والكيميائيين المسلمين من بعده، لخصائص وصفات المعادن من ناحية الصلابة والليونة، ومن ناحية قابليتها للصدأ أو مقاومتها له، كما تشير إلى نضج رائد في التفكير العلمي والتجريبي. والدلالة على قوة نظرية جابر هو انتشارها والاعتماد عليها حتى القرن ١٨م[٣٥].

والواقع أن سبب اختيار جابر لهذين العنصرين بالتحديد دون غيرهما ليكونا ركيزة نظريته، هو استخراج معظم المواد المعروفة في عصره من كبريتيداتها عن طريق التحميص (الشيّ)، حيث كان غاز الكبريت ينطلق أثناء عملية التعدين. ونظرًا لوجود الزئبق ملغمًا مع أكثر العناصر المعروفة أيضًا، فهو يتحد ببعضها كيميائيًا عن طريق تكون آصرة معدنية، فيغير من خصائص المعادن نفسها، ويظهرها بمظهر آخر. وقد تحدث جابر نفسه عن ذلك في كتابه (الخواص الكبير)[٣٦].

ناقش جابر أيضًا في رسالة (كتاب الإحراق) كيفية تأثير النار الخارجية على عمليتي التكليس والتصعيد، وكيف تقوم النار هنا بدور المخلّص للمواد من خلال حرقها للشوائب، فقال: "واعلم أن هذا الحرق يا أخي في علم الصنعة لابد منه -وحق سيدي- في كل شيء حتمًا ضرورةً منها في الجوانيات والبرانيات وإنه مخصوص به لأجساد، لأن الإحراق ابتداء التكليس، والتكليس لا يكون إلا للأجساد، وقد تقدم القول في كتاب الإحراق من هذه الكتب أن الإحراق يكون حسيًا وعقليًا وإن ما كان منه حسيًا فهو إحراق الجسد، وما كان عقليًا فهو إحراق النفس غير <أن> ابتداء التكليس يا أخي ليس هو تكليسها، فاعلم ذلك. والنفوس والأرواح لا يحتمل التكليس إذ أنّ التكليس لا يكون إلا بشدة النار، والأرواح لا تحتمل شدة النار لأنها نافرة عنها هاربة منها، ولأن التكليس أيضًا إنما يراد به إفساد أوساخ الأجساد وإحراقها كلها ليطهر وينقّى خاليًا صافيًا والروح ليس فيها مثل علة الجسد وإنما احتاجت إلى ابتداء التكليس ليكون إذا فعل بها ما يجري مجرى التكليس للجسد"[٣٧]. ويقصد جابر هنا بالأجساد المعادن السبعة (الفضة والذهب والنُّحاس والحديد والأسرب والرصاص والخارصين[٣٨]) التي تثبت عند معالجتها بالنار، وتمتاز بأنها منطرقة. أما الأرواح فهي المواد غير الثابتة في النار أي التي تتطاير أو تتسامى لدى تعرضها للحرارة، مثل الزاج الأزرق والأسود والشب والنشادر والكبريت والزئبق والزرنيخ[٣٩].

٣/٢-إبراهيم النظّام (القرن ٣هـ/٩م)

فسّر النظّام عملية الاحتراق انطلاقًا من نظريته في الكمون[٤٠] التي جاء بها وأن الجسم ينجذب لمثيله. مثلاً العود الذي يحترق فإن النار الكامنة فيه تقوى وتشتد بالنار التي تأتيه من الخارج. وبذلك فإن التوازن الكائن بين مكوناته من ماء وخشب وطعم ولون يبدأ بالانهيار. وهنا يحدث ما يأتي[٤١]:

- البرودة المحسوسة الموجودة في العود تنجذب إلى الأرض أو الهواء حيث مستقرها الدائم.
- الحرارة الكامنة التي لم نكن نشعر بها تثيرها النار الخارجية وتحررها. لكن هذا لا يعني أن البرودة هي التي منعتها طيلة ذلك الوقت، إنما منعها اتحاد كل العناصر الأخرى من الظهور.

أي أن ما يساعد على احتراق المواد هو وجود نار الكامنة بداخلها التي تتحد مع النار الخارجية وبذلك تتم عملية الاحتراق، وهو لا يشير هنا إلى أي دور للهواء كوسيط في هذه العملية. والتفسير نفسه ينطبق على الأشعة الحرارية المحرقة للشمس، فهي تعمل على إخراج النيران الكامنة في الأجسام القابلة للاحتراق، طبعًا ولا تفعل في الأجسام غير القابلة للاحتراق، نظرًا لوجود موانع تمنعها من القيام بعملها، لكن لدى زوال الموانع فإنها ستحترق.

قال الجاحظ نقلاً عن النظّام:" وكان أبو إسحاق يزعُمُ أن احتراق الثوب والحطب والقطن إنما هو خروجُ نيرانه منه وهذا هو تأويل الاحتراق، وليس أن نارًا جاءت من مكانٍ فعملت في الحطب ولكن النار الكامنة في الحطب لم تكن تقوى على نفي ضدِّها عنها فلما اتصلت بنار أخرى واستمدَّت منها قوِيَتا جميعًا على نفي ذلك المانع فلما زال المانع ظهرت فعند ظهورها تجزَّأ الحطبُ وتجففَ وتهافتَ لمكان عملها فيه فإحراقك للشيء إنما هو إخراجك نيرانه منه. وكان يزعم أن حرارة الشمس إنما تحرق في هذا العالم بإخراج نيرانها منه وهي لا تُحرق ما عقد العَرضُ وكَثَّفَ تلك النداوة لأن التي عقدت تلك الأجزاء من الحر أجناس

لا تحترق كاللون والطعم والرائحة والصوت والاحتراقُ إنما هو ظهورُ النار عند زوال مانِعها فقط"[٤٢].

٤/٢-أبو بكر الرازي (القرن ٤هـ/ ١٠م)

أدرك أبو بكر الرازي ضرورة وجود الهواء الجوي كوسيط فعال في عملية الاحتراق، وقد استدل على ذلك من ظاهرة ضرب الحجر بالحديد وتطاير الشرر بينهما الذي يولّد النار، طبعًا دون أن يحترق كل من الحجر أو الحديد. قال أبو بكر الرازي إن: " حدوث النار في الهواء من ضرب الحجر على الحديد إنما يكون لأن الحجر والحديد يصيّران الهواء أكثر تخلخلاً مما كان عليه حتى يصبح نارًا"[٤٣]. وما حدث هو تفكك بنية الهواء الكائن بين الحجر والحديد نفسهما. وبذلك فإنه يرد ضمنيًا على نظرية الكمون التي قال بها النظّام.

حيث قال: "إن ما صار من أجزاء الهيولى متجمعًا جدًا كان منه جوهر الأرض، وما صار أكثر تفرقًا من <جوهر الأرض> كان منه جوهر الماء، ثم إن ما صار أكثر تفرقًا من <جوهر الماء> كان منه جوهر الهواء، وما صار أكثر تفرقًا من جوهر الهواء كان منه جوهر النار. وقال: إن ما صار من الماء أكثر تجمعًا مما هو عليه تحوّل أرضًا، وما صار منه أكثر تفرقًا مما عليه جوهره تحول هواء، وكذلك ما صار من جوهر الهواء أكثر تجمعًا مما هو عليه تحول ماء، ما صار منه أكثر تفرقًا مما هو عليه تحوّل نارًا. ومن أجل ذلك تظهر النار عند ضرب الحجر بالحديد لأن الهواء الذي يكون بينهما يتفرق ويتمزق. ويتوهم الجاهل أن النار تظهر من الحجر والحديد نفسهما، ولو كان كذلك لحوّلت النار الحجر والحديد حارّين مضيئين مثلها لأن من خاصية النار أن تحوّل إلى حالها كل ما يتصل بها"[٤٤].

٥/٢-الهمداني (القرن ٤هـ/ ١٠م)

قد يكون ابن الحائك الهمداني أول عالم عربي يقدم لنا دليل تجريبي علمي على وجود علاقة بين الهواء الجوي وعملية الاحتراق. لكنه قبل ذلك قام بإجراء تصنيف للمواد حسب قابليتها للاحتراق، وهو تصنيف مختصر عن تصنيف أرسطو، فقد قسم المواد إلى قابلة للاحتراق (مثل القطن والحطب والنفط)، وغير قابلة للاحتراق (مثل الحجر) ويفسر ذلك تفسيرًا جزيئيًا منطقيًا، فالروابط والذرات بين هذين النوعين مختلفة.

قال الهمداني: "ثم تفعل الطبيعة كل واحد منها على قدر الانفراد فعلاً من الأفعال في كلية الأركان، وفي أجزائها، ويقبلُ كل ركن وكل جزء من أجزائه قوى طبائعها قبولاً مختلفًا، على قدر ما في طبيعة كل ركن وكل جزء من تلك الطبيعة من القبول، كجميع ما يقبل النار، فإنه متفاضل في القبول على قدر ما فيه من أجزاء النار كالحُرَّاق[٤٥] يقبل القادحة التي لا يقبلها غيره، والكرة التي تقبل داخل الزند، ثم الكُرسُفة[٤٦] التي تقبل شُعل السّراج عن بعد من محاذاته، والكبريت والنفط، ثم بعد ذلك الحلفا[٤٧] واليَراع[٤٨] والسَّخثُ[٤٩] من الحطب، ثم الجَزْلُ[٥٠] حتى يبلغ الدَّوْحَ[٥١]، وكذلك أشياء أخرى لا تقبل النار قبول الحطب، إذْ ليس فيها من أجزاء ما فيه، ولكن قبول صدفة، كالحجرة التي تصير نورةً[٥٢] والحجر الذي يصيرُ حديدًا، والحديد الذي يصير أُسْرُبًا[٥٣] ومَرتكًا[٥٤] وفضة، والطين الذي يصير فخّارًا، وآخر يصير حجرًا مثل الآجرّ المحترق. ويقبل الماء النار عن حاجز وتقبل النار الهواء وتقوى به لاتصالها ولا تبقى في موضع لا هواء فيه"[٥٥].

وقد أكّد على ملاحظته الأخيرة بقوله: " وتقبل النار الهواء وتقوى به لاتصالها ولا تبقى في موضع لا هواء فيه " في كتاب (الإكليل[٥٦]) في باب القبوريات، وذلك عندما انتقد خبر رجلين دخلا مغارة وأمضيا فيها وقتًا طويلاً، وهما يحملان شمعة يستدلان بها على الطريق المتعرجة العميقة وقال:" هذا الحديث فيه زيادة لا تمكن، لأنهم ذكروا المسلك في المغارة ثم دخولهم منها إلى هوّة وأبيات، فقل به النسيم، ويعجز بها التنفس، ويموت فيها السراج، ومن طباع النفس وطباع السراج أن يحيا ما اتصل بالنسيم، فإذا انقطع في مثل هذه المغارات العميقة، والخروق المستطيلة، لا يثبت فيها روح ولا سراج"[٥٧].

ثم يطرح أمثلة واقعية أخرى حدثت مع أشخص لم يعرفوا كيف يفسرون انطفاء السراج، فنسبوا السبب إلى الجن:" ومن ذلك خرق قلعة ضهر وهو مستطيل جدًا. ويقول الناس: فيه مال عظيم، وقد دخله جماعة بالمصابيح والشمع أحدهم أبو محجن بن طريق غلام آل يعفر وكان أميرًا يطلب ما فيه من ضنين، فلما تغلغلوا حصرت السرج في موضع انقطاع النسيم، ثم طفئت، وأخذ حاملها بالكظم فنكصوا. وهم يرون أن الجنّ أطفأت السرج وليس كذلك. ولعل هذا الخرق لا شيء فيه، وإذا بلغت السُّرُج موضع انقطاع النسيم تنشّطت السرج لأن النار لاحقة للهواء، إذْ هو مجانس لعنصرها، والدليل على ذلك: إنك لو أخذت سراجًا وملأته زيتًا صافيًا أو سليطًا[٥٨]، وصيّرت فيه ذبالة[٥٩] جديدة، وألقيت على ظهر مستوي السطح، ثم قلبت على السراج مكبًا لا خلل فيه، وطينت على ما يتخلل من النسيم من بين خروقها ووجه السطح، لمات السراج مكبًا إذا انقطع عنه النسيم"[٦٠].

أراد الهمداني أن يقدم دليلاً تجريبيًا على أن الهواء يقوم بدور مهم في عملية الاحتراق، فافترض إشعال سراج بفتيل جديد، ثم وضع وعاء مقلوب عليه، بحيث يكون فم الوعاء للأسفل

ومغلق بإحكام من أسفله فلا يمرر أي نسمة هواء للداخل، عندها لن يستمر السراج بالاشتعال طويلاً، وإنما سينطفئ. هذه التجربة سبق بها أعضاء الجمعية الملكية البريطانية (الفيزيائيان روبرت بويل وروبرت هوك والطبيب ريتشارد لوير (R. Lower ١٦٣١-١٦٩١م) بأكثر من ٧٠٠ سنة، عندما أجروا تجاربهم على شمعة وفأر، حيث انطفأت الشمعة ونفق الفأر[٦١].

ثم يقدم الهمداني دليل عملي إضافي لضرورة وجود الهواء من أجل عملية الاحتراق: "ومن ذلك أن التنور تسجر[٦٢] للهريس والفرني والمشوي من الحملان والجدار ويكثر جمرها، فإذا خُتِمَ عليها طفئت بالنار، ورجع الجمر فحمًا، ولم يبق النضج إلا بالتهر[٦٣]، فإذا فتحت لم تجد نارًا، ولم تجد إلا حرارة التهر الواصلة من الجدار وأسفل التنور"[٦٤].

وبذلك فإن الهمداني برهن بشكل قاطع على وجود علاقة للهواء الجوي باحتراق الأجسام، قبل ظهور أي نظرية مماثلة في أوربا بنحو ستة قرون.

٢/٦-الفارابي (القرن ٤هـ/ ١٠م)

خاصية قابلية الاحتراق في الأجسام ناقشها الفارابي، وأكد على ضرورة توفر هذه الخاصية حتى تتم عملية الاحتراق، وإلا فإنها لن تحدث، وقد قال في ذلك: " قد يظن بالأفعال والآثار الطبيعية أنها ضرورية كالإحراق في النار والترطيب في الماء والتبريد في الثلج، وليس الأمر كذلك. لكنها ممكنة على الأكثر؛ لأجل أن الفعل إنما يحصل باجتماع معنيين: أحدهما تهيؤ الفاعل للتأثير، والآخر تهيؤ المنفعل للقبول، فحيثما لم يجتمع هذا المعنيان لم يحصل فعل ولا أثرٌ البتة. كما أن النار، وإن كانت محرقة، فإنها متى ما لم تجد قابلاً متهيئًا للاحتراق لم يحصل الاحتراق، وكذلك الأمر في سائر ما أشبههما. وكلما كان التهيؤ في الفاعل والقابل جميعًا أتمّ كان الفعل أكمل. ولولا ما يعرض من التمنع في المنفعل لكانت الأفعال والآثار الطبيعية ضرورية"[٦٥].

٢/٧-التميمي المقدسي (القرن ٤هـ/ ١٠م)

لاحظ محمد التميمي تشابهًا كبيرًا بين عملية احتراق الأجسام وعملية التنفس، وقد حاول أن يشرح آلية التنفس التي تحدث عند الإنسان والأساسية لحياته، ففي الشهيق تدخل الرئة هواء بارد وفي الزفير تطرح هواء ساخن ناجم عن احتراق من نوعٍ ما أشبه بالنار التي تستمد وجودها من الهواء الجوي وتطرح أبخرة وأدخنة، وإذا بلغت نسبة هذه الأبخرة والأدخنة في الجسم أكثر من قدرة الرئة على الطرح حدث الاختناق والموت. مثلها في ذلك مثل الحطب المتراكم على النار الضعيفة غير المطفأة، فهي تعس عسيسًا ويصدر لها دخان أكثر من شعلة النار.

قال التميمي: إنّ "حياة الإنسان وبقاؤه في هذا العالم بالتنفس الكائن عند حركة الرئة الدائمة الترويح على القلب بإخراجها عنه هواءٌ حارًّا وإدخالها إليه بالتنفس هواء باردًا تحيا به الحرارة الغريزية كحياة النار بالهواء، فإذا استحال برد الهواء الذي يستنشق بما يتصعد إليه من تلك الأبخرة فصار دخانيًا فاسدًا أشد حرًا مما تخرجه الرئة عن القلب بالتنفس ودام جذبها إياه ساعة أطفأ الحرارة الغريزية التي مسكنها القلب وأماتها، كالذي يفعل حرّ الشمس بالنار الموقدة من إضعاف قوتها وإماتتها عند ركود الرياح، وكالذي يفعله الحطب المتراكم على النار الضعيفة من إطفائها"[٦٦].

٢/٨-ابن سينا (القرن ٥هـ/ ١١م)

انطلاقًا من خبرته في الطب والطبيعيات، حاول ابن سينا أن يفسّر عملية التنفس التي تحدث عند الإنسان معتبرًا أن الهواء الجوي يقوم بدورٍ رئيس فيها. وقد كان شرح ابن سينا للعملية مفصّلاً أكثر من التميمي، من الناحية الفيزيولوجية، إلا أن التميمي تشبيهاته تقرّب الفهم أكثر.

عملية التنفس عند ابن سينا تتم بحركتين ووقفتين تشبه في ذلك النبض، إلا أنها تختلف عن النبض بكونها حركة إرادية في حين أن النبض ليس كذلك. وقد حدد الهدف من عملية التنفس هو تزويد الرئة بالهواء البارد لتزوّد به القلب الذي يجري عملية مبادلة معه فيطرح البخار الدخاني إلى الرئة ليخرج مع الزفير. قال ابن سينا:" يتم <التنفّس> بحركتين ووقفتين بينهما على مثال ما عليه الأمر في النبض، إلا أن حركة التنفس إرادية يمكن أن تغير بالإرادة عن مجراه الطبيعي، والنبض الطبيعي صرف، والغرض في التنفس أن يملأ الرئة نسيمًا باردًا حتى يعج النبضات القلبية، فلا يزال القلب يأخذ منه الهواء البارد، ويرد إليه البخار الدخاني إلى أن يعرض لذلك المستنشق أمران: أحدهما استحالته عن برده ما يجاوره، وما يخالطه، واستحالته عن صفاته بمغالطة البخار الدخاني له، فحينئذٍ يزول عنه المعنى الذي يصلح لاستمداد النبض منه، فيحتاج إلى إخراجه والاستدلال منه"[٦٧].

ويبدو أن ابن سينا قد لاحظ بأن الهواء الداخل للرئتين يختلف عن الهواء الخارج من الرئتين، وذلك لدى دراسته مفهوم الشهيق (الترويح) والزفير (التنقية)، حيث إن كل منهما يسهمان بتعديل المزاج لدى ارتفاع الحرارة إضافة للتخلص من الهواء الفاسد[٦٨].

٢/٩-ابن حزم الأندلسي (القرن ٥هـ/ ١١م)

لا يشترط ابن حزم الأندلسي أن تكون النار حاملةً للحرارة بشكل دائم، إذْ يمكن أن توجد نار دون أن تكون لها القدرة على الإحراق، كما أنه لا يشترط أن كل ما هو أحمر أن له قدرة على الإحراق أيضًا، ثم يحدد صفة الجسم الذي يمكنه القيام بإحراق غيره من الأجسام بأنه كل عنصر مادي بسيط غير مركب جاف يمكنه الصعود للأعلى ومضيء وطارد للرطوبات يتحول إلى غاز كالهواء الجوي في الوقت نفسه. وهذه الشروط يفرضها التفكير المنطقي وما نراه في عملية الاحتراق.

قال ابن حزم الأندلسي:" ونجد النار مضيئة حمراء حارة، فمن قال إن الضياء علة الإحراق أريناه أشياء مضيئة كالمرايا وغيرها وهي غير محرقة، ومن قال الحمرة علة الإحراق أريناه الدم غير محرق، ومن قال الحرارة علة الإحراق أريناه أشياء تحر الجسم ولا تحرق. فوجب ضرورة ألا يكون شيء مما ذكرناه علة -وهي صفات مطردة كما ترى-لكن كل عنصر بسيط حار يابس صعّاد مضيء مصعد للرطوبات قد يسفل بالقهر ويستحيل هواء فهو محرق بلا شك، لأن طبيعة العقل تقتضي ذلك. ومن سلك الطريق التي نهينا عنها لم يسلم من حيرة أو تناقض أو تحكم بلا دليل"[٦٩]. ونتلمس من كلامه اعتماده على نظرية أرسطو في العناصر، لكنه حاول أن يستدل على وجود حالات قد تخالف ذلك المنطق العام في التفكير.

٢/١٠-ابن مثويه (القرن ٥هـ/ ١١م)

يحُسب ابن مثويه على تيار المتكلمين الذين أوجدوا مصطلحاتهم الخاصة مقابل المصطلحات التي وضعها الفلاسفة والعلماء في محاولةٍ منهم لاستخدام الفلسفة والعلم في الدفاع عن الدين. فمصطلح (الاعتماد) الذي يرد كثيرًا في كتبهم يقابله مصطلح (الميل) عند الفلاسفة، وهو يعني لدى كل منهما: القوة الخفية التي لا يعرف سببها، أو السعي والانحدار[٧٠]. وقد استخدم هذا المعنى في محاولته لتفسير ظاهرة الاحتراق، مضيفًا بذلك عنصرًا جديدًا هو ارتباط الحرارة بجهة الاحتراق؛ فالاحتراق يكون أشد كلما كانت الحرارة تتجه نحو مكان محدد، كما أن قرب وبعد النار يؤثر على شدة الاحتراق.

قال ابن مثويه: "فأما إحراق النار فهو لأجل ما تختص به من الاعتماد دون الحرارة، لأن الحرارة لا جهة لها، فكيف تولد في غير محلها. والإحراق يحصل في غير محل الحرارة؟ وبعد؛ فإن الإحراق يحصل بحسب الجهات التي يحصل فيها اعتماد النار، والحرارة حالها مع الجهات سواء، فيجب أن ينصرف التوليد إليه دونها، وبين هذا أن قوة الحريق تقف على ما يحصل فيها من الاعتمادات، فإذا قرب النار أحدنا من موضع واعتمد عليها، كان الإحراق أقوى. وبعد؛ فالإحراق تفريق مخصوص وهو مقدور لنا. فلو ولدته الحرارة لقدرنا عليها لأن للقادر على المسبب قادر على سببه"[٧١].

وجود الهواء الجوي كوسيط في عملية الاحتراق الذي أكد عليه أبو بكر الرازي والهمداني ليس شرطًا عند ابن مثويه، فالعنصر الرئيس في العملية هو الاعتماد، فهو الذي يسبب تفرّق أجزاء المادة بغض النظر عن وجود الهواء أو عدمه. ويقدم دليله على صحة كلامه في الثوب الذي يوضع على سطح صقيل مثل مرآةٍ فإنه لا يحترق، مع أن للمرآة خاصية عكس الأشعة الحارة للشمس والإحراق ليس بسبب عدم تخلله الهواء، وإنما لأن صقالة السطح هي التي تمنع النار من القيام بفعلها. ثم يحاول أن يفسّر التجربة التي تكلم عنها الهمداني بشكل معمم أكثر على ظاهرات أخرى مثل عدم اشتعال النار في بئر أو موت الإنسان إن قُطع عنه الهواء الجوي؛ فإن السبب يعود برأيه إلى كثافة الهواء العالية التي تشكل ثقلاً ضاغطًا يمنع المصباح والنار من الاستمرار بالاشتعال وبقاء الحياة. وهذه مخالفة صريحة للهمداني ودور الهواء الجوي كعنصر مهم في عملية الاحتراق، ولا نجد في هذه المخالفة مبررًا سوى التمسك بفكرة الاعتماد والدفاع عنها وإن كان بتفسيرات خاطئة.

قال ابن مثويه: "ولا يقف إحراق النار لما تحرقه على هواء يتخلل بين النار وبين ما يحترق بها، ولا أن تقف حركتها على الهواء، على ما قال الأوائل. فإن الاعتماد هو الذي يولّد التفريق، <سواء> كان هناك هواء أو لم يكن. فأما الثوب إذا وضع على الصقيل كالمرآة وغيرها فلا يحترق لا لأن الهواء لا يتخلله، فإنه لو وضع على خشب لاحترق ولا هواء يتخلله، وإنما الصقالة تمنع من تخلل النار فيه، وأما امتناع اشتعال النار في البئر وامتناع اشتعال المصباح إذا وضعت عليه ما يمنع الهواء، وامتناع بقاء الحياة في المرء إذا منع من النفس فإن كثافة هواء البئر تطفئ السراج كما يطفئ إذا دس تحت الرمل وإذا وضع عليه جب أو غيره لم يجد منفذًا فيتراجع"[٧٢].

٢/١١-مؤيد الدين الطغرائي (القرن ٦هـ/١٢م)

قسم الطغرائي الآثار الناجمة عن النار إلى ستة أقسام، الثلاثة الأولى منها تشترك فيها حرارة الشمس بالتأثير وهي تشكيل المعادن والنبات والحيوان. أما الحرارة التي قامت بدور في تشكيل الإنسان وتحضير غذاء النبات المساعد على نموّه والحرارة التي تحوّل الغذاء إلى مواد يستفيد منها جسم الكائن الحيواني فإن حرارة النار تنفرد بذلك. ولا يمكن لأي حرارة من

الحرارات السابقة أن تحلّ محل الأخرى للمساعدة في القيام بالوظائف المناسبة.

والطغرائي هنا يقدم لنا وجهة نظر علمية متقدمة ترتكز على خلفيته الكيميائية وليس الفلسفية، فهو يعلم أن معالجة أية مادة تتطلب مقادير محددة من الحرارة لإتمام العمل عليها.

قال الطغرائي: "اعلم أن النار عبارة عن الحرارة التي يدبّر الله بها عالم التركيب وولّد بها المواليد، فكل حرارة لم تكن مشابهة للحرارة التي بها تدبّر المركبات لم يحصل بها صلاح أبدًا، و<تقسم> تلك الحرارة ستة أقسام: القسم الأول: الحرارة التي دبّر الله بها المركب المعدني حتى صار معدنيًا وهي حرارة طبخ المعدن. الثاني: الحرارة التي دبّر الله بها تركيب النبات حتى صار نباتًا وهي حرارة طبخ النبات. الثالث: الحرارة التي دبّر الله بها المركب الحيواني حتى صار حيوانًا. الرابع: الحرارة التي دبّر الله بها المركب الإنساني حتى صار إنسانًا وهي الحرارة الطابخة لتدبير تركيب الإنسان حتى صار إنسانًا. فأما الخامس: الحرارة الطابخة لغذاء المركب النباتي حتى حصل النمو والزيادة في الطول والعرض والعمق، وبذلك يتصوّر سبب صيرورة الحبة من البرّ بعد صغرها في مقدار من العظم، وما ذاك إلا بسبب بعد صغرها في مقدار من العظم وما ذاك إلا بسبب التغذية التي تلتصق بها وتستحيل إلى نوعها وتسمى بالحرارة الطابخة للغذاء النباتي. السادس: الحرارة الطابخة للأغذية في أجوفة الحيوان إلى <أن> تصير تلك الأغذية مشابهة لجسد ذلك الحيوان وجزء منه. فهذه أقسام النار التي فيها أسرار الحكمة وبها يكون الصلاح في العالم ويشترك ويعم الأقسام الثلاثة الأُوَل حرارة الشمس، فإنّ لها دخلاً في طبخ المعدن، وكذا في طبخ النبات وطبخ غذائه. وكل واحدة من هذه الأقسام صنف يخالف الأخرى بحيث لو دُبّر بحرارة أحدها الآخر لما تم تركيبه لعدم <توفر> القسط الذي يحتاجه من الحرارة الملائمة"[٧٣].

٢/١٢-ابن باجة (القرن ٦هـ/١٢م)

استعرض ابن باجة آراء أرسطو في منشأ الحرارة في الأجسام الحية التي تتنفس، حيث إن الحرارة الموجودة هي التي تسهم في بناء الأجسام من خلال تحويل الغذاء، ولا يمكن للبرودة فعل ذلك. ولكنه لا يعزي أي دور للهواء الجوي في عملية التنفس وإصدار الحرارة. لذلك فإننا نجد بونًا شاسعًا بين تفسير أرسطو وابن باجة لعملية التنفس وبين تفسير كل من التميمي وابن سينا؛ إذْ نجد أن الأخيران قد قدما شرحًا علميًا أكثر قربًا للحقيقة والواقع من التفسير الأرسطي وأتباعه القائم على مبدأ القوة والفعل[٧٤].

٢/١٣-ابن ملكا البغدادي (القرن ٦هـ/ ١٢م)

حاول أبو البركات أن يميز بين مفهومي الطبخ والإحراق، ففي عملية الطبخ يتسخن الجسم بشكل غير مباشر بوساطة وجود الماء الذي يتسخّن ثم يمارس تأثيره على المادة المطبوخة بأن تتفكك مكوناتها وتبقى في الماء. أما الإحراق أو الشي فهو تعرّض الجسم مباشرة للنار وتفرّق مكوناته في الهواء. ومع دقة الملاحظة في هذا التمييز إلا أنه لم يقدم لنا رأيه في سبب عملية الإحراق نفسها أو العوامل الداخلة فيها.

قال ابن ملكا: "الطبخ هو تسلّط الحرارة على أجزاء المطبوخ في الماء دون الهواء، لأن الماء يمنع إحراق النار للمطبوخ فإنه لا يتكيّف من النار بكيفية يبلغ حدّها الإحراق بل إلى حد يفعل في المطبوخ بإسخانه تمزيقًا وتفريقًا لتحريك الحرارة أجزاءه حركات مختلفة بحسب اختلاف طبائعها. فيتفرّق بذلك اجتماعها ويبعد السابق من اللاحق واللازم عن المفارق، ثم لا تبدد فيه مع تفرّقها كتبددها في الهواء بل تبقى موجودة مغمورة بالماء مع تفرّقها. فبهذا يخالف الطبخ الإحراق والشيَّ فإن <الجسم> المحترق تتبدد أجزاؤه وتفترق افتراقًا لا تجتمع، والمشوي تنحلّ منه رطوبات وأبخرة تفارقه متبددة عنه، والمطبوخ يحفظ الماء الذي يطبخ فيه ما تفرّق من أجزائه مع وصوله برطوبته الطبيعية وحرارته المكتسبة إلى عمق المطبوخ ودخوله في مسامه وبين أجزائه فيفرقها"[٧٥].

٢/١٤-فخر الدين الرازي (القرن ٧هـ/ ١٣م)

أعاد الإمام فخر الدين معالجة الأفكار التي سبق وعالجها ابن سينا، والمتعلقة بالحرارة الداخلية في الكائنات الحية، لكنه لم يعتبر أي دور للرئة في تلقي الهواء البارد وضخه للقلب، ليحل محل الهواء الساخن، وإنما عالج الموضوع على أن القلب مصدر الحرارة الداخلية ويحتاج هذا المصدر لتعديل حرارته بوساطة انبساطه في تلقي الهواء البارد، وانقباضه في طرد الهواء الحار، ومن خلال هذا تتم عملية التنفس في الكائن الحي[٧٦].

٢/١٥-عضد الدين الإيجي (القرن ٨ هـ/ ١٤م)

تنبّه عضد الدين الإيجي -مثل الطوسي والجلدكي- إلى أن طبيعة الحرارة في النار تختلف عن طبيعة الحرارة في الأجسام الحية أو حتى تلك التي تصدر عن الشمس، واستدل على ذلك من اختلاف أثر كل منها على الجسم نفسه[٧٧]. وأكد على وجود اختلاف بين طبيعة الحرارة (الغريبة) عن العضوية (الغريزية) بقوله: "والحرارة النارية أنواع متخالفة بالماهية لاختلاف آثارها اللازمة لها الدالة على اختلاف ملزوماتها في الحقيقة فيفعل حر الشمس في عين الأعشى من الإضرار بها ما لا يفعله حرّ النار،

فلا بد أن يتخالفا بالماهية والحرارة الغريبة الملائمة للحياة أشد الأشياء مقاومة ومدافعة للحرارة النارية التي لا تلائم الحياة"[٧٨]. أي لاحظ الإيجي أن الحرارة الخارجية قد تتدافع مع الحرارة الموجودة في الجسم وتقاومها، حتى أن هذه الحرارة العضوية تقوم بدورٍ مهم في دفع السموم الحارة التي قد تدخل الجسم، كما أن الحرارة العضوية تسهم بدفع البرد الخارجي الذي قد يعرض للجسم وبذلك يحفظ الجسم ويصان من كل أذى. وهذا يثبت أن طبيعة وماهية الحرارة العضوية تختلف عن طبيعة النارية.

قال الإيجي: "فإن الحرارة الغريبة إذا حاولت إبطال اعتدال المزاج الحيواني قاومتها الحرارة الغريزية أشد مقاومة، حتى أن السموم الحارة لا يدفعها إلا الحرارة الغريزية فإنها آلة للطبيعة يدفع بها ضرر الحار الوارد بتحريك الروح إلى دفعه وتدفع الحرارة أيضًا ضرر البارد الوارد بالمضادة بخلاف البرودة فإنها لا تنازع البارد بل تقاوم الحار بالمضادة فقط فالحرارة الغريزية تحمي الرطوبات الغريزية عن أن تستولي عليها الحرارة الغريبة كالحرارة النارية، فهي مخالفة لها في الماهية"[٧٩]. ويبدي الإيجي تحفظه على ما طرحه الإمام الرازي الذي جعل من طبيعة الحرارة العضوية والنارية واحدة، حيث إن الأولى تكون داخلة في تركيب العضو، أما الأخرى فخارجة عنه، ويمكن لهما أن يجتمعا في عضو واحد دون أي تدافع أو تنافر.

"ومنهم من جعلهما -أي الغريزية والنارية- من جنس أي نوع واحد فإن الإمام الرازي قال: والذي عندي أن النار إذا خالطت سائر العناصر وأفادتها طبخًا ونضجًا واعتدالاً وقوامًا، ولم تبلغ في الكثرة إلى حيث تبطل قوامها وتحرقها، ولم تكن في القلة بحيث تعجز عن الطبخ الموجب للاعتدال فحرارتها هي الحرارة الغريزية أفادت المركب من الطبخ والنضج ما يعسر معه على الحرارة الغريبة تفريق أجزائه؛ فالتفاوت بين الغريزية والغريبة النارية ليس في الماهية بل في كون الغريزية داخلة في ذلك المركب دون تلك الغريبة حتى لو توهمنا الغريبة داخلة فيه، والغريزية خارجة عنه لكان كل واحدة منهما تفعل فعل الأخرى. وإلى ما نقلناه أشار المصنف بقوله: فالغريزية هي الحرارة النارية التي خرجت عن صرافتها واستفادت بالمزاج مزاجًا معتدلاً حصل به التئام تام بين أجزاء المركب فإذا أرادت الحرارة الغريبة أو البرودة تفريقها أي تفريق أجزائها وتغييرها عن اعتدالها عسر عليها ذلك التفريق والتغيير. والفرق بين الجارين الغريزي والغريب أن أحدهما جزء المركب والآخر خارج عنه مع كونهما متوافقين في الماهية"[٨٠].

مناقشة الإيجي لطبيعة الحرارة متقدمة على من سبقه، كما لاحظنا، فقد بدأ من المصادر وانتقل لتمييزه بين أنواع الحرارات التي نجدها من حولنا سواء في أجسادنا أو في البيئة المحيطة بنا، ليقرر بوجود اختلاف جوهري بين حرارة الجسم والحرارة الصادرة عن النار. نشكر للإيجي جهوده في شرح هذا التمييز، إذْ أن نظرية الاحتراق لم تكن واضحة المعالم بعد في عصره، فقد احتاجت ٥٠٠ سنة من جهود جيش من أجيال العلماء الأوربيين حتى تكاملت لديهم عناصر النظرية الذرية وفهموا بنية الهواء الجوي وآليات حدوث التفاعلات الكيميائية، حتى تمكنوا من إدراك الفرق بين طبيعة الحرارة العضوية الناجمة عن التنفس وحرارة النار الناجمة عن الاحتراق.

٢/١٦-التفتازاني (القرن ٨هـ/١٤م)

لم يأت سعد الدين التفتازاني بجديد، وإنما كرر أقوال من سبقه، إذْ أننا نراه يكثر من (قِيلَ) و (حُكِيَ) أكثر مما يبدي رأيه الخاص في الموضوع. فنراه يقول في مناقشته لطبيعة الحرارة العضوية أو الغريزية في الكائن الحي: " وأما الحرارة الغريزية التي بها قوام الحياة، فقيل نارية، وقيل: سماوية، وقيل: مخالفة لهما بالحقيقة لاختلاف الآثار، حتى إنها تدفع الحرارة الغريزية"[٨١]. ثم يورد التفتازاني رأي الإمام فخر الدين الرازي وأرسطو في طبيعة الحرارة الموجودة في الكائن الحي بأنها من ماهية واحدة، وآراء الآخرين الذي خالفوهم وجعلوا ماهية الحرارة العضوية تختلف عن ماهية الحرارة النارية، وفي النهاية يرجح الرأي القول بأنّ الحرارة العضوية تتولد في الداخل بتأثير الحرارة الخارجية السماوية البعيدة أو النارية القريبة، وهو رأي مخالف لما طرحه الإيجي[٨٢].

ثالثًا: الأوربيون

لم يكن الأوربيون في العصور الوسطى بأحسن حالاً من نظرائهم العرب والمسلمين، فقد حاولوا في بداية بحثهم في ظاهرة الاحتراق (بغض النظر عن المصدر الحراري) أن يرتكزوا أيضًا على نظرية العناصر الأربعة الأرسطية لتفسير هذه الظاهرة. وكانت وظيفة الهواء الجوي بالنسبة لخيميائيي العصور الوسطى هي الحفاظ على الاحتراق بوصفها عملية ميكانيكية غامضة، أو بوصفها طريقة تنتقل بها الحرارة والنار. لكن المشكلة التي كانت تظهر لدى الحدادين المشتغلين بالقصدير والرصاص أن المواد التي يتعاملون معها يزداد وزنها بالتسخين[٨٣]، وهذا يعني ثمة تناقض مع نظرية أرسطو؛ إذْ كيف لعنصر النار أن يغادر المادة عند الاحتراق وفي الوقت نفسه يزداد وزن المادة؟!

بدأت محاولات تفسير عملية الاحتراق عند الأوربيين منذ القرن السادس عشر، ومع ظهور نظرية الفلوجيستون في القرنين ١٧م و١٨م تم الاعتماد عليها في التفسير، وبقيت حتى ظهور نظرية لافوازييه بتعريف الاحتراق على أنه اتحاد بين أكسجين الهواء الجوي مع المادة القابلة للاحتراق.

١/٣-كاردانوس (القرن ١٦م)

سعيًا منه لإنقاذ نظرية أرسطو قام كاردانوس (جيرولامو كاردانو) (توفي 1576) Cardanus بافتراض أن عنصر النار يعمل ضد الجاذبية بشكلٍ أو بآخر، كونه يرتفع للأعلى، وأنه يجعل المعدن يطفو عندما يكون جزءًا منه[٨٤].

٢/٣-باراسيلسوس (القرن ١٦م)

أصداء النظرية الأرسطية والجابرية في تفسير الاحتراق نجدها عند باراسيلسوس (فيليب فون هوهنهايم) (توفي ١٥٤١م) Paracelsus، فقد كان يعتقد بأن كل ما يشتعل يحوي على الكبريت، لذلك كان يعتبر أن هذه المادة عنصر ومكون من مكونات الأشياء المركبة[٨٥].

٣/٣-جان فان هلمونت (القرن ١٧م)

مال معظم العاملون الأوائل في الكيمياء إلى تركيز انتباههم على السوائل والمواد الصلبة وتجاهلوا مختلف أنواع الغازات الناشئة من التفاعلات الكيميائية المختلفة. ويعود السبب في ذلك إلى أنّ الغازات بدت شيء غير ملموس إذا ما قورنت بالسوائل والمواد الصلبة، لقد كانت أصعب من أن يتم عزلها ودراستها. ملاحظة مثل هذه الغازات غالبًا ما يقدم اختلافات جلية في الخواص، مثل اللون والرائحة، والتي كانت تفسّر بسهولة على أنها أحد أشكال الهواء المختلفة أو ربما هي مزيج من الهواء والمواد الصلبة والسوائل الشائبة. في الحقيقة، لم توجد تسمية عامة "للغاز" إلى أن حان النصف الأول من القرن السابع عشر عندما قام البلجيكي جان فان هلمونت بنشر أعماله في عام ١٦٤٤م. مع أن هذا الكيميائي أظهر تبعيته لمن سبقه بخصوص هذه الغازات بوصفها أنواع من الهواء، إلا أنه قام بتحضير هذه الغازات بمختلف السبل، وبملاحظة خواصها الفيزيائية والكيميائية والكمية، وبتخصيصها بأسماء مختلفة، ومن بعده شُرع بعملية تصنيف وتعريف للغازات ستبلغ ذروتها نهاية القرن التالي، وفي تمييزها بوصفها وحدات كيميائية. وهكذا بيَّن فان هلمونت بأن ثنائي أوكسيد الكربون ناتج عام لاحتراق المواد الأولية العضوية المختلفة، وتخمر الخمر والبيرة وتفاعل الحموض على أصداف سرطان البحر التي تحوي على الكربونات. وقد سماه في البداية (بغاز سيلفستر Sylvester Gas) أو بالغاز (البري) مشيرًا لاعتقاده بعدم إمكانية احتوائه أو تكثيفه أو حتى رؤيته. الغريب في الأمر أنه منح الاسم نفسه لأوكسيد النتروجين والذي حضره بتسخين نترات البوتاسيوم أو بتفاعل الفضة مع حمض النتريك، وأوكسيد الكبريت وناتج احتراق الكبريت. عرف فان هلمونت بأن ثنائي أوكسيد الكربون لا يدعم الاحتراق وركزه مع الغاز الناجم عن تفاعل المعادن على الحموض والذي ندعوه الآن بالهيدروجين أو (الغاز القابل للاشتعال) وهذه التسمية أطلقها أيضًا على الغازات شديدة الاحتراق. لكن لم ينجح فان هلمونت في عزل الغازات التي حضّرها أو حصرها في أوعية، فقد كانت جميعها ملوثة بالهواء. في الواقع، كان له رأي بأن مثل هذه الغازات لا يمكن احتجازها بسبب خاصيتها "الطائشة"[٨٦].

٤/٣-غاليليو (القرن ١٧م)

كان غاليليو يعتقد أنّ المواد التي تنتج الحرارة في أجسامنا وتجعلنا نشعر بالدفء، والتي تعرفُ بالاسم العام (النار)، لا بد أنها تتكون من العديد من الجسيمات الدقيقة التي لها أشكال معينة وتتحرك بسرعات معينة. وعندما تتقابل هذه الجسيمات مع أجسامنا تخترقها لرقتها الشديدة. وتلامسها معنا نشعر به عند عبورها خلالنا وهو الإحساس الذي نطلق عليه (الحرارة)، وهي إما سارّة أو غير سارّة تبعًا لسرعتها الكبيرة أو الصغيرة عندما تثقب وتخترق أجسامنا. فهي سارة إذا كانت تقصد عملية إفراز العرق الضرورية، وبغيضة وكريهة عندما تتسبب في الكثير من التحلل والفناء لمادتنا. وبناء على فكرة الجسيمات يمكن تفسير أن النار ما هي إلا مجرد حركة لجسيماتها التي تخترق بها كل الأجسام مسببةً سرعة تدميرها أو بطئها وتحللها بما يتناسب مع أعدادها وسرعتها (أعداد جسيمات النار وسرعتها) وكثافتها أو رقتها. وتتحول كثير من المواد في أثناء تحللها إلى جسيمات دقيقة إضافية، ويستمر هذا التحلل ما دامت استمرت هذه المواد في استقبال مواد أخرى قادرة على أن تتحلل. وكان غاليليو لا يعتقد أنه بجانب الشكل والعدد والحركة والاختراق واللمس، يوجد صفة أخرى للنار تتعلق (بالحرارة) لدرجة أنه إذا أزيل الجسم الحي لا تصبح الحرارة سوى اسم بسيط لا أكثر[٨٧].

٥/٣-توماس براون (القرن ١٧م)

حتى عهد السير توماس براون (توفي ١٦٨٢م) Sir T. Browne كانت لا تزال الأفكار الأرسطية حاضرة، خصوصًا فكرة أنّ الطبيعة توظف الأعضاء نفسها من أجل التغذية، والتي يحتاجها كل حيوان من أجل الحياة، كما يحتاج كل حيوان

للتنفس لينجو بنفسه من الموت. التنفس متعلق بالهضم وذلك تشريحيًا وعضويًا. وكان على براون أن يصارع لدرجة الإيمان بأن المري والقصبة الهوائية كلاهما معبر من أجل الطعام والشراب. في سلسلة أحداث عضوية، فإنّ الدم الذي قد نشأ من هضم الغذاء يقدّم مع روح الطبيعة في الكبد، ويتغير بطريقةٍ ما في القلب والرئتين من اللون الداكن إلى الفاتح ومن الوريدي إلى الشرياني، وقد تم وهب ذلك للأرواح الحية. كيف تحدث هذه العملية كانت مشكلة التنفس الرئيسة بالنسبة لعلماء القرن السابع عشر. وكان السؤال الكبير: لماذا يحدث التغير بين الدم الوريدي والشرياني؟ ولماذا نحن نتنفس؟

على نحو بالغ الأهمية، قدم براون ملاحظاته عن التنفس بشكل مترابط مع ملاحظاته عن الهضم. لقد اكتشف معاصروه العلاقة العميقة بين التنفس والاحتراق، وكان لهذا تأثيره على خياله العلمي بشكل كبير فعلاً. بواعث براون أمام القيم الغذائية في الهواء إبداع وتنوع، فهي مختارة بشكل كبير من أرسطو: الهواء شيء غير ملموس، "إنه هضمٌ خالٍ من كل لذة ومذاق"، في حين يجب على الغذاء أن يتفق مع التذوق، وهو نوع من اللمس، ويوجد الهواء فينا فقط لكونه "أحد المبادئ المشتركة البعيدة جدًا عن الحياة"، أي تجاهل العنصر اللاعضوي بدلاً من الطعام المادي العضوي الذي يجب أن يكون وفق الشرط الأساسي للعادة بين الطعام والجسم. تقوم الحرارة بتمديد الهواء وتجهيزه تمامًا للانطلاق، بينما يتلقى الطعام "اكتنازًا" أو تكثيفًا، يتم حفظ الهواء فقط بشكل مؤقت، في حين يجب أن يتم حفظ الطعام لوقت كبير وهذا حسب أبو قراط، أما الهواء ليس بالوسع استيعابه وقد لا يكون حتى عنصرًا أو مقومًا للأجسام، حسب رأي الكيميائي باراسيلسوس، لكن يتقبل هذا بحد ذاته، تحول العناصر سؤال محير، فهو يظهر بأنه "ليس سهلاً البرهان بأن الهواء كثير التحول إلى ماء" وهذا حسب فرضية فان هلمونت الأساسية، ولذا فإن تحول الهواء إلى لحم فيه "شك عميق"، فالهواء ليس طعامًا أبدًا حتى يقوم باحتراق خفي لتزويد الحياة، إنه بلا ريب ذلك الطعام الذي يكون طبيعيًا للنار"، وأخيرًا "عنصر الهواء بعيد جدًا عن تغذية الجسم، وهو ما استفسر عنه البعض بشأن قوة الماء، والكثير يرونه بأنه لا يدخل الجسم في قوة التغذية". مع هذه المجموعة من الحجج، إلا أن براون فسح مجالاً للتناظر الأساسي بين الهواء والطعام عندما يتم طرحهما مع بعض النظريات الجديدة في أيامه. لهذا يمكن للهواء وكما وضعه براون، بأن يكون محفوظًا "بشكل مؤقت... في أجسامنا، وطويلاً بما يكفي لتبريد الحرارة، التي تمت تأديتها لمرة واحدة، خشية أن يتم تسخينها ثانية، والتي ينبغي أن تخنق ذلك الجزء الذي يفصلها ولا يجعلها باقية، لكن سرعان ما تعود الطريق نفسه الذي عبرت منه"[٨٨].

فكرة النترات التي أشار إليها مايو، كما سنجد لاحقًا، أثارت الكثير من الصخب في الفلسفة وكذلك في الحرب. إذْ الأمر يتعلق بطبيعتها الكيميائية، ويتفق براون مع مايو في ذلك، كما يتعلق دورها في التنفس والاحتراق، لكنهما يختلفان بأن النترات حامضية. بالنسبة لمايو توجد جسيمات النترات الهوائية في "الروح الحامضية" وهي تشكل جزء من النترات، والتي هي "في الدرجة الأعلى". يلاحظ براون بأن الحديد في (الماء القوي أو حمض النتريك "Aqua fortis") سينتفخ مثل الخميرة ويطلق ضجيجًا ودخانًا، كل ذلك بسبب الكبريت الذي يجتمع مع "الحمض وروح نترات Aqua fortis". النترات هي أيضًا ملح الأرض. يدعوها مايو: "ملح الكون الراسخ" نظرًا إلى "طبيعة النترات الملحية"[٨٩]. إنه ذلك "الملح الهوائي" الذي تغذى منه جسيمات نار مايو، ويدعوها براون "بالملح المتطاير". يقبع هذا المفهوم في مبدأ باراسيلسيوس الكيميائي للعناصر الثلاثة: الملح والكبريت والزئبق. والذي كما ذكرنا سبقه إليه جابر بن يحان. حيث نظر براون إلى هذا المفهوم على أنه تحسين للمبدأ القديم ذو العناصر الأربعة. الملح هو أرضي أو ذو منشأ ثابت، والكبريت القابل للاحتراق أو ذو منشأ قابل للاشتعال، والزئبق ذو منشأ متطاير[٩٠].

إذن فقد فشل براون مع كل الجهود التي بذلها في تفسير ظاهرتي الاحتراق والتنفس، وذلك بسبب اعتماده على الأسس الأرسطية القديمة، وعدم تمكنه من الربط بين المعطيات الحديثة والقديمة.

٦/٣-رينيه ديكارت (القرن ١٧م)

على الجانب الفرنسي، ناقش رينيه ديكارت عملية الاحتراق في كتابه (العالم) فقال: "إنّ اللهب الذي قلت عنه سابقًا إن كل أجزائه تتحرك باستمرار ليس سائلاً فحسب، ولكنه يجعل غالبية الأجسام الأخرى سائلة. وعليكم أن تلاحظوا أن اللهب عندما يذيب المعادن لا يفعل بقوة غير التي يفعل بها عندما يحرق الخشب. ولكن لأن أجزاء المعادن متساوية كلها تقريبًا، فإنه لا يستطيع أن يحرّك منها جزءًا دون آخر، وهكذا يؤلف منها أجسامًا سائلة كليًا: في حين أن أجزاء الخشب غير متساوية بحيث إن اللهب يستطيع أن يفصل صغراها ويجعلها سائلة أي يجعلها تطير دخانًا دون أن يحرك بذلك الأجزاء الكبرى"[٩١].

وهنـــا نلاحـــظ أن ديكـــارت لا يمـــيز بـــين (الاحـــتراق Combustion) و (الإسـالة Liquefaction)، حسـب رأيـه أنـه يتم بوساطة عملية الاحتراق فصل الأجزاء اللطيفة في جسمٍ مـا عـن الأجـزاء الكثيفـة، مثـل الخشـب الـذي تتحـول أجـزاؤه اللطيفة إلى مادة سائلة في الدخان، وتبقى أجزاؤه الكثيفة صلبة تتحـول إلى رمـاد. أمـا في عمليـة الإسـالة فتتحـول كافـة أجـزاء الجسـم إلى مـادة سـائلة، نظـرًا لكونهـا جميعـًا عـلى درجـة مـن اللطافة نفسها مثل الحديد. وواضح من هذا التفسير أن ديكارت يبتعد فيه عن النظرية الأرسطية التي أثّرت على معاصريه، لكنه كما ذكرنا يخلط بين الاحتراق والإسالة.

ويتـابع ديكـارت قـائلاً: "لكـن يمكـنكم أن تسـألوني في هـذا الموضع أنه إذا كانت حركة أجزاء اللهب وحدها هي التي تجعله يحرق وتجعله سائلاً، فلماذا نرى حركة أجزاء الهواء التي تجعله سائلاً إلى أقصى الحدود، لا تعطيه مع ذلك القدرة على الإحراق، بل تجعل، على العكس، أيدينا غير قادرة تقريبًا على الإحساس به؟ فأجيب عن ذلك أنه ينبغي ألا نحصر اهتمامنا بسرعة الحركة وحسب، بل وبضخامة الأجزاء كذلك، فالأجزاء الأكثر صغرًا هي التي تصنع الأجسام الأكثر سيولةً، والأجزاء الأكثر ضخامة هي الـتي تمتلـك مـن القـوة مقـدارًا أكـبر لإحـراق الأجسـام الأخـرى والفعل فيها على العموم"[٩٢]. ويقصد بكلامه هذا أن النار مادة سائلة تشتمل على أجزاء صغيرة وأخرى أكبر حجمًا. وما يمنح قدرة اللهب عـلى الإحـراق هي الأجـزاء الكبـيرة. ويضع ديكـارت شرط آخر إضافة لشرط وجود الأجزاء الكبيرة هو سرعة حركتها. فـالهواء لـيس لديـه القـدرة عـلى الإحـراق لأنـه لا يملـك أجـزاء ضخمة وسريعة الحركة إلى درجة تمكنه من القدرة على الإحراق، بخلاف النار والأحماض التي تملكها.

أما عـن سبب القدرة على الإحراق فيرى ديكارت أن اللهب يتخلل أجزاء أصغر من أجزاء الهواء، كون هذا اللهب لديه القدرة على أن يتغلل من خلال عددٍ مـن الأجسام ذات المسام شديدة الضيق الـتي لا يسـتطيع الهـواء نفسـه أن يخترقهـا. وأن تتخللـه أجزاء أضخم أو مماثلة في ضخامتها لأجزاء الهواء ولكـن بعدد أكبر، هذا ما نراه بوضوح في كون الهواء وحده لا يكفي لتغذيته. وتتحرك هذه الأجزاء بسرعة أشد، هذا ما نستفيده من عنف حركتها. وأخيرًا تكون أضخم هذه الأجزاء لا غيرها، لها القدرة على الإحراق، والدليل على ذلك فإن اللهب الذي يخرج من ماء الحياة، أو من الأجسام الأخرى الشديدة اللطافة، لا يكاد يحرق البتة، أما ذاك الذي يتولد في الأجسام الصلبة والثقيلة فهو على العكس شديد الإحراق[٩٣].

٣/٧-جون مايو (القرن ١٧م)

في عـام ١٦٧٤م توصـل الطبيب جـون مـايو (توفي ١٦٧٩م) J. Mayow -وهو مساعد الفيزيائي البريطاني روبرت بويل- إلى أن الزيادة التي تحصل في وزن الجسم المحترق تُعزى إلى "جزء فعال ولطيف من الهواء"[٩٤]، وقد أسماه (spiritus nitroaereus) أو روح نترات الهواء على اسم نترات البوتاسيوم التي كان يسخنها، وأكّد أن هـذا العنصر هـو الـذي يحـوّل دم الشرايين إلى اللـون الأحمر في الرئتين[٩٥]. كما لاحظ مايو أيضًا أن الأنتيموان يزداد وزنـه عندما يسخّن، واستنتج مـن ذلـك أنّ المـادّة الـتي أسماها روح الهواء النترات هي التي تتّحد مع المعدن[٩٦].

لقد كان مايو على ثقة بأنه أول مكتشف للأوكسجين، لكـن هـذه الادعـاءات قـد دحضهـا الباحث تي. سي. باترسـون T. C. Patterson، الذي برهن بأن أفكار مايو تم أخذها بدون امتنان مـن أعمـال بويـل والآخـرين. لقـد قـدم مـايو في أطروحتـه عـن التنفس عام ١٦٦٨م ملخصًا بليغًا وواضحًا عن عمل من سبقه. وبعد أن نشر كتابه في (الإجراءات الفلسفية) تم قراءته، وأشار القـارئ إلى مفهـوم مـايو عـن دور الهـواء في التـنفس قـائلاً: "ويستفسر، ما الذي يمكن أن يكون في الهواء وهو ضروري جدًا للحياة؟ وهو يخمن بأنها الجسيمات الرقيقة جدًا والنترات التي يعجّ بها الهواء التي تنفذ من خلال الرئتين وتكون على علاقة مع الدم، ولكـن مـايو لا يجعـل "منطقـة النـترات" لازمـة لكـل الحيـاة، فالنباتات بحد ذاتها لا تنمو في تلك الأرض، لأنها محرومة من ذلك المصدر، فإذا تعرضت للهواء، ولقحها ملح التخصيب مجددًا، تصبح عندئذٍ ملائمة ثانية لتغذية تلك النباتات"[٩٧].

ليثبت مايو صحة فرضيته أن جزءًا من الهواء فقط وليس كلـه يـدخل في عمليـتي الاحـتراق والتـنفس؛ قـام بتنكـيس وعـاء زجاجي فوق شمعة أو فوق حيوان جاثم على قاعدة في حوض به مـاء، وسـاوى بـين مسـتوى المـاء داخـل وخـارج الوعـاء الزجاجي بواسـطة سيفون، ثـم أخـذ يلاحـظ ارتفـاع مستوى الماء داخل الوعاء مع استمرار اشتعال الشمعة أو تـنفس الحيـوان القـارض. ولأن جزءًا من الهواء كان يتبقى عندما تنطفئ الشمعة أو ينفق الحيوان؛ فقد عرف أن هذا النوع الثاني من الهواء لا يساعد على الاحتراق أو التنفس[٩٨].

حسـب بـروان ومـايو فـإنّ الطبيعـة الكيميائيـة والكونيـة للنـترات متشـابهة. ففـي كلاهمـا، يجـب عـلى الكبريـت أيضًـا أن يكـون موجـودًا ليجتمـع مـع النـترات. لكـن مـن ناحيـة فهمهمـا لـلأدوار المتعلقـة بالنـترات والكبريـت في عمليـة الاحـتراق والتنفس فإنهما يختلفان. ثمّ يتبع مايو بويل ولوير، فهو يمضي

في التركيز على أهمية النترات وبروان على الكبريت. ليس النترات فحسب بل أيضًا الهواء هو الذي يلفت انتباه مايو، فالهواء بمثابة مصدر وخزان وقود الاحتراق. على أية حال، بالنسبة لبراون فإن الهواء يقدم فقط معبرًا للزفير الذي ينشأ من الاحتراق. علاوة على ذلك، وجدنا كيف أخفق براون في إيجاد صلة أكيدة بين عمليتي الاحتراق والتنفس. فقد قال بأن الكبريت يشكل "الدهن الزيتي وأجزاء دهنية وهي مصادر قابلية الاشتعال". وكذلك الكبريت ومادة الكبريت للبندقية، التي ينطلق منها "الإطلاق القوي والحاد"، وهو "جسم معدني لأجزاء دهنية وقابلة للاشتعال"، كما يعتمد الاحتراق على الزيت المفروش بالكبريت. أما الإيقاد، وهذه هي الفكرة الرئيسة، فإنه ينبثق من الخارج ضمن أجسام مضطرمة بنفسها، لأنها مادة خام زيتية وكبريتية. واعتقد مايو بأنه أثبت أن نفوق الحيوان قد لا يكون بسبب نواتج الاحتراق: "ولا يمكن حتى الافتراض بأن الحيوان في مثل هذه الحالة قد خنقه دخان الشمعة، فإذا تم تزويد اللهب بحرق روح الخمر فلا يوجد دخان منطلق ومع ذلك فإن يموت الحيوان"[٩٩].

٨/٣-يوهان بيشر (القرن ١٧م)

في عام ١٦٦٧م حاول يوهان يواكيم بيشر (توفي ١٦٨٢م) J.J.Becher بكل الطرائق أن يصل إلى العناصر الأساسية التي تتكون منها كل المواد عن طريق النظرية وليس التجربة، وبعد جهد ولأيٍ توصل إلى ما يأتي: يوجد خمسة عناصر هي الماء والهواء، والقابل للانصهار والدهني والمائع (أسمى الثلاثة الأخيرة بالعناصر الأرضية). وقد تصور أن عملية الاحتراق يمكنها أن تفسّر بفقدان العنصر الأرضي الدهني (تيرا بيجونيس) فقط، وهو الذي أسماه فيما بعد جورج إرنست شتال (توفي ١٧٣٤م) G.E.Stahl باسم (الفلوجيستون phlogiston[١٠٠]).

ووفق نظرية الفلوجيستون فإن عملية الكلسنة Calcination أو التكليس أو التحميص[١٠١] فهي تفسّر كما يأتي: تحوي المعادن على عنصر قابل للاحتراق يذهب من المعدن للهواء تحت تأثير اللهب، ويترك كلس المعدن. ويبدو أنه كان يعرف أن المعادن تكتسب وزنًا إضافيًا في أثناء عملية الكلسنة، فحاول أن يفسر ذلك بدخول جسيمات اللهب ذات الوزن المحسوس في المعدن، وأحيانًا أخرى بمساعدة الفلوجيستون الذي يمكنه تخفيف وزن المعدن من مبدأ" إذا طرحت من الشيء شيئًا آخر وزنه أصغر من لا شيء فإن الوزن يزداد"[١٠٢].

نظر بعض الكيميائيين للفلوجيستون على أنه عنصر النار نفسه؛ أي مجرّد شكل من أشكال عنصر النار القديم. في حين أن البعض الآخر اتفق مع تعريف بيشر للفلوجيستون القائل إن: "المعادن تحوي على جوهر قابل للاشتعال ينطلق في الهوا بفعل الاحتراق"، متقبلين عدم وضوح الخطوط الفاصلة بين (العناصر) و (جواهر) الخيمياء[١٠٣].

٩/٣-روبرت بويل (القرن ١٧م)

وضع روبرت بويل خلاصة تجاربه في باكورة أعماله وهو كتاب (تجارب فيزيائية ميكانيكية تتعلق بنابضية الهواء وتأثيراته) الذي أكد فيه على أن الصوت لا ينتقل في الفراغ، وأن الهواء ضروري للحياة والنار. وقد اعتبر بويل ومعاصروه أن الهواء مادة واحدة، ويعود سبب الاختلاف في القدرة على التفاعل إلى درجة نقاء الهواء. فقد شاهدوا أن الهواء الذي يتولد من تفاعل خراطة الصلب مع الحمض يشتعل إذا قربت منه شمعة، بينما هواء الغرفة لا يشتعل[١٠٤].

كما درس بويل ظاهرة ازدياد وزن المعادن التي تسخّن بشدة في الهواء (الكلسنة). ونعلم حاليًا أن المعادن إذا سخّنت بهذا الشكل فإنها تكتسب وزنها الزائد كونها تتحد مع الأكسجين في الهواء. وفي إناء مغلق بإحكام (ملحوم) فإن وزن النظام ككل- أي المعدن والهواء والإناء- يجب أن يبقى ثابتًا. وعندما قرر بويل إجراء هذه العملية في إناء مغلق بإحكام لم يأخذ بعين الاعتبار اندفاع الهواء داخل الإناء عند فتحه بعد التسخين. فكان يحصل على زيادة في وزن النظام ككل، وقد توصل إلى نتيجةٍ مفادها أن الزيادة تعود إلى دخول النار إلى الإناء من خلال مسام الزجاج[١٠٥]. ويعني أن الزيادة في الوزن ناجمة عن امتصاص الجسم للحرارة أو الضوء أو اللهب.

في عام ١٦٦٠م نشرت صحيفة (التجارب الجديدة) تجربة أساسية في علم وظائف الأعضاء الحيوية عن التنفس. بيّنت بأنه لو أدخلنا فأر وشمعة في حجرة وتم سحب الهواء تدريجيًا منها، فإن الفأر سينفق وستنطفئ الشمعة تقريبًا في الوقت نفسه. وهكذا فإن ظاهرتي التنفس والاحتراق كان لديهما ثمة شيء مشترك. إضافةً إلى ذلك، كانت هذه النتيجة ممكنة جدًا خصوصًا بعد إحاطة حجرة الاستنفاد بالجليد الذي أبقى الهواء ضمن درجة حرارة أدنى من الطبيعي. نفق الحيوان تمامًا بالطريقة ذاتها عندما كانت ظروف التبريد المفترضة للمبدأ القديم مناسبة جدًا. لكن ما الذي سبب نفوق الفأر؟ النظرية الجديدة التي ظهرت لتفسير الهدف من التنفس وجدت أن أساسها لا يوجد في الخاصية الفيزيائية للهواء ودرجة حرارته، وإنما في مقومه الكيميائي. السبب الذي نفق من أجله الحيوان أو انطفأ اللهيب عندما بقي مقدار محدود من الهواء غير

المتجدد، هو أن التنفس والاحتراق إما مأخوذين من عنصر ما موجود في الهواء كان لازمًا إلى مكونهما، أو أن شيء ما مضاف إلى الهواء أتى بهما إلى نهايتهما. كانت وجهة النظر السابقة هي التي مال إليها الباحثون الإنكليز، أما وجهة النظر الثانية عن التأثيرات المؤذية للهواء المستهلك لم يتم دمجها مع النظرية الجديدة حتى القرن الثامن عشر. هنا اقترح بويل بأن ضرورة الهواء النقي للإبقاء على الحياة يعتمد على وجود بعض المادة الأولية فيه لأنها " تحوله للحفاظ على لهبٍ باقٍ، في حين أن الهواء المستهلك أو الفاسد لا يُبقِ على اللهب". لقد جعلت المادة الخام الخاصة بالتنفس بويل يفكر بوجود شبيه لها، لكن ليس متماثلاً معها، بحيث إنه يقوم بعملية الاحتراق. وقد اقترح بأن ذلك الشبيه هو "النترات المتطايرة"، وهي ليست من مكوّنات الهواء بحد ذاته، إنما "بعض المادة الخام الشمسية الشاذة أو النجمية أو من طبيعة أخرى غريبة تمامًا" اختلطت بالهواء. وهكذا اعتقد بويل أنه برهن على أن اللهب انطفأ فقط بسبب نقص الهواء عندما أحرقه في حجرة استنفاد بوجود روح الخمر، والتي تطلق دخانًا مخفيًا[١٠٦].

الخطوة الأولى في حل مشكلة جمع الغازات التي كان يعاني منها فان هلمونت قام بها بويل الذي وصف في عام ١٦٦١م أولاً مجموعة الهدروجين الصافية وذلك بقلب زجاجة حمض الكبريت ممدد تحوي على عدة مسامير حديد في وعاء مليء بالحمض. بعد ثمانين عامًا، بيّن جون مايو كيف يمكن أن ينقل الغاز من زجاجة إلى أخرى بفتح فم الزجاجة التي تحوي على الغاز تحت الفم والزجاجة الأخرى التي تم ملؤها وقلبها بالماء. أكد مايو على أهمية الضغط لدى حساب حجوم الغازات، وأوصى بأن الحجوم يتم وضعها تحت الضغط الجوي وذلك بمساواة مستويات الماء داخل وخارج العبوة. ووجد بهذا الصدد أن قانون بويل الذي تم تطبيقه فقط على الهواء، أنه يصلح أيضًا للهدروجين وأوكسيد النتريك. بعدها قام بيورهاف باستعمال هذا الاكتشاف، في وقت ما قبل عام ١٧٣٢م، عندما أجرى تفاعل لغاز ناتج في الخواء، ولاحظ الزيادة في الضغط ومن ثم استخدم قانون بويل ليحول الحجوم إلى الضغط نفسه. كانت خطوة قصيرة للتحوّل من جهاز بويل لجمع الغاز إلى وعاء مملوء بالهواء وصفه ستيفن هالس (توفي ١٧٦١م) S.Hales في عام ١٧٢٧م، تضمنت دفع الغازات من مولد خارجي بوساطة أنبوب إلى داخل فوهة الزجاجة التي كانت مملوءة بالماء ومقلوبة في الحوض. باستخدام تقنية الجمع هذه، سخن هالس أوزان محددة لمواد صلبة ذات تنوع واسع ثم حسب حجم الغاز المنطلق في كل حالة. أيضًا لاحظ النقصان في الحجم المرافق لمحلول غازات معينة كلما علت الماء. بهذه الطريقة، أنتج هالس وجمع الكثير من الغازات الشائعة ماعدا تلك التي كانت قابلة للانحلال في الماء[١٠٧].

٣/١٠-روبرت هوك (القرن ١٨م)

ربما كان روبرت هوك أول من وضع نظريةً معقولةً –لكن غير كاملة-عن الاحتراق، فقد قال بأن الهواء ضروري "لتحلل المواد الكبريتية" أي القابلة للاشتعال، وأن عملية التحلل هذه تنتج "مقدارًا كبيرًا من الحرارة وهو ما ندعوه بالنار". لكنه عجز عن فصل الأكسجين أو تحضيره[١٠٨]. وقد وضع هوك نظريته عن الاحتراق في كتابه (ميكروغرافيا) معتبرًا أن عامل الاحتراق هو مادة مشتركة مع كل من نترات البوتاسيوم والهواء[١٠٩].

التجربة المهمة التي توصل من خلالها هوك ليدل على أن الهواء ضروري للتنفس أجريت في عام ١٦٦٧م. فقد أبقى حيوان حيًا بضع ساعات، مع منع رئتيه من الحركة، والإبقاء على اندفاع قوي للهواء على الرئتين بوساطة منفاخين، الهواء المدفوع خلالهما ينفذ باستمرار من خلال ثقوب دقيقة في الرئة. وقد أثبت هذا بأن السمة الأساسية للتنفس هي مرور الهواء من خلال الرئتين وليست حركات التنفس كما ذكر جالينوس. عند إتمام التجربة، سأل هوك سؤالاً في محله تمامًا: هل يكفي أن يدور الدم الوريدي من خلال وعاء معرّض للهواء النقي بشكل مفتوح من أجل حياة الحيوان بدلاً من الرئتين والتنفس؟ وقد أخذ الخطوة التالية زميله الطبيب ريتشارد لوير الذي أشار إلى وجود علاقة بين الهواء والدم في الرئتين. بعد سنتين من تجربة هوك، قارن لوير لون الدم عند دخول وعند خروج الرئتين. وجد الأول داكنًا والثاني أحمر زاهٍ. واستنتج أولاً، بأن تغير لون الدم نجم عن تعرض الدم للهواء في الرئة، وثانيًا، بأن الدم توافق مع بعض هذا الهواء[١١٠].

٣/١١-جورج شتال (القرن ١٨م)

حتى أيام لافوازييه، كان الكيميائيون ما زالوا يقبلون –بشكل عام- المفهوم الخيميائي القديم بأن المادة تحكمها ثلاثة مواد أولية هي: الزئبق (الذي يجعل الأشياء سائلة)، والملح (الذي يجعلها صلبة)، والكبريت (الذي يجعلها تحترق). وقد حظي حمض الكبريتوز بالاهتمام فكان مصدر سحر خاص[١١١]. ووجدنا كيف أعاد الكيميائي الألماني جورج شتال إحياء نظرية الفلوجيستون الخاصة ببيشر ووضع لها جملةً من المفاهيم التي يمكنها أن تفسّر معظم الظاهرات الكيميائية كالأكسدة والتنفس والتحلل[١١٢]. افترض شتال بأنه كلما زادت كمية الفلوجيستون في الجسم زادت قابليته للاحتراق، إلا أن الجسم

يفقد الفلوجيستون بعد أن يحترق. وقد كان يُعتقد أن الفلوجيستون حفيد الكبريت الذي وضع فكرته جابر بن حيان كجوهر يعبر عن قابلية المادة للاحتراق، إلا أن النظرية عجزت عن تفسير سبب ازدياد وزن الجسم المحترق بدلاً من أن يقل، وهو ما برهن عليه بويل وغيره لاحقًا(١١٣).

مع ذلك فقد ظهر لهذه النظرية أشياعها من المؤيدين، فقد قال كونانت Conant:" ما الذي يمكن أن يكون أكثر صوابًا من الافتراض بأن المادة الخام تستوعب، في كل لحظة من تسخينها مع الفحم النباتي، أساسًا معدنيًا يضفي عليها خواص المعدن؟ فإذا أطلقنا على هذه المادة المفترضة اسم (الفلوجيستون) فسنصل إلى تفسير لصناعة التعدين وفق المعادلة الآتية:

خام المعدن (أكسيد) + فلوجيستون (من الفحم النباتي) ← معدن

وهذا يعني أن الفلوجيستون ينطلق عند التسخين ويتحد بالهواء، وقيل بشكل عامّ، إن المواد التي تحترق في الهواء عادة ما تكون غنية بالفلوجيستون. والدليل على ذلك أن عملية الاحتراق تتوقف بسرعة في الحيز المغلق، مما يعني أن للهواء القدرة على امتصاص كمية محدودة فقط من الفلوجيستون(١١٤).

وتوصل شتال إلى أن النبات بدوره يزيل الفلوجيستون من الهواء، لهذا فإنه يصبح غنيًا بهذه المادة، ويحترق عندما يصير جافًا. وكجميع النظريات الكيميائية الجيدة، فقد قدمت نظرية الفلوجيستون تفسيرًا لنتائج العديد من التجارب العلمية المختلفة، بما فيها العمليات البيولوجية كالتنفس وروائح النباتات، وكانت مفتاحًا للباحثين ليتجهوا نحو حقول دراسية يمكن أن ينتج عنها اكتشافات جديدة، لهذا السبب فقد لاقت نظرية الفلوجيستون قبولاً واتساعًا في القرن الثامن عشر الميلادي وقادت للعديد من الاكتشافات في مجال الكيمياء(١١٥).

بناءً على ما سبق، وضعت مجموعة من القواعد المتعلقة بعلاقة الهواء مع الفلوجيستون نوردها فيما يأتي(١١٦):

١- لا يصلح الهواء المشبع بالفلوجيستون للحياة فيه، وذلك لأن دور الهواء في عملية التنفس هو التخلص من فلوجيستون الجسم.

٢- لا يستطيع الهواء، بعد تشبعه تمامًا بالفلوجيستون، أن يساعد على احتراق أية مادة.

٣- لا يعطي المعدن المسخّن في الهواء المشبع تمامًا بالفلوجيستون أية بقايا.

كُتِب لهذه النظرية القبول في فرنسا عام ١٧٤٠م، وأصبحت عام ١٧٥٠م النظرية الأساسية في الكيمياء. وأصبح الفلوجيستون في القرن الثامن عشر مثل الطاقة المظلمة في عصرنا الحالي التي تدفع بتوسع الكون، كما يقول الفيلسوف الفرنسي نيكولاس دو كوندرسييه (توفي ١٧٩٤م) N. de Condorcet:" يُدفع بفعل قوى تعطيه اتجاهًا معاكسًا لاتجاه الجاذبية". كما صاغ أحد الكيميائيين هذه الفكرة بطريقة شاعرية قائلاً: إن الفلوجيستون " يعطي أجنحة للجزيئات الأرضية"(١١٧).

١٢/٣-ميخائيل لومونوسوف (القرن ١٨م)

لم يكن الروسي ميخائيل لومونوسوف يقبل بنظرية الفلوجيستون التي طرحها وسوق لها الباحثون الأوربيون، لأنه لم يكن هناك شيء يراه منها. ولإثبات صحة دعواه قام بتسخين المعادن في أوعية مغلقة بإحكام، فوجد -على عكس بويل- أنه لا توجد زيادة في وزن النظام ككل. واقترح بعدم وجود أية ضرورة للجوء إلى الفلوجيستون لتفسير النتائج. وإنما يمكن تفسير ما حدث بافتراض أن شيئًا ما من الهواء قد اتحد مع الفلز(١١٨). لكن، وكما قد يحدث في كل عصر، إما أنه تمّ تجاهل دعواه أو لم يصل صداها للآخرين.

١٣/٣-أنطوان لافوازيه (القرن ١٨م)

في الوقت الذي بدأ فيه جوزيف بريستلي يكشف فيها عن طبيعة الغازات، أي في عقد السبعينات من القرن ١٨م، كان أنطوان لافوازيه مستغرقًا بالكامل في البحث في مسألة الاحتراق، وكيف يعمل الاحتراق على تحميص المواد في الهواء، وهي المسألة التي لم تكن مفهومة بشكل جيد في ذلك الوقت(١١٩). في عام ١٧٧٢م، كان لافوازيه لا يزال مقتنعًا بفكرة الفلوجيستون، ولكنه بدأ يشك في أن الأمر برمته يتعلق بالاحتراق وحسب. وقد اقترح في نهاية ذلك العام أن المعادن تستولي على الهواء (المثبَّت) عند التكليس، وتطلق المواد المكلسنة هذا الهواء المثبت عند (اختزالها) مرة أخرى إلى معادن بوساطة الفحم والحرارة. جاء هذا الاقتراح عندما سمع عن الهواء المثبت الذي أشار إليه الكيميائي الأسكتلندي جوزيف بلاك عام ١٧٧٣م، وأوضح أنها المادة التي تتحد معها المعادن لتشكّل المواد المكلسنة. الأمر الذي يفسّر الزيادة في الوزن على الأقل، وهو ما يعني عدم الحاجة للاستعانة بالفلوجستون(١٢٠).

وما أكّد شكوك لافوازيه هو الصيدلي الفرنسي بيير بابيه P. Bayeh، الذي وجد أن مادة (الزئبق المكلسنة) التي تدعى أكسيد الزئبق الآن، يمكن تحويلها إلى زئبق ببساطة عن طريق التسخين، دون الحاجة إلى الفحم الغني بالفلوجيستون، إضافةً

لذلك لم يكن الغاز المنبعث في هذه العملية هواء بلاك المثبت، وإنما شيء آخر مختلف تمامًا، ستتضح معالمه بعد زيارة بريستلي للافوازيه على مائدة العشاء[١٢١].

ما يميز لافوازيه هو تقنينه للظاهرة، فقد أراد من خلال استخدام القياسات الدقيقة في التجربة أن يحصل على الجواب الشافي لها دون الاكتفاء بالملاحظة. حيث كان قبل أن يقوم بحرق أي مادة يقوم بوزنها بأقصى دقة ممكنة في عصره، ومن ثم يعيد قياس المادة مرةً أخرى بعد الحرق. إلا أنه ارتبك مع حصوله على ثلاث نتائج مختلفة عن بعضها تمامًا[١٢٢] في أثناء عملية الاحتراق، ولعلها تذكرنا بتصنيف أرسطو لأسباب احتراق المواد:

- فقد وجد مواد تخلف مواد وراءها أخف من المادة الأصلية، مثل الخشب.
- ووجد مواد لا تخلف وراءها أية مادة من المادة الأصلية، مثل الألماس.
- أخيرًا وجد مواد تخلف وراءها مادةً أثقل من المادة الأصلية، مثل احتراق المعادن.

فهل الاحتراق يدمر المادة أم يزيد في وزنها كليًا أم جزئيًا؟ وهل يصبح ناتج الاحتراق "هواء رقيق" يمتزج مع خليط الهواء؟

ربما كان الأمر كذلك كما يعتقد لافوازيه، ففي عام ١٧٥٦م قام جوزيف بلاك بتسخين الحجر الجيري (كربونات الكالسيوم $CaCO_3$)، ووجد أنه يطلق غاز ثنائي أكسيد الكربون، وقد نقص وزن الحجر الجيري، إلا أن الوزن المفقود كان يعادل الغاز الناتج. وفي الحالة المعاكسة، فإن المعادن كان يزداد وزنها بعد الاحتراق بسبب الاتحاد بغازٍ ما مع هذا المعدن[١٢٣]. وهكذا قدم بلاك للافوازيه مفاتيح حل اللغز المتعلق بنظرية الاحتراق، وما على لافوازيه سوى تحديد الغاز الذي يسبب هذه الزيادة أو النقصان. ومنذ عام ١٧٧٧م وحتى أواخر حياته، ادعى لافوازيه أن الأوكسجين هو "مبدأ ذري للحموضة" وأن هذا الغاز -الذي هو الأكسجين- يتشكل فقط عندما يتحد مع السيال الحراري Caloric ليصنع الحرارة، وهذا يعني أنه حتى عام ١٧٧٧م لم يكن الأكسجين قد اكتشف بعد، وقد أبعد بعد عام ١٨١٠م مبدأ الحموضة من الكيمياء، كما أن فكرة السيال الحراري عاشت حتى عام ١٨٦٠م[١٢٤].

عندما قرأ لافوازيه نبأ اكتشاف كارل فيلهلم شيله المستقل عن هواء النار (وهو اسم الأكسجين عنده)، اقتنع بالتجربة بصحة التفسير القائل بأن احتراق الهيدروجين في الهواء يصنع الماء، كما ثبت أيضًا صحة التجارب التي أجراها هنري كافندش. وبناءً عليه نشر لافوازيه كتابه (تأملات في الفلوجيستون) عام ١٧٨٣م، موضحًا أن هذا المفهوم غير ضروري ومتناقض مع نفسه. وقد أيده في ذلك بلاك وقام بتدريسها في محاضراته في أدنبره[١٢٥].

وقد قال لافوازيه في عام ١٧٨٥م، مستنكرًا نظرية الفلوجيستون:" لقد جعل الكيميائيون الفلوجيستون جوهرًا غامضًا؛ فهو ليس محدد بدقة ويتناسب من ثم مع كل التفسيرات المطلوبة منه. أحيانًا يكون له وزن، وأحيانًا لا وزن له، وأحيانًا يكون نارًا فحسب، وأحيانًا نار متحدة مع التراب، وأحيانًا يمر عبر مسام الأوعية، وأحيانًا لا يستطيع اختراقها. ويفسّر الحمضية وعدمها في الوقت نفسه، والشفافية والتعتيم، واللون وغيابه. إنه بروتيوس[١٢٦] حقيقي يغير شكله كل لحظة"[١٢٧]. إن وضع البحث الكيميائي على أساس علمي على نحو دقيق من قبل لافوازيه -الذي تجاربه الدقيقة والبارعة واستعماله الدقيق للتوازن التحليلي افتتح العصر الحديث للكيمياء ودحض بشكل خاص نظرية الفلوجستون -المادة الغامضة ذات الثقل السلبي المتشابه على نحو مدهش جدًا لعنصر "الخفة المطلقة" المنسوب إلى أرسطو[١٢٨].

وهكذا أرسى لافوازيه ومؤيدوه[١٢٩] وجهة نظرهم، واتفقوا على استخدام مصطلح (الغاز Gas) للمواد التي كان هو والآخرون يسمونها "هواءً". وقد ضمن مقالته السابقة نظريته عن أن الحرارة والضوء عنصران –وهي بالتأكيد أحد جوانب ضعف منظومته-إلا أن تفسيره للتكلس والاحتراق والاختزال عن طريق الأكسجين وليس الفلوجيستون كان على جانب كبير من الثقة التي منحت النظرية القوة لتصمد. طبعًا لم يقتنع المجتمع العلمي الكيميائي بما طرحه فورًا؛ فقد مات شيله وهو مؤمن بنظرية الفلوجيستون، أما كافندش فقد كان يعتقد أن تفسيرات لافوازيه لا تختلف عن تفسيرات نظرية الفلوجيستون، فترك الكيمياء وتوجه للفيزياء، وكتب بريستلي دراستين من آخر ما نشره مدافعًا عن الفلوجيستون. أما الجيل الحديث فقد كان مقتنعًا بنظرية لافوازيه، فقد نشرت إليزابيت فولهام، وهي كيميائية أمريكية (مقال في الاحتراق) سنة ١٧٩٤م، واحتفل أنصار لافوازيه بشكل درامي، حيث ألبسوا زوجته ماري ملابس قسيسة (أو كاهنة) وأخذت تشعل النار في كتابات بيشر وشتال على المذبح[١٣٠].

كذلك فقد اقتنع وليم هويغنز W. Huygens أيضًا بما طرحه لافوازييه، فنشر عام ١٧٨٩م كتابه (نظرة مقارنة في النظرية الفلوجيستونية والمضادة للفلوجيستونية)، ودافع فيه عن الرأي القائل بأن جزيئات المركبات الكيميائية هي اتحاد لذرات العناصر المكونة لها، بل وصل إلى حدّ الاعتقاد بأنها لا تتحد إلا وفق نسب وزنية محددة[١٣١].

في المقابل، تلقى لافوازييه هجومًا عنيفًا عندما أشار إلى أنّ الماء يتألف من الأكسجين والهيدروجين؛ وفي حين يمكن للماء أن يطفئ الحرائق فإن الهيدروجين قابل للاشتعال على نحو هائل. فردّ عليه أحدهم: "إن الماء هو أقوى مضاد نملكه للفلوجيستون". فالأكسجين سيتسبب بالتخلي عن الفلوجيستون لتفسير عملية الاحتراق، التي تنتهي عندما يصبح الهواء خاليًا من الأكسجين، وليس عندما يكون مشبعًا بالفلوجيستون[١٣٢]. مع أن لافوازييه أخرج الفلوجيستون بوصفه مادة مسؤولة عن عملية الاحتراق من الباب، لكنه أدخل من الشباك السيال الحراري بوصفه مادة فيزيائية[١٣٣]، وليس عنصرًا قديمًا. وقد بدت مادة السيال الحراري كأنها فلوجيستون لكن بشكل آخر. فالسيال هو ما يجعل المواد غازية؛ لذلك فإن غاز الأكسجين زاخر به. وعندما كان الأكسجين يتفاعل مع المعادن لتشكيل المواد المكلسنة، كان السيال يتحرر، ونتيجةً لذلك يصبح الأكسجين كثيفًا وثقيلاً[١٣٤].

أخيرًا وللكشف عن طبيعة العلاقة بين الاحتراق والتنفس قام لافوازييه بالاشتراك مع الفلكي وعالم الرياضيات الفرنسي الماركيز بيير سيمون دي لابلاس، بتجارب عملية أثبتت أن عملية التنفس في الحيوانات، تشبه كيميائيًا عملية الاحتراق، وتعد دراساتهما للعمليات الكيميائية في الكائنات الحية من بين أوائل التجارب في فرع الكيمياء الحيوية[١٣٥].

٣/١٤-جوزيف بريستلي (القرن ١٩م)

بقي جوزيف بريستلي متشبثًا بنظرية الفلوجيستون وهو ما عبر عنه من خلال نشره لبحثه (مذهب الفلوجيستون يتأكد وتكوين الماء يدحض) عام ١٨٠٠م، ولم يستطع التخلص منها حتى عندما بقي المؤيد الوحيد لها إلى يوم وفاته عام ١٨٠٤م[١٣٦]. لقد أجرى بريستلي تجاربه على الهواء النتروجيني المشبع بالفلوجيستون (ثنائي أكسيد النتروجين)، ونجح بعده كارل شيله في تحضير (هواء النار) أو (هواء الحريق[١٣٧]) أي الأكسجين، قبل عام ١٧٧٣م[١٣٨]، وأكد أن الهواء – كما كان يعتقد سابقًا- ليس مادةً بسيطة بل مزيج بين غازين هما الأكسجين والنتروجين[١٣٩]. كما أجرى بريستلي تجاربه على مادة تسمى كلس الزئبق (أو ثنائي أكسيد الزئبق[١٤٠]) وهي مادة كان يبيعها الصيادلة في باريس لعلاج مرض الزهري. حيث يسخنها بوساطة عدسة مكبّرة ويجمع الأدخنة المنبعثة. وقد قال في ذلك:" ما أدهشني أكثر مما أستطيع التعبير عنه هو أن شمعةً اشتعلت في هذا الهواء بلهب ملحوظ القوة... احترت تمامًا كيف أفسّر ذلك". وبعد أن وجد فأر تجارب انتعش وهو يستنشق هذا الغاز، راح يجربه على نفسه، فقال حينها:" لقد خيّل إليّ أن صدري خفيف ومرتاح على غير العادة لفترة من الوقت بعد ذلك. والذي يمكنني قوله إن هذا الهواء الخالص ربما يصبح في يوم ما سلعة رفاهية رائجة، إلا أنّ أحدًا لم يحظَ حتى الآن بشرف استنشاقه إلا أنا وفأران". وقد أطلق بريستلي على هذا الغاز اسم (الهواء منزوع الفلوجيستون) أي الهواء في أنقى صوره على الإطلاق[١٤١]. وهو أيضًا غاز الأكسجين نفسه الذي اكتشفه شيله ولافوازيه.

في عام ٢٠٠١م، عرضت مسرحية اسمها (أكسجين)، حيث تخيل فيها الكيميائيان كارل جيراسي C. Djerassi ورولد هوفمان R. Hoffmann العلماء الثلاثة: شيله وبريستلي ولافوازيه وقد استدعاهم ملك السويد إلى استوكهولم ليقرر من يستحق التقدير بوصفه المكتشف الحقيقي للأوكسجين فكان شيله أول من استخلص الغاز، وبريستلي أو من نشر كلمةً عن وجوده، لكن لافوازيه كان الوحيد الذي فهم وأدرك حقيقة ما وجد[١٤٢]. بمعنى أنّ ما يميز ادعاء لافوازيه لم يكن الملاحظات، وإنما التفسير[١٤٣] هو الذي أوصله إلى أن الأكسجين ما هو إلا عنصر من الهواء يساعد في عملية الاحتراق.

٣/١٥-بيير لابلاس (القرن ١٩م)

عمل المركيز بيير سيمون دو لابلاس مع لافوازييه لاستقصاء حقيقة النار. حيث طوّرا مسعرًا، وهو جهاز لقياس كمية الحرارة المنطلقة أثناء التنفس والاحتراق. كان هذا الجهاز يتألف من حجرة محاطة بفراغ مملوء بالثلج، وكانت كمية الماء التي تجمع من الجليد المنصهر تستخدم كمقياس للحرارة المنطلقة في الحجرة الداخلية. ومن أجل الحصول على دقة أكبر في القياس، كان الجهاز يحاط من الخارج بغلاف مملوء بالجليد. حتى أن التجارب كانت تجرى في الأوقات التي تكون فيها درجة الحرارة أعلى قليلاً من درجة التجمّد. وقد استطاع كل من لابلاس ولافوازييه تعيين كمية الحرارة المنطلقة أثناء احتراق الفحم وتكوين ثنائي أكسيد الكربون بوساطة هذا الجهاز. ثم قاما بتعيين كمية الحرارة المتولدة بوساطة أحد خنازير غينيا

(حيوان تجارب) أثناء تنفسه[١٤٤]، وأيضًا جمعا ثنائي أكسيد الكربون من الزفير. وقارنا كمية الحرارة المتولدة من الحيوان بكمية الحرارة المتولدة بالاحتراق والتي تعطي الكمية نفسها من ثنائي أكسيد الكربون. وقد حصلا على نتائج دقيقة لدرجة جعلتهما يستنتجان أن التنفس نوع من الاحتراق. ومع أن البحث التجريبي مهم إلا أن تفسير لافوازييه لطبيعة الضوء والحرارة قد بدأ مفتعلاً. ففي حين كان لابلاس يفضل التفسير الميكانيكي للحرارة، على أنها حركة جسيمات المادة- كما نعرفها اليوم- إلا أن لافوازييه كان يصف الحرارة بأنها مادة. وقد أطلق عليها اسم "سعري" أو كالوري، أو مادة النار، ووصفها بأنها عديمة الوزن وهو التفسير الذي جعل من الحرارة إحدى صور الفلوجيستون، كما وجدنا ذلك سابقًا. لكن على عكس الفلوجيستون، كان لافوازييه قادرًا على قياس مادة النار كميًا، لكنه لم يستطع أن يفصل بشكل واضح بين الحرارة والضوء، وكان وصفه للضوء غير كمي[١٤٥].

١٦/٣-يوليوس ماير (القرن ١٩م)

نظرًا لكون يوليوس ماير طبيبًا في الأصل، فقد كان الدافع الذي حثّ ماير للوصول إلى (مبدأ حفظ أو مصونية الطاقة) هو احمرار الدم المدهش عند البحارة الجدد الذين قام بفحصهم على متن المركب التجاري الذي كان يعمل عليه؛ ووجد أن ذلك ناجم عن حرارة الإقليم الاستوائي، حيث إن معدل الاستقلاب (الأيض) يساعد على إبقاء درجة حرارة الجسم على حالها في الطقس الحار، مما يعني أن كمية الأكسجين التي يجب أخذها من الدم الشرياني الأحمر هي أقل. وقد وجد ماير أن مصدر الحرارة لدى الحيوان هي أكسدة الطعام، وتوصل إلى أنه يمكن تقدير كمية الطاقة الكيميائية الكامنة في الطعام من خلال كمية الحرارة الناتجة عن أكسدة هذا الطعام. وقد اعتقد بأن قوة العضلة وحرارة الجسم تستمدان من الطاقة الكيميائية الموجودة في الطعام، وطالما أن صرف الطاقة والتزود بها متعادل لدى الكائن الحي فلابد من وجود مبدأ حفظ الطاقة[١٤٦] energy conservation الذي ينص على الطاقة لا تخلق من العدم ولا تفنى وإنما تتحول من شكلٍ لآخر.

خاتِمَةٌ

لقد كُشِفَ أخيرًا للبشرية -بعد كل تلك الجهود الجبارة للعلماء والباحثين-أنّ الأكسجين هو العنصر الرئيس لعمليتي الاحتراق والتنفس، وبات سبب توليد الحرارة الناتج عن العمليتين السابقتين مفهومًا، وعندما نفهم ظاهرة يعني أنه يمكننا السيطرة والتحكم بها. إذْ بعد الكشف عن الأكسجين بوصفه عنصر مهم في عملية الاحتراق العادية، تمكن علماء الأحياء الأوربيين من وضع تفسير للحرارة التي تنتج عن الأجسام الحية، وقد وجد الباحث و. هـ. أوليريW. H. O'Leary بأنه توجد ثلاثة مصادر كبيرة تشتق المواد المؤكسدة التي تنتجها حرارة الحيوان:

- أولاً: أنواع الطعام المولدة للحرارة والدهون، والتي تستوعبها القناة المعوية.
- ثانيًا: المادة المتحللة المشتقة من النسج العضلية ونسج أخرى نتيجة نشاط.
- ثالثًا: المواد المولدة للحرارة مختزنة في النظام الحي أي المادة الدهنية وغيرها.

وبعد عددٍ من التجارب المفصلة في هذا التقرير مال أوليري إلى الإثبات بشكل حاسِم بأن إنتاج حرارة الحيوان يتم بأكسدة المواد المذكورة أعلاه، منجزةً ذلك في الدورة الدموية، وليس في الأنسجة، أي أنها تنتج بشكل رئيس في النظام الشرياني وتبدأ من لحظة تلقي الأوكسجين في الرئتين. هذا التأثير يحدث أيضًا في الأوردة، لكن بدرجة أقل بكثير، حيث إنّ الحرارة الضرورية للحفاظ على الأنسجة العضلية والأنسجة الأخرى بدرجة حرارة طبيعية مستمد من عبور الدم الشرياني خلالها، وليس من أي أكسدة تحدث في أنسجتها الصحيحة[١٤٧].

نتائج الدراسة

أما ما يتعلق بإسهامات العلماء العرب والمسلمين في نظرية الاحتراق والتنفس فإننا نجملها فيما يأتي:

١- لا يوجد حتى الآن أيّ دليل يؤكد توصل الإمام جعفر الصادق إلى العنصر المانح للحياة، أي الأكسجين، والذي له دور في عملية الاحتراق والتنفس.

٢- أجرى جابر بن حيان تعديلاً حقيقيًا على نظرية أرسطو (العناصر الأربعة) في تشكل المواد، فاعتبر عنصر (الكبريت الافتراضي) ونسبه المتفاوتة في أي مادة هو ما يجعلها قابلة للاحتراق. هذا الاقتراح سيأخذه العلماء الأوربيون

فيما بعد ويعتمدوه حتى القرن ١٨م، إلى حين ظهور نظريات بديلة (الفلوجستون والسيال الحراري).

٣- ظهرت أول إشارة نظرية لدور الهواء في عملية الاحتراق عند أبو بكر الرازي في القرن العاشر الميلادي. وقد لحقه في هذا الاتجاه الفارابي.

٤- قد يكون ابن الحائك الهمداني أول عالم عربي يقدم لنا دليل تجريبي علمي على وجود علاقة بين الهواء الجوي وعملية الاحتراق، قبل ظهور أي نظرية مماثلة في أوربا بنحو ستة قرون.

٥- لاحظ محمد التميمي تشابهًا كبيرًا بين عملية احتراق الأجسام وعملية التنفس. وقد فصّل في هذا التشابه كثيرًا ابن سينا بعد ذلك.



صورة رقم (٢)

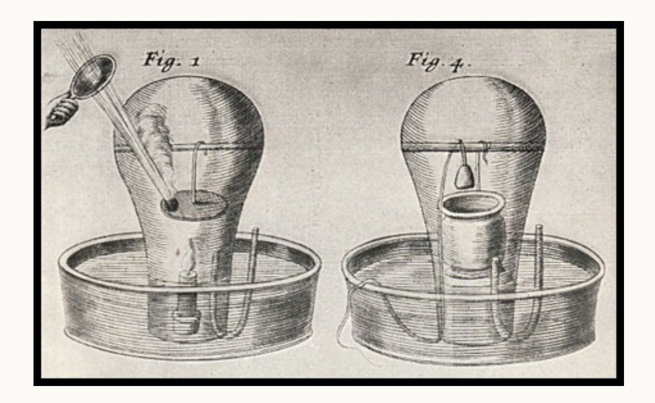
الصفحات التي وردت فيها أفكار الهمداني في الاحتراق[١٤٨]

الملاحق



صورة رقم (١)

أراد الهمداني أن يقدم دليلاً تجريبيًا على أن الهواء يقوم بدور مهم في عملية الاحتراق، فافترض إشعال سراج بفتيل جديد، ثم وضع وعاء مقلوب عليه، بحيث يكون فم الوعاء للأسفل ومغلق بإحكام من أسفله فلا يمرر أي نسمة هواء للداخل، عندها لن يستمر السراج بالاشتعال طويلاً، وإنما سينطفئ. هذه التجربة سبق بها أعضاء الجمعية الملكية البريطانية (الفيزيائيان روبرت بويل وروبرت هوك والطبيب ريتشارد لوير (R. Lower (١٦٣١-١٦٩١م) بأكثر من ٧٠٠ سنة، عندما أجروا تجاربهم على شمعة وفأر، حيث انطفأت الشمعة ونفق الفأر



صورة رقم (٣)

ليثبت مايو صحة فرضيته أن جزءًا من الهواء فقط وليس كله يدخل في عمليتي الاحتراق والتنفس؛ قام بتنكيس وعاء زجاجي فوق شمعة أو فوق حيوان جاثم على قاعدة في حوض به ماء، وساوى بين مستوى الماء داخل وخارج الوعاء الزجاجي بواسطة سيفون، ثم أخذ يلاحظ ارتفاع مستوى الماء داخل الوعاء مع استمرار اشتعال الشمعة أو تنفس الحيوان القارض. ولأن جزءًا من الهواء كان يتبقى عندما تنطفئ الشمعة أو ينفق الحيوان؛ فقد عرف أن هذا النوع الثاني من الهواء لا يساعد على الاحتراق أو التنفس.

الاحالات المرجعية:

(١) **الموسوعة العربية العالمية**، مدخل "الاحتراق"، مؤسسة أعمال الموسوعة، الرياض، ٢٠٠٤م.

(٢) يوجد أنواع أخرى يحدث فيها الاحتراق دون الحاجة للهواء أو الأكسجين مثل التسخين الكهربائي الذي يعتمد على وجود ملفات أو وشائع تسخين يمكنها أن تعمل في ظل ظروف عديمة الهواء.

(٣) الدمرداش، أحمد سعيد، **علم الفيزيقا عند العرب**، بحث منشور ضمن موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ط١، ج١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٥م. ص ٣٧٧.

(4) Merton, E. S., Sir Thomas Browne's Theories of Respiration and Combustion, Osiris, Vol. 10 (1952), pp. 209.

(٥) كوب، كاتي وايت، هارولد جولد، **إبداعات النار**، ترجمة: فتح الله الشيخ، ط١، سلسلة عالم المعرفة، رقم ٢٦٦، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠١م، ص ١٣٥.

(٦)الشكيل، علي جمعان، **الكيمياء في الحضارة الإسلامية**، ط١، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٩م. ص ١٠٢.

(٧) بدوي، عبد الرحمن، **شروح على أرسطو مفقودة في اليونانية (ورسائل أخرى)**، ص ١٦٤.

(٨) المرجع السابق نفسه، ص ١٨٤.

(٩) هكذا كانت مكتوبةً في النص المحقق لبدوي. وحاولت معرفة هذا الحجر بعد عملية بحث عنه ولم أتمكن من معرفته.

(١٠) بدوي، عبد الرحمن، **شروح على أرسطو مفقودة في اليونانية (ورسائل أخرى)**، ص ١٨٤.

(١١) ابن رشد، أبو الوليد، **تلخيص الآثار العلوية**، تحقيق: جمال الدين العلوي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤م. ص ١٩١.

(١٢) المرجع السابق نفسه، ص ٢٠٤.

(13) Merton, E. S., Sir Thomas Browne's Theories of Respiration and Combustion, p. 210.

(14) Ibid, p. 209.

(١٥) جماعة من السوفييت، **موجز تاريخ الفلسفة**، ترجمة: توفيق سلوم، ط١، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٩م. ص ٧٩-٨٠.

(١٦) لم نتمكن من معرفة هذين الشخصين.

(١٧) بلينوس الحكيم، **سر الخليقة وصنعة الطبيعة**، تحقيق: أورسولا وإيسر، معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، حلب، ١٩٧٩م. ص ٤٦٨.

(١٨) المفيدروس، **تفسير كتاب أرسطوطاليس في الآثار العلوية**، نقل حنين بن إسحق وإصلاح إسحق بن حنين، عن كتاب شروح على أرسطو مفقودة في اليونانية ورسائل أخرى، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار المشرق، بيروت، ١٩٦٨م. ص ١٧٠.

(١٩) نيدهام، جوزيف، **موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين**، ترجمة: محمود غريب جودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م. ص ٢٧٢.

(٢٠) ابن فارس، أحمد بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، **معجم مقاييس اللغة**، ج٢، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م. ص ٤٣.

(٢١) الخوارزمي، **مفاتيح العلوم**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٨م. ص ٢٣٢.

(٢٢) البيروني، أبو الريحان، **القانون المسعودي في الهيئة والنجوم**، ج٣، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن بالهند، ١٩٠٤م. ص ١١٢٧.

(٢٣) الجلدكي، أيدمر، **البرهان في أسرار علم الميزان**، ج٣، مخطوطة في الخزانة التركية وزارة الأوقاف، رقم (٨٢٨)، ص ١٨٥.

(٢٤) **الإمام جعفر الصادق في نظر علماء الغرب**، ترجمة: نور الدين آل علي، دار الفاضل، دمشق، ١٩٩٥م، ص ١٢٢.

(٢٥) المرجع السابق نفسه، ص ١٢٣.

(٢٦) سزكين، فؤاد، **تاريخ التراث العربي (السيمياء والكيمياء والنبات والفلاحة)**، ج٤، ترجمة: عبد الله حجازي، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٨٦م. ص١٩٢.

(٢٧) المرجع السابق نفسه، ص١٩٤.

(٢٨) صبحي، أحمد محمود، **وحملها الإنسان: مقالات فلسفية**، ط١، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٧م، ص ١٦.

(٢٩) الشكيل، علي جمعان، **الكيمياء في الحضارة الإسلامية**، ص ١٠٤.

(٣٠) هيل، دونالد، **العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية**، ص١١٦.

(٣١) الشكيل، علي جمعان، **الكيمياء في الحضارة الإسلامية**، ص ١٠٤.

(٣٢) الخالدي، روحي، **الكيمياء عند العرب**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٤م، ص ٥٢.

(٣٣) الشكيل، علي جمعان، **الكيمياء في الحضارة الإسلامية**، ص ١٠٥.

(٣٤) محمود، زكي نجيب، **جابر بن حيان**، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٦١م. ص ٢٢٥.

(٣٥) الشكيل، علي جمعان، **الكيمياء في الحضارة الإسلامية**، ص ١٠٥-١٠٦.

(٣٦)المرجع السابق نفسه، ص ١٠٦.

(٣٧) جابر بن حيان، **كتاب الإحراق**، مخطوط محفوظ في مكتبة شستربيتي، إيرلندا، دبلن، مجموع رقم (٣٢٣١) م.ك. مج٢، ص ١٩و.

(٣٨) هو نفسه عنصر الزِّنْك أو التُّوتِياء.

(٣٩) بربوتي، محمود مهدي، **المنهج البحثي لدى الكيميائيين العرب الأوائل**، مجلة المجمع العلمي في بغداد، العدد٢، المجلد٥٢، بغداد، ٢٠٠٥م. ص ٤٤.

(٤٠) كان يقول فيها إن الحرارة تكمن في الحجر، فإذا قُدح حجر بحجر آخر خرجت النار.

(٤١) إس، فان، **الكلام والطبيعة عند أبي إسحاق النظام**، مجلة المؤرخ العربي، العدد١٩، تصدر عن الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد، ١٩٨١م. ص ٣٧.

(٤٢) الجاحظ، عمرو بن بحر، **الحيوان**، تحقيق: عبد السلام هارون، ج٥، ص ٢٠-٢١.

(٤٣) الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا، **رسائل فلسفية**، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، ط٥، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٢م. ص ١٧٣.

(٤٤) المرجع السابق نفسه، ص ٢٢١-٢٢٢.

(٤٥) جاء في **لسان العرب**: "العُشَرُ: شَجَرٌ لَهُ صَمْغٌ وَفِيه حُرّاقٌ مِثْلُ الْقُطْن يُقْتَدَح بِه. قَالَ أَبو حَنِيفَةَ: العُشَر مِن العِضاه وَهُوَ مِنْ كِبَارِ الشَّجَر، وَلَهُ صَمْغٌ حُلْوٌ، وَهُوَ عَرِيضُ الْوَرَق يَنْبُتُ صُعُدًا فِي السَّمَاءِ، وَلَهُ سُكّر يَخْرُجُ مِنْ شُعَبِه وَمَوَاضِع زَهْره، يُقَالُ لَهُ سُكّرُ العُشَر، وَفِي سُكّرِه شيءٌ مِنْ مَرَارَة، وَيَخْرُجُ لَهُ نُفّاخٌ كَأَنها شَقاشِقُ الْجِمَالِ الَّتِي تَهْدِرُ فِيهَا، وَلَهُ نَوْرٌ مِثْلُ نَوِرِ الدِّفْلى مُشْرَبٌ مُشرِق حَسَنُ المنظَر وَلَهُ ثمَرٌ"، ج٤، ص ٥٧٤.

(٤٦) يقصد القطن.
(٤٧) "الْحَلْفَاءُ نَبَاتٌ حَمْلُه قصَبُ النُّشَّابِ. قَالَ الأَزهري: الحَلْفَاء نَبْتٌ أَطْرافُه مُحَدَّدةٌ كأَنها أَطْرافُ سَعَفِ النَّخْلِ وَالْخُوصِ"، **لسان العرب**، ج٩، ص ٥١.
(٤٨) "اليراعُ فَراشةٌ إِذَا طارَتْ فِي اللَّيْلِ، لَمْ يَشُكَّ مَن لَمْ يَعْرِفْها أَنَّها شَرَرةٌ طارَتْ عَنْ نارٍ"، **لسان العرب**، ج١، ص ٢٩٧.
(٤٩) يقصد البقايا.
(٥٠) يقصد الحطب اليابس.
(٥١) "**الدَّوْحَةُ**: الشَّجَرَةُ الْعَظِيمَةُ الْمُتَّسِعَةُ مِنْ أَيِّ الشَّجَرِ كَانَتْ"، **لسان العرب**، ج٢، ص ٤٣٦.
(٥٢) يقصد تصبح زهرة.
(٥٣) الرصاص الأبيض تحديدًا.
(٥٤) "المرتك فارسي معرّب. وفي القاموس: المرتَك: المُرْدَاسَنجُ. وأراد الآنك أي الرصاص أسودَه أو أبيضَه" لسان العرب، ج١٠، ص ٤٨٦.
(٥٥) الهمداني، الحسن بن أحمد، **كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء (الذهب والفضة)**، تحقيق: أحمد فؤاد باشا، ط١، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٩م. ص ٨٨.
(٥٦) الهمداني، **الإكليل**، ج٨، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، دمشق، ١٩٧٩م، ص ٢١٣-٢١٨.
(٥٧) الهمداني، الحسن بن أحمد، كتاب **الإكليل**، ج٨، مخطوطة في مكتبة جامعة برنستون، رقم (oct382)، ص ٦١.
(٥٨) " السَّلِيطُ عِنْدَ عَامَّةِ الْعَرَبِ الزيْتُ، وَعِنْدَ أَهل الْيَمَن دُهْنُ السِّمْسِم"، لسان العرب، ج٧، ص٣٢٠.
(٥٩) "**الذُّبَالَةُ**: الفَتِيلة الَّتِي تُسْرَج"، **لسان العرب**، ج١١، ص ٢٥١.
(٦٠) المرجع السابق نفسه، ص ٦١-٦٢.
(٦١) مصدر الشكل: من رسم المؤلف.
(٦٢) يقصد مُلئت نارًا.
(٦٣) يقصد بالتهر هنا الرمل.
(٦٤) المرجع السابق نفسه، ص ٦١-٦٢.
(٦٥) **الفارابي، رسالتان فلسفيتان**، حققه: جعفر آل ياسين، ط١، دار المناهل، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٥٢-٥٣.
(٦٦) التميمي، محمد، **مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء**، تحقيق: يحيى شعار، ط١، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٩٩م. ص ١٢٨-١٢٩.
(٦٧) ابن سينا، **القانون في الطب**، ج٣، تحقيق: إدوارد القش وعليّ زيعور، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٣م. ص ١١٢٦.
(٦٨) ابن سينا، **القانون في الطب**، ج١، وضع حواشيه محمد أمين الضناوي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م. ص ١١٣-١١٤.
(٦٩) **ابن حزم** الأندلسي، **رسائل ابن حزم**، تحقيق: إحسان عباس، ط١، ج٤، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٣٠٤.
(٧٠) انظر تفصيل المعنى الميكانيكي لمصطلح (الميل) في كتابنا (تاريخ علم الميكانيك)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٦م، ص ٣٦٢ وما بعد.
(٧١) ابن مثويه، الحسن، **التذكرة في أحكام الجواهر والأعراض**، تحقيق: سامر نصر لطف، فيصل بدير عون، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٥م. ص ٣٠٥.
(٧٢) المرجع السابق نفسه، ص ٣٠٥-٣٠٦.
(٧٣) الطغرائي، مؤيد الدين، م**خطوطة مفاتيح الرحمة وأسرار الحكمة، مخطوطة مفاتيح الرحمة وأسرار الحكمة**، ج٢، مكتبة الكونغرس، CALL NUMBERS (LC Class No.): QD25 .T847 1700z ص ٣٨b-٣٩و.
(٧٤) ابن باجة، **كتاب النفس**، تحقيق: محمد صغير حسن المعصومي، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢م. ص٥٤-٥٥.
(٧٥) ابن ملكا البغدادي، **المعتبر في الحكمة**، ط١، طبعة حيدر آباد الدكن، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، ١٩٣٩م. ص ١٨٢.
(٧٦) فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)**، ج١، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٩م، ص ٣٩-٤٠.
(٧٧) الإيجي، عضد الدين، **كتاب المواقف في علم الكلام**، تحقيق: عبد الرحمن عميرة ط١، ج١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٧م. ص ٥٩٢.
(٧٨) المرجع السابق نفسه، ص ٥٩٨.
(٧٩) المرجع السابق نفسه، ص ٥٩٩.
(٨٠) المرجع السابق نفسه، ص ٥٩٩.
(٨١) التفتازاني، سعد الدين، **شرح المقاصد في علم الكلام**، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب، ط٢، بيروت، ١٩٩٨م. ص ٢٣١.
(٨٢) المرجع السابق نفسه، ص ٢٣٣.
(٨٣) كوب، كاتي ووايت، هارولد جولد، **إبداعات النار**، ص ١٣٥.
(٨٤) المرجع السابق نفسه، ص ١٣٦.
(٨٥) المرجع السابق نفسه، ص ١٣٥.
(٨٦) Barnett, Martin K., The Development of Thermometry and the Temperature Concept, Osiris, Vol. 12 (1956), The University of Chicago Press on behalf of The History of Science Society, p. 313.
(٨٧) جاليليو جاليلي، **اكتشافات وآراء جاليليو**، ص ٣٠٦-٣٠٧.
(88) Merton, E. S., Sir Thomas Browne's Theories of Respiration and Combustion, p. 207-208.
(٨٩) اقتبس ذلك مايو من فوستر في كتابه (النابض ووزن الهواء) عام ١٦٦٠م، والذي وصفه أيضًا بتأثير الماء القوي على برادة الحديد، حيث إن هذا التأثير يولد "الهواء" وهذا حسب رأيه.
(٩٠) Ibid, p. 212.
(٩١) ديكارت، رينييه، **العالم أو كتاب النور**، ط١، ترجمة: إميل خوري، دار المنتخب العربي، بيروت، ١٩٩٩م. ص ٦٠.
(٩٢) المرجع السابق نفسه، ص ٦١.
(٩٣) المرجع السابق نفسه، ص ٦٢.
(٩٤) مطلب، محمد عبد اللطيف، **تأريخ علوم الطبيعة**، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، ١٩٧٨م. ص٢١٩.
(٩٥) بول، فيليب، العناصر، **مقدمة قصيرة جدًا**، ترجمة: أحمد شكل، مؤسسة هنداوي للثقافة والتعليم، القاهرة، ٢٠١٦م، ص ٣٥.
(٩٦) كوب، كاتي ووايت، هارولد جولد، **إبداعات النار**، ص ١٣٧.
(97) Merton, E. S., Sir Thomas Browne's Theories of Respiration and Combustion, p. 212.
(٩٨) مصدر التعليق من: كوب، كاتي ووايت، هارولد جولد، **إبداعات النار**، ص ١٣٦-١٣٧. أما مصدر الصورة فهو: commons.wikimedia.org
(99) Merton, E. S., Sir Thomas Browne's Theories of Respiration and Combustion, p. 213.

(١٠٠) اشتق الاسم من اليونانية القديمة فلوجيستون (γοσιότόν) التي تعني (حرق)، أو من فلوكس φλόξ التي تعني (اللهب). أما في العربية فقد ترجم إلى (اللاهوب).
(١٠١) وهي عملية تسخين معدن تحت لهب شديد يخلف على إثرها مادة هشة مبيضة أو كلس.
(١٠٢) كوب، كاتي ووايت، هارولد جولد، إبداعات النار، ص ١٣٨.
(١٠٣) بول، فيليب، العناصر، ص ٣٣.
(١٠٤) كوب، كاتي ووايت، هارولد جولد، إبداعات النار، ص ١٣٠-١٣١.
(١٠٥) المرجع السابق نفسه، ص ١٣١.
(106) Merton, E. S., Sir Thomas Browne's Theories of Respiration and Combustion, p. ٢١٠, 213.
(107) Barnett, Martin K., The Development of Thermometry and the Temperature Concept, p. 314.
(١٠٨) مطلب، محمد عبد اللطيف، **تأريخ علوم الطبيعة**، ص ٢١٩.
(١٠٩) كوب، كاتي ووايت، هارولد جولد، **إبداعات النار**، ص ١٣١.
(١١٠) Merton, E. S., Sir Thomas Browne's Theories of Respiration and Combustion, p.٢١١.
(١١١) جونسون، جورج، **أجمل عشر تجارب على الإطلاق**، ترجمة: طارق عليان، ط١، هيئة أبو ظبي للسياح والثقافة مشروع كلمة، أبو ظبي، ٢٠١٤م، ص ٧٥.
(١١٢) فوربس، ر.ج.، وديكستر، إ.ج.، **تاريخ العلم والتكنولوجيا**، ط٢، ج١، ترجمة: أسامة أمين الخولي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م. ص ٢١٩.
(١١٣) مطلب، محمد عبد اللطيف، **تأريخ علوم الطبيعة**، ص ٢٤٩.
(١١٤) فوربس، ر.ج.، وديكستر، إ.ج.، **تاريخ العلم والتكنولوجيا**، ج١، ص ٢١٩.
(١١٥) **الموسوعة العربية العالمية**، مدخل" الكيمياء".
(١١٦) فوربس، ر.ج.، وديكستر، إ.ج.، **تاريخ العلم والتكنولوجيا**، ج١، ص ٢١٩.
(١١٧) جونسون، جورج، **أجمل عشر تجارب على الإطلاق**، ص ٧٧.
(١١٨) كوب، كاتي ووايت، هارولد جولد، **إبداعات النار**، ص ١٦٣.
(١١٩) أسيموف، إسحق، **أفكار العلم العظيمة**، ترجمة: هاشم أحمد محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م. ص ٥٣.
(١٢٠) بول، فيليب، العناصر، ص٣١.
(١٢١) المرجع السابق نفسه، ص ٣٤.
(١٢٢) أسيموف، إسحق، **أفكار العلم العظيمة**، ص ٥٤.
(١٢٣) المرجع السابق نفسه، ص ٥٥.
(١٢٤) كوهن، س. توماس، **بنية الثورات العلمية**، ط١، ترجمة: علي نعمة، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٦م. ص ١٠٢.
(١٢٥) فوربس، ر.ج.، وديكستر، إ.ج.، **تاريخ العلم والتكنولوجيا**، ج١، ص ٢٢٢.
(١٢٦) يقصد أنه يشبه بخصائصه خصائص إله البحر الصغير بروتيوس Proteus الذي لديه قدرة على التنبؤ، لكنه يتخذ أشكالاً متعددة حتى يتجنب الإجابة على الأسئلة. عن: en.wikipedia.org/wiki/List of Greek mythological
(١٢٧) بول، فيليب، العناصر، ص ٣٧.
(١٢٨) Samursky, Shmuel, Physical Thought, p. 21.
(١٢٩) لقد ساعد كل من بيرثيلو وفور كروي ودي مورفيه وغيرهم على إرساء فكرة لافوازيه واستقرار نظريته في المجتمع العلمي.
(١٣٠) كوب، كاتي ووايت، هارولد جولد، **إبداعات النار**، ص ١٨٠.
(١٣١) فوربس، ر.ج.، وديكستر، إ.ج.، **تاريخ العلم والتكنولوجيا**، ج١، ص ٢٢٣.
(١٣٢) بول، فيليب، **العناصر**، ص ٣٧.
(١٣٣) معروف أن لافوازيه لاقى مصيرًا مأساويًا بقطع رأسه بالمقصلة، بعد الثورة الفرنسية، لكن المفارقة أن الكونت رومفورد يتزوج أرملته، والأخير هو الذي أخرج فكرة السائل الحراري من الفيزياء بعد أن أدخلها لافوازييه. انظر: **في سبيل موسوعة علمية**، ط٦، أحمد زكي، دار الشروق، ١٩٩٤م. ص٤٠٤.
(١٣٤) بول، فيليب، **العناصر**، ص ٣٨.
(١٣٥) **الموسوعة العربية العالمية**، مدخل" الكيمياء".
(١٣٦) فوربس، ر.ج.، وديكستر، إ.ج.، **تاريخ العلم والتكنولوجيا**، ج١، ص ٢٢١.
(١٣٧) جونسون، جورج، **أجمل عشر تجارب على الإطلاق**، ص ٨٣.
(١٣٨) الذي توصل إليه قبل عام ١٧٧٣م وإن لم ينشر إلا سنة ١٧٧٥م. وقد قال شيله: "لقد تيقنت بسرعة أنه من غير الممكن أن أكوّن فكرةً عن ظاهرة النار مادمت لا أفهم الهواء". كوب، كاتي ووايت، هارولد جولد، إبداعات النار، ص ١٤٨.
(١٣٩) فوربس، ر.ج.، وديكستر، إ.ج.، **تاريخ العلم والتكنولوجيا**، ج١، ص ٢٢٠.
(١٤٠) كان يعد إجراء التجارب على هذه المادة يماثل تلك التي تجرى على الألماس. حيث أن مادة كلس الزئبق غالية الثمن فالأونصة الواحدة منها كان ثمنها ١٨ ليرة فرنسية وأكثر (حوالي ١٠٠٠ دولار اليوم).
(١٤١) جونسون، جورج، **أجمل عشر تجارب على الإطلاق**، ص ٨٢-٨٣.
(١٤٢) المرجع السابق نفسه، ص ٨٧-٨٨.
(١٤٣) بول، فيليب، العناصر، ص٣١.
(١٤٤) لم تكن الخنازير فقط ما كان يستخدمه لافوازييه في تجاربه على التنفس، بل كان يستخدم مساعده أرماند سيغوين، حيث كان لافوازييه يدخل سيغوين في كيس حريري مدهون بالورنيش ووضع قناعًا من النحاس الأصفر على وجهه ليتمكن من تنفس الأكسجين من مستودع له وإخراج هواء الزفير وحده بحيث يتمكن لافوازييه من جمعه. انظر: كوب، كاتي ووايت، هارولد جولد، **إبداعات النار**، ص١٨٢.
(١٤٥) كوب، كاتي ووايت، هارولد جولد، **إبداعات النار**، ص ١٧٤-١٧٥.
(١٤٦) موتز، لويد وويفر، جيفرسون هين، **قصة الفيزياء**، ترجمة: طاهر تربدار، وائل الأتاسي، ط١، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٤م. ص ١٦٦-١٦٧.
(147) O'Leary, W. H., On Animal Heat, Proceedings of the Royal Irish Academy (1836-1869), Vol. 10 (1866 - 1869), pp. 65-66.
(١٤٨) مصدر الصورة: الهمداني، الحسن بن أحمد، **كتاب الإكليل**، ج٨، مخطوطة في مكتبة جامعة برنستون، رقم (oct382)، ص ٦١-٦٢.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

حادثة الحرة في المدينة المنورة سنة ٦٣هـ
دراسة مقارنة في النصوص التاريخية



نكتل يوسف محسن

مدرس مساعد التاريخ الإسلامي

دائرة التعليم الديني والدراسات الإسلامية

الموصل – جمهورية العراق

مُلَخّصْ

يتناول هذا البحث (حادثة الحرة) في السنة ٦٣هـ وهي من الحوادث المهمة في تاريخ صدر الإسلام، والتي كان لها تداعيات كبيرة على المستوى السياسي والاجتماعي للدولة الأموية، يمثل البحث عن الحقيقة؛ والتنقيب في الروايات التاريخية؛ والوصول إلى أقرب حد من الحقيقة، أبرز غايات البحث عن هذا الموضوع، فضلاً عن تغطية حادثة مهمة في التاريخ السياسي وأبعادها الاجتماعية والاقتصادية. منهجيًا تم استخدم المنهج النقدي التاريخي والذي يتمثل بنقد المتن وفق ما يتفق والمسار التاريخي للحوادث التاريخية، ونقد السند وفق علم الجرح والتعديل للوصول إلى الرواية الصحيحة الصادقة متنًا وسندًا والتي يمكن التعويل عليها في فهم أبعاد الحادثة ونتائجها، إذ لعبت الروايات الضعيفة والموضوعة بصورة كبيرة في رسم معالم هذه الحادثة. لقد شغل عصر صدر الإسلام نطاق البحث وحيثياته، إذ كان مطلع العصر الأموي وخلافة يزيد بن معاوية هو التاريخ الدقيق لهذه الحادثة، في حين كانت المدينة المنورة مسرح الحدث وميدانه. لقد كان من أسباب ثورة أهل المدينة على يزيد وخلعه، أن أرسل لهم جيشًا انتصر عليهم وأسقط منهم قتلى، واستباح المدينة ثلاثة أيام، وقد بالغوا في عدد القتلى وقدروا عددهم بالآلف ولكن ذلك لم يثبت، وأصبحت هذه الحادثة علامة سلبية في تاريخ الدولة الأموية استغلها أعداءها للدعاية المضادة لهم.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٣	فبراير	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٢١	مارس	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

السلطة الأموية؛ الجيش الشامي؛ الصحابة؛ المدينة المنورة؛ التاريخ الإسلامي

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2021.231322 DOI

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

نكتل يوسف محسن. "حادثة الحرة في المدينة المنورة سنة ٦٣هـ: دراسة مقارنة في النصوص التاريخية".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثاني والخمسون؛ يونيو ٢٠٢١. ص ٨٣ – ٩٠.

Corresponding author: yuirtey@gmail.com

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقدِّمَةُ

ليس من السهل على الباحث في المواضيع التي تحمل: ذكرى مؤلمة؛ أو فاجعة عظيمة؛ أو انتهاك صارخ للحرمات، الوصول إلى حكم قريب من الحقيقة، إذ أن مثل هذه الحوادث تخضع للكثير من الظروف التي تؤثر على طبيعة نقل الخبر ومصدقيته إن صح التعبير، فعِظم المصاب بهؤلاء الكرام يجعل الناقل للخبر يضاعف عدد القتلى وحيثيات الاقتحام، كما أن الجهات المعادية للسلطة الأموية آنذاك تستخدم مثل هذه الحوادث للدعاية والترويج لها عبر ذم منافسيها وتضخيم أخطائهم، فضلاً على أن المؤيدون لهذه السلطة يحاولون تخفيف الأمر بطريقة لا تتناسب مع حجم الحادثة وحيثياتها، وأخيرًا يدلوا المخالفون للمسلمين من شعوبيون ومعادون بدلوهم في هذا المجال لإظهار التاريخ الإسلامي أنه قاتم اللون أحمر الدِلالة ليس فيه فسحة أمل أو محطة فخر.

ومن هنا جاء السبب في اختياري لموضع البحث الموسوم: (حادثة الحرة في المدينة المنورة سنة ٦٣ هـ دراسة مقارِنة في النصوص التاريخية)، للوقوف على الأسباب الحقيقة التي استترت حول ما أعلن عنه من أسباب، والأحداث التي تمخضت عنها الحادثة، فضلاً عن النتائج التي ترتبت على الحادثة، في ظل المنهج العلمي ومقتضيات الصواب والمنطق، كما أن الروايات قد ضمت مبالغات وضعف إن لم نقل افتراءات سيقت كحلقات في سلسلة الواقعة، لذا تطلب تحري الدقة وفحص النصوص الواردة في الحادثة.

منهجيًا تم تقسيم البحث إلى أربعة مباحث: إذ تكلم المبحث الأول عن أسباب حادثة الحرة، حيث سبقه الحديث عن الحرة في اللغة والاصطلاح، أما المبحث الثاني: فتضمن بدوره من مطلبين، الأول: موقف يزيد من مخالفي أهل المدينة، أما الثاني فوصف حيثيات المعركة بين الطرفين، أما المبحث الثالث فكُرس لدارسة اقتحام المدينة في مطلبه الأول، ونتائج الالتحام من حيث عدد القتلى والروايات التي دارت في هذا الفلك في المطلب الثاني، أما المطلب الأخير فتكلم عن أسباب الهزيمة.

لقد سبقت هذه الدراسة دراسات قديمة ركزت على جانب معين ولم تشمل الجوانب الأخرى مما يتطلب تحري الدقة والموضعية في تلك الكتابات، فالطبري في تاريخ الرسل والملوك وبالرغم من غزارة ما ذكر عن الحادثة، ولكن القارئ يجد في وصفه حلقات مفقودة لعل من أبرزها عدد الجيش وعدد القتلى وتحديد مكان المعركة، أما اليعقوبي والمسعودي فقد افتقر حديثهما للسند والموضوعية في الطرح بالرغم من القيمة العلمية التي حوته كتابتهما، أما كتابات الواقدي ففضلاً عن الضعف التي امتاز به الواقدي، فقد أمست المبالغات في الأحداث سمة بارزة في كتاباته، فضلاً عن الدراسات القديمة فقد وجدت الدراسات الحديثة التي تكلمت عن الحادثة وحيثياتها، وقعة الحرة للأستاذ عمر العقيلي والذي ركز على الجانب الاقتصادي في تحريك الأحداث، وان كُنا نرى أن السبب الاقتصادي مهما في تحريك الأحداث ولكنه ليس الوحيد في نشوب الثورة.

أولاً: أسباب حادثة الحرة

١/١-الحرة بين اللغة والاصطلاح والموقع

تأخذ الحرة اسمها لغة من الحر وهو ضد البرد، لعلها بسبب طبيعة تكوينها من البراكين وإفرازاتها، أما في الاصطلاح فهي: أَرض ذَاتُ حِجَارَةٍ سُودٍ نَخِرَةٌ كأَنما أُحرقت بِالنَّارِ[١]، وقد جرى ذكر الحِرار في الاحاديث النبوية مجرى الماء في ارض النهر كثرة واستفاضة، أذ أثر عن النبي أنه قال: اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدَكَ وَرَسُولَكَ حَرَّمَ مَكَّةَ، اللَّهُمَّ وَإِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لَابَتَيِ الْمَدِينَةِ...[٢]، وقد أشار بعض المحدثين إلى (حرة زهرة وهي جزء من حرة واقم الشرقية) التي حصلت فيها الواقعة عن لسان النبي (ﷺ)، إذ ذكر البيهقي في دلائل النبوة، أن رسول الله خرج في سفر من أسفاره فلما مر بحرة زهرة وقف فاسترجع فساء ذلك من معه وظنوا أن ذلك من أمر سفرهم فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله ما الذي رأيت فقال رسول الله أما إن ذلك ليس من سفركم هذا قالوا فما هو يا رسول الله قال يقتل بهذه الحرة خيار أمتي بعد أصحابي[٣]، بيد أن الحديث من المراسيل منقطع السند بين التابعي والنبي بسقوط اسم الصحابي لا يمكن أن يحتج به في مسالة الغيبيات التي تدخل في مسائل العقيدة، مما يُبعد الشقة عن قبوله.

٢/١-أسباب الخلاف بين يزيد وأهل المدينة

لكل خلاف أسبابه التي توجب ترك الوصال والتشبث بأهداب الفِراق، وبغض النظر عن الوجهات التي قُدمت في تحديد مَنْ كان المخطأ ومَنْ أحرز الإصابة، سنحاول تقديم صورة مقربة من الحقيقة قدر الإمكان وبما توفره المصادر من نصوص.

فقد ذكر الطبري منفردًا عن اليعقوبي والمسعودي والواقدي في سند فيه أبو مخنف أن مبدأ هذا الأمر في أن عبد الله بن الزبير كتب إلى يزيد بظلم الوالي الوليد بن عتبة ونصحه باستبداله بمن هو اخفض جانبًا تحقيقًا لوحدة المسلمين ودرأ

للفتنة فأجابه يزيد بتعيين عثمان بن محمد بن أبي سفيان[٤]، أن ضعف السند وانفراد الطبري بإيراده يجعلنا نتحفظ في قبول هذا الخبر كسبب من أسباب الحادثة أو حتى كسبب في استبدال الوالي الوليد بن عتبة بعثمان بن محمد لأسباب تتعلق بسوء العلاقة بين يزيد وابن الزبير الذي لم يبايع له لا في حياة أبيه معاوية ولا حتى بعد وفاته، وتهربه الدائم من البيعة طول سنتين من حكم يزيد فكيف ينصت يزيد لرجلا مخالف له ومنافس في الوقت ذاته، ولعل يزيد طرأ على قرراه شيئًا ما جعله يتخذ هذا القرار كأن يكون التخفيف من حدة السياسة التي انتهجها الوالي السابق ومحاولة استمالة أهل الحجاز إليه.

إذ ذكر أن الوالي الجديد كان "فتى غِر حدث لم يجرب الأمور ولم يحنكه السن ولم تضرسه التجارب وكان لا يكاد ينظر في شيء من سلطانه"[٥]، وقد ذكر الطبري قائلاً: فيما ذكر له أبو مخنف[*] عن عبد الملك بن نوفل بن مساحق[*] عن حميد بن حمزة[*] مولى لبني أمية أن عثمان بن محمد أوفد إلى يزيد جمعًا من رجالات المدينة فيهم عبدالله بن حنظلة الغسيل الأنصاري وعبدالله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي والمنذر بن الزبير ورجالا كثيرا من أشراف أهل المدينة فقدموا على يزيد بن معاوية فأكرمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم ثم انصرفوا من عنده وقدموا المدينة كلهم إلا المنذر بن الزبير فإنه قدم على عبيد الله بن زياد بالبصرة وكان يزيد قد أجازه بمائة ألف درهم فلما قدم أولئك النفر المدينة قاموا فيهم فأظهروا شتم يزيد وعتبة وقالوا إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين يشرب الخمر ويعزف بالطنابير ويضرب عنده القيان ويلعب بالكلاب ويسامر الخراب والفتيان وإنا نشهدكم أنا قد خلعناه فتابعهم الناس[٦]، غير أن رواية الطبري هذه فيها أبو مخنف وهو من الضعفاء، وفيها حميد بن حمزة " مولى بني أمية" مما يعطي انطباعًا بعدم الارتياح في قبول هذه الرواية بسبب ضعف احد أفراد إسنادها، فضلاً عن كون الثاني من موالي بني أمية مما يعطي إمكانية الانحياز لمواليه ضد من عادوهم، أما المسعودي الذي ذكر نصًا بلا سند يساير منهجيته ومنهجية اليعقوبي في التدوين التاريخي إذ عزا السبب إلى الظلم والصفات "غير الملائمة" التي اتصف بها يزيد[٧]، أما اليعقوبي فخالف الاثنان وذكر أن السبب: أن احد عمال والده معاوية أراد حمل القمح والتمر من ارض الصوافي فمنعه أهل المدينة فاغلظ لهم والي المدينة بالقول فنازعوه وأخرجوه[٨]، مما يعطي صورة أن للرواية ارتباكًا واضحًا فعامل معاوية أصبح عامل يزيد بعد وفاة الأول وتولي الثاني، فضلاً على أن المعروف عن أراضي الصوافي هي: أراضي كسرى أو قيصر أو مقربيهم وما شابه وليس في المدينة من ذلك شيء، وربما يقصد القطائع؟ وحتى هذه كانت خاصة لرجال معينين كالزبير وأبو دجانة وبلال المزني، مما قد يضعف أصل السبب.

ويبدو أن للقضية أسبابًا متعددة أجرى الزمان عليه عامل التراكم ولم تقف عند سببًا فريدًا، ولعل بعض ما ذكر أنفًا من أسبابها، فبيعة يزيد بن معاوية تمت في عهد أبيه – المشهور بحلمه ومرونته – والتي استطاع من خلالها تخدير الثورة في نفوس المسلمين – إن صح التعبير - وعلى رأسهم من يرون في أنفسهم الأفضلية في الخلافة من أهل المدينة، ولكن معاوية صاحب - الحلم والرِفق - كان يطوف عليهم ويقنع ممتنعهم ويساير غاضبهم وهو على هذا حتى بايع الناس من اجل وحدة المسلمين وضرب خندقًا بينها وبين الاختلاف والفتنة هذا من جهة، ومن جهة ثانية إن الأسلوب الأخرق الذي أدار به يزيد دفه الخلافة قد أظهر الفرق بينه وبين سلفه معاوية الذي اخذ الناس بالرفق، ثم توسعت جبهة المعارضة عندما اقدم والي يزيد في الكوفة على قتل الحسين رضي الله عنه واهل بيت النبي سنة ٦١هـ واثرها في أهل المدينة[٩] ومن بعدها بروز شخصية عبد الله بن الزبير رضي الله عنه الذي تصدر لطرح اسمه للخلافة بعد قتل الحسين، وظهور نجدة بن عامر الخارجي في اليمامة بنفس التاريخ أيضًا[١٠]، أضف إلى ذلك غياب الوالي الحازم في المدينة على اعتبار أن الوالي عثمان بن محمد كان " فتى غر حدث لم يجرب الأمور ولم يحنكه السن ولم تضرسه التجارب وكان لا يكاد ينظر في شيء من سلطانه"[١١]، هو ما كان السبب في ثورة أهل المدينة.

أما ما ذكر من امر الوفد والأموال فيبدو انه مجانب للصواب لعلة السند أولاً ووجود احد موالي الأمويين ثانيًا، وكون من ذكروا في الوفد هم من الفضلاء الثِقات والذي انكر بعضم قبوله الأموال من يزيد بقوله " ذهبنا شهرا وعدنا شهرا ورجعنا من يزيد صفرًا[١٢]، والتي لا يمكن أن يصدر منهم موقف كهذا من دون سبب مقنع ، وان افترضنا جدلاً أن الوفد قد ذهب للشام، فقد يكون سبب ذهابه رغبة أهل المدينة في حمل يزيد على تغير سياسته أنفة الذكر، ورغبة يزيد في استمالة أهل المدينة آليه، ولما فشل الطرفان في تحقيق ما يصبوان إليه عادوا إلى المدينة وخلعوه على رؤوس الأشهاد وحصروا بنو أمية في دار مروان بن الحكم.

ثانيًا: ردة فعل السلطة الأموية ومسار الأحداث فيها

٢/١-موقف يزيد من مخالفي أهل المدينة

على الرغم من أن معاوية بن أبي سفيان (رض) قد ورث ابنه يزيد مالاً ممدودًا وملكًا عريضًا، ولكن يبدو انه لم يورثه مُسحة من حِلمه، فقد قابل صنيع أهل المدينة وخلعه، بأبشع التوجيهات والتي قد لا تصفها عبارة أو يترجمها معجم، إذ بعث إلى مسلم (مسرف) بن عقبة المري بعد أن تردد اثنان من قادته.

وقد ذكر الطبري أن يزيد قال لمسلم: ادع القوم ثلاثا، فإن هم أجابوك وإلا فقاتلهم، فإذا أظهرت عليهم فأباحها ثلاثا، فما فِيهَا من مال أو رقة أو سلاح أو طعام فهو للجند، فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس، وأنظر عَلِيّ بن الْحُسَيْن، فاكفف عنه، واستوص بِهِ خيرًا، وأدن مجلسه، فإنه لم يدخل فِي شَيْءٍ مما دخلوا فِيهِ[١٣]، ولم يذكر المسعودي أو اليعقوبي هذه الوصية التي ذكرها الطبري، إلا انهم اتفقوا من حيث المبدأ على مهام الحملة وهي: تقليم أضافر الثوار وقمع ثورتهم وتخليص المحاصرين من بني أمية[١٤]، فضلاً على أن يزيد أمر عبيد الله بن زياد والي الكوفة بحجز المنذر بن الزبير بن العوام لحين الانتهاء من أمر أهل المدينة[١٥]، وهو إجراء اتفق مع السياسة غير الحكيمة ليزيد، ولكن عبيد الله الذي كان صاحبًا للمنذر احتال واطلقه فأتى الحجاز وكان ممَنْ حرض على خلع يزيد[١٦]، فالهب نار الثورة ضد يزيد، سار مسلم بن عقبة بخمسة آلاف فارس وفق رواية اليعقوبي[١٧]، أما الطبري فقد ذكر أن عديد الجيش كان اثنا عشر ألف[١٨]، ويبدو أن رأي الطبري اقرب إلى الصواب بسبب سوء الحالة الحجاز والجزيرة عمومًا آنذاك، إذ أن الحملة موجهة للمدينة فضلاً عن مكة حيث ابن الزبير – العائذ بالبيت – أضف إلى ذلك وجود تحركات مريبة لنجدة الخارجي في ارض اليمامة، ومن غير المعقول أن يتم إرسال خمسة آلاف لتغطية هذه كل هذه الأخطار.

وليس ثمة اختلاف بين المؤرخين في مسير الجيش، إلا أن الطبري يذكره مفصلاً على عكس البقية، أذ ذكر أن الجيش الشامي سار حتى إذا بلغ قريبًا من المدينة وقف، ليتفاجأ بخروج بنو أمية من المدينة بعد إطلاقهم من قبل الثوار الذين اخذوا عليهم المواثيق والعهود، بأن لا يدلوا على عورة المدينة ولا يكثروا عليهم جمعا[١٩]، ففعلوا إلا عبد الملك بن مروان ووالده مروان بن الحكم – الذي استغل علاقاته ببعض أهل المدينة ليحسن من وضع الشاميين، لقد دل عبد الملك الجيش على عورات المدينة ومسالكها فساعد في وصولهم، بل وارشدهم إلى مكامن الخلل كما يروي الطبري الذي انفرد عن أصحابه في هذه الرواية، إذ روى أن عبد الملك قال لمسلم : لابد أن تأتيهم من قبل الحرة مشرقا، ثُمَّ تستقبل القوم، فإذا استقبلتهم وَقَدْ أشرقت عَلَيْهِم وطلعت الشمس طلعت بين أكتاف أَصْحَابك، فلا تؤذيهم، وتقع فِي وجوههم فيؤذيهم حرها، ويصيبهم أذاها، ويرون مَا دمتم مشرقين من ائتلاق بيضكم وحرابكم، وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم وسواعدكم مَا لا ترونه أنتم لشيء من سلاحهم مَا داموا مغربين، ثُمَّ قاتلهم واستعن بِاللَّهِ عَلَيْهِم، فإن اللَّه ناصرك، إذ خالفوا الإمام، وخرجوا من الجماعة فَقَالَ لَهُ مسلم: لِلَّهِ أبوك! أي امرئ ولد إذ ولدك! لقد رَأى بك خلفًا[٢٠]، وبهذا يكون أهل المدينة قد جانبوا الصواب في إخراج الأمويين الذين دل بعضهم على مسالك المدينة وعوراتها، فضلاً عن خسارتهم لورقة رابحة كان من الممكن التفاوض عليها للحصول على أهون الشروط مما قد يحسن وضعهم، ولكن المثالية التي كان عليها أهل المدينة تبعد عن هذا التفكير الذي قد يؤذي أحد المسلمين.

٢/٢-المدينة تجود بخيرة أبنائها

استعد أهل المدينة للقتال وحفر الخندق، لإعاقة تقدم الجيش الشامي فيها وتيمننا بما فعله النبي في غزوة الأحزاب، وقد ذكر الطبري منفردا عن اليعقوبي والمسعودي في أسناد فيه ابن مخنف وحميد بن حمزة مولى بني أمية، أن مسلم ولما وصل إلى اطراف الخندق فِي ذي الحجة من سنة ثلاث وستين قال لأهل المدينة أن يَزِيد بن مُعَاوِيَة يزعم أنكم الأصل، وأني أكره هراقة دمائكم، وأني أؤجلكم ثلاثا، فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا مِنْهُ، وانصرفت عنكم، وسرت إِلَى هَذَا الملحد الَّذِي بمكة، وإن أبيتم كنا قَدْ أعذرنا إليكم-[٢١]، ويبدو أن أهل المدينة الذين وطنوا انفسهم على الحرب واعدوا العدة لمثل هذا الموقف وحفروا الخندق، ووافق هوى بعضهم لابن الزبير إن لم نقل معظمهم، قد مزجوا الحماسة الدينية بالشجاعة والأنفة العربية، ولم يلتفتوا لهذا التهديد والوعيد، فلما مضت الأيام الثلاثة قَالَ: يَا أهل الْمَدِينَة، قَدْ مضت الأيام الثلاثة، فما تصنعون؟ أتسالمون أم تحاربون؟ فَقَالُوا: بل نحارب[٢٢].

ولم يذكر الطبري صراحة عدد الجيش المدني كذكره لعدد الجيش الشامي واكتفى بالقول، (وقد كان أهل المدينة اتخذوا خندقا في جانب المدينة ونزله جمع منهم عظيم...)[٢٣]، وتابعه على هذا اليعقوبي في التاريخ والمسعودي في مروج الذهب، ولكن يبدو أن عدد جيش المدينة كان يتجاوز عدد الأمويين

ومواليهم والذي زعم الطبري انهم الف رجل[٣٤]، واقل من جيش الشام الذي ذكر انه اثنا عشر ألف[٣٥]. وفق هذا الموقف تعبئا أهل المدينة حول الخندق وَكَانَ عَلَيْهِم عبد الرَّحْمَن بن زهير بن عبد عوف ابن عم عبد الرحمن ابن عوف الزُّهْرِيّ، وَكَانَ عَبْد اللَّهِ بن مطيع عَلَى ربع آخر فِي جانب الْمَدِينَة، وَكَانَ معقل بن سنان الأشجعي عَلَى ربع[١] آخر فِي جانب الْمَدِينَة، وَكَانَ أَمِير جماعتهم عَبْد اللَّهِ بن حنظلة الغسيل الأَنْصَارِيّ، فِي أعظم تِلْكَ الأرباع، وأكثرها عددًا.

ويذكر الطبري تفاصيل أكبر عن الالتحام الأول الذي جرى بين الجيشين من صاحبيه الذين اكتفوا بذكر استباحة المدينة وقتل سراتها ومبايعة أهلها، ولكن الطبري الذي روى هذا الخبر لم يذكر موقع المعركة قبل الخندق أي (خارج المدينة) أم بعده (أي داخلها)، وهو الأمر الذي أشار إليه اليعقوبي في حديثه الوجيز فقال عن مسلم: "... وقاتله أهل المدينة قتالاً شديدًا، وخندقوا على المدينة، فرام ناحية من نواحي الخندق، فتعذر ذلك عليه، فخدع مروان بعضهم، فدخل ومعه مائة فارس، فاتبعه الخيل حتى دخلت المدينة"[٣٦]، ويعطي السمهودي نقلاً عن الواقدي تفسيرًا أوسع من قول الطبري وأوضح من كلام اليعقوبي إذ قال: وجلس مسلم بناحية واقم، فرأى أمرا هائلا، فاستعان بمروان وكان وعده بوجه في ذلك لما لقيه بوادي القِرى؛ فخرج مروان حتى جاء بني حارثة، فكلم رجلاً منهم ورغبه في الصنيعة، وقال: تفتح لنا طريقا فاكتب بذلك إلى يزيد فيصل أرحامكم، ففتح لهم طريقًا من قبلهم حتى أدخل له الرجال من بني حارثة إلى بني عبد الأشهل[٣٧]، مما يكشف اللثام عن قول الطبري ويجلي الغبار عن قول اليعقوبي، في أن الوقيعة كانت داخل المدينة عند حرة واقم بسبب أحد أفراد بني حارثة، ومكافأة لهم جعل كما روى الواقدي قصر بني حارثة أمانا لمَنْ أراد أهل الشام أن يؤمنوه، وكانت بنو حارثة آمنين[٣٨]، غير أنه تجدر الإشارة أن ليس كل بنو حارثة بن الحارث كانوا متحدين على هذا الموقف موافقين عليه، فقد ذكرت المصادر أن منهم مَنْ خالف هذا الراي وقاتل مع أهل المدينة وقتل فكان عِداد قتل بنو حارثة ومواليهم في الحرة سبعة أنفس[٣٩].

وعلى كل حال لكن وعلى الرغم من هذا لم يستطع مسلم حسم الأمر لصالحه في أول جولة، حيث كانت الدائرة لأهل المدينة على الرغم من عدم التكافؤ بين الطرفين، وذكر الطبري أن أهل الشام انفرجوا عن قائدهم الذي أعطى الراية لأحد مواليه – لعله لضراوة المعركة – واستبسل عبد الله بن حنظلة والفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب الذي قتل حامل الراية لجيش الشام[٣٠]، ولكن صمود مسلم بن عقبة ودفع جيشه للقتال وتهديده لهم بقطع العطاء والتجمير في الثغور جعل القتال يشتد فقاتل الجيشان اشد القتال[٣١]، وضرب أهل المدينة أروع الأمثلة في الفداء والتضحية، وتحملوا في سبيل هذا جراحات وفقدوا فرسان ولكنهم بقوا صامدين وعن المدينة مدافعين، ولما رأى الشاميون ثبات أهل المدينة عمدوا إلى النشابة وكانوا خمسمائة رام واخذوا يرمون أهل المدينة فاصبوا فيهم إصابات عظيمة وقدم عبد الله بن حنظلة أبنائه السبعة واحدًا واحدًا فقتلوا إمام ناضريه[٣٢]، فلما رأى الانكسار باديًا لا محالة قاتل فكاثروه حتى قتلوه مع جملة من أصحابه وتفرق الباقون في المدينة فطاردهم الجند الشامي فيها[٣٣]، ويضيف الإمام ابن حجر سببًا أخر للهزيمة، بقوله: أن بعض أهل المدينة دَخَلُوا الْمَدِينَةَ خَوْفًا عَلَى أَهْلِهِمْ فَكَانَتِ الْهَزِيمَةُ[٣٤]، حيث اختل النظام وارتبكت الخطط وعبثًا حاول عبد الله بن حنظلة ضبط الأمور فكانت الهزيمة وتفرق الناس.

ثالثًا: اقتحام المدينة ونتائج الالتحام وأسباب الهزيمة

٣/١-استباحة المدينة من قبل الجند الشامي

بعد أن مالت الكفة لصالح الجيش الشامي يتفق المؤرخين أن مسلم بن عقبة، أباح الْمَدِينَة ثلاثًا يقتلون الناس ويأخذون الأموال، فأفزع ذَلِكَ من كَانَ بِهَا من الصحابة، فخرج أَبُو سَعِيد الخدري حَتَّى دخل فِي كهف فِي الجبل، فبصر بِهِ رجل من أهل الشام، فَجَاءَ حَتَّى اقتحم عَلَيْهِ الغار[٣٥]، ولكن بعض تفاصيل الاقتحام وتداعياته تختلف عندهم في حين تتقارب في البعض الأخر، وفي هذا يذكر الطبري أن الجند الشامي كانوا يبحثون على من شارك في القتال ويقتلونه صبرا مع الاستهانة به والتقليل من قدره وكان منهم معقل بن سنان الأشجعي الذي قاد المهاجرين في المعركة فضلاً عن إيذاء من لم يشارك في المعركة بالتطاول باليد واللسان في حين احسن لعلي(السجاد) بن الحسين لوصية يزيد[٣٦]، أما اليعقوبي والمسعودي فاغلوا في هذا فقالوا أن الجند الشامي قد أعتدوا على الحرمات وأمروا الناس أن يبايعوا على انهم عبيد ليزيد[٣٧]، وتابعه في بعض هذا المسعودي[٣٨]، ولكن بُعد المؤرخين عن فترة الحدث ما يبلغ بحدود ٢٣٠ سنة، وذكرهم الخبر بلا سند، وميولهم المغايرة الواضحة مما قد يدفعهم للإساءة إلى الجانبين - أهل المدينة والجيش الشامي والأمويين -، وعدم ذكر الطبري لحادث الانتهاك وهو – أي الطبري - المشهور بذكر جملة الروايات بأسانيدها،

يجعلنا نشكك في قبول خبر الانتهاك للحرمات وحمل عذارى المدينة من الجيش الشامي.

٢/٣-عدد القتلى من أهل المدينة وعشائرهم

تتناغم أعداد القتلى في هذه الحادثة من حيث التضارب وعدم الدقة، كحال كل حيثية من حيثياتها اختلافًا وتلونًا، فمن مبالغ بأعدادها كما فعل الواقدي الذي جاوز تقديره العشرة آلاف رجل حيث ذكر عن مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ تَمِيمٍ(*) قال: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ شَعْبَانَ(*) قَالَ حَدَّثَنَا وَهْبُ بْنُ نَافِعٍ(*)، قَالَ حَدثنَا الحزامي(*)، عَنِ الْوَاقِدِيِّ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ جَعْفَرٍ(*)، قَالَ سَأَلْتُ الزُّهْرِيَّ(*)، كَمْ بَلَغَ الْقَتْلُ يَوْمَ الْحَرَّةِ قَالَ أَمَّا مِنْ قُرَيْشٍ وَالأَنْصَارِ وَمُهَاجِرَةِ الْعَرَب ووجوه النَّاس فسبعمائة وَسَائِرُ ذَلِكَ عَشَرَةُ آلافٍ وَأُصِيبَ بِهَا نِسَاءٌ وَصِبْيَانٌ بِالْقَتْلِ[٣٩]، ويذكر السمهودي في كتاب الحرة[٤٠]، والذي ينسبه للواقدي نفس الإحصائية السابقة[٤١]، وتابعه في مثل هذا التقدير المسعودي الذي يذكر رجالاً من بني هاشم لعل من ابرزهم : عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وجعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب وبضع وتسعون رجلاً من سائر قريش، ومثلهم من الأنصار، وأربعة آلاف من سائر الناس ممن أدركه الإحصاء دون من لم يعرف[٤٢]، وعلى مستوى اقل تضخيمًا ومبالغة، وادنى قربا من التقدير يبرز الفسوي وابن حجر ليفصحا: أن عدد القتلى من حملة القرآن سبعمائة نفس[٤٣]، وقريب من هذا أرسى خليفة بن خياط مركبه، مقتربًا من طرف الحقيقة فذكر أن جميع من قتل من الأنصار ١٧٣ ومن قريش ١٣٣ وبالمجمل ٣٠٦ رجلاً[٤٤]، أما الطبري فلا يذكر عدد من قتل في واقعة الحرة صراحة، وان كان يذكر بعض الذين قتلوا صبرًا كمعقل بن سنان الأشجعي وابني عبد الله بن زمعة[٤٥]، وكذلك فعل اليعقوبي.

وفي الواقع إن بعض هذه التقديرات قد غردت خارج السرب وجانبت الصواب إلى حد بعيد، فضلاً عن خلو بعضها من الإسناد وضعف الأسانيد الأخرى واحتوائها على المجاهيل يجعلنا نرجع القهقري في قبول هذه التقديرات، كما أننا عندما نطالع كتاب الإصابة للإمام ابن حجر نراه قد قيد في كتابه أسماء اثنان وخمسون رجلا من المهاجرين والأنصار قتلوا في هذه الواقعة[٤٦]، أما إذ ذهبنا إلى كتاب الطبقات لابن سعد نراه قد توسع في هذا الشأن، إذ يبرز عند مطالعة أجزاء الكتاب وجرده أن عدد من قُتل في الحرة يتجاوز المائة بقليل من الأنصار والمهاجرين ومواليهم وأبناءهم وحتى أحفادهم وبعض قبائل العرب[٤٧]، ولعل اكبر من فجع في هذا، عبد الله بن حنظلة الغسيل بنفسه وأبنائه السبعة وزيد بن ثابت بأبنائه السبعة[٤٨].

لذلك يمكن القول إن أعداد القتلى تتروح حول الثلاثمائة إلى السبعمائة كحد اقصى، ولم تتجاوز الألاف باي حال من الأحوال، بسبب طبيعة المعركة وقصر وقتها من جهة؛ وقلة عدد جيش المدينة قياسًا بجيش الشام من جهة ثانية؛ فضلاً عن تواضع النصوص التي تذكر أسماء القتلى والتي تطل علينا باستحياء مُفصحة عن عشرات من القتلى لا تتجاوز المائة إلا بشي قليل.

أما البطون التي اشتركت في المعركة فقد ذكرت المصادر أفرادًا من قريش والقبائل قد ساهمت في هذه الموقعة، فمن قريش بنو هاشم ممثلين بعبد الله بن جعفر بن أبي طالب وبني أسد ممثلين عبد الله بن زمعة وبني زهرة وبني مخزوم وبني عامر بن لؤي وغيرها، ومن الأنصار وفيهم كانت القيادة العامة ممثلة بشخص عبد الله بن حنظلة الغسيل من بني عوف الاوسي وأفرادا من بني جحجبا وبني عبد الاشهل وزاعوراء وبني حارثة، أما الخزرج فقد اشترك أفرادا من بني النجار وبني الحارث وسالم بن عوف الخزرجي وبني زريق ومن قبيلة اشجع معقل بن سنان الذي كان قائد كتيبة المهاجرين[٤٩]، وقد حمل الأنصار كالعادة عِظم المقتل والمصاب قياسًا بالمهاجرين.

رابعًا: عوامل خسارة أهل المدينة المعركة

لقد وقفت عدة أسباب وراء هزيمة جيش المدينة من الجيش الشامي في المدينة المنورة لعل من أبرزها:

لم يكن قادة المدينة بمستوى الأحداث آنذاك، حيث إنهم تعاملوا بمثالية وبأخلاق الفرسان – إن صح التعبير -مع المحاصرين من بني أمية، وكان من الممكن أن يحتفظوا بهم كورقة رابحة يفاوضون عليها مسلم وجيشه، ويكونوا ورقة ضغط عليهم للخروج بشروط أفضل من شأنها أن تغير النتائج النهائية، أو أن تخفف من لونها القاني نوعًا ما. فضلاً على أن أدخال بني حارثة لقطع من الجيش الشامي من وراء الجيش المدني مما جعل المدنيين يتركون الخندق ويتوجهون إلى الشاميين ليصدوهم عن المدينة، فارتبكت خطة الدفاع وانفرطت عراها ودب الاضطراب في جيش المدينة ولم تنفع شجاعة ابن حنظلة واتباعه وفدائيتهم في إنقاذ الموقف. كما أن المدينة لم تكن مناسبة لإدارة الثورة بشكل عام، لان لمدنيون حصروا أنفسهم وأهليهم بين الحِرار والخندق وقلما يأتي محصور بخير، هذا الأمر الذي قضى على إمكانية المرونة والتقدم والتراجع والانسحاب والكر والفر، واتخاذ القرار المناسب عند المتغيرات التي تطرأ على أحداث المعركة وبالتالي تطرأ على نتيجتها.

وأسهم تقاسم القيادة بين عبد الله بن حنظلة ومعقل بن سنان وعبد الله بن مطيع مما فرق الجهود وشق الصفوف بين هذا وذاك وسعى كل واحد لينجد نفسه عند احتدام الموقف حيث فر عبد الله بن مطيع إلى مكة مع بعض اتباعه وقتل ابن حنظلة وفر معقل بن سنان فقبض عليه وقتل صبرًا، بالإضافة إلى عدم التكافئ بين الجيشين من حيث العدد، حيث كانت الكفة تميل لصالح جيش الشام. وأثر لجوء أهل الشام إلى استخدام النبل بعد أن أخفقوا في المواجهة بالسيف مما أوقع الجراحات بجيش المدينة ومنعهم من المناورة وادخل الاضطراب إلى صفوفهم. وفعل انشغال بعض أفراد الجيش المدني فعله بالدفاع عن أهليهم وترك القتال بعد دخول الشاميين – وفق قول ابن حجر – سبب الضعف وادخل الوهن وإرباك الخطط وساهم في الهزيمة. كما أدى ثبات قائد جيش الشام مسلم بن عقبة وإصراره على تحقيق النصر وتحريضه لجند الشام للقتال وتهديده بقطع العطاء والتجمير في الثغور أثر بارز في إحراز النصر. وأخيرًا أدى عدم مشاركة الكثير من بطون المدينة وعشائرها بالكامل سواء من الأوس أو الخزرج أو حتى من قريش، والاستعاضة عن ذلك بمشاركة الأفراد، والتي لها ثقل في تغيير موازين القوى مما أضعف من موقف أهل المدينة.

خَاتمِةٌ

تُعَدّ حادثة الحرة من العلامات البارزة في عصر يزيد بن معاوية والتي دلت على تغيير السياسة العامة للدولة في العصر الأموي إذا ما قيست بالعصر الراشدي الذي سبقه. لقد كال المؤرخين القدامى الحادثة وحيثياتها بالعديد من المكاييل، فمَنْ هو مبالغ فيها، ومَنْ مستند إلى مصادر غير موثوقة، ومَنْ أراد الصواب وعدم الوسيلة، ولكن ذلك لم يخلوا من روايات منصفة منطقية لمؤرخين رواد.

لقد تضافرت العديد من الأسباب السياسية والدينية والاقتصادية والموضوعية في نشوب ثورة أهل المدينة، ولم تقف عند سبب واحد فريد. لم تكن المدينة بأي حال من الأحوال موقعًا مناسبًا للثورة وإن اكتشف الثوار هذه الحقيقة ولكن في أوان فائت وفرصة ضائعة. لقد أبدى أهل المدينة الشجاعة في التصدي لجيش الشام وأبدى أهل الشام الثبات في المواقف ولكن وضع الشاميين كان أفضل مما مكنهم من الانتصار في المعركة.

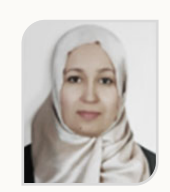
لم يكن أهل المدينة مؤهلين للقيادة في مجال السياسية والعسكرية، لأن واقع الحال في العصر الأموي قد تغير عن قبل والكثير من الثوابت باتت مركونة في غيابات النسيان. أدى مساهمة أحد أفراد بني حارثة في إدخال الجيش الشامي من سند الحرة إلى تراجع كبير في موقف أهل المدينة وخسارتهم المعركة. كثرة المبالغات في جزئية اقتحام المدينة وكثرة عدد القتلى منهم وسلوك أهل الشام العام في المدينة مما تطلب المعالجة والتصويب. لقد أسهمت هذه الحادثة في إدبار الناس عن حكم يزيد بن معاوية بل حتى حكم بني أمية بالكلية، لان المدينة وأهلها تتمتع بمكانة كبيرة في العالم الإسلامي.

الاحالات المرجعية:

(١) ابن منظور: محمد بن مكرم الأنصاري (ت: ٧١١هـ)، **لسان العرب**، دار صادر، (بيروت: ١٤١٤هـ)، ط٣، ٤/ ١٨٠.
(٢) الجندي، أبو سعيد المفضل الكوفي (ت: ٣٠٨)، **فضائل المدينة**، تحقيق: محمد مطيع الحافظ – غزوة بدير، دار الفكر، (دمشق: ١٤٠٧)، ط١، ٤٣.
(٣) البيهقي: أحمد بن الحسين، **دلائل النبوة**، تحقيق: عبد المنعم قلعجي، دار الكتب العلمية، (بيروت: ١٩٨٨)،٦/٤٧٣.
(٤) ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت: ٢٣٠هـ)، **الطبقات الكبرى**، مكتبة الخانجي، (القاهرة: ٢٠٠١)، ٣/٣٥٠.
(٥) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت:٣١٠هـ)، **تاريخ الرسل والملوك**، دار الكتب العلمية، (بيروت: ١٩٨٨)، ط١، ٣/٣٥٠.
(*) أبو مخنف: لوط بن يحيى إخباري ليس بشيء معدود في الضعفاء. القطان، عبد الله بن عدي الجرجاني، **الكامل في ضعفاء الرجال**، تحقيق: يحيى مختار غزاوي، دار الفكر، (بيروت: ١٩٨٨)، ٦/٩٣.
(*) ذكره ابن حبان في الثقات مختصرًا. ابن حبان، محمد بن أحمد (ت: ٣٥٤هـ)، **الثقات**، دائرة المعارف العثمانية، (الدكن: ١٩٧٣)، ط١، ٧/١٠٧.
(*) لم أجد له ذكر في كتب الرجال.
(٦) الطبري، المصدر السابق، ٣/٣٥٠.
(٧) المسعودي، علي بن الحسين (ت: ٣٤٦هـ)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، المكتبة العصرية، (القاهرة: د.ت)، ٣٨٩.
(٨) اليعقوبي، أحمد بن إسحاق (ت٢٩٢هـ)، **تاريخ اليعقوبي**، مطبعة الغري، (النجف: د.ت)، ٢٠٩.
(٩) خليفة بن خياط (ت: ٢٤٠هـ)، **تاريخ خليفة**، تحقيق: أكرم ضياء العمري، دار القلم، (دمشق: ١٣٩٧)، ط١، ٢٣٤.
(١٠) خليفة، المصدر نفسه، ٢٣٤.
(١١) الطبري، المصدر السابق، ٣/٣٥٠.
(١٢) ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله النمري، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تحقيق: علي بن محمد البجاوي، دار الجيل، (بيروت: ١٩٩٢)، ط١، ٣/٨٩٢؛ ابن حبان، المصدر السابق، ٥/٤٢٠؛ ابن عساكر، أبو القاسم علي، **تاريخ دمشق**، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر، (بيروت: ١٩٩٥)، ط٢٧،١/١٩.
(١٣) الطبري، المصدر السابق، ٥/٤٨٤.
(١٤) اليعقوبي، المصدر السابق، ص٢٠٩؛ وينظر: المسعودي، المصدر السابق، ٣٧٨.
(١٥) الطبري، المصدر السابق، ٥/٤٨٤.
(١٦) الطبري، المصدر نفسه، ٣/٣٥٣.
(١٧) اليعقوبي، المصدر نفسه، ٢٠٩.
(١٨) الطبري، المصدر نفسه، ٥/٤٨٤.
(١٩) الطبري، المصدر نفسه، ٥/٤٨٦.
(٢٠) الطبري، المصدر نفسه، ٥/٤٨٦.
(٢١) الطبري، المصدر نفسه، ٥/٤٨٧.
(٢٢) الطبري، المصدر نفسه، ٥/٤٨٧.
(٢٣) الطبري، المصدر نفسه، ٥/٤٨٧.
(٢٤) الطبري، المصدر نفسه، ٥/٤٨٣.
(٢٥) الطبري، المصدر نفسه، ٥/٤٨٤.
(*) قسم من أقسام الجيش الأربعة.
(٢٦) اليعقوبي، المصدر السابق، ٢٠٩.
(٢٧) السمهودي، علي بن عبد الله، **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى**، دار الكتب العلمية، (بيروت: ١٤١٩)، ط١، ١/١٠٥.
(٢٨) السمهودي، المصدر نفسه، ١/١٠٥.
(٢٩) خليفة، المصدر السابق، ٢٤٧.
(٣٠) الطبري، المصدر السابق، ٥/٤٨٧.
(٣١) الطبري، المصدر نفسه، ٥/٤٨٩.
(٣٢) الطبري، المصدر نفسه، ٥/٤٨٩.
(٣٣) الطبري، المصدر نفسه، ٥/٤٩٠-٤٩١.
(٣٤) ابن حجر، أحمد بن علي (ت: ٨٥٢هـ)، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، حقق أجزاء منه: عبد العزيز بن باز، دار المعرفة، (بيروت: ١٣٧٩هـ)، ١٣/٧١.
(٣٥) الطبري، المصدر السابق، ٥/ ٤٩١؛ وينظر اليعقوبي، المصدر السابق، ٢٠٩، المسعودي، المصدر السابق، ٣٧٨.
(٣٦) الطبري، المصدر نفسه، ٥/ ٤٩١-٤٩٣.
(٣٧) اليعقوبي، المصدر السابق، ٢٠٩.
(٣٨) المسعودي، المصدر السابق، ٣٧٨.
(*) لم أجد له ذكر لا في كتب الثقات ولا في كتب الضعفاء.
(*) لم أجد له ذكر لا في كتب الثقات ولا في كتب الضعفاء.
(*) ذكره ابن حبان في الثقات. ٧/٥٥٦.
(*) إبراهيم بن المنذر الحزامي صدوق. ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن (ت: ٣٢٧هـ)، **الجرح والتعديل**، دار المعارف العثمانية، (الدكن: ١٩٥٢)، ط١، ٢/١٣٩.
(*) لم أجد له ذكرا.
(*) مُحَمَّد بن مُسلم بْن عبيد اللَّه الزُّهرِيّ الْقرشِي التابعي وَكَانَ من أحفظ أهل زَمَانه وَأَحْسَنهمْ سياقا لمتون الْأَخْبَار وَكَانَ فَقِيها فَاضلا روى عَنهُ النَّاس مَاتَ سنة أَربع وَعشْرين وَمِائَة فِي نَاحيَة الشَّام. ابن حبان، المصدر السابق، ٥/٣٤٩.
(٣٩) أبو العرب، محمد بن الأفريقي، **المحن**، تحقيق: عمر سليمان العقيلي، دار العلوم، (الرياض: ١٩٨٢)، ١٨٤.
(٤٠) لم أجد هذا الكتاب عند البحث؛ كما لم أجد أحدًا ينسبه إلى الواقدي غير السمهودي، ووجدت نفس العنوان ينسب للغلابي أحد رواة السير والمغازي، وكذلك نسب نفس العنوان لعلي بن المديني. يُنظر: ابن النديم، محمد بن إسحاق، **الفهرست**، إبراهيم رمضان، دار المعرفة، (بيروت: ١٩٩٧)، ط٢، ١٣٨؛ البغدادي، إسماعيل بن محمد، **إيضاح المكنون في الذيل عن كشف الظنون**، دار إحياء التراث العربي، (بيروت: د.ت)، ٤/٢٨٩.
(٤١) السمهودي، المصدر السابق، ١/١٠٧.
(٤٢) المسعودي، المصدر السابق، ٣٧٨.
(٤٣) **المعرفة والتاريخ**، تحقيق: أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، (بيروت: ١٩٨١)، ط١، ٣/٣٢٥؛ وينظر: **الإصابة**، ١٠/٣٧٤.
(٤٤) خليفة بن خياط، المصدر السابق، ٢٥٠.
(٤٥) الطبري، المصدر السابق، ٣/٣٥٨.
(٤٦) ابن سعد، المصدر السابق، ١/ ٣٤٩؛ ٣٥٥؛٥٨٠؛٥٨٨؛٢/٥٦؛ ٣/٥١٥؛٤/٢١١؛٢٥٠.
(٤٧) ابن سعد، الطبقات، ٧/٢٦١.
(٤٨) المصدر نفسه، ٣/٣٨٨؛٤٠٧؛٤٤٤؛ ٤٤٢؛٤٧٩؛٤/٦٦؛٢٣٧؛٢٣٨؛ ٢٣٩؛ ٤؛٢٤١؛٣١٩؛ ٣٣٥؛٧/٧٩؛٨١؛ ٨٣.
(٤٩) خليفة، المصدر السابق، ٢٤٠-٢٥٠.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

طرق الحج البرية وركب الحجاج في العهد الإسلامي من اليمامة والبحرين إلى الحرمين الشريفين



د. ربيعة أحمد عمران المداح
عضو هيئة التدريس
قسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة طرابلس – دولة ليبيا

مُلَخّصْ

يتطرق البحث إلى موضوع الحج وطرقه من اليمامة والبحرين إلى الحرمين الشريفين بالحجاز، وذلك من خلال جانبين أساسيين هما: البحث في الوسائل التنظيمية لطرق الحج، والثاني يعرض ترتيبات ركب الحج. لقد شقت شبه الجزيرة العربية شبكة من الطرق البرية التي تخترق البلاد من الشرق إلى الغرب، وهذه المسارات كانت تتبع طرق المواصلات القديمة، بيد إنها بعد توطد الحكم الإسلامي في بلاد المشرق وانتقال مركز الحكم الإسلامي إلى بلاد العراق، شغلت آراضي البحرين واليمامة جزء كبير من الطرق الحج الرابطة بين عواصم الدولة العباسية في بغداد والبصرة والكوفة مع الحرمين الشريفين، كما وفدت عبر هذه المسارات أفواج كبيرة من حجاج بلاد المشرق الإسلامي. وبطبيعة الحال سلكت التجمعات السكانية القاطنة في مناطق العبور هذه الطرق الدولية. هذا ما نراه عند تتبع مسارات الطرق وتفرعاتها من مركز تجمع الحجاج باليمامة حتى وصولها إلى الحرمين، وبتتبع مظاهر تنظيمها في العهد الإسلامي نجد أعمال الولاة تتركز في تمهيد وتقنيت للحجارة في المنحدرات الصعبة، ورصف للمواضع الخطرة التي يتعرض فيها الحجاج ورواحلهم لخطر الانزلاق، وتنعكس هندسة بناء الطرق في توزيع الاستراحات والمحطات على طول الطريق، فهي بنيت وفق أبعاد مناسبة لطبيعة سير الركب، وتنتشر كذلك أبنية المائية كالآبار والبرك والعيون، ويلاحظ أيضًا وجود بعض القصور التي دعمت بأبراج (المنار) لمراقبة تحركات قطاع الطرق وتوفير الملجأ للركب في حال تعرضه للهجوم من اللصوص. وتنظيم ركب حجاج البحرين واليمامة تعرض الدراسة كيفية إعداده، وتجهيزه، موظفوه، ومراسم وداع واستقبال الأهالي للحجاج، أما عن رحلة الركب التي تستمر لأزيد من عشرين يوم للوصول إلى الحرمين فإن رحلة الركب كانت تتخللها أوقات للاستراحة وهو ما عرف بالمضحى وبالمتعشى.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٩	فبراير	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٢٠	مارس	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

قوافل الحجاج؛ العصر الإسلامي؛ بلاد اليمامة؛ ركب الحج؛ البحرين

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2021.231369 DOI

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

ربيعة أحمد عمران المداح. "طرق الحج البرية وركب الحجاج في العهد الإسلامي من اليمامة والبحرين إلى الحرمين الشريفين".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثاني والخمسون؛ يونيو ٢٠٢١. ص ٩١ – ٩٩.

Corresponding author: rabeaalmedah@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تتناول الدراسة مظهر من مظاهر الحضارة الإسلامية يرتبط بتأدية فريضة الحج، وتتصل بالحرمين الشريفين في الحجاز حيثما تتوق أنفس المسلمين في مختلف أصقاع الأرض منذ ظهور الإسلام إلى يومنا هذا، هذه الفريضة استدعت من الدول الإسلامية المتعاقبة اتخاذ ترتيبات خاصة تتعلق بتنظيم الطرق المؤدية إلى بلاد الحجاز، وإعداد ركاب الحج سنويًا وفق أعراف وتقاليد خاصة بموسم الحج. الاهتمام بالطرق يشمل العديد من الجوانب منها: تمهيد مسارات الطرق، فكانت ترصف المواضع الموحلة، وتفتت الحجارة الصلبة في أماكن المنحدرات الصعبة، وتوضع إشارات مرورية على جانبي الطرق (المنارات). وتوزع أماكن بناء الاستراحات وفق طبيعة سير الرواحل وتحسب المسافات بدقة سواء بالمسافات أو بالزمن، وبهذا النسق كانت القوافل تتوافد على المحطات والاستراحات، وتجهيزها بكل ما يلزم من مؤونة ومياه، وخدمات لتيسير استكمال رحلة الحجاج. الجانب الثاني: كان إعداد ركب الحاج، الذي كان أشبه بمجتمع متكامل متنقل، ينظم الركب وفق آلية متقنة، تتحدد فيه المهام لكل فردٍ من أفراده، وتتوزع الأعمال القيادية على شخصيات كلفت من الحاكم مباشرة، تكون مسؤولة عن سلامة القافلة وعلى نجاح موسم الحج.

امتدت شبكة واسعة من الطرق البرية الداخلية والدولية، عرفت بـ (طرق الحج، أو دروب الحاج) منها: طريق الحج الشامي، والعراقي، واليمني، والمصري، ومثلت هذه المسارات امتداد لطرق أكثر تشعبا اتصلت بمناطق بعيدة عن مركز الجزيرة العربية، فكما كان طريق الحج المصري مسلكا لحجاج بلاد المغرب الإسلامي، سارت على طريق الحج الشامي وفود الحجاج من مناطق آسيا الصغرى والقوقاز. وكذا الحال بالنسبة لطريق الحج العراقي الذي عبره الحجاج من بلاد فارس وما وراءها من البلاد الإسلامية.

وعرفت كذلك مسالك داخلية ربطت بين أقاليم وبلدان الجزيرة العربية والحرمين الشريفين، شغلت أحيانًا أجزاء رئيسة من مسارات الطرق الدولية، كالطرق التي تربط النواحي الشرقية من جزيرة العرب والحرمين الشريفين في الحجاز ونقصد بها طريق حج البحرين واليمامة، الذي لعب دور الوسيط في حركة التنقل بين الجزيرة العربية والمناطق المطلة على الشق الشمالي من الخليج العربي وبلاد الرافدين، وكان له كذلك دورًا مميزًا في حركة التنقل الداخلية لتجار وحجاج بلاد البحرين واليمامة.

فما هي ملامح مسار طريق حج اليمامة والبحرين؟ وما مظاهر تنظيمه؟ وكيف كان يستعد الأهالي لتجهيز الركب، وما التقاليد المصاحبة لخروج وعودة الركب؟

قدمت بعض الدراسات الحديثة تعريفات وافية عن محطات طريق حجاج اليمامة، كما جاء في كتابي مؤرخ اليمامة عبد الله بن خميس في كتابيه: المجاز بين اليمامة والحجاز، ومعجم اليمامة. وأجرى أيضًا الباحث عبد الله الدريس وهو من أبناء اليمامة دراسة تأريخية أثرية على طريق حجاج اليمامة المار بقريتي النعام والحريق، عرض فيها الباحث مسارات الطريق، والمظاهر الاجتماعية المرتبطة بمواسم الحج في بلاد اليمامة.

التحديد الجغرافي لبلاد البحرين:

تناولت المصادر بالتفصيل جغرافية أقاليم جزيرة العرب، ويلاحظ التداخل في رسم الحدود الجغرافية والإدارية للأقاليم، وهذا يشمل حديثهم عن حدود بلاد البحرين، فقد وصف الإدريسي موقع بلاد البحرين بقوله: أنه يبتدئ من ساحل مدينة هجر عاصمة الإقليم أول بلاد البحرين للقادم من ساحل بلاد عمان[١]، في حين ذكر ياقوت: أن البحرين اسم جامع للبلاد الممتدة على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان، عاصمتها مدينة هجر، وهي تبعد مسيرة خمسة عشر يومًا على الإبل، وبينها وبين عمان مسيرة شهر، وأشار كذلك إلى تداخل الحدود الإدارية للبحرين مع بلاد اليمامة فقال: "وربما عدّ بعضهم اليمامة من أعمال البحرين والصحيح أن اليمامة عمل برأسه في وسط الطريق بين مكة والبحرين"[٢]. وبذلك يمكن القول: إن بلاد البحرين هي الشريط الساحلي الممتد على الجانب الجنوبي للخليج العربي، الممتد ما بين عبادان في الشمال الغربي إلى ما وراء واحة يبرين في الجنوب الشرقي وما يتبع هذه المنطقة من جزر تقع قبالة الساحل، ويتصل جنوبًا بصحراء الدهناء التي تعدّ فاصلاً طبيعيًا بينها وبين أرض اليمامة.[٣]

التحديد الجغرافي لبلاد اليمامة:

تتوسط اليمامة بلاد البحرين ونجد، وعند ابن رسته في حدودها الشرقية متصلة بالبحرين وغربًا بمكة المكرمة وشمالها بوادٍ متصلة مياه بالعذيب، والنباج[٤]، ويعرفها الفقيه الهمذاني بأنها واديان يصبان من الشمال ويفرغان جنوبًا، ثم يتحدث عن كثرة العيون بها واتساع مساحة المزارع، وانتشار أبنية القصور[٥]. وأورد أيضًا مؤلف كتابي المجاز بين اليمامة والحجاز، ومعجم اليمامة وصفًا مفصلاً لحدود اليمامة، وذكر أن الحدود الجنوبية تسير مع صحراء الربع الخالي من تحت نجران، والشمالية متصلة بالثويرات، والشرقية عند الدهناء، أما الغربية فحدها

هضبة نجد.[٦] وبذلك يمكن القول إن اليمامة تتميز بموقع متوسط بين أقاليم شبه الجزيرة العربية وطرقها مما اكسبها دورًا فاعلاً في حركة التنقل الداخلية.

أولاً: طريق حج البحرين اليمامة وتنظيماتها

أغلب مراحل طريق حج البحرين اليمامة تتبع التضاريس الطبيعية، وتسلك مساراته أسهل الطرق ملتفة حول الجبال، أو سائرة عبر الكثبان الرملية وبطون الأودية الجافة، ويحدد مساره نقاط توزيع مصادر المياه من برك وآبار حتى يلتقي بطريق الحج البصري الذي نال عناية وافية من قبل خلفاء بني العباس فطالت منافعه حجاج بلاد البحرين واليمامة. ويبين لنا ابن رسته طريق الحج ويقول بأنه يخرج الحجاج من البحرين إلى بلاد اليمامة، ومنها تصل إلى ضرية الواقعة على طريق الحج البصري، ثم إلى مكة وبعد انقضاء الموسم يفترق حجاج البصرة والبحرين عند ضرية فيتجه حجاج البحرين ذات اليمين، وحجاج البصرة ذات الشمال[٧]. ويزودنا الإدريسي بذكر للمحطات التي يعبرها الحجاج، وحدد المسافة بين كل محطة وأخرى بالمرحلة، ورتبها على النحو التالي ابتداء من اليمامة: العرض، الحذيفة، الثنية، السفرا، صدا، القريتين وهي المحطة الواقعة على طريق حاج البصرة ومنها يتحد المساران في طريق واحد، ويمر على محطة رامة، ثم طخفة، ضرية، جديلة، فلجة، الرقيبة، قبا، مران، وجرة، أوطاس، ذات عرق، ثم إلى بستان ابن عامر بمكة المكرمة. [٨]

١/١-محطات الطريق الكبرى

قامت على امتداد مسارات طرق الحج من البحرين واليمامة مرورًا بنجد حتى المدينة المنورة ومكة المكرمة عددًا من المدن التي تحمل خلفيات مختلفة، فمنها ما قامت على توفر الموارد مائية ومناطق الزراعة والرعي. وبعضها قام بناء على الموقع المتميز على شبكة الطرق التجارية.

مدينة حجر: مما جاء في كتاب العبر لابن خلدون، أن قبيلة بني هوازن كانت أول من سكن إقليم اليمامة، وأن حجرًا كانت مركزا له، ثم قدمت قبيلة عنيزة بعد هوازن. وشهدت حجر ازدهارًا كبيرًا خلال حكم بني حنيفة واتخذ منها العرب سوقًا سنويًا كانت تقام في شهر محرم.[١٩]

القريتان: هما إحدى نقاط طريق الحج البصري تسميان (أبْوَيَ)،[٢٠] كان يمر بهما حجاج البحرين واليمامة، وهما قريتان في أرض القصيم [٢١]؛ أحدهما بناها عبد الله بن عامر بن كريز، والأخرى بناها جعفر بن سليمان[٢٢]. توجد عيون كثيرة بالمحطة، وتنتشر في أرجائها بساتين النخيل. وقد أحاط جعفر بن سليمان قريته بحصن وسماها العسكرة. غير أن مياه القريتين غير عذبة؛ لذلك كان الأهالي يجلبون مياه الشرب من ماء تسمى العنيزة على بعد ميلين من القريتين، وماء العنيزة تقع في بطن وادي بطن رمة وهي لبني عامر بن كريز[٢٣]. وعلى بعد ٩ أميال من القريتين ماء عجلز، وهو ينتصف الطريق بين البصرة ومكة، أقيم عليها بركة وآبار، وبني عندها مسجدًا[24].

مرّان: هي من مياه حرة كشب تقع في وادٍ كثير المياه والأشجار، كان يمر عليه طريق حج البصرة القديم، وهو قاعدة لقبيلة بني هلال بن عامر، وذكر الحربي بأن المحطة محصنة وبها منبر وبها ناس كثير، ووصفها لوغدا "بأنها ماء وقرية غناء وكبيرة وتخيل"[٢٥]، ويروى عن خبر مرور الخليفة أبو جعفر المنصور بها في رحلة العودة من الحج وزيارته لقبر الشاعر الفصيح عمرو بن عبيد الذي توفي ودفن بها، ورثاه بأبيات شعر. وذكر ابن بليهد عن مرّان أنها: "منهل كثير الماء، لو أجري على ظهر الأرض لجرى ولكن المحيط به من الأرض سبخة ما تصلح للزراعة وبه آثار إلى هذا اليوم وأصول نخل ودوم."[٢٦]

٢/١-تمهيد مسار الطريق وتسوية العقبات

وردت أخبار عن تسوية الطرق من الحجارة الخشنة التي تؤذي الحجاج والرواحل، فقد ذُكر عن حرة كشب وهي ما تعرف بـ(حرة المويه) أن زبيدة زوج الرشيد أمرت بتنقية الطريق الممتدة من محطة الديثينة إلى قُبا على امتداد سبعة وعشرون ميلاً، و كذلك الطريق بين قُبا ومحطة مرَّان لمسافة أربعة وعشرون ميلاً، وهذه المراحل من طريق الحج البصري تعرف اليوم بـ (الطريق المُنَقَىُّ)[٩].

(٢/١) ١-الرصف والتفتيت والتكثيف

عند محطة القاع يلتقي أحد فروع طريق حج اليمامة بطريق الحج البصري قرب محطة الديثينة،[١٠]. حيث أورد لغدا الأصفهاني في كتابه بلاد العرب طريق حج اليمامة الذي يتجه يمين طريق المنار، وذكر أنه يتجه عبر حائل حتى يلتقي بطريق الحج البصري وعند التقاء الطريقين عند الديثينة يمر الطريق عبر قاع الجنوب وهو قاع وحل إذا أصابه مطر، وقد أمر الوالي العباسي محمد بن سليمان (ت ١٧٣هـ) برصف القاع بالحجارة، وتم العمل بالقاع ولم يتبق من الطريق سوى ثمانية أميال.[٣٧] وفي موضعًا آخر قدم عبد الله بن سعد الدريس في دراسته (طريق حاج اليمامة عبر وادي النعام والحريق) وصفًا للرصيف في درب عجلان بوادي نعام بقوله: "درب عجلان في نعام وعر المسلك تصعده المطايا من جانب الجبل حتى تعتلي قمته، وتنزل منه حيث يبدأ من الشرق ويعود شمالاً، وقد رصف بالحجارة الكبيرة، وصفت أحجاره الجانبية بنظام واحد في سلسلة من التعرجات، حتى تنتهي في مكان

يقال له الطخة، وعلى ظهرة الدرب من جبل عليّة علامات بارزة يراها القادم من وثيلان، ومن ظهرة السلامية ورجوم تهدي سالكيه ترى من بعيد، ومذيلات حجرية".[١١]

(٢/١) ٢-علامات الطريق

مما يفهم من لغدا الأصفهاني أن طريق حج اليمامة بنيت عليه علامات الطريق، فهو ينعته باسم طريق المنار.[٣٨] ولعله ذات الطريق التي وردت في كتاب المناسك للحربي وهو طريق الجادة بين اليمامة ومكة حينما وصف مراحله بالمنابر[٣٩].

١/٣-المنشآت المائية

كان لظروف جزيرة العرب المناخية الصحراوية أثره في ندرة المياه، فاعتمد السكان بدرجة كبيرة على المياه الجوفية بأشكالها المتعددة من: عيون، وآبار، وأحسية، إلى غيرها من مصادر المياه، غير أن إقليمي البحرين واليمامة هما من الأقاليم التي يقترب فيها مستوى المياه الجوفية من السطح، فأهل البحرين ينبطون الماء على القامة والقامتين،[٢٧] كما أن تسمية إقليم البحرين تعود إلى جريان الأودية العذبة فيه واتصالها بمياه الخليج العربي المالحة ولهذا سميت بصيغة التثنية بحرين.[٢٨] ومن مصادر المياه المرتادة على طرق الحج:

الآبار: أورد لغدا الأصفهاني في كتاب بلاد العرب أسماء العديد من الآبار الواقعة على طريق حج البحرين واليمامة المار على حائل، ذكر العديد من مواضع المياه منها: الراحة وهي مراعي لأهل اليمامة، والمنفطرة، والغزيز وهي من مياه محطة قرقري، وماء اهْوَى، وأُضَمير، وعكاش وهو ماء عليه نخل، وماء الأسودة.[٢٩] كما توجد الكثير من الآبار في فلج، وقد شاهد ناصر خسرو في زيارته لها سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١م عدد كبير من الآبار وقال أن هناك" أربع قنوات يسقى منها النخيل، وأما زروعهم في أرض عالية يرفع إليها معظم الماء من الآبار."[٣٠] وأشار كذلك إلى بئر ابتناها الحسين بن سلامة على بُعد سبعة فراسخ في الطريق من مكة إلى الطائف.[٣١]

العيون: انتشرت بالبحرين على امتداد وادي (الستَّار) أو ما يُعرف اليوم (وادي المياه) العديد من العيون التي استصلح بعضها في العصور الإسلامية المتعاقبة،[٣٢] ومثلت مواطن للاستيطان وذكر لغدا أنهم أقاموا عليه مائة قرية منها ثاج، ومتالع، ملج، ونطاع وبنيت بها قصورًا وأسواقًا[٣٣]. وفي اليمامة أورد ابن الفقيه أسماء العديد من العيون منها عين (الخضراء)، وعين (الهيت)، وعين (الهجرة) بجو، وأضاف أنه بالمجازة يمتد وادي سَيْحُ الغمر في أسفلها، ونهر سيح النعام الذي تقام عليه قرية النعام المعروفة على طريق حج اليمامة (وادي النعام-الحريق).[٣٤]

السدود: قدمت نتائج الكشوفات الأثرية في الموقع الأثري قصر مارد الواقع بالأسياح وجود سد للمياه يقع شمالي القصر، وهو يقع على بعد حوالي ٦٠ كم شرقي مدينة بريدة الواقعة على الطريق الحديث البحرين- المدينة المنورة، وذكر أن تاريخ بناء القصر يعود إلى منتصف القرن الثاني عشر الهجري.[٣٥]

القنوات: القنوات أو ما يعرف بالأفلاج تنتشر على رقعة واسعة من بلاد اليمامة، وهي تستمد مياهها من سيول أودية جبل طويق (العارض)، وعرف ياقوت في معجمه الأفلاج بأنها كل ما يجري سيحًا من غير عين فهو فلج وكل جدول شق من عين تجري على وجهه فهو فلج وأعظمها باليمامة القنوات الموجود بناحية فلج فهي أكثر مناطق اليمامة زرعًا، وأوفرها مياهًا، وهي من مراكز للاستيطان البشري.[٣٦]

١/٤-جهود الولاة في عمارة الطريق خلال العصر الإسلامي

من خلال ما ورد في كتب السير نجد بعض الإشارات التي تدل على اهتمام رسولنا الكريم (ﷺ) بإحياء الأراضي الموات، وإصلاح المنشآت المائية بالطرق. فذكر البكري في معجم ما استعجم عند حديثه عن ماء مروت أنه " روى قاسم بن ثابت، من طريق شُعَيب بن عاصم بن حُصَيْن:ً انه وَفَدَ على النبي صلى الله عليه وسلم فَبَايعهُ وصَدَّقَ إليه مالَه، وَاقْطَعهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم مياها بالمَرّوت، منها أُصَيهْب، ومنها المَاعِزَة، ومنها الهَوِيّ، والثَّمَاد، والسُّدَيْرَة. وذلك قول زهير بن أبي عاصم:

إِنَّ بلادي لم تكنِ امْلَاسَا بِهِنَ خَطَّ القَلَمُ الأَنْفَاسَا
من النبيُّ حيثُ اعْطىَ النَاسَا فلم يَدَعْ لَبْسًا ولا الْتِبَاسَا

رواهُ مُحْرِز بن وَزّر بن عمران بن شعيب بن عاصم بن غراب إلى حُصَين."[١٢]

كما أولى ولاة مسلمين في العهدين الراشدي والأموي عناية بإحياء طرق الحج، فقد ذكر لغدا الأصفاني سَيْحُ آل إبراهيم في حديثه عن محطات الطريق بين حج واليمامة المار ببطن وادي أبي حنيفة-المعروف اليوم بالباطن- وهو يعود للوالي الأموي إبراهيم بن عربي الذي تولى نجد في فترات حكم الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك وبعده أخيه هشام.[١٣] ومن بين مظاهر الاهتمام بالطرق في العهد الراشدي تخصيص الإحماء؛ منها حمى ضرية الواقع على طريق الحج البصري[١٤]. وهي من القرى العامرة لوفرة مياهها وأعشابها مما جعلها منتجع ومراعٍ للقبائل البدوية[15]. لذلك خصصت كحمى لإبل الصدقة في عهد

الخليفة عمر بن الخطاب، ثم وسّع عثمان بن عفان من مساحة الحمى. وأُلحق الحمى إداريًا بالمدينة المنورة، وبقي تابعًا للمدينة إلى العهد العباسي، وبنيت إنشاءات متنوعة من آبار ومساكن.(١٦)

١/٥-الاستيطان البشري على الطريق

تكاد تكون آثار الاستيطان البشري في المنطقة الوسطى والشرقية من شبه الجزيرة العربية أكثر وضوحا منها في أي جزء آخر، وسبب ذلك يرجع إلى موقع هذه الأجزاء من مراكز الحضارات القديمة واتصاله المباشر مع بلاد الرافدين، وكذلك مع بلاد الهند عبر الخليج العربي الذي يعود تاريخ بعضها إلى حوالي ٤٠٠٠ سنة.(١٧) تمر طريق الحج البحرين اليمامة على العديد من المستوطنات القديمة، وقد حظيت هذه المناطق حديثا برحلات استكشافية أثرية شملت مناطق الرياض القديمة، و شقراء، الدودامي، العجمة، الخرج، الوشم، القصيم، وادي الدواسر، ومن المعروف أن هذه المنطقة تكثر بها التلال الصخرية ذات الكهوف والمقابر.

ومن أولى عمليات البحث والتنقيب الأثري في هذه المنطقة العمل المشترك بين إدارة الآثار بالمملكة العربية السعودية والبعثة الدنماركية سنة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ونتج عن هذه المجهودات الكشف عن أكثر من عشرين موقعًا تعود إلى مختلف العصور الزمنية القديمة من بينها مستوطنات في فلج والعقير.(١٨) وكما أشرنا فقد لعبت هذه المنطقة دورًا هامًا في التاريخ الإسلامي إذ شكلت ما يعرف بإقليم اليمامة، ومن معالمها الآثرية الهامة التي لاتزال قائمة إلى يومنا هذا: الفاو، ماسل الجمح، الدودامي، كهف برمة، الدرعية، قصر وسد مارد بالأسياح.

١/٦-منشآت ومرافق الطريق التجارية

تنتشر على طول طريق الحج العديد من المنشآت التي توفر احتياجات الحجاج خلال رحلتهم إلى الحرمين الشريفين، وهذه الخدمات تختلف باختلاف مكانة المحطات بالطريق، فأغلب المحطات كانت تضم مراكز للتسوق كان يقصدها الحجاج حين وصولهم للموضع، فسوق مدينة فلج وصفت بالعظيمة تحيط بها الدور والحيطان وأشجار النخيل(٤٠).

١/٧-منشآت ومرافق الطريق الأمنية

من أكثر المنشآت الأمنية انتشارًا على طرق الحج القلاع تتحصن بها القرى، ومراكز المدن التجارية وتوفر الحماية اللازمة للقوافل المارة بالمدينة، وبنيت كذلك المنارات التي وزعت على مسافات متقاربة على امتداد الطريق، حتى أطلقت عليه اسم طريق المنار(٤١). أما الحربي في المناسك فأحصى محطات الطريق بالمنابر، ويبدو لنا أنه استغلت لتكون مراكز مراقبة هجوم قطاع الطرق، ولا شك في أن هذا النظام الدفاعي كان منتشرًا بالجزيرة العربية منذ الفترة التي سبقت مجيء الإسلام، واستمر قائما لمراقبة أمن الطرق التجارية وطرق الحج.(٤٢) وقدم لنا الهمذاني في حديثه عن قصور منطقة الأفلاج وصف هندسة بناء الحصن، وأشار إلى كثرة عدد حصون اليمامة والبحرين والأفلاج، وذكر عدد منها وهي تكون عادة محاطة بأراضي زراعية ومقامة على مصدر دائم للمياه من عيون، وأودية، وآبار، وقال أن بناء القصر عادة ما يختار له المناطق المرتفعة، أما أن تكون أكمات طبيعية، أو ربوات صناعية من طين.(٤٣)

وقد زودت القصور المنتشرة على طول الطريق بوسائل دفاعية استغلت من جانب الأهالي للدفاع عن قراهم، وحماية من يمر بهم من المسافرين أو من يستجير بهم من ملاحقة اللصوص وقطاع الطرق، وما زالت بعض هذه المنشآت قائمة إلى يومنا هذا وهي بحالة جيدة. من هذه القصور قصر سلمى الموجود بمذراع (مدينة البديع الحالية)، وذكر ابن خميس في دراسته وصف مفصل للشكل الهندسي لأحدى القصور وهو المسمى بقصر سلمى "قصر سلمى قصر عظيم يحاط بأربعة أسوار عظيمة وكلما ارتفع الجدار قل العرض فآخر الجدار متر واحد وبين السور والآخر ألف متر، وارتفاع السور عشرة أمتار، والقلعة مصممة على شكل سداسي، في كل زاوية منها برج كبير للمراقبة والدفاع ولها سور عظيم عرضه من الأسفل أربعة أمتار وارتفاعه عشرة أمتار ويحيط به خندق عرضه عشرة أمتار وعرضه كذلك، ويملئ بالماء عند الاقتضاء".(٤٤)

ثانيًا: قوافل الحج وتنظيماتها

تنظم قوافل الحجاج بإشراف مباشر من سيد القرية أو الحي ويكون ذلك بإحصاء عدد من يريد التوجه للحرمين الشريفين ثم يتدبر أمر انضمامهم إلى القافلة وبذلك تتكون مجموعة من الحجاج أو ما عرف بالخُبرة، وهي تتكون من عشرة حجاج يتفقون على كل ما يخصهم أثناء الطريق من مصروفات، ومن مجموع الخُبر تتكون القافلة، التي يترأسها أمير الركب.

٢/١-ترتيبها

عادة ما كان يجتمع الحجاج في جماعات كل مجموعة تضم تقريبًا عشرة أشخاص، وهذه الجماعة تسمى خُبرة، كانوا أفرادها يشتركون في السفر الطعام والشراب وفي النفقات، وإذا ما اجتمعت عشر خبر ووصل عددهم لمئة حاج أمروا عليهم أمير الحاج من أهل البلد، فعرف مثلا حجاج الحريق، وحجاج شقراء

وحجاج الخرج... وغيرهم[٥٧]. ثم تلتحق بهم ركاب الحجاج من البلدان المجاورة.

وقد أشار ابن بليهد إلى أن الركب الذي ترأسه سنة ١٣٣٢هـ كان يضم عدة خبر [٥٨] وكانت أفراد الخُبرة متكافلون ويتبعون أعراف خاصة لمعالجة المشاكل التي تعترضهم أثناء الرحلة، فمن ذلك كانت لديهم جُمل أو كلمات خاصة يتداولونها فيما بينهم للإعلان عن وقت النزول أو الارتحال أو البحث عن الضائعين أو المتأخرين منهم وهو ما يسمونه بالتنويه، أو النبهة، أو المنادي فذكر الدريس أنهم كانوا" ينوهون بالحاج بكلمات تعرفوا عليها ويرددها أفراد الخُبرة كي يعرفوا المفقود منهم، وتلحن هذه الكلمة بطريقة الحذاء بحيث تعطى بعض الحروف عدة حركات ويتناوب على التصويت اثنان، ويبدأ في التنبيه عند اجتماع الخُبرة كما تقال في موسم الحج في منى وعرفات[٥٩].

٢/٢-تجهيزها

يتم البدء بالتجهيزات قبل موعد خروج القوافل لفترات كافية، فكان على كل حاج ترتيب حاجياته الخاصة بالرحلة، وبعد عيد الفطر بيوم أو يومين كان الحجاج في الحريق والمناطق المجاورة يستعدون للخروج للرحلة، وأفاد الإدريسي بأن الرحلة من اليمامة إلى الحرمين بإحدى وعشرون مرحلة، [٦١] وحددها ناصر خسرو في ثلاثة عشر يومًا،[٦٠] أما عبد الله الدريس فقال بناء على الروايات الشفهية التي جمعها من سكان الحريق أن الرحلة من موطنه بالحريق تكون ما بين تسعة عشر يوم إلى عشرين يوم.[٦٢]

وكان يتم التنظيم لتجمع ركب الحجب بتقاليد متعارف عليها للأهالي فيجتمع أهل اليمامة ومن التحق بهم من بلاد البحرين نحو المكان المخصص لتجمع الحجاج، وعادة ما يتزامن ذلك بعقد الأسواق لكي يحصل الحجاج على مستلزمات الرحلة، وهنا كانت تعرض منتوجات أهل البادية من سمن وجمال وأقط، ومنتجات زراعية كالتمر، ولوازم السفر وحاجيات الحج من ألبسة وأغطية وفرش وأواني... وغيرها، وفي هذه السوق كانت تتم عملية تأجير أو بيع الإبل للرحلة.[٦٣] ثم يبدأ الحجاج في تجهيز رواحلهم وأروائها وتعبئة المياه وتجميع الأمتعة وربطها على ظهور الإبل. وتجهز كذلك المحمل أو الهودج لنقل النسوة ويجعلون إحداهن على طرف والأخرى على الطرف المقابل، وإن كانت إحداهن أثقل من رفيقتها تضاف للخفيفة منهن أمتعة حتى يتعادل الجانبان في الوزن، وعرف كذلك في البادية ما خُصص لامرأة واحدة وكان يسمى المِقْصَر، أو الغبيط.

٣/٢-مراسمها

من المراسم المتبعة هو تجمهر العامة عن خروج الركب في ساحة المدينة أو القرية لتوديع الركب، وغالبا ما يترافق ذلك بأهاجيز وأفراح، وكذا الحال عند عودة القافلة ووصول الخبر بسلامة الحجاج من المبشر، ويستقبل الركب في السوق أو مصلى العيد أو في مكان تثوير الحجاج نفسه. وكذلك من بين المراسم التي عرفت عن حجاج نجد واليمامة إقامة مأدبة طعام كبيرة بمكة في موسم الحج يسمونها (وليمة السلابة) وهي تعد بعد أداء مناسك الحج للمرة الأولى.[٦٤] وبعد رجوع الحجاج بسلامة يقومون بتوزيع الهدايا على أهلهم وذويهم، من ألبسة، وعطور، وبخور، وحلويات، ومكسرات، وورق الحنة...ألخ.

٤/٢-موظفوها

يضم ركب الحاج العديد من الموظفين الذين أوكلت إليهم مهام معروفة لدى أفراد الركب، وعلى رأسهم أمير الركب، والأدلاء، والرفقة، والمبشر أو المخبر.

أمير الركب: وهي أرفع الوظائف شأنا، وهو من توكل إليه مهمة تنظيم حركة سير القوافل بالطريق، وقد أفاضت كتب الفقه في الحديث عن مهام أمير الركب، ويشترط فيه التقوى، والأمانة والعلم والقدرة على اتخاذ القرار الصحيح لتفادي أخطار الطرق.[٦٥]

الدليل: يُسمى من يدل الحاج بجد بـ(دليلة الحاج)، وكذلك العرَّاف أي الذي يعرف مجاهل الطريق، ويشترط فمن يتولى هذه الوظيفة معرفة مواقع المياه والخبرة بمدى جودتها وصلاحيتها للشرب أو استهلاك الرواحل، وكذلك درايته بمواقع النجوم والأفلاك لكي لا يضل بالركب ليلاً، ومعرفة مواضع العلامات بالطرق من تلال وجبال وغيرها من الإشارات للتعرف على قدر المسافات المقطوعة وما بقي من مراحل، إلى جانب ذلك يجب أن يكون على دراية بعادات القبائل وسلوك أفرادها، وأن يكون شجاعًا فصيحا، كما يشترط فيه الصدق والأمانة، ومعرفة مواقيت الصلاة.

الرفق: وهو من يرافق القافلة في الطريق إجارتها من القبائل القاطنة على طريق الحج لقاء أجر معلوم، وهو ما يقابل خفير.

السوَّاق: وهو من يرافق بعير المحامل عندما يثور لكي يجنبه الأماكن الوعرة.

القناصة: وهم من يقومون بحماية القافلة من اعتداء اللصوص وقطاع الطرق.

المبشر: وهو من يسبق القافلة بمراحل لنقل خبر قرب وصول القافلة إلى المدينة، أو نقل أنباء أي اعتداء أو مشاكل صادفتهم بالطريق، وكان لكل خُبرة مبشرًا يتقدمهم وعادة ما يركب راحلة خفيفة لا تبطئ سرعتها ثقل الأمتعة، وربما يُعطى المبشر بشارته، من ذوي الحجاج.

٢/٥-خدمات قوافل الحجاج بالطريق

من بين الخدمات التي تقدم للحجاج بالطريق الاستضافة وتوفير مكان للمبيت في بعض المحطات، كما يقدم لهم خدمة إيداع ما تقل من أمتعتهم، حيث خصصت في بعض المحطات القريبة من الحرم محلات خاصة لإيداع حاجيات الحجاج بأجر حتى حين عودتهم، وذلك حتى يتسنى للحاج إقامة شعائره دون أن تبطئ حركة تنقله بين المشاعر المقدسة ثقل الأمتعة، وقد حوت محطتي عفلانة وعشيرة الواقعتين قرب عفيف محلات خاصة لذلك.(٦٦)

٢/٦-ترتيب سير الركب والارتحال والنزول

كان أمير الركب ومن معه من الأدلاء هم من بيدهم أمر المسير أو التوقف أثناء السفر، والأدلاءهم من يتقدمون الركب عند اقترابهم من المنزل التالي، ورحلة اليوم الواحد عادة ما كانت تتخللها فترات تتوقف فيها القافلة الاستراحة وقت الضحى وفي الليل وقت العشاء.

المُضَحَّى: يكون تقريبًا مع منتصف النهار، كان يختار للتوقف مكانًا مناسبًا من حيث توفر الماء والكلأ للدواب، وفي هذه الاستراحة تقف القافلة لتجهيز القهوة والغداء، وقد يخرج بعض الحجاج ليصطادوا ما يجدونه من طيور أو غزلان، وعادة ما يأدون صلاتي الظهر والعصر جمعًا.

المعشَّى: ويكون بعد مجيء الليل وجاءت التسمية من وقت نزول القافلة إي انه وقت العشاء، وفي هذه الأوقات كانت القافلة تتوقف للعشاء والراحة من سفر ويتوضأ الحجاج ويؤدون صلاة العشاء، ثم يردون الماء ويجهزون رواحلهم لرحلة يوم جديد، وأحيانًا يعدلون عن المبيت بالموضع ويواصلون السير ليلاً في حالة تخوفهم من خطر ما بالموضع، ويسمى سفرهم ليلاً بالمسرى.(٦٧) ومن بين العادات المرافقة لسير الرواحل بالطريق حذاء الراكب على ظهر الإبل، وهو من عادات العرب القديمة، ويقال إن سماع الإبل الحذاء ينشطها فتخف حركتها وتسرع في الخُطى، كما أن الحذاء يطرد الملل والسأم والنعاس عن الراكب.

٢/٧-وسائل النقل

اعتمد على الإبل بدرجة كبيرة في السفر للحج، فهي أنسب وسيلة للرحلة خلال المناطق الصحراوية. وكانت تصنف حسب قدرتها فمنها ما يصلح لحمل الأمتعة، وتخصص بعضها لحمل المياه، أما السريعة منها فكانت تختار لركوب الحاج(٦٨). وكان يتم أمر التجهيز للسفر قبل الخروج للرحلة، فيقوم الحجاج أما بشراء الإبل أو استئجارها، وفي حالة قلة المال كان يتفق مع أحد الحجاج على التناوب معه في ركوب الدابة، حتى حين العودة مقابل أجر معلوم للطرفين.

ثالثًا: المخاطر الأمنية في الطريق

كانت رحلة الحج من البحرين واليمامة تحفها مخاطر أمنية جسيمة، لأن الطريق تعبر مناطق سكانية مبعثرة تفصل بينها مساحات شاسعة خالية من أي مظاهر للاستقرار السكاني، وبالتالي فهي خارج نفوذ الدول القائمة بالمنطقة. وفي واقع الحال أن الأوضاع الأمنية بمحطات الطرق التجارية بكامل شبه الجزيرة العربية ظلت تعاني من خطر قطاع الطرق واللصوص حتى مع فترات قوة سيطرة الدول، واتخذت مجموعات قطاع الطرق مغارات المرتفعات الصخرية لتكون مأوى لها، وقد عُرف على مر التاريخ الإسلامي العديد من اللصوص وقطاع الطرق الذين ترصدوا لقوافل الحجاج الآتية والآيبة من الحرمين الشريفين، ولم يكن طريق حج البحرين واليمامة بمنأى عن هذه التهديدات.(٤٥) فقد سبب الفراغ السياسي في المناطق المارة عبرها طرق حج البحرين واليمامة في حالة من الصراع الدائم بين القرى والقبائل القاطنة على الطريق، وفي منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وصف ناصر خسرو - الذي عاد من رحلته إلى الحج سنة ٤٤٢ هـ/ ١٠٥١م عبر (طريق الطائف – فلج اليمامة)- بعد خروجه من مدينة الطائف وصف لنا حالة القرى القائمة على الطريق بقوله: "وقالوا وليس لهذه الناحية حاكم أو سلطان، فإن على كل جهة رئيسًا مستقلاً، ويعيش الناس على السرقة والقتل وهم في حرب دائم بعضهم مع بعض."(٤٦)

وتحدث كذلك ابن مجاور عن طبيعة الحياة داخل هذه القرى والحصون وذكر أن لكل قرية قلعة مبنية من حجر وطين وخصصت لكل مواطن حجرة يضع فيها أملاكه وما ينهب ويأخذ منها حاجياته كل يوم، ويقيم السكان في أربعة شوارع واسعة حول القلعة وتخضع كل قرية لشيخها.(٤٧) وبسبب ذلك تواجه قوافل الحجاج تهديد قطاع الطرق، ولذا كان عليها أن تسير وفق الأعراف القبلية السائدة في مناطق العبور، بالمدن والقرى التي كانت تخضع لنفوذ وسيطرة القبائل، ولكي تجتاز القوافل مناطق نفوذها عليها أن تتخذ مجير لها أو دليل من قومهم لكي

يعبر بهم أراضي قومه، وبعد أن يدخل في أرض قبيلة أخرى عليه أن يجد من يسلك به الطريق حتى تصل القوافل إلى حدود إقليم حاكم اليمامة. وقد ذكر ناصر خسرو في رحلة العودة من الحج أنه اضطر إلى البقاء بقرية جزع خمسة عشر يومًا حتى تحصل على خفير. وبعد أن وصل إلى المحطة التالية أستأجر خفيرين آخرين ليعبرا بهم القرى التالية.[٤٨]

١/٣-قطع الطريق ومنع مرور ركب الحجاج

مثلت تهديدات قطاع الطرق لقوافل الحجاج خاصة العائدين من موسم الحج أكبر الأخطار التي تواجههم. وقد اتخذت هذه المجموعات المناطق الجبلية الوعرة لتكون مأوى لها تتحصن به. وقد عرف على مر العصور التاريخية عدد من اللصوص كانت تترصد الحجاج في مختلف الطرق داخل الجزيرة العربية وخارجها. وعرف في التاريخ الإسلامي لصان يلقبان بالشَّتَّان كانا يترصدان الحجاج في محطة القاع الواقعة على طريق الحج البصري[٤٩]، وكذلك ابن الريب المازني وهو من قطاع الطرق في العهد الأموي، وكان من الشعراء المعروفين توفي بمحطة الرقمتان الواقعة على طريق الحج[٥٠] ومن بين مواضع تحصن اللصوص جبل بيسان الواقع بعد ماء العشيرة في الطريق إلى وادي العقيق[٥١]. كما عرفت موضع يسمى ركبة يقع بصحراء السيّ بكثرة اللصوص بها.[٥٢]

٢/٣-الصعوبات الطبيعية

نقصد بها المخاطر التي كانت تعترض رحلة الحجاج وتهدد طرق الحج، فقد كانت الظروف المناخية الصعبة تجبر القوافل على تغيير خط سير الرحلة، كورود خبر عن سيول، أو عدم توفر مياه الشرب بإحدى المحطات على سبيل المثال، كما قد تؤدي حدوث تغيرات مناخية كهبوب العواصف الرملية وانتشار الكثبان الرملية إلى هجر بعض الطرق نهائيا، وتحول المسافرين عنها إلى مسالك أخرى، وفي الواقع لقد مثلث الصعوبات التي اعترضت قوافل الحجاج تحدي كبير لمجهودات الدول في هذا المجال، وإن تمكنت بصورة ما في مواجهة والحد من التهديدات الأمنية، إلا أنها فيما يبدو ظلت عاجزة على تذليل الطبيعية منها. ويمكن أن تتحدد مشكلة الماء بالطريق في شقيّن وهما: ندرته وصعوبة الوصول إليه، والشق الآخر عدم صلاحيته للشرب، فقد عبرت قوافل حجاج البحرين واليمامة بلاد نجد الصحراوية، مما يعرضهم لخطر تقلبات الطقس، وندرة المياه الصالحة للشرب بالطريق[٥٣]، ونظرًا لأهمية الماء للمسافرين والحجاج فقد أسهب الجغرافيون مثل لغدا الأصفهاني[٥٤] والهمذاني في وصف الماء بالمحطات موضحين مذاقها وتأثيرها على الجسم واحتمال توفرها من عدمه. كما وضحت المعاجم الحديثة حالة مصادر المياه مثل ما جمعه ابن جنيدل في كتابه عالية نجد[٥٥] ومعجم اليمامة لابن خميس.[٥٦]

خَاتِمَةٌ

إن البلاد الإسلامية عرفت منذ أزمنة موغلة في القدم نظم إنشاء الطرق البرية لتسهيل حركة التنقل بين أقاليمها، تدفق عبرها المسافرون والبضائع التجارية، وقد اكتسبت تلك المسارات التي وصلت بين أقاليم الدولة والحرمين الشريفين أهمية خاصة انبثقت من رغبة المسلمين في تأدية فريضة الحج وزيارة المشاعر المقدسة، حتى غلب عليها تسمية طريق الحج أو درب الحاج، وقد عرفت تنظيما خاصا يتوافق إلى حد كبير مع خصوصية رحلة قوافل الحجاج التي تعبر هذه المسالك سنويا في رحلتي الذهاب والإياب، وهو ما ينعكس في طريق حجاج البحرين واليمامة، فقد عبر الأجزاء الوسطى من شبه الجزيرة العربية مخترقًا بلاد نجد، حتى يتصل بطريق الحج البصري الذي نال عناية واسعة من قبل الولاة في العهد الإسلامي. كما حرص سكان اليمامة والبحرين كغيرهم من سكان البلاد الإسلامية على تنظيم ركب الحجاج وفق تقاليد عكست الإرث الثقافي والاجتماعي الخاص بهم.

الاحالات المرجعية:

(١) محمد بن عبد الله الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ١٥٩، ١٦٠.

(٢) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٠٦م، ٢/ ٧٣.

(٣) عبد العال عبد المنعم الشامي، **إقليم العروض في كتابات الجغرافيين العرب**، جامعة الكويت، الكويت، ١٩٨٣م، ص ١٠.

(٤) ابن رسته، **الأعلاق النفيسة**، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٩٤م، ص ١٨٦.

(٥) ابن الفقيه الهمذاني، **مختصر كتاب البلدان**، مطبعة بريل، ليدن، ١٣٠٢هـ، ص ٣٢.

(٦) عبد الله بن محمد بن خميس، **المجاز بين اليمامة والحجاز**، دار اليمامة، الرياض، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ص ١٣، عبد الله بن محمد بن خميس، معجم اليمامة، منشورات دار اليمامة، الرياض، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ٢/ ٤٧١.

(٧) ابن رسته، **الأعلاق النفيسة**، ص ١٨٦.

(٨) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ص ١٨٦.

(٩) حرة كُشُب تمتد من بمحاذاة جبل كشب تقع شمال محطة مران على الطريق من اليمامة إلى مكة، ابن خميس، المجاز بين اليمامة والحجاز، ص ١٩١-١٩٢.

(١٠) لغدة الأصفهاني، **بلاد العرب**، تحقيق حمد الجاسر، صالح العلي، الرياض، ١٩٦٨م، ص٣٧١.

(١١) عبد الله سعد الدريس، **طريق حاج اليمامة عبر وادي النعام والحريق**، دار ابن الأثير، الرياض، ط٢، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ص ٢٦.

(١٢) البكري، **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م،٤/٤٨.

(١٣) لغدا، **بلاد العرب**، ص٣٦١.

(١٤) الحربي، كتاب **المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة**، تحقيق حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ١٩٦٩م، ص ٥٩٥.

(١٥) الحربي، **المناسك**، ص ٥٩١. البكري، **المعجم**، ٢ / ٦٢١، علي بن أحمد السمهودي، **وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى**، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، دار إحياء التراث العربي ط ٢، ١٩٧١م، ٣/ ١٠٩٢ وما بعدها.

(١٦) حمد الجاسر، **التعليقات والنوادر عن أبي علي هارون بن يحيى الهجري دراسة ومختارات**، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص ١٤٠٦، البكري، معجم ما استعجم، ٢ / ٦٢٨.

(١٧) إدارة الآثار والمتاحف، وزارة المعارف، **مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية**، ١٣٩٥هـ/ ١٩٥٧م، ص١١.

(١٨) إدارة الآثار والمتاحف، وزارة المعارف، مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية، ص ١٦.

(١٩) عبد الرحمن ابن خلدون (٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م)، **في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**، تحقيق خليل شحادة، سهيل زكار، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٨م، ٧/ ٤٤.

(٢٠) ياقوت، **المعجم**، ١/ ٨٠.

(٢١) القصيم موضع ذو غضا فيه مياه كثيرة وقرى، لغدا، **بلاد العرب**، ص ٣٤٠.

(٢٢) الحربي، **المناسك**، ص ٥٨٨،

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٥٨٩. بطن رمة، وادٍ عظيم يدفع عن يمين فلجة والدثينة حتى يمر بين إبانين الأبيض والأسود (جبلان). والرمة تجيء من الغور والعجاز فأعلى الرمة لأهل المدينة وبني سليم ووسطها لبني كلاب وغطفان، وأسفلها لبني أسد وعبس ثم ينقطع في رمل العيون" ياقوت، **المعجم**، ٣/٧٢.

(٢٤) الحربي، **المناسك**، ص ٥٩١.

(٢٥) لغدا، **بلاد العرب**، ص ٣٧٢.

(٢٦) محمد بن عبد الله بن بليهد النجدي، **صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار**، ط٣، مطبعة السنة المحمدية، ١٤١٨ه، ٣/ ٤٠.

(٢٧) البكري، **معجم ما استعجم**، ٢/ ١٢٥.

(٢٨) لغدا الأصفهاني، **بلاد العرب**، ص٢٣١، الهمذاني، **صفة جزيرة العرب**، ص ٢٥٠، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ٢/ ٧٢-٣٧.

(٢٩) لغدا، **بلاد العرب**، ص ٣٦٥-٣٦٦.

(٣٠) ناصر خسرو علوي، **سفرنامة**، ترجمة يحى الخشاب، الهيئة المصرية للكتاب القاهرة، ١٩٩٣م، ص ١٥٥.

(٣١) ناصر خسرو، المصدر نفسه، ص ١٥٤.

(٣٢) وادي المياه يتكون من عدة شعاب وهي: الجّرْة، السَّمَاري، وادي السلّمَ، وادي النّخْل، عَنْقُوْد، الحُفَيِّر، ثم يجتاز بلد الثُّويْم، وعُشَيْرَة حتى يلتقي مع وادي الفقي. عبد الله بن خميس، معجم بلاد اليمامة، ٢/٢٨٨.

(٣٣) لغدا، **بلاد العرب**، ص ٤١٣.

(٣٤) أبي بكر أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه، **مختصر كتاب البلدان**، بريل، ليدن، ١٣٠٢هـ، ص ٣٨.

(٣٥) إدارة الآثار والمتاحف، **مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية**، ص ١٨.

(٣٦) لغدا، **بلاد العرب**، ص ٢٣١، أبي بكر أحمد بن محمد الهمذاني ابن الفقيه، **مختصر كتاب البلدان**، بريل، ليدن، ١٣٠٢هـ، ص ٣٩-٤٠.

(٣٧) لغد، **بلاد العرب**، ص ٤٣٩.

(٣٨) لغدا، **بلاد العرب**، ص ٣٦٥.

(٣٩) الحربي، **المناسك وأماكن طرق الحج**، ص ٦١٦.

(٤٠) عبد الله بن خميس، **معجم اليمامة**، ١/ ١٠٠.

(٤١) لغدا، **بلاد العرب**، ص ٣١٦.

(٤٢) الحربي، **المناسك**، ص ٦١٦-٦١٧.

(٤٣) الهمداني، **صفة جزيرة العرب**، ص ٢٥١-٢٥٧.

(٤٤) عبد الله بن خميس، **معجم اليمامة**، ١/ ١٣٩-١٤٠.

(٤٥) صالح بن سليمان الناصر الوشمي، **ولاية اليمامة دراسة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية حتى نهاية القرن الثالث الهجري**، مكتبة الملك فهد، الرياض، ١٤١٢هـ، ص ٢٥٢.

(٤٦) ناصر خسرو، **سفرنامة**، ص ١٥٤.

(٤٧) ابن مجاور، **تاريخ المستبصر**، بريل، ليدن، ١٩٥١م، ص ٢١٤.

(٤٨) ناصر خسرو، **سفرنامة**، ص ١٥٥.

(٤٩) لغدا، **بلاد العرب**، ص ٣٧٢.

(٥٠) ابن بليهد، **صحيح الأخبار**، ١/ ١١٣-١١٤(٥٠)

(٥١) ابن بليهد، **صحيح الأخبار**، ٢/ ١٥٢.

(٥٢) السئ هو القطعة الواقعة بين منهل مران ومنهل المحدثة ابن بليهد، **صحيح الأخبار**، ٢/ ١٥٢. وقال ياقوت هو علم لفلاة على جادة البصرة إلى مكة يأوي إليها اللصوص وهو في القطعة الشمالية لركبة. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ٣/ ٢٠٧.

(٥٣) زكرياء بن محمد بن محمود القزويني: **عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص ١٠٠.

(٥٤) لغدا الأصفهاني، **بلاد العرب**، ص ٤٢٩، ٤٣١، ٤٣٤.

(٥٥) سعد بن عبد الله ابن جنيدل، **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية** (عالية نجد)، دار اليمامة، الرياض، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ٢/ ١٧٢.

(٥٦) ابن خميس، **معجم اليمامة**، ٢/١٩٦.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

معنى السيادة في أدبيات بعض نخب الحركة الوطنية التونسية أثناء الحقبة الاستعمارية
محاولة في الفهم



د. فتحي العايدي

أستاذ مساعد – قسم التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة صفاقس – الجمهورية التونسية

مُلَخّصْ

لئن حافظت معاهدة باردو (١٢ ماي ١٨٨١) على مظاهر السيادة الشكلية للبلاد التونسية، حيث استمرت المؤسسات السائدة قبل الحدث الاستعماري، فإن نظام الحماية قد تخلى عليها تدريجيًا وراهن على هياكل مغايرة مثلت بدورها عنوانًا لطمس السيادة الوطنية وإثبات سيادة المستعمر. ولما كانت نخب الحركة الوطنية متفطنة إلى أبعاد الاستعمار فقد جاءت أدبياتها مناقضة لمشاريعه وبناءً على ذلك كان الصراع من أجل التحرر محكوما بالدفاع على سيادة شرعية وأخرى زائفة ومفروضة. ومن وراء طرح مفهوم السيادة حاولنا في هذه الدراسة رصد خصوصية الحركة الوطنية التونسية ومدى قدرة مكوناتها على استثمار المنعطفات التاريخية التي أوهنت نظام الحماية وكشفت عيوبه وتناقضاته وفي جانب آخر سعت النخب السياسية بطرائق مختلفة (المقاومة العنيفة والتفاوض) إلى إقناع رموز الاستعمار في الداخل والخارج على تقديم تنازلات مثلت بدورها أولى بوادر تركيم المطالب السيادية التي حملت في معانيها الرغبة في التحرر الذي جسم السيادة الوطنية سنة ١٩٥٦. وعمومًا فإن مطلب السيادة التونسية قد عرف تطورًا مرحليًا حيث تبنته القبائل الثائرة بطريقة غير واعية أثناء ١٨٨١ واتخذت من الجهاد ضد النصارى شعارًا للدفاع على مجال تعتبره حكرًا عليها. وتدريجيًا لقي مفهوم السيادة حظوة لدى النخب الإصلاحية التي عبرت عليه في الصحافة ومع تشكل الأحزاب السياسية في العشرينات وتنوع فصائلها تجذر مطلب تحقيق السيادة وبات محورًا مركزيًا في المدونة السياسية المناهضة للاستعمار.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٠٦	مايو	٢٠٢١
تـاريخ قبــول النشــر:	٢٥	مايو	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

السيادة؛ النخبة التونسية؛ الصراع؛ استعمار؛ حركة وطنية؛ مقاومة؛ التحرر

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.231383

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

فتحي العايدي، "معنى السيادة في أدبيات بعض نخب الحركة الوطنية التونسية أثناء الحقبة الاستعمارية: محاولة في الفهم".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثاني والخمسون؛ يونيو ٢٠٢١. ص ١٠٠ – ١٠٦.

Corresponding author: aydifethi@yahoo.fr

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

تجدر الإشارة إلى أن السيادة مفهوم مستعص من حيث التحديد، إذ هو لفظ مجرد استحوذ عليه القاموس السياسي وأضحى لصيق السجل الدبلوماسي. إلا أن هذا المفهوم لا يرتبط بمعنى واحد ضيق، حيث أصبحنا نتحدث مثلا على سيادة الأرض وسيادة العائلة وسيادة رأس المال وسيادة الأحزاب وسيادة الذاكرة وسيادة المجتمع وسيادة القانون... لكن هل يمكن أن نختزل هذه السيادات في سيادة جمعية وموحدة تجسمها الدولة بما هي سيادة ينظمها القانون.

ورغم تنوع التعريفات تمكن المؤرخ وعالم الاجتماع ماكس فيبر نسبيا من التأسيس لهذا المفهوم معتبرا السيادة نمطا من السلطة لا تخضع في جوهرها إلى الإكراه بقدر ما تتسم فيها العلاقة بين الحاكم والمحكوم بالشرعية[١]. والملاحظ أن هذا التعريف وإن اعتبر معنى السيادة نقيض التبعية والطاعة، فإنه لم يخرج عن دائرة النظر في المفهوم انطلاقا من نقد طبيعة الدولة وعلاقة السلطة بالمجتمع. وهو نفس المدخل الذي صاغه كل من الكواكبي وخيرالدين اللذين عالجا مسألة الطابع الاستبدادي للحكام من خلال محاولة الحد من سيادتهم والإقرار بنمط جديد من السيادة[٢].

إلا أن التعاطي مع مفهوم السيادة في إطار العلاقة بين مستعمر ومستعمر قد يطرح عديد الإشكالات، سيما أن المفهوم في حد ذاته قد خرج من دائرة البت في شكل السلطة بين الحاكم والمحكوم إلى الطعن في شرعية سيادة المحتل وعدم الاعتراف بها من أساسها مقابل الدفاع على سيادة محلية ثابتة لكنها ظلت مهددة، خاصةً أن من مساعي الاستعمار هي فرض سيادة وطمس أخرى.

ومن هذا المنطلق يمكن أن نعتبر النضال الوطني صراعًا من أجل إثبات السيادة الحقيقية للبلاد والعباد في مواجهة سيادة مفروضة وأحيانًا "زائفة" لأنها تقوم على الخداع (مهمة تحضير الشعوب). وتبقى أشكال الكفاح وطرق قمعها محكومة برغبتين متباينتين، حيث تسعى الأولى إلى تجذير سيادة شرعية رغم نقائصها وأخرى تحاول فرض نقيضها بما يتلاءم والمشروع الاستعماري. وعموما ظل مسار تجسيم السيادة وتحقيقها في أدبيات الحركة الوطنية رهين صراعاتها وتناقضاتها مع المستعمر الذي يريد هو نفسه تأمين سيادته والتشريع لها (معاهدة باردو / معاهدة المرسى..) مقابل ذلك سادت إرادة في سحب سيادة محلية مولى عليها وبالتالي استرجاع الحق في سيادة تسيير وتدبير شؤون البلاد. وبهذا المعنى فإن ظروف نشأة سيادة الاستعمار قد رافقها نضال من أجل تقويض مساراتها. ألا يتطابق هذا الصراع بدقة مع ما ذكره عالم الاجتماع الألماني "جورج زيمل" بقوله: "إن التوق إلى الحرية وتحقيقها... ينجر عنه حالاً الطموح إلى السيادة.."[٣]. وبناء على ذلك حاولنا رصد معنى السيادة وأشكال تثبيتها انطلاقا من رؤى الفاعلين في الحركة الوطنية ودلالات أقوالهم على اعتبار أن معنى هذا المفهوم قد تطور بالتوازي مع حركية الزمن الاستعماري وكلما تجذرت مشروعية الكفاح إلا وتضاعف الوعي بشرعية السيادة الوطنية.

أولاً: معنى السيادة

(بين هواجس العامة و"براقماتية" النخب)

إن البحث في مفهوم السيادة ضمن أدبيات الحركة الوطنية بما هي رغبة في التحرر والانعتاق قد أملى علينا التساؤل حول مدى اعتبار المقاومة المسلحة في السنوات الأولى للاستعمار ضرب من ضروب المساعي للحفاظ على السيادة. هل فعلا تترجم حركة المقاومة إبان إعلان الحماية الوعي بانتهاك الاستعمار لسيادة البلاد؟

بالعودة إلى التعريف الذي قدمه عبد الله العروي للسيادة التي يرى أنها "كل ما يستوعبه الفرد ويترجمه إلى ولاء يعطي ركيزة معنوية قوية للدولة"[٤] تصبح المقاومة على "عفويتها" الوجه المعنوي الذي يجسد شرعية الدولة. ومهما يكن من أمر ما دام فعل الدفاع على السيادة حاضرًا، فإنه يصبح للشعور الوطني الذي رافق القبائل معنى ومغزى حتى وإن كان دفينًا[٥]. ألم تتوحد القبائل وتجاوزت نسبيا خلافاتها على اعتبار أن الاستعمار عدو يهدد كيانها وسيادتها كما تراها وتتفهمها[٦]. ألا يعد هذا السلوك وعيا جليا بتعارض سيادة أجنبية مع سيادة محلية؟ هل يختزل فعل المقاومة في حد ذاته الوعي بسيادة "وطنية" مهددة؟

إذا لم تكن ردود الفعل إزاء الظاهرة الاستعمارية كذلك فبماذا يمكن أن نفسر نقد محمد الصادق باي من قبل زعماء المقاومة لما شاع خبر "بيعه البلاد" وبلغ الأمر حد التهكم عليه من خلال تنظيم القصائد الشعرية حول شخصه واتهامه بالخيانة.[٧] إن استنطاق ذاكرة المقاومة وإعادة إنعاشها يؤكد نسبيًا وعي الأهالي بخطورة ما يجري وما تشبثهم بواقعهم المحلي إلا في معنى من معانيه الحفاظ على سيادة رغم نقائصها. وعموما تعد المقاومة رغم هناتها وإخفاقاتها إرادة ووعيًا جنينيًا لحماية سيادة تاريخية سادت على المجال ومكوناته البشرية.

وتدريجيًا مثل العمل الصحفي أولى الأشكال الأدبية للتعبير على السيادة الوطنية وتجلى في ما نادت به جماعة الحاضرة من ضرورة احترام الشعائر والمعتقدات الدينية وجدوى إقامة شواهد للأمة التونسية تدل على وجودها (إصلاح التعليم التقليدي/ التمثيل في المجالس النيابية...) وكانت الغاية من ذلك "المحافظة على القيم الثقافية الوطنية".[٨] وبالتوازي مع تأسيس حركة الشباب التونسي (فيفري ١٩٠٧) تبلور مفهوم السيادة وأصبحت معانيه أكثر وضوحًا خاصّة بعد صدور جريدة "التونسي" الناطقة باللغة الفرنسية. وفي هذا السياق عكست أغلب مقالات عبد الجليل الزاوش وعلي باش حامبة عن الدستور ومسألة النهوض بالتعليم ومقالات أحمد الصافي عن التجنيس وعيا بطمس الاستعمار لمعالم السيادة الوطنية.[٩] بيد أن مضامين هذه المقالات بقدر ما كانت جريئة في طرحها كانت نتاج نزعة إصلاحية لا ترى في تجسيم بعض مرتكزات السيادة مسا بمهمة فرنسا في تونس، بل كان تقديم هذه المطالب على أساس سياسة مشاركة التونسيين في إدارة شؤون بلادهم إلى جانب الفرنسيين. وفي هذا الإطار يذكر علي باش حامبة: "..فعندما يطلب الشباب التونسي قدرًا كبيرًا من الحرية والنور والعدالة فهو لا يتنكر لفرنسا كما يوحي البعض وإنما يؤكد بوضوح ثقته في أمة يعرفها ويقدر تاريخها المجيد".[١٠] والأهم من ذلك كان مفهوم السيادة في علاقة بفكرة الجامعة الإسلامية.[١١]

هل يعكس هذا التمشي الذي توخته حركة الشباب تخاذل عناصرها أم أن إكراه الواقع وموازين القوى قد حتم اتباع سياسة المراحل لتجسيم السيادة؟ لا شك أن تركيز زعماء الشباب في مطالبهم على نقد تناقضات نظام الحماية كان الهدف من ورائه إرغامه -دون الدخول في مواجهات معه- على تقديم تنازلات ستمثل هي بدورها مدخلا لإثبات السيادة المحلية وإعادة إنتاجها وبذلك كان مبدأ تكريس السيادة خاضعا في تصورات جماعة "التونسي" لمسار لا يتعارض فيه المشروع الاستعماري وأبعاده مع رغبة النخب في تطوير شؤون بلادها. **لكن إلى أي مدى كان هذا الخيار ناجعًا في تحقيق السيادة الوطنية بمختلف جوانبها؟**

يبدو أن سياسة التشريك ومحاولة إقناع الأوساط الاستعمارية بجدوى الاعتراف بسيادة التونسيين في تدبير شؤونهم من خلال انتدابهم في الوظائف وتمثيلهم في المجالس لم تكن مجدية في ظل مناهضة غلاة المعمرين لهذا التوجه وبذلك فشل هذا الطرح وانتهى الأمر بمعارضة حركة الشباب التونسي لإجراء تحويل مقبرة الزلاج ملكا بلديا ورأت في ذلك انتهاكا لسيادة الأهالي على هذه المقبرة بل واعتبرت ذلك مسًا بالشعائر الدينية وخصائص الشخصية التونسية.[١٢] والملاحظ أن النفي والإبعاد قد غذى لدى زعماء حركة الشباب مراجعة طرق نضالهم في فرض مظاهر السيادة التي عبرت عليها مجلة "المغرب".

ثانيًا: تباين بدائل التنظيمات السياسية وتطورها في طرح مفهوم السيادة وتوظيفه

لقد ترسخ مفهوم السيادة والرغبة في تجسيمها أكثر مع نشأة الحزب الحر الدستوري من ذلك تضمن كتاب "تونس الشهيدة" مطالب تعكس مشاغل الوطنيين ورغبتهم في التكريس الفعلي لسيادة البلاد من خلال الدعوة إلى تنظيم السلط العمومية وضمان الحريات وإصلاح الإدارة بما يضمن حق التونسيين في الوظائف بمعزل عن أفكارهم ومعتقداتهم.[١٣] كما تجلى حرص الحزب الحر الدستوري على تحصين مقومات الشخصية التونسية من خلال الدفاع ع اللغة العربية وإصلاح العدلية. ومهما يكن من أمر، حمل منعطف العشرينيات بوادر الاعتراف بالسيادة التونسية، حيث تم إنشاء وزارة للعدلية (أفريل ١٩٢١) كما تم انتزاع حق التونسيين في التشريع من خلال تأسيس المجلس الكبير(جويلية ١٩٢٢) الذي عوض الندوة الاستشارية.[١٤] ولما توخى قادة الحزب الدستوري سياسة الوفود فقد ارتأى مساندة الباي لمطالبهم باعتباره رمزًا لسيادة البلاد مهما كانت مواقفه. وفي هذا المستوى يمكن أن نعتبر محاولة محمد علي الحامي تأسيس نقابة وطنية مستقلة عن النقابات الأجنبية هي في النهاية شكل من أشكال تكريس سيادة العمال الذين عانوا لردح من الزمن من حيف التمييز في الأجور والتشريعات.[١٥] هذا ولا ننسى مواقف الطاهر الحداد الذي انتقد مثلاً وضعية الفلاحين بعد أن سحب الاستعمار منهم سيادتهم على أراضيهم.[١٦]

وإن اعتبرت مطالب الحزب الدستوري المتعلقة بالسيادة التونسية في مجملها امتدادًا للحركة الإصلاحية التي راهنت على سياسة التشريك، فقد عرف المفهوم تدريجيًا نقلة نوعية من حيث الطرح بالتوازي مع التحولات التي شهدها المجتمع التونسي في ثلاثينيات القرن العشرين وتجلى ذلك في المقالات التي كتبها الحبيب بورقيبة معتبرًا الحفاظ على السيادة وضرورة حمايتها هدفًا يسعى العمل الوطني من خلاله إلى مواجهة

الإدارة الاستعمارية التي سعت منذ فرض معاهدة الحماية إلى تحطيم مقوماتها. ولمزيد تأصيل المفهوم رأى بورقيبة أن الحفاظ على السيادة هو في نهاية المطاف مقاومة لمحاولات طمس للشخصية التونسية. وكان الربط بين السيادة ومعالم الشخصية في تقديرات النخب السياسية ضروريًا طالما أن الأولى هي نظريًا الشكل الذي يحمي الذاتية التونسية وخصوصياتها وصدا للمشاريع الاستعمارية. ولعل في هذا السياق ينخرط دفاع بورقيبة على الحجاب(١٧) ومقاومة مسألة التجنيس. وأكثر من ذلك انتقد وضع بعض المؤسسات التي تعتبر رمزا من رموز السيادة مثلما هو الشأن بالنسبة إلى القضاء الشرعي.(١٨)

وعمومًا وإن حافظ جماعة "العمل التونسي" على جوهر الطرح الذي قدمه رواد حركة الشباب والحزب الدستوري من ألا يتم استرجاع السيادة بمعزل على فرنسا نفسها(١٩) فقد قطعوا مع سياسة التشريك واستبدالها بمفهوم "التعاون الحر" وهو خيار كان الهدف منه محاولة التأثير في تصورات السلطة الاستعمارية لنظام الحماية في حد ذاته بما يجعل سيادة الدولتين الحامية والمحمية على درجة متساوية كما تضبطها نظريًا معاهدة باردو.

وقد برز مفهوم السيادة ومعناه أكثر وضوح بالتوازي مع رغبة الحزب الدستوري الجديد في تجذير كيانه من خلال فكرة الاتصال بالجماهير التي يعتبرها هي ذاتها مصدرًا من مصادر سيادته كحزب سياسي. ودفاعا عن المؤسسات الأهلية ظهرت عديد المقالات الصحفية التي انتقدت طبيعة السياسة الاستعمارية في اختيار القياد (العمال) والتي اعتبرها يوسف الرويسي في كتاباته تعد على السيادة البلاد خاصة أن نظام الحماية قد أسند هذه الخطط لغير مستحقيها وهم من معاونيه. وفي هذا السياق يتساءل: "كيف يعقل إسناد وظيفة تتشخص فيها سيادة الحكومة التونسية إلى بعض قدماء المحاربين..؟ إن للاستعمار بهذه البلاد برامج منظمة وطرق مسنونة كلها ترمي إلى محق السيادة التونسية".(٢٠)

ورغم تآمر نسبة كبيرة من القياد ضد قيادات الحركة الوطنية فقد دافع الدستوريون على حرمة مؤسسة القيادة ودعوا إلى عدم توهين سلطة القايد باعتبارها "السلطة الوحيدة التي بقيت للتونسيين"(٢١) وأنها "تمثل بحق الشخصية التونسية.(٢٢) وأعمق من ذلك اعتبر إضعاف سلطة القايد تقليصا من سلطة الباي.(٢٣) وبلغ الأمر حد المطالبة بتحرير القياد من سلطة المراقبين المدنيين والدعوة إلى أن يكون وضع القايد مشابها لمكانة الوالي في فرنسا. ولعل صدور أمر ٣١ ماي ١٩٣٧ المنظم لسلك القياد يُعَدّ نتاجًا لهذه الموجة من الانتقادات التي عكست حال أعرق المؤسسات الأهلية التونسية.

وفي المجال الاقتصادي قدم محمد شنيق(٢٤) عرضًا بين فيه تردي قطاع الحرف وقد دافع على الشاشية لحمايتها كحرفة من الاندثار واعتبرها رمزًا من رموز السيادة.(٢٥) ويبدو حرص الدستوريين على الاهتمام بمرتكزات السيادة في هذا الظرف مرتبط بطرح مسألة (١٩٣٧) السيادة المزدوجة في فترة المقيم العام "أرمون قيون".(٢٦) وفي إطار حق الأهالي التونسيين في تقرير مصيرهم استثمر قادة الحركة الوطنية أحداث أفريل ١٩٣٨ وطالبوا بفرض سيادة التمثيل الحقيقي للشعب دون أية وصاية. ولما تعطل العمل الوطني بفعل التضييقات التي انتهجتها السلطة الاستعمارية إبان اندلاع الحرب العالمية الثانية تم توظيف الشأن الثقافي لإبراز عيوب نظام الحماية مقابل تعزيز ملامح ومعالم السيادة المحلية.

ومع اعتلاء المنصف باي العرش (١٩جوان ١٩٤٢) بادر بترميم صورة العائلة الحسينية نظرًا لما تحمله من رمزية سيادية وسياسية، وكان من أهم مطالبه التي قدمها في لائحة إلى الحكومة الفرنسية إنشاء برلمان تشريعي يكون التونسيون ممثلين فيه تمثيلاً حقيقيًا. وللمرة الأولى تفاعل التونسيون مع حكومة محمد شنيق الأولى التي كونها الباي (١جانفي ١٩٤٣) و"أراد من خلالها إظهار استقلالية السلطات التونسية وإمكانية اتخاذ الباي الممثل للسيادة التونسية قرارات بمنأى عن المقيم العام".(٢٧) وقد رأى الدستوريون في هذه الوزارة الاضطلاع بمهمة "الدفاع عن كرامة التونسيين وشرف البلاد واستقلالها الذاتي".(٢٨)

والملاحظ أن قرار إقالة المنصف باي (١٤ماي ١٩٤٣) لم يثن البعض من قادة الحركة الوطنية من التأكيد على مسألة السيادة من ذلك وجه الهادي نويرة مذكرة إلى المقيم العام (٨مارس ١٩٤٤) موضحا أن معاهدة الحماية لا تنفي وجود دولة تونسية ممثلة في شخص الباي.(٢٩) ولئن تم تأسيس الاتحاد العام التونسي للشغل (٢٠ جانفي ١٩٤٦) في ظل الفتور الذي عرفه النشاط السياسي، فقد رغب حشاد في إحياء تجربة الحامي بما يضمن استقلالية العمل النقابي وفي ذلك معنى من معاني تكريس السيادة الفعلية للعمال التونسيين في الدفاع عن مصالحهم.(٣٠)

وبدوره أثار مضمون اللائحة التي أفرزها مؤتمر الاستقلال (٢٣ أوت ١٩٤٦) قضية السيادة بجدية من ذلك أقرت اللائحة المذكورة "أن البلاد التونسية قبل ١٨٨١ كانت دولة تتمتع بسيادتها التامة....وحيث أن سيادة البلاد التونسية معترف بها من مجموع الدول وقد أيدتها المعاهدات العديدة مع الدول الأجنبية....وحيث أن معاهدة باردو لم تكن لتفصل البلاد التونسية على المجموع الدولي ولم تلغ سيادتها الخارجية والداخلية...فلهاته الأسباب يصرح المؤتمر الوطني التونسي بأن الحماية نظام سياسي واقتصادي لا يتفق مطلقا مع مصالح الشعب التونسي ولامع حظه في التمتع بسيادته....و يعلن عزم الشعب التونسي ...الانضمام كدولة ذات سيادة لجامعة الدول العربية وجامعة الأمم المتحدة ..".[٣١]

وخلال هذه الحقبة ظهرت أدبيات تعكس تشبث النخب السياسية بالسيادة الوطنية من ذلك ألف الحبيب ثامر سنة ١٩٤٨ كتابًا بعنوان "هذه تونس" مبينًا مسؤولية فرنسا في فقدان البلاد التونسية لسيادتها من ذلك قوله، " بمجرد أن اغتصبت فرنسا مقاليد الحكم من أيدي أصحاب البلاد أسرعت إلى تقويض دعائم هذا النظام فألغت الدستور وحلت المجلس التشريعي وبذلك أصبحت بيدها كل الوسائل التامة لإصدار سلسلة من القوانين التي تمكنها من السيطرة على البلاد..".[٣٢]

وفي الاتجاه نفسه أصدر علي البلهوان كتابه "نحن أمة" وانتقد الأشكال التي توختها فرنسا لسحب السيادة التونسية من ذلك قوله: "..إذا سلمت الدولة الضعيفة أشياء من سيادتها إلى دولة قوية تحت تأثير الضغط والقوة فإن ذلك يعد فاسدا طبق مبادئ القانون. هكذا... تسلمت فرنسا جزء عظيما من السيادة التونسية وخولت لنفسها الحق في أن تملي على الدولة التونسية ما تريد من الإصلاحات... وبذلك حلت السيادة الفرنسية محل سيادتنا.. لقد أخذت فرنسا تقرض تلك السيادة كما يقرض الجرذان أصل شجرة عظيمة ليسقطوها...وهنا أيضا يظهر تدليس الاستعمار لأنه لم يقض على السيادة التونسية جهارا بل تسلل إليها...حتى استحوذ عليها استحواذا ..صارت هكذا مؤسسات الدولة التونسية قوالب جوفاء قد امتص الفرنسيون لبابها..(إن الدولة) إذا لم تناضل عن حياتها ...تسلط عليها غيرها فابتلعها".[٣٣]

ومباشرةً بعد عودته من المشرق (٨ سبتمبر١٩٤٩) تحول بورقيبة إلى فرنسا (١٢أفريل ١٩٥٠ لعرض مشروع إصلاحات تضمن سبع نقاط تمحور أغلبها حول التكريس الحقيقي لمبدأ السيادة الوطنية ومنها بالخصوص إقامة سلطة تنفيذية تونسية تعبر على سيادة البلاد وتشكيل حكومة تونسية صرفه وإحداث بلديات منتخبة وبعث مجلس وطني منتخب مهمته الإعداد لدستور يضبط العلاقات بين تونس وفرنسا على أساس احترام السيادة. إلا أن هذا النشاط قد اقترن بمناهضة عديد الأوساط الاستعمارية لهذا التمشي. وقد عبرت عن هذا التوجه مذكرة ١٥ ديسمبر ١٩٥١ التي أعلنت على تمسك فرنسا بمبدأ السيادة المزدوجة وهو ما فتح الباب لخوض معركة التحرير والتجسيم الفعلي للسيادة. وليس من قبيل الصدفة أن يكتب بورقيبة في هذا الوقت بالذات مقالاً اعتبر فيه أن المشكل التونسي الفرنسي هو مشكل سيادة.[٣٤] ولئن أفضت أساليب النضال السياسي وأشكال المقاومة المسلحة إلى تحقيق الاستقلال الداخلي وبداية الاعتراف بالسيادة التونسية (خطاب منداس فرانس ٣١-٠٧-١٩٥٤)،[٣٥] فقد أقرت اتفاقيات ٣جوان ١٩٥٥ السيادة التونسية. إلا أن تقييم ما تضمنته هذه الاتفاقيات من نقائص قد مثل مدخلا لنقد أبعادها وأكثر من ذلك منطلقا للانشقاق، حيث اعتبرها صالح بن يوسف مسا بالسيادة التونسية لأنها منحت الدفاع والشؤون الخارجية لفرنسا كما أبقت على حق الفرنسيين في امتلاك الأراضي ورأى أن فرض السيادة الحقيقية لا يتم إلا في إطار سيادة مغاربية.

ومهما يكن من أمر مثل برتوكول الاستقلال اعترافًا قانونيًا بسيادة تونس التي تمت مأسستها من خلال انتخاب مجلس تأسيسي (٢٥-٣-١٩٥٦) وتشكيل حكومة وطنية (١٤-٠٤-١٩٥٦) كما تم إنشاء جيش وطني واسترجعت المصالح الأمنية ببعث سلك للحرس الوطني (أفريل ١٩٥٦). وقد تجسمت السيادة الخارجية من خلال تعيين سفير لفرنسا بتونس معوض خطة المندوب السامي، ومن نتائج ذلك انضمام تونس كعضو في منظمة الأمم المتحدة (١٢-١١-١٩٥٦) وانخراطها فعليا في جامعة الدول العربية (١-١٠-١٩٥٨). إلا أن تواصل الحضور العسكري الفرنسي بالبلاد التونسية جعل من هذه السيادة منقوصة في تقديرات قطاع من النخب والبعض من العامة. وفي هذا السياق كانت معركة الجلاء العسكري ببنزرت (جويلية ١٩٦١) آخر حلقات الكفاح لاكتمال معالم السيادة الوطنية والتي انتهت بسن قانون الجلاء الزراعي (١٢ماي ١٩٦٤).

خَاتِمَةٌ

إن المتتبع لتاريخ تونس المعاصر يلمس وعي النخب السياسية بأن السيادة هي جوهر التناقض والعداء بين المستعمر والمستعمر وليس من اليسير استرجاعها بحكم موازين القوى اللامتكافئة. ومن هذا المنطلق تشكلت ملامح السيادة الوطنية على مراحل وولدت على دفعات، ذلك أنه إلى حدود ثلاثينيات القرن العشرين لم يكن من السهل طرحها بجدية بمعزل على مقومات الظاهرة الاستعمارية. وإن تباينت طرائق وأشكال إعادة بناء السيادة المفقودة بين مختلف مكونات الحركة الوطنية فقد استثمرت الأحزاب السياسية المنعطفات التي أوهنت نظام الحماية مقتنصة المناسبات التي أبرزت عيوبه وتناقضاته لإقناع رموزه وأحيانًا إرغامهم على تقديم تنازلات مثلت بدورها أولى بوادر تركيم المطالب السيادية التي حملت في معانيها الرغبة في التحرر.

هل بات مفهوم السيادة ومعناه ثابتًا بعد الاستقلال كما طرحته التشكيلات الحزبية في الفترة الاستعمارية؟ هل تغير معنى السيادة لدى الحزب الدستوري من حزب حركة وطنية إلى حزب حاكم؟ نطرح هذه التساؤلات على ضوء المسار التحديثي الذي دعا إليه النظام الورقيبي حيث لم يعد الحجاب ولا الشاشية عنوان الهوية والشخصية ولا هما جزء من سيادة البلاد، بل تحت غطاء شرعية النضال واحتكارها هيمنت سيادة حزب الدولة القائم أساسًا على سيادة الأفراد والزعامات. وإن كانت في السابق مفاهيم مثل الحرية والديمقراطية من دعائم السيادة فقد أضحت في ظل نظام الحزب الواحد نقيض السيادة من ذلك اتهمت نواة المعارضات الناشئة بمحاولات تحطيم أسوار تلك السيادة والتآمر ضدها.[٣٦] ألا تكون السيادة استراتيجيًا الدولة لتحصين نفسها؟ هل يكون نضال الأحزاب زمن الاستعمار من أجل تحقيق سيادة البلاد هو في نهاية المطاف سعي إلى تجذير سيادتها هي نفسها بما يضمن هيمنتها وحيازتها للقوة.

الاحالات المرجعية:

(١) فيبر (ماكس)، **الاقتصاد والمجتمع**. (ترجمة محمد التركي). بيروت، ٢٠١٥ ص ١٣.

(٢) الكواكبي (عبد الرحمان)، **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**. القاهرة، ٢٠١٣، (ط٢ /تحقيق محمد فتحي أبوبكر) انظر الفصل المعنون "ما هو الاستبداد؟ (ص ص٥٥-٦٤) والفصل الأخير "الاستبداد والتخلص منه" (ص ٢١٥-٢٣٤). التونسي (خير الدين)، **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**. تحقيق على الشنوفي، تونس، ١٩٧٢. ص ٢٢.

(٣) سيمل (جورج)، **علم الاجتماع**. ١٩٠٨ ص ١٩٧ (ذكره ماكس فيبر في كتابه، **الاقتصاد والمجتمع**.. ن.م ص ٩٤.

(٤) العروي (عبدالله)، **مفهوم الدولة** . بيروت، ١٩٨٤. ص ٣٩-٤٠

(٥) الشابيي (لطفي)، "ملاحظات حول بروز الوعي الوطني التونسي (١٨٨١-١٩٣٩)" في ، **الثقافات والوعي الوطني في العالم العربي المعاصر** . منشورات مؤسسة التميمي. تونس، ١٩٩٩.ص ١٧٥-١٨٨.

(٦) العايدي (فتحي) ، جوانب من المقاومة المحلية بالأرياف : انتفاضة وادي الزرقة وتبعاتها نموذجا (١٨٨١-١٨٨٥). **روافد** ، عدد ١٠، ٢٠٠٥ .

(٧) بلحولة (محمد علي) ، **الجهاد التونسي في الشعر الشعبي : مائة عام من تاريخ تونس**. تونس، ١٩٧٨.

(٨) الدقي (نورالدين)، **حركة الشباب التونسي** . تونس ، ١٩٩٩.ص ١٠. انظر مثلا مقال علي بوشوشة الوارد بجريدة **الحاضرة** (٢٠-١١-١٨٩٤) بعنوان "مطالبنا".

(٩) لقد عرب الأستاذ نورالدين الدقي هذه المقالات وهي واردة في كتابه المذكور ، **حركة** ...ن.م (ص ص ٥٣-٩١).

(١٠) (ن.م ص ٦٠) Le Tunisien 24-09-1908

(١١) انظر مقالي الثعالبي الواردين بجريدة **الاتحاد الإسلامي** (١٩-١٠-١٩١١ / ٢٣-١٠-١٩١١).

(١٢) يمكن العودة إلى مقالات علي باش حامبة الواردة في جريدة (Le Tunisien 13-11-1911 et 16-11-1911)

(١٣) **تونس الشهيدة**. دار الغرب الإسلامي، ط١ ، ١٩٨٤(الفصل الأول ص ١٧).

(١٤) لقد انتقد علي بوشوشة هذا الهيكل منذ بعثه في مقال وارد بجريدة الحاضرة (٨-١٢-١٨٩٨). وعن دور المجلس الكبير يمكن الرجوع إلى جلاب (الهادي) ، هياكل التمثيل الرسمية في عهد الحماية. **روافد** عدد ٤ ، ١٩٩٨، ص ٥٥

(١٥) الشابيي (لطفي)، **الحركة الوطنية التونسية والمسألة العمالية ١٨٩٤-١٩٠١**. مركز النشر الجامعي، تونس. ٢٠١٠، ج١، ص٢١٢-٢١٣.

(١٦) الحداد (الطاهر)، **العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية**. تونس، ١٩٧٦.ص ٢٩-٣١.

(١٧) انظر مقاله الصادر بجريدة .L'Etendard Tunisien 11-01-1929

(١٨) البؤس الكبير للقضاء التونسي (L'Action Tunisienne 25-11-1932.)

(١٩) La Voix du Tunisien (23-02-1931)

(٢٠) **العمل** ٥-٠٦-١٩٣٤.

(21) L'Action Tunisienne 23-12-1936.

(٢٢) **النهضة** ٢٨-١٢-١٩٣٦.

(٢٣) **لسان الشعب** ٢٨-١٢-١٩٣٦

(٢٤) من أبرز رجال الأعمال والسياسة زمن الحماية، ترأس الحجرة التجارية الأهلية للشمال بين ١٩٢٠-١٩٤٨ كما ترأس بنك " التعاضد المالي" الذي تأسس سنة ١٩٢٢. دخل المجلس الكبير وترأس القسم التونسي به، ثم بعث سنة ١٩٣٨ "الجامعة العامة للنقابات التجارية والصناعية التونسية"، كما أنشأ الشركة التونسية للغزل والنسيج. كلفه المنصف باي برئاسة الحكومة سنة ١٩٤٢ ثم أعاد تكليفه الأمين باي برئاسة الحكومة التفاوضية سنة ١٩٥٠. ومع تأزم الوضع سنة ١٩٥٢ أبعد إلى قبلي رفقة أعضاء حكومته حيث قضى ثلاثة أشهر في المنفى.

(٢٥) **النهضة** ٨ ماي ١٩٣٧.

(٢٦) تولى شؤون الإقامة العامة بين أفريل ١٩٣٦ وأكتوبر ١٩٣٨

(٢٧) جماعي، **موجز تاريخ الحركة الوطنية (١٨٨١-١٩٥٦)**، تونس ٢٠٠٨ . ص ١١٧.

(٢٨) **أفريقيا الفتاة** ١٨-٠١-١٩٤٣.

(٢٩) جماعي، **موجز**...ن.م

(٣٠) انظر من بين مقالات حشاد الواردة في جريدة **"صوت العمل"** بتاريخ ٣١-٠٥-١٩٤٧ / ١٣-١٠-١٩٤٧ /٢-١١-١٩٤٧.

(٣١) **النهضة** ١٣ ماي ١٩٤٧ ذكرها، الدقي (نورالدين)، **تونس من الإيالة إلى الجمهورية ١٨١٤-٢٠١٤**. تونس، ٢٠١٦. ص ١٧٥.

(٣٢) ثامر (الحبيب)، **هذه تونس** .١٩٤٨.

(٣٣) البلهوان (علي)، **نحن أمة**. ١٩٤٩ ص٣١-٣٣ وص٣٥-٣٦.

(34) Bourguiba (H), Le problème franco-tunisien est un problème de souveraineté, in, **Les Temps Modernes**. Mars, 1952.

(٣٥) انظر ما كتبه علي البلهوان في هذا الظرف مبينا بأسلوب عميق أن فرنسا وإن اعتدت على السيادة التونسية داخليا وخارجيا، فإنها لم تقدر على محو الشخصية الدولية لتونس. (**تونس الثائرة**، القاهرة ١٩٥٤).

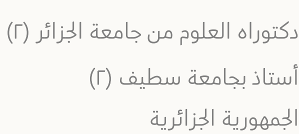
(٣٦) يمكن العودة إلى عناوين الاتهامات التي ألصقت بالعناصر المشاركة في المحاولة الانقلابية (ديسمبر١٩٦٢). انظر في ذلك، بوقره (عبد الجليل)، مقاربة تاريخية حول المحاولة الانقلابية لسنة ١٩٦٢ وتداعياتها. **المجلة التاريخية المغاربية**، عدد ١٠٢-١٠٣، ٢٠٠١

مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

جوانب من جهود التعليم للعلاَّمة ابن باديس في الجزائر
الغايات والمكاسب



د. معيوش براهيم
دكتوراه العلوم من جامعة الجزائر (٢)
أستاذ بجامعة سطيف (٢)
الجمهورية الجزائرية



مُلَخّص

ما من شك أنَ التعليم ركيزةٌ أساسيةٌ من الركائز التي تقوم عليها المجتمعات، لذلك بعد الهجمة الفرنسية التي تعرضت لها الجزائر أولى الفرنسيون اهتمامًا بالغًا به وتبنوا استراتيجيات كثيرة لإعادة بناء المنظومة التعليمية بالشكل الذي يخدم مشروعهم الاستعماري، لكنهم كانوا بين الفينة والأخرى يصطدمون بعلماء مقتدرون تجَذر فيهم حب العلم ورفع صروحه على غرار العلاَّمة عبد الحميد بن باديس الذي كان له نشاطٌ تعليميٌ استطاع من خلاله أن يُحقق في تلك الظروف الحالكة مكاسب أثرت بشكل عميق في مشروع بعث الجزائر من جديد وهي الحقيقة التي لا يُنكرها إلا أصحاب الفكر المُترَمّت، ويروج عكسها بعض الباحثين الذين لا يستطيعون الكتابة عن الموضوع خارج دائرة الأيدولوجيا، وانطلاقًا من فكرة أنَ الكتابة في التاريخ ليست جازمة غُدنا للموضوع لمناقشته من غير طابوهات وذلك بالاعتماد على نهج فكري خال من المسكوت عنه والمحجوب بالمغالطات، ذلك لأنه كثيرًا ما يجد القُراء أنفسهم في غمرة النقاش الدائر حول الهوية والذاكرة الجماعية للجزائر ممزقين بشكل عام بين ولائين فكريين إثنيين أحدهما منتصر للمشروع الإصلاحي لهذا العلامة والذي يُعَدّ التعليم أحد ركائزه الأساسية لأنَه وسيلة لتجديد الفكر والثقافة والآخر رافض له من منطلق أنَه مشروع يقوم على فكر رجعي يمنع معاصرة ما يستجديه الزمن من تغيرات في مظاهر الحياة المختلفة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٩	فبراير	٢٠٢١
تـاريخ قبــول النشــر:	١٨	مارس	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

التعليم؛ ابن باديس؛ إصلاح التعليم؛ التعليم في الجزائر؛ الاحتلال الفرنسي

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2021.231391 DOI

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

معيوش براهيم، "جوانب من جهود التعليم للعلامة ابن باديس في الجزائر: الغايات والمكاسب".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثاني والخمسون؛ يونيو ٢٠٢١. ص ١٠٧ – ١١٥.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: mayouchebrahim@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقدِّمَةُ

مباشرة بعد المُداهمة الفرنسية التي شهدتها الجزائر وضعت السلطات الاستعمارية يدها على كل المؤسسات التي كانت تعني بالتربية والتعليم وحوّلت الكثير منها إلى كنائس ومقرّات إدارية وحتى إلى ثكنات للعسكر، الشيء الذي جعل الأمر في الجزائر يصل إلى الاحتقان جرّاء هذه السياسة التعسُفية التي كان لها تأثير يفوق كل تصور حيث وصل الحد بها إلى تفشي الأمية بشكل يكاد يكون مُطلقًا بعد أن كانت الجزائر إلى عهد قريب قبل الاحتلال قبلة للعلم والعلماء، وأمام هذا الوضع المتردي لم يعُد مقبولا تواصُل صمت النُخبة القادرة على إحداث التغيير وأصبح لزامًا على علماء الجزائر العمل على تحريك مواطن الفاعلية في العقول الجزائرية المسترخية من خلال نشر التعليم على أوسع نطاق، وبالفعل مع مطلع القرن العشرين ظهر للوجود ثلة من زينة علماء الجزائر بدت عليهم بوادر النُضج الفكري المُبّشر بالآفاق الجديدة فاختاروا سلاح الفكر والعلم لإذكاء وعي الجزائريين وتحريرهم مما يعوق نهوضهم، ولعل من أبرزهم رائد الإصلاح والتجديد بالجزائر عبد الحميد بن باديس الذي حمل على عاتقه مسئولية نشر التعليم بين أبناء الشعب الجزائري وإفشال مشاريع تهديم التعليم العربي بمشاريع مناهضة لها تمنعهم من الانسلاخ والذوبان في الكيان الفرنسي. ومع أنَ خدَام الإدارة الاستعمارية ضيَقوا على نشاطاته إلا أنّه استطاع أن يُحقق مع من تحلَق حوله من علماء الإصلاح نتائج معتبرة لا يُمكن التعامي عنها ولا تجاهلها الشاهد تلك الكتاتيب والمدارس الحرة التي تعد بالمئات تمَ تأسيسها رغم قلّة الإمكانيات لنشر التعليم بين أبناء الشعب لا فرق فيها بين ذكر وأنثى ولا بين مدينة وبادية وهو ما سنتطرق إليه في هذا المقال، لكن إتماما للفائدة رأينا أن نتحدث في نبذة مختصرة عن هذا المصلح الثائر، ثم نستعرض حال التعليم في الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي لننتقل بعده إلى ذكر الجهود الفياضة التي حاول من خلالها النهوض بالشعب وبتربيته وعلمه وكذلك الرفع من مستواه الذهني والفكري والحضاري.

أولاً: نبذة مختصرة عن حياة ابن باديس

هو الشيخ المجدد المصلح عبد الحميد بن محمد بن المصطفى بن مكي بن باديس أحد أعلام الجزائر ورائد من رواد نهضتها الإسلامية الحديثة ينتمي إلى عائلة عريقة في العلم والنسب والجاه ولد بمدينة قسنطينة عام ١٨٨٩م، وفيها بدأ رحلته في طلب العلم حيث تعلم على يد الشيخ حمدان الونيسي اللغة العربية ومبادئ الشريعة الإسلامية ولكونه أجاد حفظ القرآن الكريم قُدّم ليُصلي بالناس إمامًا على صغر سنه[١]، وبغية استكمال مشواره الدراسي توَجه إلى جامع الزيتونة بتونس مكث فيه أربعة سنين وكانت النتيجة أن حقق نجاحًا باهرًا حيث نال شهادة التّطويع العالمية وحاز على الدّرجة الأولى متفوّقًا على جميع النّاجحين آنذاك[٢]، وبعد عودته إلى الجزائر اهتم بتقديم دروس الوعظ الديني والإرشاد على مستوى الجامع الكبير المتواجد بمسقط رأسه مدينة قسنطينة لمدة قصيرة من الزمن ثم عاوده الحنين إلى طلب العلم والحاجة إلى التواصل مع العلماء المقتنعين بالتيار الإصلاحي فسافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وهناك التقى من جديد بأستاذه حمدان الونيسي الذي كان له أثر طيب في اتجاهه الديني والإصلاحي حيث أوصاه أن يطلب العلم للعلم لا للوظيفة وأخذ منه عهدا بألا يقبل الوظائف الحكومية إنْ عرضتها عليه فرنسا وهي الوصية التي عمل بها حيث رفض كل مساومات الإدارة الاستعمارية لإدخاله في صفها.

اهتم بن باديس بتأليف الرجال بدل تأليف الكتب وأولى عناية فائقة بالتربية والتعليم في أوساط الأطفال والشباب مستغلا في ذلك كل الوسائل المتاحة من الكتاتيب والمدارس والنوادي الإصلاحية والمساجد، لذلك لم يكن إنتاجه العلمي غزيرًا وكل ما وصلنا تمَ جمعه من مقالات الجرائد التي استصدرها تحت لواء جمعية العلماء المسلمين التي كان رئيسًا لها وغيرها من دروس التفسير والحديث[٣]، وقد استطاع من خلال نشاطه الفياض في التربية والتعليم أن يُبلور الفكر الإصلاحي ميدانيا ويطبَق مناهجه التربوية عمليا وأنْ يُخرَج للجزائر جيلاً جديدًا من رجال التعليم ورموز الفكر والأدب، وهو اللب المثمر لسنوات طوال كان فيها صامدا و أفنى فيها وقته وصحته ووصل ليله بنهاره لبعث الجزائر من جديد ولنهضتها التي كانت أسمى غاياتها تخليص البلاد والعباد من تسلَط الاستعمار الفرنسي انتهت بإصابته بمرض كان السبب في أن يُسلم روحه الطاهرة إلى بارئها في ١٦أفريل ١٩٤٠م فخرجت قسنطينة كلَها تودعه في جنازة مهيبة ليُدفن في مقبرة آل باديس.

ثانيًا: حال التعليم في الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي

انشغل رجال الاحتلال في الأشهر الأولى بفرض سياسة الحديد والنّار بغية فرض السيطرة على كل أنحاء القطر الجزائري بتوزيع ترسانتهم الحربية لإرساء قواعد الاستعمار، ليتفرّغوا بعد ذلك إلى استراتيجيات تُمكّنهم من إدماج وفرنسة الأهالي الذي

سوف لن يكون إلا بحصار النّظام التعليمي السائد آنذاك أو استبداله بالمدرسة الفرنسية تكون مهُمتها بالدرجة الأولي تربية نشء ناكر لذاته وحامل لمبادئ وقيّم مغايرة للتي كان عليها المجتمع وفعلاً لم تمض مدة طويلة حتى أصدرت سلطات الاحتلال أوامر يتّم بمقتضاها الاستيلاء على الأوقاف الإسلامية التي تُموّل الخدمات الدينية والثقافية والتعليمية والاجتماعية وفكرت في أنْ تحرم الجزائريين من كل روافد العلم والتثقيف فلجأت إلى المدارس والمؤسسات الناشرة للتعليم العربي التي خُرّبت وهُدّمت وحُوّل البعض منها إلى كنائس ومؤسسات إدارية ومهنية بل وحتى إلي إسطبلات لتربية الخنازير والحمير والخيول[٤]، وقد أقّر بهذا الاستخراب الثقافي أحد الضباط الساميين الفرنسيين وهو الجنرال "de lamorciere" الذي صرّح قائلاً: "حللنا بمدينة الجزائر فاتخذنا من المدارس مخازن وثكنات واصطبلات واستحوذنا على أملاكها وكنا نظن أنّنا سنُعّلم الشعب العربي (الجزائري) مبادئ ثورتنا ولكن مع الأسف رأوا في ذلك ضربة للدين والعقيدة"[٥]، كما أنّها أغلقت نحوا من ألف مدرسة يدرس فيها مائة وخمسون ألف طالب أو يزيدون[٦] مباشرةً بعد الأشهر الأولى للاحتلال بالإضافة إلي استيلائهم على ما كانت تحويه كل تلك المؤسسات التثقيفية مُمثلة في المساجد والزوايا والمدارس من أمات الكتب القيّمة والمخطوطات الثمينة وأحرقوا منها الكثير وجمعوا البعض الأخر ليُباع للمُستشرقين والمُنشغلين بدراسة الوثائق والمخطوطات وهو الشيء الذي يُفسّر وجُود كثير من المخطوطات والوثائق التي تُعبّر عن التراث الثقافي الجزائري في المكتبات والمتاحف الفرنسية.

وقد أبقت فرنسا على هذه الاستراتيجية حتى بعد مُرور عشرات السنين بل أكثر من هذا طالب البعض من مُنظري الاستعمار الاستزادة من تجهيل الشعب فهذا أحدهم يرفع تقريرا في أوائل الستينات إلى نابليون الثالث يقول فيه: "لنُعرقل قدر الإمكان تطّور الزوايا والمدارس وبكلمة واحدة يجب أنْ نعمل علي إحباط الأهالي ثقافيًا وماديًا"[٧] وبالفعل استجابت الإدارة لمثل هؤلاء المُتعصبين فراحت تعمل بكل ما أُتيح لها من وسيلة لتشديد الخناق على المدارس ومراكز الإشعاع العلمية، ما أسفر عن انتشار فضيع للأميّة في الأوساط الشعبية قاربت نسبتها النّسبة المُطلقة إذ أصبح الكثير من أفراد المجتمع صغارا وكبارا ذُكرانا وإناثا فريسة لهذه الآفة المُهلكة باستثناء قلّة قليلة ممن يحفظ القرآن والأحاديث والمُتون بعد أنْ كان معظمهم مُتعلمين ومُلّمين بالمعارف بدرجة أكبر من الفرنسيين باعتراف البعض منهم على غرار عضو مجلس الشيوخ (أوجان كومب) الذي قال:" لا شك في أنّ التعليم بالجزائر كان قبل الغزو أكثر انتشارا وأحسن حالا مما هو عليه الآن فقد كان هناك أكثر من ألفي مدرسة ابتدائية وثانوية وعالية يتولي التدريس بها نُخبة من الأساتذة الأكفاء وكان الطلاب من الشبان مُتعطشين للعلم هذا فضلا عن مئات المساجد التي تُعلّم اللغة العربية[٨].

ظلّ للتعليم مُتدهورًا طوال مدة الاستعمار إذ بقيت مؤسسات التعليم شبه غائبة في كثير من المناطق كما أنّ الأطفال الذين كانوا في سّن الدراسة ولم يلتحقوا بها ولم يتلقوا فيها ولو تعليما ابتدائيا مثلوا أغلبية ساحقة ففي سنة ١٩٣٠م مثلاً أي بعد مرور قرن من الوجود الفرنسي بالجزائر كانت نسبة الأطفال الذين لم تكن لهم أماكن في المدارس92% بينما مثّلت نسبة أقل من20% في بداية الأربعينيات عدد الأطفال الذين وجدوا مكانا في المدارس الفرنسية[٩] وفي الخمسينيات كان عدد الطلبة من أبناء الشعب قليل أيضًا بالمقارنة مع التلاميذ الأوروبيين الذين كان عددهم في مدارس الجزائر٩٧٤٠٠ تلميذ بينما لا يتجاوز عدد التلاميذ المسلمين ٨٢٨٦٤ تلميذ على الرغم من أنّ نسبة التلاميذ الأوربيين إلي التلاميذ الجزائريين ٤% فقط وهذا الفرق يرتفع في المدارس الثانوية لخمسئة ضعف أي ١٥٦ تلميذ أوروبي مقابل مُسلم واحد والباقي لا يحّقُ لهم الدخول في هذا النّوع من المدارس.[١٠]

أما التعليم العالي الذي كانت تُمثله مؤسسة واحدة فقط وهي جامعة الجزائر فلم يكن من نصيب أبناء الشعب إلا قلّة قليلة من صفوة المُتعلمين مُمثلة في ثُلّة من الأطباء وبعض المُحامين وبضعة من الأساتذة ما يجعل بالإمكان تسجيل أنّ الالتحاق بالمدرسة مُشكلة ظلّت مطروحة دائمًا كون أنّ أعداد المُتمدرسين لم يتزايد إذا راعينا تزايد التعداد السكاني للجزائريين وبقيت بعيدة عن المستوى المطلوب ليس فقط لأنّ الأهالي رفضوا التعليم وإنما لرفض الغُلاّة والمُتعصبين الأوروبيين الرافضين لكل تعليم سواء كان عربيًا أم فرنسيًا خوفًا من انتشار اليّقظة بين أفراد الشعب وبالتالي إعاقة انتشارهم في كامل ربوع الوطن، فسعوا إلى مطالبة السلطات بمنع الأهالي من التعليم مهما كانت صفته وهذا ما حدث فعلاً وأسطع دليل على ذلك ما ذكره الطبيب المارتيني (فرانز فانون) الذي سمع بنفسه كما يقول مرة مديرة مدرسة تشتكي من أنّها مُجبرة في كل سنة على قُبول بعض الأطفال الجزائريين في مدرستها[١١] وكأنّها بذلك تُريد أنْ يبقي هؤلاء

الأطفال مُستعبدين ليس عليهم سوى حمل مُشتريات الأوروبيين ومسح أحذيتهم كما كان شائعا حينذاك، وكذلك ما صرّح به السيد (فرحات عباس)أحد الفاعلين والناشطين في الحركة والوطنية والذين تكّونوا بالفرنسية وعايشوا أحداث هذه الفترة الصعبة من تاريخ الجزائر حيث قال: "لمّا كُنّا نُطالبُ الفرنسيين بفتح المدارس كان جوابهم أنّنا لسنا أهلا لها لأنّنا لا نقبل التربية ولا التعليم فأوصدوا في وجوهنا أبواب المدارس العُليا ومدارس العلوم التقنية ثُم يتهموننا بعد ذلك بأنّه ليس لنا قابلية ولا كفاءة[١٢]، وبعد أن منعت سُلطات الاحتلال التعليم في الجزائر شددّت الخناق على طلبة العلم ومنعتهم حتى من مُغادرة البلاد لتلقي العلوم في البلدان الأخرى فقد نصّب الاستعمار جدارًا حديديًا ليحول بين الجزائريين وبين العربية من جهة كما حال بينهم وبين تلقي العلم في البلدان الأخرى من جهة ثانية.[١٣]

ثالثًا: جهود ابن باديس في إصلاح التعليم بالجزائر

أمام الحالة المُتدهورة للتعليم في الجزائر وبمُضاعفة فرنسا لمضايقاتها على تعليم أبناء الشعب الجزائري وجعله حكرًا على أبناء المُعمرين وبعض من خُدّام الإدارة، استيقظ بعض العلماء واقتنعوا بضرورة العناية به وتوجيه الجُهود لتكوين أجيال جديدة مطبوعة بالطابع الإصلاحي علمًا وعملاً على غرار عبد الحميد بن باديس الذي اشتغل بالتدريس مباشرة مع عودته من تونس حيث كان التعليم شُغله الشّاغل وهو الذي أخذ قسطًا كبيرًا من نشاطه الإصلاحي حتى قرَّر حقيقة علمية جريئة تبوئه مكانة خاصةً بين علماء الأمة قاطبة، وهي كلماته الخالدة التي قال فيها أنَ العلم وحده هو الإمام المتبع في الحياة في الأقوال والأفعال والاعتقادات، والحال نفسها مع رفيق دربه الشيخ الإبراهيمي الذي درّس وكوّن الكثير من الطلبة في سطيف وضواحيها وكذلك الشيخ الطيب العقبى الذي انصّب اهتمامه بنشر التعليم في مدينة بسكرة وغيرهم كثيرون من العلماء والطلبة الأكفاء الذين تكوّنوا في معاهد وجوامع الدول الشقيقة وبعض من شيوخ الزوايا الذين التزموا بمسؤولياتهم التربوية والأخلاقية والوطنية، وقد كان طلبة العلم في الجزائر يحظّون بمكانة مرموقة واحترام الجميع، ولكن ميزة التعليم الذي كان سائدًا هي المحدودية إذْ لم يستطع القائمون عليه توجيهه التوجيه الأمثل نظرا لأنّ جهودهم كانت فردية ولا تكفي لأن يكون تأثيرها عميقًا أو لتتوسع دائرته، زيادة على أنّه بقي في صوره البدائية التي لا تتعدي في غالب الأحيان الجلوس على الحصير والقراءة الجماعية بما فيها من ضوضاء وجلبة ومحدّودية مواده التي تقتصر على تحفيظ القرءان والمُتون والنّحو، الشيء الذي حال دون وصول أغلبية أبناء الشعب آنذاك إلي المستويات العليا من العلم والدرجات الكبرى من النُّضج والوعي.

ولعل أوّل رجل فكَر في مُقاومة الأمية بصورة جدية في الجزائر هو بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين[١٤]، الذي رأى أنّ الحلّ يكمن في استجماع الجهود وتوحيدها في أواخر العشرينيات من القرن الماضي وقد شهد بذلك (محمد خير الدين) الذي ذكر أنّه قال مرة لجُلسائه والمنتصرين للتيّار الإصلاحي :"إني عقدت العزم على توجيه دعوة إلى أبناء الجزائر المتخرجين من جامع الزيتونة وكذلك العائدين من المشرق العربي لكي ندرس جميعا الحالة الراهنة ونتعاون على وضع خُطّة لإنقاذ هذا الشعب قبل فوات الأوان"[١٥]، وبالفعل بعد ظهور الجمعية التي أخذ التفكير في تأسيسها سنوات من النقاش وبمناسبة تعيين ابن باديس رئيسا لها قال كلاما يُستنبط منه أهداف وغايات هذه الهيئة التي جمعت بين علماء الجزائر ومن أهمّها نشر العلم ورفع غشاء الجهل عن أعين أبناء الشعب حيث صّرح بما يلي: "إنني قصّرت وقتي على التعليم فلا شُغل لي سواه فأردتم أن ترمزوا بانتخابي إلى تكريم التعليم و إظهارا لمقصد عظيم من مقاصد الجمعية وحثّا لجميع الأعضاء على العناية به كلٌ بجُهده"[١٦]، مع العلم أنّ العبء أصبح ثقيلا والمجهُود قد لا يكون كفيلا ما دام الجميع من دُون استثناء كانوا بحاجة إلى من يأخذ بأيديهم ويُخرجهم من الجهل إلى نور العلم النافع.

وعلى الرغم من هذه الصعوبات التي لم تكن تخفي على العلاّمة بن باديس ومن تحلّق حوله من العلماء آنذاك إلا أنّهم تعّهدوا أبناء الشعب الجزائري على الالتفاف حوله والعمل بكل السُبل في سبيل تربية النشء الصاعد التربية اللائقة، وفي هذا الصدد يقول الشيخ الإبراهيمي:" في تحقيق الغاية السليمة نجتهد ونكدح وللوصول إليها نعمل وفي العمل لها نلقي الأذى، وفي الأذى نلقي راحة الضمير والاطمئنان النفسي وببلوغهما نكون قد أدينا الأمانة"[١٧]، والبداية كانت مع تأسيس المدارس الحُرّة التي تفسح المجال لتحقيق الأهداف المنشُودة فهي مبعث الحياة وهي أوّل ما يجب الاهتمام به والسعي لتحقيقه وكل من يُعارض تأسيسها إنما يعارض في حياة الأمة ونهضتها كونها تُساعد الأجيال الناشئة على النمو السوّي المتكامل عقليا وروحيا، ولقد كانت أولى التدابير التي بدأ بن باديس والفريق

العامل معه جهودهم في إصلاح التعليم الشروع العاجل والمُباشر في تعليم الصّغار بالاستعانة وتجنيد المئات من التلاميذ المُتخرجين على أيدي رجال الإصلاح ودعوة الشباب من الطلبة الزيتونيين إلى العمل لتعليم أبناء الشعب اعتبارا من أنّ الكتاتيب والمدارس التي تقدم تعليما ابتدائيا لها قيمة بالغة لأنّها توّفر أكبر فرصة للتأثير على الصغار ما دامت عُقولهم صفحات بيضاء تقبل بأن يُشّكل فيها كثير من الأمور المتعلقة بالأخلاق والسلوك والوجدان وحب الانتماء، الشيء الذي يجعل منهم قوة تقف أمام مخططات الاستعمار التغريبية وسلاّحا في رحى المعركة الهادفة إلى تغذية العقول الجزائرية المُسترخية بما هو مُستّمدٌ من توّجه الشعب الجزائري الحضاري الذي لا يتنافي مع ثوابته ومقوّماته.

كان العلاَمة بن باديس منذ بداية نشاطه على يقين أنَ ما يرسو من حل سليم لمعالجة فعلية للوضع التعليمي المأزوم في الجزائر هو العمل بنفس الأداة ببناء مدارس تعمل في الاتجاه المعاكس وتكون مناهجها منافية لما تروّجه المدرسة الفرنسية، فالمدرستين مختلفتين تماما ووجه التعارض بينهما يكمن أساسا في أنّ القائمين على المدارس الحرة التابعة للجمعية جمعوا بين الدين والعلم بينما تفصل بينهما المدرسة الفرنسية وتُخصص للدين مؤسسات خاصة لأنّها تعتبره معرقلاً لمسيرة التطور والنماء ثُم انّه لما كانت الإدارة الاستعمارية تُصوِر في مقررات مدارسها أنّ الأمة الجزائرية لا تاريخ ولا وجود لها وتُلّقن الطلبة من أبناء الشعب في حصص التاريخ أنّ بلادهم كانت تُسمي الغال وأجدادهم يُسمّون الغاليون[١٨] كمحاولة منها لقتل الرُّوح الوطنية فيهم وتحضيرهم لنُكران انتمائهم القومي عمل القائمون على المدارس الحرة على تصفية أذهان الطلبة الجزائريين من هذه الأفكار الهدّامة بدحضها وتعليمهم طريقة التمحيص حتى لو كان يتكبد فيها الطالب عناء الدرس وطول الاستذكار، وقد اهتم ابن باديس نفسه بتدريس علم التاريخ لتلامذته حيث كان يُركز في دروسه على محاضرات التاريخ العربي والنهضة الإسلامية الحديثة ومن أهّم الكتب المقرّرة في دروسه آنذاك سيرة ابن هشام ومقدمة ابن خلدون والعروة الوثقى للإمامين جمال الدين ومحمد عبده وكذلك تاريخ العرب لغوستاف لوبون وكان يختار لتقديم مثل هذه الدروس وقتًا تغفل عنه أعين الإدارة وهو وقت ما بعد صلاة الصبح.

زيادة على الذي ذكرناه وبحكم أنَ بن باديس كان ينبذ التعليم التقليدي المحصُور في حُدود ضيّقة ويتطلّعُ دومًا إلى التجديد كفكرة تمشي في أوصاله عمل على إصلاح أساليب التعليم وطرائق التدريس حتى تتضمن مناهج تربوية أساسها تلقين تربية إسلامية منظمة ومبادئ أولية للمعارف العلمية حيث بواسطة هذه الأساليب الجديدة يتمكن التلاميذ من معرفة حقائق الإسلام وبفضل دروس المُحادثة واللغة والمطالعة والقواعد العربية ثم التحرير والإنشاء يتعلمون التخاطب السليم، وقد كان يهدف بنشاطه البيداغوجي هذا إلى إعطاء الثقافة الجزائرية محتوى إيجابيًا وإلى تحسيس أبناء الجزائريين بخصوصيتهم الثقافية، وبالإضافة إلى تشييد المدارس شجّع إنشاء الأفواج الكشفية وقد ترّأس بنفسه أول مؤتمر عقدته الأفواج الكشفية الجزائرية بالعاصمة بعد توحيدها عام ١٩٣٩م وقد كان الشعار الذي رفعه المؤتمر نفس شعار الجمعية (الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا).[١٩]

وهناك نقطة أخرى أساسية يتوجب الإشارة إليها تتمثل في تعليم الإناث اللائي غلبت عليهن الأمية المطبقة لرفض أبائهن تعليمهن لأعذار سخيفة تتعلق في مُجملها برفض الاختلاط و المُزاحمة بين الذكور والإناث وكذلك أولوية أنْ يكون القائمين على شؤون تعليم البنات نسوة مُتعلّمات لا طُلاّب شباب يُمكن أن يكونوا مصدر قلق لهم و قد ذكر في شأن ما قارفه بعض الآباء في حقّ بناتهم من تجهيل أحد المصلحين المنتصرين للمدرسة البادسية وهو الأستاذ (علي مغربي) أنّ ابن بأديس في إحدى المرات التقى مع أرباب أُسر جزائرية بنادي الترقي وفاتحهم موضوع تعليم بناتهم و الدواعي التي دعتهم إلى منعهن من التعليم والتثقيف فما كان من احد الحاضرين إلا أن أسمع الشيخ ما لا يرضيه وقال أن الآباء لا يثقون فيمن يُعلّم بناتهم و هنا انتفض الشيخ عبد الحميد و قال بصوت عال إذا لم تكن الثّقة فينا ففي من تكون.[٢٠]

وقد التزم بعد ذلك بالدعوة إلى تعليم الفتيات وعدَ ذلك من موجبات الشرع الملزم لطلب العلم والترغيب فيه من دون تمييز بين الذكور والإناث ولمُعالجة هذا الإشكال المُتمثّل في عُزوف البنات عن التعليم بالمدارس الحرة اعتمد أسلوبًا جديدًا لاستقطاب أكبر عدد مُمكن منهن ولتشجيع أهاليهن على إرسالهن لينهلن من العلم ولو القدر اليسير، وهو ردٌ كاف للآباء على ذرائعهم يتمثل هذا الأسلوب في فصل صُفوف الإناث وحصر التعليم في أقسام خاصة بالبنت حتى لا يتحرج الآباء ولا المعلمين وحتى لا تُسجّل أيّة تجاوزات قد تضُّر بسير المشروع التعليمي وتكون النتيجة عكس ما يُرجى منه، كما أنه ميّز الفتيات بميزة أخرى وهي أنّهن يتعلّمن من دون دفع اشتراكات،

فقد كان البنين لا يدفع منهم واجب التعليم إلا القادرون، وأما البنات يتعلّمن كُلّهن مجانا لتتكوّن منهن المرأة المسلمة[٢١] وهذا درءًا لما يتحجج به الآباء من عدم المقدرة على دفع تكاليف الدراسة وقد كانت ثمرة هذه الاستراتيجية طيبة إذ بعد سنوات قليلة فقط ذابت العقلية المُتحجّرة للآباء الرافضين لتعليم الإناث بعدما أيقنوا أن العاملين بتلك المدارس إنما هم علماء وطلبة أكّفاء من أبناء هذا الشعب وبعد أنْ ازداد عددهن وأصبحن يصررن على متابعة الدروس ومسار تعليمهن وصل الأمر بابن باديس إلى مراسلة إحدى حفيدات الأمير عبد القادر التي كانت لها مدرسة في دمشق طالبا منها القُبول بانتقال بعثة طُلابية إليها تتكوّن من طالبات جزائريات تمّ اختيارهن من مدارس الجمعية ليستكملن الدراسة فيها بعيدًا عن ضغوطات الإدارة الاستعمارية ولكن نظرا للظروف التي لم تكن مواتية تعطّل المشروع.

كان التعليم العالي كذلك محّل اهتمام الشيخ بن باديس إذ بعد ازدياد أعداد الطلبة الذين يُريدون مُتابعة التعليم في الجوامع والمعاهد العليا التي تتوفر عليها الدول الشقيقة لتيّقنهم أنّ شعارات فرنسا في التّمدُن دعاية كاذبة توّلى العلاّمَة بن باديس بنفسه العمل على مشروع إرسال بعثات نحو الدول الشقيقة ليتمكن الطلبة الجزائريون من التثّقف بالثقافة العربية الإسلامية حيث كان يُرسل من وقت لأخر مجموعة من الطُلاّب إلي جامع الزيتونة، كما راسل شيخ الجامع الأزهر (مصطفي المراغي) سنة١٩٣٧م جاء في نص الرسالة رأي جديد في فهم الخلافة الإسلامية وهو أنّه إذا ما أرادت الأمة أن تحفظ وجودها وقوامها فإنّ الذي تعتمد عليه هو الخلافة العلمية التي تجمع بين أفراد الأمة وأقطارها ثم بيّن أنّ ذلك لن يتم إلا بتحقيق اتصال جامع الأزهر بالأمم الإسلامية من أقطار الأرض وبالبعثات العلمية تُرسل إليه، ولم تنقطع هذه البعثات إلا أحيانًا بسبب الظروف التي لم تكن تسمح بذلك لكنها استمرت وتنَظمت فكانت النتيجة أنْ وصل عدد الطلبة بالزيتونة في بعض السنين ألف وسبعمائة وفي جامع القرويين بمدينة فاس يصل في بعض السنين إلي المائتين ويزيد وفي المشرق العربي أصبح لها بعثات إلى مصر مرّكبة من أربعين طالبًا وفي العراق بعثة مرّكبة من إحدى عشر ولها في سوريا بعثة مرّكبة من عشرة طلاب.[٢٢]

وزيادة على كل الذي ذكرناه عمل الشيخ بن باديس مع العاملين تحت لواء جمعية العلماء على توسيع دائرة التعليم حيث لم يغفل حتى عن تعليم الكبار والشباب الذين عاشوا حياة وعرة السُّبل ورّثتهم أمية مُطبقة في زمن هم فيه بأمّس الحاجة إلى التعلّم والأخذ بأسبابه حيث لم تكن ظروفهم تسمح بذلك فبالنسبة للكبار أمر بتنظيم دروس لهم للوعظ والإرشاد الديني وإعداد حلقات علم على مستوى المساجد للتذكير على طريقة السلف يتم فيها التذكير بالكتاب والسُّنة وسيّر الصحابة وهديهم ثُم سيّر حملة الهدي المحمدي في أقوالهم وأفعالهم كذلك ونظرًا لتفشي آفة الأمية لدرجة لا يستطيعون فيها قراءة رسالة أو حتى كتابة أسطر باللغة العربية تكون صحيحة جعل أهَم ما يعمله لهم هو أن يتقدّم كلُ عُضو منها ليُؤخذ منه العهد على تعليم أمي أو أكثر من أقاربه الكتابة والقراءة والعمليات الأربع في الحساب ويُحفظّه سورًا من القرءان على صحتها[٢٣] ثُم بعد ذلك يتّم العمل وفق نفس الطريقة مع أفراد المجتمع الذين يجتمعون في حرفة معينة، إذ يلزم على كل طالب من طلاب المدارس الحرة تعليم أولئك القراءة والكتابة والحساب وبسائط عملياته ساعتين من اللّيل على أنْ يلتزموا هم بدفع مبلغ مُعيُن في كل شهر[٢٤] وبهذا يكون النّفع من جهتين.

والجدير بالذكر أنَ عمل بن باديس لم يكن مقتصرا فقط داخل الجزائر بل تعداه إلى البلد المُستعمر حيث فكّر في تنظيم دروس لأبناء العمال الجزائريين في غير أوقات دراساتهم بالمدارس الفرنسية لتلقينهم مبادئ القراءة ومبادئ الدين الإسلامي حتى يرتبط هؤلاء الأطفال منذ الصغر بالحضارة العربية الإسلامية وبوطنهم الجزائر، وكانت بداية النشاط سنة ١٩٣٦م أين طلب من (الفوضيل الورتيلاني) اللّحاق بالعمّال الجزائريين الذين اصطحبوا عائلاتهم للعيش معهم في فرنسا وقد تمكّن بعد فترة من فتح خمسة عشر ناديًا يتردد على كل واحد منها الآلاف من أبناء المسلمين يتلّقون الدروس ويسمعون المحاضرات ويُؤدون فروض العبادة ويُحيون تعاليم الإسلام، ليلحق بعد ذلك ثُلّة من العلماء المصلحين النّشطين مُمثلين في الشيخ السعيد الصالحي، الشيخ الصالح بن عتيق، الشيخ حمزة بوكوشة، الشيخ سعيد البيباني، الشيخ فرحات بن الدراجي، الشيخ محمد الهادي السنوسي، الشيخ محمد أو علي العربي، وقد توزّعوا كلهم على معظم المدن الفرنسية التي يكثُر بها المهاجرون الجزائريون ففتحوا العديد من الشُعب في عدّة أحياء كباريس وليون ومارسيليا وليل لتحسيس الآباء بضرورة المشاركة في مُستقبل بلدهم الأم وفي النهضة المنشودة[٢٥]، وبطبيعة الحال لم تكن لتلك الجُهود أنْ تضيع سُدى فقد استطاع هؤلاء أنْ يكون لهم تأثير بارز حيث نجحوا في لمّ شمل

الجزائريين في فرنسا وفي إحياء الدين واللغة في كثير منهم حتى أصبحوا يدًا ممدُودة للعون تسهم في تمويل المشاريع الإصلاحية هناك من تأسيس النوادي وتشييد المدارس لتصون شخصيتهم الأصلية وتحول بينهم وبين ذوبانها في البوتقة الفرنسية.

رابعًا: مكاسب الجهود التربوية للعلاّمة بن باديس في الجزائر

لقد كان نشاط ابن باديس الإصلاحي من جانبه التربوي والتعليمي نشاطًا فيّاضًا مكّنه من وضع يديه على موطن الداء وشخصّه ألا وهو الجهل ثم وصف له الدواء على الرغم من تضييق السلطات الاستعمارية حينذاك على كل من يشتغل بالتعليم العربي خشية أن يُفتّقُوا أذهان أبناء الشعب ويتلقفوها لخدمة المشروع الإصلاحي الذي يُبيح للجزائر أمة وشعبا التقدُّم والنهوض، فقد سجّل تأثيرًا ملحوظًا كونه كان حريصًا على نشر العلم والعناية به عناية فائقة لاستيقانه أنّه وحده هو الذي يُثمر التجديد والإبداع، فالحقيقة أنّه على الرغم من الهُوّة والفوارق العجيبة في الإمكانيات المادية والبشرية وكذلك الحرية في ممارسة التعليم بين الإدارة الاستعمارية وبينه، إلا أنّه استطاع مع من انضووا تحت لواء جمعية العلماء التي كان رئيسًا لها حتى وافته المنيّة في فترة وجيزة وقياسية أن يساعد أبناء الشعب الجزائري بقسط وافر في الخلاص من آفة الأمية التي تُفقد الإنسان مكانته وهيبته، فما حقّقه بنضاله في مجال التعليم لا يُمكن نكرانه أو غضّ الطرف عنه والجاحد لما استطاع أن يسم به المجتمع الجزائري من إصلاح تعليمي يكون كمن يُنكر وجود الشمس في وضح النهار فتلك الجهود تستحّقُ حقًا التّنويه استنادًا إلى الحال التي كانت تعيشها الجزائر آنذاك.

وعلى كل قبل أنْ يُثني كُتّابنا ومُؤلفونا ومؤرخونا عليه وعلى أعماله المُضنية في سبيل نشر التعليم حاز فضل السبق إلى ذلك الفرنسيين أنفسهم في تلك الفترة المأزومة التي قُتلت فيها حرية الفكر والعلم يكفي أنَ عدد المدارس الحرة التي كان يشرف عليها بن باديس أصبحت تُعدَ بالعشرات تُعلّم الآلاف من التلاميذ وتنتزعهم من بين أيدي الجهل والإهمال وهو الهدف التعليمي الأسمى الذي سعى إلى تحقيقه منذ البداية حيث ألَحّ على ضرورة استقطاب وجذب الأطفال إلى المدارس بكل السبل دون التشدد في نوعية وطريقة التلقين حيث كان يُصر على السعي الأخذ بأسباب العلم وإنجازاته من أي جنس كان ومن أي وطن ينتسب إليه، وليس ببعيد طبعًا أن يكون من أزاره ووقف بجنبه على نفس الموقف والتوجه إذ صرف المشرفون على تلك المدارس نظرهم عن الخلفية الاجتماعية والتفاوت الطبقي لمرتديها على عكس المدرسة الفرنسية التي تحدثنا عن آليات العمل فيها في موضع قبل هذا فالعلاّمة بن باديس والفريق العامل معه كانوا يتصورون كل التلامذة المسجلين بمدارسهم قاعدة لمُعاودة الانطلاق من جديد لتحقيق مجتمع دون اختلالات في السلوك والأخلاق والتربية، كما نظروا إلى كل أبناء الشعب من دون استثناء على أنّهم فخر الأمة ورجائها بهم يتّم تحقق النهضة الموجودة ويُساهمون بشكل فعلي في صناعة غد أفضل للجزائر، ثم إنّه في سبيل نشر التعليم المُعتمد الأوّل في ضمان نجاح المشروع الإصلاحي ومن أجل مراعاة تنظيمه واستيفاء شروطه ركزّ على التوازن الجهوي إذ لم يتّم الاهتمام بمنطقة على حساب منطقة أخري بل نشره في المراكز الحضرية منها والنائية كما دعا كل من يهّمه أمر تأسيس الجمعيات والمدارس إلى التعريف بأنفسهم وطبيعة نشاطهم قصد إعانتهم علي ذلك بالتوجيه والإرشاد إذ جاء في أحد أعداد جريدة البصائر سنة ١٩٣٦م الأتي:" إنّنا ندعو كل جماعة يُريدون تأسيس جمعية وفتح مدرسة لتعليم الإسلام والعربية أن يُكاتبونا ويُعرفونا لنرشدهم إلي الوجوه القانونية اللازمة".[٢٦]

بالإضافة إلى كل هذا عمل على تجنيد المتخرجين من معاهد وجوامع الدول الشقيقة وبالخصوص جامع الزيتونة لتحقيق الأهداف والغايات في تمكين أبناء الشعب من التكّيف مع التجديدات المعرفية وتحصينهم لمُواجهة لتغيرات الثقافية والموجة التغريبية الفرنسية وإذكاء روح النّضال في أوساطهم لتحرير البلاد وفي اعتقادنا أنّ النّجاح الذي استطاع تحقيقه مرّده أنّ الإصلاح الذي نادي به كان نابعًا من داخل المجتمع الجزائري ومُستقّلا عن أيّة ضغوط أو إيحاءات خارجية وهو ما يُسميه فقيه الحضارة المفكر مالك بن نبي الأصالة الفكرية حيث يقول أنّه من الخطاء إقتباس حلول لأي مجتمع من المجتمعات وهو يختلف عنها في العمر والأهداف والاتجاهات[٢٧] وقد كان اللُب المثمر لهذه الجهود قطع ضلالة الجهل عن الشعب الجزائري وإحداث العشرات من المراكز للتعليم المكتبي الخاص بالصغار ولم تمضي فترة طويلة حتى أصبحت عامرة بالأطفال يدرسون مبادئ لغتهم وآدابها وأصول دينهم بعدما كانوا يعانون التّشرُد والضيّاع لعدم تمّكنهم من الالتحاق بالمدرسة الفرنسية وقد كان يتم على مستواها رعايتهم وصقل مواهبهم ليكونوا مُتصلين بالمجتمع ومُلتحمين التحامًا قوّيًا بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم وقد كانت مُدة الدراسة فيها تمتد لستة سنوات يتّم فيها الانتقال من مستوى إلى أخر بعد إجراء امتحانات

الانتقاء ما يجعلها إلى حد بعيد شبيهة بالمدارس الحديثة، والجدير بالذكر أنّها كانت تجمع بين الذكور والإناث على إثر تجاوز الآباء للعقلية المتحجرة وتخليهم عن الذهنية المتخلفة التي كانت سببًا في منعهن بناتهم من الالتحاق بالمدرسة ومتابعة التعليم وازدادت بعد ذلك أعدادهن سنة بعد سنة ووصل إلى الثلث من المجموع الكلي مطلع الخمسينات ومنهن من أظهرن التفوق كما أنَ عدد الناجحات في الامتحانات أكبر من عدد الذكور الناجحين في بعض المؤسسات إذ نجد في مذكرات محمد خير الدين أحد الأعضاء القاعديين للجمعية قوائم للناجحين في امتحان شهادة الدراسة الابتدائية العربية بالمدارس الحرة ومراكزها الثمانية المتواجدة بكل من العاصمة، قسنطينة، وهران، تلمسان، باتنة، الأغواط، سطيف، تبسة، نلاحظ بشكل جلي في بعض هذه المراكز أنَ نسبة نجاح الفتيات أكبر من نسبة نجاح الذكور.[٢٨]

أما بالنسبة للشابات والنساء اللائي تجاوزن سن التمدرس كان ابن باديس يقدم لهن دروسًا ومواعظ دينية يتعلمن من خلالها الآداب وقواعد التربية الإسلامية ويتم تذكيرهن بنساء السلف اللائي عرفن في مجتمعاتهن الإسلامية بالباع الطويل في الأدب والعلم والبذل لخدمة الدين فمع أنّهن لم يقطعن شوطًا كبيرًا في التعليم وكان زادهن من المعرفة والثقافة قليل جدًا إلا أنه على الأقل أصبحن يُولين اهتمامًا بالغًا بالعلم والتعليم حيث أصبح طلب العلم ماثلٌ في سلوكهن بتشجيع أبنائهن على تحصيل ما تيسر من العلوم حتى يتمكنوا من الصمود أمام مخططات الإدارة الاستعمارية الساعية إلى طمس هويتهم العربية الإسلامية فقد كانت الأمهات الجزائريات يوقظن أبنائهن عند موعد صلاة الفجر ليدرسوا بعدها العربية والقرآن الكريم حتى إذا جاء وقت الذهاب إلى المدارس التي كانت فرنسية المنزع ذهبوا إليها، وهذا كله بعد أن كانت الأنثى بالجزائر ضحية لأنوثتها حيث كان لا يُسمع لها حسٌ وتعاني كل ألوان الظلم وتُمنع من كل أبسط حقوقها كان جراء الاستجابة لتقاليد راكدة متوارثة كبلتها بسلاسل من حديد حتى أصبح حالها شبيهٌ بحال المرأة الأوروبية في القرون الوسطى لا قيمة لها ولا وزن وظيفتها تتوقف على الإنجاب والعمل المنزلي وهي الحال التي جعلتها محجوبة عن كل ما يستجديه الوجود الإنساني من تطور، تغلب عليها السذاجة والأمية المطلقة وصلت فيها إلى عجزها عن الحساب من الواحد إلى ما فوق العشرة وأنّها لا تعرف كيف تؤرخ تواريخ الحوادث إلا بعام الطاعون أو المجاعة أو عام انتقالها من كذا إلى كذا ونحو ذلك من الأحداث التي تبقى معلقة في أذهانهن، وزيادة على كل الذي ذكرناه فقد كان للجهود المُضنية التي قام بها بن باديس طوال فترة نشاطه الإصلاحي انعكاسات في دفع عملية التعليم العربي بالجزائر فإليه يرجع الفضل في تكوين النُخبة المُفكّرة من المُعرّبين واليها يرجع الفضل في إعادة الاعتبار إلى اللغة العربية.[٢٩]

ولعله ليس أمرًا مبالغًا فيه القول أنّ من يعرف اللغة العربية في الجزائر آنذاك وحتى بعد عهد قريب من الاستقلال مدين للعمل الضّخم الذي قام به مع من عمل بجنبه في إحداث الثورة التعليمية فيها لأنّ هؤلاء حقا كانوا عُنوانا للمقاومة الثقافية بمُجابهتهم المشروع الاستعماري الذي كان يقتضي فرنسة اللّسان إذْ أكّدوا أنّهم أصحاب مشروع رغم قلّة الإمكانيات ومحدُوديتها لذا لا يجب التغاضي ونسيان المكاسب الهامة التي حققوها للمجتمع فيما يخُص إعادة نشر اللغة العربية ومُحاولة تعميمها لترتقي إلى مكانتها التي كانت عليها ولتكون اللسان الذي ينطق به الجزائريون بعد أنْ أصبح مُشّبعا بالمُفردات الفرنسية، فالعمل الذي قام به في نُصرة لغة الضاد لا يجب قصر النظر إليه فقط من زاوية ما يظهر للعيان من تحفيظ للقرآن وتدريس أحكام الفقه والنّحو والصرف في تلك الحقبة من الزمن لأنّ الرهان الذي حاول كسبه هو تهيئة أجيال جديدة تستوعب مشروعه وتنسجم معه لتتمكّن من احتضان لغتها الأصلية وتُدافع عنها وتنشأ تنشئة تقوم على غرس العروبة في نفوسها وهذا ما حدث بالفعل حيث صلح ما فسد من لسان الجزائريين بعد سنوات من العمل المُتواصل الذي اتخذ أشكالا وصُورا عدة واستقامت ألسنة النشء وصّحت اللهجات وبدأت ملكة الخطابة تنطبع في بعضهم وكذلك في الشباب الذي تكوّن في المدارس الحرة التي بُنيت بأموال الشعب حيث أصبحوا على الرغم من قلّتهم ذوي ألسنة سيّالة ومُحاضرون بلغوا الغاية فصاحة ونصاعة لفظ وتفّننا في المواضيع وملكاتها ومتانة إلقاء[٣٠].

خَاتمَةٌ

استنادًا إلى كل ما تمت الإشارة إليه لا يُمكن بأي حال من الأحوال إنكار وجود المكاسب التي استطاع العلاّمة ابن باديس تحقيقها في الجانب التعليمي الذي كان يقتضي تحرير الإنسان الجزائري من نقيصة الجهل والتقليد، وكذلك إصلاح عطل القوى الدافعة التي تُمكّنه من النهوض حتى يتسنى له في الأخير إقرار التغيير على الشكل الذي أراده وخطط له، وهذا كله في زمن كانت الآلة الاستخرابية الفرنسية تعمل بأعلى الوتائر لمحاصرة وقهر كل مُصلحٌ أو مُعارضٌ قبل أنْ يتجاوز صوتُه الهمس أو يُصبح ذو شأن ومحطّ الأنظار، أو قائدا مُحتملا للتغيير حيث تسارع فورًا إلى تبنيه وإقبار أفكاره ومشاريعه لتذهب أدراج الرياح قبل أنْ تستوي على سوقها وتُؤتي أكلها، لذلك لاشك أنّ هذا المُصلح أخلص بصورة مطلقة في بذل جهود جبّارة في ميدان التعليم والتربية والتهذيب لدرجة تجعل كل من يقف على حقيقة تلك الجهود الفيّاضة يشعر بكثير من الاعتزاز عندما يجده قد أفنى وقته وصحته وقدّم كل ما امتلكه ليتعلم أبناء الجزائر ولتُرفع صروح العلم في البلاد لكي تحفظ تراثها المُمتد إلي دُهور كثيرة من الزّمن وتصُون ثوابت الشعب التي حاول الاستعمار لما يزيد عن قرن وربع من الزمن بترها واستئصالها من الجُذور.

الاحالات المرجعية:

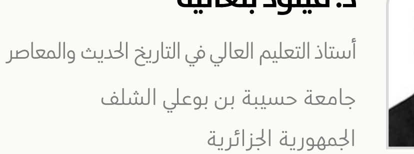
(١) طالبي عمار، **آثار ابن باديس**، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط٣،١٩٩٧م، ص٧٤.
(٢) شترة خير الدّين، **"الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة (١٩١٩ ـ ١٩٣٩م)"**، الجزائر، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد ٢٠، ٢٠٠٦م، ص٢٠٧.
(٣) الخطيب أحمد، **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر**، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٥م، ص ١٢٩.
(٤) بوعزيز يحي، **أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة**، لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٥م، ص ٤٨.
(٥) Yvonne Turin, **Affrontement culturelle dans l'Algérie coloniale**, Paris, François Maspero, 1971,P 119 .
(٦) الجندي أنور، **العالم الإسلامي والاستعمار الثقافي السياسي والاجتماعي**، القاهرة، الدار القومية العربية، ١٩٨٥م، ص ٢٤٣.
(٧) هلال عمار، **أراء وأبحاث في تاريخ الجزائر المعاصر (١٨٣٠-١٩٦٢)م**، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٥م، ص ١١٠.
(٨) بوعزيز يحي، مرجع سبق ذكره، ص ٤٩.
(٩) هلال عمار، مرجع سبق ذكره، ص ١٤١.
(١٠) الورتيلاني الفوضيل، **الجزائر الثائرة**، الجزائر، دار الهدى للطباعة والنشر، ١٩٩٢م، ص ٢٠٢.
(١١) بن نبي مالك، **القضايا الكبرى**، لبنان، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٩١م. ص ١٤٠.
(١٢) عباس فرحات، **ليل الاستعمار**، ترجمة: أبو بكر رحال، الجزائر، ٢٠٠٥م،ANEP ص ٢٨.
(١٣) المدني أحمد توفيق، **حياة كفاح**، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ج٣، ١٩٨١م، ص٤٨٥.
(١٤) الإبراهيمي محمد البشير، **آثار الشيخ البشير الإبراهيمي**، الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع ج١، ط١، ١٩٧٨م، ص١٤٣.
(١٥) محمد خير الدين، **مذكرات محمد خير الدين**، الجزائر، مطبعة دحلب، ج١، ١٩٨٥م، ص٨٣.
(١٦) شيبان عبد الرحمان، **مقدمة مجلة الشهاب**، بيروت، دار الغرب، الإسلامي، ط١، ٢٠٠٠م، ص ٨٣.
(١٧) الساحلي محمد العزيز، **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من خلال فكر زعماء الإصلاح**، بيروت، كومبيوتايب، ١٩٩٥م، ص ١٣٩.
(١٨) تركي رابح، **التعليم القومي والشخصية الوطنية**، الجزائر، ش و ن ت، ط٢،١٩٧٦م، ص ١٣٥.
(١٩) الخطيب أحمد، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٠.
(٢٠) علي مغربي، **"سّر عظمة ابن باديس"**، مجلة الرسالة، الجزائر، وزارة الشؤون الدينية، العدد ١٩٨٠،١م، ص٣٨.
(٢١) ابن باديس عبد الحميد، **آثار عبد الحميد ابن باديس**، الجزائر، وزارة الشؤون الدينية، ط١، ١٩٨٤م، ص ٥٤.
(٢٢) الإبراهيمي محمد البشير، مرجع سبق ذكره، ج٢، ص ٢٣٥.
(٢٣) نفس المرجع، ج١، ص ١٤٤.
(٢٤) نفس المرجع، ص ١٤٦.
(٢٥) شارل روبير آجرون، **تاريخ الجزائر المعاصر**، ترجمة: عيسى عصفور، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ط٢، ١٩٨٢م، ص ٥٨٢.
(٢٦) ابن باديس عبد الحميد، مرجع سبق ذكره، ج٤، ص ١٢٩.
(٢٧) بن نبي مالك، **مشكلة الثقافة**، لبنان، دار الفكر المعاصر، ط٤، ١٩٨٤م، ص٣٧.
(٢٨) محمد خير الدين، مرجع سبق ذكره، ج١، ص٥٩.
(٢٩) سلامة عبد الرحمان، **التعريب في الجزائر ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً**، دمشق، وزارة الإرشاد، ١٩٧٦م، ص ١٥.
(٣٠) الإبراهيمي محمد البشير، مرجع سبق ذكره، ج١، ص ١٢٩.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

نماذج من التطرف الفكري
في أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري تجاه الجزائر





د. ميلود بلعالية

أستاذ التعليم العالي في التاريخ الحديث والمعاصر

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف

الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

نستمد أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري جذور تطرفها الفكري تجاه الجزائر من كتابات رجال الدين المتعصبين، وخاصةً لويس رين، والأب دان، فقد كان التعصب في نظرهم قوة من قوى الإيمان، فهم يحكمون على الإسلام وفق أفكار مسلمة لديهم، هذا دين عندهم خاطئ وكثير من المؤرخين يستولي عليه التفكير في قوة الجزائر والرغبة في ذكر كهوف اللصوص ويحلمون بشن غارة حاسمة ضد الجزائر. ولذلك يهدف موضوع الدراسة البحثية رصد نماذج من التطرف الفكري فيما كتبه المؤرخون الفرنسيون عن الجزائر انطلاقًا من مصادر أوروبية فقط، إذ في نظر بعضهم أن تاريخ الجزائر يجب أن يدرس بصفة رئيسية بواسطة ما رواه قناصل ورحالة أوروبيون وبواسطة وثائق أرشيفية استعمارية. ومن هذا الهدف، فإن أهمية هذه الدراسة النقاشية تتناول طرح نظرة المؤرخين الفرنسيين في سياق أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري حول كتابة تاريخ الجزائر على اعتبار كون هذه النظرة موقفًا سياسيًا متطرفًا استخدم فيه المؤرخون الفرنسيون الدراسات لتبرير احتلال الجزائر. ويتصدر هذه النماذج بروسبير أونفونتان وألكسي دي طوكفيل في جرائم التنظير والممارسة العملية الاستعمارية الفرنسية في الجزائر في بداية الاحتلال. انطلق اهتمام المؤرخين الفرنسين بالكتابة عن الجزائر من دوافع كثيرة منها: الرغبة في التعرف على شعب وقع في قبضة الحضارة الأوروبية التي حملت معها إلى الجزائر أدوات الغزو الفكري، ودافع السيطرة والاحتلال ودافع الفضول العلمي ودافع الدين بعد صراع بين القوى الأوروبية والدولة العثمانية. وربط المؤرخون الفرنسيون الاستعمار الروماني للجزائر بالاستعمار الفرنسي بقصد تشويه تاريخ الجزائر، فهذا المؤرخ ستيفان غزيل صاحب أطروحة: "الجزائر جزء اقتطع تعسفا من إفريقيا الشمالية"، ويردد المؤرخ وليم مارسي صدى هذه الأطروحة مشيرًا إلى الفتح العربي الإسلامي وإلى العهد التركي: "...في كلتا الحالتين، غزا المشرق هذا الجزء من المغرب".

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٧	مارس	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٠٨	أبريل	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

لويس رين؛ الأب دان؛ التعصب؛ التنظير الاستعماري؛ ستفان غزيل؛ وليم مارسي؛ أرض فراغ

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.231574

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بلعالية ميلود. "نماذج من التطرف الفكري في أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري تجاه الجزائر".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثاني والخمسون؛ يونيو ٢٠٢١. ص ١١٦ – ١٢٥.

Corresponding author: m.belalia@univ-chlef.dz

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةٌ

كتب المؤرخون الفرنسيون أن تاريخ الجزائر في العهد العثماني مكتوب من مصادر أوروبية، وفي نظر بعضهم أن تاريخ الجزائر من العهد العثماني إلى بداية الاحتلال، يجب أن يدرس من خلال ما رواه رجال الدين المسيحيون والقناصل الأوروبيون اعتمادًا على وثائقهم، فالجزائر في كتاباتهم هي أرض فراغ انتقلت من غاز قديم إلى غاز جديد، وصارت من ممتلكات الدولة العثمانية بعد صراعها مع إسبانيا في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. فما هي جذور التطرف الفكري المؤسس لأطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري تجاه الجزائر؟ وما هي جرائم التنظير للطرف الفكري في أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري في الجزائر؟ وما هي أهم الأمثلة من التطرف الفكري لتشويه الجزائر في أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري؟

يهدف موضوع الدراسة البحثية الموسومة بـ: نماذج من التطرف الفكري في أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري تجاه الجزائر، إلى رصد ما كتبه مؤرخو مدرسة التاريخ الاستعماري عن الجزائر انطلاقا من مصادر أوروبية، وخاصةً الفرنسية، إذ حسب زعم بعضهم أن تاريخ الجزائر الحديث يجب أن يدرس من مضان روايات القناصل المعتمدين في الجزائر العاصمة قبل الاحتلال الفرنسي سنة ١٨٣٠، والرحالة الأوروبيين والأرشيفات القوى البحرية الأوروبية.

تكمن دواعي البحث في الموضوع الرغبة تتبع الخلفية التاريخية لتناول مؤرخي مدرسة التاريخ الاستعماري قضايا التاريخ الجزائري، وكشف الإشكالات التي ركزوا عليها دون غيرها في التأريخ للجزائر قبل سنة ١٨٣٠، وكشف العلاقة بين المؤرخون العسكريون وسلطات الاحتلال وامتدادات هذه العلاقة إلى المؤرخين المتخصصين المنظرين لاستعمار العقول بهد احتلال الحقول.

وتعزى أهميته إلى رصد الكتابات التاريخية التي كانت أساس تبرير انفراد فرنسا في تبرير احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠، والوقوف على الدور المنوط برواد الكتابة على تاريخ الجزائر سواء العسكريين غير المتخصصين أو المؤرخين المتخصصين في بداية الاحتلال، ومعرفة مدى التشويه الذي أصاب تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر من الاستنتاجات التي ثبتها المؤرخون الفرنسيون في أطاريحهم حول الجزائر.

أما منهج البحث في هذا الموضوع فقد اتبعنا المنهج الوصفي في جمع مادته التاريخية من مضانها والمنهج التحليلي في نقد المعلومات التي وظفها مؤرخو مدرسة التاريخ الاستعماري في تبرير أطاريح هذه المدرسة في كتابة تاريخ الجزائر، والرد على ما جاء فيها من نماذج للتطرف الفكري بقصد تشويه تاريخ الجزائر في الفترة القديمة والعربية الإسلامية، وخاصة تاريخ الجزائر الحديث حتى بداية الاحتلال الفرنسي والتي قد تجانب الحقيقة التاريخية.

أولاً: جذور التطرف الفكري المؤسس لأطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري تجاه الجزائر

تستمد أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري جذور تطرفها الفكري تجاه الجزائر من كتابات رجال الدين المتعصبين، وخاصةً لويس رين، والأب دان، فقد كان التعصب في نظرهم قوة من قوى الإيمان، من جهة، ومن جهة ثانية، من مدونات وتقارير القناصل الأوروبيين المعتمدين في مدن إيالة الجزائر في العهد العثماني، فرجال الدين والقناصل يحكمون على الإسلام وفق أفكار مسلمة لديهم، هذا دين عندهم خاطئ وكثير من المؤرخين يستولي عليه التفكير في قوة الجزائر، والرغبة في ذكر كهوف اللصوص ويحلمون بشن غارة حاسمة ضد الجزائر. أصبح التركي هو العدو للغزاة الإسبان الذين احتلوا الثغور البحرية الجزائرية الممتدة من المرسى الكبير حتى جيجل في الفترة (١٥٠٥-١٥٠٩)، ولكن دخول العثمانيين ساعد الجزائريين على مقاومة الغزو الإسباني وصارت الجزائر منذ سنة ١٥١٨، إيالة عثمانية تسمى دار السلطان، لها حدود مع تونس والمغرب وأسطول حربي في الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط لحماية الثغور البحرية من تزايد الاعتداءات القوى الأوروبية ضد الجزائر.

حيرت الفترة العثمانية في الجزائر القوى الأوروبية، فأثارت اهتمامها، وكانت من بين الفترات التي أسالت كثيرًا من الحبر في إسبانيا وفرنسا والمدن الإيطالية. فقد أتاحت الحروب والتجارة والتجسس والدبلوماسية وافتداء الأسرى وحب المغامرة فرصة تعرف الأوروبيين على الجزائر والتأليف في تاريخها وتدوين الوقائع التي عاصروها. ولذلك كانت الآداب والعلوم الإنسانية، وخاصة المصادر الفرنسية كثيرة وموضوعاتها متنوعة[١].

إن المؤلفات الأجنبية على الرغم من الأحكام المسبقة الخطيرة التي تشتمل عليها، لا غنى لتاريخ الجزائر عنها، لندرة المصادر العربية فيما يخص هذه الفترة التاريخية[٢]. فالمصادر العثمانية التي يرجى منها أن تساعد المؤرخ تقف عند القرن الثامن عشر فقط، لا تلقي محتوياتها ضوء جديدًا على وقائع

وحياة الجزائريين[٣]. ويعزى ذلك إلى أن مؤرخي التاريخ الحديث يحملون طابع البيئة التي عاشوا فيها التي تميزت بالصراع الديني بين العثمانيين والأوروبيين[٤].

وفي ظل الفراغ في الكتابات التاريخية باللغة العربية في تاريخ الجزائر الحديث في الفترة العثمانية، جاءت الكتابات التاريخية باللغة الفرنسية لملء هذا الفراغ، وحملت الدراسات التاريخية للمؤرخين الفرنسيين في الظاهر مواصفات البحث التاريخي مثل الضبط والاتقان والتقسيم الدقيق للفترات التاريخية التي جاءت في مؤلفات دي غرامون، ومرسي وماسون وغوتي والتي ستكون لها آثار على الكتابات التاريخية باللغة العربية. وأقام كثير من الباحثين في مدينة الجزائر أو قاموا برحلات في الحواضر الجزائرية أو خدموا في قصور الدايات وفي قصور البايات[٥]. ولذلك جاءت ملاحظاتهم مباشرة ومعلوماتهم التي ضمنوها مؤلفاتهم تعتبر ثمينة، والدليل على ذلك اعتماد الباحثين الفرنسيين بعد سنة ١٨٣٠ على ترجمة تقارير رسمية وتوظيف كثير من الوثائق الارشيفية[٦].

ولكن هذه المواصفات الجيدة في البحث التاريخي لا يمكن أن تغطي الجانب السلبي في نظرة المؤرخين الفرنسيين للجزائر في العهد العثماني، لأن هذا الجانب السلبي يشمل غالبية هذه المؤلفات، ويعزى ذلك إلى أن أهمية هذه المصادر الفرنسية بالنسبة لتاريخ الجزائر في العهد العثماني هي بعيدة عن إجماع الباحثين التاريخيين الموضوعيين. فقد كتب لويس رين: "إن الوثائق الجيدة التي تخص العهد التركي قليلة، وإذا كان ما ملكه منها هو صادق ومثير للفضول ومفيد فلا يكاد يشتمل على شيء من تاريخ العرب والبربر الذين عاشوا خارج الأوليغارشية أي حكم المستغلين المسيطرين على البلاد"[٧].

عندما نبحث في الوثائق، وخاصة المكتوبة باللغة الفرنسية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، نلاحظ أن الاهتمام فيها اقتصر على العهد العثماني على القرصنة وعلى عمليات اللصوصية في عرض البحر، وعلى استعباد النصارى وعلى إقامة الأسرى الأوروبيين في مدينة الجزائر، والتركيز على إبراز بؤسهم وشقائهم وعلى أوجاعهم، وخاصة على افتداء الأسرى وعلى نشاط جمعيات الافتداء وعلى التجارة[٨]، وعلى رجال الدين المبشرين وعلى عدم ثبات أصلهم وعلى دور أباء جمعية الثالوث المقدس وآباء جمعية القديس لازار والكاردينال لافيجري"[٩].

أما العنوان الذي اختاره الأب دان لكتابه تاريخ بلاد البربر وقراصنتها، ومملكة ومدن الجزائر وتونس وسلا وطرابلس فله مغزى، حيث يبحث عن حكوماتهم وعن أخلاقهم وقساوتهم وعن لصوصيتهم وأسحارهم وعن كثير من خصائصهم الأخرى الملفتة للنظر"[١٠]. ذلك هو مؤلف الأب دان المتخصص في علم اللاهوت ورئيس دير الثالوث المقدس والذي أقام في مدينة الجزائر في الفترة (١٦٣٤-١٦٣٥)، فركز الجزء الكبير من كتابه على طريقة تسليح القرصنة وعلى خصائص المرتدين وهي الصفة التي أطلقها على الأعلاج بعد اعتناقهم الإسلام في الجزائر، وعلى العقوبات التي يفرضها الأتراك المتوحشون على النصارى الذين يستعبدونهم، ويقتصر ما بقي من تأليفه على الحديث عن جمعية الثالوث المقدس"[١١].

ولكن الأب دان تجاهل في مؤلفه صفة الموضوعية في الكتابة التاريخية، ولذلك جاء التفسير فيها غالبا مغرضا متحاملا والحذف من النص مقصود والمعلومات تجانب الحقيقة التاريخية. لأن هؤلاء الباحثين الفرنسيين المنتمين إلى مختلف الجمعيات المسيحية ألفوا كتبا دعائية، وكانوا يستهدفون بها ترغيب أتباعهم في العطف على الأسرى لجمع موارد مالية في شكل تبرعات للكنيسة الكاثوليكية المتعصبة. فالمبالغة والقسوة والرعب هي الأشياء التي أوردوها في مؤلفاتهم للتأثير على الرعايا المسيحيين حتى تلين قلوبهم. وكان نشر هذه المؤلفات يسمح بنشر هذه المعلومات على نطاق واسع في أوروبا، وخاصة فرنسا بهدف تغذية الحقد على المسلمين، وليس لترضية الفضول العلمي المتعطش للمعرفة التاريخية، ويقع التأثر بأخبار العقوبات التي يفرضها الجزائريون على النصارى لشن حرب صليبية على بلاد المسلمين[١٢].

أما القناصل الأوروبيون الذين كانوا معتمدين في مدن إيالة الجزائر، فقد سجلوا ذكرياتهم ودونوا الأحداث التاريخية ورووا أشياء لها صلة بالجزائر. فكانوا شهودا معاصرين لفترة اعتمادهم في الجزائر في العهد العثماني، وكانوا بصفة عامة على خبرة بمشاكل كانوا طرفًا في إثارتها، ويبدو للوهلة الأولى أن مراسلاتهم وتقاريرهم كانت ذخيرة لا تنفد من المعلومات للباحثين في تاريخ الجزائر العثماني. ولكن كان تأييدهم على العموم للدايات في إيالة الجزائر ضعيفًا وفاترًا، من جهة، ومن جهة ثانية، فقد انحصرت إقامة بعض القناصل على مدينة سكناهم وغالبا في مدينة الجزائر، وكانوا لا يسافرون خارج العاصمة، ولذلك لم يعيروا اهتمامًا بالحياة الاجتماعية في الريف الجزائري. وفي الجزائر العاصمة بالذات كان المجتمع الإسلامي بعيدًا عن اهتمامهم، فكانوا يجهلون حياة الناس في قصبة مدينة الجزائر وفي حواضر دار السلطان، ويعزى هذا التجاهل إلى أن القناصل غالبا ما كانوا يشاطرون آراء رعاياهم في الاقتناع

بالآراء المسبقة، وفي نظرهم كان سكان شمال إفريقيا منبعا للمشاكل، مخادعين، كسالى جشعين وناكرين للجميل[١٣].

ثانيًا: جرائم التنظير للطرف الفكري في أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري في الجزائر

انطلق الفرنسيون في كتابتهم عن تاريخ الجزائر من معطيات أهما: كونهم تغلبوا على الجزائريين بالقوة، وكونهم شعبا متحضرا حكموا شعبا متخلفا، وكونهم مسيحيين قبضوا على زمام شعب مسلم، وهذه المعطيات هي التي حددت منهجهم الذي تطور مع الزمن كلما ازدادوا صلة بالجزائريين. ولعل تلك المعطيات هي التي ما زالت تتحكم في الكتابات الفرنسية عن الجزائر حتى اليوم. وجاءت نظرة المؤرخين الفرنسيين للجزائر في سياق أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري لكتابة تاريخ الجزائر، على اعتبار كون هذه النظرة موقفا سياسيا متطرفا استخدم فيه المؤرخون الدراسات لتبرير احتلال الجزائر. واستفادوا من أفكار علماء الاجتماع في التنظير لجرائم الجيش الفرنسي في الجزائر بداية الاحتلال. وانطلق اهتمام المؤرخين الفرنسين بالكتابة عن الجزائر من دوافع كثيرة منها: الرغبة في التعرف على شعب وقع في قبضة الحضارة الأوروبية التي حملت معها إلى الجزائر أدوات الغزو الفكري، ودافع السيطرة والاحتلال ودافع الفضول العلمي ودافع الدين بعد صراع بين القوى البحرية الأوروبية والدولة العثمانية.

تميزت الكتابات التاريخية الفرنسية بعد سقوط مدينة الجزائر سنة ١٨٣٠ بنزعة جديدة ذات قيم متفاوتة، فإذا كان المؤرخون يعتمدون في الكتابة عن الفترة الرومانية في الجزائر على المصادر المتخصصة، فقد راجعوا عن تاريخ العصور القديمة نفس النصوص لمؤلفين إغريق ورومان، وإن استثمروا فيما يتعلق بالفترة الاستعمارية الفرنسية تقارير رسمية ووثائق صادرة عن وزارة الحربية الفرنسية، ولكنهم حينما اهتموا بدراسة الفترة الإسلامية في الجزائر، ادعوا أنهم واجهوا صعوبات في فهم النصوص العربية في التاريخ والجغرافيا، ولذلك حكموا عليها بأنها تكاد تكون غير دقيقة وتترك مجالا واسعا للافتراض، بل وظهرت لهم أسماء الأسر الجزائرية العربية منفرة والأحداث عبارة عن تحولات مستمرة لتاريخ يتألف ويتفكك باستمرار"[١٤]. وظل عدد المؤرخين الفرنسيين في بداية الاحتلال قليلا، وخاصة الذين كانوا يتكلمون اللغة العربية دون صعوبات، ويفهمون قواعدها وصيغ بلاغتها وصور تراكيبها، وإلى جانب مؤلفات جديرة بالدراسة توجد كتب تستهدف التعميم الشعبي ولا صلة لها بالتاريخ العلمي، بل كانت الغاية من تأليفها كسب الإعجاب، أو كانت كتبا لتاريخ موجز تحشر الأحداث التاريخية كلها في تاريخ الجزائر في أقل من مائتي صفحة[١٥]، أو كانت نوعا من الفهارس تسرد الأحداث دون تفسير[١٦]. فكان تاريخ الجزائر في العهد العثماني عبارة عن نظرة موجزة ينتقل منها المؤرخ الفرنسي بسرعة إلى احتلال مدينة الجزائر[١٧].

وهكذا ابتليت الجزائر في بداية الاحتلال الفرنسي بجرائم التنظير التي قامت عليها السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر للقضاء على المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الفرنسي، ويتصدر منظري التطرف الفكري في أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري في الجزائر بروسبير أوفونتان (١٧٩٦-١٨٦٤) وألكسيس دي طوكفيل (١٨٠٥-١٨٥٩)، وتعزى هذه الصدارة في التطرف الفكري إلى دعوة هذين المنظرين سلطات الاحتلال الفرنسي إلى ضرورة تنفيذ أفكارهما لإبادة الشعب الجزائري في بداية الاحتلال، ومن هذه الجرائم:

١/٢-جريمة التنظير لدمج الجزائر بفرنسا

انتهت فترة التردد الفرنسي في الجزئر (١٨٣٠-١٨٣٤)، بصدور قرار فرنسا المؤرخ في ٢٢ جويلية ١٨٣٤ المتضمن الاحتفاظ بالجزائر، ولذلك لم يتوان أوفونتان ودي طوكفيل في التنظير لجريمة دمج الجزائر بفرنسا، فقد كتب دي طوكفيل سنة ١٨٤١: "لا اعتقد أنه بإمكان فرنسا التفكير جديا في مغادرة الجزائر، سيكون تركها الجزائر في أعين العالم إعلانًا أكيدًا عن انحدارها...إذا تراجعت إزاءها فستظهر في أعين العالم، وقد انحنت أمام عجزها واستسلمت لقلة شجاعتها"[١٨]. أما أونفونتان، فقد أفصح عن رأيه في التنظير لجريمة دمج الجزائر بفرنسا، فقد رفض أي تراجع من قبل فرنسا عن احتلال الجزائر، من جهة، ومن جهة ثانية، فقد انتقد كل الأصوات المنادية للتخلي عنها. ولذلك نادى بالاحتفاظ بالجزائر والعمل على تنفيذ أسس الاستعمار الاستيطاني في الجزائر[١٩]. واعتبر أونفونتان الجزائر من أهم الممتلكات الفرنسية في إفريقيا، فكتب: "إن ممتلكاتنا في الجزائر ذات أهمية، فالسيطرة عليها هي بالنسبة لنا شرعية ولا يمكن التخلي عنها، بل ولا يمكن حتى السماح بفتح النقاش سواء بفرنسا أو هنا في الجزائر عن امكانية الاحتفاظ بمقاطعاتنا الإفريقية، والتي هي لنا على قدم المساواة مع الألزاس واللورين"[٢٠].

يبدو أن أونفونتان منظر جريمة دمج الجزائر بفرنسا، قد ذهب بعيدا فيما كتبه في مؤلفه، بعد أن لاحظ اتساع دائرة

النقاش على مستوى المؤسسات والصحافة الفرنسية، فدعا إلى وقف النقاش والالتزام بمبدأ الاحتفاظ بالجزائر، واعتبر التخلي عنها وصمة عار في جبين المسيحية أمام كل ما قام به الإخوة بربروس في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. كما ربط هذا المنظر الاستعماري الاحتفاظ بالجزائر بالتكاليف الباهظة التي نجمت عن احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠. ولذلك حتى يكون مبررا لجريمة نهب الخزينة والاستيلاء على ممتلكات الجزائريين. وإذا كان أونفونتان، قد ساوى بين مكانة الجزائر والألزاس واللورين نظرًا لأهميتها الاستراتيجية والاقتصادية بالنسبة لفرنسا، فإن تقدير مكانة الجزائر عند دي طوكفيل تجعله أكثر من ذلك، حين كتب: "الذين يقولون إننا نشتري المزايا التي يمكن أن توفرها لنا الجزائر بتضحيات كبيرة صادقون، ولكنهم مخطئون عندما يقلصون إلى لا شيء تقريبا هذه المزايا. الحقيقة هي أنه لو استطعنا الوصول إلى السيطرة بإحكام على ساحل إفريقيا هذا وامتلكناه بيسر، فإن تأثيرنا في الشؤون العامة للعالم سيكون أكثر قوة وانتشار"[٢١].

وهكذا كانت جريمة التنظير لدمج الجزائر بفرنسا أساسا للتشريع الاستعماري الفرنسي الذي أنهى فترة التردد فصدر المرسوم الملكي المؤرخ في ٢٢ جويلية ١٨٣٤ المتضمن إلحاق الجزائر بفرنسا، وأكده دستور الجمهورية الثانية سنة ١٨٤٨ الذي اعتبر الجزائر جزءا من فرنسا.

٢/٢-جريمة التنظير لاحتواء العائلات الكبيرة

واجهت فرنسا الاستعمارية منذ سنة ١٨٣٠ رد الفعل الوطني ضد الاحتلال الفرنسي، ولكنها عملت على احتواء العائلات الكبيرة في مناطق المقاومة الشعبية، فقربت بعض أعيان هذه العائلات الكبيرة وأغدقت عليهم الامتيازات الضريبية والاجتماعية بقصد التخلي عن نصرة قادة المقاومة الوطنية، وخاصة الأمير عبد القادر، أو تحطيم العائلات الكبيرة التي رفضت التعاون مع سلطات الاحتلال الفرنسي، فقد كتب دي طوكفيل: "كان الأتراك قد أبعدوا الارستقراطية الدينية العربية عن استعمال السلاح وإدارة الشؤون العامة، وبسرعة رأيناها بعد القضاء عليها تعود كما كانت محاربة وحاكمة. الأثر الأكثر سرعة والأكيد لغزونا هو إعادة التواجد السياسي للشيوخ وكانوا قد فقدوه. استعادوا سيف محمد لمحاربة الكفار، ولم يتأخروا في استعماله لحكم مواطنيهم: هذا أمر كبير ينبغي أن يلفت نظر كل من ينشغل بالجزائر. وتركنا أرستقراطية العرب تولد من جديد، ولم يبق لنا إلا أن نستغلها"[٢٢]. وزاد هذا المنظر لجريمة احتواء العائلات الكبيرة، حين كتب: "لن نكون آمنين إطلاقا، ولن يكون لنا أي مستقبل على الساحل إن لم نصل إلى فرض سلطتنا في الداخل كيفما كان الحال، أو على الأقل منع العشائر المختلفة التي تسكنه من الاجتماع تحت سلطة قائد واحد"[٢٣].

وجدت كتابات دي طوكفيل التنظيرية اهتماما من قبل سلطات الاحتلال الفرنسي في بداية الاحتلال للالتفاف على الصعوبات التي اعترضت تنفيذ مشروع احتواء العائلات الكبيرة من الحضر في مدينة الجزائر وريفها، ثم التوسع الاستعماري في التيطري ووهران وعنابة وقسنطينة، وأدت السياسة الاستعمارية الفرنسية على أساس أفكار دي طوكفيل إلى انعكاسات اجتماعية خطيرة على المجتمع الجزائري في المدن والريف، ومنها تفكيك البنية الاجتماعية للعائلات الجزائرية الكبيرة، ومصادرة أملاكها ونفي أعيانها وشيوخها، وتهجير أفرادها نحو المناطق النائية في البلاد، وتقريب عائلات جزائرية تدين بالولاء المطلق للإدارة الاستعمارية لتكون عينا للاستعمار الفرنسي ضد الجزائريين، فقد أقدمت سلطات الاحتلال الفرنسي على طرد الأتراك والحضر من مدينة الجزائر، وجلبت البرانية من زواوة وميزاب ليكونوا موظفين وتجارا في قصبة مدينة الجزائر، وأبعدت العلماء ليحل محلهم معلمون فرنسيون لتعليم اللغة الفرنسية في الكتاتيب والمسجد الكبير بالعاصمة[٢٤]. ومن الانعكاسات الاجتماعية الخطيرة على العائلات الجزائرية الكبيرة، ما أصابها من تدهور مكانتها الاقتصادية ومعاناتها من مظاهر الفقر والبؤس الاجتماعي بعد سنة ١٨٣٠، ومن هذه العائلات يحي آغا، الشيخ مصطفى بن الكبابطي، الشيخ بن العنابي، حمدان بن عثمان خوجة[٢٥]. فضلا عن تدهور المستوى الاقتصادي والاجتماعي لأعيان بعض العائلات نتيجة الاضطهاد الذي سلطته فرنسا الاستعمارية ضد العائلات الجزائرية التي رفضت الواقع الجديد.

٣/٢-جريمة التنظير لتكثير العنصري الفرنسي في الجزائر

واجهت سلطات الاحتلال الفرنسي في بداية الاحتلال صعوبات تتعلق بالهجرة الأوروبية إلى الجزائر، والسبب في ذلك عدم تحمس الفرنسيين للهجرة، ولذلك أوعزت الحكومة الفرنسية إلى الكاتب الروماني ألكسندر دوماس لكتابة رواية دعائية لاستغلالها في الإشهار للهجرة إلى مستعمرة الجزائر، فحمل عنوان كتابه "إفريقيا" للدلالة على اختراق المجهول، وما سيكسبه المهاجرون المغامرون من مكاسب اقتصادية ومكانة اجتماعية، وتسهيلات لبناء قرى استيطانية وتجهيزها ببنى تحتية من قبل سلطات الاحتلال الفرنسي في الجزائر. واستغل

منظر الاستعمار الرسمي في الجزائر أكسيس دي طوكفيل حاجة فرنسا الاستعمارية إلى أفكار تقوم عليها سياسة الاستيطان لتكثير العنصر الفرنسي في المجتمع الأوروبي في الجزائر، فكتب: "ينبغي لنا أن نطرح على أنفسنا سؤالا أولا: هل يجب مباشرة الاستيطان قبل إكمال السيطرة ونهاية الحرب؟ لن أتردد لحظة في الإجابة: نعم. لا أحد بإمكانه القول متى ستنتهي الحرب، انتظار نهايتها يعني التأجيل اللامحدود للأمر الأساسي. وقلت وأكرر أنه ينبغي أن نجعل الاستيطان والحرب يسيران معا إذا كان ذلك ممكنا"[٢٦]. أما أونفونتان، فقد تميز كتاباته بتشجيع فرنسا الاستعمارية على تنظيم الهجرة الأوروبية وتوسيعها إلى كل فئات المجتمع الأوروبي، ومما كتبه: "يجب أن تشمل الهجرة الأوروبية الفلاحين والتجار والصناعيين ورجال العلم والفن من الرجال والنساء"[٢٧].

يبدو أن دي طوكفيل وأونفونتان، اشتركا في التنظير لجريمة تكثير العنصر الأوروبي بقصد دمج الجزائر بفرنسا عن طريق الفرنسة، وهذه الجريمة ساعدت فرنسا الاستعمارية على منح الاستقلال المالي والإداري للأقلية الأوروبية في الجزائر، فتحول المهاجرون الأوروبيون بفعل التسلط الاستعماري من حالة فئة شذاذ الآفاق الدخلاء على المجتمع الجزائري العربي المسلم، إلى فئة الأسياد بيدهم الأملاك الزراعية الكبيرة والمصانع والبنوك والتحكم في الشؤون العامة للجزائريين. ومن هؤلاء كبير الكولون السويسري هنري بورجو الذي استولى على مساحات واسعة في سهل متيجة بمساعدة فرنسا سنة ١٨٤٣، وحولها إلى مزارع الكروم المنتجة للخمور حتى عرف بملك العنب.

وهكذا كانت كتابات منظري جريمة الاستعمار الاستيطاني في الجزائر القاعدة التي عملت بمقتضاها الإدارة العسكرية والمدنية للاحتلال الفرنسي على دمج الجزائر بفرنسا، ومنها: توسيع حرب الإبادة ضد الجزائريين، وإقامة المركز العسكرية في المدن والأرياف والاستعانة بالمكاتب العربية للترجمة لمراقبة حركة الجزائريين، ونقل المهاجرين الأوروبيين وتقديم التسهيلات البنكية للاستغلال الأراضي الجزائرية بعد مصادرتها وإقامة القرى الاستيطانية فيها، وتعميم تدريس اللغة الفرنسية في المدارس التي يكثر بها السكان الجزائريون للتمكين من جريمة الإدماج، وتطبيق القانون المدني الفرنسي في الأحوال الشخصية على العائلات الجزائرية في المدن والأرياف، والتضييق على المحاكم الشرعية الإسلامية في الأحوال الشخصية (عقود الزواج والميراث)، ومحاولة عزل الجزائر عن محيطها الإسلامي بدعوى اهتمام فرنسا بالتراث الجزائري، وإقامة المدارس الفرنكو إسلامية[٢٨].

٤/٢-جريمة التنظير لحرب الإبادة في الجزائر

المعروف تاريخيا أن ألكسيس دي طوكفيل عاش في الولايات المتحدة الأمريكية، فأعجب بسياسة التطهير العرقي التي شنتها الإدارة الأمريكية ضد الهنود الحمر، وهم السكان الأصليون ضمن إطار تعمير الغرب الأمريكي، ولذلك استعجل أمره في تقديم خدماته الفكرية لفرنسا الاستعمارية في بداية الاحتلال، بقصد القضاء على مقاومة الأمير عبد القادر، فكان دي طوكفيل يقدم استشاراته للجنرال بيجو في تطبيق الحرب الشاملة ضد الجزائريين لعزلهم عن المقاومة، وترهيبهم والتضييق الاقتصادي عليهم بقصد التخلي عن نصرة الأمير، فكتب: "لن نقضي على عبد القادر، إلا بجعل حياة القبائل المنضوية تحت لوائه لا تطاق، فتنفض عنه، وهذه حقيقة بديهية ينبغي التسليم بها أو ترك هذا الأمر. بالنسبة لي اعتقد أنه ينبغي اللجوء إلى كل الوسائل التي بإمكانها تدمير القبائل، لا استثني تلك التي لا تقبلها الإنسانية أو قانون الأمم"[٢٩].

وهكذا منحت فرنسا الاستعمارية لجنرالات الجيش الفرنسي في الجزائر بمختلف أصنافه سلطات واسعة لارتكاب جرائم في حق الجزائريين في ظروف استثنائية، وخاصة فرض حالة الحصار وقانون الأهالي البغيض والمحاكم الرادعة على الجزائريين، ومن هذه الجرائم القتل الجماعي لأبناء القبائل الجزائرية، وإبادة بعضها عن بكرة أبيها، والتهجير القسري، والاضطهاد والقمع المرعب للرافضين للاحتلال، والميز العنصري بين الجزائريين والأوروبيين، وجرائم التعذيب، ومصادرة الأراضي، وتفكيك ملكية العقارية للعائلات الجزائرية الكبيرة، وإرهاق كاهل الجزائريين بالضرائب غير القانونية، ومحاولة التنصير، ومحاربة اللغة العربية، وحرق محتويات الخزانات الخاصة ونهب المخطوطات، وتشجيع الدراسات التاريخية والاستشراقية لتشويه تاريخ الجزائر، وتمجيد الاستعمار الروماني في الجزائر، وتجاهل التاريخ الإسلامي في الجزائر من الفتح حتى العهد الثماني.

ثالثًا: أمثلة من التطرف الفكري لتشويه الجزائر في أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري

اتجهت نظرة المؤرخين الفرنسيين في بداية الاحتلال إلى تشويه الحقيقة التاريخية المتصلة بتاريخ الجزائر، فاستندت

الكتابات التاريخية الفرنسية التي تناولت تاريخ الجزائر بداية الاحتلال، إلى ثلاثة عوامل رئيسية هي:

١/٣-معظم الكتابات التاريخية الفرنسية عن الجزائر صدرت بعد الاحتلال سنة ١٨٣٠

صدرت كثير من الكتابات التاريخية الفرنسية بغرض خدمة المشروع الاستيطاني الفرنسي في الجزائر، فهذا المؤرخ ستيفان غزيل كتب في مقدمة كتابه بعنوان تاريخ الجزائر ومؤرخوها: "يسطر التاريخ لنا واجباتنا أيضا، وهي تتمثل في إرادتنا المصممة على أن نكون أسيادا في كل مكان وإلى الأبد، وفي ضرورة إقامة إعمار يستند إلى إسكان أوروبي قوي في الريف، كما يتمثل في ضرورة تقريب السكان منا، رغبة وأملا في تحقيق انصهار على مدى قريب وبعيد، إن هذا التاريخ إذن لا يعتبر في إفريقيا هو أقل العلوم جدوى"[٣٠]. فالمؤرخ ستيفان غزيل الذي يعتبر من مؤسسي مدرسة التاريخ الاستعماري الفرنسي في الجزائر، يفصح في مقدمة كتابه عن إخضاع التاريخ لمتطلبات الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ويتأكد وجود هذا التوجه المنهجي عند ستيفان غزيل من خلال تحليل التعبير الأخير من الفقرة المقتبسة من كتابه، فهو قد أحجم عن مناقشة الرأي القائل بأن "التاريخ هو أقل العلوم جدوى"، من حيث هو، واقتصر على مناقشته فيما يتعلق بتطبيق هذا الرأي على تاريخ المغرب العربي، إنه واضح في تحميل التاريخ مسؤولية محددة ذات علاقة مباشرة بخدمة الاستعمار، والمنطق الذي يتحكم في هذا التوجه، هو منطق تبرير الاستعمار، لأن كشف الستار عن حقيقة تاريخ الجزائر والمغرب العربي، يعني نسف إحدى الأسس المعنوية الرئيسية التي كان يستند إليها الاستعمار الفرنسي[٣١].

كان الاستعمار الفرنسي مند سنة ١٨٣٠، في حاجة إلى القول بعدم قابلية الجزائر لأن تشكل أمة، مثلما كان في حاجة إلى إنكار أي وجود سابق للكيان الدولي للجزائر. ولكنه كان فقط في حاجة لذلك، كي يقر هذه الفكرة، عند المستوطنين الأوروبيين حتى يكونوا أشد اطمئنانا إلى وجودهم في الجزائر، وأكثر ثقة في مستقبلهم في هذه المستعمرة الاستيطانية، وكان في حاجة إلى ذلك أيضًا كي يثير الشك عند الجزائريين. فإنكار أي وجود للكيان الدولي للجزائر يستهدف إلى تحقيق هذا الغرض المزدوج: ضمان تكوين فكري وإيديولوجي معين لدى المستوطنين الأوروبيين في الجزائر، وزعزعة المعلومات التاريخية عند الجزائريين وتشكيكهم في تاريخهم[٣٢].

اكتسبت عملية تشكيك الجزائريين في تاريخهم طابعا خطيرا، فزيادة عن تحريف معلومات الكتب المدرسية التي تتصل بتاريخ الجزائر بصفة خاصة، وتاريخ العرب والمسلمين بصفة عامة، كان المعلمون الفرنسيون يروجون خرافات وهمية، تستهدف دفع الطفل الجزائري إلى كره تاريخه وتهيئته نفسيا لأن يتقبل الاندماج في المشروع الاستعماري الفرنسي، ويقبل به قضاء وقدرا لا خلاص منه. وسمع الكثير من الجزائريين في المدارس الفرنسية في الجزائر تلك الصورة التاريخية النمطية التي تقول: إن سكان مدينة الجزائر باعوا مدينتهم سنة ١٨٣٠ مقابل قصعة زلابية اعطاها لهم الفرنسيون. وكان الكتاب المدرسي الذي يحتوي على هذه الخرافة، مرفقا برسوم توضيحية تبين عددا من الجزائريين تحلقوا حول قصعة زلابية[٣٣].

وهكذا، فإن نماذج كثيرة من هذه الخرافات، تصبح مع طول الزمن حقيقة مسلما بها في أوساط المستوطنين الأوروبيين، وخاصة إذا ما عرف المستوى الثقافي السطحي الذي كان يطبع غالبية فئات الكولون.

٢/٣-دور الحكم العسكري في وضع المادة التاريخية لتبرير الاستعمار الفرنسي

كان ضباط الجيش الفرنسي ومتصرفو الإدارة الفرنسية رواد وضع المادة التاريخية لكتابة تاريخ الجزائر في الأدبيات الفرنسية، وفي ذلك ما لا يخفى من تحيز يتنافى مع الموضوعية. فالعسكري أو الإداري في النظام الاستعماري الفرنسي في الجزائر يعتبر كتاباته امتدادا لعمله في الميدان، وعمله الأساسي هو الحرب ضد الجزائر وضد الأمة الجزائرية. يضاف إلى ذلك أن الفرنسيين الذين خدموا في الإدارة الاستعمارية للجزائر، نظروا إلى تاريخ الجزائر من وجهة النظر الفرنسية، فكانت كتاباتهم في الحقيقة تأريخا للاستعمار الفرنسي في الجزائر، ولم تكن تاريخا للجزائر. ورغم أن بعض المؤرخين الفرنسيين قد تناولوا بالبحث تاريخ الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، ولكن هذا التناول كان لا يخلو من الملاحظات التالية:

- محاولة تشويه الماضي التاريخي للجزائر لإيجاد مبرر للاستعمار الفرنسي في الجزائر.
- التركيز على ما قبل التاريخ والتاريخ الروماني في الجزائر، وإهمال تاريخها العربي الإسلامي.
- تجاهل المصادر العربية لتاريخ الجزائر.

وهكذا، فإن النتيجة العملية لهذه الملاحظات الثلاثة هي وجود تعريف يقلل من أهمية تاريخ الجزائر عبر العصور التي سبقت الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة ١٨٣٠.

٣/٣-اعتماد المؤرخين الفرنسين على مناهج أوروبية في كتابة تاريخ الجزائر

اعتمد المؤرخون الفرنسيون في دراسة قضايا تاريخ الجزائر مناهج البحث والتقييم، وهي مناهج أوروبية حديثة وضعت لكتابة التاريخ الأوروبي، وهذا يجانب الحقيقة التاريخية لأن مراحل التاريخ الأوروبي تختلف جذريا عن مراحل تاريخ الجزائر. وعلى خطوات هذه المناهج الحديثة في ظاهرها، تناولت الكتابات الفرنسية تاريخ الجزائر مطبوعة بهذا الطابع الذي يحكم عليها فالقواعد التي يقع الاحتكام إليها في الدراسات التاريخية عن الجزائر هي قواعد استنبطت من وقائع التاريخ الأوروبي، تجعل من يتناول تاريخ الجزائر من وجهة نظر فرنسية، يعمد إلى الحكم على تاريخ الجزائر بالنسبة لتاريخ فرنسا، ولا شك أن تحكيم مثل هذا النسبية المفرطة، ومثل هذه المقاربة المقارنة غير الواردة لا يمكن إلا أن يعطي نتائج مغلوطة من الناحية العلمية والموضوعية.

استغل مؤرخون فرنسيون وجود الاستعمار الروماني في الماضي التاريخي للجزائر، فحاولوا إيجاد رابطة بينه وبين الاستعمار الفرنسي في تاريخ الجزائر الحديث، وأن يتجاوزا المدة الزمنية على مدى أربعة عشر قرنا وصولا إلى نتيجة، وهي أن الوضع الطبيعي للجزائر هو وجودها في نطاق السيطرة الأوروبية، أي تأكيد المؤرخين الفرنسيين على حتمية تبعية الجزائر لفرنسا الاستعمارية. وتشير المصادر المتوفرة عن تاريخ الجزائر الثقافي قبل سنة ١٨٣٠ أن الحياة الثقافية ازدهرت في البلاد، وإن كانت فقيرة من حيث المؤلفات العلمية، إلا أنها مع ذلك تظل ثقافة جزائرية وطنية أصيلة، ولم ينقصها سوى التفتح والاستيعاب، ويرجع هذا النقص إلى تأثر الجزائر بحالة الجمود والتقليد التي عرفها العالم الإسلامي، والتأخر عن مسايرة النهضة الحديثة والتكيف معها، على أن رصيد الثقافة الجزائرية الوطنية يتجلى في أنها كانت تستمد قوتها من التراث المادي والثقافي وتستخدم اللغة العربية للتعبير عن الهوية الوطنية[٣٤].

كان سقوط الدولة الجزائرية الحديثة في ٥ جويلية ١٨٣٠ بداية للسياسة الاستعمارية الفرنسية في القضاء على التراث الثقافي الجزائري، فلم تكتف سلطات الاحتلال الفرنسي بتجريد الإنسان الجزائري من أرضه، وطمس شخصيته العربية الإسلامية، بل استهدفت تخريب عقله، وكان التعليم العربي الهدف الرئيسي في هذه السياسة عن طريق إغلاق المساجد والمدارس القرآنية التي كانت تعلم اللغة العربية، وهدم الزوايا التي كانت منطلقا للمقاومة الشعبية ومراكز للتربية والتعليم وتنظيم المقاومة الوطنية[٣٥]، وبعد تدجين بعض الزوايا التي سلمت من التخريب جعلتها تدين بالولاء لفرنسا، وحصرت نشاطها في تحفيظ القرآن الكريم، وهذا ما اعترف به أحد المستشرقين الفرنسيين بقوله: "إن المساجد والزوايا مقتصرة على تعليم القرآن الذي يحفظه التلاميذ عن ظهر قلب، أما المدارس التي يستطيع التلميذ أن يتعلم فيها موادا أخرى، فعددها محصور جدًا، ويبدو أن هذا العدد يتناقص باستمرار"[٣٦]. وهذا الاعتراف يدل على خطر السياسة الفرنسية في تجفيف المنابع التي يتغذى منها التعليم العربي في الجزائر، وحملت هذه السياسة كذلك أبعادًا خطيرة، منها تشويه الصورة الراسخة عن ماضي الدولة الجزائرية قبل الاحتلال، وإخماد روح الاعتزاز لدى الإنسان الجزائري بقيمته ومبادئه.

تولت المدارس الفرنسية تلقين الأطفال الجزائريين عادات دخيلة عليهم في التفكير والسلوك، وقد اعترف جورج هاردي، وهو أحد المنظرين لهذا النوع من التعليم في المستعمرات الفرنسية في إفريقيا قائلا: "إن أحسن وسيلة لتغيير الشعوب البدائية في مستعمراتنا، وجعلهم أكثر ولاء وإخلاصا في خدمتهم لمشاريعنا، هو أن نقوم بتنشئة أبناء الأهالي منذ الطفولة، وأن نفتح لهم الفرصة لمعاشرتنا باستمرار، وبذلك يتأثرون بعاداتنا الفكرية وتقاليدنا فالمقصود هو أن نفتح لهم المدارس لكي تتكيف فيها عقولهم حسبما نريد"[٣٧]. يبدو من تصريح هذا المنظر الاستعماري، أن سلطات بلاده استهدفت فرنسة المجتمع الجزائري عن طريق التعليم بحكم عدائها الشديد لتراث الأمة الجزائرية، ولكن الحقيقة التاريخية تؤكد أن فرنسا كانت حريصة على حرمان أبناء الجزائر من الحق الطبيعي في التعليم تحت ضغط المستوطنين الذين كانوا يتحكمون في ميزانية الجزائر، وخاصةً ما يتعلق بالتعليم بموجب الاستقلال المالي والإداري الذي منحته لهم فرنسا في الجزائر[٣٨].

وكان هذا الحرص بحجة أن تحسين المستوى التعليمي لدى الجزائريين، حتى ولو حصل عن طريق اللغة الفرنسية، قد يؤدي إلى المطالبة بالتحرر السياسي، لذلك انحصر التعليم في الأقلية الأوروبية، بينما فرضت قيودا على تعليم الجزائريين، ويقول هاردي في هذا الصدد: "إن التعليم الفرنسي الخاص بالجزائريين يضمن مبادئ أساسية كالحرص على مراقبة التعليم من أن يتحول إلى أداة يستغلها المشاغبون لإحداث الاضطرابات في المجتمع"[٣٩]. كما أن السلطات الفرنسية أدخلت التعليم التأهيلي في الجزائر، وكان الهدف الأساسي من هذا التعليم هو تكوين نخبة جزائرية تدين بالولاء المطلق لفرنسا عن طريق

فصل هذه النخبة عن واقع الشعب الجزائري، ودفعها إلى إنكار وجود مقومات الأمة الجزائرية والدعاية للأطروحة القائلة بأن الثقافة تنحصر في الفرنسية، وأن تاريخ الجزائر بدأ من سنة ١٨٣٠[٤٠].

يتجلى التضليل الفرنسي في طريقة تدريس التاريخ في المدارس في الجزائر، فكلمة العرب لم ترد في الكتب المقررة في المرحلة الابتدائية سوى مرة واحدة، ولم يبق من التاريخ العربي المجيد في هذه الكتب سوى تعبير: "وأن العرب انهزموا في بواتيي على يد شارل مارتل[٤١]. وركزت هذه الكتب على غرس مقولة "أسلافنا هم الغاليون[٤٢]. ومن النماذج العملية في نظرة المؤرخين الفرنسيين في تشويه حقائق تاريخ الجزائر، يمكن تقديم ما كتبه على سبيل المثال لا الحصر المؤرخ ستيفان غزيل الذي لم يتردد في التأكيد على أن "الجزائر هي جزء اقتطع من إفريقيا الشمالية"[٤٣]. ولم يتأخر المؤرخ وليام مارسي في ترديد صدى فكرة ستيفان غزيل، عندما كتب مشيرا إلى الفتح الإسلامي وإلى العهد التركي في الجزائر: "...في كلتا الحالتين، غزا المشرق هذا الجزء من المغرب"[٤٤].

وألف قاليبرت كتابه بعنوان البلاد الجزائرية القديمة في ٦٣٩ صفحة، فمن بداية الكتاب حتى صفحة ٢٤٩، وصف الجزائر وتاريخها منذ العصور القديمة حتى سنة ١٨٣٠. أما باقي الكتاب، فحصره بالتأريخ للاحتلال الفرنسي، كما أنه أخلط في تأليف كتابه بين النزعة الخيالية في سرد الأخبار الممزوجة بالأساطير، وعدم تمييزها عن التاريخ العلمي[٤٥]. كما أن محتوى كتاب المؤرخ العسكري الفرنسي الجنرال فور بيغيت، يتضمن معلومات تجعل القارئ ينفر من مطالعته، فلا يجد أمامه سوى القسوة والانقلابات المتكررة والحروب التي لا تنتهي عبر تاريخ الجزائر وسيطرة القوي على الضعيف، ولا يجد في كتابه ذكرا للتاريخ والحضارة[٤٦]، أما الكاتب دوبوا فونتانيل، فقد تعرض بإيجاز لعدة مظاهر من الحياة الجزائرية قبل سنة ١٨٣٠ جاءت في محتوى الجزء الرابع من كتابه[٤٧]. وهكذا تحكمت هذه العوامل الثلاثة في توجيه كتابات المؤرخين الفرنسيين توجيها مغلوطا في نظرتهم إلى تاريخ الجزائر، وجعلتها تساهم عن قصد في تشويه تاريخ الجزائر عبر العصور، وخاصة بعد احتلال الجزائر.

خَاتِمَةٌ

يمكن تلخيص التطرف الفكري في أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري تجاه الجزائر من خلال نظرة المؤرخين الفرنسيين لتاريخ الجزائر فيما يلي:

١. أن منطلقات التطرف الفكري في أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري تجاه الجزائر قامت على موقف سياسي متطرف، استخدم فيه المؤرخون الفرنسيون الدراسات لتبرير احتلال الجزائر. وتجلى في كتابات لويس رين والأب دان في العهد العثماني وبروسبير أونفونتان وألكسي دي طوكفيل بداية الاحتلال.

٢. ربط المؤرخون الفرنسيون الاستعمار الروماني للجزائر بالاستعمار الفرنسي بقصد تشويه تاريخ الجزائر، فهذا المؤرخ ستيفان غزيل صاحب أطروحة: "الجزائر أرض فراغ"، ويردد المؤرخ وليم مارسي صدى هذه الأطروحة مُشيرًا إلى الفتح العربي الإسلامي وإلى العهد التركي.

٣. نقد المصادر والوقوف منها موقف الشك والتحفظ، وهذه لنقطة وإن كانت ايجابية من منظور البحث الحديث، إلا أنهم طبقوها خصوصا على المصادر العربية فأصبحت وكأنها ظاهرة غير علمية في هدفها.

٤. إهمالهم للشعب الجزائري في تناولهم لتاريخ الجزائر، فكتبوا عن الجزائر كأرض فراغ، وغاز جديد يطرد غاز قديم من الفينيقيين حتى الفرنسيين، وليس هناك في نظرهم أمة جزائرية أو كيان جزائري، وإنما هناك قبائل متنافرة تخوض حروبا مستمرة، ولا تخضعها إلا القوة كالرومان والأتراك والفرنسيين. ولم يطبقوا هذه النظرية على عهدهم الذي يبدأ من سنة ١٨٣٠، ولكن على جميع العهود التاريخية الجزائر وتبريرا لوجودهم.

٥. كان المؤرخين الفرنسيون أصوات السلطة العسكرية في بداية الاحتلال، وهذه التبعية، أعمتهم عن الحقيقة وجعلت أعمالهم التاريخية تفقد روح البحث المجرد.

٦. وهذه الظاهرة جعلتهم يركزون في كتاباتهم على التاريخ الاقتصادي والإداري والعسكري، كما فعل دي نوفو بالنسبة للطرق الصوفية للسيطرة عليها، وبذلك أهمل تاريخ الجزائريين السياسي والثقافي والاجتماعي.

٧. اهتم الفرنسيون باحتلال الجزائر، وكتبوا عن رجاله وسياستهم وأثر ذلك على الجزائر وعلى الهجرات الأوروبية. ويأتي في المرتبة الثانية من اهتمامهم تاريخ الرومان في الجزائر، وتاريخ المسيحية فيها، وأخيرا تاريخ البيزنطيين فيها، أما تاريخ العرب المسلمين، وهو تاريخ العهد الذي تحرر فيه السكان، ويديرون شؤونهم بأنفسهم، فقد ظل عندهم عهدًا غامضًا حسب تعبير غوتي. وكذلك فعلوا مع العهد العثماني في الجزائر، وهو العهد الذي قويت فيه شوكة الجزائر وتوحدت فيه جغرافيًا وسياسيًا.

الاحالات المرجعية:

(1) P. Claussolles, L'Algérie pittoresque ou histoire de la régence d'Alger depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours, V2, Paris 1843, p 46.

(2) R. Montran, Les données de l'histoire moderne et contemporaine de l'Algérie et de la Tunisie, Annales de l'Afrique de Nord, Paris 1962, p 243.

(٣) عزيز سامح التر، **الترك في إفريقية الشمالية**، اسطنبول، ١٩٣٧، ص ٣٢٥.

(4) R. Montran, Op-cit, p 248.

(5) Devoulx (A), (Un exploit des Algériens en 1802), in revue africaine, Paris 1865, p 157.

(6) Rinn (L), Bulletin de la société de géographie d'Alger, 1903, p 72.

(7) Blavin, La condition de la vie des français dans la Régence d'Alger, Alger 1899, p 361.

(8) Godefron, Gornelin et la Motte (les pères), Etats des royaumes de Barbarie, Tripoli, Tunis et Alger, Rouen 1731, p 351.

(9) Dan, Histoire de Barbarie et de ses corsaires, le royaume et les villes d'Alger, de Tunis et de Salé de Tripoli, Paris 1637, p 85.

(10) H. Grammont (de), Correspondance des consuls d'Alger (1600-1742), Paris 1890, p 69.

(11) Dan, Op-cit, p 92.

(12) P. Clausolles, Op-cit, p 248.

(13) Ach. Filias, L'Algérie ancienne et nouvelle, Paris 1875, p 194.

(14) H. Garot Histoire générale de l'Algérie, Alger 1910, p 258.

(15) Vinchon (Baron de), Histoire générale de l'Algérie et des autres états barbaresques jusqu'à nos jours, Paris 1839, Alger 1910, p 354.

(16) Ch. Farine Deux pirates au XVIe siècle, histoire de Barberousse, Paris 1869, p 246.

(17) Faure Biguet, Histoire de l'Afrique septentrionale sous la domination musulmane, Paris 1905, p 340.

(١٨) ألكسيس دي طوكفيل، **نصوص عن الجزائر**، تر/ إبراهيم صحراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٨، ص ٣٣.

(19) Prosper Enfantin, Colonisation de l'Algérie, Librairie Bertrand, Paris, 1843, pp 3-9.

(20) Ibid, p 7.

(٢١) ألكسيس دي طوكفيل، مصدر سابق، ص ٣٤.

(٢٢) نفس المصدر، ص ١٩-٢٠.

(٢٣) نفسه، ص ٤١-٤٢.

(٢٤) أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ج٥، ص ٩٢-١١٤.

(٢٥) أبو لقاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية**، ج١، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٩٠، ص ١٧-١٨.

(٢٦) ألكسيس دي طوكفيل، مصدر سابق، ص ٦١.(١)

(27) Prosper Enfantin, Op-cit, p 11.

(28) Ibid, pp 130-132.

(29) ألكسيس دي طوكفيل، مصدر سابق، ص ٤٨.

(30) Stéphane Gsell, Histoire de l'Algérie, Paris 1931, p 549.

(٣١) رابح تركي، **التعليم القومي والشخصية الوطنية**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٧٥، ص ٩٣.

(٣٢) نفس المرجع، ص ١٠٩.

(33) Georges Hardy, Une conquête morale : L'enseignement en AOF, Albin Colin, Paris 1931, p 25.

(٣٤) يحيى بوعزيز، **سياسة التسلط الاستعماري**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٣، ص ٧٢.

(٣٥) مولود قاسم نايت بلقاسم، (**العربية والتعليم العالي وأساليب النهوض بها في الجزائر**)، مجلة الأصالة، السنة ١٨، عدد ١٠١، الجزائر ١٩٨٨، ص ١٩.

(36) Georges Hardy, Op-cit, p 25.

(37) Ibidem.

(٣٨) رابح تركي، المرجع السابق، ص ٩٣.

(39) Georges Hardy, Op-Cit, p 40.

(٤٠) مولود قاسم نايت بلقاسم، مرجع سابق، ص ٢١.

(٤١) نفس المرجع، ص ٣٣.

(٤٢) نفسه.

(43) Stéphane Gsell, op-cit, p 561.

(44) William Marçais, Histoire et historiens d'Algérie, Paris 1931, p 139.

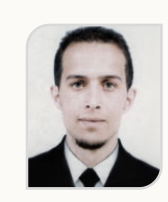
(45) Dubois Fontanelle, Anecdotes africaines depuis l'origine ou la découverte des différents royaumes qui composent l'Afrique jusqu'à nos jours, 8 t, V1, Paris 1775, p 157.

(46) Faure-Biguet Op-cit, p 415.

(47) Dubois Fontanelle, Op-cit, p 279.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

التسليح خلال الثورة التحريرية الجزائرية على الحدود الجزائرية التونسية
١٩٥٨ – ١٩٦٠م



د. نبيل جابري
أستاذ مؤقت تاريخ الجزائر المعاصر
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة العربي التبسي – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

لقد أخذت عملية التسليح خلال الثورة التحريرية الجزائرية منعرجًا حاسمًا في الفترة ١٩٥٨-١٩٦٠م حيث استقبل جيش التحرير الوطني كميات كبيرة من الأسلحة، نتيجة نشاط جبهة التحرير الوطني في البحث عن أسواق بالخارج عن طريق عقد صفقات لشراء الأسلحة والذخيرة، وبهذا تعددت مصادر السلاح وتنوعت مّما مكّن شبكات التهريب والإمداد من تكديس أعداد كبيرة من الأسلحة والذخيرة على الحدود الجزائرية التونسية، وأصبحت قاعدة تونس من أهم عناصر الدعم اللوجستي لجيش وجبهة التحرير الوطني، وقد كانت عملية تسليح الولايات الداخلية من أصعب المهام، ورغم ذلك تم نقل العديد من قطع السلاح والذخيرة انطلاقًا من المخازن الحدودية التونسية من أجل إيصالها إلى داخل التراب الجزائري. وتوصلت الدراسة إلى أن المناطق الحدودية الشرقية لعبت دورًا كبيرًا في الثورة الجزائرية، فدكانت تمثل قواعد خلفية لجيش التحرير الوطني ومتنفسًا حقيقيًا للثورة الجزائرية، وكذلك مجالاً حيويًا لتهريب السلاح انطلاقًا من مصر وليبيا مرورًا بتونس. وقد استمرت الجهة الجزائرية الشرقية في نشاطها في تهريب السلاح عبر الحدود التونسية، بفضل المساعدات الرسمية للحكومة التونسية التي استعملها الثوار كقاعدة عمليات لكافة القطر الجزائري. على الرغم من الجهود المبذولة لإمداد الثورة بالسلاح والذخيرة إلا أنها لم تحقق سوى شطر من الحاجة التي كان يتطلبها المجهود المسلح للثورة في الداخل نظرًا للمراقبة المستمرة على الحدود الجزائرية من طرف السلطات الفرنسية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٥	مارس	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٠٦	أبريل	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:
التسليح؛ مصادر السلاح؛ شبكات التسليح؛ المخازن الحدودية؛ قوافل السلاح

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.231590

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
نبيل جابري. "التسليح خلال الثورة التحريرية الجزائرية على الحدود الجزائرية التونسية ١٩٥٨ – ١٩٦٠م".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثاني والخمسون؛ يونيو ٢٠٢١. ص ١٢٦ – ١٣٨.

Corresponding author: nappavitch@yahoo.fr
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

مع ازدياد نشاط الثورة الجزائرية واتساع رقعتها الجغرافية داخل التراب الوطني وازدياد عدد المجاهدين زادت حاجتها للسلاح والذخيرة الذي يمثل وقود الثورة وضمان استمراريتها، حيث تعاطفت الكثير من الدول مع القضية الجزائرية، وسرعان ما تطورت مواقفها من الدعم الدبلوماسي إلى الدعم المادي، فبعد الدول العربية والإسلامية ظهرت تطورات إيجابية لصالح الثورة الجزائرية في المعسكر الشرقي المعادي للإمبريالية الغربية والاستعمار بفضل المساعي الحثيثة التي يقوم بها ممثلو جبهة التحرير الوطني في الخارج، وكانت تونس من أهم القواعد الخلفية للثورة الجزائرية، حيث ساهمت في الدعم اللوجستي عن طريق إدخال الأسلحة وتخزينها والسماح بتمريرها عبر التراب التونسي نحو الحدود الجزائرية التي تتواجد بها مجموعة من مخازن السلاح، ليتم نقلها انطلاقا من هذه المخازن عن طريق قوافل التسليح إلى داخل التراب الجزائري. وتكمن أهمية هذه الدراسة في معرفة مصادر الأسلحة خلال الثورة الجزائرية خصوصا خلال الفترة ١٩٥٨-١٩٦٠م وطرق تنظيمها في قاعدة تونس، وكذا كيفية تخزينها وتمريرها إلى داخل التراب الجزائري عبر الحدود ثم توزيعها إلى المناطق الداخلية، ومن هنا يُطرح التساؤل الآتي:

ما مدى مساهمة شبكات التسليح في إمداد الثورة الجزائرية بالأسلحة والذخيرة عبر الحدود الجزائرية التونسية ١٩٥٨-١٩٦٠؟

أولاً: المصادر الخارجية للسلاح ١٩٥٨-١٩٦٠م

لقيت الجزائر دعمًا ماديًا من طرف عدد كبير من الدول العربية والأجنبية اختلفت مظاهره من دولة إلى أخرى، حيث تذكر التقارير الفرنسية أن التسليح من ديسمبر ١٩٥٧ إلى فيفري ١٩٥٨ كان كالآتي:

سلاح مسلم بتونس تمثل في: ٣٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ بندقية إنجليزية ٣٠٣ وماس ٣٩، ٢٥٦ F.M (طبيعتها مجهولة)، ٣٨٠ رشاشا (منهم ٨٠ هوتكيس، ٦٠ ويكرز، ٣٠٠ مصرية)، ٣٠ مورطي منهم ١٢ عيار ١٢٠ ملم و١٨ عيار ٨١ ملم، ١٧٠ بازوكا، ١٢ رشاش عيار ١٢,٧، وبهذا يكون المجموع: ١٨٣٨٨ قطعة سلاح.[١]

أما السلاح الذي وصل إلى الجزائر عبر الحدود التونسية بلغ حوالي ٢٧٠٠ قطعة سلاح، والسلاح المسترجع من طرف القوات الفرنسية في القطاع القسنطيني بلغ ١٣٠٠ قطعة سلاح منها ٧٥ رشاشا M.G ٤٢، ١١ مورطي أو بازوكا، ٢٩ F.M (برن ٢٤/٢٩)، أما فيما يخص السلاح المدّخر للثوار فقد بلغ ١٤٠٠ قطعة سلاح، أي بمعدل ٦٠٠ قطعة سلاح للشهر، اعترضت القوات الفرنسية ما نسبته من ٤٠ إلى ٥٠% من العتاد، في حين أن السلاح المنتظر بتونس هو عبارة عن عتاد من المحتمل أن يتم نقله خلال مارس ١٩٥٨، وشمل ٥٠٠٠ قطعة سلاح منها ١٣٠ مورطي، ١٠٠ رشاش مضاد للطيران عيار ١٢,٧، ٧٥ رشاشًا روسيًا عيار ١٢,٧، ٥٠٠ مدفع مضاد للدبابات نوع بازوكا، آتية من سوريا ومصر، ١١٣٠٠٠٠٠ خرطوشة من كل الأنواع.[٢]

كان تشكيل الحكومة الجزائرية المؤقتة في سبتمبر ١٩٥٨ أثرًا إيجابيًا على صعيد التسليح والتموين، فأصبحت بعض الدول الشقيقة تتعامل معها كهيئة شرعية وتبرم معها صفقات لشراء الأسلحة مثل مصر والعراق وسوريا والأردن، كما التحقت بقائمة الدول المتبرعة بالسلاح دول كبرى مثل الصين والاتحاد السوفياتي، ومن خلال هذا نجد أن الحكومة المؤقتة بالفعل قامت بتوفير الأسلحة غير أنها لم تصل إلى الداخل.[٣] في ١٩ ديسمبر ١٩٥٨ ذهبت البعثة التابعة للحكومة المؤقتة الجزائرية إلى الصين متكونة من محمود الشريف وزير التسليح والتموين العام، حيث قامت بالتحضير لمهمة للحصول على مساعدة مالية، عسكرية وتقنية، بالإضافة إلى تسليم عتاد ثقيل.[٤]

تقرر أثناء اجتماع لجنة التنسيق والتنفيذ من فيفري إلى سبتمبر ١٩٥٨ ومن سبتمبر إلى ديسمبر ١٩٥٩ توزيعًا جديدًا للمهام بإنشاء مصالح عديدة ومن بينها إنشاء مصلحة التسليح والتموين العام (Département d'Armement et du Ravitaillement général) خلفًا لمصلحة التسليح سابقا، ومهمة هذه المصلحة تتلخص في نقل وإيصال الأسلحة من مختلف المراكز إلى الحدود الجزائرية-التونسية والجزائرية-المغربية، وقد اهتمت هذه المصلحة بالحصول على السلاح والمعدات والمؤونة سواء عن طريق الشراء أو عن طريق الهبة ونقلها إلى الحدود الجزائرية الشرقية،[٥] وفي جانفي ١٩٦٠ أجرى تعديل على الحكومة المؤقتة ثم دمج وزارة التسليح والتموين ووزارة الاتصالات العامة في وزارة واحدة أصبحت تسمى بوزارة التسليح والمواصلات العامة تحت إشراف العقيد عبد الحفيظ بوصوف، وكان من الطبيعي أن تجمع هاتين التشكيلتين الحساستين والإستراتيجيتين في نفس الوقت داخل تنظيم واحد لتعملا في نطاق تشكيلة متكافئة، وخلال هذه الفترة تطورت القضية الجزائرية تطورا كبيرا، وعرف التسليح تطورا ملحوظا سواء على مستوى التنظيم أو على مستوى الوسائل والنشاطات.[٦]

خلال الثلاثي الأول من سنة ١٩٥٩ سخرّت جبهة التحرير الوطني نشاطًا كبيرًا بهدف البحث بصفة نهاية عن إعادة عقد الصفقات القديمة وعقد أخرى جديدة بهدف الحصول على مساعدات من الخارج لدعّم جيش التحرير الوطني بتونس والمغرب،(٧) وبهذا فقد استقبلت جبهة التحرير الوطني أسلحة وذخيرة وعتاد آت من مخزن في مصر متوجه نحو تونس، كما تم عقد العديد من صفقات شراء السلاح وعتاد الاتصال، بالإضافة إلى إرسال وفد إلى الصين الشيوعية في إطار مهمة عسكرية من طرف جيش التحرير الوطني.(٨) في هذا الإطار كانت أغلب الصفقات الهامة تم مناقشتها من طرف مصالح وزارة التسليح والتموين العام، وكانت إحداها قد عقدت في إسبانيا، والباقي تم مناقشتها في نفس الوقت في تشيكوسلوفاكيا والمغرب وفنلندا.(٩)

تعاطفت الكثير من الدول مع القضية الجزائرية، وسرعان ما تطورت مواقفها من الدعم الدبلوماسي إلى الدعم المادي، فبعد الدول العربية والإسلامية ظهرت تطورات إيجابية لصالح الثورة الجزائرية في المعسكر الشرقي المعادي للامبريالية الغربية والاستعمار بفضل المساعي الحثيثة التي يقوم بها ممثلو جبهة التحرير الوطني في الخارج، فبدأت مصانع بعض الدول مثل "تشيكوسلوفاكيا "تنتج أسلحة خاصة موجهة إلى الثورة في الجزائر دون علامة.(١٠)

لقد رتّب ممثلو جبهة التحرير الوطني لشراء الأسلحة والمعدات على نطاق واسع من البلدان الأخرى في أوروبا وآسيا والشرق الأوسط بالإضافة إلى بعض الدول الموالية لفرنسا ظاهريا، وكثيرًا ما تجرى هذه العمليات من خلال مهربي الأسلحة، ولكن كثيرا منها يتم عقدها مع شركات غالبًا لأجل شحنها لشركات مشروعة في مصر أو ليبيا أو تونس أو المغرب، فعلى سبيل المثال موّنت شركة "ميتيمير"(Mittemeyer) في جمهورية ألمانيا الاتحادية أجهزة راديو وأسلحة ومعدات أخرى قيمتها ٦٠٠ مليون فرنكا فرنسيا في أفريل ١٩٥٩، كما قامت شركة هولندية برئاسة السيد "روي هارلم" بتقديم قرض لجبهة التحرير من عشرين مليون دولار لشراء المواد الغذائية والمتفجرات، كما أجريت عمليات شراء في فنلندا وغيرها من البلدان الغربية، ولكن ليس هناك ما يشير إلى أن جبهة التحرير الوطني قامت بشراء أي كمية معتبرة من العتاد مباشرة من الولايات المتحدة على الرغم من أن الكثير من ما وجدته في أيدي جيش التحرير الوطني تم تصنيعه هناك.(١١)

تذكر التقارير الفرنسية أنّ ١٥٠٠ قطعة سلاح آتية من تونس دخلت إلى الجزائر في مارس ١٩٥٨، لتكون الحصيلة حوالي ٣٣٠٠ قطعة سلاح كأقل تقدير للسلاح الذي مرّ عبر الحدود التونسية الجزائرية خلال الثلاثي الأول من سنة ١٩٥٨، ثم توقف تهريب الثوار للسلاح منذ شهر ماي ١٩٥٨ عبر تونس وهذا لإعادة تنظيم البنية التحتية لتسليح الثوار، أي أن مركز الثقل يظهر تحرك النشاط نحو الجنوب (إنشاء مخازن في القيروان، بيشون، وأخيرا متلوي ومولارس).(١٢)

كانت كمية السلاح والألغام المستقبلة من السعودية في ماي وبداية جوان ١٩٥٩ كما يلي: ٥٠ مدفع SR أمريكي، ١٢ مورطي عيار ٦٠ أمريكي، ٢٠ رشاشا عيار ١٢,٧، العديد من FM-BAR أمريكي، مجموعة من الألغام AC أمريكية N.2، يبدو أن هذه الألغام هي التي تم إنزالها من الباخرة "أومالغورا" في ٠٨ ماي ١٩٥٩ابنغازي.(١٣) أما في لبنان فقد شُرعت مفاوضات في بيروت بداية أفريل ١٩٥٩، لعقد صفقة عتاد لصالح وزارة التسليح والتموين العام من طرف المسمى "كابويا"، حيث أن طبيعة هذا العتاد مجهولة، يبدو أنها إما بنغالور أو قذائف مورطي أو ألغام، وقد كلّف عميل من وزارة التسليح والتموين العام لدراسة هذه الصفقة.(١٤)

فيما يخص العتاد الآتي من المساعدة العراقية الممنوحة في منتصف فيفري ١٩٥٩ فإن ممثل جبهة التحرير الوطني صرّح في ١٤ مارس ١٩٥٩ استقباله العتاد، وكانت منطقة الاستقبال بالإسكندرية، وبتاريخ ٢٥ مارس ١٩٥٩ أكدّت التقارير الفرنسية أن جزء من سلاح المساعدة العراقية تم تسليمه إلى جبهة التحرير الوطني عبر المسالك الجوية، وزنها ١١٢ طنا متمثلة في: بنادق قارون GARANT، P.M، مورطي وذخيرة، وأخرى عبر المسالك البحرية متمثلة في: ١٠ مورطي، ١٤ بندقية، ١٥ صندوق متفجرات، ١٩ صندوق قنابل يدوية، ٠٣ مدافع D.C.A وثلاثة مدافع مضادة للدبابات.(١٥)

في ٢٠ أوت ١٩٥٩ أرسلت العراق شحنة من العتاد والذخيرة نحو ليبيا موجهة لجبهة التحرير الوطني وهي كالآتي: ١٠ F.M، ٢٠٠ بندقية حرب، ٢٠٠ خرطوشة، ٣٠ PNSTEN، ٥٠٠ قذيفة عيار ٠٣ إنش، حوالي ٣٨٠٠٠ خرطوشة، متفجرات TNT، فتيل نوع بيك فورد، ٥٠ جهاز إرسال واستقبال، وهذه الحمولة أرسلت بواسطة طائرات عسكرية عراقية، وقد يكون النقل بواسطة البواخر نحو ميناء مصري أو ليبي في حالة استحالة النقل عن طريق الجو.(١٦) أرسل العراق شحنتين عبر الخطوط الجوية، يبدو أنها ذخيرة نحو

بنغازي بتاريخ ٠٩ نوفمبر ١٩٥٩ متمثلة في ١٥٢ صندوقا، وفي يوم ٢١ نوفمبر تم إرسال ١٧٠ صندوقا. [١٧]

بتاريخ ١٤ فيفري ١٩٥٩ كانت وزارة التسليح والتموين العام تنتظر حمولات آتية من يوغسلافيا، تحوي على مدافع مورطي وقذائف. [١٨]

واصلت جبهة التحرير الوطني خلال شهر أوت ١٩٥٩ مجهوداتها التنظيمية بتونس، حيث تم استقبال عتاد مختلف بتونس، ومن ناحية أخرى هناك حمولات هامة منتظرة آتية من ليبيا، وتواصلت مناقشات لعقد صفقات أخرى. [١٩] بدأت جبهة التحرير الوطني في البحث عن أسواق يشتغل بها عناصر جبهة التحرير بالخارج أو عملاء الاتصال الذين يعملون في مكتب التسليح والتموين العام (شراء الأسلحة) أو بمكتب العلاقات والاتصال (شراء عتاد الراديو)، والمصادر الأساسية للتموين التي تتوفر عند جبهة التحرير الوطني تقع في البلدان الغربية (تشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا)، وعلى الأرجح ألمانيا الغربية أين يعمل تجار الأسلحة المعروفين بـ(Beisukr) و(Otto Shlutter)، أما الأسلحة الانجليزية يمكن أن يكون مصدرها بلدان الشرق الأوسط، حيث يتم تهريب الأسلحة بواسطة بواخر إلى المغرب وليبيا ومصر أو سوريا. [٢٠]

في شهر نوفمبر ١٩٥٩ فإن جبهة التحرير الوطني أبرمت صفقة مع ألمانيا الفيدرالية، تهدف إلى شراء عتاد موجه إلى تحطيم الأسلاك الشائكة، تحتوي على: مواد مشابهة للنابالم، أجهزة (قاذفات نار) حوالي ١٤٠٠، [٢١] ومن جهة أخرى استطاعت جبهة التحرير الوطني كسب عتاد من صنع ألماني موجه للاستخدام في الانفجارات، إضافة إلى جهاز تفجير كهربائي (جديد) صنع "سكريفالد" ١٩٥٦ بألمانيا. [٢٢] في هذا الإطار أرسلت وزارة التسليح والتموين العام إلى ليبيا بعثات من ألمانيا الفدرالية متمثلة في عربات متوجهة نحو طرابلس متمثلة فيما يلي:

- عدد من الشاحنات (unimog) تم تفريغهم قبل ٠٨ نوفمبر ١٩٥٩.
- جرارات منتظرة خلال النصف الثاني من شهر ديسمبر ١٩٥٩.
- شاحنتي مرسيدس دفع ازدواجي آتيتين مباشرة من ألمانيا الفيدرالية، ومن المفروض أن يتم تسليمهما في ١٠ ديسمبر ١٩٥٩ أو نهاية جانفي ١٩٦٠. [٢٣]

كما تم استقبال عتاد اتصال حوالي ٢٤ نوفمبر ١٩٥٩ بمخزن الاتصال بطرابلس يضم: ٥٠ جهاز إرسال واستقبال C.52 مع الملحقات اللازمة، ٠٣ أجهزة BC 601 وعتاد مختلف، وحمولات تكميلية، ومصدر كل هذا العتاد مجهول. [٢٤]

ترأس أحمد فرانسيس وزير المالية للحكومة المؤقتة يوم ٢٧ أكتوبر ١٩٥٩ بجنيف ملتقى شارك فيه عميلين من جبهة التحرير الوطني بسويسرا وتاجري سلاح "رينفالدكور فيليوس" و"روي فرانز"، هذا الأخير عرض على جبهة التحرير الوطني نهاية أفريل ١٩٥٩ عرض لبيع سلاح وذخيرة، مقابل قرض بقيمة ٢٠ مليون دولارا لشراء مواد غذائية بالإضافة إلى بيع مادة "البارود". [٢٥]

أما في يوغسلافيا فهناك معلومة من مصدر موثوق – حسب التقرير الفرنسي- ترمي إلى وصول أسلحة وذخيرة، [٢٦] إلى الإسكندرية عن طريق باخرة يوغسلافية (سرابيفو) بداية أكتوبر١٩٥٩، وتولى مجموعة من الجزائريين هذه المهمة وقاموا بتعبئة مجموعة من هذه الصناديق على متن شاحنات توجهت نحو ليبيا يوم ١٠ أكتوبر ١٩٥٩، وأكد نفس التقرير أن ٠٦ شاحنات روسية محملة بالذخيرة غادرت القاهرة باتجاه الإسكندرية أين ستتوجه إلى ليبيا، هتين المعلومتين مرتبطتين بتحركات مجموعتي نقل بداية أكتوبر ١٩٥٩ متمثلة في ٠٦ عربات تابعة لوزارة التسليح والتموين العام، وتوجهت إحدى هتين المجموعتين يوم ١٠ أكتوبر من طرابلس نحو القاهرة في "عملية خاصة" ثم عادت إلى طرابلس يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٥٩، أما المجموعة الثانية فاتبعت نفس المسار لكن بفارق ٠٥ أيام منذ منتصف أكتوبر، وبقيت دوريات لشاحنات تابعة لوزارة التسليح والتموين العام بين طرابلس ومصر متواصلة. [٢٧]

ثبت في وقت لاحق أن التقديرات الإستخباراتية الفرنسية للقيمة التي يوليها المجاهدون الجزائريون لقواعد الدعم في تونس والمغرب تستند إلى تأسيس جيد، فبحلول عام ١٩٥٨ وصلت مرافق جيش التحرير الوطني اللوجستية في تونس والمغرب إلى حد كبير، حيث أن عدد الأسلحة وكميات الذخائر المخزنة في مستودعات جيش التحرير في مصر وليبيا وتونس والمغرب تختلف من وقت لآخر، ولكن مصادر الاستخبارات الفرنسية تمكنت من تقديم "لقطات فوتوغرافية" في نقاط مختلفة، فعلى سبيل المثال، في سبتمبر ١٩٥٩ كان من بين الأسلحة العسكرية التي يعتقد أنها في مستودعات جيش التحرير في مصر وليبيا وتونس والمغرب ما لا يقل عن ستة مدافع مضادة للطائرات عيار ٢٠ ملم، و٤١٠ رشاشات Breda، ورشاشات عيار ١٢,٧ ملم ثقيلة، و١٢٨٠ بندقية آلية، و٦١٠٠٠ بندقية عسكرية ومدافع رشاشة، بالإضافة إلى عدد غير معروف من

البنادق عديمة الارتداد ومدافع هاون ومدافع رشاشة عيار ٧,٦٢ ملم وقاذفات صواريخ مضادة للدبابات.[٢٨]

لقد وفّرت كل من مصر وليبيا قواعد تدريبية ومرافق لوجستية لجيش التحرير، حيث كان هناك مستودع هام من الأسلحة والذخائر في مرسى مطروح، ولكن مصر كانت أكثر أهمية وذلك لتوفير مرافق تدريب متخصصة.[٢٩]

تذكر التقارير الفرنسية أنه من الممكن صياغة فرضية بأن جبهة التحرير الوطني تقوم بتفريغ الأسلحة في العديد من المخازن في مصر بهدف إعادة تعبئتها بعتاد أو بهدف التحرر جزئيا من أي نوع من الضغط، فوجود مخازن أسلحة بمصر هي أداة ضغط على جبهة التحرير بناء على معلومات تم التحصل عليها بداية جانفي ١٩٥٩.[٣٠] في ١٠ مارس ١٩٥٩ منح العراق لجيش التحرير الوطني حمولة من الأسلحة متكونة من ٠٧ طائرات، ١٥ مدرعة، ١٠ دبابات حجم صغير من صنع بريطاني، لكن هذه الحمولة التي كانت من المفترض أن تنقل من ليبيا إلى تونس بداية مارس ١٩٥٩ بقت في العراق، وفي ١٤ مارس ١٩٥٩ تم وصول ١٢ مدفعا من الباخرة التشيكوسلوفاكية "جوليوس فوشيك"، من عيار ١٠٥ ملم ومن أصل ألماني، كما أفرغت ٧٥٠ طنا من سلع مختلفة مهداة من ألمانيا الغربية وتشيكوسلوفاكيا للاجئين الجزائريين بتونس.[٣١] يضاف إلى كل هذا أن هناك طلبا للقنابل اليدوية بكل أنواعها وُجّه يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٥٩ للحكومة المصرية، هذا الطلب الذي يوحي بمستوى معين من الاستعجال، ويمكن أن يرمز إلى اقتراب وقت التحضير إلى عمليات جيش التحرير الوطني بتونس نهاية نوفمبر ١٩٥٩.[٣٢]

لم يتوقف إمداد مصر بالسلاح والذخيرة ففي الفترة ما بين ١٧ جوان إلى ١٦ أوت ١٩٥٩ قامت مصر بتسليم مندوب الحكومة الجزائرية شحنة وهي من المعونة الصينية للجزائر التي وصلت، وتم تخزينها بالمخازن الموجودة بمرسى مطروح يوم ١٥ جوان ١٩٥٩، وتم تسليمها بأكملها وبكل كمياتها لـــ"عرعار خميسي" يوم ١٧ جوان ليتم نقلها بالشاحنات إلى تونس، وهذه الشحنة متمثلة في ما يلي: ٢٠٠٠ بندقية رشاشة طومسون، ٤٠٠٠ بندقية كراينه ٧,٦٢ ملم، ٢٠٠٠٠ بندقية ٧,٦٢ ملم، ٢٠٠٠ بندقية ماران ٧,٦٢ ملم، ١٠٠٠ رشاش خفيف ٧,٦٢ م/ط، ٣٠٠ رشاش ثقيل ٧,٦٢ ملم، ٥٠ رشاش ثقيل ١٢,٧، ١٠٠٠ هاون ٦٠ ملم، ٢٠٠ هاون ٨١ ملم، ٤٠٠ مدفع ٧٥ ضد الدبابات، ١٠٠ مدفع ٧٥ ضد الدبابات، ١١٢٠٠٠٠طلقة ٧,٦٢ مم، ١٢٠٠٠٠طلقة للرشاش ٧,٦٢ ملم، ٤٠٠٠٠ طلقة ١٢,٧، ١٥٠٠٠ دانة هاون ٦٠ ملم، ٣٠٠٠٠ دانة هاون ٨١ ملم، ٤٠٠٠ دانة للمدفع ٧٥ ملم، ٤٠ جهاز إرسال لاسلكي.

تم تسليم الشحنة الثانية من مخازن سلاح الجيش المصري يوم ٢٦ جويلية ١٩٥٩إلى عرعار خميسي مندوب الحكومة الجزائرية، كما استلم يوم ١٠ أوت ١٩٥٩ متفجرات مصرية، وفي يوم ١٦ أوت ١٩٥٩ تم استلام دفعة ثانية من المتفجرات.[٣٣]

أما بالنسبة لليبيا فقد احتوت على مجموعة من أهم المرافق اللوجستية لجيش التحرير الوطني، وكانت الأنشطة اللوجستية لجيش التحرير الوطني في ليبيا مسيطر عليها من قبل قاعدة طرابلس وذلك تحت قيادة محمد الهادي عرعار الذي كان يقدم تقريرا لوزارة التسليح والتموين العام (MARG) بدلا من لجنة العمليات العسكرية، حيث كان لقاعدة طرابلس ميزانيتها الخاصة للموظفين ولشراء السيارات وقطع الغيار، وهذه القاعدة تتألف من مستودعات في بيسيدا (Pissida)، زورة (Zaoura)، أم القصب (Oum Ksob)، بالإضافة لعنصر النقل (نحو ثلاثين شاحنة)، ومرافق الصيانة في عدد من المزارع بالقرب من طرابلس، إن قاعدة بنغازي التابعة لقاعدة طرابلس هي في الحقيقة ليست أكثر من مجرد مركز عبور.[٣٤]

قامت جبهة التحرير الوطني في ليبيا بداية شهر جانفي ١٩٥٩ بتمرير ذخيرة حربية بواسطة شركة مصرية "سيسكو"، وذلك عن طريق عقد صفقة للمتفجرات بألمانيا الفيدرالية، ومن جهة أخرى سخرت سيارات من الصنف الثقيل موجهة للنقل بين مصر وليبيا وتونس، تحت إشراف فرقة كومندوس مكونة من ٠٥ مجموعات قامت بالمرور في ٠٧ مارس ١٩٥٩، ومن المرتقب وصول حمولة أخرى عبر الممر الجوي إلى بنغازي بتاريخ ٠٤ افريل ١٩٥٩، وتعتبر حمولة قليلة حيث أن طبيعتها ومصدرها مجهولين، وهذه الحمولة كانت منتظرة من مصالح وزارة التسليح والتموين العام.[٣٥]

ثانيًا: تنظيم شبكات التسليح في تونس[٣٦]

إن تحقيق السيادة الوطنية التونسية عام ١٩٥٦ والانسحاب اللاحق للقوات الفرنسية خلال عام ١٩٥٧ فتح الطريق أمام الدعم العلني للمجاهدين الجزائريين من قبل حكومة الرئيس الحبيب بورقيبة، ولقد تم نقل مقر وفد جبهة التحرير الوطني من القاهرة إلى تونس، وبدأت عملية بناء نظام للقواعد التدريبية واللوجستية التابعة لجبهة التحرير الوطني والتي تسلّم الجيش التونسي الكثير منها، وفي نهاية المطاف وفّرت تونس ملاذا لحوالي ثلاثين ألفا من قوات جيش التحرير الوطني والعديد من المرافق اللوجستية والتدريبية.[٣٧]

وقد تم تشغيل المستودعات العامة الأربعة (في القيروان وبيشون والكاف وسوق الأربعاء) ومستودعات النقل الأربعة (في تونس وغارديماو والقصرين وقفصة) من قبل قاعدة تونس تحت إشراف وزارة التسليح والتموين العام (MARG)، أما المستودعات الخلفية (في غارديماو، وتاجروين، وفريانة، والرديف) فهي مسؤولية قادة الولايات، وقد كان للقرار الصادر في جويلية ١٩٥٨ بشأن مركزية مراقبة توزيع الأسلحة والذخائر للولاية التابعة لوزارة التسليح واللوازم العامة أثر عملي يتمثل في إعطاء وزارة التسليح والتموين العام مسؤولية مستودعات الولاية أيضا، حيث بعد ذلك الحين تستطيع مستودعات النقل العامة رفض طلبات الأسلحة والذخيرة التي لم توافق عليها وزارة التسليح والتموين العام، وتفاوتت مستويات المخزون في المستودعات من وقت لآخر وفقا لتسلم الأسلحة والمعدات من أنصار جبهة التحرير وقدرة جيش التحرير على نقل العتاد إلى الجزائر.[٣٨]

كما أن الحكومة التونسية رغم مواقفها في تقديم التسهيلات للنشاط العسكري، كانت تفرض رقابتها الشديدة على دخول الأسلحة وتنقل وحدات جيش التحرير الوطني، وكان جهازها الأمني يمكنها من التعرف بدقة على إمكانيات وقوة هيئة الأركان العامة لذا اتبعت سياسة الحذر من تزايد قوة جيش التحرير الوطني، وكان جهازها الأمني يمكّنها من التعرف بدقة على إمكانيات وقوة هيئة الأركان العامة خاصة مع تزايد قوة جيش التحرير المرابط بالحدود، واتخذت من بعض العناصر الموالية لها من الحكومة الجزائرية المؤقتة كأنصار لسياستها وفرض موافقتها، وهو ما كان يزيد من تذمر العسكريين تجاه السياسة البورقيبية وتدخلها في شؤون الجزائريين وعرقلة نشاطهم،[٣٩] حيث أوقفت السلطات التونسية مرور الأسلحة داخل أراضيها في شهر جوان ١٩٥٨، ووضعت يدها على قافلة تضم ٥٠٧٠ بندقية، و٢٠٣٧ بندقية رشاشة، و٢٠٣٧ مسدسا رشاشا، و٢٠ بازوكا، و٧٥ رشاشا، و٣٠ مدفع هاون ٨١ و١٠ ملايين خرطوشة، وكررت الشيء ذاته فيما بعد على مرحلتين، الأولى في ديسمبر ١٩٥٨، والثانية في فيفري وجوان ١٩٥٩، واشترطت الإعلان عن مستودعات الأسلحة والمعسكرات وعدد أفرادها وحصلت على ذلك، كما فعلت الشيء نفسه بصدد حق إعلامها بكل من يأخذ الأسلحة، والتخلي عن أي سلطة ذات طابع قنصلي، والإبلاغ عن أسماء كل المسؤولين السياسيين ووظائفهم.[٤٠]

وبحلول منتصف عام ١٩٥٨ أصبحت البنية التحتية لجبهة التحرير الوطني في تونس أكبر وأهم عنصر في نظام الدعم اللوجستي لجيش وجبهة التحرير الوطني، فالقاعدة التونسية التي كان يقودها القائد قاصي والمرتبطة مباشرة بوزارة التسليح والتموين العام لم تكن مسؤولة فقط عن تزويد قوات الجيش التحرير الوطني في تونس وشرقي الجزائر، ولكن لمختلف المنظمات المدنية التابعة لجبهة التحرير الوطني (الهلال الأحمر الجزائري، وإغاثة اللاجئين...)، لقد شملت القاعدة التونسية على تشكيلة واسعة من المرافق الإدارية واللوجستية، بما في ذلك المستودعات العامة للنقل، مراكز القيادة الخلفية والقواعد الخلفية للولايات ٠١، ٠٢، ٠٣، و٠٤ ووكالات إدارة شؤون الموظفين والعتاد، مصلحة المشرفين، التجنيد، والخدمات الطبية والمالية والاجتماعية، ومنظمة تربط بين ضباط الاتصال في مختلف الولايات.[٤١]

قُسمت تونس لأغراض إدارية إلى منطقة خلفية في شرق تونس وموقعين على الحدود الجزائرية، وهما المنطقة الشمالية والجنوبية يفصل بينهما طريق خط بين الكاف وتاجروين، وقدر ضباط المخابرات الفرنسية أنه حتى ١٥ ماي ١٩٥٩ كان هناك نحو ١٠٧٣٠ جنديًا من جيش التحرير الوطني في تونس، منهم ٥٠٠٤ جنديا مقاتلا على الحدود و٤٧٣٠ فردا عابرا و٥٠٠١ من موظفي الهياكل الأساسية.[٤٢] تعدد المصادر وتنوعها مكّن شبكات التهريب والإمداد من تكديس أطنان من الأسلحة والذخيرة على الحدود الشرقية والغربية، حتى أن العقيد الحاج لخضر قائد الولاية الأولى عندما انتقل إلى تونس في مارس ١٩٥٩، اندهش من كثرة كل هذه الأسلحة وتنوعها عند جيش الحدود فصرخ في وجوههم بحدة: "تملكون كل هذه الأسلحة وإخوانكم في الداخل يقاتلون بالهراوات".[٤٣] خلال النصف الأول من جوان ١٩٥٩، استقبل جيش التحرير الوطني شاحنات كبيرة و٠٥ مدافع ضد الدبابات آتية من طرابلس، هذا العتاد تم فحصه من طرف جبهة التحرير الوطني في ثكنة تونسية، ثم تم توجيهها إلى الحدود الجزائرية التونسية.[٤٤]

جاء في تقرير محمود الشريف لنشاط وزارة التموين والتسليح يوم ١١ جانفي ١٩٦٠، وصف مختصر لعملية نقل الأسلحة التي كانت تتم على متن بعض الشاحنات من الأراضي المصرية إلى الأراضي التونسية في ناحية "القيروان"، ومن هذه الأخيرة يتم نقلها مرة أخرى إلى قاعدة الإمداد والتموين في الحدود، ويلاحظ أن هذه العملية كانت تتم دون مراقبة لا من حيث العدد ولا من حيث التوزيع.[٤٥] كذلك تم إنشاء مصنع صغير

خاص بالمتفجرات في مدينة تونس في ناحية مرناق، وكان هذا المصنع قد بدأ فعلا في إنتاج بعض المتفجرات والبنقالور لكي يتمكن المجاهدون من عبوره إلى داخل الأراضي الجزائرية، ويؤكد التقرير أن نجاح الثورة في إنتاج البنقالور أصبح يغني جيش التحرير عن كل ما تقدمه إليه الحكومة المصرية من إعانة في هذا المجال. [٤٦]

في بداية أوت ١٩٥٩ تلقت جبهة التحرير الوطني أمرا من الحكومة التونسية بإخلاء قواعد تمغزة، قفصة، قلعة سنان، بالإضافة إلى المخازن الحدودية، بالخصوص بين تمغزة والساقية، وقاعدتين منهم قاعدة القصرين التي من المفترض أن تبقى على حالها، بها حوالي ٣٠ مخزنا ومخيما لجبهة التحرير الوطني الواقعة جنوب الكاف، وإلى غاية يوم ١٥ أوت ١٩٥٩ لم يتم إخلاء كل من قاعدة قفصة وقلعة سنان وتاجروين، لكن لا يبدو أن هناك تغيير في التنظيم السابق لتسليح الثوار حتى تتم عملية جرد أسلحة الوحدات والمخزونات، وهذا الجرد لا يزال العمل به إلى غاية منتصف أوت، ويبدو أن المخازن الحدودية الخاصة بالوحدات تم نقلها مع الوحدات نفسها. [٤٧]

تشير التقارير الفرنسية إلى أن هناك معلومات حول إعادة تنظيم الوحدات وبالخصوص في مجال نصيب السلاح، التجهيزات والمؤونة لبعض الوحدات، فالفرقة الثانية للكتيبة العاشرة استقبلت ٠٤ LARC، ٠٢ مورطي ٤٥ أنيرقا،٠٨ FM.BAR، ومجموعة من المقصات الحجم الكبير، قفازات مطاطية، مجموعة من حصص الطعام المعلبة (علبتين لـ ٠٤ أيام). [٤٨] تم تفريغ خمسة صناديق من القفازات المطاطية تزن ٥٠٠٠ كغ من الباخرة "آروم" وصلت إلى تونس العاصمة في ٣١ أكتوبر ١٩٥٩، وكانت هذه الصناديق متوجهة لشركة "النجاح" التي تعتبر المستقبل لأجهزة وعتاد موجه لجبهة التحرير الوطني والذي أتى عبر ترياست. [٤٩]

بناء على معلومات من سجناء مجموعة جراي الحبيب الذين تم الإمساك بهم من طرف التونسيين بعد ٣٠ أكتوبر ١٩٥٩ فإن مخزن جبهة التحرير بتونس ساند هذه المجموعة خلال مدة مكوثه في منطقة بئر الشيخ علي وبئر الرومان، وفيما يخص التجهيزات الخاصة لعمليات النقل فهناك أوامر جديدة موجهة بالخصوص لتجهيز شبكات التسليح، كما طلب قائد هيئة الأركان للشرق قبل ١٠ نوفمبر ١٩٥٩ تخبئة أغراض وذخيرة بين الحاجز الأمامي والحاجز الخلفي بهدف تحضير لعملية تمرير عبر خط موريس، وفي ٢٨ نوفمبر ١٩٥٩ طلب قائد الولاية الأولى كل الإمكانيات لتجهيز المنطقة السادسة من الولاية الأولى بهدف تأمين تموين الممررين. [٥٠]

يذكر محمد حربي أنه من فيفري ١٩٦٠ إلى ماي ١٩٦١ تركت تونس قوافل الأسلحة تمر وسهلت عبور جيش التحرير الوطني عن طريق الجنوب، وفي ١٩ ديسمبر ١٩٦٠ وقّعت السلطات التونسية مع الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية اتفاقية تنص على أن كل سلعة أو تجهيز يخصان الحكومة المؤقتة أو جيش التحرير الوطني أو الهلال الأحمر الجزائري معفيان من الرسوم الجمركية. [٥١]

ثالثًا: مخازن الأسلحة بالحدودية التونسية-الجزائرية

خلال الثلاثي الأول ١٩٥٨ لم ينشئ جبهة التحرير الوطني مخازن سلاح هامة، بالرغم من توفر الأسلحة الموجودة في الشرق الأوسط، وواصلت جبهة التحرير الوطني بتونس التموين بالأسلحة حسب الطلب، حيث كان يستقبل السلاح المهرب بطريقة متقطعة عبر الطرقات، وكان مركز السلاح في تونس العاصمة ثم يوجه إلى مراكز العبور (سوق العربة، تاجروين، فريانة)، كان يوزع على الوحدات أيام قليلة قبل انطلاقهم نحو الجزائر. [٥٢] بدأ ظهور مخازن في بيشون والقيروان وبعد ذلك في متلوي ومولاراس، ويمكن أن يتوافق مع التنقل نحو الجنوب مركز الثقل في البنية التحتية لتسليح الثوار في تونس، وكان تهريب هذه الأسلحة إلى المخازن في تونس أو المغرب نحو المخازن الحدودية. [٥٣]

إن وتيرة تهريب هذه الأسلحة نحو المخازن بتونس أو بالمغرب، مخوّلة لقرارات مكتب التسليح والتموين العام أو لمكتب العلاقات والاتصالات، الذي يحوز على ممثل كفؤ بتونس والمغرب، وكانت هذه المخازن موضوعة تحت التصرف المباشر للولايات التابعة لها، فيما يخص نقل العتاد والمسائل المتعلقة بالجيش، وكانت المخازن الرئيسية على الحدود التونسية الجزائرية كالآتي: [٥٤]

- غارديماو (القاعدة الشرقية الولاية الثانية والثالثة) وهذا المخزن يتكون من:

مصنع للألبسة العسكرية لـ ١٠ موظفين، ورشة حفظ وتخزين المتفجرات، مخزن بنقالور، مخزن سلاح (FG.GARANT 300، FG. MOUSER ١٠٠٠، ٨٠ سلاح أوتوماتيكي، P.M٣٠٠، بازوكا)، ذخيرة جند خاصة بمشاة الألغام، ذخيرة خاصة D.C.A، مصلحة مالية، عيادة.

- تاجروين (الولاية الأولى والثانية والرابعة والسادسة) "القاعدة رقم ٠١" للولاية الأولى، وفي هذا المخزن يوجد تموين لباس، جزء من هذا اللباس تم نقله في فيفري إلى تالة.(٥٥)
- ربيبة: هذا المخزن تحت تصرف مصلحة إدارة الجيش
- قلعة سنان، (الولاية الأولى والرابعة)، وهذا المخزن يحتوي على: ورشة صناعة الألغام، مخزون من الألغام ANT.K7 ٦٠ (F.G)، ذخيرة وصناديق قنابل يدوية عددهم مجهول، ذخيرة للمشاة، مخزون تموين ولباس، إن مخزن عين عناق مرتبط بمخزن قلعة سنان أين تكمن ورشة تصليح للأسلحة.
- هنشير الرومي (الولاية الأولى)، وهذا المخزن يحتوي على: ٢٠ سلاح أوتوماتيكي، مجموعة من F.G. منهم ١٥ موزير، عدد من البازوكا وذخيرة، حيث تم توظيف هذا المخزن بداية فيفري ١٩٥٩ لتجهيز عناصر المنطقة الرابعة والخامسة للولاية الأولى.
- تالة: (الولاية الأولى المنطقة الخامسة القاعدة رقم ٠٣ من الولاية الأولى)، وهذا المخزن يحتوي على ١٣٠ سلاحا أوتوماتيكيا، مجموعة من المورطي والبنغالور، و٠٨ بازوكا تقريبا، ومخزون هام من الألغام ATM.K7.
- القصرين: (الولاية الأولى)، هذا المخزن الخاص بالتموين يبدو أن لديه ملحق بتلابت وملحق آخر في بئر بوحاية.
- قفصة (الولاية الأولى، الرابعة)، هذا المخزن الخاص بالتموين لديه ملحق بالرديف وآخر بتوزر.(٥٦)

كانت ثلاثة معطيات تميز الوضع على الحدود بداية من عام ١٩٥٧، فبالإضافة إلى تضخم عدد القوات وتركزها وتحسن التسليح ووجود قيادة جيدة نوعا ما، فقد أصبح في حوزة جيش التحرير الوطني رشاشات مضادة للطائرات، ومدافع بازوكا، وهاون ٨١ و٦٠ و٤٥ ومدافع غير مرتدة، وكان التجهيز بأسلحة ذات طاقة نارية عالية يخاطر بأن يبقى من دون نفع إذا لم تخض القتال وحده أو عدة وحدات تعمل في وقت واحد وتحت قيادة واحدة.(٥٧)

وقد تسببت الكميات الكبيرة من الأسلحة والذخائر في مستودعات جيش التحرير الوطني الواقع خارج الجزائر في بعض التكهنات بين ضباط المخابرات الفرنسية فيما يتعلق بقصد جيش التحرير، وأسفرت إحدى التوقعات أن جيش التحرير كان يستعد لتسليح المتطوعين من الدول العربية والإفريقية الأخرى، وهو احتمال مثير للقلق بالنسبة للسلطات الفرنسية، فيما دلّ توقع آخر أن جيش التحرير كان يبيع الأسلحة من أجل تحقيق الربح وذلك لمجموعات متمردة أخرى (في غينيا على سبيل المثال)، أو إن جيش التحرير كان يقوم بتخزين الأسلحة كأداة لاستخدامها في المفاوضات مع الفرنسيين أو من اجل تقديمه للجيش الوطني الجزائري بعد تحقيق الاستقلال (ربما كلاهما كان صحيحا) أو أن جيش التحرير كان يهدف إلى دعم التمرد في تونس والمغرب.(٥٨)

وفي ٠١ نوفمبر ١٩٥٩ قدّر ضباط المخابرات الفرنسية أن جيش التحرير الوطني كان يمتلك نحو ٧٤٠٠٠ قطعة سلاح عسكري و١٢٠ مليون طلقة من مختلف أنواع الذخائر خارج الجزائر، كان هناك ٦٠٠٠٠ سلاح فردي من بين ٧٤٠٠٠ سلاح وحوالي ٣٠٠٠ طاقم أسلحة في المستودعات وحوالي ١٠٠٠٠ فرد، و١٠٠٠ طاقم أسلحة في أيدي قوات الجيش الوطني المتمركزة خارج الجزائر، وشمل المجموع في ٠١ نوفمبر ١٩٥٩ نحو ٢١٠٠٠ بندقية وبنادق قصيرة، و٤٠٠ بندقية آلية ومدافع رشاشة، و٧٥ مليون طلقة ذخيرة في مستودع جيش التحرير في مرسى مطروح في مصر، و١٨٠٠٠ بندقية وبندقية قصيرة، و٦٠٠ بندقية آلية، و٠٦ إلى ١٤ مليون طلقة ذخيرة، وعدد غير معروف من مدافع الهاون والمدافع الرشاشة في مستودعات في ليبيا (في بيسيدا، الزور، وأم القصب)، إضافة إلى ما لا يقل عن ٩٥٠٠ بندقية وبنادق آلية، وعدة مئات من الرشاشات، وبنادق عيار ٥٧ ملم عديمة الارتداد، و١٥ مدفع مضاد للطائرات عيار ٢٠ ملم، و٤٠ مليون خرطوشة، وكمية غير معروفة من ذخائر الهاون في مستودعات في تونس (القيروان والكاف وغارديماو وبيشون، وسوق العرب).(٥٩)

إن الثوار الجزائريون بمنطقة غارديماو قد استلموا مدرعات مثل الهالف تاك (نصف مجنزرة) الذين يستعملونهم للتدريب حاليا، و٠٣ أو ٠٤ طائرات قد تكون تحت تصرفهم بنفس المنطقة، كما تم وضع ملصقات لصالح جيش التحرير الوطني للمجاهدين على المدرعات يتم طباعتهم بتونس وسيتم توزيعها لاحقا.(٦٠)

رابعًا: توزيع السلاح في الداخل

كانت عملية تسليح الولايات الداخلية عبر الحدود الشرقية من أعقد المشاكل وأصعب المهام، وقد تحملت الولاية الأولى أعباءها بصفة مباشرة بحكم أن هذه المنطقة لها اتصال طبيعي عبر تضاريسها المتنوعة بالحدود التونسية، وهذا ما مكّن قوافل السلاح من نقل المئات من قطع السلاح والذخيرة، وتوظيف هذه التضاريس لإيصال هذه الأسلحة إلى الداخل،

وكان لابدّ من البحث عن استراتيجية دقيقة من أجل تمويل الولاية الثانية والثالثة والرابعة بكل ما تحتاج من أسلحة حتى تتواصل الثورة بها ولتصمد في وجه العدو الفرنسي، [٦١] إلا أنه برزت مشكلتين حول التسليح بالداخل وهما: الانخفاض المتدرج لتجنيد الثوار العاديين، بالإضافة إلى توصيل العتاد خاصة الذخيرة والدواء. [٦٢]

يشير المجاهد الحسناوي قسطل أنه كان في مهمة نقل أسلحة من الحدود التونسية إلى الأوراس في بداية سنة ١٩٥٩، وكان ضمن كتيبة بها ١٢٠ مجاهدا بقيادة سعد قسطل ، وكان كل مجاهد يحمل معه بندقيتين وبدلة عسكرية ومؤونة، حيث كانت وجهتهم إلى جبل الشمرّة بباتنة بالقرب من سبخة عين مليلة، أين انتقلوا إلى جبل بوطالب بالقرب من حمام السخنة، وشاركوا في معركة ضد فرقة من الجيش الفرنسي التقوا به صدفة، وغنموا ٢٥ قطعة سلاح (ماس ٥٦، فيزيقارا آميركان،...)، وأخيرا التقوا بقائد الولاية الأولى الحاج الأخضر (عبيد الأخضر)، وتم منحه جميع قطع الأسلحة تقريبا، ولم يبق للكتيبة سوى ١٠ بنادق حربية فقط، وكان هذا نتيجة النقص الفادح للأسلحة والذخيرة في هذه الفترة، حيث بقي لكل مجموعة من المجاهدين سلاح واحد وبضع قنابل يدوية فقط لاستخدامها للدفاع في حالة هجوم الجيش الفرنسي. [٦٣]

انطلاقًا من تونس فإن جبهة التحرير الوطني تموّن بالذخيرة الولايات الشرقية عن طريق بضع قافلات تسليح الذين استطاعوا تجاوز الحاجز جنوب نقرين [٦٤] بواسطة عدد قليل من العناصر مكلفين بالنقل، حيث أن التموين بالأسلحة كان ضعيفا، وارتفع إلى أقصى حدوده في فيفري ١٩٥٩ ثم انخفض في مارس إثر إنشاء حواجز جديدة جنوب نقرين.

في فيفري ١٩٥٩ تمكّن جيش التحرير الوطني من إدخال أسلحة للجزائر من ٣٥٠ إلى ٤٠٠ قطعة سلاح، وبناء على ذلك فإن إمكانية تسليح الثوار بالداخل منذ ٠١ ماي ١٩٥٨ بدأ في الانخفاض كل شهر بـ ٢٠٠ إلى ٥٠٠ قطعة سلاح ثم ارتفع في فيفري ١٩٥٩ بحوالي ٥٠ قطعة سلاح، لكن في مارس انخفاض بـ ٥١٠ قطعة سلاح. [٦٥] تشير التقارير الفرنسية إلى أن إمكانيات التسليح والذخيرة لجيش التحرير الوطني انطلاقا من القواعد الخارجية قد كان ضعيفًا في جانفي 1959 وارتفع خلال فيفري ثم انخفض في مارس من نفس السنة، لكن تيار التموين بالغرب كان مختلفا عن الشرق، وكان التموين بالأخص في الغرب مستمرًا بكميات منتظمة على عكس ذلك بالشرق فالتموين شهد أقصى حدوده في فيفري ١٩٥٩. [٦٦]

في يوم ١٠ مارس ١٩٥٩ قام الثوار بمحاولة عبور، حيث أن المقصّات القاطعة التي استعملت من طرف الثوار خلال محاولة عبورهم هي من أصل إنجليزي حاملين لعلامة "شفيلد بيرمينغهام" (Birmingham Sheffield)، [٦٧] كما استلم جيش التحرير في ١٩ مارس ١٩٥٨ عددا من المقصات بلغ عددهم ١٠٠ مقصا من الحجم الكبير وتم تقسيمهم كالآتي: ٤٠ للولاية الأولى، ٢٠ للولاية الثانية، ١٠ للولاية الثالثة، ٣٠ للقاعدة الشرقية. [٦٨]

كانت للولاية الأولى علاقات بالولايات المجاورة، الثانية والثالثة والرابعة وتتمثل هذه العلاقات في الوفود المتعلقة بالبريد والمواصلات وكذلك دوريات السلاح، وهي الأهم حيث كثيرا ما كانت دوريات الأسلحة التي تنطلق من الولاية الثانية والرابعة، تمر بالولاية الأولى لتتجه إلى الحدود التونسية سالكة عدة مناطق. [٦٩] إن وفرة السلاح-نسبيًا- بالمراكز الحدودية لا تعني بالضرورة وفرة مماثلة بالمجاهدين بالجبال، أي أنه شكّل مشكلا إضافيا لا يقل أهمية عن نقل السلاح إلى جنود الولايات الثالثة والرابعة، والثانية بدرجة أقل علما أن للولايتين الأولى والخامسة مناطق حدودية واسعة وحصيلة تمكنها من إمداد نفسها بنفسها مباشرة، على عكس المناطق الداخلية. [٧٠]

قبل انطلاق قوافل التسليح بتونس لتعبر تراب القاعدة الشرقية كانت الولايات المعنية بشحنة الأسلحة على علم مسبق بكمية السلاح التي يسلمها قائد كتيبة العبور إلى الولاية المعنية، وذلك بعد حصولها على رخصة عبور تحمل اسم قائد الكتيبة ونوابه والمهمة الموّكلة له، وعند تسليم السلاح توقع الولاية التي تأخذ السلاح وتسجل ملاحظاتها حول الأسلحة الموجودة بالقائمة، وإذا كان هنالك نقص في الأسلحة أو الذخيرة تسجل ملاحظات، وتبلغ إلى مركز القيادة التي انطلقت منها قافلة السلاح، وكان قائد كتيبة السلاح يزوّد بمبلغ من المال يستعمله عند الضرورة لأجل تأمين الأكل أو اللباس للمرافقين لقافلة السلاح التي غالبا ما تشكل من قائد ودليل عسكري، ومسيرين تابعين لكل منطقة تمر بها الكتيبة وغالبا ما تُلزم الكتيبة بتعليمات صارمة، وهي عدم التدخل في شؤون أي ولاية تمر عبر ترابها وعدم الاشتباك مع العدو إلا عند الضرورة، وكان الاتصال بين قوافل السلاح والمناطق التي تعبرها تمر عن طريق جهاز لاسلكي. [٧١]

لقد عبرت الحدود الشرقية للجزائر عدة قوافل للسلاح وقد تعرضت هذه القوافل لعدة مخاطر وصعوبات عبر الممرات المكشوفة، فقد أنشأ العدو الفرنسي لاعتراضها ومطاردتها بهدف القضاء عليها ٠٦ فرق من رجال المظلات مزودة بطائرات

الهيلكوبتر لمراقبة المناطق الاستراتيجية.[٧٢] ومن حين لآخر، تمكنت قوات الجيش الوطني في الجزائر من الاستيلاء على المركبات المدنية واستخدامها، ولكن معظم الحركات التكتيكية واللوجستية داخل الجزائر قد أجريت سيرا على الأقدام أو عن طريق الحيوانات مثل الإبل والخيول والبغال، وكان كل من النقل عن طريق الإنسان والحيوان محدود النطاق وغير فعال جدا، وكقاعدة عامة حدثت هذه التحركات عن طريق تسلل مجموعات صغيرة بدلا من القوافل الكبيرة والتي يمكن ملاحظتها ومهاجمتها من قبل الطائرات الفرنسية المتيقظة، وكان الأثر العملي لانعدام أي نقل ثقيل هو الحد من التنقل التكتيكي لقوات المتمردين والأسلحة القابلة للنقل بسهولة والتي لا تستهلك كميات هائلة من الذخيرة، وكنتيجة لذلك جح جيش التحرير في نقل هذه الأسلحة.[٧٣]

خلال شهر أوت ١٩٥٩ كان التموين الداخلي بمستويات ضعيفة، حيث تم إدخال ٥٠ سلاح عبر الحاجز حيث أن الانطلاقة كانت من قاعدة بودنيب للقافلة الأولى، التي تم التعرض لها من قبل قوات الأمن خلال نهاية الشهر.[٧٤] تفيد التقارير الفرنسية أن العتاد الداخل من الذخيرة والأسلحة انخفض في أوت ١٩٥٩، حيث تمكن جيش التحرير الوطني انطلاقًا من تونس بنقل حوالي ٣٠ قطعة سلاح و١٢٠٠٠ خرطوشة إلى الداخل.[٧٥] قام جيش التحرير الوطني بمحاولات مرور إلى داخل التراب الجزائري خاصة بعد تشكيل هيئة الأركان، ويؤكد ذلك تقرير بعثة التحقيق الفرنسية للجنة الشؤون الخارجية والدفاع والقوات المسلحة، فقبل عام ١٩٦٠، كان السياج المكهرب والعوائق السطحية تكفي الخصم آنذاك، الذي كان يحاول القيام باجتيازات معزولة أو بمجموعات صغيرة، لكن بدء بخريف ١٩٦٠، وبفضل الوسائل التي بدأ يستخدمها العدو، أصبحت أساليب الكشف تبدو أقل دقة، فالهجمات ضد المركبات المكلفة بالرقابة والتدخل أصبحت تخاض بمعدات أقوى وغدت أكثر فعالية.[٧٦] إن تخزين الأسلحة الأوتوماتيكية بالداخل أصبح معتادا بسبب الندرة في الذخيرة، في ما يخص التموين بالقنابل اليدوية، ويبدو أن استرجاعها من القوات الفرنسية أصبح مصدر ضروري للثوار.[٧٧]

تطور جيش التحرير الوطني ببطء من جيش غير نظامي ليصبح جيشا كلاسيكيا، كان يتألف من ٣٢٠٠٠ رجلا، ٨٠ آلاف منهم في مراكش، و١٥٠٠٠ في تونس، وأصبح تحت تصرفه كل المصالح: المعتمدية العسكرية، الهندسة، الأمن العسكري، الإشارة، مركز العبور والتدريب، مرآب السيارات، المفوضية السياسية وغيرها، وكانت الرقابة البحرية الفرنسية تحول دون تزود جيش التحرير عند الحدود المراكشية بالأسلحة الثقيلة، لذا كانت الوحدات المتمركزة عند الحدود التونسية موضع عناية خاصة من جانب هيئة الأركان، وأصبح الجيش يضم عند الحدود التونسية ٢٣ جحفلا batillon، وخمس كتائب مساندة، بتسليح ثقيل ومدافع غير مرتدة، وأربعة أفواج مدفعية هاون ١٠٦ ملم.[٧٨]

خَاتِمَةٌ

نخلص في نهاية هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج أهمها:

- لعبت مجموعة من الدول العربية مثل العراق وسوريا والأجنبية مثل الاتحاد السوفياتي والصين أدوارا مهمة في تسهيل عمليات إمداد الثورة الجزائرية بالسلاح وتنظيم شبكات التسليح والتموين في الخارج، كما كان لمصر وليبيا وتونس دور كبير في استقبال وتخزين الأسلحة، وكذلك تسهيل عمليات تنظيم حركة سير قوافل الإمداد البرية نحو التراب الجزائري.
- لعبت المناطق الحدودية الشرقية دورًا كبيرًا في الثورة الجزائرية، فقد كانت تمثل قواعد خلفية لجيش التحرير الوطني ومتنفسًا حقيقيًا للثورة الجزائرية، وكذلك مجالاً حيويًا لتهريب السلاح انطلاقًا من مصر وليبيا مرورًا بتونس.
- ساهمت مصلحة التسليح والتموين العام بالحكومة الجزائرية المؤقتة والتي تحولت بعد ذلك إلى مصلحة التسليح والمواصلات العامة في تنظيم ونقل وإيصال الأسلحة من مختلف المراكز إلى الحدود الجزائرية الشرقية والغربية.
- استمرت الجهة الجزائرية الشرقية في نشاطها في تهريب السلاح عبر الحدود التونسية، بفضل المساعدات الرسمية للحكومة التونسية التي استعملها الثوار كقاعدة عمليات لكافة القطر الجزائري، وأيضًا بفضل عمليات التنظيم المطبقة من طرف مسؤولي التسليح بتونس، وكانت المناطق الحدودية هي الأكثر استفادة مقارنة بالمناطق الداخلية.
- كانت عملية تسليح الولايات الداخلية عبر الحدود الشرقية من أعقد المشاكل وأصعب المهام، بحكم أن هذه المنطقة لها اتصال طبيعي عبر تضاريسها المتنوعة بالحدود التونسية، وهذا ما مكّن قوافل السلاح من نقل

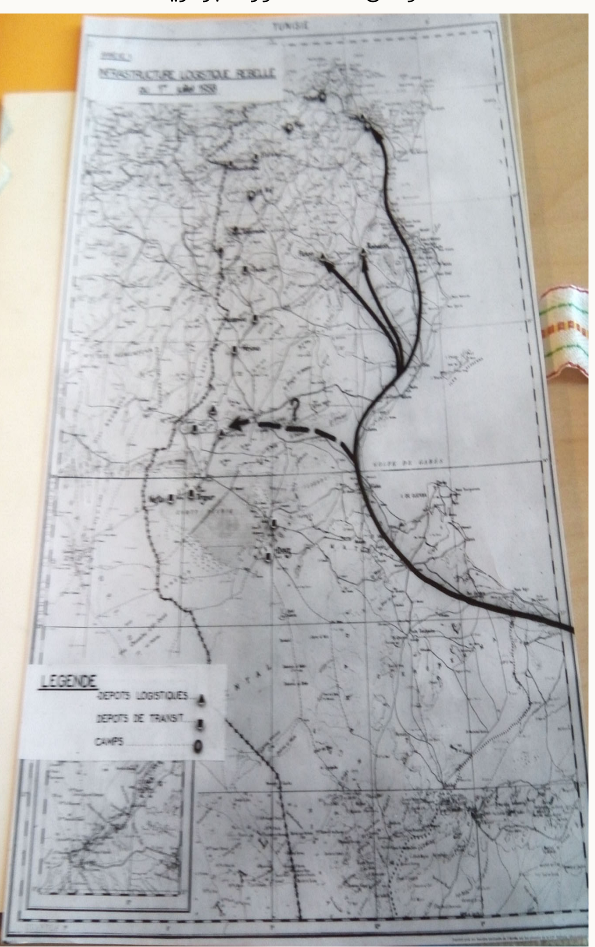
المئات من قطع السلاح والذخيرة، وتوظيف هذه التضاريس لإيصال هذه الأسلحة إلى الداخل.

- على الرغم من الجهود المبذولة لإمداد الثورة بالسلاح والذخيرة إلا أنها لم تحقق سوى شطر من الحاجة التي كان يتطلبها المجهود المسلح للثورة في الداخل نظرًا للمراقبة المستمرة على الحدود الجزائرية من طرف السلطات الفرنسية.

الملاحق:

ملحق رقم (١)

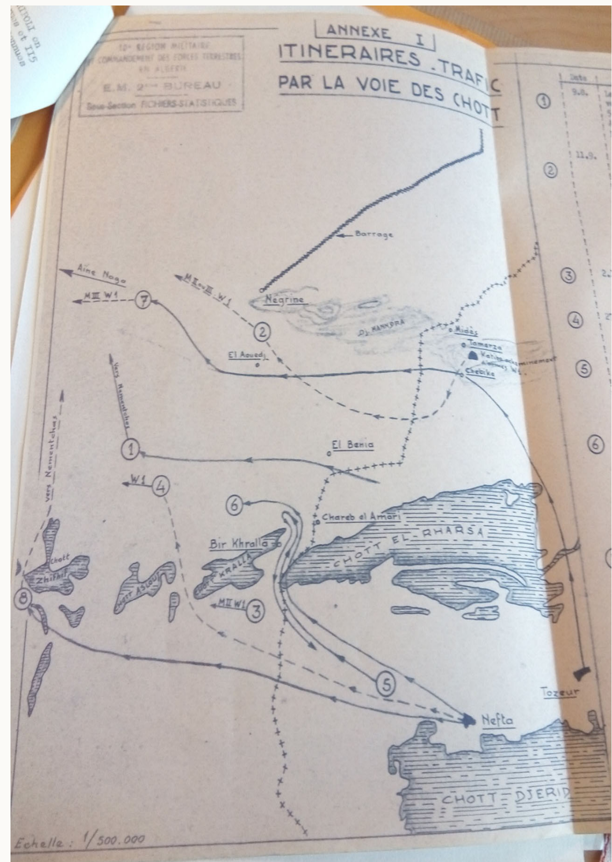
خريطة توضح أهم طرق شبكات تهريب الأسلحة في تونس لفائدة الثورة الجزائرية



Source: Archives de vencenne, D01, 1H 1689, Logistique rebelle décembre 1957 -1958.

ملحق رقم (٢)

وثيقة أرشيفية توضح مسالك التهريب جنوب نقرين بعد إنجاز الاسلاك الشائكة



Source: Archives de vencenne, D01, 1H 1689, Logistique rebelle décembre 1957 -1958.

الاحالات المرجعية:

(1) Archive Vincenne, 1H 1689, D 05, logistique rebelle 1959-1961.
(2) Ibid.
(٣) سهام ميلودي، **علاقة الحكومة المرقتة بقيادات جيش التحرير الوطني (سبتمبر ١٩٥٨-مارس ١٩٦٢)**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، تخصص الثورة الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢، جامعة وهران، ٢٠١٠-٢٠١١، ص ١٦-١٧.
(4) Archive Vincenne, 1H 1689, D 05, logistique rebelle 1959-1961.
(٥) عبد الرحمان عمراني، **التسليح والمواصلات أثناء الثورة التحريرية**، منشورات وزارة المجاهدين المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة 01 نوفمبر ١٩٥٤، ص ٩٩.
(٦) بوبكر حفظ الله، **التموين والتسليح إبان الثورة التحريرية الجزائرية**، طاكسيج كوم للدراسات والنشر والتوريع، الجزائر، ٢٠١١، ص ٢٠٥.
(7) Archive Vincenne, 1H 1689, D 05, logistique rebelle 1959-1961.
(8) Ibid.
(9) Ibid.
(١٠) مسعود عثماني، **الثورة التحريرية أمام الرهان الصعب**، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، ٢٠١٢، ص ٣٥١.
(11) The First Helicopter War Logistics and Mobility in Algeria 1954-1962, Westport Connecticut, London, 1999, p ١٧٠.
(12) Archive Vincenne, 1H 1689, D 05, logistique rebelle 1959-1961.
(13) Ibid.
(14) Ibid.
(15) Ibid.
(16) Archive Vincenne, 1H 1689, D 05, logistique rebelle 1959-1961.
(17) Ibid.
(18)Ibid.
(19) Ibid.
(20) Ibid.
(21) حسب التقرير الفرنسي فإنه يبدو أنه صابون ألمنيوم يشبه النابالم ومادة تسهل تحويل هذا الصابون إلى سائل.
(22) Ibid.
(23) Ibid.
(24) Ibid.
(25)Archive Vincenne, 1H 1689, D 05, logistique rebelle 1959-1961.
(26) حسب التقرير الفرنسي فإن هذه الأسلحة عبارة عن أسلحة وبعض المورطي عيار صغيرP.M.خفيفة،
(27)Archive Vincenne, 1H 1689, D 05, logistique rebelle 1959-1961.
(28) Charles R. Shrader, The First Helicopter War Logistics and Mobility in Algeria 1954-1962, Westport Connecticut, London, 1999, p 172.
(29) Ibid. p 174.
(30)Archive Vincenne, 1H 1689, (d.٠5), logistique rebelle 1959-1961.
(31) Archive Vincennes, 1 H 1578 , (d.2), pénurie des armes, des munitions et du ravitaillement des rebelles (1958-1961).
(32) Archive Vincenne, 1H 1689, (d.٠5), logistique rebelle 1959-1961.
(٣٣) فتحي الديب، **عبد الناصر والثورة الجزائرية**، ط٠١، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٤٤٣.
(34)Charles R. Shrader, op.cit, p 174.
(35) Archive Vincenne, 1H 1689, D 05, logistique rebelle 1959-1961.
(٣٦) انظر: الملحق رقم (٠١).
(37) Charles R. Shrader, op.cit, p 174.
(38) Ibid, p 176.
(٣٩) عمار قليل، **ملحمة الجزائر الجديدة**، ج٠٢، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، ٢٠١٣، ص ٧٢-٧٣.
(٤٠) محمد حربي، **جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع**، تر: كميل قيصر داغر، ط ٠١، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ١٩٨٣، ص ١٧٨-١٧٩.
(41) Charles R. Shrader, op.cit, p .175.
(42) Ibid, p 176.
(٤٣) مسعود عثماني، المرجع السابق، ص ٣٥١.
(44) Archive Vincennes, 1 H ١٥٧٨, (d.٢), pénurie des armes, des munitions et du ravitaillement des rebelles (1958-1961).
(٤٥) محمد زروال، **اللامشة في الثورة**، ج١٠، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٣، ص ٨٣.
(٤٦) المرجع نفسه، ص ٨٤.
(47) Archive Vincenne, 1H 1689, D 05, logistique rebelle 1959-1961.
(48) Ibid.
(49) Ibid.
(50) Ibid.
(٥١) محمد حربي، المصدر السابق، ص ٢٢١.
(52) Archive Vincenne, 1H 1689, D 05, logistique rebelle 1959-1961.
(53) Ibid.
(54) Ibid.
(٥٥) حسب التقرير الفرنسي فإن المخزن عبارة عن وقود تابع للقواعد الأولى والثانية الثالثة للولاية الأولى موجود بتاجروين بالإضافة إلى مخزن سلاح وورشة صناعة الألغام والبنغالور.
(56) Archive Vincenne, 1H 1689, D 05, logistique rebelle 1959-1961.
(٥٧) محمد حربي، المصدر السابق، ص ١٩٠.
(58) Charles R. Shrader, op.cit, p ١٧٤.
(59) Ibid, p 172.

(60) Archive Vincennes, 1H 1578 , (d.2), pénurie des armes, des munitions et du ravitaillement des rebelles (1958-1961).

(٦١) بوبكر حفظ الله، **التطورات العسكرية بمنطقة تبسة إبان الثورة التحريرية من خلال أرشيف ما وراء البحار الفرنسي**، ط٠١، سوهام للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١٧، ص ٢٥١.

(62) Archive Vincenne, 1H 1689, D 05, logistique rebelle 1959-1961.

(٦٣) شهادة المجاهد قسطل الحسناوي، بتاريخ ٢٠١٧/٠٣/٠٦ بمنزله العائلي الكائن بحي البساتين تبسة.

(٦٤) انظر: الملحق رقم (٠٢).

(65) Archive Vincenne, 1H 1689, D 05, logistique rebelle 1959-1961.

(66) Ibid.

(67) Archive Vincennes, 1H ١٥٧٨, (d.2), pénurie des armes, des munitions et du ravitaillement des rebelles (1958-1961).

(68) Ibid.

(٦٩) بوبكر حفظ الله، **التطورات العسكرية**...، المرجع السابق، ص ٢٥٢.

(٧٠) محمد عباس، **نصر بلا ثمن "الثورة الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢"**، دار القصبة للنشر، الجزائر، د ت، ص ٣٥٤.

(٧١) طاهر سعيداني، **القاعدة الشرقية" قلب الثورة النابض"**، ط٠١، دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، ٢٠٠١، ص ١٠٠-١٠٥.

(٧٢) عبد الحميد عوادي، **الملتقى الوطني الأول حول دور ولايات الحدود -في الثورة التحريرية**، جمعية ٢٦ أفريل ١٩٥٨ لتخليد مآثر الثورة، سوق أهراس، الجزائر، د.ت، ص ٨٣، ٨٤.

(73) Charles R. Shrader, op.cit, p 189 - 190.

(74) Archive Vincenne, 1H 1689, D 05, logistique rebelle 1959-1961.

(75) Ibid.

(٧٦) محمد حربي، المصدر السابق، ص ٢١٩.

(77) Archive Vincenne, 1H 1689, D 05, logistique rebelle 1959-1961.

(٧٨) محمد حربي، المصدر السابق، ص ٢١٩.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

جوانب من الاهتمامات الفكرية في حياة السلطان الحسن الأول

١٢٩٠ – ١٣١١هـ/ ١٨٧٣ – ١٨٩٤م



محمد أحمد شَابُــو

أستاذ التعليم العتيق

المندوبية الجهوية للشؤون الإسلامية

طنجة – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

نروم هذه الدراسة إبراز جانب من الاهتمامات الفكرية والانشغالات العلمية لأحد أشهر سلاطين الدولة العلوية في مغرب القرن التاسع عشر الميلادي، يتعلق الأمر بالسلطان الحسن بن محمد بن عبد الرحمان: ١٢٤٧-١٣١١هـ/ ١٨٣١-١٨٩٤م، والذي حكم المغرب مدة تزيد عن العشرين سنة: ١٢٩٠-١٣١١هـ/ ١٨٧٣-١٨٩٤م. فقد اعتبرت اهتماماته الفكرية من أهم مميزات شخصيته منذ نشأته إلى أن تولى دفة الحكم بالمغرب، كما أبانت عن قيمة المعرفة لديه، وعن مدى حضورها في شخصيته وحياته. تنوعت الاهتمامات العلمية والفكرية في حياة السلطان الحسن الأول، واتسمت بالشمولية والتنوع فلم تقتصر على جانب دون آخر أو مجال دون غيره، بل تعددت وتنوعت لتشمل جوانب عدة، منها على سبيل المثال: مواظبته على عقد مجالس علمية داخل القصور السلطانية هدفها إحياء الدرس العلمي، وبث روح الحوار والتناظر الفكري؛ ومنها: أمره بطبع الكثير من الكتب العلمية والمراجع المختلفة الشرعية واللغوية والكيميائية والرياضية وغير ذلك؛ ومنها: إرساله لبعثات طلابية إلى عدة دول أجنبية بقصد الاستفادة من خبراتها العلمية وتجاربها التقنية، على أن يتم توظيف المتخرجين منهم في عملية الإصلاح والتطوير الذي كان يسعى إليه إبان فترة حكمه. إن من شأن هذه الدراسة أن تبحث عن الأسباب الكامنة وراء هذا الاهتبال بالفكر والعلوم المختلفة لدى هذا السلطان، كما تقصد -في مقاربة ومنهج تاريخي وصفي- إلى إبراز المجالات الفكرية التي انشغلت بها شخصيته، بهدف إخراجها مما اشتهرت به من النمط التاريخي السائد والمتمثل في الجانب السياسي والعسكري فقط، إلى فضاءات أرحب تشمل جوانب الفكر والثقافة والمعرفة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٣١	مارس	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٠٣	مايو	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

الحسن الأول؛ الاهتمامات الفكرية؛ المجالس العلمية؛ خزائن الكتب؛ المطبعة الحجرية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.231839

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد أحمد شَابُــو. "جوانب من الاهتمامات الفكرية في حياة السلطان الحسن الأول ١٢٩٠ – ١٣١١هـ/ ١٨٧٣ – ١٨٩٤م".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثاني والخمسون؛ يونيو ٢٠٢١. ص ١٣٩ – ١٥٣.

Corresponding author: medcham12@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

يعتبر عصر السلطان المولى الحسن بن محمد بن عبد الرحمان (١٢٩٠-١٣١١هـ /١٨٧٣-١٨٩٤م) من أزهر العصور العلمية بالمغرب، وأكثرها حيوية وحركة في مجال الفكر والمعرفة، علاوة على ما شهده هذا العصر من اهتمام بجوانب اقتصادية وسياسية من تحديث للجيش، وتطوير للعلاقات الدولية، وتوطيد للجبهة الداخلية. يقول المرحوم عبد الهادي التازي في هذا السياق: "إنه بمقدار ما كان السلطان المولى الحسن يولي اهتماما للأحداث الدولية التي تتطور بسرعة، وبخاصة فيما يمسّ المغرب، وبمقدار ما كان مشغولاً بأمر استقرار البلاد جنوبًا وشمالاً - حتى قيل: إن عرشه كان على صهوة جواده- كان مشغولا بالحياة الفكرية في البلاد."[١]

ومردّ هذا الانشغال والاهتمام بالحياة الفكرية في البلاد من قبل السلطان المولى الحسن الأول؛ يرجع بالدرجة الأولى إلى النشأة العلمية التي نشأ عليها منذ صغره في كنف جده السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام (١٢٣٧-١٢٧٥هـ/١٨٢٢-١٨٥٩م) والذي: "كان له بتأديبه وتهذيبه وتدريبه اهتمام زائد، ويختار لتعليمه جلّة الأساتذة وفضلاء الأعلام."[٢] كما أنّ شغفه بالمعرفة، ومحبته للاطلاع والتحصيل العلمي، إضافة إلى نبوغه المبكر؛ دفعت بجدّه السّلطان أن يوجهه للقراءة والدرس بقبيلة بني أحمر[٣] الشهيرة بأحواز مراكش التي كانت توجد بها مدرسة خاصة بالأمراء [٤] وسط مدينة الشّماعية؛ وأصدر في شأن ذلك ظهيرًا وجّهه لابنه المولى محمد بن عبد الرحمان يشير فيه عليه باختيار فقهاء وعلماء يقومون بوظيفة التدريس والتعليم لفائدة الأمير الحسن، وممّا ورد في الظهير الشريف: "فإن سيدي حسن -أصلحه الله- أراد القراءة ولم نجد له فقيها، فقد عرضنا ذلك على كل من هنا من طلبة مراكش، فلم يُرد أحد الذهاب لأحمر، وكتبنا لك، فعلك تجد من يقبل، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإنّه ظهرت فيه قريحة، ومولعٌ بقراءة الأمهات، -المختصر وغيره- فلا بد؛ انظر وابحث عسى أن تجد من يصلح لذلك ما دام الغصن رطبا، فإنّ تعلم الصّغر كالنّقش في الحجر."[٥]

كان من شأن هذا الإجراء التربوي الذي اتخذه السلطان المولى عبد الرحمان تمكين المولى الحسن من الاستفادة من دراسة علمية جادة "وإبعاده عن كل ما من شأنه أن يؤثر عليه من معالم البذخ والترف في مراكش التي هي عاصمة للمملكة آنذاك".[٦] قضى السلطان المولى الحسن فترة شبابه منشغلا بتحصيل شتى أنواع المعارف المختلفة من العلوم الدينية واللغوية، والعلوم الرياضية" التي كان له بها ولوٌع تامٌّ"[٧]، وكان له اهتمام خاص بعلوم الكيمياء، حتى يروى عنه أنه :"كان يقضي كل أوقات فراغه في دراسة [هذا الفن]، كما كان له مختبرًا في القصر خاص بعلوم الكيمياء في قاعة توجد فيها معدات ووسائل هذا العلم."[٨] فاعتنى به وبتحصيله وتفهمه عناية فائقة ولم "يبق بأقطار المغرب ومشايخه من ينتمي إلى هذا العلم إلا وقد أمر بإحضاره، وبحثه عن مبلغ علمه فيه حتى يتحقق ما عنده لديه، وبعده يأمره بمقامه عنده ومصاحبته له حضرًا وسفرًا، ويرتب له ولعياله ما يكفيه من النفقة والكسوة وغير ذلك."[٩]

وقد شهد بنبوغه الفكري، ومكانته العلمية غير واحد من مؤرخي عصره، منهم:

الفقيه العلامة المؤرخ: عبد السلام بن أحمد اللجائي العمراني (ت: ١٣٣٢هـ/١٩١٤م) قال في المفاخر العلية: " لسيدنا المنصور مقام كبير في العلم الشريف من نحو وفقه وحديث وغيرها. أما النحو، فكثيرًا ما يُخطِّئ بعض كُتّابه، ويبين له لحنه، ويرشده للصواب، وأما الفقه، فكفانا أنه يحفظ مختصر أبي الضياء سيدي خليل، وأما الحديث فلم يمارس أحد من أهل الوقت قراءة صحيح البخاري ممارسته.." [١٠]

الفقيه العلامة المؤرخ محمد بن إبراهيم السباعي (ت: ١٣٣٢هـ/١٩١٤م) قال في البستان الجامع: " كان المولى الحسن رابطا عنان وجهته لحلقة باب العلم، مقصور النظر على طلب فنونه، معتكفا على ذلك، لا تشّوف له إلى شيء غير البحث عن جمعه وتفهمه."[١١]

الفقيه العلامة المؤرخ مصطفى المشرفي (ت: ١٣٣٤هـ / ١٩١٦م) قال في الحلل البهية: "وأما تعاهد العلوم، ولا سيّما الحديث ففي كلها سبقه معلوم، ركب متون فنونها فراضها، ووقع في بحور معانيها فخاضها، وحاز بعناية الله لبابها، وميّز بذهنه الثاقب حبابها، ولم يفته علم شرعي ولا فلسفي."[١٢]

الفقيه العلامة المؤرخ عبد الرحمان ابن زيدان: (ت: ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م) قال في النهضة العلمية: "ربّي في أحضان العلم، وهصر وهو غضّ الإهاب فنون الأدب، فكان يتيمة الدهر، وسلافة العصر، وريحانة الألباء، وكعبة الأدباء، يتضوع من أفنان أدبه نفح الطيب، وتنفتح ريحانه الكتاب منه عن كل معنى غريب، وكان له بالعلوم الرياضية ولوع تام."[١٣]

من خلال شهادات هؤلاء الأعلام نلحظ درجة المرتبة العلمية للسلطان المولى الحسن، ومكانة المعرفة وقيمتها في فكره، والأهمية الكبرى التي كان يوليها لهذا الجانب؛ والمتجلية

في نهله من شتّى أصناف العلوم المختلفة الدّينية واللّغوية والمنطقية، وفي شغفه بالقراءة والاطلاع على العلوم الكونية والرياضية والطبيعية؛ حيث جدّ في تحصيلها، وتفانى في إدراك غوامضها.[١٤] وما لا شك فيه أن لهذا التنوع المعرفي، والتراكم العلمي، أثر كبير على شخصيته من جهة، وفي توجيه دفة الحكم وتدبير شؤونه إلى مسار يعتمد العلم والمعرفة سبيلا في طريق أي إصلاح أو نهضة من جهة أخرى. وفي هذه الدراسة أحاول رصد بعض الجوانب والمظاهر التي تعبر عن الاهتمامات الفكرية ومجالاتها في حياة هذا السلطان العالم، معتمدًا في ذلك مقاربة تاريخية وصفية عبر أربعة محاور، هي كالتالي: (البعثات التعليمية/ المجالس العلمية/ الطباعة والنشر/ النساخة وخزانات الكتب).

أولاً: البعثات التعليمية إلى أوروبا

شكلّت البعثات التعليمية الحسنية إلى مختلف دول أوروبا أهمّ إنجاز فكري وإصلاحي شهده عصر السّلطان المولى الحسن، وسجّلت نقطة وعي كبير في فكر هذا السّلطان؛ حيث تمّ في عهده إرسال أزيد من ثلاثمائة طالب[١٥] إلى عدة دول أوربية، شملت ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وإسبانيا وإيطاليا لدراسة العلوم الحديثة من الهندسة والرياضيات والفنون العسكرية وغيرها. يقول ابن زيدان في سياق حديثه عن السلطان المولى الحسن فيما يخص هذه البعثات: " فإنّه لمّا نظر إلى الأمم الراقية، وما أفادها من العلم الطبيعي والرياضي من القوة والسلطان، والشفوف على الأقران في معترك الحياة، أراد أن يزجّ ببلاده في ذلك الميدان الواسع، فعضّد إرسالية الشبان المتخرجين من مدرسة والده، وتوجّهوا لعواصم أوروبا لتتميم دروسهم، فعيّن لكل فريق رجلاً من أهل العلم والدين لمرافقتهم، وأجرى عليهم النفقات الكافية."[١٦]

كان هدف السلطان من وراء إرسال هاته البعثات التعليمية تجهيز أطر وطنية قادرة على النّهوض بأوضاع المغرب، والإسهام في تحقيق إصلاح تنموي شامل، يهمّ البنيات الفكرية والاجتماعية والسياسية والعسكرية، والاستغناء عن الخدمات الأجنبية التي كانت ترابط بأرض المغرب. وكلّ هذه الجهود ترمي إلى "تأمين سلامة الدولة، وحماية لسيادتها، وضمانًا لمستقبلها".[١٧] لا تتوفر المعطيات التاريخية على المعلومات الكافية فيما يخص العدد المضبوط لأفراد هذه البعثات، أو تفاصيل كثيرة عن دراساتهم وأحوالهم؛ وغاية ما هناك تقديرات عددية أوصلها البعض إلى ما يفوق الثلاثمائة فردا، أرسلوا على سنوات غطت فترة حكم السلطان المولى الحسن، ولم تنقطع طول طيلة هذا العهد.

كانت أول بعثة أرسلت سنة: (١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م) مكونة من خمسة عشر طالبا؛ توجهت إلى كل من بريطانيا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وفرنسا، ثم بعثة أخرى سنة: (١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م) مكونة من خمس وعشرين طالبا توجهت إلى جبل طارق لتعلم الفنون الحربية، ثم بعثات أخرى على التوالي سنة: (١٢٩٣هـ /١٨٧٦م) وبعثة عام: (١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م) وبعثة عام: (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م) وبعثة عام: (١٣٠١ هـ/١٨٨٤م) وبعثة عام: (١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م).[١٨] وأهم ما لدينا حول شأن هذه البعثات -كما يقول المرحوم محمد المنوني-[١٩] لائحة أوردها ابن زيدان في كتابه العز والصولة [٢٠] تضمنت ذكر أهم البعثات التعلمية وتاريخها وذكر أسماء طلابها.

١/١-البعثة التعليمية الأولى: (١٢٩١هـ / ١٨٧٤م)

نظرًا لكثرة البعثات التعليمية التي أرسلت إلى أوربا في العهد الحسني الأول، فإن الذي يهمنا في هذه الدراسة شأن أول بعثة تعليمية أرسلت عام (١٢٩١هـ / ١٨٧٤م)، والمكونة من خمسة عشر طالبا، توزعوا على دول إنكلترا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وفرنسا للتخصص في العلوم الهندسية والرياضية. أطّر شأن هذه البعثة الأمر السلطاني الذي صدر من المولى الحسن إلى باشا مدينة طنجة: الجيلاني بن حمّو البخاري (ت: ١٢٩٥هـ) في شأن الاعتناء بخمسة عشر طالبا مغربيا سيتوجهون إلى أوربا لتعلم الهندسة والفنون الحربية.[٢١]

وممّا ورد في الظهير السلطاني بعد الحمدلة: "وبعد: فقد وجهنا صحبته خمسة عشر من نجباء الطلبة بقصد التوجه لبرّ النصارى لتعلم تطبجيت والهندسة، وغير ذلك من أمور الحرب، وأمرنا خديمنا الطالب محمد بركاش بأن يقرّ كلّ فريق منهم للمحل المعيّن له، كما أمرنا الأمناء بأن ينفذوا مؤونتهم مدة إقامتهم بطنجة، وأعلمناك لتكون منهم على بال، وتنزّلهم المحل الذي يناسبهم، والسلام."[٢٢]

كانت إقامة البعثة بداية في مدينة طنجة بقصد تعلم مبادئ الحساب واللّغات الأجنبية في مدرسة شيّدت لهذا الغرض تحت اسم: المدرسة الحسنية أو مدرسة الألسن، والغالب "أنّ هذه المدرسة كانت تكميلية، حيث يقع بها إعداد طلبة مدرسة المهندسين، الذين سيذهبون لإكمال دراساتهم بأروبا."[٢٣] وبالتالي لم تكن مدرسة بالمعنى المتعارف عليه من كونها تخضع لهيكلة هندسية وإدارية وتربوية، وإنما الأمر -كما يقول الأستاذ عبد الله العروي- لا يعدو أن يكون "أكثر من محل

يتّجمع فيه الطلبة المرشحين لاستكمال دراستهم في الخارج ليتعلموا أوليات لغة البلد المقرر توجههم إليه؛ ولهذا الغرض كلّف السّلطان خليفته بطنجة بتدبير شؤون المدرسة والمتعلمين بها."[٢٤]

وقد مكث أغلب أفراد هذه البعثة ما يقرب من ثلاث سنين في هذه المدرسة بمدينة طنجة[٢٥] قبل أن يشدّوا الرحلة إلى دول أروبا.

(١/١) ١-بعثة بريطانيا

تكوّن وفد هذه البعثة من ثلاثة أفراد، وهم: السيد محمد الجباص/ السيد إدريس بن عبد الواحد/ السيد الزبير السكيرج.[٢٦]

كان عرّاب هذه الرحلة القنصل البريطاني "دراموند هاي" الذي راسل حكومته بتاريخ: (١٢ جمادى الآخرة ١٢٩٢هـ/١٥ يوليوز ١٨٧٥ م) مخبرا فيها برغبة السلطان إيفاد ثلاثة طلاب لبريطانيا لتلقي بعض العلوم الهندسية والحربية في "معهد ساند هرست" و"الأكاديمية العسكرية ولويش"، مزكيًا رغبة السلطان بقوله: "تبدو بوضوح رغبة السلطان الشاب في إصلاح وتطوير بلاده، وأعتقد بضرورة تقديم كل تسيير معقول من جانب حكومة جلالتها للعاهل الشاب لتمكينه من التحرك تجاه طريق الإصلاح."[٢٧] وقد لقيت هذه المراسلة استحسانا وجوابا بالقبول من طرف وزارة الخارجية البريطانية.

تم إرسال الوفد الطلابي سنة: (١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م) حيث قضى هناك ثلاث سنوات[٢٨] من الدراسة بمدرسة "المهندسين العسكريين" في شاتهام Chatham، توجت بنيلهم شهادة الإجازة في العلوم. وقد توفر لنا في شأن هذه البعثة التعليمية إلى بريطانيا مذكرة خاصة كتبها أحد أفرادها وهو الزّبير السكيرج يتحدث فيها عن بعض الأخبار والمحطات المتعلقة بهذه الرحلة العلمية، فيقول: "عينت ضمن الخمسة عشر تلميذًا الواقع عليهم الانتخاب لتهذيبهم وتعليمهم وتدريبهم، ما به يصيرون من ذوي الأهلية لاستلام زمام الخدمات السلطانية العالية؛ ولسنة التعيين التي هي: (١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م) يمّم جميعنا ثغر طنجة، تحت رياسة محمد الجباص حين أخذنا مبادئ الحساب ولغة الأجانب.

وسنة: (١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م) وعلى نفقة المخزن السعيد، وعن أمره سافرت إلى الدّيار الإنجليزية صحبة الرئيس المذكور، والسيد الحاج إدريس بن عبد الواحد؛ لتلقي العلوم المتنوعة في ضباط الإنجليز بالمدرسة الغنية عن التعريف من مدرسة (شاطم) التي هي مركز حربي لبناء المدرعات الحربية، تلك المدرسة التي أتت علينا بها ثلاثة أعوام حصلنا أثناءها على الإجازة في العلوم التي أتقناها، وبعد أن حظينا بالمثول بين يدي جلالة ملكة إنجلترا فيكتوريا، رجعنا للحضرة الشريفة."[٢٩]

رجع أفراد البعثة إلى المغرب سنة: (١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م) بعد تخرجهم ونيلهم شهادة الإجازة في العلوم. وقد تميز أعضاء هذه البعثة بانضباطهم وذكائهم وسرعة تعلمهم، وتمت الإشادة بهم والتنويه بتحصيلهم من طرف المسؤولين البريطانيين، ومن طرف النائب السلطاني محمد بركاش الذي نوّه بالوفد الطلابي في رسالة بعثها إلى السلطان يخبره فيها برجوع الطلبة الثلاثة من إنجلترا، ومما ورد فيها:

"ينهي لكريم علم سيدنا -أيده الله ونصره- أنّ الطلبة الثلاثة الذين كان أمرهم سيدنا -أيده الله- بتوجيههم للوند ريز بقصد التعلم، فقد تعلموا واستوفوا المقصود في هذه المدة القريبة التي غيرهم يستحق ضعفها. وقد مدحوهم لا في القابلية والفهم والنجابة، ولا في المروءة ومقابلة ما كانوا بصدده، وقد وردوا الآن وهم المذكورون بالطرة، وأخبرنا سيدنا -أيده الله- بذلك ليأمرنا بما يقتضيه نظره السديد في شأنهم، طالبا من مولانا رضاه، والسلام. في ١ ربيع الأول ١٢٩٧هـ، محمد بركاش، لطف الله به."[٣٠]

(١/١) ٢-بعثة إيطاليا

تمّ إيفاد ثلاثة طلاب إلى إيطاليا وهم: السيد: المختار الرّغاي/ السيد: محمد بناني/ السيد: عبد السلام الأودي.[٣١]

التحق هذا الوفد الطلابي بأكاديمية "مودينا" العسكرية وقضى فيها نحو تسع سنوات، يتعلم فيها فنون الحرب والهندسة والحساب وغير ذلك."[٣٢]

أنهى طلبة هذا الوفد تعليمهم بإيطاليا سنة: (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م) ورجعوا إلى المغرب، فأرسل النائب محمد بركاش إلى السلطان مراسلة يعلمه فيها بالتحاق الأطر الجديدة بالمغرب، ومما ورد في الرسالة: "أن الطلبة الثلاثة الذين كانوا يتعلمون في بلاد إيطاليا، قد تعلموا ما توجهوا بصدد تعلمه، ووردوا بإجازة كبير المدرسة، وشهادتهم بأنهم استوفوا الغرض، وكل منهم ماهر عن الآخر في فنه."[٣٣]

(١/١) ٣-بعثة ألمانيا

وتكون أفرادها من ثلاثة طلاب، توزعوا على مؤسسات علمية مختلفة، وهم: السيد: الميلود بن محمد الزيادي الطالبي؛ التحق بالأكاديمية العسكرية ببرلين/ السيد: عبد السلام بن عبد الرحمان التسولي؛ تابع دراسته بمدرسة المناجم بـ: (klausthal)/ السيد: الحسين بن الحاج الأودي؛ التحق بمدرسة ضباط الهندسة.[٣٤]

أقام هذا الوفد الطلابي حوالي اثنا عشر سنة في ألمانيا، تعلموا خلالها الحساب والجبر والمقابلة وأصول الهندسة، وعلوما أخرى. وقد حققت هذه البعثة بدورها أهدافا متميزة، يقول الأستاذ يحي بولحية: "يبدوا أن هذه البعثة التعليمية إلى ألمانيا حققت أغراضًا تشبه ما حققته مثيلتها إلى إنجلترا، وذلك أنها لم تقتصر في تكوينها على المادة العسكرية، بل تخصص بعض أفرادها في علوم مدنية أخرى مختلفة، كالتنقيب عن المعادن وتوليد الطاقة الكهربائية."[٣٥]

(١/١) ٤-بعثة فرنسا

تكون وفد أفرادها من ثلاثة طلاب هم السادة: قاسم الأوديي/ محمد بن الكعاب الشرقي/ الطاهر بن الحاج الأوديي.[٣٦]

بقي طلاب هذه البعثة نحوًا من ست سنين في طنجة لتعلم اللغة الفرنسية، توجهوا بعدها أواخر عام (١٢٩٧هـ/١٨٧٩م) صوب باريس. وشمل تكوينهم مجالات: اللغة الفرنسية والهندسة وفنون الملاحة والتاريخ وفن التصوير.

(١/١) ٥-بعثة إسبانيا

تكون وفد أفرادها من ثلاثة طلاب هم: السيد: أحمد بن الحاج بن شقرون الفاسي/ السيد: عبد السلام الرباطي/ السيد: محمد الشرادي الرباطي.[٣٧]

تعلّم أعضاء الوفد اللغة الإسبانية في طنجة لمدة سنتين، ثم التحقوا بعدها بإسبانيا حيث تعلموا في "غوادا لاخارا Guadalajara" وادي الحجارة شرق مدريد، ورجعوا إلى المغرب صيف: (١٣٠١هـ/١٨٨٤م).

ثانيًا: المجالس العلمية

ظهرت فكرة المجالس العلمية بالمغرب وتنامت في عهدي دولتي المرابطين والموحدين؛ يقول الأستاذ عبد الحق المريني في هذا السياق: "وقد برزت في المغرب في العهدين المرابطي والموحدي، وكان يطلق عليها بالمغرب: مجالس الفقهاء، ولم يطلق عليها اسم المجالس العلمية إلا في العهد المريني ثم السعدي؛ وفي العهد العلوي احتضن ملوك الدولة العلوية هذه المجالس العلمية السلطانية، ابتداء من العهد الإسماعيلي، وشجعوها وأمروا بفتح باب المناقشة بين العلماء، وكان من ملوك هذه الدولة من يدلي بدلوه في هذه المساجلات."[٣٨]

كان السلطان المولى الحسن من أبرز السلاطين العلويين الذين أحيوا هذه المجالس العلمية وأثروها بالمعارف والعلوم؛ فقد تعددت في عهده وتنوعت، فمنها: ما كان يعقده من أجل الاستفتاء حول القضايا المهمة التي كانت تعترض سبيله في حكمه، ومنها: ما كان يعقده للبت في المستجدات التي كانت تطرحها النهضة الحديثة التي فرضها الاحتكاك بالآخر، وأخرى كانت تعقد لتدارس العلم ومناقشة العلماء.[٣٩] أما أهمّ هذه المجالس لديه وأعظمها شأنا فتلك التي كانت تعقد لقراءة صحيح البخاري، في أشهر رجب وشعبان ورمضان من كل سنة لا تتوقف أبدًا إلا لضرورة، على سنة أسلافه السلاطين. يقول ابن زيدان: "اتخذ ملوك هذه الدولة العلوية سرد صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري -وغيره- منذ نشأت، عادة محكمة في ظعنهم وإقامتهم."[٤٠]

٢/١-مجلس قراءة صحيح البخاري

كان للسلطان المولى الحسن اهتبال خاص، واهتمام كبير بهذا المجلس الحديثي "فكان يحضره بنفسه، ويستدعي له العلماء من كل حدب وصوب، ولا ينقطع أبدا سفرا وحضرًا."[٤١] تبدأ مراسم الإعداد لهذا المجلس العلمي الحديثي بمراسلة الحاجب السلطاني لقضاة المملكة، وعمال الأقاليم وأمنائها ليختاروا العلماء الأجلاء، والأعيان والفقهاء، والشرفاء الذين ينبغي حضورهم. ومن ثَـمَّ يوجهونهم معززين إلى الحضرة الحسنية الشريفة محفوفين بكل عناية في الذهاب والإياب.[٤٢]

وبين أيدينا نموذج من هذه المراسلات تخص الحاجب السلطاني أحمد بن موسى (ت: ١٣١٨هـ) للقاضي أبي العباس أحمد بنسودة (ت: ١٣٢١هـ) يعلمه فيها بافتتاح الدروس الحديثية؛ ونص المراسلة بعد الحمدلة: "محبنا الفقيه العلامة القاضي السيد أحمد بن الطالب بنسودة؛ سلام عليك ورحمة الله، عن خير مولانا -نصره الله- وبعد: فإنّ مولانا -أعزه الله- أمر بافتتاح سرد صحيح البخاري بحضرته العالية بالله، بكرة غدًا إن شاء الله، فأقدم لذلك أنت ومن حضر ممن يحضر معك؛ ولابد، وذلك في الساعة الرابعة والنصف، وعلى المحبة والسلام." في مستهل شهر رجب عام ١٣٠٠هـ.[٤٣]

ومِمَنْ كان يحضر هذه المجالس المنيفة من أكابر علماء عصره، على سبيل المثال لا الحصر:

العلامة الفقيه المهدي بن الطالب بنسودة (ت: ١٢٩٤هـ)

العلامة الفقيه القاضي أحمد بن الطالب بنسودة (ت:١٣٢١هـ)

العلامة الفقيه محمد المدني بن الفقيه علي ابن جلون (ت:١٢٩٨هـ)

العلامة الفقيه محمد بن التهامي الوزاني (ت: ١٣١١هـ)

العلامة الفقيه أحمد بن حمدون بن الحاج (ت: ١٣١٦هـ)

العلامة الفقيه جعفر بن إدريس الكتاني (ت: ١٣٢٣هـ)

العلامة الفقيه عبد الله بن إدريس البكراوي (ت: ١٣١٦هـ)

العلامــة الفقيــه عبــد اللــه الكامــل الأمــراني (ت: ١٣٢١هــ)
العلامة الفقيه عبد الله بن إدريس السنوسي (ت:١٣٥٠هـ)

هؤلاء من أبرز الأعلام الذين كانوا يحضرون هذا المجلس العلمي السلطاني؛ وتتوزع وظائفهم داخل المجلس وتتنوع، ففيهم من كان يتولى القراءة والسرد للحديث، وفيهم من كان يتولى التقرير والشرح والتعليق والمناقشة. يقول ابن زيدان: "وينقسم علماء المجلس إلى قسمين: قسم للسرد، وقسم للتقرير، والعادة أنّ السلطان إذا شاء المذاكرة في حديث من الأحاديث يطوي الكتاب الذي بين يديه، ويرفع رأسه، فيشرع شيخ المجلس في التقرير، فإن أصاب وسلّم له، فتح السلطان كتابه، وتمادى السراد على السرد، وإلا ناقشه غيره وأبدى ما لديه، وهكذا إلى أن يتضح الأمر، ويرتفع كل إشكال، وربّما أرجئ تحرير المسألة إن تفرعت ذيولها إلى الغد، وربما كتب كل ما ظهر له فيها."[٤٤] وهكذا يتحول المجلس من مجلس للقراءة والسرد إلى منتدى ثقافي، وحلبة للنقاش الفكري، والمناظرات العلمية، في جو يتسم بالانفتاح والحرية الفكرية.

وخير شاهد على هذا الجو العلمي المتسم بالحوار والانفتاح الفكري في هذه المجالس العلمية ما وقع بين الشيخ عبد الله بن إدريس السنوسي (ت: ١٣٥٠هـ) وبين بعض علماء المجلس من التناظر والحوار في بعض المسائل، إذ كان منهج الفقيه السنوسي في الفقه: "رفض الأقيسة والآراء والفروع الفقهية المستنبطة."[٤٥] وفي العقيدة: "رفض التأويل في آيات الصفات وأحاديث الصفات والمتشابهات، وإبقاءها على ظاهرها."[٤٦] وكان يجاهر ببعض أفكاره هاته داخل المجلس السلطاني، فيقوى عليه النقاش والرد من بعض العلماء الحاضرين؛ إلا أن المولى الحسن كان يعجبه ذلك، وينشط لهذا الحوار والتناظر، ويقف موقف المحايد، ولا يؤيد أحد الفريقين على الآخر. [٤٧] وكان قصده من وراء ذلك إظهار كل فريق ما عنده من العلم، وتمحيص الحق من المبطل، والجاهل من العالم.[٤٨]

من المسائل التي تم التناظر فيها بين الفقيه السنوسي والفقيه القاضي أحمد بنسودة في أحد هاته المجالس الحديثية في الحضرة الحسنية، مسألة: [قراءة حديث الإفك] من الصحيح؛ إذ جرت العادة في المجلس الحديثي السلطاني ألا يقرأ هذا الحديث في المجلس بحجة عدم إشاعته بين العوام، وتنزيها لأم المؤمنين السيدة عائشة، واحتراما لآل البيت الكرام. يقول المرحوم علال الفاسي: "كان المولى الحسن ذا عناية بدراسة القرآن والحديث في مجالسه العلمية السلطانية الحسنية، بدليل أنه حدث أثناء قراءة الدروس المولوية من صحيح البخاري أن طلب السيد القاضي أحمد بنسودة عدم سرد حديث الإفك قائلاً: إن الأوفق عدم إشاعته بين العوام وعدم دراسته، فعارضه في ذلك العلامة السلفي سيدي عبد الله السنوسي الذي كان رجع من رحلته إلى الشرق، ودعا إلى الإصلاح الديني، فاشتدت المنافسة بين الفقيهين، حتى ألف بنسودة رسالة في الرد على السنوسي: [القول الصحيح بعدم قراءة حديث الإفك من الصحيح] مؤكدًا عدم قراءة حديث الإفك، وشنّع على الشيخ عبد الله ادعاءه الاجتهاد واستدلاله بالحديث والكتاب وهو ممن لا يتجاوز درجة المقلد. وبعدما أطلع المولى الحسن على هذه الرسالة، ملأ حواشيها تعاليق موضوعية وافق فيها ابن سودة في بعض ما قاله ولكنه أعطى الحق للسنوسي في قراءة قصة الإفك."[٤٩]

تستمر هذه المجالس العلمية ويستمر معها النقاش العلمي والحوار البناء طيلة ثلاثة أشهر إلى يوم الختم، وتقسم إلى ست وثلاثين مجلسًا، يتم فيها تقسيم الأنصبة والأجزاء التي ستقرأ بحيث لا يزاد فيها ولا ينقص.[٥٠] أما يوم ختم هذه المجالس فيكون يوما مشهودا، وغالبا ما يكون في السابع والعشرين من رمضان، وأحيانا يوم العيد؛ يحضره السلطان، ويتم الاحتفاء فيه بأنواع الأطعمة والأشربة والطيب ، وتلقى فيه الأشعار والقصائد ، ويكرم العلماء. وهذا وصف لأحد هاته المجالس الختامية التي ترأسها السلطان المولى الحسن، يرويها أحد من حضرها وهو العلامة الفقيه المؤرخ أحمد بن خالد الناصري (ت:١٣١٥هـ)، يقول في الاستقصا: "ثم دخل السلطان المولى الحسن -أعزه الله- رباط الفتح صبيحة يوم الخميس التاسع والعشرين من رمضان: (٢٩ رمضان ١٢٩٠هـ ٢٠ نونبر ١٨٧٤م) وكان العيد يوم السبت، فأقام السلطان أيده الله سنة العيد برباط الفتح، وختم به صحيح البخاري على العادة، وكان فقيه المجلس ومدرسه يومئذ الفقيه العلامة السيد المهدي بن الطالب بنسودة الفاسي، وحضر ذلك المجلس وفود المغرب وقضاة العدوتين وعلماؤها، وحضرنا في جملتهم، ومدح السلطان بقصائد بليغة، واحتفل -أعزه الله - لهذا الختم بأنواع الأطعمة والأشربة والطيب، وفرّق الأموال على من حضر، ثم وصل أهل العدوتين من علمائها وقرائها ومؤذنيها... على العادة."[٥١]

ويقول ابن زيدان في وصف يوم ختم هذه المجالس: "وفي ذلك اليوم تجزل لهم الصلات والعوائد، وتقدم للجلالة نبات أفكار شعراء دولته، وكتابها مهنئة بختم الدروس الحديثية،

فيجازي كلا بما يستحق، وبعد انتهاء أيام العيد يغمر أولئك العلماء بضافي النعم، وتنفذ لهم ولذويهم الكساوي، وتقضى سائر مطالبهم، ويؤمر أمناء الصائر بتنفيذ كل ما يحتاجون إليه من ضروريات السفر حقيرة أو جليلة، ويتقلبون إلى أهليهم مسرورين متأبطين بمكاتب الإنعامات، وأيضا العمال الذين يمرون بترابهم بإكرام ضيافتهم والإحسان إليهم والبرور

ثالثًا: الطباعة والنشر

٣/١-العهد الأول

تعود الجذور الأولى لظهور المطبعة بالمغرب -وبالأخص المطبعة الحجرية- إلى عهد السلطان محمد بن عبد الرحمان سنة: (١٢٨١هـ/١٨٦٥م)، حيث تم إدخال أول مطبعة حجرية إلى المغرب على يد أحد قضاة مدينة تارودانت، وهو الفقيه العلامة القاضي محمد الطيب بن محمد السوسي التملي الروداني (ت: ١٢٨٢هـ)[٥٣] أما عن الكيفية التي دخلت بها المطبعة إلى المغرب فتفيد المصادر التاريخية أن القاضي محمد الطيب الروداني قصد الحج سنة (١٢٨٠هـ/١٨٦٤م) وعند عودته مرّ بمصر كدأب المغاربة، حيث يبدو أنه توقف فيها مدة لا بأس بها، مكنته من الوقوف على بعض المطابع والاتصال بالمطبعيين.[٥٤] مما دفعه لشراء مطبعة حجرية جلبها إلى المغرب، ومعه طبيع مصري اسمه: محمد القياني بن إبراهيم؛ ليشتغل بها في اتفاق وعقد وقع برضى الطرفين بتاريخ: (١٤ ربيع الأول سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م).[٥٥] تم إدخال المطبعة الحجرية إلى المغرب عن طريق مرسى مدينة الصويرة، إلا أن موظفي المخزن هناك سيشيرون على القاضي الروداني بأن يهدي المطبعة إلى السلطان المولى محمد بن عبد الرحمان. يقول الأستاذ محمد بنشريفة: "ولمّا وصل المركب إلى مرسى الصويرة، كان من المنتظر أن يسافر الرجلان منها برًا إلى مدينة تارودانت، حصل مالم يكن في حسبان القاضي، فقد أشير عليه أن يهدي المطبعة إلى السلطان، فحملها صحبة المعلم المصري إلى مكناس، حيث كان السلطان يومئذ، وقدّمها إليه، فقبل الهدية منه وأكرم المعلم المصري."[٥٦]

انطلق عمل المطبعة في البداية من مدينة مكناس سنة: (١٢٨٢هـ/١٨٦٥م) حيث بقيت هناك من يناير إلى غشت من نفس السنة. كان أول كتاب طبع بهذه المطبعة في مكناس، كتاب: الشمائل المحمدية، لأبي عيسى الترمذي، سنة: (١٢٨٢هـ) واعتبر هذا الكتاب أول كتاب طبع بالمغرب.[٥٧] وقد بدئ به تيمنًا بسيرة المصطفى (ﷺ)، وطبع على نسخة مروية بسند الحافظ أبي علي الصدفي.[٥٨] نقلت المطبعة بعد ذلك إلى فاس، العاصمة العلمية للمغرب، بعد أن أشير على السلطان المولى محمد بن عبد الرحمان بأن " الأليق بالمطبعة هو فاس لكثرة علمائها وكتبها."[٥٩] وفي فاس حملت المطبعة اسم جديدا فسميت بالمطبعة السعيدة، أو المطبعة المحمدية، نسبة إلى السلطان محمد الرابع، وتعاون في نفقاتها الخزينة العامة والأحباس.[٦٠]

استمر عمل هذه المطبعة في هذه المرحلة ست سنين (١٢٨٢-١٢٨٧ هـ/ ١٨٦٥-١٨٧١م)، تم خلالها طبع الكتب التالية:

- شرح المقدمة الأجرومية، لخالد الأزهري، تم طبعه سنة:(١٢٨٣هـ)
- مختصر الدر الثمين والمورد المعين في شرح المرشد المعين لمحمد بن أحمد ميارة، وتم طبعه سنة: (١٢٨٣هـ)
- حلى المعاصم لبنت فكر ابن عاصم، لمحمد التاودي بن الطالب بن سودة المري الفاسي، تم طبعه سنة (١٢٨٤هـ)
- الشرح الصغير على المختصر الخليلي، لمحمد بن علي الخرشي
- قصيدة في المولد النبوي لمحمد بن أحمد الرفاعي، تم طبعها سنة (١٢٨٧هـ) [٦١]

والمتأمل في عناوين هذه الكتب المطبوعة في هذه الفترة ومضامينها يلحظ أن أغلبها كتب دراسية تعليمية، كانت مقررة في جامع القرويين وفي معاهد العلم ومدارسه بالمغرب "تدرس في المراحل الابتدائية أو المتوسطة"[٦٢]، وهي كتب لا تخرج عن الفقه والنحو والتصوف. وقد تميزت هذه المطبوعات بشكل خاص بالمبالغة في إتقانها تصحيحًا وطبعًا وإخراجًا. ولضمان نشر هذه الكتب وتوزيعها وإيصالها للقراء، كان لا بد من إحداث مكتبات ومراكز للبيع، وهو ما دفع بالسلطان المولى محمد بن عبد الرحمان إلى أن يأمر ابنه المولى الحسن -الذي كان ينوب عنه في مراكش-بأن يقوم بفتح متجر هناك للإشراف على توزيع الكتب بالمدينة. وكان المولى الحسن يرفع تقارير دورية ينقل فيها إلى والده سير أعمال التوزيع، ويرفقها بالتفاصيل المالية.[٦٣]

٣/٢-العهد الثاني

توقف عمل المطبعة الحجرية بعد مضي ست سنين من مباشرة عملها لمدة سنة كاملة (١٢٨٨-١٢٨٩هـ/ ١٨٧١- ١٨٧٢)؛ ويرجع سبب توقف المطبعة في هذه الفترة إلى أسباب، منها:

أولاً: سفر الطبيع المصري ومفارقته للمطبعة؛ ولا تمدنا المصادر بشكل واضح عن سبب هذا السفر، هل كان رغبة شخصية، أم بإيعاز من جهاز المخزن، حيث لا يستبعد أن يكون سفر الطبيع المصري نتيجة لاستغناء المخزن عن خدماته،

وبالأخص أنه تخرج على يديه في الطباعة أفراد من المغاربة. **ثانيًا:** العبء المالي الذي كانت تشكله مؤسسة الطباعة في تلك الفترة، ومنه ما يتعلق بنفقات الطباعة وأجور الموظفين، ومنها أجرة الطبيع المصري، فبالإضافة إلى نفقات الملبس والمسكن التي كانت تؤديها خزينة الدولة، " فإنّ مجموع راتبه كان يعادل ستة أضعاف ما نص عليه العقد الأصلي، وإذا استثنينا الأعيان، فقليلون هم موظفو الدولة الذين يتقاضون في العصر راتبًا أعلى من راتبه."[٦٤] **ثالثًا:** تركيز المخزن جهوده على توطيد الجبهة الداخلية للدولة، والتركيز بشكل كبير على تحديث الجيش، وبالتالي "لم يكن لدى المخزن الوقت الكافي للتفكير في دخول مغامرة جديدة تتعلق هذه المرة بالمطبعة."[٦٥] هذه الأسباب دفعت بالمخزن إلى تفويت المطبعة لأحد الأشخاص الذين تخرجوا على يد الطبيع المصري وتعلموا على يديه، وهو الحاج الطيب بن محمد الأزرق.

الطيب بن محمد الأزرق والمطبعة الحجرية

دخلت المطبعة الحجرية سنة (١٢٨٩هـ/١٨٧٢م) مرحلة جديدة بعد أن أصبح الحاج الطيب الأزرق المسؤول الجديد عن إدارة المؤسسة؛ وتأتي إدارة الطيب الأزرق لإدارة المطبعة استجابة لرغبة جماعة من العلماء بفاس الذين اتخذوا المبادرة وطلبوا من "المخزن السماح للحاج الطيب بن محمد الأزرق بأن يصبح المسؤول الجديد عن مباشرة أعمال الطباعة، خصوصًا في تدبير مواردها المالية، في مقابل تقديمه عشر المنتوج المطبعي للسلطة المخزنية."[٦٦]

تحمل الطيب الأزرق مسؤولية إدارة المطبعة بوعي ومسؤولية، وشهدت المطبعة تقدما ملحوظا تحت إدارته. ولضمان نجاح العمل دخل في شراكة مع أحد أثرياء مدينة فاس ووجائها وهو الشريف الحسين بن محمد الدباغ الفاسي (ت: ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م). يعتبر الأستاذ فوزي عبد الرزاق أن هذه الشراكة لها دلالات ذات أهمية خاصة، ويشبهها بالمساندة التي تلقاها "غوتنبرغ" مخترع الطباعة من التاجر والبنكي الألماني" فوست faust ."[٦٧] انطلقت المطبعة في عملها بإدارة السيد الأزرق، وبمباركة من السلطان المولى الحسن الذي أصدر ظهيرا بتوقير الحاج الطيب الأزرق، ونصه بعد الحمدلة والبسملة: جددنا بحول الله وقوته، وشامل يمنه ومنته، لماسكه: الطيب الأزرق الفاسي معلم مطبعة الكتب العلمية بفاس الإدريسية، -صانها الله- على ما بيده من كتاب مولانا الوالد قدسه الله، المتضمن سدل أردية التوقير والاحترام عليه، وحمله على كاهل المبرة والاحترام. في: ٢٩ ربيع الثاني عام ١٢٩١هـ. [٦٨]

كان أول كتاب طبعه الطيب الأزرق بعد توليه زمام أمور المطبعة، كتاب: دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار، للإمام سيدي محمد بن سليمان الجزولي، وتم ذلك بتاريخ: (١٠ صفر سنة ١٢٨٩هـ).[٦٩] ولا يخفى سر بداية الطباعة بكتاب دلائل الخيرات من قصد التبرك الذي كان عرفًا جاريًا لدى المغاربة، وهذا نفس ما حصل عندما تم طبع كتاب الشمائل المحمدية للترمذي كأول كتاب طبع في الفترة الأولى للمطبعة. ومن أهم ما طبع في هذه المرحلة: **القرآن الكريم**: كان الطيب الأزرق أول طابع مغربي أقدم على طبع القرآن الكريم، تم طبعه سنة (١٢٩٧هـ/١٨٧٩م) وقد حقق هذا العمل نجاحا كبيرًا، وقوبل بالرضى والاستحسان.-**كتاب**: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، للمرتضى الزبيدي واعتبر هذا الكتاب من أطول المطولات المطبوعة في المطبعة الحجرية حيث تم طبعه في ثلاثة عشر جزءا، وكان ذلك بأمر من السلطان المولى الحسن وبإشراف منه.

وفي أسباب اهتمام السلطان المولى الحسن بهذا الكتاب وأمره بطبعه، يرجع الأستاذ فوزي عبد الرزاق ذلك إلى ما يلي: **أولاً**- أن الكتاب الأصل وشرحه يمثلان الاتجاه الأشعري الذي ينتمي إليه أغلب المسلمين في العالم. **ثانيًا**- أنه يحتل المنزلة الوسط بين أهل الحديث والمعتزلة، بمعنى أنه جمع بين الفقه والتفكير.[٧٠] وهناك سبب آخر تطرق إليه الأستاذ فوزي مفاده: أن السلطان المولى الحسن استخدم طبع هذا الكتاب وتوزيعه -وبالأخص على علماء المشرق- كدعاية سياسية لتلميع صورته في مختلف أرجاء العالم الإسلامي.[٧١] إلا أن هذا السبب يبدو بعيدًا عن واقع الأمر، خصوصا إذا علمنا أن السلطان كان رجلاً عالمًا وفقيهًا، وله مشاركات علمية، وارتباط وثيق بالمكتبة الإسلامية وعلومها، ومعرفة أصيلة بأمهات المصادر وعلى اطلاع واسع عليها، وقد أمر بطبع الكثير منها غير كتاب إتحاف السادة المتقين.

وفي هذا السّياق يورد الشيخ محمد عبد الحي الكتاني سببا آخر لطبع هذا الكتاب هو رغبة عالم الحجاز ومفتي الشافعية أحمد بن زيني دحلان(ت: ١٣٠٤ هـ)، في ذلك، يقول رحمه الله: "والسلطان المذكور [المولى الحسن] هو الذي قام بطبع شرح الإحياء للحافظ الزبيدي في المطبعة الحجرية في ١٣ مجلدا من القالب الكبير، وكان الذي حمله على ذلك رغبة عالم الحجاز أبي العباس أحمد بن زيني دحلان المكي[٧٢]، حسبما أخبرني بذلك صهر السلطان المذكور العالم الأنجد المولى أبو العلاء إدريس بن عبد الهادي العلوي [ت: ١٣٣١هـ] -رحمه الله- وكان طبعه

للكتاب المذكور من أعظم حسناته وأخلدها، حتى أن أهل مصر لما أرادوا تجديد طبعه لم يجدوا عندهم نسخة كاملة فاستعانوا بطبعة فاس، وهذا من النوادر."[٧٣] وقد عمل السلطان المولى الحسن على تحبيس هذا الكتاب بنسخ وافرة على جامع القرويين كما هي عادته، ووزع نسخا منه على علماء الحجاز ودمياط واستنبول نشرا للعلم وإحياء لرحمه بين أهله. لم يكن كتاب " إتحاف السادة المتقين" الكتاب الوحيد الذي أمر السلطان المولى الحسن بطبعه، بل توجد كتب أخرى أمر بطبعها؛ وموضوعات أمر بالتأليف فيها؛ فمن الكتب التي أمر بطبعها:- كتاب: شرح ميارة على المرشد المعين في الفقه المالكي، سنة: ١٢٩٢هـ/ كتاب: تحرير أصول إقليدس في الهندسة، لنصير الدين الطوسي، فتم طبعه سنة: ١٣٩٣ في مجلدين.

ومن المواضيع التي أمر بالكتابة فيها، أمره لأبي العباس أحمد بن المواز بوضع تأليف في صحة الكميا، فألف كتابه: مطلع الضيا في الاستدلال على صحة الكميا. ومنها: أمره لشيخه محمد بن إبراهيم السباعي المراكشي بوضع كتاب في تاريخ الدولة العلوية، فألف كتابه: البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن في عد بعض مآثر السلطان مولانا الحسن. وهذا نموذج بأسماء الكتب التي تم طبعها في عهد السلطان المولى الحسن: المختصر الخليلي، لأبي الضياء خليل بن إسحاق، تم طبعه سنة: ١٢٩٧هـ/ إتحاف المقتنع بالقليل في شرح مختصر خليل، لأبي العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي، تم طبعه سنة: ١٣٠٣هـ/ شرح نظم العمل الفاسي لأبي زيد الفاسي الفهري، تأليف: محمد بن أبي القاسم السجلماسي، تم طبعه سنة: ١٢٩١هـ/ الفتح الودودي على المكودي، لأحمد بن محمد بن حمدون السلمي المعروف بابن الحاج الفاسي، طبع سنة: ١٢٩٠هـ/ حاشية على شرح بحرق الصغير على لامية الأفعال لابن مالك، لابن الحاج، تم طبعه سنة: ١٣٠٠هـ/ الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين لابن الجزري، تم طبعه سنة ١٣٠٨هـ.[٧٤]

رابعًا: النساخة وخزائن الكتب

٤/١-النساخة

أولى السلطان المولى الحسن للنساخة اهتمامًا كبيرًا، وأظهر بها ولعًا شديدًا فقد كان: "ولوعًا بنسخ الكتب والبحث عن البارعين في الخط المتقنين، ويجلبهم لحضرته للكتابة والنسخ، لا يفارقون حضرته سفرا ولا حضرًا، اتخذ لهم محلاً برحاب القصر، وعين لهم من يقوم بشؤونهم، ويقضي لهم مآربهم، ويناولهم ما يحتاجون إليه، ويجري عليهم الجرايات الكافية، وينعم عليهم بالنعم السابغة الضافية، ويتردد عليهم لمحل أشغالهم الآونة بعد الأخرى." [٧٥] كما عرفت كتب الطب والكمياء -على وجه الخصوص- ازدهارًا ورواجًا في عهده، حيث كان له مزيد اهتمام بها، "فاستنسخ منها مجموعة دبّجها الوراقون المغاربة بخطوط جيدة، وزخرفة أنيقة وتسفير بديع."[٧٦] وقد دفعه شغفه واهتمامه بهذا الفن بأن أرسل عددًا من الوراقين المغاربة إلى إستانبول وإسبانيا لتعلم فنون الوراقة والتخصص فيها. [٧٧] فرفع بهذا العمل المفيد راية العلم وأفاد المعارف خدمة جليلة."[٧٨]

أما سوق النّساخة فقد كان رائجًا ومزدهرًا في عهده بفضل تشجيعه على ذلك، فاحترفها العديد من العلماء وطلبة العلم، كما هو حال الفقيه العلامة العباس بن محمد بن عبد الرحمان الجرتي السجلماسي، (ت: ١٣١١هـ/ ١٨٩٤م) فقد "كان يكتب في سنة نسخة من تعليق الجنان على المختصر الخليلي بخطه الأنيق، ويبيعها بمائة ريال هي عولته."[٧٩] يقول الشيخ محمد عبد الحي الكتاني: "وكانت للورّاقين والمجلّدين والمذهبين سوق في أيامه، تنسخ من كتب الصنعة المئات من المجلدات في غاية الزخرفة والتمويه، والتنويه والتسوية."[٨٠] وقد ذكر المرحوم محمد المنوني جملة وافرة من أشهر النساخ في عهد السلطان المولى الحسن وأشهر مستنسخاتهم، منهم:

محمد بن سليمان البجمعوي نزيل مراكش، من مستنسخاته: كتاب: دلائل الخيرات، للجزولي، فرغ منه في: (١٦ رجب ١٣٠٠هـ). كتاب: حلية أبي نعيم الأصفهاني. شرح سيدي مهدي الكبير على الدلائل.

الفاسي، عمر بن عبد الرحمان المجذوب الفهري (ت: ١٣٠٩هـ ١٨٩٣م)، من مستنسخاته: المقصد الأحمد، لعبد السلام القادري، في: (٤ صفر ١٣٨٨هـ). ممتع الأسماع، لمحمد المهدي الفاسي، في: (٧ شعبان ١٣٠٠هـ). أزهار البستان، لعبد الرحمان الفاسي، في: (متم ١٣٠٠هـ). الشفا للقاضي عياض، في:٣ جمادى الثانية (١٣٠٤هـ)

ابن عزوز: محمد بن عبد السلام الحصيني الرباطي، (ت: ١٣٠٩هـ/١٨٩٣م) من مستنسخاته: القاموس المحيط، كتب منه إحدى عشر نسخة. ابتهاج القلوب، لعبد الرحمان الفاسي في: (٧ صفر ١٣٠٠هـ).

الفاسي، أبو القاسم عبد النبي بن عبد الرحمان المجذوب الفهري، (ت: ١٣٠٥هـ/١٨٨٧م)، من مستنسخاته: صحيح الإمام البخاري، (في سنة: ١٢٧٩هـ). الموطأ للإمام مالك، في سنة (١٢٧٣هـ). الشفا للقاضي عياض، في سنة: ١٢٧٣هـ.

البناني: محمد بن الطيب المراكشي، (ت: ١٣١٧هـ/١٨٩٩م) من مستنسخاته: الشفا للقاضي عياض/ القاموس المحيط/ شرح ديوان الشعراء الستة للأعلم.

الفيضي: أحمد بن مبارك بن عبد الله السجلماسي ثم المكناسي، (ت: ١٣٢٥هـ-١٩٠٧م) من مستنسخاته: السنن الصغرى، للنسائي، تم نسخه سنة: (١٢٨٩هـ)/ الجامع الصحيح، للترمذي، تم نسخه سنة: ١٢٩٠هـ (١٢٩٠هـ).

سي حدو بن موسى الفاسي، (ت: ١٣٣٠هـ-١٩١١م) من مستنسخاته: كتب الحديث الستة

الكردودي: محمد بن محمد بن عبد القادر الكلالي الحسني الإدريسي الفاسي، (ت: ١٣١٧هـ-١٩٠٠م) من مستنسخاته: البرهان في علم الميزان، للجلدكي، تم نسخه سنة: ١٣٠٦هـ/ مصطلحات أفلاطون، لجابر بن حيان، تم نسخه سنة: ١٣٠٦هـ.

التطاري، محمد العربي الفاسي، من مستنسخاته: الوصول لحفظ الصحة في العقول لابن الخطيب، تم نسخه سنة: ١٢٩١هـ/ كتاب الأغذية، لمحمد بن إبراهيم الرندي، تم نسخه سنة: ١٢٩١هـ/ زاد المسير في علاج البواسير، للقوصوني، تم نسخه سنة: ١٢٩١هـ.[٨١]

٢/٤-خزائن الكتب

مثلت خزائن الكتب أهم مظاهر تطور العلم والفكر بالمغرب، و أبرز روافد الإمداد الفكري فيه عبر تاريخه؛ ولذلك بلغ الاهتمام بإنشاء المكتبات واقتناء نوادر المخطوطات والكتب غايته في عهد ملوك الدولة العلوية عمومًا، والعهد الحسني الأول منه على وجه الخصوص، يقول المرحوم محمد المنوني: "بعد النكبات التي حاقت بالكتب أيام السعديين عملت الدولة العلوية بعد استقرارها على بعث هذا الاهتمام من جديد، وتأسست الخزانة السلطانية العلوية، فتجمع بها بقايا المكتبات السعدية وخزائن الإمارات المنقرضة، وتم هذا في أيام السلطان الرشيد ابن الشريف الذي جعل مقر الكتب في القصر الملكي بفاس الجديد، ولتوسيع الخزانة الجديدة وضع نفس السلطان النواة الأولى لديوان الوراقة من بعد، وتمد مكتبات الأمراء والملوك بمجموعة كبرى من المخطوطات والنفائس بعدما أضيف لها مقتنيات أخرى بالشراء والهدايا، وبهذا كله تكاملت شخصية خزائن بلغ العلويين بعد أن ساهم في تأسيسها الملوك والأمراء على السواء".[٨٢]

اهتم المولى الحسن اهتمامًا بالغًا بالخزانات العلمية والمكتبات عامة، وبالمكتبات السلطانية الحسنية على وجه الخصوص، والتي توزعت بين قصوره بفاس ومكناس ومراكش.

يقول المرحوم محمد المنوني في شأنها: "كانت مكتباته طافحة بشتى المؤلفات من سائر الفنون، ومن اهتمامه بها أن خصص لها زمن خلافته جماعة وافرة من مهرة النساخين المتقنين، ثم ازداد شغفه بها لما جلس على أريكة الملك، ومازال معتنيا بها إلى أن ختمت أنفاسه."[٨٣]

يتجلى اهتمام المولى الحسن بخزائن كتبه في تزويدها بشتى النوادر والمؤلفات العلمية، وفي توفير النساخ والكتاب، وتوظيف من يتفقدها بين الفينة والأخرى ويرتبها من العلماء والفقهاء المختصين. يقول المرحوم محمد عبد الحي الكتاني: "كان للسلطان اعتناء بخزانة الكتب المخزنية، وكان ينتدب كبار علماء فاس من حين لآخر لتفقدها وترتيبها، وحدثني من شاهدها إذ ذاك أنها دار ذات بيوت ومخابع كاملة، محاطة بالمساطير الخشبية من أعلى الحائط إلى أسفله، مملوءة كتبًا."[٨٤] وهذا ما دفع أحد الكتاب الفرنسيين إلى القول: "إذا كانت قد كثرت المؤلفات العلمية في خزانات كتب القصور الشريفة، فسيكون ذلك في عهد الحسن الأول بسبب ميله إلى العلوم والكيمياء".[٨٥]

وبسبب ميولات السلطان العلمية وتعلقه بعلوم الكيمياء ستصبح المكتبة السلطانية في عهده مكتبة متخصصة، تحتوي على أمهات المصادر والمراجع في هذا الفن بل والنوادر منه.[٨٦] وقد تجلت مظاهر الاهتمام بكتب هذا الفن لدى السلطان المولى الحسن في عدة أمور، منها: **أولاً**-أمره بطبع كتب الهندسة والكمياء وما يتعلق بهما، ومن ذلك أمره بطبع كتاب: تحرير أصول إقليدس لنصير الدين الطوسي في الهندسة كما تقدم. **ثانيًا**-مراسلته لعلماء عصره والشخصيات الأجنبية المرموقة بغية الحصول على ما جدّ من كتب، وقد بحث في أي مكان وبإلحاح عن المصنفات المرتبطة بالكيمياء، وذلك لشغفه بهذا العلم، وقد مكنته علاقاته الجيدة مع الملوك المصريين من أن يستعير المخطوطات المتعلقة بالكيمياء من الخزانة الخديوية، "وزودت المكتبة الملكية أيضًا بالمؤلفات المكتوبة باللغة الأجنبية، وخاصة الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية."[٨٧]

وقد شملت العناية الفكرية الحسنية أنواعًا من المكتبات وخزائنها؛ أهمها: الخزانات الملكية، والخزانات الوقفية، يقول المرحوم محمد المنوني: "حتى إذا جاء السلطان الحسن الأول تميز عصره باهتمام زائد بالخزانة المغربية في مبادرات تستوعب واجهتين مكتبيتين: خزائن القصور الملكية مع الخزائن الوقفية،

وقد كانت في الوقت ذاته-في الجملة سد فراغ المكتبات العامة"[٨٨]

(٢/٤) ١-الخزانات الملكية:

والتي كانت تتواجد بقصور فاس ومكناس ومراكش، فقد كان يوليها اهتماما عظيما، ويتابع أعمال ترتيبها، ويوظف الأكفاء من علماء حضرته لفهرستها وإحصائها. يقول المرحوم محمد العابد الفاسي في هذا السياق: "ولم تكن خزانته الملكية تنقص عن الخزانة المعروفة في القصور السلطانية، يعين لها بين الحين والحين من يضع لها فهارس منظمة ويتعهدها بالإصلاح، ويقتني لها الذخائر والنفائس من القديم والحديث، وقفت على عدة فهارس موضوعة للخزانة الحسنية الخاصة، وجميع محتوياتها من النادر الغريب الذي لا نعرف له الآن رواجًا"[٨٩]

وبين أيدينا نموذج أورده المرحوم محمد المنوني يوضح هذه العناية والاهتمام بخزائن الكتب، ومنها خزانة القصر السلطاني المعروف بقصر المدرسة بمكناس، حيث عين السلطان المولى الحسن أربعة من نخبة حاشيته، بغرض فهرسة المكتبة، وتصنيف موادها، وإحصاء عددها وإصلاح متلاشيها، وهم السادة: الوزير علي المسيفوي/ ابنه محمد بن علي المسيفوي/ الكاتب عبد الواحد المواز/ مولاي الطاهر البلغيتي.

ومما ورد في مراسلتهم في هذا الشأن: "أمر دام علاه وأعزّ أمره، وفتح على يديه وأبّد نصره، بتفقد خزانة العلم المولوية بمكناس ، وإحياء معالمها ومراسمها بردّ كل نوع إلى ما يناسبه من الأجناس، حفظا على العلوم وتنسيبها بالمناسب، وإتيانا بالجموح منها ورده من المهامه والسباسب، فكانت تضمنت ما تحلمه النوع الإنساني من تلك الأمانة، أغنت عن كل سمير وأنيس ونديم وجليس، بعد أن كان- دام علاه- نظر إليها نظر إشفاق، وأمر بما يكسبها غاية الانتظام والاتساق من التفقد وإصلاح الشؤون، ورد كل شارد إلى محله من جميع الفنون حتى لا تختلط الموضوعات بغير جنسها، وتنجلي غياهب تخمينها وحدسها، وعين لذلك بعض كتاب أعتابه، الملازمين لأبوابه، المتشرفين بخدمة جنابه، فلبوا أمره المطاع، وشرعوا في ذلك على حسب المستطاع، في خامس جمادى الثانية من عام خمسة وثلاثمائة وألف من هجرة خير البرية، عليه أزكى السلام، وأنمى التحية".[٩٠]

رتبت الخزانة حسب المواد، انطلاقًا من المصحف الشريف الذي تعددت نسخه وأشكاله، إلى الموضوعات العلمية، فشملت: كتب القراءات، والتفاسير والتصوف والحديث والفقه واللغة والنحو والأصول والتاريخ والأدب والطب والحساب والتنجيم والهندسة والتوقيت والمنطق. وقد أشهد على ذلك كله شاهدين من شهود مكناس المبرزين بتاريخ: ٥ جمادى الثانية ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٨م.[٩١]

(٢/٤) ٢-الخزانات الوقفية:

ويأتي على رأس هذه الخزانات؛ خزانة جامع القرويين، حيث تأتي في مقدمات المكتبات العامة الوقفية التي كان لها إسهام كبير في نشر المعرفة بالمغرب. وقد كان لسلاطينه عبر تاريخه الطويل اهتبال كبير بها، وعناية فائقة بمحتوياتها، وذلك منذ تأسيسها على يد السلطان أبي عنان المريني سنة (٧٥٠هـ). يقول المرحوم محمد عبد الحي الكتاني: " لما كان من رأي أبي عنان حب العلم وإيثاره، والتهمم فيه، والرغبة في انتشاره والاعتناء بأهله، انتدب بأن وضع هذه الخزانة وأخرج لها من الكتب المحتوية على أنواع العلوم، كعلوم الأديان والأبدان والأذهان واللسان، وغير ذلك من العلوم على اختلاف أنواعها، وعين لها قيم لضبطها، وذلك في جمادى الأولى سنة خمسين وسبعمائة، ولا زالت هناك إلى زمن السلطان أبي العباس أحمد الذهبي الشريف، فاهتبل بإحياء مكتبة القرويين اعتناء باهظا، وأدخل إليها من أضاف الكتب العربية والعلوم المفيدة ما يناسب عظمة ملكه وبهاء مجده."[٩٢]

وقد مرت هذه الخزانة عبر تاريخها الطويل بمحطات متعددة، بعضها مشرق وبعضها قاتم، ومن ذلك تعرض كتبها للتلاشي والضياع بسبب الإعارات، "فتذكر المصادر أن عدد الكتب تضاءل كثيرا، لأسباب منها: الإعارة التي كثيرا ما يترتب عنها فقدان الكتب".[٩٣] الأمر الذي استدعى تدخل السلطان المولى الحسن في عهده؛ فإنّه لمّا بلغ إلى علمه ما وصل إليه حال الخزانة من التغافل عن الاهتمام بها، وضياع كتبها بسبب الإعارات الكثيرة، وتلاشي أوراقها، أصدر أمره للقاضي أبي العباس حميد بن محمد بناني والقاضي محمد بن محمد العلوي المدغري بضرورة البحث عن الكتب المفقودة وإصلاح المتلاشي منها، ومما ورد في الظهير: "وبعد: فلا يخفى عليكم ما كانت عليه خزانة الكتب التي بالقرويين من الضبط والصيانة والمقابلة والتعاهد، قد بلغ إلى علمنا الشريف أنّ أمرها استحال إلى ضياع وتفريط بسبب إهمالها وعدم الاهتمام بشأنها، ولأجله تعين إيقاظكم وتنبيهكم وحظكم على رد البال إليها وإجراء العمل فيها، على ما سنقرره لكم من الضوابط والفصول حتى تعود بحول الله إلى حالتها الأولى، وترجع إلى ما كانت من الصيانة وما أسسه السلف الصالح".[٩٤] وهذا الظهير إن دلّ على

شيء فإنما يدل على الاهتمام البالغ والحرص الشديد على متابعة شأن هذه الخزانة العامرة.

ولم يقتصر هذا الاهتمام من جانب السلطان المولى الحسن بخزانة القرويين على تنبيه أمناء الخزانات والمكتبات بضرورة الضبط والصيانة والإحصاء، بل كان يبادر بين الفينة والأخرى إلى تحبيس الكثير من الكتب على الخزانة المذكورة، ومن ذلك لما طبع كتاب: شرح الشيخ مرتضى الزبيدي على الإحياء في ثلاثة عشر جزءًا من الحجم الكبير، تسلم نحو ٢٠٠ نسخة منه، حبس نصفها على خزانة جامع القرويين."[٩٥] وكذلك تحبيساته الكثيرة، ووقفياته المتنوعة على خزانة ابن يوسف بمراكش وخزانة جامع المواسين بها كذلك، تدل على حركية الحياة الفكرية في عهده، وعلى بالغ اهتمامه بهذا الجانب، حيث حبس على الخزانتين المذكورتين نفائس من أمهات المصادر العلمية، وأصدر في هذا الشأن رسائله إلى كل من المحتسب عبد الله الوكيلي والقائد عباس ابن داود وناظر الأحباس الكبرى في حينه وقضاة الحضرة المراكشية بتاريخ: (١٢ قعدة ١٣٠٨هـ/١٨٩١م) وفيها ما نصه:

"وبعد: فلما كان التحبيس من السنة القائمة، والحسنات الدائمة، ومن إحياء معالم الدين، ونتائج عزائم المهتدين، شرح الله منا لمصلحته صدر الإلهام، وهو سبحانه ولي التوفيق وشامل الإنعام، فاقتضى نظرنا السديد، أن حبسنا جميع الكتب العلمية المسطرة أسماؤها تفصيلا بكناشي الحوالتين المطبوع عليهما بطابعنا الشريف، المدفوعين للقيمين على ذلك، المسجلة تلك الكتب على العلوم المقصودة والآتية على الخزانتين المباركتين، إحداها: خزانة جامع المواسين، والثانية: خزانة جامع ابن يوسف من هذه الحضرة المراكشية حرسها الله، وخصصنا كل واحدة منهما بما اشتملت عليه حوالتهما من الكتب المذكورة."[٩٦]

ومن الكتب التي حبسها على خزانة جامع المواسين:

- سبعة عشر نسخة من صحيح الإمام البخاري
- شرح القسطلاني على البخاري، أربع نسخ
- الشفا للقاضي عياض، ثمان نسخ
- الشمائل للترمذي، خمس نسخ
- شرح الزرقاني على الموطأ، سبع نسخ
- شرح الخرشي على مختصر خليل، سبع نسخ
- شرح الدسوقي على تحفة ابن عاصم ثمان نسخ
- شرح ميارة الصغير على المرشد المعين أربع عشرة نسخة
- شرح الأزهري على الموضح ثمان نسخ
- شرح المكودي على الألفية سبع عشر نسخة
- شرح الأزهري على الأجرومية خمس وعشرون نسخة
- شرح الصبان على الأشموني سبع نسخ
- حاشية البناني على جمع الجوامع خمس نسخ.[٩٧]

والمعين لخزانة جامع ابن يوسف قسمتان مثل ما ذكر بالثنية، لكون جملة الكتب المحبس المذكور جعلتا القسمة فيها أثلاثا، فالثلث الواحد لخزانة جامع المواسين، والثلثان الاثنان للجامع الثاني. فحبست هذه الكتب على الخزانتين المذكورتين تحبيسا مؤبدا، ومما جاء في تتمة نص التحبيس: أن الكتب السالفة حبست " تحبيسا مؤبدا، لا يباع ولا يوهب ولا يورث ولا يفوت بوجه من الوجوه، قد شيدنا أركان حكمه على قاعدتهم المؤسسة، ونظمناها به في سلك نظائرها ومن دفاترنا المحبسة، اقتفاء لسير أسلافنا الكرام واقتداء بسنة النبي وأصحابه عليه السلام، وسعيا في نشر العلم الذي هو من الحسنات الجارية، والأجور الوافية، وقصدنا بذلك انتفاع طلبة العلم الشريف".[٩٨]

ومن الرسائل الدالة على رعايته لخزانات الوقف استفساره لمحتسب مكناس الحاج محمد العربي أجانا عن خزانة الجامع الكبير بمكناس، وهذا نص سؤال السلطان الدال على عظيم الاهتمام بخزائن هاته الكتب الوقفية، ومتابعته الدقيقة لتفصيلاتها: "هل لا زالت الكتب مصونة كما كانت؟ ومن القائم بها؟ وهل لها كناش؟ وعند من هو؟[٩٩] ومن دليل عنايته واهتمامه أنه لم يكن يمر في أسفاره بمكتبة زاوية أو خزانة جامع إلا دخلها، "وربما انتخب منها ما يهوى-رحمه الله- "[١٠٠] وزودها بما يلزم من الكتب. ومن هذا ما أورده الناصري في الاستقصا عن دخول المولى الحسن إلى المسجد الأعظم بمدينة سلا بقوله: "ودخل السلطان-أعزه الله- خزانة الكتب العلمية بالمسجد المذكور وتأملها، ومعه يومئذ شيخنا الفقيه العلامة القاضي سيدي أبو بكر بن محمد بن عواد. فطلب من السلطان -أيده الله- أن يزيد في شراء الكتب للخزانة المذكورة ، فأذن له بأن يشتري من ذلك ما ثمنه نحو مائة ريال، ففعل وهي يومئذ بالخزانة المذكورة."[١٠١]

خَاتِمَةٌ

بعد هذه الجولة الفكرية في حقبة هامة من تاريخ المغرب وسلطانه حينها الحسن بن محمد بن عبد الرحمان، نسجل أن الاهتمام الفكري في حياة هذا السلطان لم يأت من فراغ، بل أتى نتيجة جهد تربوي وتكوين علمي متين خضع له منذ صباه على يد كبار علماء عصره، وبإشراف مباشر من جده وأبيه، الشيء الذي ظهر أثره في شخصيته ومسيرة حكمه. ومن ثم فإن فترة حكمه- فيما يخص الجانب العلمي والحركة الفكرية- كانت غنية وثرة، عمل السلطان الحسن على إغنائها، وإثرائها ودعمها، وتبنى الكثير من قضاياها ومجالاتها، وحرص على متابعة شؤونها، وإصدار الظهائر السلطانية الخاصة بها. نتيجة لما تقدم فإن الاهتمامات الفكرية في حياة هذا السلطان اتسمت بكثير من الحرية والانفتاح والتنوع، تجلى ذلك في مجالسه العلمية التي كانت حلبة للنقاش الفكري، وبساطا لعرض الآراء والمذاهب المختلفة في جو يتسم بالحرية الفكرية وقبول الاختلاف.

وتجلى هذا الاهتمام -أيضًا- في اهتباله الشديد بخزائن الكتب والمكتبات وحرصه على تزويدها بين الفينة والأخرى بأمهات المصادر والمراجع؛ كما تجلى في شغفه بالمعارف عموما، وبالعلوم الكيميائية والرياضية خصوصًا، ظهر أثر ذلك في تعلقه الشديد بوسائل هذه العلوم، وحرصه على اقتناء مصنفاتها وما ألف فيها بل وأمره لطبع الكثير منها، وعلى رأسها: كتاب: تحرير أصول إقليدس في الهندسة، لنصير الدين الطوسي (ت: ٦٧٢هـ). وتبقى مسألة البعثات الطلابية إلى الدول الأوروبية أهم تقدم فكري وإنجاز إصلاحي شهده عصر السلطان الحسن الأول، بغض النظر عما اكتنفها من ملابسات وإشكالات في نتائجها.

الاحالات المرجعية:

(١) التازي، عبد الهادي. **جامع القرويين: المسجد والجامعة بمدينة فاس**، دار نشر المعرفة، الرباط، ط٢، ٢٠٠٠م (٣/٧٧٣).

(٢) ابن زيدان، عبد الرحمان. **إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م (٢ / ١٤٥).

(٣) **قبيلة بني أحمر، أو أولاد أحمر**: تقع مجالاتها غرب مدينة مراكش، يخترق أرضها وادي تانسيفت؛ من مراكزها الشماعية واليوسفية. انظر: **معلمة المغرب** (١/ ١٧٧).

(٤) **مدرسة الأمراء بالشماعية**: أسسها السلطان سيدي محمد بن عبد الله (١١٧١-١٢٠٤ ه/ ١٧٥٧-١٧٨٩م) لتعليم أولاده وأحفاده، فكانت مركزا لتعليم الأمراء ومرافقيهم القرآن الكريم ومختلف العلوم والفنون ، ويرجع سبب تشييدها في قبيلة بني أحمر ما أورده الأستاذ محمد المختار السوسي على لسان الباشا إدريس منو:" أن السلطان خرج مرة في معسكره يتجول متنكرا ليلا، فشاهد حول فسطاط ما أعجبه من المروءة وقراءة القرآن بكثرة، فسأل عن صاحب المقرأة، وأحسب أن اسمه: هد بن الضو، وفي الصباح أمر بعرض القبائل عليه، حتى وصل الحميريين، فظل يسأل عن مشاهير قبيلتهم، فيتقدم إليه رؤساء جهال، فقال أين فلان؟ فتقدم إليه، فقال: أنت أولى بالتقدم على الجميع، أسعد الله بك قبيلتك، فقد وليتك فيها، ثم قال له: أحب أن تنظر لي مكانا أشيد فيه دارا ليتعلم فيها أولادي بين ظهرانيكم، لما أعجبني من سمتكم ومحبتكم لحفظ القرآن، قال: فذلك هو السبب حتى صار أولاده ثم أحفاده يتعلمون هناك." انظر: السوسي، محمد المختار. **حول مائدة الغذاء**، مطبعة الساحل، الرباط، بدون تاريخ، ص ٢٤.

(٥) ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس** (١٤٥/٢) مرجع سابق.

(٦) الوكيلي، محمد التهامي." **جلالة السلطان مولاي الحسن الأول**"مجلة **دار النيابة**، سنة ١٩٨٩عدد ٢٢ ص ٤٢.

(٧) ابن زيدان، عبد الرحمان. **النهضة العلمية على عهد الدولة العلوية**. تحقيق: مصطفى الشابي، تقديم: عبد الحق المريني، المطبعة الملكية، الرباط، ٢٠١٦- ١٤٣٧ ص ٢٦١.

(٨) بنبين، أحمد شوقي. **تاريخ خزائن الكتب بالمغرب**، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط ١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م ص ١٠٥.

(٩) المشرفي، محمد. **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ط ٢، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٨م، ص ٤١٩.

(١٠) اللجائي، عبد السلام. **المفاخر العلية والدرر السنية في الدولة الحسنية العلوية**، دراسة وتحقيق: محمد الدريدي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ط ١، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م (٢/ ٥٣٥).

(١١) السباعي، محمد بن إبراهيم، **البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن في عد بعض مآثر مولانا الحسن**، مخ: لوحة رقم: ٦٣.

(١٢) المشرفي، **الحلل البهية** ص ٤٤٠ مرجع سابق.

(١٣) ابن زيدان عبد الرحمان، **النهضة العلمية على عهد الدولة العلوية**، تحقيق: مصطفى الشابي- تقديم: عبد الحق المريني، المطبعة الملكية، الرباط، ط ٢٠١٦-١٤٣٧ ص ٢٦١.

(١٤) **ألف الفقيه العلامة** عبد الله بن عبد السلام الفاسي الفهري المتوفى سنة ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م. كتاب: **المسك البهي الحسن**

في بعض ما كان يحسنه من العلوم مولانا الحسن، تكلم فيه على ما يحسنه السلطان مولاي الحسن من العلوم، انظر: الدباغ محمد بن عبد العزيز" **فصلة من مشروع ببليوغرافية مغربية حول الحسن الأول قدس الله روحه** "مجلة **دعوة الحق**، العدد ٣٣١ جمادى: ١، ١٤١٨/ أكتوبر ١٩٩٧ م، ص ١١٧.

(١٥) بن تاويت، محمد." **الدولة العلوية والحركة العلمية**"مجلة **رسالة المغرب** العدد ١٣٤ نوفمبر ١٩٥١ ص ٣٦.

(١٦) ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس**، (٥٤٣/٢).

(١٧) معنينو أحمد." **تكوين الأطر في عهد الحسن الأول**"مجلة **دعوة الحق**، العدد، ٤، السنة ١٢ ذو الحجة ١٣٩٨هـ - ١٩٦٩م ص ١٧٨.

(١٨) معريش، محمد العربي، **المغرب الأقصى في عهد السلطان الحسن الأول**، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط ١، ١٩٨١م ص ١٥٢.

(١٩) المنوني، **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، (١٦٦/١) دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٩٨٥م.

(٢٠) انظر: ابن زيدان، عبد الرحمان. **العز والصولة في نظام معالم الدولة**، المطبعة الملكية، الرباط، ١٣٨١-١٩٦١(١٥٠/٢).

(٢١) التازي، عبد الهادي. **التاريخ الديبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم**، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٨٦، ص٢٠١٥.

(٢٢) ابن زيدان، عبد الرحمان. **النهضة العلمية على عهد الدولة العلوية**. ص ٢٦١.

(٢٣) المنوني، **مظاهر يقظة المغرب الحديث** (١ / ١٧٤).

(٢٤) العروي، عبد الله. **الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية ١٨٣٠-١٩١٢**، تعريب: محمد حاتمي، محمد جادور، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠١٦ ص ٣٩٣.

(٢٥) ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس** (٢/ ٥٤٤).

(٢٦) ابن زيدان، **العز والصولة** (١٥٠/٢).

(٢٧) حيمر، جمال. **البعثات التعلمية على عهد السلطان مولاي الحسن**، منشورات الزمن، الرباط، ط ٢٠١٥ ص 90.

(٢٨) قضت هذه البعثة أقصر مدة زمانية في تكوينها إذا ما قورنت بالبعثات الأخرى المرسلة إلى إيطاليا وإسبانيا حيث استغرقت مدة كل منهما نحو تسع سنوات، بينما طالت البعثة الألمانية نحو اثني عشرة سنة" انظر: خالد بن الصغير، **المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (١٨٥٦-١٨٨٦)** ص ٤١٩.

(٢٩) السكيرج، عبد الغني." **مذكرة الزبير السكيرج (١٨٥٠-١٩٣٢) وثيقة جديدة حول البعثات الطلابية إلى أوربا في عهد المولى الحسن**"**مجلة دار النيابة**، السنة الثانية، العدد الثامن، خريف ١٩٨٦ ص ٢٩.

(٣٠) حيمر، جمال. **البعثات التّعليمية على عهد السلطان مولاي الحسن** ص ٩١.

(٣١) ابن زيدان، **العز والصولة في نظام معالم الدولة** (١٥٠/٢).

(٣٢) سيمو، بهيجة. **العلاقات المغربية الإيطالية ١٨٦٩-١٩١٢**، الدار البيضاء، اللجنة المغربية للتاريخ العسكري، ٢٠٠٣، ص ٣٠٨.

(٣٣) بولحية، **البعثات التعليمية في اليابان والمغرب: من أربعينيات القرن التاسع عشر حتى أربعينيات القرن العشرين، تباين المقدمات واختلاف النتائج** ص ٤٠١.

(٣٤) حيمر، جمال. **البعثات التعليمية على عهد السلطان مولاي الحسن** ص ٩٩.

(٣٥) **البعثات التعليمية في اليابان والمغرب: من أربعينيات القرن التاسع عشر حتى أربعينيات القرن العشرين، تباين المقدمات واختلاف النتائج** ص ٤١٣.

(٣٦) ابن زيدان، **العز والصولة** (٢/ ١٥٠).

(٣٧) ابن زيدان، **العز والصولة** (٢/ ١٥١).

(٣٨) المريني، عبد الحق." **الدروس الحسنية الرمضانية: أصالتها ومميزاتها** "مجلة **دعوة الحق**، الرباط، عدد ٤١٢، السنة السابعة والخمسون، رمضان ١٤٣٦ يونيو ٢٠١٥ ص ١١.

(٣٩) الهاشمي البلغيتي، آسية. **المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية الشريفة**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ط ١، ١٤١٦هـ ١٩٩٦م (١٧٧/٢).

(٤٠) ابن زيدان، **العز والصولة** (١٧٧/١).

(٤١) الكتاني، يوسف. **مدرسة صحيح الإمام البخاري في المغرب**، دار لسان العرب، بيروت، (٣٩١/١).

(٤٢) الإلغي، رضى الله إبراهيم." **عناية الملوك المغاربة بالحديث الشريف** "مجلة **دعوة الحق**، الرباط، العدد الرابع، السنة العاشرة، ذو القعدة ١٣٨٦هـ مارس ١٩٦٧م ص ٣٧.

(٤٣) ابن زيدان، **العز والصولة** (١٧٧/١).

(٤٤) ابن زيدان، **العز والصولة** (١٧٨/١).

(٤٥) الفاسي، عبد الحفيظ، **المدهش المطرب**، دار الكتب العلمية، بيروت، صححه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد المجيد خيالي، ط ١، ٢٠٠٣ ص ٢٠١.

(٤٦) نفسه، ص٢٠١.

(٤٧) ابن سودة، **سل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال**، تحقيق: محمد حجي دار الغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، بيروت الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م ص ٦٤.

(٤٨) الفاسي، **المدهش المطرب**، ص٢٠١.

(٤٩) الفاسي، علال. **اهتمام العلويين بحفظ القرآن الكريم**، مجلة دعوة الحق، الرباط، العدد ٤، السنة ١١ ذو القعدة ١٣٨٧هـ فبراير ١٩٦٨، ص٢١.

(٥٠) ابن زيدان، **العز والصولة** (١٨٣/٢).

(٥١) الناصري، **الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى** (١٥٢/٨).

(٥٢) نفسه (١٨٣/٢).

(٥٣) قال المرحوم محمد المختار السوسي في حقه: "عالم متمكن، مدّرس، أخذ من فاس، ثم كان ينوب عن أبيه ما شاء الله، ثم تولى القضاء بعد أبيه، وكان يدرس، ويدوم على ذلك، وهو أدمث أهله خلقا، وألينهم عريكة" انظر: السوسي، محمد المختار، **خلال جزولة**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠١٥، (١٦٦/٢).

(٥٤) بنشريفة، محمد. **حول تاريخ الطباعة العربية في المغرب العربي خلال القرن التاسع عشر**، أعمال ندوة: **تاريخ الطباعة العربية حتى نهاية القرن التاسع عشر**، ٢٨-٢٩ جمادى الأولى ١٤١٦ /٢٢-٢٣ أكتوبر١٩٩٥م، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث- دبي، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط ١، ١٩٩٦ ص ٢١١.

(٥٥) ملخص مضمون العقد: أن يقدم السيد القياني برفقة القاضي الروداني إلى مدينة " رودانة" بأرض المغرب، ويشتغل عنده في هذه المطبعة الحجرية مدة سنة كاملة، تبتدئ من ربيع الأول سنة ١٢٨١هـ وتنتهي في صفر الخير سنة: ١٢٨٢هـ، في مقابل ذلك يتحمل السيد الروداني للطبيع المصري بأن يقوم بلوازمه في مأكله ومشربه وملبسه على طبق مراد هذا الأخير، وفي كل شهر ينفذه مائتي قرش مصري خالص لجيبه، وفي حالة ما إذا انتهت السنة المذكورة وأراد المصري العودة لوطنه فإن القاضي الروداني يرحله على نفقته إلى بلاده. وقد تم تحرير هذا العقد في يوم الأربعاء ١٤ ربيع الأول

سنة ١٢٨١هـ. انظر: المنوني، **مظاهر يقظة المغرب الحديث** (١/٢٦٢).

(٥٦) بنشريفة، محمد. **حول تاريخ الطباعة العربية في المغرب العربي خلال القرن التاسع عشر، ص** ٢١٣.

(٥٧) فوزي، عبد الرزاق. **المطبوعات الحجرية بالمغرب، فهرس مع مقدمة تاريخية**، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع،١٩٨٩ م ص ٩.

(٥٨) بنشريفة، **حول تاريخ الطباعة العربية في المغرب العربي خلال القرن التاسع عشر**، ص ٢١٣.

(٥٩) فوزي، عبد الرزاق، **المطبوعات الحجرية بالمغرب** ص ٩.

(٦٠) كان المخزن يزود المطبعة بالمواد الضرورية لسير أعمالها، من المداد والأحجار، والماء القاطع، والورق وغير ذلك، وكانت معظم هذه المواد تجلب من جبل طارق. أنظر: الكنوز لطيفة، **الطباعة والنشر بالمغرب ١٢٨٢-١٣٧٦هـ/ ١٨٦٥-١٩٥٦م**، دار أبي رقراق للنشر والتوزيع، الرباط، ط ١، ٢٠١٤ ص ١٢٢

(٦١) المنوني، **مظاهر يقظة المغرب الحديث** (٢/ ٢٦٩)

(٦٢) الفاسي، محمد العابد، **الخزانة العلمية بالمغرب**، مطبعة الرسالة، الرباط، ط ١٩٦٠ص ٧١

(٦٣) هذا ما يؤكده ظهير سلطاني أصدره السلطان لابنه وخليفته المولى الحسن جوابا عن وصول ثمن ما بيع من نسخ شرح الشيخ محمد التاودي على تحفة ابن عاصم، ونصه بعد الحمدلة والصلاة: ولدنا الأرضى سيدي حسن أصلحك الله، سلام عليك ورحمة الله وبركاته، وبعد: فقد وصلنا كتابك تذكر فيه أنك وجهت ١٦,٢٢٥ ست عشر مائة مثقال واثنين وستين مثقالا وخمس أواقي، ثمن نسخ ٣٠٠ شرح التاودي للتحفة التي وجهنا لك، بحسب إحدى وثمانين أوقية صغيرة وثلاثمائة أثمان لكل نسخة، وبينت ما حيز ١٧٦منها لجانب الأحباس، وما بيع ٢٥ على يد الأمناء، وما في الثمن المذكور من ريال ٥١١ والدراهم حسبما هو مفصل في نفولة [بطاقة] الأمين التي وجهت، فقد وصل الجميع وحل محله، والله يرعاك، والسلام. في: ٢٠صفر الخير ١٢٨٦هـ" انظر: ابن زيدان، عبد الرحمان. **الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة**، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٨، ص ٩٠

(٦٤) عياش، جرمان. **دراسات في تاريخ المغرب**، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٨٦ ص ١٣٨

(٦٥) فوزي، عبد الرزاق. **مملكة الكتاب: تاريخ الطباعة في المغرب ١٨٦٥-١٩١٢** تعريب: خالد بن الصغير، مطبعة النجاح الجدية، الدار البيضاء، ط ١٤١٦-١٩٩٦ ص ١٥٨

(٦٦) الكنوز، لطيفة. **الطباعة والنشر بالمغرب ١٢٨٢-١٣٧٦هـ/ ١٨٦٥-١٩٥٦م** ص ١٢٦

(٦٧) فوزي عبد الرزاق، **مملكة الكتاب** ص ٢١٤

(٦٨) المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث (١/٣٠٩)

(٦٩) نفسه، (٢/٣٠٤)

(٧٠) فوزي عبد الرزاق، **مملكة الكتاب** ص ١٦٢

(٧١) نفسه، ص ١٦٢.

(٧٢) وهذا ما تؤكده المصادر التاريخية والمراسلات التي كانت بين العلامة أحمد بن زيني دحلان والسلطان المولى الحسن في شأن هذا الكتاب، أنظر: المنوني، **المظاهر** (١/٣٠١).

(٧٣) الكتاني، محمد عبد الحي، **تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب**، ضبط وتعليق: أحمد شوقي بنبين- عبد القادر السعود، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ط ١، ١٣٣٤-٢٠١٣ ص ٢٣٨

(٧٤) انظر نماذج أخرى من المطبوعات في: **مظاهر يقظة المغرب الحديث** (١/٢٨١)

(٧٥) ابن زيدان، **النهضة العلمية على عهد الدولة العلوية**، ص ٢٦١

(٧٦) المنوني، محمد. **تاريخ الوراقة المغربية: صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط ١، ١٩٩١ ص ٢٣٤

(٧٧) بنبين، أحمد شوقي. **تاريخ خزائن الكتب بالمغرب** ص ٢٢٢

(٧٨) ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس**، (٢/١٤٦)

(٧٩) المنوني، **تاريخ الوراقة المغربية** ص ٢٤٢

(٨٠) الكتاني، **تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب** ص ٢٣٩

(٨١) المنوني، **تاريخ الوراقة المغربية**، ص ٢٥٣

(٨٢) المنوني، محمد. **تاريخ الخزائن الملكية بالمغرب الأقصى**، **مجلة دعوة الحق**، العدد: ٢٢٨ جمادى الثانية-رجب ١٤٠٣هـ/ أبريل ١٩٨٣ ص ١٤

(٨٣) المنوني، محمد. **دور الكتب في ماضي المغرب**، تقديم أحمد شوقي بنبين، منشورات الخزانة الحسنية، الرباط، ط ١، ٢٠٠٥، ص ٩٢

(٨٤) الكتاني، محمد عبد الحي. **تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب** ص ٢٣٩

(٨٥) بنبين، أحمد شوقي. **تاريخ خزائن الكتب بالمغرب**، ص ١٠٥

(٨٦) مما احتوت عليه الخزانة السلطانية في فن الكيمياء، كتاب: الوافي بتدبير الكافي، بنص عربي بحروف عبرية، وهو نص مجهول في أوربا، انظر: أحمد شوقي بنبين، **تاريخ خزائن الكتب بالمغرب** ص ١٠٦

(٨٧) نفسه ص ٩٧

(٨٨) المنوني، محمد. **الخزانة المغربية في عهد السلطان الحسن الأول**، **مجلة المناهل**، عدد: ٣٨ السنة الخامسة عشرة، جمادى الأولى ١٤١٠، دجنبر ١٩٨٩ ص ١٠

(٨٩) العابد، محمد الفاسي. **الخزانة العلمية بالمغرب**، ص ٥٩

(٩٠) المنوني، محمد. **الخزانة المغربية في عهد السلطان الحسن الأول**، **مجلة المناهل**، عدد: ٣٨ ص ١٠

(٩١) نفسه ص ١٠

(٩٢) الكتاني، محمد عبد الحي. **ماضي القرويين ومستقبلها**، تحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٦ ص ٢٧

(٩٣) العريش، محمدالعربي. **المغربي الأقصى في عهد السلطان الحسن**، ص ١٦٨

(٩٤) الفاسي، محمد العابد، **الخزانة العلمية بالمغرب** ص ٧٣

(٩٥) ابن زيدان، **الدرر الفاخرة** ص ١٢١

(٩٦) المنوني، **الخزانة المغربية في عهد السلطان الحسن الأول**، **مجلة المناهل**، عدد: ٣٨ ص ٢٠

(٩٧) انظر تتمة اللائحة من الكتب المحبسة في: المنوني، **الخزانة المغربية في عهد السلطان الحسن الأول**، **مجلة المناهل**، عدد: ٣٨ ص٢٠

(٩٨) المنوني، **الخزانة المغربية في عهد السلطان الحسن الأول**، **مجلة المناهل**، عدد: ٣٨ ص٢٠

(٩٩) نفسه، ص١٣.

(١٠٠) الكتاني، محمد عبد الحي، **تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب** ص٢٤٠

(١٠١) الناصري، **كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** (٨/١٧١)

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الرؤية الاستشراقية للواقع المغربي
كتاب كرستيان هويل "مغامراتي المغربية" نموذجًا



د. عبد السلام بوطافي
خريج شعبة التاريخ
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – سايس
فاس – المملكة المغربية

مُلَخّص

تناقش هذه الدراسة قضية الالتزام والمفارقة في كتاب كرستيان هويل "مغامراتي المغربية". الالتزام بنقل الواقع المغربي، كما رآه، والمفارقة المتجلية في قراءته الاستشراقية لهذا الواقع. والكتاب عمومًا عبارة عن ثمرة لزواج جمع بين الصحافة والتاريخ والاستشراق. إلا أن كرستيان هويل لم يستطع الانعتاق من إسار الرؤية الاستشراقية، فقد انطلق من نماذج كان قد تم وضعها من قبل في سياق تميز باختلال موازين القوى بين الشرق والغرب، وأدى إلى إنتاج خطاب ورؤية خاصة بالشرق هي وليدة تلك العلاقة غير المتكافئة. نماذج انطلق منها ليبرر احتلال المغرب بشكل عقلاني مستغلاً ظرفية تاريخية مطبوعة بالصدام بين الغرب والشرق، نتج عنها لقاء دام وعنيف جرت أحداثه على أرض المغرب. وقد جاءت عناوين محاور الدراسة راصدة للرؤية الغربية النمطية للمغرب خاصة وللشرق عامة، ولأطاريحها المبررة للسيطرة عليه، وكانت كالتالي: أطروحة الاستشراق الجنسي؛ الاستبداد الشرقي؛ أطروحة الفوضى المغربية؛ أطروحة التحقير. وتوصلت الدراسة إلى أن الرؤية الاستشراقية ذات المنحى الإمبريالي في كتاب هويل كرستيان المغامر والمثقف، والصحفي، واضحة كل الوضوح، تجلت في كونه لم يعر أدنى اهتمام للمعايير الإنسانية والقيم الأخلاقية، ولم يبد أدنى تعاطف مع المغاربة في محنتهم، وكان منذ البداية على وعي تام بجغرافية وتضاريس الأرض الفكرية التي كان عليها يتحرك، ومنها كان يدير دفة السرد.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٣ مارس ٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر: ٢٤ مارس ٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

الاستشراق الجنسي؛ الاستبداد الشرقي؛ الفوضى المغربية؛ أطروحة التحقير؛ الشعوب الشرقية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.231848

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد السلام بوطافي. **"الرؤية الاستشراقية للواقع المغربي: كتاب كرستيان هويل "مغامراتي المغربية" نموذجًا".**- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثاني والخمسون؛ يونيو ٢٠٢١. ص ١٥٤ – ١٦٩.

Corresponding author: abdesselamb5@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تقدم مذكرات كرستيان هويل[١] "مغامراتي المغربية" تأريخًا مصاحبًا للأحداث، واستنباطًا لها من الداخل، باعتبار صاحبها شاهدًا مشاركًا. هذه الشهادة/ النص سنحاول اختراق بنيتها السطحية لاستكشاف تدفق النسغ الاستشراقي/ الاستعماري في جذورها، بوصف الاستشراق معرفة/سلطة غايتها تكريس الهيمنة والسيطرة الأوروبية على الشرق، ولنرى كيف تتحول المعرفة/معرفة الآخر إلى مجرد إنتاج يبغي ببساطة تبرير الهيمنة وإعادة الصياغة والاستحواذ[٢].

إن البحث عن المضمر والمخفي في النص الذي وضعه هويل عن المغرب، والذي هو عبارة عن وصف واستنباط من الداخل لوقائع وأحداث تاريخية كان فيها مشاركًا وشاهدًا، يقتضي منا طرح عدد من الأسئلة ستكون بمثابة نبراس نهتدي على ضوئه لاستخراج المبررات والحجج التي استعملها المؤلف لتبرير التدخل الفرنسي بالمغرب، ونرى كيف تقاطع هذا النص مع نصوص أخرى، انطلقت من وقائع تاريخية لتؤسس لخطاب يبرر الهيمنة السياسية والاقتصادية والثقافية على الشرق.

ويمكن أن نصيغ هذه الأسئلة على الشكل التالي: ما مدى انعكاس هيمنة أنا المستعمر/الصوت الواحد على نقل الوقائع وتمثلها من طرف المؤلف؟ وما مدى تفاعل هذا الأخير مع سياقه التاريخي والثقافي؟ هل حجب عنه رؤية الآخر رؤية موضوعية بنظرة إنسانية متفهمة؟ هل استطاع تجاوز الصورة النمطية للإنسان المغربي/ الأهلي؟ تلك الصورة التي ألغت إنسانية هذا الأخير، هل كان هويل يرسم لوحة واقعية، من موقعه كمشاهد ومراقب، للمغرب؟ أم كان يصف لنا صورة مستمدة من تمثلات الغربيين حول الشرق، صورة رسخت في ذهنه عن وعي أو غير وعي من خلال قراءاته عن الشرق/المغرب. وختاما يمكن أن نتساءل عن مدى نجاح هويل في التعبير كممثل للمؤسسة الإعلامية الفرنسية عن مطامح القوى الرأسمالية الكبرى المهيمنة وقتئذ في السيطرة على اقتصاديات المجتمعات البدائية/ المتخلفة.

أولاً: الاستشراق الجنسي

يقدم هويل المغرب في صورة مكان للشبق الجنسي المشوب بالعنف والسيطرة، فحين اشتد الحرمان الجنسي بأنصار المولى عبد الحفيظ، الذي انشق عن أخيه السلطان المولى عبد العزيز ودخل في صراع معه حول العرش، وهم في رحلتهم انطلاقا من مراكش نحو العاصمة فاس، ولأنه لم يكن مسموحًا لأحد باصطحاب نسائه سوى السلطان، فقد ارتأى أحد قادة الرحى المتزوج حديثًا استدعاء زوجته للالتحاق بمحلة السلطان قادمة من مدينة مراكش، ولم تكن المحلة قد ابتعدت عن المدينة لتعسكر ببلدة لا تبعد سوى بأقل من كيلومتر واحد، وكان الرجل قد أعد لاستقبالها خيمة صغيرة، محكمة الإغلاق، ألحقها بخيمته الرسمية، وكان يبدو عليها مظاهر الجدة، مما يعني أنها لم تستعمل من قبل.[٣]

هذه الخيمة الصغيرة الأنيقة التي عدت لمطارحة الغرام الحلال بين الزوج وزوجته لمدة يومين أو ثلاثة، أي خلال المدة الزمنية المرجح للمحلة أن تقضيها في محطتها الأولى هذه قبل أن تنطلق في رحلتها نحو العاصمة فاس، كانت وراء اكتشاف هويل لفجور جنسي، وذلك حين عبر قايد الرحى لهويل عن مخاوفه من تعرض عروسه الشابة لمخاطر الطريق حين استبطأ مجيئها، وأمام تنامي قلقه عليها و إبدائه التوجس من تعرضها لمكروه ما أثناء الرحلة، وإسراره لهويل بمخاوفه، ومع ظهورها في اليوم الرابع، سعى هذا الأخير إلى استخدام حسه الاستخباراتي، واستغلال قربه من الدائرة العُليا المقربة من المولى عبد الحفيظ لاستجلاء الحقيقة ومعرفة ما تعرضت له الزوجة الشابة خلال الثلاثة أيام الماضية، فعلم بتعرضها، عند وصولها للمحلة، للاحتجاز من طرف الباشا المدني الكلاوي بخيمته لمدة ثلاث ليال، من أجل إشباع نهمه وحرمانه الجنسي، ثم بعد ذلك أطلق سراحها لتلتحق بزوجها.

يعطي هويل تفسيرًا لهذه الظاهرة، بإيجاد تماثل لها في ثقافته الغربية، في كون القياد والباشوات باعتبارهم حكاما فيوداليين فإن لهم "حق التفخيد"، وللأسف لم يحدثنا هويل عن موقف الزوج المغبون من الحادث، وهل علم أصلا بالأسباب الحقيقية لتأخر زوجته، والملاحظ أن هويل لم يبد اهتماما بذلك لأنه كان يرى في المغرب فضاء لممارسة الفجور الجنسي، فقد أشار قبل تطرقه للحادثة المشار إليها هاهنا إلى جود مجموعة من التجار وأخرى من المومسات تسير خلف محلة المولى عبد الحفيظ هدفها إشباع الرغبات المحرمة، ولم يكن يغشى هذه الأماكن المشبوهة سوى صغار الجند في الوقت الذي اعتبر التردد عليها وصمة عار وتلطيخا للشرف في حق كبار الشخصيات، وربما كان هذا هو الدافع الذي جعل الكلاوي المدني يقبل على فعلته الشنيعة للتنفيس عن رغباته المكبوتة وعن حرمانه الجنسي.

ينجح الكاتب هنا في دمج تمثلين للغرب عن الشرق والقرن بينهما ممثلين في الاستبداد/ القهر والشهوانية، كما ساهمت الحادثة في انطلاق غريزة الهتك لدى الكاتب، فالخيمة الصغيرة

الأنيقة المحكمة الإغلاق، التي كانت بمثابة حريم مصغر، مثلت دافعا رئيسيا لهويل في الجري وراء تفاصيل الحدث لهتك أسراره وفضحها، لنجد أنفسنا أمام حالة من حالات السعار الجنسي الملتهب، التي اندلعت حرائقها بجسم الباشا بنفس القدر إن لم نقل أكثر في مخيلة الكاتب المتلصصة لأنه "كلما زاد الحجاب سماكة ازدادت الرغبة في التلصص والهتك وانطلقت المخيلة من عنانها أكثر فأكثر"[٤] فقد استرعت اهتمامه المرأة المصونة أكثر مما استرعته المرأة/المومس المستباحة العرض التي كانت تضج بها مؤخرة المحلة "كان هناك بالفعل في المعسكر مجموعة من البغايا المختلطات بالتجار الذين كانوا يتبعوننا"[٥] لأنه ببساطة كان يبحث في الشرق، الذي هو ها هنا المغرب الأقصى، عن اللذة المقرونة بخرق المحظورات أي عن الرغبة الآثمة، كما كان يبحث عن نموذج المرأة كما في المتخيل الغربي، أي تلك المرأة التي تنوس بين الرغبة والشفقة[٦]، الشرقية/ المغربية المضطهدة التي يتعامل معها الرجل الشرقي كأداة جنسية لتلبية رغباته المكبوتة، دونما اعتبار لمشاعرها.

حاول هويل بلغة مجازية بليغة في تلميحات رمزية أن ينقل للقارئ صورة من صور القهر الجسدي الممارس على الأنثى، من خلال وصفه للخيمة الصغيرة المحكمة الإغلاق الملحقة بخيمة قايد الرحى، الأمر الذي أثار استغرابه وتساؤلاته، فجاءه الجواب في غير مواربة بأنه يريد استقبال عروسه الشابة ليطارحها الغرام مدة إقامة المحلة بهذه المحطة الأولى القريبة من مدينة مراكش، لتعود المرأة أدراجها إلى نفس المدينة عند انطلاق المحلة، فهذا الحريم المصغر الممتنع عن الأعين المتلصصة، رآه الكاتب كنوع من أنواع القهر للجسد الأنثوي، ثم انطلق بعد ذلك يبحث عن قهر آخر سوف يمارس على الفتاة، قهر جنسي مرفوق بالاحتجاز سيمارسه الباشا، والذي لم يثر استغرابه إلا قليلا مادام قد وجد له مسوغا استنادا على ثقافته الغربية باعتباره حقا من حقوق الباشا، الذي تتيحه له القوانين والأعراف الفيودالية باسم "حق التفخيد"[٧].

ولأنه في المجتمعات الشرقية كلما ارتفعت مكانة الرجل الاجتماعية كلما ضربت حراسة مشددة على نسائه[٨]، وبالتالي على حياته الجنسية، كان اللجوء إلى التلصص السبيل الوحيد أمام الكاتب للاطلاع على الحياة الجنسية لعلية القوم، هذا إضافة إلى إطلاق العنان لمخيلته. هكذا نجده يستغل رفع الكلفة بينه وبين السلطان أثناء لعبهما للشطرنج ليعبر للسلطان عن تأففه من شرب الحليب الرائب الذي لا يوجد غيره بالمحلة، وعن رغبته في الحصول على حليب طازج. فما كان من هذا الأخير، في بادرة لطيفة منه، إلا أن أرسل إليه جرة من الحليب الطازج عن طريق مرضعته الزنجية المسنة، التي أذهلت الكاتب ببنيانها القوي الذي لم تنل منه السنون، ثم عاودت الزيارة على غير علم من سيدها حاملة معها جرارا أخرى من الحليب مدفوعة بفضول خفي لمعرفة كيف يمارس الروم حياتهم الجنسية، وموكلة للحصول على إجابات عن الأسئلة التي كانت تطرحها نساء الحريم المتنقل فيما بينهن. فأولئك النسوة كن على علم بالزيارات التي كان يقوم بها النصراني للسلطان، مما أثار لديهن عددا من الأسئلة: من يكون هذا المسيحي؟ كيف هو؟ أ لديه زوجة؟ هذه الأسئلة التي كانت تطرحها أولائك النسوة المعزولات عن العالم الخارجي سوف يجدن الإجابة عنها عن طريق المرضعة، التي قدمها الكاتب للقارئ في صورة المرأة الشرقية المتهتكة الخليعة، فقد طرحت سؤالها في وقاحة نادرة، دون أن يرف لها جفن، "أرادت أن تعرف تماما كيف يمارس الروم الحب، وعند طرحها لهذا السؤال تألقت في عينيها نظرة ماجنة، وقد شرحت لها كيف يمكنني فعل ذلك"[٩] وستكون هذه المرأة "المرحة"[١٠]، المهووسة بالجنس، العين المتلصصة للكاتب على حريم السلطان، وفاشية أسراره، فعن طريقها سينكشف اللغز الغامض للحريم السلطاني أمامه باطلاعه على بعض أسراره، فعلم أن للسلطان الحق في الارتباط بأربع نساء وفق الشرع الإسلامي، كما جميع المسلمين، لكن عدد محظياته/سراريه فهو غير محدد، إذ كان السلطان يتلقى مرارا هدايا من نوع خاص كانت عبارة عن عذارى، ومع الزمن كان يمتلئ البلاط ويفيض بعددهن، ويقال أن عدد جواري المولى عبد العزيز يصل إلى ثمان مئة جارية، لأن كل من دخلت الحريم لا يمكنها الخروج منه أبدا.

هذا الجمع من الفتيات كان يخضع لقوانين صارمة، تسهر على مراقبة التزامهن بها رئيسات/ قايدات وعريفات، وكان العمل اليدوي ممنوعا كليا على الزوجات، لأنهن كن ملزمات بأخذ زينتهن يوميا، وأن يكن مستعدات في أية لحظة لتلبية رغبات السلطان. ولم يكن مسموحا لأنواع من الخضر باجتياز أبواب الحريم كالجزر واللفت، كما كان يتم إحصاء وعد الشموع مخافة تعرض بعضها للإخفاء/ السرقة، وكذلك كانت علاقة الصداقة بينهن تخضع لمراقبة مشددة، خاصة تلك التي قد تثير الشبهات، وحتى الرغبة في الانعزال والتوحد لم تسلم من المراقبة اللصيقة، إضافة إلى هذا الإرهاب النفسي الممارس على المرأة داخل الحريم السلطاني بانتهاك خصوصيتها، مخافة ممارستها للاستمتاع الذاتي/ العادة السرية أو السحاق

المحرمان دينيًا، فقد كانت تمارس عليها أشد أنواع التعذيب الجسدي في حالة خرقها للقوانين المنظمة للحريم بجلدها بالسياط أو قرعها بالعصا. كانت القاعدة تقتضي بأن يكون لكل زوجة من الزوجات الشرعيات يوما تستقبل فيه السلطان، وكان هذا الأخير ملزمًا بها، وليس في استطاعته خرقها، أو تغيير التسلسل الدوري لبرنامج الزيارات لكل واحدة، على الأقل على المستوى النظري. وفي اللحظة السعيدة تقود اثنتان من رئيسات/ قائدات الحريم الزوجة صاحبة الدور إلى "سيدنا"[11]، يقفن بثلاثتهن على بعد أربع خطوات منه، ثم ينحنين أمامه، ويحيينه بالتحية المعهودة: "الله يبارك في عمر سيدي"، بعدها يشير السلطان على الزوجة بالاقتراب، وباستقباله لها يكون قد أدى ما عليه من واجبات، وفي حالة ما لم يكن له مزاج في معاشرة زوجته الشرعية، فإنه كان في هذه الحالة يتسلل إلى مخادع إحدى الجواري.

ظل الكاتب أسير النظرة الاستشراقية التي تكونت عن المرأة الشرقية في المخيلة الأوروبية باعتبارها سجينة داخل الحريم، ضحية التقاليد والأعراف الدينية المترمتة، لذلك سعى إلى اختراق خصوصياتها/سرها المقدس برفع الحجاب عنها وجعلها في متناول عين ويد الأوروبي المقتحم لحصنها، وهو ما يفسر لنا وقوفه كثيرا عند الخيمة الصغيرة المحكمة الإغلاق/الحريم، وتلصصه على حريم السلطان، وعدم اهتمامه بالمومسات المستباحات المتواجدات بنفس المعسكر/ المخيم/ المحلة.

والملاحظ فيما يتعلق بالجنس عند هويل أنه قاربه من منظور استشراقي محض، فجعل من المغرب جنته الجنسية، فحين وجهت جريدة لوماتان هويل من طنجة نحو الرباط، حيث استقر المولى عبد العزيز، بعد عزله من طرف أخيه، من أجل إجراء مقابلة معه، تعرف هويل على عدد من مواطنيه القاطنين بها، وكان من بين هؤلاء صديقًا اسمه بيارناي[12] الذي يصفه بأنه لا يضاهيه أحد في معرفته بخبايا الثقافة البربرية، فقد كان يعرف كل اللهجات المنتشرة ببلاد البربر من الريف إلى الأطلس. جال كل المناطق البربرية، وقضى أشهرا تحت أسقف المنازل الطينية، من أجل تبين الفروق بين اللهجات البربرية. ومن خلال حديثه عن صديقه سنكتشف طغيان الرؤية الاستشراقية في كتاب هويل، ومدى عجز هذا الأخير عن التحرر من إسارها، يكتب واصفا طبيعة الحياة التي يحياها بيارناي بالرباط "كان يقيم بمنزل قريب من مقبرة ولعلو بمنزل مغربي يتكون من غرف طويلة ضيقة مزينة بسجاجيد ومزدحمة بأواني نحاسية وبقطع من الصوان. كان يأوي داخل منزله فتيات بربريات جئن من مختلف الجهات، وبذلك كان يواصل أبحاثه مازجا النافع بالممتع. كان لهن جميعًا نفس البشرة القاتمة إلا أنهن كن يتميزن عن بعضهن البعض بأوشامهن وشكل الأنف وبيضاوية الوجه. لم أتوقف عن –إبداء-الإعجاب بواحدة منهن تنحدر من واويزغت[13] كانت بعنين واسعتين، وبثغر تفتر ابتسامته عن در نضيد من اللؤلؤ، وببشرة ذهبية، وكأنها خرجت لتوها من الفرن. في إحدى الأمسيات عند عودتي إلى غرفتي وجدتها القرفصاء أمام الباب. تأثرت بإعجابي بها/ أدركت إعجابي بها، فجاءت إليّ .... يا جنة المغرب العتيق الضائعة إلى الأبد"[14].

إن هذا النص صريح لا يحتاج تفسيرًا، فهذا الباحث الفرنسي صنع لنفسه حريما خاصا به، في تحد متغطرس لتقاليد وأعراف البلد، واتخذ من هؤلاء النسوة البائسات، التي لا يحدثنا الكاتب عن طبيعة الأقدار التي رمت بهن بين أيدي صاحبه، موضوعا لبحثه، وفي نفس الوقت كان يستعملهن لمتعه الخاصة. ولكن ما يهمنا هنا هو هذا التصور النمطي للشرق كأنثى خاضعة تمنح جسدها طواعية للذكر الغربي ليمارس عليها فحولته المخصبة، ولأن الشرق هنا هو المغرب فقد اختار أنثى بربرية لا عربية، في إحالة منه إلى التصور الاستعماري السائد عن المغرب بكونه أرضًا بربرية خضعت لسيطرة عدد من الحضارات كان آخرها الحضارة العربية الإسلامية، التي تصفها الأدبيات الاستعمارية الغربية بكونها حضارة عقيم أسدلت أستار الظلام والخمول على هذه البلاد، وأنه قد آن الأوان لتتسلم الحضارة الغربية المخصبة المشعل للسيطرة عليها، ويبلور الكاتب هذه الفكرة ذات الدلالة الاستعمارية بحديثه عن ضمور الفحولة الجنسية لدى رجال الطبقة الحاكمة، البالغين من الكبر عتيا، والمفتونين بوطء الصغيرات، فكانوا من أجل استرجاع فحولتهم الذابلة، يتعاطون المنشطات الجنسية[15].

فالمنظور الاستشراقي المحض الذي أشرنا إليه من قبل، تجلى في كون هويل لم يكتفي بمعايشة الشرق الواقعي، الذي حين لم يلبي حاجاته الجنسية، عمد إلى بعث الشرق الأسطوري من رماد قراءاته، عندما وجد ضالته عند صديقه المتخصص في دراسة اللهجات البربرية، جاعلاً من نفسه بطلاً لمغامرة جنسية متكاملة الأركان، إذ لم يكتفي كمن سبقه بذكر وقوعه ضحية إغراء جنسي ما، كما حدث لإدموند دوتي حين راودته عن نفسه الحسناوات اليهوديات، اللواتي افتقدن فضيلة الحياء الذي يصبح الجمال بدونه بلا معنى[16]، أو بعرض جانب من مطارداته غير المثمرة كتلك التي كانت لبيير لوتي بأزقة وحواري فاس[17].

فمع هويل نجد أنفسنا أمام عملية جنسية كاملة بكل ما تعنيه من اختراق جسدي ناجح يؤديه جسد مقتحم على جسد خاضع ذليل مستكين، ويصور هويل استكانة المرأة الأهلية في صورة الكائن الخاضع حين وجدها وقد أقعت عند باب غرفته ككلبة متوددة، تعكس عيناها عرفانا وامتنانا لما رأته في نظراته من إعجاب بجسدها البهي. والواقع أن هذه الصورة ما هي إلا ثمرة مخيلة مريضة باستيهامات جنسية، غالبًا ما نجد لها نظائر في كتب الرحلات الغربية حول الشرق، فهي لا تصمد أمام الاختبار، فكيف لفتاة بربرية جاءت أو جيء بها من أعماق الأطلس، إلى مدينة الرباط، أن تقدم نفسها بكل هذه السهولة، فتتسلل من مخدعها لتنتظر الكاتب عند باب غرفته، استجابة فقط لنظرات نهمة محمومة التهم بها الكاتب جسدها الطري. كيف نصدق أن فتاة غرة مكبلة بتقاليد القبيلة، وبثقافة العار والشرف، أن تقدم نفسها بكل هذه السهولة فقط بسبب نظرة لا كلمة. وإذا دفعنا جدلاً بصحة الرواية، فالأكيد أنها دفعت إلى ذلك دفعًا من طرف مضيفه وآويها، حين قرأ في عيني صديقه رغبة محمومة في افتراسها جنسيًا. إنه تمسك بالشرق المتخيل ليس إلا، وفي نفس الوقت إيماءة من الكاتب أن العمل الفرنسي قد اكتمل بالمغرب، وأتى ثمرته أخيرًا، ولم يعد مجرد مطاردات يائسة لا مجدية، كتلك التي عاشها من سبقه من الفرنسيين.

إذا كانت هذه الرؤية الاستشراقية، لدى الكاتب قد وجدت ما يعضدها في الواقع، إلا أنه بالغ في تضخيم الصورة الجنسية إلى حد غير معقول، فاشتعلت مخيلته بالخيالات الجنسية المحمومة المشبعة بقراءاته الاستشراقية، فلم ينس حتى وهو في خضم المحنة التي أودت ببعض بني عرقه، وهو يجوس خلال جثت الأهالي/ المغاربة المتفسخة إلى التذكير بإحدى أهم سمات الشعوب الشرقية كما في المتخيل الغربي ممثلة في الغلمة والشبق الجنسي، فقدم صورة تشمئز منها النفوس السليمة، حين صور الأهلي ككائن تستبد به الشهوة حتى في موته "كانت الجثث، المتفسخة تحت الشمس، ثلاث أرباعها عارية، منتفخة بشكل فظيع، منتصبة الأعضاء الذكرية في استثارة جنسية وحشية"[١٨]، والحقيقة أن انشغال هويل بالقضايا السياسية جعله لا يذهب بعيدا في البحث عن طبيعة الحياة الجنسية للمغاربة، على عكس الكتاب الفرنسيين الآخرين الذين ولغوا في الحياة الجنسية للمغاربة، خاصة المترفين منهم[١٩]، تلبية للنزوع الاستشراقي، فرسمت أجواء معطرة بالشبق الجنسي لعالم مغربي مشابه لعوالم ألف ليلة وليلة، ولم تكتف بذلك بل تحدثت عما يشبه الفجور الجنسي لدى الرموز الدينية، وإن برأت تعاليم محمد، حين تحدثت عن الممارسات الشاذة لرموز التدين الشعبي[٢٠]، والدليل في ذلك أنه لم يخصص لها سوى مقاطع قصيرة، وإن كانت مشبعة دلاليا، على عكس كتاب آخرين خصوها بمقاطع طويلة كمثل بيير لوتي، الذي تميز وصفه للنساء بحسية بالغة، فرسم الاستدارات والتكوينات البديعة للجسد الأنثوي المغربي، الذي رآه جديرا بالرسم و النحت[٢١]، أو حتى بفصول مفردة متكاملة كالإخوة طارو.

ثانيًا: أطروحة الاستبداد الشرقي

تتداخل وتمتزج الصور والرؤى الاستشراقية في كتاب هويل، فمن الصور الإباحية التي لم تقع على أي حال في الابتذال، إلى صور الفوضى والبؤس والطغيان السياسي بشراسته المعهودة، التي سيقع الكاتب نفسه ضحية له حين يجبر على الركوع أمام المولى عبد الحفيظ، المنشق عن أخيه السلطان الشرعي والطامح إلى تولي العرش بدله، وفي صورة يمتزج فيها الاستبداد بالغرائبية ينقل الكاتب تفاصيل أول لقاء رسمي له مع المولى عبد الحفيظ "حينما أذن دوري تقدم نحوي رئيس المراسيم، الذي كان يضع عمامة على رأسه، يخرج منها طربوش مدبب، مرتديًا فستانًا أبيض كبيرًا، مشدود الخصر بحزام أحمر، وهو يحمل سيفه ذا المقبض المصنوع من قرن الكركدن"[٢٢].

يوحي النص وكأنه إحدى المرويات السردية القديمة، فأجواء ألف ليلة وليلة حاضرة بثقلها في المشهد، معها نشعر وكأننا أمام سيافها وقد خرج لتوه من النص العربي، ليمارس شراسته على الكاتب "أمسك كتفي بقوة، وقادني نحو المولى عبد الحفيظ"[٢٣]، ويجبره على أداء مراسيم أقل ما يقال عنها أنها حاطة للكرامة، مزرية بقيمة الإنسان. معها تتحول القيم المتخيلة للغرب عن الشرق إلى قيم ملموسة، ومعها نلمس انكسار الكاتب وهو يؤدي طقوسا شرقية بدائية "على بعد عشر خطوات، توقف وأجبرني على الانحناء لثلاث مرات مناديا بصوت عال الصيغة التقليدية: الله يبارك في عمر سيدي"[٢٤]، وباقترابه من المولى عبد الحفيظ، بعد إشارة من هذا الأخير، نكتشف صورة لا تختلف عن المشاهد التي دأب الاستشراق الغربي على رسمها للمستبد الشرقي المحاط بالوسائد الوثيرة، الحالم النظرات، المنتشي بأحلام الاشتهاء الجنسي والسلطة "متربعا على سجادة سميكة، متكئا على وسائد من كل الألوان، غامق السمرة مقارنة مع أخيه المولى عبد العزيز، شديد سواد اللحية، تبدو عيناه ذات النظرات المعبرة الحانية وكأن بهما حولاً خفيفًا"[٢٥]، ويبقى الاختلاف هنا هو أنه عوض وجود الجارية الحسناء المستعدة لتلبية رغبة سيدها الجسدية، نجد عوضا عنها

هذا الرجل الفرنسي المرتعش الخائف، النائي بنفسه على أن يكون البادئ باختراق حاجز الصمت الذي ران على المكان، وكأن القوم على رؤوسهم الطير "جلست أمامه على ساقين متصالبتين، منتظرًا منه خرق حاجز الصمت أولاً"[٢٦]، وبانتهاء المقابلة يبدي الكاتب حماسه لتلبية رغبات السلطان في تعزيز سلطته على حساب سلطة أخيه "السلطان الشرعي".

يُصر الكاتب على الذهاب إلى أبعد مدى في استحضار أجواء ألف ليلة وليلة عند الحديث عن توصله بهدية السلطان التي كانت عبارة عن كيس صغير من الدورو، وبإبدائه الحيرة أمام هكذا موقف، يحذره اليهودي يعقوب حزان الحامل للهدية من مغبة رفضها، وبتعليق الكاتب على الحدث بالقول: "لكل بلد عاداته الحضارية"[٢٧] يذكرنا بالشرق الأسطوري كما في المخيلة الغربية، شرق الأساطير والمعجزات والكنوز المتدفقة بغير حساب، لذلك فهو يستحق المغامرة الفردية كما المغامرة الاستعمارية. والملاحظ أن الكاتب هنا بقبوله الدخول والمشاركة في المغامرة السياسية الحفيظية، وخدمة المطامح السلطوية للسلطان، قد جعل من نفسه المعادل الموضوعي للجارية الحسناء التي هي دوما طوع بنان المستبد الشرقي لتلبية رغباته الجنسية. وبهذا التماهي بين الكاتب/المانح للسلطة والجارية/ المانحة للجنس، ندرك مدى تشبع هويل بأساطير الشرق، وعدم قدرته على الانفلات من إسار النظرة الاستشراقية إلى الدرجة التي رأى في المغرب شرقًا سرمديًا لطقوس الأبهة الملوكية، التي اندثرت من الشرق مهدها الأصيل، فقدم السلطان في صورة شبه سماوية "هادئا تحت مظلة حمراء يحملها عبد، وكأن على رأسه الطير، على مسافة ذراع. تشع قداسة شبه سماوية من شخصه، ومن هذه الأبهة التي عفا عليها الزمن، إنها آخر ذكرى للطقوس الفخمة للشرق"[٢٨].

وتبلغ النزعة الاستشراقية عند هويل ذروتها في تصوير مظاهر الاستبداد الشرقي في تقديمه للسلطان المولى عبد الحفيظ كولي محارب حيث تتجاور القداسة والعنف، وتتوزع مشاعر الحضور وتتمزق بين الانبهار والرعب حين وصفه للصلاة الجماعية، التي حضرها السلطان بالكتبية قبيل انطلاقه نحو فاس، التي لا معنى لقيامه ضد أخيه دون الاستيلاء عليها، في مشهد متلصص "آوينا إلى خيمة أحد التجار بمكان يمكننا أن نرى منه دون أن نرى"[٢٩]، ومن هناك راقب الحركة الدائبة للحشود المتدفقة على ساحة جامع الفنا من كل القبائل المجاورة: الشلوح ببرانسهم السود، الرجال الزرق "أهل الصحراء"، الحضريون بملابسهم البيضاء، المزارعون بمعاطف نسلت ألوانها من أثر الأشغال الفلاحية، وبعددهم البالغ خمسة آلاف رجل، خمسة ألف روح مؤمنة بالله الواحد ورسوله كانت في انتظار السلطان لأداء الصلاة، الذي سرعان ما "ظهر ممتطيًا فرسه تحت مظلته الحمراء الضخمة، محاطا بفرسانه الزنوج. ثم ارتفع صوت من أعلى صومعة الكتبية مناديًا: الله أكبر"[٣٠].

يتجاور في قطعة واحدة الديني بالدنيوي، المقدس بالمدنس، فمن وصف لمظاهر كسروية وثنية، دخيلة على الثقافة الإسلامية، تقدم الحاكم كنصف إله، إلى وصف لمظاهر روحية خاشعة، تحولت فيها أجساد هذا الحشد البشري الضخم إلى كتلة واحدة متراصة مولية وجهها قبل المشرق، كأنها جسد واحد في ركوعها وقيامها وسجودها. مشهد أخذ بلب الكاتب، شعر معه لما رأى من انخطاف روحي عميق يستولي على جموع المصلين، بالخزي والعار ألا يكون بينهم ليعفر جبينه بالتراب مثلهم.

يقدم لنا هويل، إضافة إلى صورة استغلال المستبد الشرقي للدين لفرض سطوته على الشعب، وصناعة أيقونته الخاصة به كنصف إله، صورة أخرى للحاكم الشرقي، كما في المتخيل الغربي، إنها صورة الحاكم اللاهي المنغمس في الشهوة المائعة، نظرًا لكثرة لذاذاته، فالمولى عبد الحفيظ لم يمنعه انشغاله السياسي الحاد حتى في وقت تكالبت فيه الأمم على المغرب، وأطلت الفتن برؤوسها في كل ربوعه، وكثر فيه الهرج والمرج، وتهددت الدولة بالتمزق والتلاشي، من ممارسة هواياته المفضلة كالاستماع لموسيقى يؤديها موسيقيون زنوج، يرافقونه في حله وترحاله "كان الموسيقيون جميعهم من أجمل الرجال السود، بملابس حمراء، معصبي الرؤوس بعمامة كبيرة"[٣١] أو لعب الشطرنج مع الندماء من خاصته، الذين لم يكونوا يجرؤون على تحقيق الفوز عليه، اجتنابا لسخطه، وهي القاعدة التي خرقها هويل وعلق عليها بقول وجهه للسلطان: "عندما نلعب نحن الاثنان الشطرنج فأنت لم تعدّ سلطانًا"[٣٢] أو الخروج إلى الأحراش للصيد بالصقور أو بالسلوقي[٣٣].

وفي حضرة اللهو والمجون، يتخلى المستبد الشرقي عن قسوته المعهودة، ويتحول إلى إنسان غاية في اللطف والطيبوبة، وتستنفد قواه في الاغتراف من المتع، خاصةً المستجد منها، وتصبح لديه قابلية الأخذ بيد شعبه على طريق التحديث/ التغريب، فالمولى عبد العزيز يصرح لهويل في أسى، ونفسه ممتلئة بالطمأنينة، مستسلمًا لمصيره، غير حاقد أو ضاغن على أخيه المولى عبد الحفيظ "أردت أن أقود بلدي على

طريق التقدم، لكن أخي قاده على طريق التمرد"[٣٤]، ويتخذ هويل من وصف هيئة المولى عبد العزيز فرصة للتذكير بصورة المستبد الشرقي، كما في المتخيل الغربي، صورة الحاكم البدين، المتراخي، المنتشي بالأحلام "شاحبًا، ممتلئًا قليلاً، شبه أصلع، ذا جفون غليظة تحجب نظراته"[٣٥]، متهالكًا على الملذات حد الإسراف والتبذير مما أدى إلى إفلاس الخزينة، وعدم القدرة على سداد أجور الجند، وإغراق البلد في القروض الأجنبية، التي كانت نتيجتها أن فقدت الدولة سيادتها، وأصبحت رهينة بيد المقترضين[٣٦].

ثالثًا: أطروحة الفوضى

لم يختلف كتاب هويل في شيء عن الكتابات الفرنسية الأخرى حين تحدثت عن مغرب ما قبل الاستعمار، في تناولها لإحدى أهم ركائز الخطاب الاستشراقي ممثلة في سيادة الفوضى مما يعني، وفق الخطاب الكولونيالي/ الاستشراقي، غياب جهاز الدولة بالمعنى المتعارف عليه، المتولد عنها بروز مظاهر عنيفة، ولأن الفوضى كانت إحدى أهم مسوغات الاستحواذ الاستعماري على الشرق، فقد أسهبت في رسم صور لمظاهر عنف سادي مارسه الأهالي على بعضهم البعض أو مارسه السلطان على رعاياه، والذي بلغ للحقيقة التاريخية مبلغا، يدفعنا إلى القول أن السماح للأجانب، من الصحفيين والرحالة والكتاب، بمرافقة السلطان في حركاته/ حملاته العسكرية لتأديب المتمردين وتثبيت السلطة وفرض الاستقرار بربوع المغرب ضمانا لوحدته، خطأ فادحا لأنه جعل هؤلاء الأجانب يطلعون عن كثب على حدة تمادي جيش السلطان في القمع والتنكيل، وتزداد هذه الصورة الاستشراقية قتامة حين ينزاح فيها العنف من عنف مشروع إلى عنف سادي تحركه الضغائن والأحقاد المتوارثة بين القبائل لأسباب عرقية أو لأسباب اقتصادية مرجعها الصراع حول مجال الرعي، أو لطموحات توسعية للزعماء المحليين.

هذه الصورة الأخيرة هي التي قدمها هويل لممارسات تقوم بها السلطة لا تختلف في شيء عن ممارسات قطاع الطرق من نهب وسلب وسبي. فعند مرور المحلة السلطانية بالقرب من الفضاء المجالي لقبيلة السراغنة العربية، تذكر الباشا الكلاوي المدني زعيم الشلوح بالأطلس الكبير أحقاده المتواترة لهذه القبيلة المتاخمة لقبيلة كلاوة البربرية، وكانت المواجهات والانفجارات لا تتوقف بينهما إلا لهدن قصيرة شديدة العطب لم تكن في الأخير سوى مدد لاسترجاع الأنفاس من أجل مواصلة الاقتتال الداخلي.

وبسبب هذه الأحقاد والثارات القبلية بين كلاوة والسراغنة، رفضت هذه الأخيرة الاعتراف بالمولى عبد الحفيظ سلطانا على المغرب بدل أخيه المولى عبد العزيز، فكانت تلك حجة اتخذها الكلاوي المدني للغارة على السراغنة بمعية جنده، وكانت كلماته عن هذا الحادث تدل على تأكيده الطابع الإثني لهذا الصراع، ودليلا على استغلال أدوات الدولة في تحقيق الزعماء المحليين لمآربهم الشخصية "كان حي كلاوة فارغًا من فرسانه وجنده"[٣٧]، كما كان فرصة للتذكير بالاحتلال الروماني للمنطقة من خلال القراءة المتعسفة للمعجم اللغوي السائد بدفعه لفرضية التأثير اللغوي الروماني بالمنطقة من خلال بحثه عن الأصل اللساني لكلمة "هوك" التي هي ببساطة ليست سوى تحوير للفظة العربية "هناك" والتي تحمل نفس المعنى في دلالتها على الاتجاه. فحين تساءل الكاتب عن خلو الحي المخصص لكلاوة من الجند، أجابه الجند المكلفون بالحراسة بأنهم قد اتجهوا "هوك" مشيرين بأيديهم نحو الشرق. فهذا التذكير بالوجود الروماني القديم بأرض المغرب لم يأت اعتباطا، والدليل في ذلك هذا التعسف في التفسير اللغوي لجذر كلمة "هوك" التي اتخذ منها مدخلا للتذكير بالاحتلال الروماني، ثم أردفها بالتعبير عن حسرته من تضييعه لفرصة نادرة قلما يجود بها الزمن، والتي هي حلم كل صحفي في معايشة مشاهد الاقتتال القبلي عن قرب، ولم يخف رغبة رئيس الأخبار بجريدة لوماتان وتشوقه وانتظاره منه الكتابة عن المثير والغريب والخارق للعادة.

إن هذا الإعلان الصريح يعبر عن سطوة الإسار الاستشراقي على الكاتب، فقد تدفقت الرؤى الاستشراقية والتحمت مع بعضها البعض وجاءت في صورة موجات متتالية في أسطر معدودة متقاربة، ملتحمة مترابطة، وإن طغى على استحضارها التعسف أحيانا، فقد أشار إلى بعض بقايا الوجود الروماني على المستوى اللغوي، في ارتداد زمني سحيق، ثم عاد بنا بسرعة للحديث عن الاقتتال القبلي وما يعنيه من فوضى ومن غياب لجهاز الدولة، والتي يظل حضورها إن هي حضرت حضورًا قمعيًا شرسًا وطفيليًا، ولم يكن ذلك منه سوى لتبرير الوجود الفرنسي الطارئ على المنطقة والساعي إلى استعادة الأمجاد الرومانية، ونلمس من خلال هذه المقاربة المختزلة للواقع المغربي صورة لما انعكس في مرايا الاستشراق الفرنسي[٣٨]. فالمغاربة المتطاحنون قمة وقاعدة على السلطة والثروة، المتشاكسون فيما بينهم، في حاجة اليوم إلى السيد الأبيض كما احتاجوه بالأمس، وهي الأطروحة التي يقوم عليها الكتاب/الرحلة، فالكاتب يلح في كل وقت وحين على خوضه هذه

المغامرة السياسية باسم مساعدة المولى عبد الحفيظ من أجل مصلحة المغرب والمغاربة، وينفي عن نفسه أية صفة رسمية، مما جعله أحيانا في صدام مع العسكريين الفرنسيين، وموضع ريبة من طرفهم، بل ذهب البعض منهم إلى اتهامه بالخيانة والعمالة للعدو، مما عرض حياته للخطر.

والحديث عن الفوضى يجرنا للحديث عن الفوضوي، فما هي الصورة التي يقدمها هويل عن المغربي الذي يحمله مسؤولية الفوضى في تجاهل تام للضغوط الخارجية ولما استتبعها من مظالم، وللتفقير المولد للثورة/ الفوضى على السلطة الذي أنتجته الإصلاحات التي باشرها المولى عبد العزيز بإيعاز من القوى الأجنبية من أجل أداء الديون التي كبلت بها تلك القوى المخزن العزيزي. فالكاتب يتجاهل كل تلك الحقائق ويحمل حالة الفوضى التي يعيشها المجتمع لغرائز الأهلي المتعطشة للنهب والسلب، يقول متحدثا عن قايد الرحى "تتدلى أكياس من كتفيه مليئة بما سرق من حلي ودورو"[٣٩] الغنائم التي حصلها بعد مشاركته في غارة صباحية قام بها القايد المدني الكلاوي ورجاله.

يتخذ هويل من الحادثة فرصة لترويج الأطروحة الاستشراقية القائلة بأن المغاربة مجرد شتات يفتقدون رابط الأمة، لتفسير اقتتال داخلي قد تعرفه أية أمة مهما بلغت من الرقي، ولم ينتبه إلى أن الصراع بين السراغنة وكلاوة هو صراع اقتصادي بالدرجة الأولى وليس سياسيا، ونحن هنا أمام صراع حول العرش ولسنا أمام تفكك للسلطة كما هو الحال في المجتمعات الفيودالية التي عرفها التاريخ الأوروبي[٤٠]. فالسلطان المغربي مارس سلطة مركزية قوية سواء بالحضور المادي من خلال عدد من الآليات "الجباية-القضاء-الشرطة-الحاكم/ممثل السلطان..." أو من خلال السلطة الروحية باعتباره أميرا للمؤمنين في مناطق قاصية كانت الدولة المغربية خاصة في مراحل ضعفها غير قادرة على بسط نفوذها المادي عليها.

يؤكد هويل على تفكك السلطة وافتقاد الرابط بين ساكنة المغرب ليبرر التدخل الفرنسي بوحشية الصراع وعنفه "عند الفجر، انقض هو ورجاله على الدواوير، أبادوا المدافعين عنها، أفرغوا مخازن الحبوب، ساقوا قطعان الماشية، اختطفوا البنين والبنات، جاءوا بأسرى إلى المعسكر. كان هؤلاء التعساء مقيدون مع بعضهم البعض من معاصمهم بواسطة سلسلة فولاذية، ولم يكن باستطاعتهم تحريك أيديهم دون تحريك أيدي جيرانهم. كان يتم اقتيادهم مرتين في اليوم، دون فك قيدهم، خارج المعسكر لقضاء حاجاتهم الطبيعية، هذا العرض كان يمكن أن يكون ملهما لرابلي في كتابة قصص جيدة. في المخيم كانوا يظلون جالسين القرفصاء على الأرض، ولا يتناولون من الطعام سوى معجون البشنا القذر، يظلون على هذه الحال إلى أن يتمكن آباؤهم أو أصدقاؤهم من دفع الفدية للكلاوي. وكان من بين هؤلاء الأسرى شخصان يبدو أنهما على قدر من الأهمية، لأنهما كانا يتلقيان معاملة تفضيلية، كانت معاصمهم مضغوطة داخل جلد مبلل ذا حواف مطوية/مخيطة بإحكام شديد، كان هذا الجيب الجلدي ينكمش/يتصلب عند الجفاف، كانت الأظافر تخترق اللحم، وقد شهدت معاناتهم الرهيبة جراء ذلك في تشنجات الوجوه والتهاب العيون، ورغم ذلك لم يكن يند عن شفاههم المتقلصة أدنى صوت إلا من تضرعات إلى الله لا تنتهي"[٤١].

هذه الصور السادية الموغلة في الوحشية بقدر ما عبرت عن وقائع حقيقية لتمظهرات عنف لا يخلو منها أي مجتمع إنساني، عبرت في نفس الوقت عن رؤية استشراقية لم يستطع الكاتب الخروج من إسارها، وهي صور كان كل الرحالة والأدباء والصحفيين والمغامرين الأجانب حريصين على نقل أصدائها لإشباع أفق المتلقي الغربي، وتأتي أهميتهم هنا في استبطانهم للوقائع من الداخل، وهو ما صرح به هويل نفسه بأن هذا ما كان منتظرا منه من لدن رؤسائه[٤٢].

إن تيمة الفوضى التي احتفى بها الفكر الاستشراقي، وجعلها إحدى أهم مظاهر وسمات الشرق، والتي لم تكن سوى مدخل لتبرير السيطرة عليه، كان الكاتب منذ البداية على وعي بها، وتجلى ذلك بشكل واضح عند حديثه عن أسباب مقتل الأوروبيين بميناء الدار البيضاء، حيث أهمل الأسباب الحقيقية والمباشرة للمذبحة[٤٣]، وظل أسير الرؤية الاستشراقية بربطه الحادث بالاضطراب السياسي الناجم عن الصراع السلطوي المزمن بين القيادات المحلية بإثارة النعرات والفوضى لإثبات عدم أهلية الخصوم، بسعي المنافسين المبعدين عن السلطة بقرارات من السلطان، إلى التأكيد على أنهم الأجدر والأحق بالحكم والأقدر عل فرض الأمن والاستقرار "هز اضطراب عنيف، مدة عدة أسابيع، الحياة المطمئنة لساكنة الدار البيضاء. اضطراب كان بتحريض من قايد أولاد حريز سي حمو، نجل الباشا السابق. سعى سي حمو إلى خلافة والده، ولأنه لم يتقبل تفضيل السلطان لغريب ليكون على رأس المنطقة بدلا عنه ونتيجة لذلك قام بتنظيم مجموعة من الغزوات بضواحي المدينة، ليبرهن على عجز هذا الأخير على فرض النظام"[٤٤].

يتبين من خلال النص رؤية الكاتب لطبيعة السلطة المغربية، فيراها متذبذبة وغير مستقرة، عبارة عن حلقة مفرغة تعاني منها سلطة لا تعرف الاستقرار في واقعة تذكرنا بالمقاربة الانقسامية لدى روبير مونطاني في أطروحته "المخزن والبربر"[٤٥] لنمط سوسيوسياسي يعتمد البروز المستمر للزعامات القوية الحائزة لثقة المخزن ويمثله هنا: سي بوبكر. كما لمح في نفس النص إلى الدور التفكيكي للمخزن من أجل إضعاف النظام السلطوي والسياسي للقبيلة، وتشجيع الانقسامات والتناحرات عن طريق دعم القيادات الصغرى للحيلولة دون بروز قيادة مهمة وتقليص نفوذها. فالاضطراب المفضي إلى قتل الأوروبيين التسعة كان وراء إبعاد السلطان المولى عبد العزيز لقايد أولاد احريز سي حمو نجل الباشا السابق، وتفضيل سي بوبكر الغريب عن قبائل الشاوية، وبالتالي حرمانه من ميراث والده السلطوي، للحيلولة دون بروز قوة قايدية متجذرة، قد تنافس المخزن المركزي أو قد تعصف بوجوده[٤٦].

هكذا نرى كيف هيمنت الرؤية الاستشراقية على المتن السردي للكاتب، فكان حريصا على إشاعة خطاب يتبنى أطروحة لا ترى في المغرب سوى مجال للفوضى والتمرد قمة "الصراع حول العرش بين سلاطين العلويين/الصراع بين الزعماء المحليين" وقاعدة "الصراع القبلي/الغزو البدوي على الحواضر". وهو يكتب ويلتقط تفاصيل الفوضى المغربية، لم يستطع الارتقاء والخروج من شرنقة الاستشراق، حين جعلها نتيجة لأسبابها تافهة، أو بسبب الصراع حول امرأة، أو فقط للاستيلاء على ممتلكات الجار[٤٧]، مما يعطي انطباعًا لدى القارئ بتفاهة الأهلي، وقصوره، وضيق أفقه الفكري، وأنه يعيش في دوامة من التناحرات القبلية، لعدم امتلاكه لمشروع مجتمعي محدد، فلا بأس إن منحته فرنسا مشروعها الاستعماري. وإذا كان حديث هويل هنا عن الفوضى المغربية وتفسير أسبابها، قد اشتمل، بشكل مضمر، أطروحة التحقير، فإن هذه الأخيرة تبرز في كثير من مقاطع سردية هويل بشكل واضح وصريح.

رابعًا: أطروحة التحقير

كانت أطروحة التحقير من الأطاريح، التي انبنت عليها الرؤية الاستشراقية، ولم يخرج هويل عن إسار هذه الرؤية، التي انفجرت في أول لقاء للكاتب مع المغرب، ولأنها جاءت في أفق محتدم بالمنافسة بين قوى أجنبية حول المغرب، فجر عنفا دمويا ذهب ضحيته مجموعة من الأجانب كان من بينهم فرنسيين بميناء الدار البيضاء. استدعى الحادث انتقال هويل إلى الشاوية/ مسرح "الجريمة" لتغطيته صحفيًا، وكانت هذه الملامسة العنيفة بين الغرب والشرق على أرض المغرب وراء أول انفعال عصف بوجدان هويل، الذي تجسد في صورة استشراقية تحتفي بأطروحة التحقير للأهلي/الأصلاني. فمنذ الوهلة الأولى وهو على ظهر الباخرة الإسبانية المنطلقة نحو الدار البيضاء، يضعنا المؤلف أمام الآخر المختلف في الدين والعرق والفكر، فيدمغه بالجمود والغياب المطلق عما حوله "غير مبالين بما حولهم"[٤٨] في صورة توحي بالصمت والوهن والاستسلام. صورة تنم عن بلادة الحس وثقل الشعور، وعن تراتبية هجينة قائمة على العبودية للوفد المغربي، في مقابل صورة الوفد الفرنسي المطبوعة بالحيوية والحركة، وتسمها الندية بين أفراده، ولا تشكل التراتبية المهنية نشازا لهذه الندية ما دامت تقوم بدور وظيفي/ مهني لا يزري بإنسانية الإنسان على عكس التراتبية المخزنية/المغربية المنتشي هرمها بتسخير الأدنى، واستخدامه استخدام السيد للعبد.

لا يكتفي الكاتب بالهمز واللمز، و بالتعبير البلاغي، والصور المجازية الدالة على حقارة الأهلي، بل يلجأ إلى الأسلوب الصريح المباشر، فيسم المغاربة بتدني الأخلاق والتعيش على الغش والتهريب، وتفضيل حياة الاضطراب، من أجل تحقيق الاغتناء غير المشروع، الناجم عن الفساد، على حياة الاستقامة والنزاهة، ووسم قبائل الشاوية بكونها قبائل نهب وسلب، تتحين أوقات الاضطراب للانقضاض على المدينة كأسراب الجراد، فتأتي على الأخضر واليابس، لا تفرق بين أجنبي دخيل أو أهلي/أصلاني[٤٩]، ورأى ساكنة المدينة مجرد أناس منغلقين على أنفسهم كارهين للآخر "الناس -هنا- صموتين كتومين"[٥٠] لذلك رآهم جديرين بالسحق، متخذا من قتل الأهالي بميناء الدار البيضاء لثلاثة فرنسيين، وثلاثة إسبانيين، وثلاثة إيطاليين، غلالة رقيقة لشرعنة دك المدينة "فجأة منحت مذابح الدار البيضاء الفرصة غير المأمولة - للضباط - للقيام أخيرا بعمل جدير بشجاعتهم"[٥١]، ولم تخلو كلماته من عنجهية في محاولة منه لتبرير قهر الأهلي/الآخر، والإشادة بتحقير رموز السلطة الحاكمة، إمعانا في إذلالها، وخدش هالة الهيبة التي صنعتها بين المغاربة على مدى قرون من التنكيل الوحشي، والقمع الجماعي الرهيب للقبائل المتمردة[٥٢] "بعد ربع ساعة، قدم باشا الدار البيضاء على صهوة بغلته محاطا بحرسه الخاص...ظل الباشا على ظهر البغلة، فما كان من بالاند[٥٣] إلا أن جذبه من ثيابه، وأجبره على النزول أرضًا"[٥٤].

سعى المؤلف بكل ما يملك من أدوات ومعلومات تاريخية إلى إقناع المتلقي بمشروعية اللجوء إلى آلة الدمار والحرب ضد إنسان/ أهلي حقير لا يستحق أدنى ذرة من التعاطف، فرسم صورة جنائزية رهيبة تقشعر لها الأبدان، رسم مشهدا صادما للقتلى المكومين بعضهم على بعض كالأنعام، تجللهم الدماء المنفرة، وقد تشوهت خلقتهم بشكل رهيب[٥٥].

اختار الكاتب فضاءً زمنيًا متوترًا ليسوغ المواجهة غير المتكافئة بين المستعمر الممتلك لأعتى الأسلحة الحربية ذات التقنية العالية، في ذلك الوقت، والمستعمر الأعزل الممتلك سوى لأسلحة بيضاء أو لبعض البنادق المهترئة من نوع "بايونيت"[٥٦]، وعدد جد محدود من المدافع البرتغالية التي تصدت للهجوم الكاسح للبحرية الفرنسية على المدينة، فكانت عديمة الجدوى بشهادة المؤلف نفسه[٥٧].

سيطرت الروح الاستشراقية/ الاستعمارية، والأنا المتضخمة، على كلماته، فنفث مقته في فقرات تنضح بالاحتقار والاشمئزاز من كل ما هو مغربي، حتى وهو بعيد كل البعد عن وصف مشاهد المواجهة والصراع، فقدم المدينة المغربية في صورة كالحة خالية من الجمال، يسيطر عليها القبح والتنافر[٥٨]، مدينة مرتمية في حضن طبيعة قاحلة جرداء، في صورة تذكرنا بالمدينة العربية كما وردت في الأدبيات الاستشراقية، حيث يتناغم القبح والقذارة. وخلص إلى أن جفاء المغاربة ما هو إلا نتاج حتمي لقسوة الطبيعة[٥٩]، هذا الجفاء الذي لم يجد من ضحية يمارس عليها ساديته إلا في أضعف وأهون مكون للنسيج المجتمعي بالمغرب مجسدًا في اليهود زاعمًا أنهم الضحية المثلى لأي اضطراب أو قلق اجتماعي، فعليهم تمارس أقسى أنواع السلوك الوحشي من اغتصاب وسبي ونهب للممتلكات[٦٠]، الضريبة الباهظة المؤداة جراء عيشهم في كنف الحواضر الإسلامية، وذلك في مغالطة تاريخية لا تستقيم مع الواقع المغربي بتناسيه أن غارات البدو على الحواضر المغربية لم تكن تقيم أدنى اعتبار للملل والنحل والأعراق.

وبتجاهله ذلك أرخى العنان لقلمه ليصف منظرا صادما ليهوديات مترديات في مهاوي الذل والهوان والاستضعاف "كانت اليهوديات يجأرن بالشكوى بغير انقطاع، وكانت أخريات بنظرات زائغة"[٦١]، جاعلاً من تعاطفه مع اليهودي في محنته وسيلة لتبرير أطروحة التحقير الاستشراقية للأهلي المتوحش، خدمة لأهدافه الاستعمارية أولا بدعوى رفع الدونية عن اليهود، وثانيا بالتخفي وراء وهم الرسالة الوجودية والحضارية للإنسان الأبيض اتجاه الأهلي بانتشاله من عتمة الجهل والتخلف وتهذيب سلوكه الوحشي، ولو كان ذلك بالدم والحديد، فهذا الأهلي، لأنه كان يراه حقيرا، لم يستثر في نفسه أدنى تأنيب للضمير، حين عاب على الجنرال "درود"[٦٢] تردده وسلبيته في اقتحام المدينة، وانتهى إلى تبني دعوة صريحة لممارسة العنف من أجل معانقة المجد والنجاح[٦٣]، وشاطر الجنود الفرنسيين، وهم في عرض البحر، حسرتهم وهم يراقبون، مكتوفي الأيدي، المدينة المتمردة مدة عشرة أيام، في انتظار إشارة القنصل المتردد، وتحدث عن تنامي حسرة الجنود حينما علموا بوجود حملة عسكرية بميناء وهران على أهبة الاستعداد للإبحار نحو الدار البيضاء مما سيحرمهم من شرف احتلالها، ورأى في صلف أنه من الواجب على هؤلاء الجند تبني خيار العنف، واجتراح حيلة ما لزحزحة القنصل الفرنسي عن عناده وتصلبه[٦٤].

ولا ترتبط أطروحة التحقير عند هويل بالاحتلال/ الاختراق العسكري في بداياته الأولى، وإنما نجدها عنده كذلك عند مساهمته في إخضاع قبائل الشاوية، وفي صورة شبيهة تمامًا بما جرى بمدينة زرهون، حيث تم تجميع الشرفاء على شكل دائرة محاطين بالسباهي، لتملى عليهم شروط الأمان في مشهد يذكرنا بالرهائن البربر وروما الإمبريالية، والذي يقول عنه المؤرخ الفرنسي دانييل ريفي: "مشهد عريق...فخم وعظيم"[٦٥]، إلا أن هذا المشهد لاشيء إذا ما قارنه بالمشهد الذي يصفه هويل، والسابق زمنيا، ففيه تمتزج الفخامة والعبودية الاستعماريتان بالأجواء الدرامية لانكسار الفرسان المغاربة، البالغ عددهم ألفي فارس، والمتحمسين للقتال حتى آخر رمق رغم يأسهم من الانتصار، بإعلانهم الاستسلام على مضض بفعل الهمسات/ الكلمات المثبطة لشيخهم الروحي البوعزاوي[٦٦].

تبلغ أطروحة التحقير ذروتها بتحول هذا الأخير من مجرد رؤية نفسية وفنية مجردة لكاتب، لم يستطع الانعتاق من إسار النظرة الاستشراقية، إلى واقع مارسه الاحتلال على الأهالي في جو مفعم بالمهانة والإذلال "غادرت الجنرال داماد مرتاح الضمير، كان القياد مترددين[٦٧]، لكن رغم ذلك فقد بدأت عملية الخضوع، التي كان يجب متابعتها إلى النهاية، كما ارتأى البوعزاوي.

تم إرسال الرقاصة إلى القبائل، ومع الساعات الأولى لحلول المساء، تقاطر الرجال مدججين بالأسلحة لاعتقادهم أنهم قد استدعوا للقتال. مما استوجب مجادلتهم لإقناعهم بأن القوة العسكرية للرومي تجعل من خضوعهم أمرا حتميا[٦٨]، ابتهج بعضهم لهذا الاقتراح، وأبدى آخرون سخطهم متلفظين بالشتائم، ولكنهم في النهاية لم يجدوا مناصًا من الرضوخ. ونظرًا لكثرتهم، كانوا أكثر من ألفي –مقاتل-وفق تقديري، فقد

رتبهم البوعزاوي على شكل جبهة، واضعًا الفرسان في الواجهة، ثم مر بين صفوفهم للتكلم معهم.

هكذا كانوا يظهرون، في الصفوف المتعددة العميقة، على شكل حشد متباين من الرجال والحيوان. في المقدمة كانت رؤوس وصدور الخيل تشكل قوسًا متحركا لهذه الكتلة المقاتلة، وكنا نرى على ظهور الخيل الرؤوس الحليقة للفرسان وهي محاطة بخيط رفيع بخصلات من الشعر متدلية على الوجنات. كانت أشعة الشمس تسقط على الوجوه بشكل مائل، فتجعل بشرتها الداكنة تتوهج. كان هناك من بين الحضور شيوخ وبالغين بلحاهم وشباب غض ومراهقين بنظرات قاسية. كان ثلاثة أرباعهم يرتدون خرقًا وبرانس مرقعة بلون الأرض. كان الخيالة يمتطون ظهور الخيل على سروج قذرة مكسورة أو على أكياس بسيطة تم إلقاؤها على ظهر الحصان وتم تثبيتها بحبل مرر من تحت بطنه، وكانت سيقانهم العارية تتدلى في الفراغ. ومن موقفهم هذا كانوا يتأملون في صمت أبخرة الدخان التي لاحت في الأفق متصاعدة من المعسكر الفرنسي. كانت كلمة واحدة تكفي لإطلاق العنان لهم، ومن المفروض أنه هكذا واجهت جحافل يوغرطة فيالق الرومان، ومن الممكن أن تكون في نفس هذه الأماكن. وحينما لم تعد الشمس تضيء المدى سوى بضوء خافت، ومع حلول وقت الصلاة، انحل جمعهم، ولم أرى منهم بعد برهة إلا ظهورًا جامدة منحنية في اتجاه الشرق والجبين على الأرض"[٦٩].

فكلمات النص تشي وتنضح بثنائية ضدية ثابتة، تحمل في طياتها تحقيرًا متعدد المستويات للأهالي: حضاري وأخلاقي وفيزيولوجي، ويمكن أن نستشف الوجه غير المعلن لهذه الثنائية المانوية المبسطة انطلاقًا من وجهها المعلن المنعكس على مرآة الكتاب/ مرآة الاستشراق عبر التعبير عنها بالجدول التالي:

قبائل الشاوية/ البربر القدامى الصورة المعلنة	فرنسا/ روما الصورة المنعكسة
- جحافل فوضوية - آليات حربية عتيقة - تـوحش تعكسـه الأزياء والنظرات والغضب الجامح - سحنة قاتمة - الشيخ البوعزاوي /يوغرطة - قتال يائس - هزيمة	- **جيش نظامي** - **آليات حربية عصرية** - **حضـارة تعكسـها تنظيمـات المعسـكر الفرنسي وتقسيماته** - **سحنة منيرة** - **الجـنرال الفرنسي داماد/القائد الروماني** - **يقين بالنصر** - **نصر**

إن هـذه الثنائيـة الـتي مـيزت الخطـاب الاستشراقي/ الاستعماري، كانت ترى أنه لا سبيل للقاء بين المستعمر والمستعمر، أي بين الإنسان الغربي والشرقي إلا حينما يصبح هذا الأخير تابعا للأول، مما سيؤدي إلى تعديل وضعه، إلا أنه رغم ذلك لن يكتسب السوية البشرية الطبيعية[٧٠]، فيكون مثل العبد الذي يحاول تقليد سيده، لكن لن يتبوأ رتبة السيادة، فعبوديته هي المانحة لقيمته[٧١]، ولابد أن تكون هذه التبعية مطلقة، فلا يكفي أن تأتي بالاستسلام وحده بل عن طريق السحق والإذلال. فحين تم إقناع قبائل الشاوية، بصعوبة من طرف الزعيم الروحي البوعزاوي والصحفي الفرنسي هويل، بضرورة الاستسلام لوقف نزيف الدم، ودفعاها إلى طلب الأمان وإعلان الخضوع، ولما قررت ذلك في صباح يوم يقول عنه هويل، طلعت فيه الشمس مشرقة السنا، شبيهة بالشمس التي طلعت يوم صبيحة أوسترليتز" طلعت الشمس، في يوم الغد، بهية الإشراق، وكأنها في إشراقها شمس أحد أيام أوسترليتز، إنها شمس السلام"[٧٢]، وباقترابها من المعسكر الفرنسي، صبت القوات الفرنسية وابلا من قذائف المدفعية والرشاشات عليها، فاندفع رجالها مذعورين عبر الحقول. حلت الكارثة وكانت مذبحة عظيمة حلت بالأهالي الذين أخذوا غدرا، وكادوا أن يفتكوا بهويل، لاتهامه بتدبير المذبحة وجرهم للكمين الفرنسي، ولم ينجيه من أيديهم سوى تدخل فرسان البوعزاوي الذين افتكوه من بين أيدي الغاضبين، ورحلوا به بعيدا على ظهر خيولهم، وذلك بعد عجز البوعزاوي عن الحيلولة بينه وبينهم، إذ لم تنفع ما يتمتع به من كرامة وسمعة من تهدئة غضبهم[٧٣].

لم يجد الكاتب تفسيرا للحادث وهو الذي أخبر الجنرال داماد بمجيء البوعزاوي على رأس أتباعه إلى المعسكر الفرنسي لإعلان استسلامهم للقوات الفرنسية، وقد طرح عددًا من الافتراضات والتساؤلات بشأن الحادث: هل كان ذلك ردًا من قواتنا على هجوم تعرضت له من طرف أنصار عمر السكتاني[٧٤]؟ هل كانت قوات مدفعيتنا على غير علم بخبر الاستسلام، فاعتقدت حين رأت حشود المستسلمين تنتشر بالقرب من المعسكر مظهرًا من مظاهر الاستعداد لتنفيذ خطة للهجوم عليه، فبادرت بإطلاق النار؟

لم يجد الكاتب جوابًا شافيًا لتساؤلاته، وحتى حين سعى لتبين خفايا المأساة، فيما بعد، لم يتذكر أحدهم القضية أبدا[٧٥]. ولا نجد تفسيرًا لهذا النسيان الذي لحق الذاكرة الاستعمارية إلا في كثرة ما أسيل من دم بالشاوية، ولفظاعة المجازر التي ارتكبتها قوات الاحتلال سواء بالشاوية أو بالمناطق التي عبرتها

وهي في طريقها نحو فاس عاصمة الإمبراطورية الشريفة[٧٦]، فأي مذبحة هي تلك التي سيتذكرها المستعمر الفرنسي. ويتذكر ملابسات حدوثها وإن كانت قريبة العهد[٧٧]، كما نجد تفسيرًا لها في الرؤية الاستشراقية ذات الأطروحة التحقيرية للأهلي/ المستعمر، التي كانت تعتبر التمايز بين الغربي والشرقي/الآخر يصل حد التمايز بين الإنسان والحيوان، لذلك فلا ترب على الذاكرة الفرنسية الاستعمارية إن هي لاذت بالنسيان، ليس نسيان العفو والصفح[٧٨] بل نسيان التحقير والتعالي.

خَاتمَةٌ

لم يستطع كرستيان هويل الانعتاق من إسار الرؤية الاستشراقية، فقد انطلق من نماذج كان قد تم وضعها من قبل في سياق تميز باختلال موازين القوى بين الشرق والغرب، وأدى إلى إنتاج خطاب ورؤية خاصة بالشرق هي وليدة تلك العلاقة غير المتكافئة. نماذج انطلق منها ليبرر احتلال المغرب بشكل عقلاني مستغلا ظرفية تاريخية مطبوعة بالصدام بين الغرب والشرق، نتج عنها لقاء دام وعنيف جرت أحداثه على أرض المغرب. وقد قدم لتبرير هذا الاحتلال عددا من الدفوعات المتماسكة سياسية واقتصادية واجتماعية[٧٩]، نجدها في الصور التي رسمها لليهودي البائس المضطهد "الجزء المحترق من الملاح ليس أكثر من ركام أنقاض متفحمة، نساء جالسات على الأحجار بوجوه مخدوشة من أثر أظافرهن، وجوه موسومة بالبؤس والحداد. رجال بلحى شعثاء، ووجوه سخماء، وملابس ملطخة وممزقة"[٨٠] المتطلع إلى ظهور المخلص/الفرنس"، ومع ذلك أنعش ظهور جندنا هذه القلوب المنطفئة، وتستمر الحياة على الرغم من الخراب، وعلى الرغم من هتك الأعراض، وعلى الرغم من القتلى. وهكذا فإن الذين كتبت لهم النجاة من مثل هذه المذبحة الرهيبة سوف ينخرطون في الحياة الجديدة التي يحملها لهم الفرنسيون، سينسون، وسيقبلون على أشغالهم، وسيغتنون. سيستبدلون بدلاتهم السوداء بأخرى أنيقة، سيقتنون الأراضي التي كان محرم عليهم اقتناؤها حتى الساعة، سيصبحون مُلاكًا لأغلى عقارات الدار البيضاء، فما من عرق آخر كان له هذا المصير الرائع"[٨١]، هذا المخلص الذي يقدمه الكاتب رسولا للعناية الإلهية للبشرية جمعاء، لأن مهمته لا تنحصر في رفع الدونية عن اليهودي فقط، بل تشمل الأهلي البدائي، عن طريق إلحاقه بركب المدنية الحديثة وانتشاله من عتمة الجهل والتخلف وتهذيب سلوكه الوحشي، وبذلك يتحول الاحتلال إلى رسالة وجودية، تستمد مبرراتها وتقوم مرتكزاتها على رؤية استشراقية، تتفجر أطاريحها على طول سردية، من المفروض أن تكون واقعية منشغلة باليومي والطارئ، لم تستطع الانفكاك من إسار القراءات الاستشراقية، فحفلت بأطاريح الفوضى والتحقير والاستبداد الشرقي و الشبق الجنسي.

وفي هذا لم يختلف هويل عمن سبقه من الفرنسيين الذين كتبوا عن المغرب إلا في واقعيته المفرطة ورؤيته الباردة لما حوله، فلم ينشغل بالنزعة الغرائبية كما نجدها عند دولاكرو[٨٢]، أو عند شوفريون[٨٣]، أو بيير لوتي[٨٤]، التي ود معها هذا الأخير لو ظل المغاربة ملتصقين بالغبار مدى الحياة بعيدًا عن صخب المدنية الحديثة وتحولاتها غير المنتهية، وتمنى لو يكون آخر حادي عيس عربي تفيض روحه تحت شمس يوم قائظ، وهو يمد يدين واثقتين إلى السماء، ونفسه ملؤها اليقين في الله والرضا به، بعد حياة حافلة قضاها عابرًا الصحاري الكبرى، على أن يكون عاملاً بأكبر مصنع أوروبي أو سائقًا أو دبلوماسيًا، يقضي عليه الموت وهو على فراشه مجدفا سيء الظن بالله، جاحدا لأنعمه، غب حياة ضنكا استنفدت في العمل الممض الرتيب، ملأى بالشهوات الفانية[٨٥]، فعلاً شعر أنه أصبح قليلاً ما عربيًا، كما نازعته نفسه لو أصبح عربيًا بشكل كلي، حين اندمج في الأجواء الروحية التي شهدتها الصلاة الجماعية للمولى عبد الحفيظ وأتباعه بجامع الفنا بمراكش، قبل انطلاقه نحو فاس لقتال أخيه السلطان الشرعي المولى عبد العزيز.[٨٦]

إلا أنها كانت مشاعر عابرة تفتقد الحرارة التي نجدها عند من سبقه، فسرعان ما كانت تتلاشى أمام هوس الكاتب وانشغاله بمستقبله الفردي وبمآل المغامرة الاستعمارية الفرنسية، في وقت اشتدت فيه المنافسة الألمانية، التي نقل جزءًا منها عند حديثه عن العلاقة المتوترة التي جمعته بالدكتور/الطبيب هولتزمان[٨٧] الذي يدعي بأنه سوري درس الطب بألمانيا، في حين يعتقد اليهودي يعقوب حزان أنه يهودي ارتد عن دينه واعتنق الإسلام، وقد ساعده تظاهره بالإسلام وإتقانه اللهجة السورية في تكوين شبكة علاقات مع علية القوم بمراكش، كما ساعده في ذلك شهرته بين الناس كوكيل سياسي مما كان يبرر علاقاته مع القنصل الألماني[٨٨].

ولا يمكن أن نرجع فقر سردية هويل على مستوى الغرائبي[٨٩]، وتصوير الأجواء الرومانسية للبيئة المغربية[٩٠]، إلى عدم امتلاكه القوة التخييلية واللغة الشاعرية التي تميز بها من سبقه، أو لعلو موهبتهم الأدبية وسمو ذائقتهم الفنية، وإنما نرجعها ونجد تفسيرًا لها في أنها جاءت في فترة عاصفة احتدمت فيها المواجهة مع الأهالي، وتناثرت فيها الأشلاء والدماء،

فكان لابد أن يتعامل معها بشكل واقعي، وإن لم يستطع التخلص من إسار الرؤية الاستشراقية.

وقد جاء هذا الجفاف العاطفي في التعامل مع الأحداث، وهذه الواقعية المفرطة، إضافة إلى كونه صحفي معني بالدرجة الأولى باليومي والطارئ، نتيجة لعوامل أخرى متضافرة سياسية واجتماعية واقتصادية، يمكن إجمالها فيما يلي:

- طغيان النزعة الاستعمارية ووضوحها في نص هويل، التي قامت على امتلاك الاستعمار الفرنسي الشرعية التاريخية في استعادة أمجاد روما القديمة بالمغرب، واتهام العرب بجلب الخراب لبلاد المغرب، وقيامهم بتدمير معالم الحضارة الرومانية.(٩١)
- تضمين متنه معجمًا ينضح بالنفور والاشمئزاز والتحقير، إضافة إلى ما ذكرنا من قبل، فالمغاربة في قاموسه لا يحسنون آداب المائدة "يحتسون الشاي المنعنع...برشفات جلبة"(٩٢) ولا يرون في المدنية الحديثة سوى نبت شيطاني يجب مقاومته بالعنف "إن هذه الآلة النافثة للنار والدخان... كانت اختراعًا شيطانيًا"(٩٣) في أعين المغاربة.
- طغيان التبريرات الاقتصادية التي ليس لها من بعد سوى المنفعة الشخصية، فقد استرجع مشهد نساء اليهود وهن يصطرخن في جحيم العذاب والهوان بأريحية قائلاً: لا تثريب عليهن فهذه المأساة هي التي كانت وراء امتلاك اليهود لأثمن وأغلى عقارات الدار البيضاء.(٩٤)
- وفاؤه لميراثه الثقافي الضخم الذي جسده ثلة من فلاسفة الأنوار الذين أذكوا روح الكراهية للشرقيين بين صفوف المجتمعات الأوروبية، واستعدوها عليهم(٩٥)، ويأتي على رأس هؤلاء مونتسكيو الداعي إلى التخلي عن الأخلاق والفضائل في عالم السياسة، فهو صاحب المقولة: "إن جميع الرذائل السياسية ليست رذائل أخلاقية...وكل الرذائل الأخلاقية ليست رذائل سياسية" (روح الشرائع، الكتاب ١٩، الفصل ٢)،(٩٦) مما يعني أن مونتسكيو كان يدعو إلى عدم الحكم على التاريخ بمعايير دينية أو أخلاقية، وأنه يجب على العكس من ذلك وضع الدين والأخلاق ضمن سياق ووقائع التاريخ(٩٧).

لقد كان هذا هو النبع الأصيل الذي تشربت منه روح هويل وغيره لثقافة نابذة للآخر قائمة على الكراهية والعنف، ثقافة اخترقت عصرًا بكامله. وهو ما نلمسه بشكل جلي حين نجده يتماهى في احتفائه بقنبلة الدار البيضاء، وهو المثقف المغامر الذي انصهر في بوتقة المجتمع المغربي مدة أربع سنوات، مع سان أولير اللاهث وراء المجد السياسي الذي امتلأ زهوًا وفخرًا بعمليات الإنزال بالدار البيضاء(٩٨).

كل ذلك جعل من متنه السردي أسيرًا للرؤية الاستشراقية بأطاريحها المتنوعة: كالفوضى؛ والاستبداد الشرقي؛ والتحقير؛ والهوس الجنسي..... رؤية استشراقية لم تأخذ من الاستشراق إلا جانبه المظلم القاتم، الذي اتخذته الإمبريالية أداة لتبرير الهيمنة على الشعوب الشرقية.

خلاصة القول؛ إن الرؤية الاستشراقية ذات المنحى الإمبريالي في كتاب هويل كرستيان المغامر والمثقف، والصحفي، واضحة كل الوضوح، تجلت في كونه لم يعر أدنى اهتمام للمعايير الإنسانية والقيم الأخلاقية، ولم يبد أدنى تعاطف مع المغاربة في محنتهم، وكان منذ البداية على وعي تام بجغرافية وتضاريس الأرض الفكرية التي كان عليها يتحرك، ومنها كان يدير دفة السرد.

الاحالات المرجعية:

(1) كرستيان هويل: مؤسس جريدة "لادبيش ماروكين" و"لاكسيون ماروكين"، صحفي ومغامر فرنسي نزل بالدار البيضاء سنة ١٩٠٧ كمراسل لجريدة "لوماتان" الباريسية و"لادبيش ماروكين" الطنجية. تميزت كتاباته بالحدة والعنف، فقد وجه انتقادات حادة للجنرال موانيي، قائد قوات الاحتلال بالشاوية، وكان من أنصار الإلحاق دفعة واحدة، عاب على موانيي نهجه سياسة حذرة قوامها احتلال المغرب عبر مراحل، لأجل ذلك تم إبعاده سنة ١٩١٠ من طرف موانيي، لتتم المناداة عليه من طرف الإقامة العامة سنة ١٩١٣ لإدارة جريدة تكون ناطقة باسمها، فأسس جريدة "ليزانال ماروكين" بطنجة في يونيو ١٩١٣، ثم نقلها إلى الدار البيضاء لتكون أول مجلة أسبوعية تصدر بهذه المدينة، وقد حملت على عاتقها الدفاع على مصالح المعمرين بها، دخل في مناوشات مع الإقامة العامة فيما يتعلق بتدبير المدينة وتطهير شوارعها، ومواجهة وباء التيفوس الذي ذهب بأرواح الكثير من سكانها، فتم ترحيله رفقة زميله"روزيه" سنة ١٩١٤ بأمر من ليوطي، وكان الإبعاد الثالث والأخير بدوره من توقيع هذا الأخير وذلك مباشرة بعد أن هدأت الزوبعة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أثارتها أزمة النقد الحسني سنة ١٩١٩، والغريب في الأمر أن الحماية لم تعلل قرار الإبعاد بمواقفه الصحفية أثناء الأزمة، بل بررته باعتباره صاحب سوابق في امتهان الصحافة وممارسة الابتزاز ونشر الفوضى، لذلك أدين بجنحة العود، وكانت التهم التي وجهت إليه كالتالي: -ذم السلطان والمس بهيبته؛ –المس بسمعة إسبانيا؛ –معاداة السامية. والجدير بالذكر أن قرار الإبعاد شمل صحفيين اثنيين آخرين هما: بوفي وإيدولان، اعتمدنا في وضع هده الترجمة على:

Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, Casa édition, Rabat, 2014, p, 11.

Baida, Jamaa, **La presse marocaine d expression française des origines à 1956**, publication de la faculté des Lettres et des sciences Humaines, Rabat, 1996 , p, p, p, 110, 111, 11. Boutoubqalt, Tayeb, **La politique d'information du protectorat français au Maroc 1912-1956**, 1(ére) édition 1996, Les éditions maghrébines, Casablanca, de p, 296 à p, 300.

(2) لمزيد من التوسع في فهم كيف انبنت الإيديولوجية الاستعمارية على مفاهيم الاستشراق، يمكن الرجوع إلى: بدر، أشرف، "الإيديولوجية الصهيونية والغرب، رحلة التوظيف من الاستشراق إلى الإسلاموفوبيا" **الاستغراب**، العدد السادس، السنة الثانية، شتاء ٢٠١٧، ص، ١٠٢.

(3) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines, Casa** Express Editions – Magellan& Cie, 2014, p ,75.

(٤) الشيخ، ممدوح، **الاستشراق الجنسي**، مطبعة مدارك ابن رشد، القاهرة الطبعة الثانية ٢٠١٥، ص، ٨١.

(5) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, pp. 7٤ ,70.

(٦) الشيخ، ممدوح، **الاستشراق الجنسي**، مرجع سابق، ص، ٧٥.

(7) Le droit de cuissage.

(٨) ثورنتون، لين، **النساء في لوحات المستشرقين**، ترجمة مروان سعد الدين، المدى، الطبعة الأولى ٢٠٠٧، ص، ٢٢.

(9) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, p. 82.

(10) Ibidem.

(11) لا يعتمد الكاتب هنا الرواية الحرفية للمرضعة الزنجية، ولكنه أحيانا يستعمل كلماتها الحرفية، ويلجأ في الهامش إلى ترجمتها إلى اللغة الفرنسية.

(12) Biarnay.

(١٣) قرية مغربية توجد وسط المغرب، تابعة لإقليم أزيلال، عن ويكيبيديا.

(14) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, pp. 123-124

(15) Ibid, p. 74.

(16) Douté, Edmond, **En Tribu, Missions Au Maroc,** Dar Al Aman, Rabat, 2015, p. 146

(17) Loti, Pierre, **Au Maroc**, Eddif, 2008, ppp. 238-239- 240.

(18) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, p. 42.

(19) Tharaud, Jérôme et Jean, **Fès ou les bourgeois de l'Islam**, Edition Marsam, Rabat, 2008. De p, 105 à p. 114.

(20) دوتي، إدموند، **الصلحاء، مدونات عن الإسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر**، ترجمة محمد ناجي بن عمر، إفريقيا الشرق، ٢٠١٤، ص، ١٠٥، ١٠٦.

(21) Loti, Pierre, **Au Maroc**, Voir par exemple les pages : 240 et 285..

(22) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, p. 65.

(23) Ibidem.

(24) Ibid, p.66.

(25) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, p. 66.

(26) Ibidem.

(27) Ibid, 67.

(28) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, p. 80.

(29) Ibid, p, 71.

(30) Ibidem.

(31) Ibid, p. 83.

(32) Ibid, p, 82.

(33) Ibid, p, 84.

(34) Ibid, p.١٢٢

(35) Ibidem.

(36) Ibid, pp. 122-123.

(37) Ibid, p. 76.

(٣٨) بنسالم، حميش، **العرب والإسلام في مرايا الاستشراق**، دار الشروق، الطبعة الأولى ٢٠١١ ص،٦٢.

(39) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, p. 76.

(40) يتميز المجتمع الفيودالي، حسب جورج دوبي، بكونه مجتمعا يتميز بتفكك السلطة الملكية، انظر: دوس، فرونسوا، **التاريخ المفتت، من الحوليات إلى التاريخ الجديد**، ترجمة الطاهر محمد المنصوري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩، ص، ٣٣٨.

(41) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, p. 76.

(42) Ibidem.

(43) يرجع علال الخديمي الأسباب الحقيقية لحادث مقتل الأوروبيين بميناء البيضاء "٣٠ يوليوز ١٩٠٧" إلى سياسة التغلغل النشيط وبسط النفوذ الفرنسي، أي السياسة الإمبريالية الهادفة إلى استعمار الشعب المغربي، انظر: الخديمي، علال، **التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب ١٨٩٤-١٩١٠ حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية**، إفريقيا الشرق، الطبعة الثالثة ٢٠٠٦، ص ٢١٤.

(44) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, p. 12.

(45) Montagne, Robert, **Les berbères et le mekhzen dans le sud du Maroc,** Essai sur la transformation politique des berbères sédentaires «groupe chleuh» librairie félixalcan, Paris, 1930.

(46) لم يهمل الكاتب الإشارة إلى الإجراءات الغريبة التي أقرتها معاهدة الجزيرة الخضراء، وكانت محل حنق المغاربة، إضافة إلى الإنشاءات التي باشر المستعمر إقامتها بالميناء وراء المجزرة إلا أنه اعتبرها مجرد أسباب عرضية لحادث جوهري تمثل في تضرر مصالح المنتفعين من الغش والتدليس والتهريب.

(47) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, p. 127.

(48) Ibid, p. 11.

(49) Ibid, p. 31.

(50) Ibid, p. 22.

(51) Ibid, p. 19.

(52) Ibid, p. 23.

(53) Ballande.

(54) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, p. 32.

(55) Ibid, p. 21.

(56) Baïonnette.

(57) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, pp. 30-31.

(58) Ibid, p. 20.

(59) Ibid, p. 16.

(60) Ibid, p. 42.

(61) Ibidem.

(62) Drude.

(63) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, p. 40.

(64) Ibid, p. 23.

(65) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution du Protectorat français au Maroc, 1912-1925,** Tome 1, Editions Harmattan, 1996, p, 116.

(66) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, p. 110.

(٦٧) يعني في إعلان الخضوع - المترجم.

(٦٨) أي أنهم إن لم يخضعوا طواعية، فسيخضعون عنوة نتيجة لتفوق قوات الاحتلال عسكريًا.

(69) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, pp. 110-111.

(٧٠) إبراهيم، عبد الله، "نقد الخطاب الاستعماري"، **جريدة الرياض**، ١٤ شتنبر ٢٠١٣، العدد ١٦٥/٨.

(٧١)نفسه.

(72) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op.cit, p. 111.

(73) Ibidem.

(74) البوعزاوي والسكتاني شريفان إدرسيان، كان يتمتعان باحترام وتوقير قبائل الشاوية، اضطر المولى عبد الحفيظ للاستعانة بهما لتهدئة القبائل التي اشتبكت مع القوات الفرنسية بدار القصيبة "بأولاد سعيد الشاوية/المترجم"، حيث كان صدى طلقات المدافع الفرنسية تسمع بالمحلة السلطانية، رغم بعد المسافة، مما جعلها في حالة تأهب. يشير الكاتب أنهم في مساء ذلك اليوم ٢ فبراير ١٩٠٨ علموا أن الأمر يتعلق بمباغتة القبائل لرتل فرنسي مما خلف عددا من القتلى، كما حمل، في كيس، رأسا قتيلين إلى المحلة، مما أثار الرعب داخل حاشية السلطان، الذي عقد مجلسا استدعى إليه أقوى رجلين نافذين بالشاوية هما السكتاني والبوعزاوي للتشاور. انحاز الأول للمقاومة إلى آخر رمق، واجتياز النهر بالقوة "نهر أم الربيع"، في الوقت الذي سيقوم فيه السكتاني وأتباعه بتحويل انتباه الفرنسيين عن المحلة السلطانية. أما البوعزاوي فقد كان يرى على العكس من ذلك باقتراحه أن الخضوع هو السبيل الوحيد لاجتياز النهر "أنه ليس هناك من سبيل لاجتياز النهر إلا بإعلان الخضوع". وعند مناقشة اقتراح السكتاني الداعي إلى اجتياز النهر بالقوة، وتحويل انتباه القوات الفرنسية –باشتباكه معها- ، تم التوصل إلى أنه من غير الممكن فعل ذلك لأن تحرك القوات الفرنسية لم يكن من الممكن التكهن بأن لا يصادف حضورها لحظة اجتياز المحلة للنهر، الأمر الذي يتطلب علاوة على ذلك عدة أيام. انحاز الجميع للاقتراح الذي تقدم به البوعزاوي، فاستدعى السلطان هويل وطلب منه القيام بمهمة التفاوض مع القائد الفرنسي داماد لمعرفة شروطه لقبول خضوع قبائل الشاوية، انظر:

Houel, Christian, op.cit., pp. 85- 86.

(75) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op.cit, p. 112.

(76) يشير القبطان كراسي إلى إحراق القوات الفرنسية لكل ما صادفته في طريقها، كما لمح للمذبحة الشنيعة التي ارتكبتها ضد المحلة الشريفة على ضفاف وادي أكسيلا، وأشار أيضا إلى المعركة الحاسمة بسيدي الغنيميين "١٥ مارس ١٩٠٨" التي كانت بمثابة مذبحة عظيمة، بلغ عدد قتلاها ١٥٠٠ شهيد مغربي، انظر:

Capitaine, Grasset, **A travers la Chaouia avec le corps de débarquement de Casablanca 1907-1908,** Hachette, 1912, p, 120.

(77) يشير الكاتب إلى إنه بعد فترة قصيرة من المذبحة، استفسر الضباط المسؤولين عن المأساة لمعرفة سبب إطلاق المدفعية الفرنسية النار على الأهالي، بعد اتفاق الطرف الفرنسي معهم على القدوم إلى المعسكر لإعلان الخضوع، إلا أن مفاجأته كانت كبيرة بسبب أن هؤلاء لم يذكروا المجزرة أصلاً، فأنى لهم أن يذكروا أسبابها.

(78) نعني بذلك أن فرنسا الاستعمارية لم تسقط من ذاكرتها هذه الأحداث الدموية/ الجرائم لأنها نالت عفو وصفح المغاربة، بل تناستها استخفافا بهم وبحقهم في الحياة.

(79) إدوارد، سعيد، **الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق،** ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦، ص، ٥٠.

(80) Houel, Christian**, Mes aventures marocaines**, op.cit, p. 42.

(81) Houel, Christian**, Mes aventures marocaines**, op.cit, p. 42.

(82) انظر: بوزويتة، سمير، **مكر الصورة المغرب في الكتابات الفرنسية ١٨٣٢-١٩١٢**، إفريقيا الشرق، ٢٠٠٧، الصفحات من ٤١ إلى ٩٠.

(83) Chevrillon, André, **Un crépuscule d'islam au Maroc en 1905,** Eddif 1999.

(84) Loti, Pierre, **Au Maroc,** Eddif, 2008.

(85) لا أقوم هنا بالقراءة الظاهرية أو الترجمة الحرفية للنص، بل أحاول أن أستنبط مراد المؤلف من أقواله، ولقراءة النص الفرنسي، انظر:

Loti, Pierre, **Au Maroc,** op, cit, p, 340.

(86) Houel, Christian**, Mes aventures marocaines**, op.cit, p. 71.

(٨٧) Holtzmann.

(88) Houel, Christian**, Mes aventures marocaines**, op.cit, p. 63.

(89) انظر في هذا كيف بالغ بيير لوتي في إحاطة صورة المرأة المغربية بهالة من الإثارة الجنسية الممزوجة بالسادية، باعتبارها مجرد أداة جنسية، يمارس عليها من يمتلكها شتى أنواع العنف الجسدي:

Voir : Loti, Pierre, **Au Maroc, op, cit, p, 240.**

(90) تميز بيير لوتي عن هويل، وتفوق في وصف مظاهر ملوكية السلاطين العلويين، فقدم مشهدا شاعريا غاية في الجمال والإتقان، معها نشعر وكأننا أمام متتالية بصرية سينمائية، وليس أمام نص مجدول من الكلمات، انظر:

Loti, Pierre, **Au Maroc,** op, cit, de p. 194 à p. 200.

(91) Houel, Christian**, Mes aventures marocaines**, op.cit, p. 128.

(92) Ibid, p. 11.

(93) Ibid, p. 12.

(94) Ibid, p.٤٢ .

(٩٥) انظر بهذا الخصوص مواقفه من احتلال الدار البيضاء، ودفاعه عن العنف كسبيل لتحقيق المجد

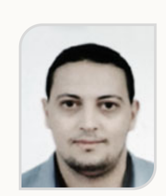
(٩٦) ألتوسير، لوي، **مونتسكيو السياسة والتاريخ**، ترجمة نادر ذكرى، التنوير، الطبعة الثانية، ٢٠١٠، ص، ١٧.

(97) من المعروف أن الرؤية الغربية لطبيعة النظام السياسي بالشرق قد تشكلت انطلاقا من قراءات هيغل ومنتيسكيو لموضوع الاستبداد الشرقي، انظر: غويتيسولو ، خوان، **في الاستشراق الاسباني**، دراسات فكرية، ترجمة كاظم جهاد، نشر الفنك، ١٩٩٧، ص،١٠٣.

(98) أوفيد، جورج، **اليسار الفرنسي والحركة الوطنية بالمغرب ١٩٠٥-١٩٥٦**، الجزء الأول دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، ص ٤٩.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].





عبد الفتاح ايت ادرى

باحث في التاريخ المعاصر والراهن

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

بني ملال – المملكة المغربية

مُلَخّص

يكتسي موضوع "التغلغل الاستعماري بالشمال الأفريقي: وسائل التسرب الفرنسي بالمغرب قبل سنة ١٩١٢" أهمية كبرى في تاريخ المستعمرات عامة، وتاريخ المغرب خاصة. نظرًا لأن كثيرًا من الدارسين للاستعمار وطرقه يركزون على العوامل الداخلية التي أدت ببلد معين إلى الوقوع فريسة للاستعمار، دون التركيز على بقية العوامل الأخرى، لاسيما الخارجية منها بالخصوص. فمع بداية القرن التاسع عشر تزايدت الصلات بين الدولة المغربية والدول الأوربية، الأمر الذي فرض على المغرب أن يصبح مادة قابلة للاستغلال والاستنزاف في المشروعات الاستعمارية. وقد كان لفرنسا النصيب الأكبر في التخطيط لأن يكون المغرب من نصيبها، لاسيما وأنها تحتل جارها الشرقية الجزائر. فبمجرد احتلال فرنسا لهذه الأخيرة سنة ١٨٣٠، بدأت توجه أنظارها صوب المغرب، وشرعت في التخطيط للسيطرة عليه، فوضعت مخططًا متكاملاً يتضمن مجموعة من الأساليب والوسائل للتغلغل السلمي، تمهيدًا للغزو العسكري، هذه الوسائل مزجت بين استعمال العلم والمعرفة والطب، وبين فرض قروض وإثارة الفتن والاضطرابات عبر عناصر مغربية مدعومة من فرنسا، لتحصل فرنسا على العديد من الامتيازات عبر فرضها مجموعة من الاتفاقيات والمعاهدات على المغرب. وقد حاولنا تسليط الضوء على مجموعة من هذه الوسائل، بالاعتماد على مجموعة من المراجع والدراسات العربية والفرنسية، والتي درست تاريخ المغرب خلال القرن التاسع عشر، معتمدين على منهج تاريخي سيمكننا من الوقوف على الجذور التاريخية التي ساهمت في فرض الحماية الفرنسية على المغرب وجعله مستعمرة فرنسية سنة ١٩١٢.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٠٧	أبريل	٢٠٢١
تـاريخ قبــول النشــر:	٠٣	مايو	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

الاستعمار الفرنسي؛ الوصاية المالية؛ الثورات القبلية؛ الدبلوماسية الفرنسية؛ تاريخ المغرب الحديث

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.231852

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الفتاح ايت ادرى. "التغلغل السلمي للاستعمار في الشمال الإفريقي: أساليب التسرب الفرنسي في المغرب قبل سنة ١٩١٢ نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثاني والخمسون؛ يونيو ٢٠٢١. ص ١٧٠ – ١٨٠.

Corresponding author: aitdraabdelfatah@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةٌ

بعد احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠ بدأت تتطلع لمد نفوذها على المغرب، وأصبحت تبحث عن الفرصة المناسبة لجر المغرب إلى حرب، وهو ما تم سنة ١٨٤٤ في معركة ايسلي التي بينت بالملموس ضعف الجيش المغربي الذي أزيلت عنه أسطورة وادي المخازن، وتوضح ذلك أكثر إثر انهزامه الثاني أمام إسبانيا في معركة تطوان. فأصبحت الدول الأوربية عامة وفرنسا وإسبانيا على وجه الخصوص تتحين الفرص للانقضاض على المغرب، وحدث بينها نوع من التنافس المحموم: فبريطانيا كانت تتذرع بهيمنتها على الأسواق المغربية، وإسبانيا تمسكت بحقوقها التاريخية، وألمانيا الحديثة العهد بالتوحيد، طالبت بحقها في التعويض، وفرنسا من جهتها كانت ترى أن وجودها في الجزائر يعطيها الحق في التوسع داخل المغرب. أمام هذا التنافس الإمبريالي، شرع رواد الفكر الاستعماري ومنظريه خاصة الفرنسيين في وضع تصورات ومخططات ومناهج وأساليب للتغلغل السلمي.

يندرج هذا المقال في إطار الدراسات التاريخية التي تهدف إلى محاولة التعرف على آليات ووسائل اشتغال الظاهرة الإمبريالية قبل أن تخضع بلدًا معينًا، فالاستعمار قبل أن يغامر بالاحتلال العسكري، يمهد له بوسائل سلمية، وهو الأمر الذي أعتمد في العديد من الدول الشمال الإفريقية، وخاصة المغرب. وهو موضوع من الأهمية بمكان على اعتبار أن كثيرًا من الدارسين يهتمون فقط عند دراسة الاستعمار بتبيان غاياته وأهدافه والاحتلالات العسكرية التي باشرها متناسين وسائل تغلغله السلمية والتي لها الدور المحوري في استعمار بلد ما، وهي الوسائل التي تمتد في الزمن.

سنحاول من خلال هذا المقال توضيح الدور الذي لعبته كل وسيلة على حدا في الكشف عن عورة المغرب وتطويقه أولاً وإخضاعه أخيرًا لحمايتها سنة ١٩١٢. وقد قسمنا هذه الوسائل إلى: (سلاح العلم/ الطب/ فرض الوصاية المالية/ استغلال شبكة الوسطاء والقناصل/ إثارة الفتن والاضطرابات/ إنشاء مجموعة من التجهيزات/ الاتفاقيات والمعاهدات).

أولاً: سلاح العلم

كتب onésime reclus في سنة ١٨٧٣ قائلاً "المغرب هو أحد أكثر البلدان غموضًا في العالم، مع أنه لا يقع إلا على بعد كيلومترا قليلة من إسبانيا"(Daniel rivet, 1988, p9). إن هذا الغموض الذي كان يكتنف الأبحاث والمعلومات حول المغرب من جهة، والتجربة الجزائرية التي بينت بالملموس صعوبة إخضاع بلد ما بواسطة الجهد العسكري فقط من جهة ثانية، حتم على منظري الاستعمار الاعتماد على وسائل أخرى لكسب المعركة، وهذا ما نكتشفه من خلال قول دوتي (Edmound doutté,1900,P9): "إن جميع المشاكل التي عرفناها في الجزائر خلال سنواتنا الأولى مردها إلى الجهل".

نجده يقول في موضع أخر: "ينبغي أن يتقدم الفتح القهري للمغرب الفتح العلمي ليكون هو كذلك فتحًا فرنسيًا، وذلك لأن العلماء الذين يبعث بهم إلى المغرب ينقلون إلينا المواد الضرورية لإقامة سياستنا المغربية هذا إضافة إلى أن هناك مصلحة فائقة ليتحول المغرب إلى ميدان علمي يشتغل فيه العلماء الفرنسيون وعلماء الجزائر على وجه التخصيص... لكن ينبغي أن لا نكثر من الوفود العلمية من الجزائر حتى لا نثير انتباه المنافسين لنا... على أن أهم شيء هو أن لا يبدوا للسياسة أي دور في هذه الأمور كلها، فإن أعمال علمائنا وإن انحصرت إطلاقًا عند مجال تخصصاتهم، فان لها مفعولاً يتجاوز الغاية العلمية لأنها تمدنا بسبب أخر من أسباب التدخل في شؤون المغرب... والفائدة كل الفائدة في الإكثار من المنشورات، ويجب الإلحاح على بديع جغرافية البلد وعلى خصوبتها مع وصف الإنتاج، ويجب بعبارة وجيزة إحداث رغبة التعرف عليها والانتقال إليها والحرص على أن تصبح أرضا فرنسية.." (إبراهيم بوطالب، ١٩٨٩، ص١١٩).

لقد كانت هناك منشورات وكتب حول المغرب قبل ١٩٠٠ لكنها كتب كانت تغرق في الخطاب الغرائبي والعجائبي، لكن منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر تناسلت مجموعة من الأعمال ذات القيمة العلمية، ولعل من أهم الأعمال التي رصدت الجغرافية المغربية عمل شارل دو فوكو الذي تقنع بزي يهودي ليطوف عبر المغرب متحسسًا وملتقطًا جميع المعلومات التي قد يستغلها جيش الغزو ذات يوم، فبعد جولاته في المغرب مدة سنة تقريبا تمكن من حصد معلومات وإفادات قيمة شملت كل ميادين المعرفة، دونها في كتابه (la reconnaissance du Maroc)، وقبل طبع هذا الكتاب قدم نسخة خطية منه إلى الجمعية الجغرافية بباريس والتي منحته أول وسام ذهبي من أوسمتها التكريمية في جلستها المنعقدة يوم ٢٤ أبريل ١٨٨٥، تقديرًا لما أضافه من معطيات علمية قيمة عن الحالة والأوضاع في المغرب. وأصبح المغرب منذ هذه الفترة قبلة للعلماء والباحثين الأوربيين، وظهرت مجموعة من التقارير والدراسات أنجزت من طرف جواسيس وقناصل وعلماء كل

الدول الأوربية المهتمة بالمغرب، ونشير هنا إلى تقارير دي سيكونزاك، Aubing وBrives ومنشورات الخرائطي Sabatier والألماني لينتس والاسباني اميلو بونلي. ولقد أفاض في نفس الاتجاه عدد أخر من الكتاب أمثال la martinière و lacroix و bernard و Gautier (إبراهيم بوطالب، ١٩٨٩ص ١١٧)

كان الاهتمام بالمغرب من الناحية المعرفية مشتركًا بين عدد من الدول الأوربية، لكنه لم يكن متساويًا، أي أنه كان خاضعًا لتراتبية خاصةً احتلت فيه فرنسا الموقع الأول وذلك بحكم توفرها على تجربة في غاية الأهمية، فيما يتعلق بتعاملها مع محيط جغرافي وبشري يتقاسم عددًا من الخصائص المشتركة، كما إنها تتوفر على رصيد هام من المعلومات بفضل البعثات الجغرافية وتحريات العسكريين انطلاقًا من الحدود المغربية الجزائرية. (رشيد عزيور، أطروحة دكتوراه ٢٠٠٤ – ٢٠٠٥) وفي هذا الصدد أوصى ادموند دوتي أحد أقطاب الامبريالية الفرنسية بالاهتمام بسلاح العلم في غزو المغرب حيث قال: "يجب أن يتقدم الغزو العلمي الغزو العسكري" (doutté,1900, p39)، كما دعى إلى الاهتمام بدروس الجغرافيا الخاصة بالمغرب.

ومن أجل هذا المخطط الاستعماري تأسست البعثة العلمية ابتداءً من سنة ١٩٠٣ التي أقيمت في طنجة (Daniel Rivet,1988, p39) بإيعاز من أحد أقطاب التغلغل الفرنسي بالمغرب وهو ألفرد لوشاتلي، ولقد شرعت هذه البعثة تنقب عن أسرار المغرب وتنشر الأبحاث ونتائج استطلاعاتها في دورية les archives marocaine ابتداءً من سنة ١٩٠٤، وتألق بفضلها قطب أخر من أقطاب الاستعلامات الفرنسية وهوbellaire Michaux (بوطالب، ١٩٨٩، ص ١١٩) إن المرحلة التي تولى فيها ميشو بلير إدارة البعثة العلمية تُعد مرحلة بارزة في خدمة المشروع الكولونيالي حيث كانت جهوده الشخصية ذات قيمة جوهرية في المشروع الكولونيالي، خصوصًا على مستوى إعداد المونوغرافيات، وقد عرفت البعثة تحت إدارته غزارة في الإنتاج. وإضافة إلى مجلة الوثائق المغربية ظهرت مجلات ومصنفات أخرى من أبرزها les archives berbère وvilles et tribus du Maroc.

وعمدت البعثة العلمية إلى التعرف عن قرب على التنظيم السوسيوسياسي المغربي، وتمكين الاحتلال من معلومات ووثائق على درجة عالية من الأهمية والدقة، فهذه الأبحاث لم تسع في واقع الأمر سوى إلى تعبيد الطريق للاحتلال المغرب. (محمد الغيلاني، ٢٠٠٨، ص ١٦) ومن الأدلة القاطعة على تقدم الأبحاث الكولونيالية من حيث القيمة، تناسل مجموعة من المؤلفات حول تاريخ المغرب مثل كتاب August cour عن قيام أسر الشرفاء بالمغرب ومنافستهم مع أتراك الايالة الجزائرية ما بين ١٥٠٩ – ١٨٣٠ الذي صدر سنة ١٩٠٤، وكتاب Massignon عن أحوال المغرب في القرن السادس عشر الذي صدر سنة ١٩٠٦ وكتاب Masson عن العلاقات التجارية بين فرنسا وشمال إفريقيا في العصر الحديث صدر سنة ١٩٠٣ وكتاب Routard de card التي ضمنه سلسلة المعاهدات والأوقاف التي أبرمت بين المغرب والدول الأوربية قبل الحماية (بوطالب، ١٩٨٩، ص ١٨١).

كما نجد أن الفرنسيين اهتموا بترجمة عدد من المؤلفات مثل كتاب الاستقصاء للناصري وكتاب الفخري لابن طباطبا ودوحة الناشر لابن عسكر ومجموعة من الفتاوي التي تضمنها كتاب المعيار للونشريسي. (مولود عاشق، ٢٠١٠، ص٢٣) كما ترجمت الكثير من المخطوطات المغربية التي تم نشرها في دورية الوثائق المغربية، كما تم نشر الكثير من المقالات في مجلة العالم الإسلامي التي أطلقها لوشاتلي سنة ١٩٠٦(Daniel rivet , 1988, p 22) إن كل هذه الدراسات أنجزت بتشجيع من المؤسسات الفرنسية، لتكون رهن إشارة أصحاب القرار السياسي من مدنيين وعسكريين للاعتماد عليها والاستئناس بها لوضع المخططات والأساليب الملائمة لإخضاع المخزن المغربي لرغبات الدولة الفرنسية وطموحاتها (زكي مبارك، 2010، ص ١٠)

إن دور العلماء لإخضاع المغرب كان واضحًا وذلك ما عبر عنه جورج هادي مدير شؤون التعليم في خطاب الافتتاح للمؤتمر الأول لمعهد الدراسات المغربية سنة ١٩٢٠: "لم يكن الجنود ورجال الإدارة والمعمرين ورجال الأعمال هم الذين نقلوا إلى المغرب أنشطتهم، فإن العلماء ورجال الفن هم كذلك تجاوزوا كل الأخطار ليتعرفوا على المغرب وليعرفوا سكانه.. وكما أن التقدم الاقتصادي قد حصل بموازاة أعمال التمهيد العسكري، كذلك إن العلوم قد أطاحت بالمغرب على دوي البندقيات" (بوطالب، ١٩٨٩، ص١٢٣) إن هذه الأبحاث العلمية خلقت نقاشًا حادًا بين فريقين من المستعمرين الفرنسيين: فريق يتبنى سياسة القبائل وفريق يتبنى سياسة المخزن، فالفريق الأول يرى أن إخضاع البلاد لن يتم إلا بالتركيز على إخضاع القبائل، أما الفريق الثاني فيركز على استقطاب المخزن لأنه القوة الشرعية وبواسطته (Daniel rivet, 1988, p 41) يستطيعون النفاذ إلى المجتمع المغربي وهذا ما عرف في عهد ليوطي بالسياسة الإسلامية. لقد مكنت مختلف هذه التقارير

فرنسا من وضع صورة واضحة عن المغرب، واستمرت هذه الأبحاث خلال فترة الحماية بواسطة ضباط الشؤون الأهلية، فالغزو العلمي حسب ادموند دوتي يجب أن يستمر بدون توقف (doutté, 1900, p.21)

ثانيًا: الطـــب

من الوسائل التي استعملتها الدول الأوربية في تسهيل تغلغلها داخل التراب المغربي الطب، ولعل أول خطوة في هذا الطريق كان تأسيس المجلس الصحي الدولي، ففي ٢٨ أبريل ١٨٤٠ تقدمت الهيئة القنصلية بطنجة إلى سلطان المغرب بمشروع قانون يؤسس بموجبه "مجلس صحي" يعهد إليه بالسهر على الجوانب الصحية بجميع المراسي التجارية، وذلك باتخاذ الإجراءات الوقائية ضد السفن القادمة إلى المغرب من الجهات الموبوءة دون التدخل في الشؤون الصحية الداخلية للدولة المغربية. (زكي مبارك، ٢٠١٠، ص١١) إلا أن حقيقة الأمور كانت عكس ذلك فالمجلس الصحي دأب على التدخل في الشؤون الحضرية، بشكل تحولت معه المراقبة الصحية الدولية إلى وسيلة لنهك السيادة الوطنية ودوس حقوق المخزن... وباعتبار أنها مست مجالات جد حساسة كمجال الحج، فإنها كانت صدمة عنيفة للإنسان المغربي، ومن تم لابد أن تكون قد أدت إلى حدوث خدشات عميقة في نسيج العلاقات بين المخزن ورعاياه.

لقد تزايد عدد الأطباء القادمين إلى المغرب بدعوى حماية الجاليات الأوربية والأمراض، وفي هذا الصدد نذكر الطبيب Roligner الذي حل بالمفوضية القنصلية الفرنسية سنة ١٨٥٢، وظل يزاول نشاطه بها إلى حدود وفاته سنة ١٨٥٦، وهو الذي أقنع القنصلية الفرنسية بإحداث أول مستشفى بطنجة سنة ١٨٥٤، ونظرا لدوره الإشعاعي بنت فرنسا مستشفى ثان سنة ١٨٦٥، ساهمت في بناءه الدولة المغربية بدفع نصيب من الغرامة التي فرضتها عليها فرنسا إثر مقتل فرنسيين بتطوان سنة ١٨٦٣. (زكي مبارك، ٢٠١٠، ص ١٤) ونجد عدد من الأطباء الآخرين انتشروا بالعديد من المدن المغربية كالدكتور Schmidt و Maurerبتطوان، والدكتور الاسباني Josezeininez بالعرائش والروسي Krakof بالقصر الكبير والطبيب Krake بمراكش والفرنسي Guiol بالبيضاء.

ونجد أن المولى الحسن كان له طبيب فرنسي لقب بعميد الأطباء الذين مهدوا للتدخل في المغرب واسمه Linares حيث يقول عنه هنري دي لامارتينير: "لقد كان أداة لا تقدر بثمن لسياستنا في لحظاتها الأكثر صعوبة، إنه يعرف تفاصيل سياستنا وخبايا المخزن، وقيمة الشخصيات التي يتكون منها، إن تجربته لا تقدر بثمن" (بوجمعة رويان، أطروحة، ٢٠٠٣ -٢٠٠٤، ص ٣٠٢)، وكان لينارس واعيا بالمسؤولية الملقاة على عاتقه، إذ نجده يقول في رسالة وجهها إلى وزارة الحربية بباريس: "إنني أبذل كل ما في جهدي لكسب صداقة المغاربة واعترافهم بالجميل ... فقد كسبت مودة باشا الرباط محمد السويسي لأنني عالجت والده من التفويد حمى الأمعاء" (ثريا برادة، ١٩٩٧، ص ٣٦٠) ونجد الطبيب العسكري الاسباني أوبليو إي كاناليس يؤكد على دور الأطباء في خدمة أطماع بلاده قائلاً: ".. اربحوا ثقة الزوايا، واجلبوا الأطباء.. فلن تلبثوا أن تصبحوا أسياد البلاد" (رشيد عزيوز، أطروحة، ٢٠٠٤-٢٠٠٥، ص ٣٤٦).

وسهل عقد الجزيرة الخضراء على الأطباء عملية الاختراق، وذلك عندا سمح لهم بإمكانية التسرب داخل البلاد لحماية الأوربيين من الأوبئة والأمراض التي كانت موجودة في المغرب، واختطوا في سبيل ذلك مجموعة من المستوصفات مثل مستوصف Maurat بفاس و Bouveret بالصويرة وGuichard بالجديدة وBraug بالعرائش وMauchamp بمراكش، ويطلق الدارسون على أطباء هذه الفترة اسم الأطباء المبعوثين لأنهم كانوا موفدين من طرف وزارة الشؤون الخارجية وهم الذين وصفهم Colombani بصناع التدخل السلمي، والواقع أن الأطباء المبعوثين لم يكونوا سوى مصلحة من مصالح استعلامات، استعملت الطب للأخذ بألباب الناس عن طريق علاج ما يلم بهم من أنواع العلل والأمراض (بوجمعة رويان، ٢٠٠٣-٢٠٠٤، ص ٣٣٠). ومن الأطباء الذين عاشوا بالمغرب واستفاد منهم الجيش الفرنسي كثيرا الطبيب فايز جربير الذي ألف كتابًا سنة ١٩٠٧ حول الشاوية ظل لسنوات يشكل دليلاً لا مناص منه لضباط الحملات العسكرية بالمغرب، كما وضع بعد ذلك بسنوات خريطة لمدينة فاس وهي التي طبعت واعتمدها موني في زحفه على مدينة فاس سنة ١٩١٢ (بوجمعة رويان، ٢٠٠٣-٢٠٠٤، ص ٣٠٥).

ومن أشهر الأطباء الذين قدموا إلى المغرب نجد الطبيب Mauchamp، الذي قتله المغاربة، ولعل سبب قتله يرجع لفطنة المغاربة لنواياه التجسسية. ونجد كذلك الطبيب الألماني هولزمان الذي كان يركز في تحركاته على استقطاب الزعامات المحلية مثل الكلاوي والمتوكي وشيخ زاوية تمصلوحت، كما كان يتآمر مع يهود مراكش لتصفية حساباته مع موظفي المخزن المعارضين لمصالح بلاده (رشيد عزيوز، ٢٠٠٤-٢٠٠٥، ص ٣٣٠) هؤلاء الأطباء اهتموا أيضًا بتسجيل

ملاحظاتهم عن الجيش المخزني في كل جزئياته سواء تعلق الأمر بالمكونات البشرية وحالة النظام والانضباط وكذلك التجهيزات العسكرية من أسلحة ومعدات (رشيد عزيوز، ٢٠٠٤-٢٠٠٥، ص ٣٥١).

ومع احتلال فرنسا لوجدة والشاوية بدأ الطب يلعب دورًا أهم مما مضى، حيث كان الأطباء يصاحبون فيالق الغزو، وفي هذا الصدد يقول ليوطي: "إن هدف هذه المرحلة هو تحقيق la pacification.. وذلك بتعويد الأهالي على الاتصال بنا، ويتعين علينا في هذا الاتجاه أن نغتنم كل مناسبة تجعلنا ندخل في علاقة سلمية مع السكان، وتمكن من تسهيل التعامل معهم وحدهم بالإعانة الطبية"، وقال في مناسبة أخرى: "إن الطبيب عندما يزور مناطق ترفض الدخول تحت سيطرتنا، ويجد سكانها عرضة لأمراض فتاكة، فإنه هو الرئيس الأمثل هناك، لأنه يمكن أن يقوم مقام الموظفين وجيوش الاحتلال". وقال في خطاب له حول دور الطبيب في الاستعمار ألقاه في بروكسيل سنة ١٩٢٦: "ليس هناك ما هو أقوى ولا أكثر فاعلية من عمل الطبيب كوسيلة للتغلغل وجلب الأهالي وتمهيد البلاد" وأضاف: "إن للتوسع الاستعماري جوانبه القاسية، فهو ليس خاليًا من العيوب والنقصان، غير أنه إذا كان هناك ما يضفي على هذا التوسع نبلا ويبرره فهو عمل الطبيب كمهمة وكرسالة شريفة" (بوجمعة رويان، ٢٠٠٣-٢٠٠٤، ص ٣٠٧)

وفي مرحلة الغزو العسكري للمغرب لعب الأطباء العسكريون دورًا أساسيًا في ترسيخ الهيمنة الاستعمارية، ففي كتاب صدر لأحد الأطباء العسكريين يقول ليوطي في مقدمته: "أفكاري حول أهمية الطبيب في المستعمرات ووظيفته في عمليات التهدئة معروفة... فكثير من سوء الفهم يزول بمجرد ما تحصل الثقة ويتم التفاهم... ولا أحد أفضل من الطبيب لبناء هذه الثقة، إنها تتحقق بين عشية وضحاها بمجرد أن يقتنع أحد الأعيان أو الحكام أو أي إنسان عادي بزيارة الطبيب الفرنسي كلما ألم به مرض، أو شعر بآلام توجعه، فإذا خرج من عند هذا الطبيب وخفت آلامه، يتم التغلب على الحاجز النفسي مما يسهل الإقدام على القيام بالخطوات الأولى لربط علاقات المودة" (زكي مبارك، ٢٠١٠، ص ١٥).

لقد كان ليوطي واعيًا بأهمية الطب في غزو المغرب وخاص أعماق المغرب المنسي، وفي هذا الإطار تم إنشاء مجموعات صحية متنقلة، وعبر ليوطي عن إعجابه الشديد بخدمات هذه المجموعات حين يقول: "لقد قدمت لنا الفرق الصحية المتنقلة خدمات لا تحصى، إذ كانت تنتشر كقاعات تمريض متنقلة... وفي المجموعات السكنية النائية لنبحث عن الزبون الأهلي وتقيم هناك ما يكفي من الوقت لإنجاز عمل فعال وأحيانًا تتقدم إلى الأمام في مناطق لم يتم التغلغل فيها فيما بعد، لتلعب دور الجلب والأخذ بألباب الناس بفعالية أقوى من طلقات البنادق، آه على مجموعاتنا الصحية المتنقلة الرائعة، كم ندين لها بما سهلته من اتصالات وما ساعدت عليه من جلب الناس وكسب عطفهم بل وخضوعهم". (بوجمعة رويان، ٢٠٠٣-٢٠٠٤، ص ٣١٢)

إن ما يعطي لهذه الإعانة الطبية المتنقلة قيمتها ويجعلها قادرة على القيام بما أنيط بها من أدوار، هو أنها لم تكن تنتظر مجيء المريض والمصابين بل كانت تسعى هي إليهم، كما تشير إلى ذلك إحدى المذكرات الدورية التي بعتها الكولونيل Bloudat قائد منطقة الرباط في أكتوبر ١٩١٢ إلى رؤساء دوائر الغرب وزعير جاء فيها:" إن كثيرًا من الأهالي يترددون في التقرب منا، إما حشمة أو نفورا، ويجب تخطي تخوفهم هذا، وعوض أن ننتظر مجيئهم عندنا في مراكزنا، نذهب نحن عندهم". (بوجمعة رويان، ٢٠٠٣-٢٠٠٤ ص ٣١٣) لقد شكل الدواء وسيلة بيد الطبيب للتأثير على المغاربة، فتجد مدير الصحة كولمباني يكاتب الطبيب كافيون أحد المساعدين التقنيين في إدارة باريس حول أهمية الأرسينوبترول (مادة لعلاج مرض الزهري) يقول: "لقد شكل الأرسينوبترول سلاحا فعالا بيد الأطباء الفرنسيين للتغلغل السلمي وجلب المغاربة". (بوجمعة رويان، ٢٠٠٣-٢٠٠٤، ص ٣٠٨)

ونشير أيضًا إلى حقيقة وهي أن الطب لعب دورًا كبيرًا في نشر المبادئ المسيحية وسط المغاربة، فشارل دو فوكو يقول: "إذا لم يتم تنصير المسلمين في شمال إفريقيا بالتدريج والليونة، فستظهر حركة قومية تماثل التي ظهرت في تركيا، وإن لم يوفق تصير تلك الشعوب فرنسية فأنها ستخرجنا من بلادها، فالوسيلة الوحيدة التي نصيرهم فرنسيين هي أن يصبحوا مسيحيين" (زكي مبارك، ٢٠١٠، ص١٦). وكان الطب وسيلة أساسية للتبشير حيث أن الأطباء من خلال العمل الطبي يستطيعون النفاذ إلى قلوب الناس والتأثير عليهم، وكان عدد من الأطباء الذين قدموا إلى المغرب يمارسون هذا العمل وعلى رأسهم الدكتور churcher في طنجة والدكتور kerr بالرباط.

أما الأساليب والمناهج المتبعة من قبلهم، فقد كانوا يحاولون إقناع المريض أن العلاج الذي سيمكنهم من الشفاء هو علاج روحي من روح القدس، وإن إخراج الروح الشرير الذي يسكن في بدن الإنسان روحيا هو الذي يشفي المرض وليست الأدوية التي يتعاطونها، وكانوا إلى جانب ذلك يعتمدون على

أعمال البر والإحسان. (زكي مبارك، ٢٠١٠، ص ١٧) ولعبت الراهبات الفرانسيسكات دورًا كبيرًا في ذلك، حيث نجد ليوطي يقول: "لقد ساهمن دوما في غزو القلوب والعقول.. وكن مساعدات رائعات لعمل الحماية سواء داخل المدرسة أو في المستشفى". (بوجمعة رويان، ٢٠٠٣-٢٠٠٤، ص ٣١٤) وهو ما دعى إليه دوتي منذ سنة ١٩٠٠ حيث أكد على أهمية الغزو الروحي والفكري للأهالي بواسطة البعثات الدينية وبواسطة التعليم قائلاً: "لنظهر للمغاربة الجوانب المميزة في حضارتنا"(doutté, 1900, p 21).

ثالثًا: فرض الوصاية المالية

إن دور العوامل المالية في التوسع الأوربي في نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين الميلادي لم تعدّ في حاجة إلى التوضيح فالحكومات استعملت السلاح المالي في المناطق التي كانت تريد فرض وصايتها السياسية عليها، وطلبت مساعدة الأبناك، حيث كانت تستغل الصعوبات المالية للبلدان لتفرض عليها قروضا فيتحدد بذلك مصير البلدان التي لا تستطيع سداد قروضها. (بيير كيلين، ١٩٩٢-١٩٩٣، ص ٢٧). وهذا كان حال المغرب، فقد تشعبت الأزمة المالية فيه، بسبب عوامل داخلية وخارجية كثيرة، وقد حاول الحسن الأول تحسين تلك الوضعية، وحافظ الحاجب باحماد على سلامة الخزينة نسبيًا إلى سنة ١٩٠٠، لكن انطلاقًا من هذه السنة بدأت الأزمة المالية تشتد بسبب التعويضات الأوربية اللامتناهية وازدياد العجز التجاري وضعف الهياكل والأزمات الطبيعية والفلاحية، ومصاريف اللهو داخل القصر وامتناع المغاربة عن دفع ضريبة الترتيب وكذلك الزكوات، والمصاريف المرتفعة لإخماد ثورة بوحمارة، كل ذلك دفع المغاربة إلى الالتجاء إلى القروض الأجنبية باعتبارها المنفذ الوحيد، وذلك ما كان يترصد له رجال الأموال والحكومات الأوربية. (بيير كيلين، ١٩٩٢-١٩٩٣، ص ٦٢)

وتحركت المجموعات المالية الفرنسية لتقوية مصالحها، فقد سبق لشركة شنايدر وشركائه، بعدما كلفت الملازم البحري كاكوري بمهمة دراسية في المغرب أن أنشأت في ٣٠ ماي ١٩٠٢ شركة مالية وتجارية تحمل اسم الشركة المغربية، ونجد من بين المساهمين فيها نيكولا باكي مجهز السفن المرسيلي، وقد فتحت الشركة وكالات لها في طنجة وفاس. ويبدو أن مندوبها في هذه المدينة السيد veyre - الذي كان يحظى بثقة المخزن – كان احد الوسطاء بين السلطان والبنوك الفرنسية. (ألبير عياش، ١٩٨٥، ص ٦٧) واستطاع ديلكاسي الذي جمع بين سياستين أوربية واستعمارية استغلال المشاكل التي كانت تعانيها الخزانة المغربية، وقام بحملة داخل أوربا لمنع البنوك الأوربية من تقديم قروض للمغرب، وهكذا وفرت الظروف لكل من بنك باريس والأراضي المنخفضة للقيام بضغط مالي أدى إلى إقراض المغرب قرض ١٩٠٢ الذي كان خطوة أولى نحو وضع مالية المغرب تحت وصاية فرنسا. (بيير كيلين، ١٩٩٢-١٩٩٣، ص ١٣٢).

لقد قدم القرض بالدورو الفضي الإسباني بينما كان على المخزن أن يؤدي الفوائد وأقساط الاستهلاك الشهرية بالفرنك الذهبي، وحين كان انخفاض قيمة العملة الفضية الإسبانية بالنسبة للذهب متواصلاً، فإن ذلك الشرط كان عبارة عن عبئ تقيل انضاف إلى فائدة ٦ في المائة.. وتبخرت السبعة ملايين والنصف مليون فرنك التي كانت قيمة القرض في أقل من نصف شهر. (بيير كيلين، ١٩٩٢-١٩٩٣، ص ١٣٣) وكان على المخزن أن يلجأ إلى قرض ثان، حصل عليه من طرف إسبانيا وبريطانيا، لكن أموال القرض استعملت فقط في أداء الديون القديمة، وظلت حاجيات الخزينة مطروحة بإلحاح، مما اضطر معه المغرب إلى اقتراض أخر من كونسورسيوم البنوك الفرنسية التي منحته قرضًا بمبلغ ٥،٦٢ مليون فرنك، وبفائدة ٥ في المائة (ألبير عياش، ١٩٨٥، ص ٦٧) ، ولم يحصل السلطان سوى على ثلاثة أرباع مبلغ القرض، حيث صرفها في تسديد قروض ١٩٠٣، وفي المصارف المستعجلة، وكانت الشروط التي يفرضها عليه العقد جد قاسية، إذ أنه اضطر إلى توظيف ٦٠ في المائة من عائدات الجمارك البحرية لتسديد الديون، وهذه العائدات كانت توفر مداخله المنتظمة الوحيدة. (ألبير عياش، ١٩٨٥، ص ٦٧) وهذا ما أعطى لفرنسا حق الإشراف والمراقبة المالية على الواجبات الجمركية الأمر الذي يتعارض مع السيادة الوطنية (علال الخديمي، ٢٠٠٩، ص ٧٠).

وبدا المغرب يبحث عن قرض أخر يتراوح بين ١٥٠ و ٢٠٠ مليون فرنك لتمويل بعض الأشغال العامة و الإصلاحات العامة والإدارية تحت إشراف فرنسا التي حل مندوبها بفاس، لكن المعارضة الألمانية ولعب المخزن على قضية ضرورة استشارة مجلس الأعيان أجل ذلك، لكن المغرب سيحصل على قرض جديد بمبلغ ١٠٠ مليون فرنك سنة ١٩١٠ خصمت منه ٧٦ مليون فرنك كتعويض عن حملة الشاوية فلجا المغرب إلى طلب قرض أخر لكن فرنسا كانت تتهيأ لأكبر من ذلك. إن القروض ساهمت بشكل كبير في دعم التغلغل الفرنسي بالمغرب، ففي دراسة حول "الائتمان والبنك بالمغرب "منشورة بباريس سنة ١٩٢٩ كتب Félix nataf: إن تحليل التاريخ المغربي في السنوات الأولى من القرن العشرين يبين أن إقرار الحماية الفرنسية كان

بالتأكيد نتيجة للجهود المبذولة من قبل الرأسمال والسياسة" وهي ملاحظة أثبتها وزير فرنسا Taillandier ومختلف وثائق الدبلوماسية الفرنسية. (بيير كيلين، ١٩٩٢-١٩٩٣ ص ٢٧). إذن يمكن القول إن الغزو المالي كان من أنجع السبل التي اتبعتها الإمبريالية الفرنسية لإحكام هيمنتها على المغرب. (الخديمي، ٢٠٠٩، ص ٧١).

رابعًا: شبكة الوسطاء والقناصل

اعتمدت الدول الأوربية في تغلغلها بالمغرب على مجموعة من العناصر كان على رأسها الشبكة القنصلية، ففي هذه الفترة كانت كل من فرنسا وإنجلترا وإسبانيا قد وضعت بالمغرب شبكات قنصلية تمتد إلى كل الموانئ المغربية المفتوحة على التجارة الخارجية، وفي بداية الستينيات من القرن التاسع عشر تمت ترقية وزراء تلك الدول إلى درجة وزراء مقيمين بالمغرب، وفي سنة ١٨٩٢ انتقل عدد الوزراء الأجانب المقيمين بطنجة إلى عشرة كانوا ممثلين بكل الموانئ المغربية ، واتخذوا ممثلين غير رسميين بالداخل كانوا يجعلونهم على بينة من تطور الأوضاع الداخلية وذلك قبل أن يتمكنوا سنة ١٨٩٥ من انتزاع حق تمثيلهم رسميا بالداخل. (بيير كيلين، ١٩٩٢-١٩٩٣، ص ٨).

وقد تزايد دور هؤلاء الممثلين الأجانب بالمغرب على طول النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وصاروا يتدخلون باستمرار في الشؤون المغربية، ويتطاولون على سيادة البلاد، وباتت السلطة المركزية بالمغرب تعتمد على استشاراتهم لاسيما فيما يهم علاقاتها الخارجية والإصلاحات. (بيير كيلين،١٩٩٢-١٩٩٣، ص ٩)

وهذا ما أشار إليه ادموند دوتي حيث قال: "يجب العمل كل ما ساعدت الظروف على ذلك على وضع أوربي في خدمة الحكومة المغربية، وأن نعمل بالخصوص على أن يكون فرنسيا " (doutté, 1900, p 66)، كما أشار إلى ضرورة الاهتمام بالقناصل الفرنسيين وموظفي الشؤون الأهلية المرتكزين على طول الحدود الجزائرية المغربية من أجل تحقيق الاختراق للمغرب. (doutté, 1900, p 20) كما ساهمت هذه البعثات القنصلية ومختلف ممثلي الدول الأجنبية في تدويل المسألة المغربية واحتدام الأطماع حول البلاد، وكان الصراع والتنافس على احتلال مواقع النفوذ داخل المخزن مستمرًا بين المدربين الفرنسيين والإسبانيين والإيطاليين والإنجليز والألمان وكان كل امتياز أو تنازل من المخزن لفائدة بعثة ما، يذكي هذا الصراع ويفتح باب المناورات والضغوطات حتى تعم على باقي البعثات ويتخذ صبغة حق دولي، وهكذا كان تسرب الفرنسي أركمان والقائد الإنجليزي ماكلين إلى المحلة السلطانية حافزًا لإسبانيا وألمانيا فيما بعد لبلوغ نفس الهدف، لينتهي الأمر بتمثيل كل البعثات داخل الحركات السلطانية وقامت هذه البعثات سواء منها ذات الصفة الرسمية وغير الرسمية بجمع معلومات لصالح حكوماتها ومما سهل هذه المأمورية، أنها كانت تشتغل داخل الجهاز المخزني وتتنقل في أنحاء البلاد بصفة رسمية من خلال مصاحبتها للحركات السلطانية وكانت هذه المعلومات ترسل في شكل تقارير إلى الوزراء المفوضين الأجانب في طنجة الذين يقومون بدورهم بإرسالها إلى الجهات المسئولة حسب نوعية التقارير. (بوجمعة رويان، ٢٠٠٣-٢٠٠٤، ص ٣٣٥ – ٣٣٦).

وراهنت باريس على تسخير القواد الكبار في مخططاتها للتسرب نحو المغرب وإضعاف السلطة المركزية، ففي منطقة الحوز التي تعتبر مثالاً صارخًا لهذا التواطؤ قد شهدت استغلال فرنسا للعديد من الأسر التي لعبت أدورًا مهمة في خدمة السلطات الفرنسية فيما بعد ولعل أشهرهم الكلاوي والكندافي والمتوكي، فهؤلاء القواد قد قاموا بالتعاقد مع بعض الشركات الأجنبية ثم ما لبثوا أن احتكروا التجارة المحلية، وأبرموا معاهدات سلف وتجارة وسلموا إليها الكثير من الأراضي الخصبة، وكانوا قد قاموا بتهيئة الجو لهذه الشركات الاستعمارية خاصة على المستوى الأمني، كما وفروا لهم اليد العاملة الرخيصة لاستغلال بعض المناجم، ونسقوا مع السلطات الاستعمارية في التمهيد لاحتلال المغرب، ومن القضاء على مقاومة أحمد الهيبة، التي بعدها مباشرة أعلنت فرنسا الكلاوي قائدًا على القواد الآخرين.

وراهنت فرنسا على الزوايا، فدوتي في أحد تقاريره السرية أكد على ضرورة استمرار فرنسا في الاهتمام بالزوايا وتسخيرها لخدمة النفوذ الفرنسي، وهذا راجع إلى وقوف فرنسا بناء على التقارير والرحلات الاستكشافية على أهمية الزوايا في اختراق المغرب، ولعل أبرز مثال على هذا الاستقطاب الزاوية الوزانية وزاوية تمصلوحت. فبعد حرب تطوان انخفضت مداخيل الزاوية الوزانية وتقلص نفوذها، فاضطر زعيم الزاوية عبد السلام الوزاني إلى السفر إلى الجزائر، ولأجل استرجاع نفوذه حصل على الحماية الفرنسية وأصبح أداة طيعة في يد فرنسا، فألصق به علماء فاس تهمة الخيانة، واعتبره المخزن مرتدًا، وشرع منذ ١٨٨٢ في إجراءات بيع الزوايا لحساب بعض الفرنسيين، وساعدته فرنسا في مد نفوذه إلى منطقة وهران، وعندما شرعت فرنسا في احتلال واحات توات وكورارة وتيدكلت كتب

الوزاني إلى سكان هذه الواحات يطلب منهم عدم مقاومة فرنسا، ومما جاء في رسالة للمولى الحسن إلى سكان هذه الواحات ما يلي" ... بلغ إلى علمنا الشريف أن الحاج عبد السلام الوزاني سيسافر إلى بلادكم ليوقعكم في الغلط وليدفعكم إلى التحالف مع العدو ...إننا نعلم أنه تراجع عن إيمانه ورضي بأشياء مخالفة للدين." وفي تقرير لدوتي نجد أنه ينصح باستغلال خدمات شريف وزان. (doutté, 1900, p 12)

أما زاوية تمصلوحت فإن زعيمها محمد الحاج سعى إلى الحصول على الحماية الفرنسية فأجرى مجموعة من الاتصالات مع القنصل الفرنسي ميكغي والطبيب موشان الذين زاروه في تمصلوحت، واستطاع الحصول على حماية فرنسا مما جعل المخزن غير قادر على المس به. وكانت زاوية مستغانم من المراكز المهمة للاستخبارات الفرنسية بالمغرب، وكان بعض مريديها يعملون كمخبرين لحساب السياسة الفرنسية، يتجولون في الأراضي المغربية بشرق البلاد فيقومون بمسح طبوغرافي وإنجاز تقارير عن السكان وأنظمتهم سواء في البوادي أو المدن. وتعتبر الجاليات الأوربية من المساعدين على تغلغل النفوذ الأجنبي في المغرب، فمنذ حرب تطوان بدأت تتزايد أعدادهم بشكل تصاعدي إلى أن بلغ عددها لدى وفاة السلطان الحسن الأول حوالي ٩ ألاف شخص كما جاء ذلك في كتاب مصطفى بوشعراء حول الاستيطان بالمغرب، وكان نمو هذه الجاليات خطيرًا على الدولة المغربية نظرًا لطبيعتها التوسعية إذ كانت تنمي باستمرار مجال نشاطها مستفيدة من وضعها المتميز فهي كانت لا تخضع للضريبة ولا لأية مراقبة وتتمتع بمساندة الهيأة الدبلوماسية. (بيير كيلين، ١٩٩٢-١٩٩٣، ص ١٢٠)

هؤلاء الأجانب استطاعوا استغلال سنوات الجفاف للسيطرة على أجود الأراضي الفلاحية مستغلين حاجة الفلاح للقمة العيش، ففقد عدد كبير من الفلاحين أراضيهم، بل وتحولوا من ملاك إلى خماسة (محمد الأمين البزاز، ١٩٩٢، ص ١٥٧، بل وأنشئت شركات فلاحية همها الوحيد العقار والاستعمار. (مصطفى بوشعراء، ١٩٨٤، ص٣٥١). وساهم التجار المغاربة في خدمة الأهداف الاستعمارية الأوربية، فالوثائق المخزنية تكشف عن وجود علاقات نشيطة بين عدد من التجار ودور الشركات الأجنبية، وانتقل التجار المغاربة من تجار للسلطان إلى تجار في خدمة الأهداف الأوربية، حيث استغلوا تنافس الأجانب وحاجتهم للاستفادة من علاقاتهم التجارية للحصول على امتيازات قضائية وضريبية. (أكنينح، ٢٠٠٥، ص ١٥٠-١٥١)

إن هؤلاء التجار استفادوا من الحماية القنصلية وأصبحوا وكأنهم غير خاضعين إطلاقًا للسلطة المخزنية، مما خلق نوعًا من الفوضى القانونية ساهمت في تقويض البنيات الاجتماعية المغربية (محمد كنبيب، ٢٠١١، ص ٣٥٩). لقد كانت عواقب الحماية القنصلية بالغة الخطورة على البلاد، فمن جهة صار المحميون أداة لخلخلة بنية المجتمع المغربي ووسيلة لمد التأثير الأجنبي إلى داخل البلاد، ومن جهة أخرى كان تزايد أعدادهم يحرم الخزينة المغربية من موارد مالية هامة نظرًا لإعفائهم من واجباتهم المالية تجاه المخزن. ويعتبر اليهود أحسن الوسطاء التجاريين الذين اعتمدت عليهم فرنسا بالمغرب، فبواسطتهم استطاعت فرنسا الدخول في علاقات مع الداخل المغربي، وهذا ما يفسر العدد الكبير من المحميين اليهود من طرف التجار الفرنسيين. (Doutte, 1900, p 6)

ووقع الرهان كذلك على العنصر الجزائري ليكون وسيلة للتدخل الفرنسي وجسرًا للتواصل مع المغرب، ففي إحدى تقارير المفوضية الفرنسية بطنجة إلى الخارجية الفرنسية في سنة ١٨٩٤ كان التأكيد على إمكانية الاعتماد على الجزائريين الذين انتقلوا للعيش بالمغرب بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، ولقد أكد ادموند دوتي على مكانة المجموعة الجزائرية بالعاصمة المغربية فاس، والفوائد التي يمكن أن تقدمها لفرنسا في حالة نجاح استقطابها، كما راهن على جزائري مراكش في تسهيل انتقال ملكية الأراضي من المغاربة إلى الأوربيين، أي سهلوا عملية الاستيطان الزراعي. (محمد أمطاط، ٢٠٠٤-٢٠٠٥، ص ١٠٤) وركز الحاكم العام للجزائر على تشغيل بعض الجزائريين في المغرب لصالح فرنسا، في إطار ما سماه بالاختراق الهادئ، بدعم من حكومة باريس، فساهم الجزائريون في المس بالسيادة المغربية وتخريب الاقتصاد المغربي، وإضعاف قدرات المغرب الدفاعية، ولوحظ كذلك أيضًا من خلال أدوارهم في المصالح القنصلية الفرنسية. (أمطاط،٢٠٠٤-٢٠٠٥، ص ١٤٥).

خامسًا: إثارة الفتن والاضطرابات

بدون شك إن الثورات القبلية قد لازمت تاريخ المغرب، إلا أن مظاهر هذه الثورات أصبحت أكثر انتشارًا واتساعًا ما دامت دواعيها موجودة، وقد غذاها المستعمر لأغراضه الخاصة والكثيرة، من أجل الحد من هيبة المخزن ونفوذه، وتعتبر ثورة الجيلالي الزرهوني الملقب ببوحمارة نموذجا لهذه الثورات المكلفة ماديًا ومعنويًا وعلى أكثر من صعيد، وتكاد تتفق الشهادات والدراسات المغربية أن ثورة بوحمارة تم التخطيط لها ودعمها من طرف الاستعمار الفرنسي لإضعاف المغرب

وإظهار عجز المخزن عن حماية مصالح الأجانب مما يبرر التدخل الأجنبي حسب مقررات الجزيرة الخضراء. ومما يؤكد دعم فرنسا لهذا المتمرد هو شهادة البرلماني الإسباني Maura إذ قال: "إننا متيقنين بصفة كبيرة، بأن الثائر عندما أعلن حركته جاء من الجزائر، ونعرف كذلك أن الأسلحة المستعملة أولاً من طرف أنصاره تحمل علامة فرنسية، وأن الذهب والمال الفرنسيان كانا منتشرين بينهم". (أمطاط، ٢٠٠٤-٢٠٠٥، ص ١١٨).

وقد انكشف هذا التواطؤ بعد القبض على بوحمارة، حيث تدخل القناصلة الأجانب لحمل السلطان على الإفراج عنه، لكن تم إعدامه بسرعة، فأشاع الأوربيون بأنه قدم للأسود أو أحرق حيًا كخطوة لإقناع الرأي العام الأوربي "المتحضر" "بهمجية المغاربة"، وبضرورة التدخل الفرنسي الأوربي لتمدين المغرب. إن الفرنسيين أحسنوا استغلال ورقة بوحمارة في علاقته بالسلطان والدول الأوربية خصوصًا وأنهم ما فتئوا يرددون خطاب "الفوضى المغربية"، وأن المغرب مقسم إلى كتلتين متعارضتين بلاد السيبة وبلاد المخزن وأن المغرب لا يمثل أبدًا أمة منظمة. (daniel rivet, 1988, p 25)

سادسًا: إنشاء مجموعة من التجهيزات

أكد الحاكم العام للجزائر جونار في تقريره على النتائج المرضية التي أسفرت عنها سياسة التمهيد المتبعة مع السكان وضرورة متابعتها، كإنشاء مزيد من الأسواق وجلب السكان إليها وبناء المراكز الأهلية للتمريض والمدارس، ومعالجة النقط المائية وشق الطرق للمواصلات، لقد تم إنشاء الأسواق إذن والمستوصفات الطبية بغرض استعمالها كأداة غزو سلمية لاختراق نفسية السكان وخلق الشعور وسطهم، بالتفوق الحضاري الفرنسي، كما تم بناء مجموعة من السكك الحديدية كوسيلة من وسائل التوسع، قال عنها دافيد ليفط "أنها أداة استراتيجية في إنجاح سياسة التغلغل السلمي". (أحمد أمزيان، ٢٠٠٧، ص٤٥٣ -٤٥٤) وفي تقرير لجونار بعد زيارته لمنطقة الجنوب الشرقي نجده يقول: "علينا إعطاء الدليل لهؤلاء السكان المسلمين المنضوين مؤخرًا تحت رعايتنا، أننا نريد بكل الوسائل خدمة مصالحهم المادية". (أمزيان، ٢٠٠٧، ص ٤٥٣).

ومن أبرز التجهيزات التي اعتمد عليها الفرنسيون في تطبيق سياسة التسرب السلمي إلى المغرب بناء السكك الحديدية واعتبروها "الغذاء الأساسي بالنسبة لتجارة الصحراء الهائلة"، وتشكل أيضًا "الهيكل الأساس للحضارة العصرية"، ومن الأهداف المرجوة من وراء بناء هذه السكك تنقل الجيش من نقطة إلى أخرى بالسرعة المطلوبة، والربط بين وهران وتومبوكتو عبر حوض الزوزفانة وتوات.

سابعًا: الاتفاقيات والمؤتمرات

تعتبر المعاهدات التجارية التي وقعتها الدول الأوربية مع المغرب من أبرز وسائل التسرب الأوربي، فهي التي جعلت هذا التسرب يرتكز على أسس قانونية. ومن المعلوم أن المغرب سبق له فيما مضى أن وقع عدة اتفاقيات مع مجموعة من الدول، لكن ذلك لم يؤثر قط على حرية المخزن في التحكم في اقتصاده. (Brignon et autres, 1967,p289) لكن الأمور تغيرت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكانت بريطانيا بحكم تعاظم تجارتها الخارجية، مؤهلة أكثر من غيرها لتمارس ضغوطا على المغرب، حملته على تغيير سياسته التجارية مع الدول الأجنبية. (خالد بن الصغير، ١٩٩٧، ص٦١) هذه الضغوط القوية فرضت على المخزن المصادقة على الاتفاقية التجارية مع بريطانيا بتاريخ ٩ دجنبر ١٨٥٦، والتي تقرر دخولها حيز التنفيذ ابتداءً من ١٠ يناير ١٨٥٧. (خالد بن الصغير،١٩٩٧، ص١٢٢). هذه المعاهدة استفادت منها لاحقًا كل الدول الأوربية بمقتضى الدولة "الأكثر حظوة " أو "المعاملة بالأفضل"، فبعد حرب تطوان أحرزت إسبانيا سنة ١٨٦١ على نفس الامتيازات الإنجليزية، ثم جاءت المعاهدة المغربية الفرنسية لسنة ١٨٦٣ لتتويج هذا التطور. (عبد الله العروي، ٢٠٠٩، ص٥٦٢-٥٦٣).

هذه المعاهدات حررت الاقتصاد المغربي من قبضة المخزن وربطته بتقلبات الظروف العالمية. بعد انصرام بضع سنوات دخلت ألمانيا مسرح الأحداث تحت ضغط الظروف الاقتصادية (جرمان عياش، ١٩٨٦، ص٢٢٥.)، وبدخولها إلى اللعبة توسعت دائرة القوى المهتمة بالمغرب، وهو ما سيؤدي فيما بعد إلى تدويل القضية المغربية (Brignon et autres,1967, p292.)، وأسفرت الضغوط الألمانية عن موافقة المخزن في يونيو ١٨٩٠على عقد معاهدة تجارية بين البلدين. لقد ركزت نصوص المعاهدات قبل كل شيء على تثبيت ضمانات التواجد الأجنبي داخل المغرب وأغلب المعاهدات سعت إلى تحقيق حرية الاستقرار والتنقل ومزاولة أعمال التجارة وظروف السكن الملائم، ومعظم الشروط تدور حول حرية التواجد والاتجار دون تدخل من المخزن، وتمتع محمي التجار الأوربيين بنفس امتيازاتهم. (عمر أفا، ١٩٨٨، ص ٧٧).

إن هذه الاتفاقيات التجارية شددت الخناق على المغرب، وتبعها على الصعيد الدولي نجاح فرنسا في إبعاد بريطانيا عن المغرب في صفقة بين البلدين سنة ١٩٠٤ فيما يعرف بالاتفاق

الودي الذي نص كذلك على مصالح إسبانيا في الشمال المغربي لعدم رغبة بريطانيا في وجود بلد قوي يتحكم في مضيق جبل طارق. وهكذا لم يبق أما فرنسا إلا الضغط على المغرب لقبول حمايتها وهذا ما حاول سان روني طايانـدي (Taillandier) (بداية ربيع سنة ١٩٠٥) القيام به، عبر اقتراحه إنشاء بنك مخزني وإتمام قرض جديد يتراوح بين ١٥٠ و٢٠٠ مليون فرنك، مرهون بمجموع مداخيل بيت المال فضلا عن الإعلان عن برنامج للأشغال العمومية والإصلاحات العسكرية والإدارية. لكن المغرب أفشل تلك المناورة باستدعائه لمجلس الأعيان الذي رفض المبادرة ودعا إلى مؤتمر دولي هو مؤتمر الجزيرة الخضراء. لكن الدبلوماسية الفرنسية النشيطة استطاعت أن تخرج منتصرة من هذا المؤتمر حيث تم الاعتراف بالحقوق الخاصة لفرنسا وإسبانيا والتأكيد على مبدأ المساواة الاقتصادية للدول الكبرى، وإقرار مبدأ الباب المفتوح في المجال التجاري، ومنع إجراء أي إصلاح جبائي أو مالي دون موافقة مسبقة من الممثليات الأوربية. فضلاً عن تنظيم بوليس في الموانئ بتأطير فرنسي وإسباني، وإنشاء "لجنة مكلفة بالأشغال العمومية"، وتأسيس بنك مخزني مغربي براساميل أجنبية، وهو ما ساهم في زيادة التغلغل الفرنسي بالمغرب.

خاتِمَةٌ

اعتمدت فرنسا في إطار هدفها المتمثل في احتلال المغرب طمعا في ثرواته الطبيعية، على تفادي الاستعمار المباشر، والبدء بدراسة واسعة للمجتمع المغربي، فظهر لها أن تحقيق هدفها لن يكون بالسهولة التي تتصورها، خاصة مع التنافس الإمبريالي الذي كان محتدما حول المغرب. لكنها بالمقابل لم تظل مكتوفة الأيدي وعملت على إنضاج الظروف الموضوعية لإخضاعه، وهكذا استعانت بمجموعة من الوسائل السلمية يأتي على رأسها سلاح العلم باعتبار أن احتلال بلد ما يستلزم في البدء معرفة مؤسساته وبنياته السياسية والاقتصادية، وأضافت إلى هذا السلاح مجموعة من الطرق الملتوية منها إنشاء المستوصفات الطبية وإرسال الأطباء، من أجل غزو القلوب قبل غزو الأبدان، كما قامت بربط الصلات والعلاقات مع مجموعة من الوسطاء المغاربة، من أجل خلق عملاء لها وسط المغاربة، علاوة على إثارة النعرات والفتن الداخلية، تمهيدا لإضعاف المغرب، وجره إلى مستنقع القروض، مما أدى إلى خنق الاقتصاد المغربي، وتوجت فرنسا هذه الوسائل بفرض معاهدات سياسية تحت الضغط.

لقد كان المخطط الفرنسي مخططًا خطيرًا فعلاً، تداخلت فيه الاعتبارات الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية والدينية بشكل معقد، ونفذ بطريقة مرحلية بطيئة ولكنها طريقة علمية عملية فعالة، أدت إلى احتلال المغرب سنة ١٩١٢، وبقيت وسائل التغلغل السلمي مستمرة رغم الحملات العسكرية في إطار ما سمي آنذاك بالتمهيد la pacification من أجل بسط السيطرة العسكرية الفرنسية على مجمل التراب المغربي بأقل التكاليف، وهو ما استطاعت فرنسا تحقيقه سنة ١٩٣٤ بالقضاء على آخر جيوب المقاومة المغربية.

المراجع

- إبراهيم بوطالب (١٩٨٩)، **البحث الكولونيالي حول المجتمع المغاربي: حصيلة نقدية، ضمن ندوة البحث في تاريخ المغرب حصيلة وتقويم**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.
- أحمد أمزيان(٢٠٠٧)، **المجتمع والسلطة المخزنية في الجنوب الشرقي خلال القرن ١٩**، دار أبي رقراق، الطبعة الأولى، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- ألبير عياش (١٩٨٥)، **حصيلة الاستعمار الفرنسي بالمغرب**، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين سعودي، دار الخطابي للطباعة والنشر.
- بوجمعة رويان (٢٠٠٣-٢٠٠٤)، **الطب الاستعماري الفرنسي في المغرب ١٩١٢ – ١٩٤٥**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.
- بيير كيلين، **الاقتراضات المغربية ١٩٠٢-١٩٠٤**، ترجمة وتقديم المصطفى برنوسي (١٩٩٢-١٩٩٣)، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.
- ثريا برادة (١٩٩٧)، **الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.
- جرمان عياش (١٩٨٦)، **دراسات في تاريخ المغرب**، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الدار البيضاء.
- خالد بن الصغير (١٩٩٧)، **المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر ١٨٥٦-١٨٨٦**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط٢، الرباط.

- رشيد عزيوز(٢٠٠٤-٢٠٠٥)، **الأطباء الأجانب في مغرب القرن ١٩**، أطروحة الدكتوراه نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.
- زكي مبارك (٢٠١٠)، **الطب الاستعماري من عمل إنساني إلى أداة للتسرب الاستعماري السلمي، ضمن تاريخ الاستعمار والمقاومة بالبادية المغربية خلال القرن العشرين**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.
- عبد الله العروي (٢٠٠٩)، **مجمل تاريخ المغرب**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
- العربي اكنينح (٢٠٠٥)، **انفتاح المغرب على السوق الدولية في القرن ١٩ وانعكاساته على تطور البنيات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للبادية المغربية**، فاس.
- علال الخديمي (2009)، **الحركة الحفيظية أو المغرب قبيل فرض الحماية الفرنسية**، دار أبي رقراق للنشر، الرباط.
- عمر أفا (١٩٨٨)، **مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر- سوس ١٨٢٢-١٩٠٦**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.
- محمد الأمين البزاز (١٩٧٩-١٩٨٠)، **المجلس الصحي الدولي بالمغرب ١٧٩٢-١٩٢٩**، أطروحة نيل دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.
- محمد الأمين البزاز(١٩٩٢)، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين ١٨و١٩**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.
- محمد الغيلاني (٢٠٠٨)، **جريدة المساء**، ٣ شتنبر ٢٠٠٨.
- محمد أمطاط (٢٠٠٤-٢٠٠٥)، **الجزائريون في المغرب ما بين ١٨٣٠ – ١٩٦٢**، أطروحة لنيل الدكتوراه نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.
- محمد كنبيب (٢٠١١)، **المحميون**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.
- مصطفى بوشعراء (١٩٨٤)، **الاستيطان والحماية بالمغرب ١٨٦٣-١٨٩٤**، ج١، المطبعة الملكية، الرباط.
- مولود عشاق(٢٠١٠)، **تأملات في الإنتاج التاريخي المغربي**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر.
- Brignon et autres (1967), Histoire du Maroc, librairie nationale, Casablanca.
- Daniel rivet (1988), Lyautey et l'institution de protectorat français au Maroc 1912-1925,T1, le harmattan, paris.
- Edmound doutté (1900), des moyens de développé l'influence française au Maroc, rapport à monsieur le gouverneur général de l'Algérie, F.levé, paris.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

المغرب زمن الحرب العالمية الثانية
بعيون الرئيس الأمريكي روزفيلت



د. عبد السلام انويكًة

أستاذ التعليم العالي

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين

فاس – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

بقدر ما تأسس لقاء أنفا التاريخي ١٩٤٣ على شروط موضوعية دولية وجهوية، توقفنا عليها بإبراز أهمية المغرب في استراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية زمن الرئيس روزفيلت، وفي رهان نفوذ ألمانيا فيه بعد غزوها لفرنسا كذا أنشطة الوطنيين المغاربة السياسية مع الألمان ودور اليهود في توجيه الاهتمام الأمريكي بالمنطقة، فضلاً عن ظروف داخلية أمريكية دفعت لأهمية تجاوز عزلتها ببحثها عن مصالح استراتيجية لها بالخارج. بقدر ما كان لقاء أنفا بأثر ليس فقط على المغرب بل على العالم أجمع لِما عرفته القضية الوطنية المغربية ومعها قضايا التحرر في كل جهات العالم من قوة، ناهيك عن انضمام فرنسا فيما بعد للحلف الأطلسي وإحداث قواعد عسكرية أمريكية في المغرب وإسبانيا. ما يعني بروز الدور الأمريكي في قيادة العالم اقتصاديا وسياسيا وماليا، خاصة بعد ما تعرضت له أوروبا الغربية من خراب كبير بسبب الحرب. وما مشروع مارشال الأمريكي ١٩٤٧ إلا أجرأة لقوة الولايات المتحدة الأمريكية، ولبداية حرب باردة بين قوتين جديدتين (قطبية ثنائية) باتت تحكم العالم بعقليتين متناقضتين شيوعية ورأسمالية، وكان المغرب قد تحول منذ سنة ١٩٤٧ إلى منطقة احتياط استراتيجية لحصار الاتحاد السوفياتي في حوض المتوسط وبشمال أفريقيا. لقد شكل لقاء "أنفا" الدار البيضاء الذي انعقد في ظرفية سياسية دولية غير مستقرة، لحظة سياسية وجهت أولاً الرأي العام العالمي صوب مدينة في مستعمرة فرنسية (المغرب)، وثانيًا جدول أعمال استهدف التخلص من التهديدات الألمانية تجاه أوربا مع رسم خريطة جديدة للعالم بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٦	أبريل	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	١٨	مايو	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

سواحل المغرب؛ روزفيلت؛ تاريخ المغرب المعاصر؛ الحرب العالمية الثانية؛ الولايات المتحدة الأمريكية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2021.232399 DOI

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد السلام انويكًة. "المغرب زمن الحرب العالمية الثانية بعيون الرئيس الأمريكي روزفيلت".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثاني والخمسون؛ يونيو ٢٠٢١. ص ١٨١ – ١٩١.

Corresponding author: abdessnwig@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

كان المغرب دومًا مجال تقاطع مصالح أجنبية فيه بحكم طبيعة موقع وانفتاح على واجهتين بحريتين، ما جعله بفترات أزمات ومواجهات وضغوط وتنافس دولي حوله.[١] فقد شكل وجهة ذات حساسية في حساب ما عرف بدول الحلفاء ودول المحور خلال القرن الماضي، تحديدًا منذ بداية نزاع قوى أوروبا الإمبريالية العسكري واندلاع الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩. وبخلاف ما كان متوقعًا إثر ما حصل من غزو ألماني لفرنسا، لم يتعرض المغرب لأي تخريب بل تحول لمجال استغلال اقتصادي من قِبل ألمانيا عبر لجانها. بحيث ظاهريا ما كان يُصدر منه من مواد مختلفة كان يتجه إلى فرنسا، إنما في العمق كان يتم تحويله لألمانيا عبر سلطاتها الاستعمارية بفرنسا.[٢]

وكانت ألمانيا سواء قبل أو خلال السنوات الأولى للحرب العالمية الثانية، قبلة لوطنيين مغاربة بحثًا منهم عن دعم دبلوماسي لتحرير بلادهم من الاستعمار الفرنسي، وهو ما تقوى أكثر لديهم مع ما حققه الألمان من انتصارات بسيطرتهم على جزء هام في تراب فرنسا ١٩٤٠. متغيرات وتواجد ألماني واتصالات مغربية وغيرها لم تكن خافية عن أعين سياسة الولايات المتحدة الأمريكية بشمال افريقيا والبحر المتوسط، علما أن المغرب كان حاضرًا في استراتيجيتها ومصالحها بالمنطقة في إطار صراع ألماني أمريكي منذ مؤتمر الجزيرة الخضراء الشهير ١٩٠٦. وبقدر ما كان يجمع بين المغرب والولايات المتحدة الأمريكية من اتفاقيات استهدفت حماية مصالحها، بقدر ما كان من تحرك ألماني في المغرب بعد هزم فرنسا على الجبهة الأروبية بهدف مناهضة النشاط الأمريكي[٣]. ما لم يكن كرهان سياسي ومجالي ألماني بالشمال الأفريقي والمغرب خاصة، غائبًا عن الأمريكيين الذين كانوا برغبة واضحة للتدخل في حالة عجز فرنسا عن القيام بدورها الاستراتيجي لعزل ألمانيا عن المنطقة.[٤]

ولعل منذ بداية الحرب العالمية الثانية، كانت الولايات المتحدة الأمريكية تتأهب لدور عملي في منطقة الشمال الافريقي، وهو ما تأكد مع انزالها العسكري في شواطئ المغرب والجزائر وفي لقاء الدار البيضاء (أنفا) عام ١٩٤٣. ولعل ما حصل من تطورات طبعت فترة أربعينات القرن الماضي وأحداث ارتبطت بصراع قوى كبرى فضلاً عن علاقة بحرب عالمية ثانية وبمغرب كمستعمرة فرنسية، جعل لقاء أنفا بوقع سياسي واسع وبصدى دولي تحولت معه مدينة الدار البيضاء إلى عاصمة سياسية دولية مؤقتا. مع أهمية لإشارة إلى أن لقاء أنفا بالمغرب، كان موضوع عمل سينمائي تم تصويره عام ١٩٨٩ بعنوان Casablanca Express[٥] استهدف رسم أهم علامات الحدث السياسي. فماذا عن خلفيات حدث "لقاء" أنفا التاريخية وماذا عن السياق الدولي والداخلي لهذا الحدث في علاقته بالمغرب؟ وماذا عن أبعاده الاستراتيجية وما ترتب عنه لفائدة الولايات المتحدة الأمريكية والمغرب معًا؟

أولاً: المغرب في سياق الصراع الدولي زمن أربعينيات القرن الماضي

١/١-الانزال العسكري الأمريكي بالمغرب

سواء لِقاء القمة في أنفا بالمغرب بين الحلفاء أو قبله بقليل الانزال الأمريكي على شواطئ البلاد، فإن اختيار هذه الوجهة من شمال أفريقيا كان على درجة من التقدير السياسي لطبيعة موقع على قدر عالٍ من البعد الاستراتيجي جغرافيا. وحتى ما جرى في هذا اللقاء التاريخي من نقاش جانبي بين المغرب والولايات المتحدة الأمريكية بعيدًا عن أعين سلطات فرنسا من خلال مقيمها العام، فيه قراءات عدة ورؤى من قِبل الولايات المتحدة لفترة ما بعد الحرب.[٦] ولعل الاهتمامات الأمريكية بالمغرب تعود لمطلع القرن الماضي لمَّا احتدم الصراع بين القوى الأوربية حول المغرب، مع ما حصل من اتفاقيات بينية جعلت فرنسا تنفرد به.

فمن أجل إبعاد ألمانيا عن سواحل المغرب الغربية، دعمت الولايات المتحدة في مؤتمر الجزيرة الخضراء كل مشاريع فرنسا السياسية في المغرب، خاصة وأن ألمانيا كانت تروم احتلال الصويرة لجعلها محطة عبور صوب مستعمراتها في البرازيل. علما أن سواحل طنجة كانت قد شهدت استعراضات عسكرية أمريكية ١٩٠٤، لتحرير "بيير ديكاري" المواطن الأمريكي الذي تم اعتقاله من قِبل الريسولي. وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد اعتمدت ما هو ديبلوماسي كأسلوب تجاه المسألة المغربية، فإن ما ترتب عن حدث هزيمة فرنسا ١٩٤٠ كان بأثر شديد إثر تهديد جديد ألماني للمغرب وللمصالح الأمريكية فيه،[٧] فضلاً عما أعطتِ الحرب الباردة للتواجد الأمريكي بالمغرب من أهمية لضرب حصار على الشيوعية واحتواءها في إفريقيا الشمالية.

ولعل فكرة تدخل الأمريكان في شمال افريقيا بدأت تتبلور منذ انهزام فرنسا وتوقيعها هدنة مع ألمانيا عام ١٩٤٠، وزاد من تخوفهم ما كان يروج حول امكانية تسرب الألمان عبر اسبانيا الى جبل طارق ومن ثمة تهديد مصالحهم بالمنطقة. هكذا بدأت تتجه الأنظار صوب المغرب لموقعه الاستراتيجي وبدأ التنسيق

الأمريكي الانجليزي لتحقيق نزول على شواطئه، وهكذا تحولت الدار البيضاء الى مرتكز في هذه العملية لكونها تشكل نهاية خط حديدي يصلها بشرق المغرب، وهو ما استغلته القوات الأمريكية برًا مقابل اعتماد القوات الإنجليزية على البحر.(٨)

ونظرًا لِما للمسألة من علاقة بموقع استراتيجي من جهة وواجهتين بحريتين متوسطية وأطلسية من جهة ثانية، كان المغرب البلد الوحيد ضمن المستعمرات الفرنسية بالشمال الافريقي الذي حضي بمكانة خاصة في سياسة الولايات المتحدة الأمريكية. بل هزيمة فرنسا أمام ألمانيا بالجبهة الأوربية كانت عاملاً موجهًا للسياسة الأمريكية، عندما تم التفكير في الدخول لمجال شمال افريقيا من أجل أهداف استراتيجية بالدرجة الأولى، خاصة لمَّا أصبحت انجلترا البلد الوحيد ضد جبهة دول المحور وتبين أن هناك أطماع ألمانية في البحر المتوسط، وأن هذا الأخير سيكون مجالا على درجة كبيرة من الأهمية لتدبير الحرب وعملياتها العسكرية. ومن هنا ما كان من رغبة للولايات المتحدة الأمريكية منذ بداية أربعينات القرن الماضي، في تقوية وجودها بشمال إفريقيا لتأمين الاتصال بانجلترا خاصة بعد قطع هذه الأخيرة لعلاقاتها مع حكومة فيشي الفرنسية. وعليه، كان وجه الاستراتيجية الأمريكية الجديد في المغرب هو انزالها العسكري على سواحله الغربية في ٨ نونبر ١٩٤٢.(٩)

٢/١-الأطماع الألمانية في المغرب بعد غزو فرنسا

شكل الهجوم الألماني المباغت على فرنسا في شهر ماي ١٩٤٠ ضربة قوية قاضية لهيبة فرنسا، مع أهمية الاشارة الى أن إقدام ألمانيا على إطلاق سراح المقاتلين المغاربة لم يكن سوى لأغراض دعائية وزرع البلبلة في المغرب. فقد جاء في تقرير بعث به مراقب عام فرنسي بالمغرب Demésnay: "إن انهزام فرنسا أذهل الأهالي (المغاربة)... إلا أن الأغلبية الساحقة تتفادى التشفي وتلتزم بالولاء باحتشام مؤثر وكأنها تشارك فرنسا عزاءها، وذلك ما لم يلتزم به حتى بعض الفرنسيين إذ أنهم أبانوا عن سلوك غير لائق."(١٠) ومباشرة بعد إبرامها لهدنة مع فرنسا في عهد حكومة بيتان بمدينة فيشي (١٩٤٠)، اتجهت ألمانيا لتقوية نفوذها في المغرب باعتباره بلدًا خزانًا لموارد وإمكانيات ضخمة، لدرجة أن بعثة الهدنة الألمانية في مدينة الدار البيضاء وجهت دعوة لـ"هتلر" من أجل تعميق أكثر للاهتمام بشمال إفريقيا.(١١)

وتعود أطماع التوسع الألماني بالشمال الافريقي لمطلع القرن الماضي، في ارتباط بزيارة گيوم الثاني الامبراطور الألماني لطنجة ١٩٠٥، كذا بقضية أگادير التي طبعت عام ١٩١١ وبدعم ألمانيا لحركة الهيبة بن ماء العينين في جنوب البلاد ولعبد المالك بن محي الدين الجزائري في شمالها، فضلاً عما كان يجمع بين ألمانيا وبعض رجالات المخزن المغربي من علاقة (عيسى بن عمر العبدي وزير الخارجية في عهد المولى عبد الحفيظ، عبد الله بن سعيد الصنهاجي عامل مدينة سلا...). ناهيك عن كون ألمانيا بعد تطوير صناعاتها بعد الحرب العالمية الأولى وفي إطار سياسة المجال الحيوي لـ"هتلر"، أخذت تبحث عن مراكز استراتيجية لها في العالم ومنها المغرب بشمال افريقيا. أطماع استراتيجية وردت في مؤلف نشر في برلين عام ١٩٤٠ بعنوان "الأرض والرايخ"، وقد تناول اشارات عدة لجهود ألمانيا ورهاناتها في الحصول على ممرات وإضعاف جبل طارق باستخدام محطات بحرية جانبية في كل من الدار البيضاء بالمغرب ووهران بالجزائر وبنزرت بتونس.(١٢)

في هذا الإطار نشطت الدعاية الألمانية بالمغرب منذ بداية ثلاثينات القرن الماضي ١٩٣٣، فمندوب الحزب النازي "شليشتنك" بمدينة العرائش كان يوزع منشورات بلغت حتى الدار البيضاء (منطقة الحماية الفرنسية). فقد كتب هذا الأخير في يناير ١٩٣٤: "أخذت مساعينا هنا في الانتشار وامتدت من طنجة إلى وهران، وفي الشهر المقبل سنواصل المساعي في داخل المنطقة الفرنسية، وأرى أنه من الضروري إرسال أحد رجال الحزب النازي من أصحاب النشاط والحنكة الطويلة لاستمرار العمل بروح نازية حقيقية."(١٣)

يتبين إذن أن أطماع ألمانيا وتقوية نفوذها في المغرب أمر يعود لمطلع القرن الماضي، لمَّا انزعجت مما أبرم من اتفاقيات حول المغرب بين القوى الأوربية،(١٤) وهي الأطماع تقوت بشكل معبر مع بداية الحرب العالمية الثانية وغزو فرنسا ١٩٤٠. وعليه، فعندما أعيد انتخاب الرئيس الأمريكي روزفيلت لفترة رئاسية ثانية ١٩٤٠ أعلن للشعب أن الحياة والديمقراطية في العالم مهددة، وأن هناك تخوفات تخص مستقبل وسلامة الولايات المتحدة ومصالحها، داعيًا إلى أهمية تقديم مساعدات للدول الديمقراطية خاصة انجلترا وفرنسا اللتين تحاربان الديكتاتورية في إيطاليا وألمانيا واليابان. وهكذا ضمن هذه السياسة والإجراءات، أقدمت الولايات المتحدة الأمريكية على تجميد اعتمادات مالية ألمانية كانت داخل البلاد، فضلاً عن إعلان ميثاق أطلسي بين تشرشل وروزفيلت في غشت ١٩٤٢.(١٥) تطورات وغيرها كانت مقدمة لإنزال أمريكي عسكري ودخول في الحرب، ومقدمة أيضًا لعقد لقاء دولي يخص الحلفاء عام ١٩٤٣ لعله لقاء آنفا الشهير بالمغرب.

وبقدر ما كان من أطماع ألمانية في المغرب منذ بداية القرن الماضي حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية، بقدر ما كان من تتبع أمريكي ومن عوامل دفعت الولايات المتحدة الأمريكية لدخول الحرب مع انعقاد لقاء "أنفا" فيما بعد، بقدر ما تبين أيضًا أن تحركات ألمانيا في المغرب كانت تروم مناهضة الأنشطة الأمريكية به.[١٦] وقد اضطر "كوردل هول" في واشنطن للاعتراف بكون الألمان أثاروا من القلق ما لا يستهان به، وأنه يجب إبلاغ الحكومة الفرنسية أن الولايات المتحدة لن تكون ملزمة بما وقعت عليه، في حالة عجزها عن ايقاف تغلغل الألمان بالشمال الأفريقي.[١٧] وقد اعتبر كثير من المحللين ومعهم ثلة من مؤرخي الحرب العالمية الثانية، أن مساعدة القوات الألمانية (هتلر) لإسبانيا كانت تقدم بسخاء ليس طمعا في إسبانيا بل لتحقيق أطماعها التوسعية في شمال إفريقيا بدءًا من المغرب.[١٨]

٣/١-ألمانيا بعيون الوطنيين المغاربة زمن الحرب

لعل من الوطنيين المغاربة الأوائل الذين توجهوا إلى ألمانيا خلال فترة الحرب العالمية الثانية نجد "أحمد بلا فريج"، بحيث كانت هناك لقاءات مع ساسة ألمان في برلين خلال شتنبر ١٩٤٠. بدوره قام عبد الخالق الطريس بزيارة لبرلين في يناير١٩٤١، وكانت له مشاورات مع المارشال "هرمان كورينغ" « hermen coring » و"هنريس هيملر "heinrich himmler، قبل توجهه إلى مدريد للبحث مع الأميرال "ولهيلم كناريس" wilhem canaris توفير امكانيات تقنية من أجل إعداد عمليات عسكرية ضد فرنسا بالمغرب، لدرجة هناك من تحدث في هذا المجال عن غواصات إسبانية عسكرية تم توجيهها من قبل "كناريس" تجاه السواحل الشمالية المغربية.[١٩]

في هذا الإطار يحق السؤال، حول درجة تجاوب الألمان والاسبان مع رغبة الوطنيين المغاربة، نظرة الفرنسيين تجاه هؤلاء، الأسس التي دفعت المغاربة للمغامرة في رغبة التحالف مع النازيين، حدود وعي الوطنيين المغاربة بالأطماع الألمانية في المغرب. وحول زاوية قراءة دول الحلفاء عموما لهذه الخطوات الوطنية المغربية، وحصيلة المخابرات الامريكية لهذا الملف خصوصا وأن الوضعية السياسية بأوربا والبحر المتوسط كانت قد بلغت درجة عالية في التعقيد. لقد تبين أن الوطنيين المغاربة قاموا بكل جهودهم بناء على قناعات سياسية، وأنهم كانوا على استعداد للتحالف مع من كان لتحرير بلادهم من السيطرة الأجنبية، ما فسر وأبان عن استمرارهم في التفاوض بيقظة وكتمان سر واحتراس مع الجميع في نفس الوقت. رغبة وطنية تظهر في أنه بعد الانزال الامريكي بالمغرب ٨ نونبر ١٩٤٢، وعلى أثر اللقاء الذي جمع السلطان محمد بن يوسف والرئيس روزفيلت في آنفا شهر يناير ١٩٤٣. اعتبر الوطنيون المغاربة أن الظرفية مناسبة للمطالبة بمراجعة اتفاقية الحماية، ليبدأ تنسيقهم مع السلطان من أجل إعداد وثيقة المطالبة باستقلال البلاد.[٢٠]

٤/١-الاهتمام الأمريكي بالمغرب من خلال اليهود المغاربة

بحكم ما كانت عليه من مواقع ادارية حساسة وإمكانيات مادية ومعنوية، توجهت الجماعات اليهودية المغربية لإقامة علاقات تعاون مع عملاء الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها قوة وحيدة قادرة على حسم الحرب. وكان المغاربة يتقاسمون مع اليهود نفس القناعة حول الدور الاستراتيجي الذي يمكن ان تسهم به الولايات المتحدة الأمريكية، فضلاً عن علمهم بما كان يمارس من ضغوط على حكومتها من قِبل وسائل اعلام ومنظمات يهودية وأصحاب نفوذ سياسي من اليهود في أمريكا مثل كاتب الدولة في الخزينة "هنري مورجينصو" ووزير الخارجية "سومروليس" وغيرهم، لدفع الرئيس روزفيلت الى الانخراط في الحرب وإنقاذ يهود أوربا.[٢١]

وفضلاً عن المساعي نفسها التي كانت لسفير الولايات المتحدة الأمريكية لدى حكومة فيشي "وليام ليهي (wiliam leahy)، ألح اليهود المغاربة على أهمية المغرب كقاعدة عبور أساسية لـ اللاجئين الراغبين في التوجه إلى أمريكا والذين لم يتمكنوا من المرور عبر إسبانيا والبرتغال. وقد انبنى تركيز اليهود المغاربة على أهمية المغرب الاستراتيجية ليكون نقطة عبور يهود أوروبا صوب أمريكا، لاعتبارات عدة منها علاقتهم بالمنظمات الدولية اليهودية بأمريكا وما كان من عطف خارجي تجاه اليهود المغاربة من قِبل ممثلي الولايات المتحدة الأمريكية في الدار البيضاء، الى جانب حيوية التحركات التي كان يقوم بها القنصل العام الأمريكي في الدار البيضاء" هربيرت كولد" لفائدة اليهود واحتكار هؤلاء لتمثيلية الشركات الأمريكية بالمغرب. ناهيك عن اتفاق" ويغاند- مورفي wegand murphy في مارس ١٩٤١، الذي نص على حضور الولايات المتحدة الأمريكية في شمال إفريقيا من خلال قناصلها بالمغرب، للقيام بمراقبة توزيع المواد القادمة اليه من أمريكا على المغاربة تجنبا لعدم تصديرها نحو فرنسا ومنها إلى ألمانيا. والواقع أن هؤلاء القناصلة المكلفين بهذه المهمة، كانوا بمهام استخباراتية يهيؤون لإنزال أمريكي مرتقب في المنطقة.[٢٢]

وكانت اتصالات الأمريكيين ووعودهم بتقديم مساعدات وإعانات للمغرب، قد دفعت شخصيات مخزنية مغربية للتفكير في مستقبل البلاد واستقلالها. وفي هذا الإطار أثار "دولوشال" وهو أحد ضباط الشؤون الأهلية الفرنسية بالمغرب، انتباه المقيم العام الفرنسي نوگيس حول تحركات مشبوهة لأعضاء طاقم أمريكي ولإشاعات حول احتمال إخضاع البلاد لحماية أمريكية.[٢٣]

٥/١-بين تجاوز الأمريكان لعزلتهم وحصار الشيوعية في البحر المتوسط

إذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد كسرت عزلتها الدولية في عهد الرئيس "ولسون" ومن طرفه، فقد كُسرت أيضًا ونهائيًا على يد الرئيس فرانكلين روزفيلت. وإذا كانت قد توفرت لـ"ولسون" شروط داخلية ودولية للقيام بهذه العملية، فنفس الشيء هو ما دفع لإنهاء عزلة البلاد في عهد روزفلت. ففيما يتعلق بالظروف الداخلية اقتصاديًا هناك ما استمر من كساد منذ ١٩٢٩ ولحوالي عشر سنوات، رافقته إكراهات فقر وعدم تدخل الدولة لوقف الأزمة مع بطالة وانخفاض أسعار مواد وإغلاق معامل وغيرها. أما ما يخص الظروف الخارجية فهناك الأحداث التي دفعت لحرب عالمية ثانية ثم غزو اليابان للصين (١٩٣١) واحتلال ايطاليا للحبشة (١٩٣٦) وتوسعها في ليبيا، فضلاً عن تمرد ألمانيا على التزامات معاهدة فرساي وقيام دكتاتورية في إسبانيا بدعم من ألمانيا وإيطاليا. تطورات وغيرها نتجت عن أطماع دكتاتورية مقللة من أهمية المواطن، بخلاف رؤية الأنظمة الديموقراطية كما في الولايات المتحدة الأمريكية التي ترى أن المواطن هو الدولة والحكم. وكان الرئيس روزفيلت قد صرح سنة ١٩٣٧ أن هناك اتساع لخرق القوانين الدولية، وأن البلاد ستكون معنية ومهددة وأنه لابد من التنسيق مع باقي الدول تجنبا للحرب، ولمّا تم انتخابه ثالث مرة سنة ١٩٤٠ أعلن أن الديمقراطية في العالم مهددة ومستقبل وسلامة البلاد معرضة للخطر.[٢٤]

هكذا بدأت الدعوة لمساعدة الدول التي توجد في الجبهة ضد الديكتاتورية، تلك التي جاءت في صورة ما عرف بقانون الإعارة والتأجير الذي بموجبه يعتبر الدفاع عن الدول الديمقراطية دفاع عن الولايات المتحدة الأمريكية. عوامل داخلية وخارجية دفعت هذه الأخيرة للحرب الى جانب الحلفاء، ما بات حقيقة عندما تم الاعتداء على قاعدة "بيرل هاربر" البحرية في جزر"هواي" بالمحيط الهادي خلال دجنبر ١٩٤١. وهذا ما وفر شروط هيأت لإنزال عسكري أمريكي[٢٥] بسواحل المغرب، وعقد لقاء "أنفا" الذي تمحور حول سبل التنسيق والتدخل للتخلص من الأنشطة الديكتاتورية وربح الحرب في أوربا، إنقاذا لمصالح الولايات المتحدة الأمريكية الاستراتيجية في حوض البحر المتوسط ومحاصرة ما كان يتسع في المغرب من فكر شيوعي.[٢٦]

ثانيًا: المغرب في تطورات الحرب العالمية الثانية

٢/١-لقاء "أنفا" في استراتيجية الأمريكان

بعدما صارت كفة الحلفاء ترجح، تزايدت اللقاءات والاجتماعات لتقرير مصير الحرب وتوحيد الأفكار وتمتين علاقات المنتصرين ووضع استراتيجية عسكرية وسياسية موحدة لتثبيت مواقع دول الحلفاء. هكذا ضمن سرية وكتمان شديد بدأت يوم ١٣ يناير ١٩٤٣ محادثات لقاء أنفا (الدار البيضاء) التي انتهت في ٢٧ من نفس الشهر، بحيث تحولت المدينة الى عاصمة دولية عندما حل بها الرئيس الأمريكي روزفيلت عبر الطائرة وكان ينتظره "تشرشل"، إلى جانب مسؤولين أمريكيين وأنجليز منهم الجنرال "إنزنهاور"، الذي لم يقض سوى يوما واحدا في الدار البيضاء لكونه كان مسؤولاً عن توجيه العمليات العسكرية في تونس.[٢٧] أما الرئيس السوفياتي المارشال "ستالين" والرئيس الصيني "تشان كاي تشيك" فقد اعتذرا عن الحضور، بسبب ظروف الحرب التي ألزمتهما بالبقاء في بلديهما للإشراف على العمليات العسكرية.[٢٨]

يذكر أن من الإجراءات التي اتخذت لتأمين هذا اللقاء، إحاطة فندق "أنفا" بأسلاك شائكة وإبعاد بعض القاطنين فضلاً عن تخصيص إقامات خاصة لإقامة المشاركين. وكان الرئيس روزفيلت وتشرشل قد أقاما في فيلا "دار السعادة" و"ميرادور" بجانب مكان انعقاد اللقاء، علمًا أن أهم اللقاءات تمت داخل هذه الإقامات الخاصة وليس في فندق "أنفا"، وأن أمن أنشطة هذا اللقاء السياسية كان موكولا للأمريكيين. مع أهمية الاشارة الى أن الجنرالين الفرنسيين "دوكول" و"جيرو" حضرا اللقاء كضيوف فقط، وهو ما لاحظه وشعر به "دوگول" وتم اطلاع تشرشل عليه. وكان موضوع لقاء "أنفا" الرئيسي هو مشروع اجتياح أوربا بمجرد التمكن من شمال إفريقيا، كذا بحث الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا على أنجح السبل لاستغلال نجاح الإنزال الأمريكي "طورش"، وهو ما تمت دراسته من طرف القيادات العسكرية للحلفاء في مخطط أنفا.[٢٩]

وبهدف إزعاج الألمان وإثارة انفعالهم، خضعت هذه العمليات للتطبيق يوم ٣٠ يناير ١٩٤٣ ذكرى بلوغ هتلر إلى السلطة في سنتها العاشرة. وهذا المخطط العسكري الذي ترتب عن لقاء "أنفا" أقر بإلقاء القنابل بشكل منظم ومستمر على ألمانيا والبلدان المحتلة استعدادا لغزو أوربا وفق ما تم الاتفاق عليه، وقد أكد الرئيس روزفيلت في مؤتمر صحفي بالدار البيضاء قائلاً: "سنواصل الحرب حتى استسلام العدو وبدون شروط". [٣٠]

ولوقوفه موقفا صامدًا ضد ألمانيا ولم يوافق على مخطط "بيتان" الذي استسلم للنازية وقاوم الحلفاء، ارتأى الرئيس الأمريكي روزفيلت أن يكرم السلطان المغربي باستدعائه لحفل عشاء أقامه على شرفه في دار السعادة بحي أنفا بالدار البيضاء، بحضور كل من "تشرشل" وولي العهد مولاي الحسن والجنرال نوكُيس وعدد من الشخصيات الأمريكية، فضلاً عن رئيس التشريفات السيد المعمري الزواوي والصدر الأعظم محمد المقري ورئيس المراسيم محمد المعمري. الى جانب روبرت مورفي الممثل العام للرئيس الأمريكي بالشمال الأفريقي وهاري هوبكنز والكولونيل ايليوت روزفلت والقبطان ماك ري الملحق البحري في البيت الأبيض. وقد ورد أنه بعد تناول وأي حول الحالة العامة دار حديث بين الرئيس روزفيلت والسلطان محمد بن يوسف عبر ترجمة السيد المعمري، تمت فيه الاشارة الى أن الولايات المتحدة لن تعرقل استقلال المغرب بل ستضع رهن اشارته معونات اقتصادية. ولعل مما سجل في هذا اللقاء اهتمام روزفيلت بماضي المغرب وحاضره مقدما ملاحظات تخص مستقبله، منبها لأهمية حماية ثروات البلاد من نهب الأجانب. [٣١]

وكان ابن الرئيس الأمريكي روزفيلت "إلييوت روزفيلت" قد تحدث في كتاب بعنوان "قال لي والدي"، عن لقاء جمع السلطان محمد بن يوسف وولي عهده وبعض رجال المخزن مع روزفلت. مشيرًا إلى أن حديثهما في هذا اللقاء تناول موارد المغرب الطبيعية وإمكاناته الضخمة الداعمة للتنمية، مشيرًا إلى أن السلطان طرح سؤالا حول مستقبل الوضع المغربي الفرنسي، وهو ما رد عليه روزفيلت بما ستعرفه الوضعية من تغيرات بعد نهاية الحرب خاصة ما يتعلق بمسألة الاستعمار، جواب جعل "تشرشل" يتضايق نسبيا محاولا توجيه النقاش إلى أشياء أخرى. [٣٢]

هكذا أبان الرئيس الأمريكي في "أنفا" أنه هو من يوجه الحرب ويحدد التغيرات السياسية القادمة، فقد قال لابنه "إيليوت" أنه لابد بعد نهاية الحرب من إعطاء الحق للدول المستعمرة، مضيفًا أن هناك حربًا أخرى متوقعة إذا سمحت دول العالم ببقاء ملايين البشر في ظل الاستعباد الاستعماري. مشيرًا في حديثه عن فترة ما بعد الحرب الى أنه على فرنسا اطلاع منظمة الأمم المتحدة سنويًا، حول وضعية المستعمرات من حيث تراجع نسبة الأمية ونسبة الوفيات، كذا جهود محاربة الأمراض فيها مضيفًا حق هذه المستعمرات في استقلالها السياسي. تصريحات واختيارات بقدر أهميتها وأبعادها الاستراتيجية، بقدر ما تضايق منها نسبيًا "تشرشل" في لقاء "أنفا". في نفس كتاب ابن روزفيلت، ورد أن السلطان المغربي أكد للرئيس روزفيلت انه يريد الاستعانة بالولايات المتحدة الأمريكية بمجرد انتهاء الحرب لتنمية المغرب تنمية شاملة. [٣٣]

وكان الرئيس الأمريكي قد استقبل السلطان محمد بن يوسف مرتين يوم ٢٢ يناير ١٩٤٣، الأولى كانت بمناسبة غداء رسمي والثانية كانت دون حضور للمقيم العام الفرنسي "نوكّيس"، وقد حيا روزفيلت السلطان على شجاعته خلال الانزال العسكري الأمريكي بالمغرب لما رفض المغادرة الى فاس. [٣٤] وكانت آمال المغاربة في استقلال بلادهم قد اتسعت [٣٥] إثر ما أدلى به الرئيس الأمريكي من تصريحات على هامش لقاء آنفا في يناير ١٩٤٣، كما أن ما حصل من اتصالات بين وطنيين مغاربة وضيوف أمريكيين غداة الانزال قد أبان عن دعم الولايات المتحدة للقضية المغربية. [٣٦] وقد شكل لقاء "أنفا" الذي ورد في مذكرات "ديگول" باعتباره مجرد اجتماع، [٣٧] منعطفا حاسما في تاريخ العلاقات المغربية الفرنسية، بحيث لم يعد يقتصر المغاربة على المطالبة بإصلاحات بل باستقلال بلادهم كمسار سرع به الإنزال الأمريكي. [٣٨] مع أهمية الإشارة الى أنه بعد التصريح بالمبادئ التي دعا اليها روزفيلت تم الاتفاق على ميثاق الأطلسي، وأن السلطان محمد بن يوسف أشار في مناسبات عدة أن خير ما يقدم الحلفاء لبلاده حريته واستقلاله. ولعل من أجوبة روزفيلت خلال لقاء أنفا حول وضع المستعمرات الفرنسية ومنها المغرب، تعجبه حول القول بكون هذا الأخير مِلك لفرنسا علمًا أن من يسكنه هم مغاربة، متسائلاً بأي حق تملك فرنسا أراضي آخرين وبأي قانون وقاعدة تاريخية يتم هذا الاحتلال. [٣٩]

وعن العلاقات المغربية الفرنسية وما جرى في لقاء "أنفا" اعترف "ديگول" بوفاء المغرب لفرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية، مشيرًا لعدم خضوعه أثناء هزيمتها أمام ألمانيا لأوامر الانفصال التي بلغته من "هتلر"، وأن السلطان محمد بن يوسف لم يأخذ بنصائح "روزفيلت" المخاتلة لمَّا حرضه في "أنفا" على نقض معاهدة الحماية.(٤٠)

٢/٢-القضية الوطنية المغربية من خلال لقاء "أنفا"

لقد كان صدور الميثاق الأطلسي في غشت ١٩٤١ والذي تضمن مواقف صريحة تجاه قضايا الشعوب المستعمرة بمثابة آمال واسعة تحريرية، خاصةً وأن الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا أعلنتا عن حق الشعوب في اختيار نظامها السياسي، وانهما سيعملان بعد نهاية الحرب لمساعدة العالم على تحقيق الرخاء والسلام والأمن. ولعل من أحداث الحرب الثانية التي دعمت التيارات الوطنية المغربية في الاستقلال هناك لقاء "أنفا"، فالحضور العسكري والسياسي الامريكي بالمغرب سنة ١٩٤٢-١٩٤٣ أسقط هيبة فرنسا في أعين المغاربة، وشجعهم على تغيير مطالبهم وأبان أن مصيرهم لم يعد بين يدي فرنسا وحدها. كما ظهر جليًا أن الولايات المتحدة بإمكانها أن تلعب دورًا طلائعيًا لفائدة القضية المغربية، وهو ما عبر عنه محمد حسن الوزاني قائلاً: "في نونبر سنة ١٩٤٢ تحقق نزول القوات الأمريكية بالمغرب، فكان حدثا كبيرًا غير الأوضاع والمفاهيم كما رسم الخطوط العريضة للمغرب المتطلع الى الجديد في مجال التحرير والخلاص". من هنا يظهر أن ظروف الحرب العالمية الثانية وما حصل على هامشها بالمغرب (لقاء أنفا)، كان له أبعد الأثر في بلورة وتحديد توجهات جديدة للفكر الوطني وللخيارات السياسية المقبلة.(٤١)

بالنسبة للمغاربة كان أهم حدث في لقاء أنفا الذي استمرت أشغاله عشرة أيام من ١٠ يناير ١٩٤٣الى ٢٤ منه، هو حضور سلطان البلاد بدعوة من روزفيلت الذي أعلن أن النظام الاستعماري لم يعد مقبولاً وبات محكومًا بالزوال.(٤٢) وكانت المناسبة بأثر معبر أشعرت السلطان بمكانة ودور في المعادلة السياسية، وما حصل خلالها من تجاهل أمريكي للاقامة العامة الفرنسية جعلت روزفيلت يشارك الوطنيين المغاربة كفاحهم من أجل الاستقلال،(٤٣) بل شجع السلطان للمطالبة به عند نهاية الحرب على الأقل وربما أكد له ذلك.(٤٤)

ولم تكن الحركة الوطنية المغربية تطالب بإلغاء نظام الحماية الفرنسية في الفترة ما بين ١٩٣٠-١٩٤٢، مكتفية في مطالبها بتطبيق ما جاء في عقده الموقع بفاس. إلا أن تطورات الحرب العالمية الثانية وملابسات نزول القوات الأمريكية على السواحل المغربية، فضلاً عن انعقاد لقاء أنفا وقبله صدور الميثاق الاطلسي، كلها شروط دولية جديدة كانت بدور في تغيير ورفع المطالب المغربية إلى مستويات أعلى.(٤٥)

وأمام موجة حركات التحرير في العالم، تبين أن خطاب الاستعمار حول التمدين والتحديث ليس سوى غطاء ايديولوجيا وإعلاميا خادعا. وعليه، قطعت الحركة الوطنية المغربية مع نظام الحماية والإصلاحات للمطالبة بالاستقلال خاصة بعد لقاء أنفا. حيث أبان روزفيلت عن دعمه لاستقلال المغرب(٤٦) دون وعد صريح لمساندة مطالبه الوطنية، مبديًا تفهمه رغبة المغاربة في التحرر متطلعًا ليوم يصل فيه المغرب الى الاستقلال وفقا لمبادئ الاطلسي متمنيا أن يكون ذلك بعد نهاية الحرب.(٤٧) وكان السلطان المغربي قد تلقى في لقاء "أنفا " ضمانات أكثر، حول أسلوب عمل وسير السياسة الخارجية الأمريكية التي تفهمت مقاومة البلدان الافريقية والأسيوية من أجل الاستقلال.(٤٨) في نفس الوقت أكد روزفيلت للسلطان المغربي أن هناك تغيرات سيعرفها العالم بعد الحرب العالمية الثانية، قائلاً: "بعد الحرب سيصبح إعادة التنظيم السياسي والاقتصادي للشعوب ضرورة ملحة."(٤٩)

هكذا كان لقاء "أنفا" بدلالات هامة بالنسبة للمغرب، بحيث لأول مرة منذ عقد الحماية حصل حديث مع رئيس دولة كبرى في غياب مقيم عام فرنسي، فضلاً عن ظهور المغرب كبلد بسيادة وقيادة تنوب عن رغبة الشعب ومواقفه، وعن نقل القضية المغربية من مستواها الثنائي (فرنسا- المغرب) الى مستواها الدولي. وسواء حَدثُ الانزال الأمريكي أو لقاءُ "أنفا"، فقد كانا هزة قوية لنظام الحماية زادت من عزيمة العمل لتحقيق استقلال البلاد فكان تأسيس حزب الاستقلال. وعليه، ففي سنة ١٩٤٤ أعلنت الحركة الوطنية المغربية بتنسيق مع السلطان، المطالبة بالاستقلال كشرط أساسي لتحقيق الإصلاحات التي طالما طالب بها المغاربة.(٥٠) ولعل بقدر ما كانت سنة ١٩٤٣"ولقاء أنفا" بداية عد عكسي لانحدار النازية والفاشية، بقدر ما اعتبرت بداية تفكير جدي في آفاق نظام عالمي جديد أكثر توازنا آنذاك، من أهم قضاياه كان إقرار حق الشعوب المستعمرة في تقرير مصيرها وتحقيق الاستقلال لدعم خيارات عالم ما بعد الحرب.(٥١)

وحول القضية المغربية وفي علاقة بلقاء "أنفا" واجتماع السلطان بقيادة الولايات المتحدة، يقول الملك الحسن الثاني: "إن الذين زعموا أن كفاحنا قد دعمه الأجانب، يعرف الجميع أي

خطأ ارتكبوه، فالمبادئ الديمقراطية العظمى التي تغنوا بها في أنفا تنوسيت شأنها في ذلك شأن الوعود المشرقة التي قطعت، ولم يمر وقت طويل حتى أدركنا أن روزفيلت وتشرشل لم يكن همهما في يناير ١٩٤٣، تحرير المغرب من النير الاستعماري، إنما كان اهتمامهما منصبا على تحييد المغرب ليهزم روميل ولتتمكن قوات الحلفاء من النزول في إيطاليا، وهكذا تبقى الأولويات للحسابات المنطقية".(٥٢)

٣/٢-المغرب والحرب الباردة

بخصوص خلفيات انعقاد لقاء "أنفا" الحقيقية، بعد الانزال العسكري الأمريكي وليس قبله، في هذا التوقيت وليس غيره، في المغرب وليس في بلد آخر، يكاد لا يذكر شيئا على قدر من الأهمية في المؤلفات التاريخية وعند المؤرخين. فكل ما تم الوقوف عليه هو أنه تم اختيار مكان عقد قمة بين الحلفاء بعيدًا عن جبهة القتال، وهنا السؤال هل المغرب الذي كان ضمن اهتمامات النازية الألمانية غير بعيد عن إسبانيا (فرانكو) كان بعيدًا عن الحرب وعن جبهة القتال.

لقد انبنى عقد لقاء "أنفا" وقبله عملية الانزال على سواحل المغرب على أهمية موقع البلاد الاستراتيجي جغرافيًا،(٥٣) ويظهر أنه منذ ١٩٤٧ دخل المغرب في الاستراتيجية الأمريكية كمنطقة احتياط أساسي لمحاصرة الاتحاد السوفياتي، فالبنتاغون في احدى تقاريره أعلن عن أهمية المغرب في تحقيق أمن الولايات المتحدة الأمريكية، بالنظر لطبيعة موقعه الذي يحكم الطرق المؤدية إلى البترول في شرق البحر المتوسط، وبكيفية خاصة ما هو عسكري في حالة عمليات عسكرية أمريكية بمنطقة الشرق الأوسط. ومن هنا أهمية ما تم إحداثه من قواعد عسكرية أمريكية بالمغرب منذ الانزال، في كل من الدار البيضاء وبعدة نقاط ومدن مغربية. وكان المسؤولون السياسيون الفرنسيون على وعي بهذه الحقيقة والمصلحة الحيوية لهذه القواعد بالمغرب، والتي فرضتها ظروف الحرب الباردة في سنواتها الأولى. وقد تم تفسير تواجد هذه القواعد برغبة الولايات المتحدة الأمريكية في حماية فرنسا كقوة حامية لمصالحها في المنطقية، لكن مع تكتم وتخوف حول مستقبل أمن المنطقة. ولعل قواعد الولايات المتحدة الأمريكية العسكرية بالمغرب، كانت على علاقة بإعلان مبادئ الميثاق الأطلسي ووعود روزفيلت في لقاء "أنفا" تجاه المغرب، كذا بالوضع الجديد لفرنسا التي تحولت إلى حليف استراتيجي في الميثاق الأطلسي منذ ١٩٤٩. وعليه فقد تطلبت استراتيجية حماية الغرب عموما (الدول الحليفة الرأسمالية)، تواجد قواعد عسكرية في المغرب.(٥٤)

مع أهمية الإشارة إلى أنه بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، كان الأمريكيون برغبة ضعيفة في مغادرة قواعدها بالمغرب التي تدعمت بلقاء "أنفا"، ولهذا كانت هناك اتفاقيات بين فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية في شتنبر ١٩٤٧، تلك التي سمحت بتسهيلات بحرية وجوية عبر قاعدة القنيطرة. لكن منذ ١٩٥٠ تم السماح للأمريكيين ببناء مطارات جديدة على التراب المغربي، إثر اتفاق سري تم توقيعه في ٢٢ دجنبر من نفس السنة بين وزير الخارجية الفرنسي (بيدولت Bidoult) وسفير الولايات المتحدة بفرنسا جيفيرسون (Jefferson Caffery)، اتفاق سمح بعدة امتيازات لفائدة القوات الأمريكية في المجال الجوي والبحري، ومنها بناء خمس قواعد (سيدي سليمان، بن سليمان، بن كًرير، نواصر، جمعة أولاد سحيم). وفي شتنبر ١٩٥٣ أقدمت واشنطن على عقد اتفاقية مع اسبانيا (فرانكو)، من أجل بناء قواعد عسكرية بها على إثر ما عرفه المغرب من أحداث وتطورات سياسية وأمنية (نفي محمد السلطان محمد بن يوسف).(٥٥)

خاتمةٌ

لقد جاء لقاء "أنفا" في ظرفية سياسية دولية غير مستقرة، ليس فقط شمالاً حيث الدول الكبرى الاستعمارية بل حتى في جنوبًا مع اتساع حركات التحرر الوطني بعدة جهات من افريقيا وأسيا. ولقاء أنفا الذي اختار المغرب بعيدًا عن جبهات القتال رغم ما طبعه من سرية قبل وخلال انعقاده، شكل أولاً لحظة سياسية وجهت الرأي العام العالميً صوب مدينة في مستعمرة فرنسية هي المغرب من جهة، وجدول أعمال ثانيًا استهدف التخلص من التهديدات الألمانية تجاه أوربا مع رسم خريطة جديدة للعالم بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

وبقدر ما تأسس لقاء أنفا على شروط موضوعية دولية وجهوية، توقفنا عليها بإبراز أهمية المغرب في استراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية وفي رهان نفوذ ألمانيا فيه بعد غزوها لفرنسا، كذا أنشطة الوطنيين المغاربة السياسية مع الألمان ودور اليهود في توجيه الاهتمام الأمريكي بالمنطقة، فضلاً عن ظروف داخلية أمريكية دفعت لأهمية تجاوز عزلتها ببحثها عن مصالح استراتيجية لها بالخارج. بقدر ما كان لقاء أنفا هذا بأثر ليس فقط على المغرب بل على العالم أجمع لِما عرفته القضية الوطنية المغربية ومعها قضايا التحرر في كل جهات

العالم من قوة، ناهيك عن انضمام فرنسا فيما بعد للحلف الأطلسي- وإحداث قواعد عسكرية أمريكية في المغرب واسبانيا. وهو ما يعني بروز الدور الأمريكي في قيادة العالم الرأسمالي اقتصاديا وسياسيا وماليا، خاصة بعد ما تعرضت له أوروبا الغربية من خراب كبير بسبب الحرب التي كانت مسرحًا لها. وما مشروع مارشال الأمريكي ١٩٤٧ إلا أجرأة لقوة الولايات المتحدة الأمريكية، ولبداية حرب باردة بين قوتين جديدتين (قطبية ثنائية) باتت تحكم العالم بعقليتين متناقضتين شيوعية ورأسمالية، وكان المغرب سنة ١٩٤٧ قد تحول إلى منطقة احتياط استراتيجية لحصار الاتحاد السوفياتي بالشمال الافريقي.

يبقى السؤال حول هل أهداف التواجد الأمريكي عند الإنزال بالمغرب ومع لقاء أنفا، هي حقيقة ما حرك الآلة العسكرية والدبلوماسية الأمريكية واستنفارها العسكري والسياسي إلى هذا المستوى؟ وهل الهدف الحقيقي كان هو ألمانيا أم تطلعات وعناصر أخرى من العالم خلال الحرب وبعدها؟ ثم لماذا الانتظار إلى حين ما حدث من خراب داخل أوربا خاصة فرنسا؟ وما علاقة لقاء "أنفا" ودعم الشعوب نظريًا من أجل الحرية والانعتاق بوضع الولايات المتحدة الأمريكية الداخلي الاقتصادي؟ وهل أحسن المغرب استغلال هذه التطورات السياسية والعسكرية لفائدة قضيته الوطنية؟ وهل لقاء أنفا والانزال الأمريكي قبله كانا مشروعين لحماية أمريكية على فرنسا والمغرب؟ ما تم إجهاضه أو إيجاد بدائل له ضمن متغيرات دولية آنذاك.

الملاحق



صورة رقم (١)

الانزال العسكري الامريكي بالمغرب على عهد الحماية



صورة رقم (٢)

اللقاء التاريخي بين السلطان محمد بن يوسف والرئيس روزفيلت بالدار البيضاء



صورة رقم (٣)

الرئيس الأمريكي روزفيلت بالدار البيضاء يناير ١٩٤٣



صورة رقم (٤)

لقاء أنفا في المغرب ١٩٤٣

`مصدر الصور في الملاحق: أرشيف صاحب الدراسة

الاحالات المرجعية:

(١) بنهاشم محمد، **العلاقات المغربية الأمريكية دراسة في التمثيل الدبلوماسي الأمريكي بالمغرب ١٧٨٦-١٥١٧**، طبعة أولى، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ٢٠٠٩، ص ٧.

(٢) محمد تلويزت، **تقرير حول كلفة الاحتلال الألماني لفرنسا خلال الحرب العالمية الثانية في المغرب**، مجلة أمل، للثقافة والتاريخ والمجتمع، عدد ٩، مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٧، ص ١٢٧.

(٣) وليام هوينستن، **الحماية الفرنسية بالمغرب بين الأوج والأفول ١٩٣٦- ١٩٤٣**، تعريب إبراهيم بوطالب، طبعة أولى، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ٢٠٠٢، ص ٢٩٦.

(٤) نفسه، ص ٣٠١.

(5) Lahlou Abdelmalek, Casablanca, A L'heure de l'Opération Torch et de la Conférence d'Anfa, 1(ère) Edition, Imprimerie Najah el j dida, 1993, p 165.

(٦) الغالي العراقي، **الملك محمد الخامس وسياسة التحرير بين فن الممكن والمستحيل**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، طبعة أولى، مطبعة فضالة المحمدية، ٢٠٠٤، ص 65.

(7) Al Moustafa Azzou , la Presence Militaire Américaine au Maroc (1945- 1963), Presses Universitaires de France (gérves mondiales et conflit contemporains, N° 210 , 2003, p 125.

(٨) العلوي زين العابدين، **المغرب من عهد الحسن الأول إلى عهد الحسن الثاني**، جزء ثالث، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ٢٠٠٩، ص ٢٣٦- ٢٣٧.

(9) Juliette Bessis, la Politique Américaine, en Afrique du Nord pendaut la Seco-Guerre Mondiale, Revue de l'Accident Musulman et la Méditérannée. Année 1983, vol 36, N°1, p 148.

(١٠) كنبيب محمد، **يهود المغرب ١٩١٢-١٩٤٨**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، طبعة أولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٨، ص ٢٠٩.

(١١) نفسه، ص ٢١٠.

(١٢) الفلالي عبد الكريم، **التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير**، الجزء التاسع، طبعة أولى، المطبعة شركة ناس للطباعة، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٣٦٩- ٣٧٠.

(١٣) نفسه، ص ٣٧١.

(14) Colonel. p.l . Monteil , Quelques Feuilles et L'histoire Coloniale , Société d'Editions Géo-Maritimes et Coloniales, Paris, 1924, p 133.

(١٥) رأفت غنيمي الشيخ، **أمريكا والعالم**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، طبعة أولى، ٢٠٠٦، ص ١١٦-١١٧.

(١٦) هوستن وليام، **الحماية الفرنسية بالمغرب بين الأوج والأفول ١٩٣٦-١٩٤٣**، طبعة أولى، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٢، ص ٢٩٦.

(١٧) نفسه، ص ٣٠١.

(١٨) غربي محمد، **المقاومة المغربية في الأربعينيات بين المواجهة الداخلية وتداعيات الحرب الكونية الثانية، قراءة في كتابي، التحدي وذاكرة ملك، تاريخ المقاومة والحركة الوطنية بإقليم شفشاون**، ندوتان علميتان، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ٢٠٠٤، ص ٢١٣.

(19) Zad Mohamed, Resistance et Armée de Liberation ou Maroc (1947-1956), Imprimerie des Editions, kawtar , 2006, p 45.

(20) Ibid, zad mohamed, p 48.

(٢١) كنبيب محمد، م س، ص ٢٢٧.

(٢٢) نفسه، ص ٢٢٨.

(٢٣) نفسه، ص ٢٢٩.

(٢٤) غنيمي الشيخ رأفت، **أمركا والعالم، في التاريخ الحديث والمعاصر**، العين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، طبعة أولى، ٢٠٠٦، ص١١٥- ١١٦.

(٢٥) قصف مدفعي أمريكي عنيف ذلك الذي حصل يوماً انطلاقاً من المحيط غرباً، تجاه عدد من مدن مغرب الحماية بداية أربعينات القرن الماضي تحديداً نونبر ألف وتسعمائة واثنتين وأربعين. وضع بقدر ما أفرح معارضي الحماية الفرنسية من المغاربة، بقدر ما أغضبتهم أمر دعوة مقيمها العام نوكِّيس للمقاومة والتجنيد معاً. وكان هجون الأمريكان المباغث هذا بحصيلة بشرية ثقيلة بلغت حوالي ألف قتيل وألف جريح، مع خسائر مماثلة أمريكية فضلاً عما ترتب من دمار شمل أرصفة ميناء الدار البيضاء.

(26) Albert Ayache, les Communistes du Maroc et les Marocains (1936-1939), Mouvement Ouvrier, Communisme et Nationalismes dans le Monde Arabe, les Editions Ouvrières, Paris; 1978 , p 159.

(27) Lahlou Abdelmalek ,Casablanca à L''heure de L'oprération Torch et de la Conférence d'Anfa , Imprimeire Najah el Jadida, 1(ère) Edition 1993, p 168.

(٢٨) القادري أبو بكر، **مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية**، جزء ثاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، طبعة أولى، ١٩٩٧، ص ١٤٧.

(29) Lahlou Abdelmalek, ibid, p 169.

(30) Ibid, p169.

(٣١) القادري أبو بكر، **مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية**، جزء ثاني، م س، ص ١٤٧- ١٤٨.

(32) Lahlou Abdelmalek, ibid, p ١٧٧.

(٣٣) **مذكرات من التراث المغربي**، إشراف علي الصقلي، الجزء السادس، ١٩٣٤-١٩٠٣، السنة ١٩٨٦، ص ١٠١.

(34) Lahlou abdelmalak, ibid, p ١٧٨.

(٣٥) بما أن الأمريكان كانوا يتواجدون في بلد مستعمَر من قِبل فرنسا فقد توجهوا لكسب عطف المغاربة ونخبهم، وكان من جملة أثر إنزالهم بالمغرب ما حصل من تمثل في المطالبة

بالاستقلال بعد ما تعرضت له هيبة الاستعمار الفرنسي هنا وهناك. وعليه، توحد كل من حزب الاصلاح الوطني بقيادة عبد الخالق الطريس وحزب الوحدة المغربية بقيادة المكي الناصري، فأصدرا بياناً طالبا فيه باستقلال البلاد. وفي يناير من سنة ألف وتسعمائة وثلاثة واربعين طرح الحزب الشيوعي المغربي حق المغرب في الاستقلال، وكان السلطان محمد بن يوسف قد خرج عن تحفظه أيضاً لما رفض مغادرة الرباط في نونبر من سنة ١٩٤٢، بل في يناير من السنة الموالية التقى بالرئيس الأمريكي روزفيلت بحي أنفا بالدار البيضاء دون وسيط إلزامي (مقيم عام) بموجب معاهدة الحماية.

(٣٦) كنبيب محمد، م س، ص ٢٤٠.

(٣٧) الجنرال ديكًول، **مذكرات الأمل**، ترجمة سموحي فوق العادة، مراجعة أحمد عويدات، الأكاديمية الجزائرية للوثائق والمصادر التاريخية، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، طبعة أولى، ١٩٧١، ص ١١٥.

(٣٨) جورج سبيلمان، **المغرب من الحماية إلى الاستقلال ١٩١٢- ١٩٥٦**، منشورات مجلة أمل، وزارة الثقافة، الرباط، مطابع الرباط نت، ٢٠١٤، ص ١٠٤.

(٣٩) الفيلالي عبد الكريم، **التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير**، جزء عاشر، شركة ناس للطباعة والنشر، القاهرة، طبعة أولى، ٢٠٠٦، ص ٢٢- ٢٣.

(٤٠) الجنرال ديكًول، **مذكرات الأمل**، م س، ص ١١٥.

(٤١) بلمقدم رقية، نفسه ص ٨٥.

(٤٢) العلوي زين العابدين، **المغرب من عهد الحسن الأول إلى عهد الحسن الثاني**، م س، ص ٢٤٥.

(٤٣) العقاد صالح، **المغرب العربي**، مكتبة الأنجلو المصرية، طبعة ثالثة، ١٩٦٩، ص ٣٩٩.

(٤٤) ألبير عياش، **الحركة النقابية بالمغرب**، جزء ثاني، ١٩٤٣- ١٩٤٨، ترجمة نور الدين سعودي، منشورات مجلة أمل، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، طبعة أولى، ١٩٨٨، ص ١٥

(٤٥) امزيان محمد، **بين الحماية والطموح إلى الاستقلال إطلالة على الأوضاع السياسية في المغرب ١٩٦٢-١٩٤٧**، مجلة أبحاث عدد٤٤، ١٩٩٨، ص ٢٣.

(٤٦) سليم محمد، **البعد الدولي في وثيقة المطالبة باستقلال المغرب، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير**، مطبعة كانترانت، الرباط، طبعة أولى، ٢٠٠٨ ، ص ١٢٢.

(٤٧) الحسن الثاني، **التحدي**، المطبعة الملكية، الرباط، طبعة ثانية، ١٩٨٣، ص ٥٠.

(48) Chouraki André, Histoire des Juifs en Afrique du Nord, Tome I en Exil au Ma roc ,Editions Rocher , 1998. P.7.

(٤٩) الحسن الثاني، م س، ص ٥٠.

(٥٠) الخديمي علال، **تأملات حول أهمية زيارة محمد الخامس لطنجة**، "مقال، ندوة علمية، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين واعضاء جيش التحرير، الرباط ، ١٩٩٧. ص. ٦١.

(٥١) بوكاري أحمد، **في ذكرى تقديم وثيقة الاستقلال**، مجلة المقاومة وجيش التحرير، العدد ٥٤، مارس ١٩٩٩، ص. ١٨.

(٥٢) غربي محمد، **المقاومة المغربية في الأربعينيات بين المواجهة الداخلية وتداعيات الحرب الكونية الثانية**، م س، ص، ٢١٨

(٥٣) الغالي العراقي، **الملك محمد الخامس سياسة التحرير بين فن الممكن والمستحيل**، م س، ص، ٦٢ .

(54) Al-mostafa Azzou, la Presence Militaire Americaine au Maroc (1945-1963), Presses Universitaires de France (guerres mondiales et conflit contemporains, n°210, Anneé 2003, p 128.

(55) Al-mostafa azzou, Ibid, p 129.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الأوضاع الاقتصادية في بغداد إبان العهد الأخير من الخلافة العثمانية (١٨٧٣ - ١٩١٧)



أ.د. أسامة عبد المجيد العاني
أستاذ في قسم العلوم المحاسبية والمصرفية
كلية الفارابي الجامعة
بغداد – جمهورية العراق

مُلَخّص

شاع التغلغل الاقتصادي الأوروبي في العراق إبان ضعف الخلافة العثمانية في عهدها الأخير، الأمر الذي أدى إلى زيادة اندماجه بالاقتصاد العالمي كسوق لتصريف الإنتاج العالمي. هدف البحث إلى دراسة الأوضاع الاقتصادية في بغداد خلال المدة ١٨٧٣-١٩١٧. وتمثلت مشكلة البحث في معرفة تغير الحالة الاقتصادية فيها خلال مدة البحث. أشار البحث إلى حدوث تذبذب كبير في مسار النمو الاقتصادي لولاية بغداد لأسباب تتمثل في عدم وجود وتيرة ثابتة لعلاقة المركز بالأطراف، إذ طالما تغيرت بتغير السلطان أو الوالي. وظلت الصفة الغالبة للاقتصاد العراقي اقتصاد الزراعة والرعي، وعلى الرغم من السياسات الإصلاحية التي اتبعها السلطان عبد الحميد الثاني، لم يحقق الاقتصاد الزراعي للولاية سوى انتقاله من حالة الكفاف إلى حالة اقتصاد السوق. كما لم تتمكن الصناعة من مواكبة التطور، ولم تصمد أمام الواردات الأجنبية. ولوحظ تغلغل رأس المال الأجنبي وسيطرته على التجارة وغيره من الحلقات الاقتصادية للولاية، مما منع تبلور رأسمال وطني للنهوض باقتصاد الولاية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٧	أبريل	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	١٦	مايو	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

ولاية بغداد؛ الخلافة العثمانية؛ التأريخ الاقتصادي؛ التاريخ العثماني؛ تاريخ العراق الحديث

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.232538

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أسامة عبد المجيد العاني، "الأوضاع الاقتصادية في بغداد إبان العهد الأخير من الخلافة العثمانية (١٨٧٣ - ١٩١٧)".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثاني والخمسون؛ يونيو ٢٠٢١. ص ١٩٢ – ٢٠٦.

Corresponding author: usamaani@yahoo.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تزامن الوضع الاقتصادي لولاية بغداد مع ضعف الخلافة العثمانية في عهدها الأخير، وشيوع التغلغل الاقتصادي الأوروبي في العراق وبضمنه بغداد من خلال شركة الهند الشرقية وغيرها، صاحبه تطور في نشوء الجهاز المصرفي، أدى إلى المزيد من الاندماج في الاقتصاد العالمي للعراق، لا كبلد مكافئ، وإنما كتابع وسوق لتصريف الإنتاج العالمي.

يهدف البحث إلى تسليط الضوء على الأوضاع الاقتصادية في بغداد خلال المدة ١٨٧٣-١٩١٧. ويمكن صياغة **مشكلة البحث** في ضوء السؤال الآتي: ما هي طبيعة الحالة الاقتصادية في بغداد إبان العهد الأخير من الخلافة العثمانية للمدة ١٨٧٣-١٩١٧؟ ويتفرع عن ذلك التساؤلات الآتية: ما هي طبيعة الأوضاع الاقتصادية في بغداد بعد ترك مدحت باشا للعراق؟ ما هي التغيرات الاقتصادية التي طرأت في ولاية بغداد على وفق تغير الأحداث في المركز؟

الدراسات السابقة

محمد سلمان حسن، التطور الاقتصادي في العراق، التجارة الخارجية والتطور الاقتصادي ١٨٦٤-١٩٥٨. من منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، يعتقد في عام ١٩٦٥، أصل الدراسة اطروحة دكتوراه للمؤلف، تم تطويرها وتعريبها من قبل المؤلف، هدفت الدراسة الى بحث التطور الاقتصادي في العراق بدراسة موضوعية، حددت العوامل والمراحل الأساسية لتدهور الإقطاع ونشوء الرأسمالية. وهدفت الدراسة الى دراسة التطور الاقتصادي في الماضي لبيان شروط الإعمار الاقتصادي، من خلال التركيز على دور التجارة الخارجية وأثرها على القطاعات الاقتصادية الأخرى.

غانم محمد علي، النظام المالي العثماني في العراق،١٢٥٥-١٣٣٣هـ/ ١٨٣٩-١٩١٤. رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، كلية الآداب، جامعة الموصل، شباط،١٩٨٩، الموصل، تطرقت الرسالة الى الإدارة المالية العثمانية في العراق ١٨٣٩-١٩١٤ من حيث الإيرادات والمصروفات والنظام النقدي. وتم تناول الهيكل المالي المكون من الدفتر دار، وقلم حسابات الولاية وقلم حسابات المركز، ودائرة الدفتر الخاقاني ودائرة الويركو، مع التحريرات. وتطرقت الرسالة الى الهيكل الاداري في اللواء والقضاء، ونظام الكمارك ودائرة الرسومات وادارة الدين العام العثماني وإدارة الأراضي السنية وغيرها من الرسوم والضرائب، وأصول تنظيم الموارد المالية والميزانية والنظام النقدي والنقود في العراق والصيرفة والبنوك ومنها البنك الامبراطوري العثماني والبنك الشاهي الفارسي. وتوصلت الرسالة إلى أن النظام المالي العثماني كان على درجة عالية من التنظيم والدقة، ولكن من الوجهة التطبيقية كان يعاني من مشاكل، لعل من أبرزها الفساد والرشوة وضعف كفاءة القائمين عليه. فضلاً عن أن ما واجهته الدولة العثمانية منذ القرن التاسع عشر من مشكلات بنيوية، وتحديات خارجية من دول الغرب أسهم كل هذا في تدهور أوضاع الدولة.

ياسين شهاب شكري، ولاية بغداد: ١٨٧٢-١٩٠٩م، دراسة في أوضاعها الإدارية والاقتصادية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث مقدمة إلى كلية الآداب في جامعة الموصل ١٩٩٤، هدفت الدراسة تسليط الأضواء على الأوضاع الإدارية والاقتصادية في ولاية بغداد للمدة موضوعة البحث، كي يستنبط منها فهم اتجاهات وطبيعة الأحداث التي برزت في بغداد خلال العهد العثماني الأخير، وتأثيرها على مجرى حياة السكان إيجابًا أو سلبًا، فيما بعد.

بماذا تتميز الدراسة الحالية؟

على الرغم من أن دراسة محمد سلمان اقتصادية بحتة، إلا أن موضوعها يختلف عن موضوع بحثنا، إذ هدفت دراسته الى تحول الاقتصاد العراقي الى الرأسمالية وتحلل الاقطاع. أما دراسة غانم فقد تطرقت الى وصف النظام المالي من حيث طبيعة الضرائب والرسوم ونوع الإيرادات والمصروفات، دو تحليلها اقتصاديًا، وتأثير ذلك على تغير الأنماط الاقتصادية في الولاية. بينما استخدمت رسالة شكري الجانب الوصفي للتغيرات الاقتصادية والتغييرات الإدارية التي طرأت في ولاية بغداد، أبان العهد العثماني الأخير. مما يشير الى أن بحثنا يتميز عن الدراسات السابقة من حيث أهدافه ومعالجته للمدة موضوعة البحث.

هيكلية البحث

إن الإجابة على تساؤلات البحث تلزم الباحث بأن تصمم هيكلية البحث على وفق التساؤلات أعلاه، محاولاً استخدام المنهجية الاستقرائية في ضوء الوثائق والأبحاث العلمية المتوفرة في هذا المجال. وسيسعى الباحث إلى التوصل إلى بعض الاستنتاجات في موضوع البحث.

أولاً: التغيرات الاقتصادية في ولاية بغداد للمدة ١٨٧٢-١٩١٧

ظل السلطان عبد العزيز الأول على رأس الدولة العثمانية حتى عام ١٨٧٦، ثم تولى بعده مراد الخامس لمدة وجيزة، ما لبث أن تولى بعده السلطان عبد الحميد الثاني حتى خلعه في عام ١٩٠٩، ثم نصب بعده السلطان محمد الخامس حتى عام١٩١٨. شهدت ولاية بغداد العديد من الولاة الذين تعاقبوا على حكمها خلال المدة ١٨٧٢-١٩١٧، حيث بلغ عددهم قرابة الثلاثين واليًا، منهم من لم يستغرق حكمه سوى بضعة أشهر، ومنهم مَنْ أستغرق بضعًا من السنين، وسنعرج على أبرز التغيرات الاقتصادية في بغداد خلال هذه المدة من خلال تناول أبرز الأنشطة الاقتصادية في الزراعة، والصناعة والنقل والمواصلات، ثم ندرج على اندماج ولاية بغداد في الاقتصاد العالمي، وسيتم تناول أحوال المالية العامة فيها أيضًا.

١/١-الزراعة

ظل الوضع الزراعي في العراق وبضمنه ولاية بغداد، كما هو عليه، فهناك منطقتين زراعيتين هما المنطقة المطرية ومنطقة الري، ومحصولين، شتوي وصيفي. كتب القنصل العام نيكسون في عام ١٨٧٤ يقول: وفي تلك المسافة الطويلة (من البصرة إلى بغداد) لا يرى المشاهد حتى عشرين قرية، ولو أن شواطئ النهر تحوي مضارب خيام العرب[١].

أصدرت الدولة العثمانية نظام تأسيس مجلس التجارة والزراعة في كل ولاية سنة ١٨٧٥، حيث أختص القسم الأول من النظام بالزراعة ونص على أن وظيفة المجلس هو تنشيط عملية الزراعة وإصلاح البذور وعلاج الأمراض النباتية وتكثير الأصناف الجيدة من المحاصيل وبيان الصادرات والواردات من المحاصيل الزراعية في الولاية، وتم تأسيس غرفة للزراعة في كل من مراكز الولاية والسناجق والأقضية سنة ١٨٧٩ للعمل على تطوير الزراعة، كما تم تأسيس البنك الزراعي العثماني عام ١٨٨٨ لإقراض المزارعين[٢]. مما يعكس الرؤية الحديثة للسلطان عبد الحميد الثاني في تطوير الزراعة في دولة الخلافة. واستحدثت دائرة خاصة بالزراعة في الدولة العثمانية في سنة ١٨٩٣، بعد أن كانت دائرة فرعية تابعة لنظارة التجارة والأشغال العامة[٣]، وتم تعيين مديرًا للزراعة والتجارة في مركز كل ولاية، للنظر في أمور الزراعة وتسهيل إدارة التجارة وتقدير محصولات الولاية وضبط إخراجاتها وإدخالاتها، ويعين من طرف الدولة بانتخاب نظارة التجارة والزراعة[٤].

كان الهدف من السياسة الزراعية العثمانية هو الحصول على أكبر قدر من الواردات المالية. وكانت عملية استصلاح الأراضي وتنظيم شبكات الري تلقى على عاتق المتصرفين بالأراضي. وكان ثلث إيرادات الأراضي في ولاية بغداد تأتي من الأراضي السنية التي كان يغدق عليها من الخزينة الخاصة ويخدم فيها الجيش[٥]، الأمر الذي يشير إلى أن هناك تباين في الاهتمام في هذه الأراضي عن غيرها. بادرت الدولة العثمانية في تنظيم شبكات الري وبناء المشاريع اللازمة لدرء خطر الفيضانات. فقد عزم الوالي سري باشا (١٨٨٩-١٨٩٠) على بناء سدة الهندية عن طريق جلب المهندسين والأموال من العاصمة، وجمعت الأموال المطلوبة من خزينة الولاية ومن إدارة الأملاك السنية ومن كبار الملاكين، وتم الانتهاء من بنائها وافتتاحها في عام ١٨٩٠[٦].

ارتفع إنتاج التمور في عام ١٨٨٧، إلى ما يقارب الـ ٦٠ ألف طن، بينما تضاعفت صادرات التمور أربعة مرات حيث بلغت ٤٤ ألف طنا وذلك في العام نفسه، الأمر الذي يدل على أن صادرات التمور ازدادت بمعدل أعلى بكثير من إنتاجها. وفي عام ١٨٩٠ وبحسب مذكرة السير فيتال كونيه، كان مجموع إنتاج الولايات الثلاث بغداد والموصل والبصرة (عدا نجد)٣١٩ ألف طن من الحنطة، و٥١٤ ألف طن من الشعير، و١١٨ ألف طن من الرز، مع أن معدل صادرات هذه المنتجات الثلاث خلال هذه المدة كانت ٣٤٦٠٠ طن من الحنطة و٣٣٩٠٠ طن من الشعير و١٢٨١ طنا من الرز[٧]. وعليه فأنه من الواضح أن نسبة صادرات الحبوب إلى إنتاجها كانت منخفضة. بذل بعض ولاة بغداد جهودا ملحوظة لتطوير الزراعة والري في الولاية، فقد أكد الوالي عبد الرحمن باشا (١٨٧٩) في تقريره المرسل إلى العاصمة بشأن إصلاح الخطة الزراعية في بغداد، واقترح بناء السدود لخزن المياه وإستخدامها عند الحاجة، كما أشار في تقريره إلى ما تسببه الفيضانات من أضرار كبيرة في المزروعات[٨]. وقام الوالي تقي الدين باشا بفتح القنوات المائية وحث متصرفي السناجق على الاهتمام بالزراعة، وعمل الوالي نامق باشا الصغير بالإشراف على الملتزمين في استيفاء العشور من المحاصيل الزراعية، وحفر العديد من الأنهار وقام بإصلاح البعض الآخر[٩].

وفي عام ١٨٧٩ لم يكن هناك أي أثر ملموس للأعمال التي تمت فيما يخص قناة الصقلاوية، ولكي يوضع حد لهذه الحال جرت محاولة جديدة لإيجاد مجرى جديد للفرات ولسد النهر تماما الذي كان يهدد بغداد إثناء الفيضان. وفي بداية عام ١٩٠٧ حطمت السدود، وتكونت ترعة جدية قرب القناتية، وفي وقت

قصير كانت الفتحة باتساع ٢٠٠ متر وعمق المياه المنخفضة فيها ٣ أمتار، وقد تمت محاولة إغلاقها بسد من حزم الغصن. ومن المرغوب فيه لإقامة خدمة ملاحية على نهر الفرات، وسوف تصبح إعادة إقامة اتصال بين النهرين بواسطة ترعة الصقلأوية من الضرورات الملحة[١٠].

وضع الوالي ناظم باشا (١٩١٠-١٩١١)، -الذي جاء في عهد الانقلابين وعزل السلطان عبد الحميد الثاني-قضايا الري وتنظيمه في قائمة اهتمامه، وفي هذا الإطار تابع اهتمام أعمال مهندس الري البريطاني (ويليم ويلكوكس) الذي كلفته الحكومة العثمانية ممثلة بنظارة النافعة بإنجاز مشاريع الري في العراق[١١]. وأستحصلت موافقة الصدر الأعظم على القيام بالمشاريع المزعومة، وقدم المهندس ويلكوكس تقريره الذي قدر كلفة مشاريع الري المقترحة بـ(٣٠) مليون ليرة عثمانية، إلاّ أن ناظم باشا امتنع عن توقيع قائمة النفقات، إذ عدّها مبهمة وغامضة. وقد لخصت الدائرة الإدارية التابعة لإدارة الصدر الأعظم قضية المهندس ويليكوكس، بأن المهندس المذكور قد أحال المشروع إلى متعهد انكليزي آخر، الأمر الذي اعترضت عليه الحكومة العثمانية، فأخذت التعهدات اللازمة عليه بعدم إحالته إلى أي جهة، ووضعت لجنة في بغداد للإشراف على ذلك[١٢].

لم ينفذ من مشاريع ويلكوكس سوى مشروع سدة الهندية على نهر الفرات الذي نال الأولوية

بالنظر لخطورة الحالة في تلك المنطقة، أما بقية مشاريعه التي اقترحها فلم ينفذ منها شيء بالنظر للعجز المالي الذي كانت تنوء به مالية الدولة العثمانية من جهة، ولقيام الحرب العالمية من جهة أخرى. وتشير المعلومات المتوفرة إلى أن رؤساء العشائر في منطقة الجزيرة في عهد الوالي ناظم باشا قد استخدموا مكائن الحراثة الأهلية بدلا من الحكومية في بعض الأحيان بسبب ارتفاع أسعار الأخيرة، وأن ناظم باشا عرض الأراضي الأميرية للبيع بشروط محددة.

من الملاحظ ازدياد سكان الريف خلال المدة ١٨٦٧-١٩٠٥ من مليون نسمة إلى ما يقارب المليون والثلث نسمة، بمعدل نمو سنوي يبلغ ٣,٤%، مما يمكن اعتباره كمؤشر عام لنمو الإنتاج الزراعي. ومع أن المعلومات المتوفرة تشير إلى محدودية الأراضي الزراعية إلا في المدن الكبيرة وما حولها مثل بغداد والبصرة والموصل وبعقوبة، إلا أن المساحة المزروعة قد ازدادت في منطقتي الري والمطر إلى ما يعادل ١٦١٣٠٠٠ دونما قبل الحرب العالمية الأولى[١٣]. وجهت الحرب العالمية الأولى ضربة مخربة إلى الزراعة العراقية، بسبب اشتداد المعارك في أراضي زراعة الحبوب، وبشكل خاص في منطقة الري، كما أن الإنتاج الزراعي لم يتحسن وضعه[١٤]. يظهر مما سبق أن الإنتاج الزراعي خلال تلك المدة قد تحول من صفة الاقتصاد الطبيعي إلى الاقتصاد القائم على تلبية حاجة السوق والحصول على الربح.

٢/١-الصناعة

تحت ضغط المنافسة الأجنبية، كان على صناعة النسيج اليدوية، أما أن تتطور أو تتلاشى تدريجيًا. لذلك بذلت الجهود في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن الحالي، لاستيراد الأنوال اليدوية الأوروبية لتحل محل الأنوال المحلية، خاصةً بالنسبة إلى صناعة السلع الحريرية. وبحلول عام ١٩٠٧، انخفض عدد الأنوال اليدوية في بغداد إلى ٩٠٠ نول، تنتج خمسة ملايين ياردة من الأقمشة القطنية ونصف مليون ياردة من الحراير والأصواف[١٥]. وقد كتب القنصل البريطاني في بغداد عام ١٩٠٨ الآتي[١٦]: (تشكلت شركة صغيرة لتشجيع وتنظيم صناعة الحياكة بواسطة الأنوال اليدوية، ويقال إنها تعمل بصورة جيدة جدا... أن هذه الأنوال تنتج الحرير والسلع القطنية)[١٧]. إلاّ أن نجاح هذه المحاولات كان محدودًا، فلم يمض عقدًا من الزمن حتى انقرضت صناعة النسيج في بغداد. واختفت الأنوال اليدوية غالبًا في بغداد بعد الحرب العالمية الأولى، ولكن الحرف الأخرى ظلت موجودة مثل صناعة الأحذية وصناعة الصابون وصناعة السجاير إلى وقت أكثر تأخرًا[١٨].

وفي المقابل نهضت الصناعات التي تقوم على تجهز المواد الخام للتصدير، هما صناعة كبس الصوف وعمل صناديق التمور. وفي عام ١٨٨٩ كانت هناك شركتان بريطانيتان لكبس الصوف، هما مؤسسة لنج وشركاؤه التي كانت تمتلك مكبسين بخاريين يستطيعان كبس ١٤٢٨٤ بالة في السنة، وشركة دارلي واندروز ووابر، التي كانت تملك مكبسين مائيين بقدر ١٥ ألف بالة. وذلك إضافة إلى المكابس اليدوية العديدة[١٩]. كما وجدت صناعات للطابوق، بدأت في سبعينيات القرن التاسع عشر خاصة مع الاتجاه نحو إنشاء الدوائر الحكومية والمدارس والمباني الخاصة بالقناصل الأجنبية ودور أشراف المدن وغيرها. وانتشرت معظم صناعة الطابوق في بغداد، وكانت توجد فيها (٢٥) كورة، وتقع هيمنتها تحت ملك المسيحيين واليهود في بغداد[٢٠]. وانتشرت صناعة الكاشي في مدن النجف وكربلاء التي عمل فيها الإيرانيون، كما وجدت مثل هذه الصناعة في بغداد[٢١].

في عام ١٨٨١ استوردت حكومة ولاية بغداد ماكينة لصناعة الثلج سميت (البوزخانة) وتم تنفيذها في شريعة الميدان ببغداد، يتم فيها صناعة الثلج على شكل صفائح وكان معظم

الإنتاج يذهب إلى دور الموظفين والقادة. وانتشرت بعض المصانع الخاصة الحديثة في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وبشكل رئيس في بغداد، إذ توسعت المعامل الخاصة بطحن الحبوب، وأشارت صحيفة الرقيب إلى وجود عدة مكائن في محلة قاضي الحاجات وسوق الشورجة تعمل بالنفط لطحن الحبوب وتقشير الرز، كما أسس معملاً لصناعة الدقيق والمعكرونة عام ١٩٠٨[٢٢]. وتحت تأثير زيادة الواردات من المنتجات النمساوية البراقة، طويت صفحة صناعة الأواني النحاسية المحلية، وحلت الأحذية الأوروبية محل منتجات الاسكافيين المحليين، وهلم جرا. وعانى الإنتاج الحرفي من النفط والإسفلت في مندلي وهيت وغيرها أزمة حادة، ونتيجة العجز في مواجهة منافسة نفط باكو وأمريكا، توقف إنتاج النفط في آبار مندلي في عام ١٩٠١، وكان إنتاجها يرسل من قبل إلى بغداد[٢٣].

٣/١-النقل والمواصلات

أجرى بعض الولاة تحسينات على خطوط النقل، في ضوء التنامي السكاني ومتطلبات توسع المدن، حيث أسس نامق باشا الملقب بالصغير (١٨٩٩-١٩٠٢) شركة نقل بالعربات تجرها الخيول، وسيرت بانتظام بين بغداد وبعض المدن القريبة منها، كالحلة وكربلاء وسامراء وبعقوبة، أطلق عليها (الكومبانية). واشتركت في تأسيسها بعض الأسر البغدادية وكبار تجارها، كعارف أغا وآخرين. كما أوعز الوالي إلى مدرسة الصنايع ببناء جسر جديد في بغداد، أكبر حجمًا ومتانة من الجسر السابق. وأطلق عليه (جسر بغداد) وقد أفتتح سنة ١٩٠٢[٢٤]. تمت لإشارة إلى توقف النقل النهري لوجود بعض الصعوبات، ولم تعد له الحياة حتى عام ١٨٨٠، وتم تحسين الطريق ومن ثم السير فيه عام ١٩١١، حيث أشترت السنية العثمانية إدارة عمان العثماني عام ١٩٠٤ بعد أن كانت تابعة لنظارة البحرية في إستانبول.

أضافت الإدارة السنية باخرتين فخمتين إلى البواخر الأربعة الموجودة، وتمت إدارتها بكفاءة عالية، وعقب خلع السلطان عبد الحميد الثاني في سنة ١٩٠٩، ومصادرة أملاكه ألحقت بنظارة النافعة، وصار تعرف بـ (الإدارة النهرية العثمانية)، وتمت إضافة باخرتين أخريين عام ١٩١٠ ليصبح عددها ٨، إلا أنه سرعان ما عادت الأحوال السيئة لهذه الإدارة لأسباب منها سوء الإدارة وانتشار الفساد[٢٥]. حاولت شركة لنج وبمساعدة السفير البريطاني في إستانبول الاستيلاء على بقية البواخر التابعة للشركة عن طريق تقديم اقتراح لدمج الشركتين، وبامتياز لمدة ٧٥ عامًا، عارض النواب العراقيون وبعض النواب العرب هذا الاتفاق، إلاّ ان مجلس المبعوثان وافق بالأغلبية، وعارض السكان في بغداد هذا الاتفاق، ونظمت المسيرات الشعبية ضد ذلك، وأمام إصرار الجماهير واندلاع الحرب العالمية الأولى تم إلغاء هذا الاتفاق[٢٦].

واصلت خطوط البرق تمددها في ولاية بغداد، حيث تم إيصالها إلى مدينة النجف في سنة ١٨٩٣، فمدن الكوت وبدرة ومندلي. وفي نهاية القرن كانت جميع المدن المهمة تقريبًا ترتبط بوسيلة الاتصال مع مركز الولاية ومع بعضها. كما ربطت بغداد بأوروبا بخط برقي يمر عن طريق حلب في السنوات الأولى من القرن العشرين[٢٧]. بلغت المساحة التي تغطيها خطوط التلغراف في سنة ١٩٠١ في الولاية ١٢٤٠ كيلومترا. وكانت استخدامات الناس للتغراف أكثر من البريد خاصة بعد انتشار مراكز الخطوط في المدن المختلفة وسهولة الاتصال عن طريقه وخصوصًا للتجار[٢٨].

أما بالنسبة لدوائر البريد فقد انتشرت في العديد من المدن والمناطق التابعة لولاية بغداد، خاصةً التي تقع على طرق المواصلات، وقد ازدادت تلك الدوائر بشكل كبير بعد توقيع الدولة العثمانية اتفاقية البريد العالمية في سنة ١٨٧٨، وحدث تنافس كبر بين دوائر البريد العثمانية ودوائر البريد البريطانية التي أنشئت في عام ١٨٦٨ في بغداد والبصرة. غير أن المنافسة لم تستمر بعد تخلي دوائر البريد البريطانية عن عملها فيما بعد[٢٩]. على أن الخدمات البريدية كانت بحلول عام ١٨٩٠ خدمات متكاملة تشمل نقل الرسائل والطرود والنقود وغيرها إلى مختلف الأنحاء، على وفق التعريفة المحددة من قبل الاتحاد البريدي الدولي[٣٠].

وكانت إدارة الولاية تابعة للمديرية العامة للبريد والبرق في إستانبول، وهي إحدى دوائر نظارة النافعة (الأعمال العامة)، ولكنها أصبحت في أواخر العهد العثماني تتبع نظارة مالية الدولة. وتتلقى إدارة بغداد تعليماتها من مديرية إستانبول العامة، ولها ميزانية خاصة، وقد بلغت واردات البرق والبريد في عام ١٩٠٧ أكثر من مليونين قرش، يخصم منها مصروفات الدائرة ورواتب موظفيها، ويبعث بالفائض، الذي كان يصل أحيانًا إلى مليون ونصف المليون قرش، إلى إستانبول[٣١]. ومما هو جدير بالذكر أن الاتصالات الهاتفية قد دخلت إلى الولاية بعد حلول العهد الدستوري، وارتبطت بغداد في أوائل عام ١٩١٢ عن طريق (الهاتف) بمدينة الكاظمية ثم جرى مد أسلاك للهاتف بين مدينة بغداد ومدينة بعقوبة، وبين مدينتي النجف والكوفة في سنة ١٩١٣[٣٢].

٤/١-الإندماج في الاقتصاد العالمي

تطورت التجارة النهرية في ولاية بغداد بعد افتتاح قناة السويس، ومع عدم توفر إحصاءات دقيقة عن حجم الصادرات من ولاية بغداد إلى الخارج عن طريق ميناء البصرة بفعل التداخل الكبير بينها وبين صادرات الولايات الأخرى، إلا أنه يمكن ملاحظة الزيادة الكبيرة الحاصلة في الصادرات العراقية التي كانت تجارة ولاية بغداد تمثل الغالبية العظمى منها، فقد بلغ معدل مجموع الصادرات العراقية 150 ألف دينارًا للمدة ١٨٦١-١٨٧١ سنويًا و1.059 مليون دينارًا سنويًا للمدة ١٨٨٠-١٨٨٧ و2.9 مليون دينارًا سنويًا للمدة ١٩١٢-١٩١٣[٣٣]. اشتملت صادرات الولاية على المنتجات الزراعية والحيوانية المحلية أو المستوردة من المناطق المجاورة لغرض إعادة تصديرها.

أما البضائع القادمة من الخليج العربي فتنقل غالبا من البصرة إلى الحلة، ومن هناك تنقل برا إلى بغداد، وهي تتخذ هذا الطريق لسهولة الإبحار في الفرات شمالاً أكثر من الإبحار في دجلة. وعند دخول بغداد، تدفع البضائع التي تخص أهالي البلاد٨,٥% ضريبة مهما كان مصدرها، إذا كانت مصنفة ك(بضاعة ثقيلة)، و٥% إذا كانت مصنفة بضاعة ثمينة، وتفرض الرسوم وفق الأسعار السارية. أما (البضائع الثقيلة) فتشمل المعادن، والبن، والتبغ، والفلفل، والسكر، أي بعبارة أخرى كل البضائع ذات الحجم الكبير. أما (البضائع الثمينة) فتشمل الأقمشة بغض النظر عن نوعها أو قيمتها. ويدفع الأوروبيون ٣% على جميع أنواع البضائع[٣٤].

وتمثلت التجارة البرية للولاية في الصادرات والواردات وتجارة الترانسيت أو إعادة التصدير، مع ولاية الموصل ومناطق الأناضول وبلاد الشام بالإضافة إلى إيران ومناطق نجد والسواحل الخليجية الشرقية، التي ارتبطت بشبكة من الطرق البرية القديمة. وقد حققت الصادرات العراقية والتي مثلت غالبيتها ولاية بغداد – كما أشرنا-نموًا مضطردًا خلال المدة ١٨٦٤-١٩١٣، بلغ حوالي ١٩%. وكما مبين في الجدول (١). وتختلف الكميات المصدرة من سنة إلى أخرى تبعا للظروف الطبيعية كارتفاع مناسيب المياه والفيضانات أو قلة الأمطار بالإضافة إلى صعوبة الملاحة النهرية في بعض المواسم كموسم الصيف. وموقف العشائر من السلطة في منع التصدير. أما فيما يخص قيم الاستيرادات فسيتم توضيحها في الجدول (٢). حيث يلاحظ بداية تفوق قيم إجمالي الاستيرادات على الصادارت منذ بداية المدة ١٨٨٨ -١٨٩٥، كذلك يلاحظ تزايد معدلات النمو السنوي للاستيرادات منذ بداية المدة ١٨٩١-١٩٠٣.

منح الباب العالي حصانة دبلوماسية للدبلوماسيين البريطانيين وذلك في عام ١٨١٢، وأذن لهم بالتنقل بين بغداد والبصرة[٣٥]، الأمر الذي ساعد على زيادة التغلغل الأجنبي في العراق وفي ولاية بغداد. صدرت العديد من القوانين من الدولة العثمانية في السنوات ١٨٦١، ١٨٦٩، ١٨٨٥، وعدل القانون الأخير في١٩٠٠، والتي نظمت عمليات التنقيب واستثمار المعادن في الولاية[٣٦]. اشتملت الثروة المعدنية في ولاية بغداد على الإسفلت (القار) والنفط والفحم الحجري والكبريت والملح والبورك، فيما كانت المعادن الأخرى كالحديد والنحاس والذهب والفضة تستورد من الخارج[٣٧]. وكانت مكامن معادن الولاية في منطقتين رئيسيتين هما هيت ومندلي.

حرص السلطان عبد الحميد الثاني على حصر عمليات التنقيب واستخراج النفط به، لذلك ضمنها لخزينته الخاصة، وأصدر عددًا من الفرامين السلطانية في السنوات ١٨٨٨ و١٨٩٨ و١٩٠٣، حصرت امتيازات التنقيب من النفط في ولايتي بغداد والموصل بالخزينة السلطانية الخاصة[٣٨]. إدراكًا منه لأهمية هذا المعدن ودوره المستقبلي في الاقتصاد العالمي، إلاّ أن ذلك لم يرق إلى الشركات الأجنبية التي تكالبت على النفط فيما بعد.

في نهايات القرن التاسع عشر وجد السلطان عبد الحميد الثاني نفسه بشكل عام يتعامل مع عالم الأعمال الذي يعتمد على البترول بشكل أساسي، من خلال الاستكشافات النفطية في ولايتي بغداد والموصل. ووجد نفسه مضطرا لتنظيم كل أعماله في هاتين الولايتين بغية الاستفادة القصوى من هذه الاكتشافات وبدأ يتحول إلى تعامل جديد مع حكومات الغرب البريطانية والفرنسية والأمريكية ومع الإدارات المحلية القائمة على النظام العثماني التقليدي[٣٩]. سعت الحكومات الغربية إلى نقل ملكية الامتيازات بين ما هو موجود في ولايات الدولة العثمانية ونقلها إلى ملكية الشركات الغربية الجديدة وتقسيمها فيما بينهم على أساس اتفاقيات الامتيازات وغيرها. وبالتالي ستعطي لنفسها الحق بعد إقرار نقل الملكية بالتصرف كيفما تشاء لتلك الأطراف المتنفذة الجديدة في ظل قوانين تصنعها في ضوء تلك المرحلة[٤٠].

ومن أجل مجابهة تلك السياسة قام السلطان عبد الحميد الثاني بتحويل الأراضي التي ليست لها أصحاب موثوقون إلى أملاك الخزينة العثمانية أو ما يعرف بالخزينة السلطانية أو القائمة المدنية، أي أن تكون تلك الأراضي الواسعة التي فيها النفط في كركوك والقيارة من أملاك السلطان عبد الحميد

الثاني ليمنع حق الامتياز للشركات الغربية. ومن هنا جاءت مسالة نقل "ملكية" الامتيازات لتصنع صيغة جديدة في مبدأ التعامل السياسي العثماني النفطي مع الغرب، إذ إن المنطق السائد هو نقل الملكية من شخص لآخر كان بالبيع أو الورث أو الهبة أو أية وسيلة قانونية لانتقال الملكيات الأخرى[٤١].

ومن هنا أراد الغرب وبشدة تنفيذ مسالة نقل "ملكية" الامتيازات لتصنع صيغة جديدة في مفهوم التعامل الغربي مع الدولة العلية لنقل الملكية بأسلوب لا يقوم على المنطق السائد. لكن في هذه العملية أرادت الشركات انتقال ملكية الامتيازات المختلفة في ولايتي الموصل وبغداد من الأراضي والمصادر الطبيعية من العثمانيين إلى الشركات الغربية حسب آلية جديدة لانتقال الملكيات والتي ستصبح فيما بعد بصورة غير ظاهرة هي المالك والحاكم الجديد[٤٢].

يتضح من ذلك أن سياسة السلطان عبد الحميد النفطية، تمثلت في عدم منح الامتيازات للشركات الغربية بالمعنى السابق أي تملك أو تمليك أراضي النفط في كركوك والموصل، لان هذه الأراضي هي ملك للدولة العلية، وبالتالي فالسلطان رغب بإيجار تلك الأراضي للشركات مقابل عوائد سنوية يتم الاتفاق عليها مع الشركات النفطية وتبقى ملكية الأراضي لأصحابها الشرعيين، مستندًا في ذلك إلى الفقه الحنفي في أحكام الإيجار.

وفيما يخص **النشاط المصرفي**، فقد تمت الإشارة إلى أن بغداد ظلت بعيدة عن النشاط المصرفي، واقتصرت عمليات التمويل والإقراض على نشاط الصرافين، الذي اقترن باليهود، وكان نظام الصيرفة يتم على وفق ما أتفق عليه الصيارفة ضمن نطاق نقابة الصيارفة التي عهد في إدارتها إلى الصراف باشي، والذي كان يهوديًا في أغلب الأوقات[٤٣]، مكنهم من ذلك استحواذهم لرأس المال واحتكارهم لعمليات الإقراض، والترابط الحميمي مع أبناء جلدتهم حتى في خارج العراق كالهند وأوروبا، وهو ما مكنهم من الحصول على المال حال احتياجهم إليه، وتوظيف الكمبيالات والأدوات المالية الأخرى في تعاملهم التجاري، وأتسع نشاطهم المصرفي حتى بات يعمل تحت إمرة الصراف عدد من الموظفين وبضمنهم النساء، بل أنهم وظفوا عمالا ليقوموا باستقبال الأجانب عند مداخل الأسواق[٤٤]. كما وجد وبدرجة أقل عدد من الصيارفة من المسيحيين، بالإضافة إلى عدد من الإيرانيين المحترفين الذين كانوا يتعاونون مع الصيارفة في مجال تزييف العملة وتهريبها.[٤٥]

يعود تأخر ظهور المصارف في الإمبراطورية العثمانية إلى عوامل فقهية تتعلق بالربا، الأمر الذي حضرته الشريعة الإسلامية، بالإضافة إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية وعدم الاستقرار، الأمر الذي كان يعني انخفاض مستوى دخول الأفراد وبالتالي مقدار ادخارهم، أضف إلى ذلك عدم ثقة السكان بالحكومة، مما جعلهم يدخرون أموالهم في بيوتهم. ومع أن البنك الإمبراطوري العثماني أسس في لندن عام ١٨٦٣ برأسمال قدره (عشرة ملايين جنيه إسترليني)، إلاّ أنه لم يفتح فرعا له في ولاية بغداد حتى آب ١٨٩٣، ثم فتح فروعًا في ولايتي البصرة والموصل عام ١٨٩٤. غير أن فرع بغداد كان أكثر كفاءة، إذ أظهر قدرة كبيرة في السوق المالي لولاية بغداد، بحيث ازدادت دورة رأسماله السنوية عن نصف مليون ليرة سنويًا، وهو مجموعة (أنكلو –فرنسية). عمل البنك كوسيط أمين في علاقات التجار المحليين مع أوروبا، من حيث بيع منتجاتهم في الأسواق الأوروبية، كما أصبح بإمكان أصحاب المصانع الغربية إقامة علاقات مباشرة مع التجار المحليين.

جدول (١)

نمو المجموع الإجمالي لقيم تجارة التصدير في العراق للمدة ١٨٦٤-١٩١٣[٤٦]

المدة	قيمة الصادرات بآلاف الدنانير	نسبة قيمة الصادرات إلى قيمتها في سنة الأساس (%)	معدل النمو السنوي (%)
١٨٦٤-١٨٧١	١٤٧	٥	١٨,٨
١٨٧٣-١٨٧٩	٥٨٣	١٩,٧	٧,٢
١٨٨٠- ١٨٨٧	١,٠٢٥	٣٥	٢,٩
١٨٨٨- ١٨٩٥	١,٢٧٢	٤٢	١,١
١٨٩١-١٩٠٣	١,٣٩٠	٤٧	٤,٢
١٩٠٤-١٩١١	١,٩٤٥	٦٥,٧	
١٩١٢-١٩١٣	٢,٩٦٠	١٠٠	

جدول (٢)

نمو المجموع الإجمالي لقيم تجارة الاستيراد في العراق للمدة ١٨٦٤-١٩١٣[٤٧]

المدة	قيمة الاستيراد بآلاف الدنانير	نسبة قيمة الاستيراد إلى قيمتها في سنة الأساس (%)	معدل النمو السنوي (%)
١٨٦٤-١٨٧١	٢٩٠,٦	٨,٤	٦
١٨٧٣- ١٨٧٩	٤٦٤,٥	١٢,٤	٥,٧
١٨٨٠- ١٨٨٧	٧٢٤,٨	٣٠,٩	٥,٨
١٨٨٨- ١٨٩٥	١٤٧٥,٥	٤٢,٦	-1.3
١٨٩١-١٩٠٣	١٢٥٧,١	٣٦,٢	٤,٢
١٩٠٤-١٩١١	٢١٥٠,٤	٦٢	6.9
١٩١٢-١٩١٣	٣٤٦٧,٥	١٠٠	

ومن الجدير بالذكر، أن البنك الإمبراطوري العثماني، سبقه فتح فرع للبنك الشاهنشاهي الإيراني في ولايتي بغداد والبصرة للمدة ١٨٩٠-١٨٩١، إلا أن نشاطهما لم يستمرا طويلاً، إذ أغلق الفرعان بعد الاتفاق مع البنك الإمبراطوري العثماني سنة ١٨٩٣ لقاء مبلغ تقاضاه البنك الشهنشاهي الفارسي شريطة عدم قيام البنك الإمبراطوري العثماني بفتح فروع له في إيران[٤٨]. كما افتتح البنك الشرقي المحدود، وهو مؤسسة بريطانية أسست في لندن عام ١٩٠٩، فروعا له في العراق، بدأ بفرع له في بغداد عام١٩١٢ برأسمال بلغت قيمته (١٥٠) ألف دينارا[٤٩]، وأوكلت له فيما بعد جميع الأعمال الحكومية والمصرفية حتى تأسيس مصرف الرافدين[٥٠].

وبالنسبة إلى معدلات الفائدة السائدة، في عام ١٩١١ (بات رأس المال المستثمر في الأعمال المحلية الذي كان يربح من قبل ٩% لا يستطيع الآن أن يحصل على أكثر من ٦ أو٧%. وكان التأمين أيضًا محدودًا، وفي عام١٩٠٠ كانت هناك شركة واحدة تعمل في بغداد، هي شركة سويسرية تعمل في التأمين البحري. وذكر جورج لويد وجود شركتين أمريكيتين في بغداد عام ١٩٠٨[٥١].

٥/١-المالية العامة

طرأت العديد من التغيرات على النظام الضريبي في الدولة العثمانية، فقد استحدثت في أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر نظارة الأعشار والأغنام، واستمرت في عملها كدائرة تابعة لمحاسبة ولاية بغداد لمدة عشر سنوات. وكانت وظيفتها جباية ضرائب الإنتاج الزراعي، وجزء من ضريبة الحيوانات، وهو الجزء الخاص بضرائب الأغنام[٥٢]، ثم ألغيت فيما بعد. كما أسست في العام ١٨٩٣ مديرية الويركو (ضريبة البيوت)، وهي ضريبة تفرض على البيوت والأكواخ وبيوت الشعر العائدة للعشائر البدوية.[٥٣]

صدر قانون تنظيم الميزانية في ٣٠ جمادي الآخر ١٢٩١هـ / ١٨٧٤-١٨٧٥، حيث نصت بنود القانون على أن يتم تحرير الميزانية في بداية شهر كانون الأول من كل سنة وفي كل ولاية وبإشراف لجان متخصصة من موظفي المالية مع بيان أنواع الإيرادات المستحصلة والمصروفات المنفقة، ويقوم الولاة بإرسال تفصيلات الميزانية وفوائضها المتبقية إلى الدولة[٥٤]. لم تتسم ميزانية ولاية بغداد بالضبط في السنوات الأول من وضعها، بل عانت من تكرار الأرقام نفسها لسنوات متعاقبة، إضافة إلى اشتمالها لبيانات الأقسام الإدارية التابعة إلى البصرة والموصل. بلغت إيرادات الميزانية في كل من السنوات ١٨٧٥ و١٨٧٧ ما يعادل (٦٤٨٤٥٥٠٠) قرشًا، أما المصروفات فقد بلغت ما يعادل (٢٨٥٨٩٥٠٠) قرشا[٥٥].

جدول (٣)[٥٦]

ميزانية ولاية بغداد للمدة ١٨٩٣-١٩٠٧ (قرش)

السنة	الإيرادات	النفقات	العجز أو الفائض
١٨٩٣	٢٤٨٢٢١١٢	غير متوفر	
١٨٩٤	٢٢١٨٢٨٧٩	غير متوفر	
١٨٩٥-١٨٩٦	٢٣٣٤٢٢١٦	٢٠٦٨١٠٧٧	+
١٨٩٨	٢٨٤٥٧١٥٠	٢٢٧٤٣٩٥٢	+
١٨٩٩	٢٦٤٠٧٠٣٤	٢٦٣٠٦٧٣٦	+
١٩٠٠	٢٦٥٣١٢٨٤	٢٦٥٣١٢٨٤	صفر
١٩٠١	٢٢٩٠٣١٣٢	٢٤٧٤٩٦١١	-
١٩٠٣	٢٣٣٠٩٩٢٠	٢٥٢٢٠٢٦٠	-
١٩٠٦	٢٣٢٥٠٠٠٠	٢٦٥٧٢٧١٤	-
١٩٠٧	٢٤٠٨٣٠٠٠	٢٦٥٧٢٧١٤	-

إن المتفحص لميزانيات ولاية بغداد للمدة ١٨٩٣-١٩٠٧، يجد أن الميزانية ظلت في حالة فائض لصالح الإيرادات حتى نهاية القرن التاسع عشر. إلا أن السنوات ١٩٠١-١٩٠٧ عانت الميزانية العامة من العجز، الذي كان يغطى من قبل خزانة الدولة عن طريق فرع البنك الامبراطوري العثماني في بغداد (جدول ٣).

ويعزى سبب العجز إلى الإنفاق التي مارسته حكومة الولاية في مجابهة الكثير من ثورات العشائر، بالإضافة إلى التوسع الحاصل في تغلغل الدوائر الحكومية إلى المناطق البعيدة من سلطتها، الأمر الذي تتطلب إستحداث دوائر حديثة واستدعى مرتبات جديدة لأعداد الموظفين الجدد، إضافة إلى النفقات العسكرية المختلفة. ولا يخفى ما كان يقوم بهم وظفوا الدوائر الحكومية مـن عمليـات إخـتلاس الأمـوال لمصـالحهم وتحـت عنـوان المصروفات الخاصة بدوائرهم[٥٧].

اكتسبت الإدارة المالية في عهد ناظم باشا وما يتعلق بها مـن تنظيم أسـاليب العمـل وطـرق جبايـة الأمـوال العامـة، ومواطن صرفها، اهتماما بالغا. وكانت مهمة استيفاء الديون المسـتحقة للولايـة عـلى الأشـخاص والحكومـات المجـاورة في مقدمة اهتماماته. فقام بإبلاغ نظارة الداخلية العثمانية ونظارة الخارجيـة لغـرض الاتصـال بالحكومـة الإيرانيـة والطلـب منها «تسديد ما بذمتها من ديون[٥٨]. ونظرًا لأهمية دوائر «الرسوم» (الكمارك)، ولغرض تدعيم أسس هذه المديرية، وتنظيم عملها فقد حرص الوالي ناظم باشا على تطبيق التعليمات المتعلقة بتنظيم عمل الكمارك، فأصدر أمره بنشر الأوامر والتعليمات الواردة من (مديرية الرسومات العمومية) في الصحف المحلية، والالتزام بما جاء فيها. وفي إطار المنهج الإصلاحي الذي سارت عليه الولاية في عهد ناظم باشا فقد تم توحيد سعر الليرة العثمانية وكان الغرض منه هو مواجهة المشاكل المالية التي صاحبت اختلاف سعر الصرف لدى التجار عنه لدى أصحاب الأصناف من الحرفيين والكسبة وغيرهم[٥٩].

جدول (٤)

إجمالي تجارة بغداد[٦٠]

للمدة ١٨٧٤ – ١٩١٢ (بالجنيه الاسترليني بالآلاف)

السنة	إجمالي الصادرات	إجمالي الواردات	حالة الفائض	السنة	إجمالي الصادرات	إجمالي الواردات	حالة الفائض
١٨٧٤	٨٧٧	٨٧٣	+	١٩٠٠	٦٣٩	١٤٩٥	_
١٨٧٥	٢٣٠	٢١١	+	١٩٠١	٥٥١	١٤٣٩	_
١٨٧٦	٢٠٨	٢٧٦	_	١٩٠٢	٥٧٥	١٩٨٤	_
١٨٧٧	٢٩٥	٤٥٢	_	١٩٠٣	٧٢٣	١٩٢٤	_
١٨٧٨	٤٢٦	٤٦٣	_	١٩٠٤	٦٠٧	٢٠١٤	_
١٨٨٧	٢٩٥	٧٦٢	_	١٩٠٥	٦٩٦	١٦١٠	_
١٨٨٨	٤٨٤	٨١٣	_	١٩٠٦	٨٤٧	١٨٥٨	_
١٨٩٠	٥٢٥	٧٦٠	_	١٩٠٧	٧١٠	٢٣١٢	_
١٨٩١	٤٧٦	٩١٥	_	١٩٠٨	٥٥٦	١٩١٢	_
١٨٩٢	٢٨٦	٨٤٧	_	١٩٠٩	٧٦٥	٢١٥٣	_
١٨٩٦	٦٠٤			١٩١٠	٨٥٤	٢٧٣٦	_
١٨٩٧	٥٢٣	١١٨٣	_	١٩١١	٧٤٧	٢٦٦١	_
١٨٩٨	٦٣٨	١٢٧١	_	١٩١٢	٩٨١	٢٨٢٣	_
١٨٩٩	٦٦٢	١٤١٧	_	١٩١٣	٧٥٦	٢٩١٤	_

ثانيًا: تقويم الأوضاع الاقتصادية لولاية بغداد للمدة (١٨٣١-١٩١٧)

سنحاول قدر المستطاع تحليل الأوضاع الاقتصادية لولاية بغداد خلال تلك المدة من خلال استعراض واقع القطاعات الاقتصـادية الأساسـية للولايـة والمتمثلـة بالزراعـة والتجـارة والصناعة، ومن ثَمَّ التغلغل الأجنبي.

١/٢-القطاع الزراعي

ظـل القطـاع الرائـد والسـائد في اقتصـاد العـراق ككـل وفي ولايـة بغـداد عـلى وجـه الخصـوص هـو القطـاع الزراعـي، وقـد أظهـرت الوقـائع التأريخيـة الـتي بينـت فيما مضى مـن البحـث، معاناة هذا القطاع من مشاكل مختلفة. فقد أورد الباحثون بأن الهدف الأساس من توزيع الأراضي كان في الغالب هو بناء مجد شخصي للوالي (كما في عهد الوالي مدحت باشا)، وللحصول على عائدات لتمويل الخزينة المركزية[٦١]. يدل على ذلك عدم إشارة

الصرفيات الخاصة بالميزانية إلى أية أموال منفقة على الأمور الزراعية سوى ما دفع من مرتبات مأموري الأعشار والويركو، وكذلك نظام الالتزام الذي طبق من القرن السادس عشر. وحتى النصف الأول من القرن التاسع عشر، حيث منح الملتزمون سلطة جباية الضرائب في إقليم معين مقابل مبلغ محدد يدفع مقدمًا إلى خزينة الدولة. الأمر الذي ساهم في تكوين شريحة اجتماعية جديدة نجحت تدريجيًا في الحصول على عائدات ضخمة، وفي ضم المزيد من الأراضي العامة إلى الحيازات الخاصة.

ومع غياب الرقابة الإدارية لجأ الملتزمون إلى كل الوسائل المتاحة لهم لزيادة ثروتهم، وأفضى كل ذلك إلى تحويل سكان الريف من فلاحين إلى أقنان أرض حقيقيين. وأدت ندرة وسائل الدفع النقدي إلى النمو المتزايد للضرائب العينية. ونمو واتساع المسؤولية الجماعية التكافلية عن أداء الضرائب بين سكان الريف بسبب صعوبة التعامل الفردي للدولة. كما أدى تقسيم شبكة جباية الضرائب بين المتعهدين والاعتماد على السلطة الكاسحة لأمراء الإقطاع إلى الحد من سلطة الدولة المركزية وإضعافها وإلى تحويل هذه الشرائح إلى قوى حاكمة لها مصلحة في النظام الاقتصادي والاجتماعي القديم. أضف إلى ذلك بروز ظاهرة الملاك الغائبين، وما يرتبط به من إهمال للأرض، وإفقار الفلاحين وتدهور عام في الإنتاجية الزراعية[٦٢].

أما التعهدات الواردة في الخط الشريف ١٨٣٩ والخط الهمايوني ١٨٥٦ والخاصة بإنهاء استغلال الفلاحين من قبل متعهدي الضرائب. وملائمة الضرائب مع حاجيات الإنتاج والتجارة وجعل الخدمة العسكرية عامة. فقد بقيت كلها حبرا على ورق. وكما هو حال أي إصلاح فوقي فان التنظيمات العثمانية قد فشلت في تقويض مصالح الطبقة الإقطاعية التي كان وجودها يعتمد على استمرار النظام الاقتصادي-الاجتماعي التقليدي. وكانت تعارض بضراوة أية تغييرات سياسية أو قانونية يمكن أن تعرض وضعها للخطر[٦٣].

وحتى قانون الأراضي العثماني لسنة ١٨٥٨، والذي لم يطبق عمليا إلا في عهد الوالي مدحت باشا، فقد هدف إلى العمل على تقويض النظم القبلية عن طريق بناء الملكيات الصغيرة في الريف، ويقوم هذا البناء على أساس فصل الفلاح عن العشيرة وارتباطه بالشيخ بمنحه حق التصرف في الأرض. أما الهدف الاقتصادي للقانون، فهو الهيمنة على عدد كبير من صغار الملاك، الأمر الذي يساعد على فرض الضرائب وعلى جبايتها أيضا ويحقق أكبر قدر ممكن من الواردات العامة، وبذلك تم بيع الأراضي الأميرية لأفراد القبائل بأقساط متواضعة يسهل على المشتري دفعها[٦٤]. ونتيجة لذلك فإن كثيرًا من رؤساء الفروع هؤلاء قد أصبحوا (أو أصبح أبناؤهم) بمرور الزمن مزارعين يعملون لحسابهم في أراضيهم الخاصة بهم. ومن هنا نشأ في مناطق هذه العشائر ما كان عبارة عن ظاهرة جديدة بالنسبة للعراق استمرت حتى عام ١٩٥٨ وهي ظاهرة الفلاح مالك الأرض[٦٥].

والملاحظة التي تأشر على القطاع الزراعي إبان تلك المدة هي تفوق سرعة زيادة الصادرات على زيادة الإنتاج خلال معظم المدة موضوع البحث، ويعود السبب في ذلك إلى ظهور وتوضيح نظام الطابو، الذي أدى إلى استحواذ أشراف المدن وشيوخ القبائل وبعض كبار موظفي الدولة على قسم كبير من المحاصيل الزراعية على شكل (ملاكية)، وهي حصة من المنتوج يتقاضاها الملاك، أو ريع عيني يدفعه المستأجر للملاك، ونظام الأرض هذا كان قد انبثق، في الأساس، من انهيار واضمحلال الحياة القبلية، وملكية الأرض المشاعة.

إلا أن واجب الأمانة يقتضي ذكر وجود ولاة مخلصون حاولوا النهوض بالقطاع الزراعي سواء من جانب الري أو في الزراعة، أمثال الوالي عبد الرحمن باشا (١٨٧٩)، والوالي سري باشا (١٨٩٠-١٨٩٩) والوالي نامق باشا الصغير[٦٦]. وكان ذلك تحت خلافة السلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله. إلاّ أن السمة السائدة للاقتصاد العراقي ظلت متمثلة في الطابع الزراعي البدائي على الرغم من تحوله من اقتصاد كفاف إلى اقتصاد يلبي حاجة السوق.

٢/٢-الصناعة

رافق نهوض الاقتصاد الزراعي في ولاية بغداد نشوء بعض الصناعات اليدوية وكذلك الحرفية التي لبت متطلبات المزارع وكذلك الحاجات الأساسية للإنسان. وسبقت الإشارة أن أول مصنع يعمل بالقوة الميكانيكية أسس في بغداد كان في عام ١٨٦٠ في عهد الوالي رشيد باشا. وكذلك تبعه الوالي مدحت باشا من حيث إعادة الحياة للمصنع القديم وإنشاء مدرسة للصنايع. إلا أن تزايد حجم الاستيرادات وأد النهوض المرجو للصناعة في الولاية. فقد ساهمت عوامل عديدة في تردي أوضاع الصناعات الحرفية واضمحلالها في نهاية القرن التاسع عشر. فقد تدفقت المصنوعات الأجنبية خاصة بعد فتح قناة السويس ذات الجودة العالية ومنخفضة السعر، الأمر الذي لم تستطع الصناعات الحرفية المحلية مجاراته. كما أدى زيادة تصدير المواد الخام المتنوعة إلى أوروبا إلى ارتفاع أسعارها محليًا، مما جعل الاستفادة منها أمرًا مكلفًا على الحرفيين المحليين، الأمر الذي

اضطرهم إلى استعمال النفايات وفضلات الإنتاج كالصفارين الذين استخدموا الصفيح القديم الذي ينقل فيه النفط، فضلا عن قلة رؤوس الأموال المتوفرة لدى الحرفيين[٦٧]. أضف إلى ذلك انخفاض عدد العاملين لانخفاض أجورهم مقابل ساعات العمل الطويلة نسبيًا[٦٨].

وفور افتتاح قناة السويس وبفعل تأثيرات الاتصالات النهرية الجديدة، إزداد تدفق المنتجات

الصناعية البريطانية، وازدادت قيمة واردات العراق من السلع للمنتجات الصناعية البريطانية، لا سيما من السلع القطنية والصوفية البريطانية عبر ميناء البصرة من ٥١٠٠٠ جنية إسترليني للمدة ١٨٦٨-١٨٧٠ إلى ١١٢٨٠٠٠ جنيه في المدة ١٨٩٧-١٨٩٩، وذهب القسم الأكبر من أرباح هذه التجارة إلى مانتشتر في بريطانيا[٦٩]. وقد سعى السلطان محمود الثاني (١٨٠٩) إلى القيام بحملة للإصلاح، استهدفت تطوير الصناعة وإعادة بناء الجيش وتنظيم ضرائب الأرض والاستهلاك، رغم إدراكه لصعوبات غرس الأساليب الأوروبية في بيئة إقطاعية، لأنه لم يدرك ما هو أهم من ذلك بكثير، أي ذلك التأثير البعيد لسياساته على البيئة الاقتصادية – الاجتماعية القائمة. فنجح في جباية الأموال على حساب خراب الطاقة الإنتاجية لجزء هام من الاقتصاد القومي، فهو لم يبذل أي جهد حقيقي لبناء أساليب جديدة في الحياة والتفكير الممهد الطريق لتحولات جذرية في بنية اقتصادية واجتماعية شديدة التخلف[٧٠].

ومن نافلة القول، ذكر أن هناك بعض الولاة الذين سعوا لتطوير القطاع الصناعي في ولاية بغداد تمت الإشارة إليهم في المبحث الثالث. ومنذ النصف الثاني في القرن التاسع عشر فرضت الهيمنة الأوروبية دخول رأس المال الأجنبي إلى الولايات التابعة للإمبراطورية العثمانية، ورأس المال هذا هو الذي بدأ بتصنيع الشرق المسلم مستفيدًا من مزايا السوق العثمانية المواتية.

٣/٢-التجارة

ذكرنا أن الطبيعة السائدة للتجارة في ولاية بغداد بحكم موقعها هي تجارة الترانزيت حتى بداية القرن التاسع عشر. الأمر الذي أسهم على إفقار بغداد وعلى النزع المنظم لثرواته رغم محاولة بعض التجار تكديس ثروتهم، خلال تلك المدة. وكان التعامل التقليدي والدائم والمتنامي مع الهند يشكل استنزافًا مستمرًا لفائض الأطراف ذات العلاقة ومنها ولاية بغداد. وهكذا فإن ما كان يمثل مصدر ثروة بالنسبة لبعض التجار كان يشكل بالوقت نفسه عنصر إفقار للعراق بأسره[٧١].

يلاحظ من الجداول (١، ٢، ٧) عجز الميزان التجاري لولاية بغداد (بحسب بيانات شارل عيساوي) عدا السنتين ١٨٧٤ و١٨٧٥. الأمر الذي يؤكد طبيعة تجارة الترانزيت السائدة في بغداد، وتنامي النزعة الاستهلاكية لدى أفراد الولاية. وفي الوقت الذي ساهمت في التجارة في تطوير الزراعة وانتقالها من الكفاف إلى إقتصاد السوق، أثرت بالسلب على الصناعة كما سيلاحظ لاحقًا.

لم يكن اهتمام دولة الخلافة بالتجارة في بغداد، إلا بقدر الرسوم الكمركية المستحصل عليها، والتي كانت تحول مباشرة إلى العاصمة، دون محاولة الاستفادة منها في بغداد. بل حتى التعديلات التي أجراها السلاطين على الرسوم الكمركية كانت في مصلحة الدول المصدرة للعراق على حساب التاجر المحلي. ففي عام ١٨٣٣ مثلاً كان التجار البريطانيون والتجار الأوربيون يدفعون ٥,٥% على بضائعهم المنقولة ضمن القوافل التجارية المارة في الأراضي العثمانية، بينما كان التجار المحليون يدفعون ٢٠% وبطرق مختلفة على البضاعة المنقولة ضمن القافلة نفسها[٧٢].

نمت التجارة الخارجية بفعل النمو طويل الأمد في التجارة والدخل العالميين. وبدلاً من التحول نحو تركز رأس المال التجاري، فإن هذا الرأسمال قد تعرض للتشتت، وكانت هذه التجارة تتحول تدريجيا إلى أيدي التجار الفرس واليهود بصورة رئيسة[٧٣]. ومنذ عام ١٨٧٨ كانت الشركات التجارية اليهودية في بغداد تهيمن بشكل كلي على تجارة الاستيراد في بريطانيا[٧٤]. وفي عام ١٩١٠ كان اليهود يحتكرون التجارة بالكامل[٧٥]. إن هذا التصاعد المتزايد لليهود تزامن مع تعاظم زيادة التجارة الخارجية لبريطانيا حتى أصبحت المصدر الرئيس إلى العراق[٧٦]. وما يجدر الإشارة إليه هو أن تركز رأس المال التجاري بيد اليهود كان يعني عدم استقرار هذا الرأسمال في العراق، وعدم الرغبة في استثماره محليًا، بل أن هذا الرأسمال كان سببًا في إنعاش دولة الكيان الصهيوني عند نشوئها فيما بعد.

إن إفقار العناصر التجارية العراقية والحد من تراكم رأس المال الخاص بها كان مرتبطًا بتزايد الهيمنة التجارية للإنكليز، ولم تكن هذه الهيمنة نتاجًا لانفتاح العراق على السوق العالمية في منتصف القرن التاسع عشر فقط، بل كانت جزء من سياسة (تفقير) منظمة بدأ التحضير لها منذ مدة طويلة وعلى أسس أرستها شركة الهند الشرقية منذ أن تحولت إلى قوة آسيوية في عام ١٦٩٠، وأصبح دور هذه الشركة ملحوظا في العراق عام١٧٧٥

عندما أصبح الإنكليز يحمون ويقودون السفن المسلحة التي يملكها والي بغداد[٧٧].

وينبغي التذكير بأن هناك حركة ايجابية حاولت الارتقاء بالتجارة من خلال فرمان السلطان عبد العزيز في ١٨٧٤ وكذلك نظام تأسيس الغرف التجارية في الولايات عام ١٨٨٠ الذي أرساه السلطان عبد الحميد الثاني[٧٨]. بل سعت الحكومة المركزية إلى فرض إجراءات حمائية رفعت من رسوم الاستيراد (معاهدة ١٩٠٧)، إلا أن المستوردات الأجنبية المصنعة بقيت في تزايد مستمر. كما ينبغي الإشارة إلى أن هناك بعض الولاة سعوا لتحسين تجارة ولاية بغداد كالوالي رديف باشا (١٨٧٣-١٨٧٥) وكذلك تحت خلافة السلطان عبد الحميد الثاني كالوالي تقي الدين باشا (١٨٧٩-١٨٨٦)، والوالي قدري باشا (١٨٧٨) والوالي عبد الرحمن باشا (١٨٧٩) وكذلك الوالي نامق باشا الصغير، وقد تم ذكر أفعالهم في المبحث الأول.

٤/٢-التغلغل الأجنبي

من الأهمية بمكان استعراض دور التغلغل الأجنبي في ولاية بغداد وأثره على التقدم الاقتصادي فيها. حيث يعد نظام الامتيازات الأجنبية واحدًا من أخطر حركات إصلاح الإمبراطورية العثمانية، حيث ترك هذا النظام آثارًا مدمرة ليست على بنية الاقتصادات التابعة للإمبراطورية فحسب، بل على فكرها التنموي. إذ سمحت عملية التخلف التي عانت منها الخلافة العثمانية، بتمتين عملية النخر طيلة القرن التاسع عشر، فإضافة إلى التجديدات التقنية في مجال المواصلات، كانت الفلسفات السياسية والاقتصادية الليبرالية تفتح الحدود العثمانية الهشة تحت شعار توسيع التبادل الاقتصادي الدولي، الأمر الذي سمح بفتح الطريق أمام نظام الامتيازات من جانب واحد تم من خلاله منح المنتج الغربي جميع مزايا حرية التجارة مقارنة بالمنتج الشرقي (الأضعف والأقل كفاءة والأجدر بالدعم)، كما أدى إلى محاكاة السوق المحلية لأنماط الاستهلاك التي لم يتمكن الاقتصاد الوطني من فرز أنماط أو أساليب إنتاجية موازية لها. هذه السيرورات وفرت دعما إضافيا للتغلغل الأجنبي، الذي بدأ يعبر عن نفسه بأساليب جديدة على صعيد المال والإنتاج والتجارة، ولم تكن طبيعة هذا التغلغل متناسقة أو متعاونة لأنها حطمت تمامًا التنظيم الاقتصادي والسياسي للمجتمع الزراعي التقليدي العثماني، دون أن تحل محله مؤسسات اجتماعية واقتصادية جديدة قادرة على المواجهة، وكانت الأقليات هي القوى الوحيدة المستفيدة من هذا التغلغل، في حين دفع رعايا الولايات العثمانية الأخرى ثمنًا باهظًا.[٧٩]

نشأت (الامتيازات الأجنبية) في بداية الأمر كنوع من أنواع الاتفاقات التجارية، ولعل أولها هو الامتياز الممنوح من السلطان سليمان القانوني لفرنسا عام ١٥٣٥ لسكان الثغور التجارية وكانت الدولة العثمانية في هذا الوقت في أوج قوتها وعظمتها. وقد أصابت دول أوروبا الأخرى (امتيازات) من طراز اتفاق فرنسا مع الدولة العثمانية مثل بريطانيا، وكانت حكومات الدول الأجنبية على علم بقيمة هذه (الامتيازات) وأهميتها، لذا فقد حرصت على تجديدها تباعًا كلما مضى خليفة وأتى آخر. حتى إذا دب الضعف في الدولة العثمانية وكان عام ١٧٤٠ مُنحت فرنسا امتيازًا أكثر سخاءً وعطاءً، حيث شمل ثلاثة جوانب: الأول خاص بالشؤون التجارية، والثاني يتعلق بحقوق الإقامة وحماية الفرنسيين وتوفير الحرية الشخصية لهم، والثالث -وهو الأخطر- يتعلق بالقضاء والسماح للفرنسيين وللأجانب بصفة عامة بعرض منازعاتهم مع بعضهم على قناصل فرنسا في الدولة العثمانية، وكان أخطر ما في هذا (الامتياز) أنه كان مثبتًا للحقوق الممنوحة للفرنسيين بشكل نهائي دون حاجة لتجديده[٨٠].

وقد اتخذت هذه الحكومات (الامتيازات) الممنوحة لها ذريعة للتدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية، وكان جديرًا بما غشي سلاطين الدولة العثمانية وولاتها من الضعف والغفلة التي شغلتهم عن توغل الأجانب أن يُغري ذلك ممثلي الدول صاحبة (الامتيازات) بالتوسع فيها، وبالضغط على العثمانيين لنيل ما لم يكن لينالوه بالحق، وليتبوءوا المناصب العزيزة في الدولة، وقد عمدوا في سبيل ذلك إلى تأويل الاتفاقات المكتوبة بطريقة فاسدة وبتعسف ظاهر[٨١].

ومع تزايد هذا الافتئات على سيادة العثمانيين وسلطانهم، فقد ضاقوا بالأمر ذرعًا وسعوا جاهدين للتخلص من (الامتيازات الأجنبية) فعرض ممثلو الدولة العثمانية في (مؤتمر باريس المنعقد عام ١٨٥٦ على الدول الأجنبية إلغاء (الامتيازات)، بيد إن طلبهم قوبل بالرفض، لاسيما وأن العثمانيين لم يقدموا العربون الكاف والمناسب من وجهة نظر الأوربيين لإلغاء (الامتيازات). وإزاء هذا الرفض فقد قامت السلطات العثمانية بمحاولة تقنين الوضع الفوضوي السائد في الدولة، فحرصت على جمع ما تم سنه من إجراءات بشأن محاكمة الأجانب في لائحة عُرفت بـ (اللائحة السعيدية) أو (لائحة البوليس السعيدية) والتي صدرت في الخامس عشر من أغسطس عام ١٨٥٧. ولم

تبرح الدولة العثمانية بعد ذلك المدافعة عن حقوقها ومقاومة تيار التوغل والافتئات على سيادتها وسلطانها[٨٢]. نجم عن هذه الامتيازات زعزعة التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية في العراق والعمل على تعطيل تفككها التي بدأ منذ منتصف القرن التسع عشر- وهكذا رمت بريطانيا بثقلها إلى جانب القوى شبه الإقطاعية على تلك التشكيلة التي تجلت في عام١٩١٤.

خَاتِمَةٌ

يكتنف البحث بالتاريخ العثماني صعوبات شتى، إذ تتوفر الكثير من المصادر الأولية، الوثائق البريطانية والفرنسية والأمريكية والألمانية، إضافة إلى الأصل وهو أرشيف الوثائق العثمانية، أضف إلى ذلك الصحف والوقائع اليومية في ذلك التاريخ، الأمر الذي يتطلب البحث والتمحيص. وقدر تعلق الأمر ببحثنا هذا، وجدنا التذبذب الكبير في مسار النمو الاقتصادي لولاية بغداد ويرجع ذلك إلى عدة أسباب:

- لم تكن علاقة المركز بالأطراف على وتيرة واحدة، إذ طالما تتغير بتغير السلطان، إذ لم نلاحظ سياسة موحدة تجاه الولاية فكل سلطان وكل والي له قراراته الخاصة به.
- ضعف ثقة الجمهور بالسلطة الحاكمة.
- استحواذ الأقليات على رأس المال وارتباطهم بالاقتصاد الخارجي.
- نفاذ رأس المال الأجنبي واستحواذه على أهم فقرات اقتصاد الولاية.

نتائج الدراسة

من جهة أخرى توصل البحث إلى نتائج مهمة تتعلق بالجانب الاقتصادي، ويمكن تلخصيها بالآتي:

- ظلت الصفة الغالبة لاقتصاد الولاية هي طابع الاقتصاد الزراعي والرعي، وعلى الرغم من سياسات تمليك الأراضي، والسياسات التي اتبعها السلطان عبد الحميد الثاني، لم تحقق الزراعة إلاّ تطورًا محدودًا، تمثل في زيادة المساحات المزروعة، وزيادة مساهمتها في اقتصاد الولاية، مما حول الاقتصاد الزراعي للولاية من حالة الكفاف إلى اقتصاد السوق.
- مع انتشار بعض الصناعات الحرفية واليدوية التي وفرت فرصًا لتشغيل العديد من العاملين، لم تتمكن هذه الصناعة للانتقال إلى مرحلة أكثر تطورًا، بل لم تصمد هذه الصناعة البدائية أمام الواردات الأجنبية، وسرعان ما خفت نورها.
- اتسمت التجارة في ولاية بغداد بكونها تجارة الترانزيت، وكانت بأيدي الأقليات اليهودية والمسيحية، بدعم من الرأسمال الأجنبي.
- تغلغل رأس المال الأجنبي وسيطرته على ربوع التجارة وغيرها من الحلقات الاقتصادية للولاية.
- لم يتبلور رأسمال وطني للنهوض باقتصاد الولاية للأسباب المذكورة وغيرها.
- لم يكن التاريخ منصفًا في وصف حقيقة عمل الولاة، فلمّع صور البعض، وظلم آخرين.

التوصيات

ولكون هذا الموضوع يكتسب أهمية متشعبة، اقترح أن توجه البحوث مستقبلاً إلى بحث دور تغلغل رأس المال الأجنبي في اقتصاد ولاية بغداد، وتوجيه طلبة الدراسات العُليا للكتابة في التحليل الاقتصادي للخلافة العثمانية، لا سيما فيما يخص ولاية بغداد.

الملاحق

ملحق رقم (١) الميزانيات في السالنامات لسنوات مختلفة

تعتذر هيئة التحرير عن نشر الملحق نظرًا لأن عدد صفحاته ٤٤ صفحة وهو ما يتعارض مع سياسة النشر الرقمي والحجم القياسي لتداول أعداد الدورية عبر شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) ويمكن للباحثين المتخصصين الاطلاع على الملحق بالتواصل على البريد الإلكتروني للدورية وسوف تقوم هيئة التحرير بإرسال الملحق لكل مَنْ يطلبه تحقيقًا للاستفادة من الدراسة الحالية.

الاحالات المرجعية:

(١) حسن، محمد سلمان، **التطور الاقتصادي في العراق، التجارة الخارجية والتطور الاقتصادي ١٨٦٤-١٩٥٨**، منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ج١، ص ١٧٠-١٧٢.

(٢) دستور، جلد٣، ص ص٧٤٣-٧٤٤، نقلا عن المصدر السابق، ص ١٢١

(3) Stanford J. Shaw , History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Cambridge University press,1987, Vol.2 p.230

(٤) النجار، جميل موسى، **الإدارة العثمانية في ولاية بغداد من عهد مدحت باشا إلى نهاية الحكم العثماني ١٨٦٩-١٩١٧**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩١، ص٤٠٥

(٥) شكري، ياسين شهاب، **ولاية بغداد: ١٨٧٢-١٩٠٩م، دراسة في أوضاعها الإدارية والاقتصادية**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث مقدمة إلى كلية الآداب في جامعة الموصل ١٩٩٤، ص ١٢٠

(6) Charles Issawi (1988), The Fertile Crescent 1800-1914, A DOUCMENTY ECONOMIC HISTORY, Oxford University Press,p.350

(٧) حسن، محمد سلمان، مصدر سابق ج١، ص ١٧٠-١٧٢.

(٨) أوراق يلدز، رقم البحث ٣٩٣٠، رقم القسم ١٤، رقم الأوراق ٢٠٥، رقم الظرف ١٢٦، رقم الكارتون ٧، تاريخ الوثيقة (٢٤ شوال ١٢٩٧هـ/٧ أيلول ١٢٩٦ رومية)، الأرشيف العثماني بإستانبول، نقلاً عن شكري، ياسين شهاب، ولاية بغداد: ١٨٧٢-١٩٠٩م، مصدر سابق، ص ١٢٣

(٩) **سالنامة بغداد** ١٣١٨هـ ص ٥٥٧-٥٥٨.

(10) Charles Issawi (1988), The Fertile Crescent 1800-1914, p.353

(١١) أباظة، فاروق عثمان، **مستقبل الجانب الشرقي من الدولة العثمانية في نظر حكومة الهند البريطانية**، القاهرة، ١٩٨٦، ص٩٣.

(١٢) الشريف، نضر علي أمين، **إدارة الوالي ناظم باشا لولاية بغداد ١٩١٠-١٩١١**، مجلة كلية الآداب-جامعة بغداد، العراق، ٢٠٠٩ العدد (٩٠)، ص ١٤٣-١٤٤.

(١٣) حسن، محمد سلمان، مصدر سابق، ج١ن، ص١٧٧-١٧٨.

(١٤) المصدر نفسه، ج١، ص١٧٣.

(15) Charles Issawi (1988), The Fertile Crescent 1800-1914, p.380

(١٦) التقرير كتب بعد تولي الانقلابين وعزل السلطان عبد الحميد الثاني (الباحث)

(١٧) نقلاً عن: حسن، محمد سلمان، مصدر سابق، ج١، ص ٢٨٢-٢٨٣

(18) Charles Issawi (1988), The Fertile Crescent 1800-1914, p.380

(١٩) حسن، محمد سلمان، مصدر سابق، ج١، ص٢٨٦-٢٨٧.

(٢٠) حسن، محمد سلمان، مصدر سابق، ج١، ص٣٠٣.

(٢١) شكري، ياسين شهاب، مصدر سابق، ص ١٣١.

(٢٢) نقلاً عن: الوردي، علي، **لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث**، دار الراشد، بيروت، لبنان، ج٣، ص٢٤٤؛ ص ١٣٤

(23) Charles Issawi (1988), The Fertile Crescent 1800-1914, p.381

(٢٤) الخميسي، عضيد جواد، **بغداد: من آخر والي مملوك إلى آخر والي عثماني**، الحوار المتمدن /http://www.ahewar.org؛ 6 30//٢٠١٤

(٢٥) نقلاً عن: المصدر نفسه، ص ٤٣٤

(٢٦) شكري، ياسين شهاب، مصدر سابق، ص ٦١

(٢٧) النجار، جميل موسى، مصدر سابق، ص ٤٣٧

(٢٨) شكري، ياسين شهاب، مصدر سابق، ص ٩٠، ص٩٢

(٢٩) شكري، ياسين شهاب، مصدر سابق، ص ٩١

(٣٠) النجار، جميل موسى، مصدر سابق، ص ٤٣٩

(٣١) المصدر نفسه، ص ٤٤١

(٣٢) **لغة العرب**، ج٨، س١، صفر ١٣٣٠هـ-شباط ١٩١٢، ص٣٢٠، ج٨، س٢، ربيع الأول١٣٣١هـ- شباط ١٩١٣، ص ٣٥٨

(٣٣) حسن، محمد سلمان، مصدر سابق، ج١، ص٩٢

(34) Charles Issawi (1988), The Fertile Crescent 1800-1914, p.189

(٣٥) قزلجي، فؤاد، (ترجمة وتحرير)، **العراق في الوثائق البريطانية ١٩٠٥-١٩٣٠**، دار المأمون، ص٤٤٣.

(٣٦) تاريخلي إدارة ولايات قانونيك، إستانبول (١٣٣٠هـ)، ص ٢٢ وما بعدها، نقلا عن شكري، ياسين شهاب، مصدر سابق، ص ١٣٦

(٣٧) **سالنامة بغداد** ١٣١٨هـ، ص٣٩٤.

(٣٨) شكري، ياسين شهاب، مصدر سابق، ص١٣٨

(٣٩) العلام، مهند عبد الله يوسف، **سياسة السلطان عبد الحميد خان الثاني النفطية في ولايتي الموصل وبغداد**، ورقة مقدمة إلى المؤتمر الدولي لجيوستراتيجية السلطان عبد الحميد الثاني وميراثه، جامعة أنقره للعلوم الاجتماعية، ٤-٥ اكتوبر ٢٠١٨، نشر في ٢٠١٩، ص ص٢٧٥-٣١٨

(٤٠) المصدر نفسه

(٤١) المصدر نفسه

(٤٢) المصدر نفسه

(٤٣) بصري، مير، **أعلام اليهود في العراق الحديث**، ط١، لندن، دار الوراق للنشر المحدودة، ٢٠٠٦، ص٣٥

(٤٤) أحمد عبد القادر القيسي، **الدور الاقتصادي لليهود في العراق ١٩٢٠-١٩٥٢**، بغداد، منشورات دار الشؤون الثقافية،١٩٨٨، ص٣٢

(٤٥) شكري، ياسين شهاب، مصدر سابق، ص ١٨٥

(٤٦) حسن، محمد سلمان، مصدر سابق، ج١، ص٩٥

(٤٧) حسن، محمد سلمان، مصدر سابق، ج١، ص٩٥

(٤٨) شكري، ياسين شهاب، ص ١٨٨

(٤٩) محمد عبد الوهاب العزاوي، **نحو جهاز مصرفي اشتراكي في العراق**، بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٨، ص٧٢؛ Charles Issawi (1988), The Fertile Crescent 1800-1914, p. 600

(٥٠) العزي، فليح حسن خلف، **الأئتمان المصرفي ودوره في الاقتصاد العراقي**، بغداد، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٧٦، ص ٦١.

(51)Charles Issawi (1988), The Fertile Crescent 1800-1914, p. 469

(٥٢) النجار، جميل موسى، ص ٣٥٤

(٥٣) سالنمات ولاية بغداد الصادرة خلال السنوات ١٨٩٣-١٩٠٥.

(٥٤) فارس، سليم، **كنز الرغائب في منتخبات الجوائب**، ط١، إستانبول، ١٢٩٤هـ، ج٥، ص ص٢٢٢-٢٢٤، نقلاً عن شكري، ياسين شهاب، مصدر سابق، ص ١٨٠

(٥٥) **سالنامة بغداد** ١٢٩٢هـ، ص ١٢٦، وسالنامة بغداد ١٢٩٤هـ، ص١٢٤، بعد تحويلها إلى قروش، نقلاً عن المصدر السابق نفسه، ص ١٨٠-١٨١.

(٥٦) عمل الباحث بالاعتماد على السالنامات للسنوات المختلفة.

(٥٧) شكري، ياسين شهاب، مصدر سابق، ص ١٨٢ (بتصرف)

(٥٨) **ملفات وزارة الداخلية العثمانية**، نقلاً عن نضر علي أمين الشريف، مصدر سابق، ص١٣٨

(٥٩) المصدر نفسه، ص ١٣٩.

(60) CC Baghdad, vol. 10; FO 195L237; A and P 1870, vol. 64; A and P 1872, vol.57; CC Baghdad vol. from: Charles Issawi (1988), The Fertile Crescent 1800-1914, p.173-174

(٦١) أداموف، **ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها**، ترجمة صالح التكريتي، ج١، البصرة، مركز دراسات الخليج العربي، ١٩٨٢، ج٢، ص١٩٠؛ سالم، عماد عبد اللطيف، **الدولة والقطاع الخاص في العراق، الأدوار – الوظائف-السياسات ١٩٢١-١٩٩٠**، منشورات بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠١ ص٤٤.

(٦٢) سالم، عماد عبد اللطيف، مصدر سابق، ص٤٥.

(٦٣) أمين، جلال أحمد، **المشرق العربي والغرب، بحث في دور المؤثرات الخارجية في تطور النظام الاقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربية** (مركز دراسات الوحدة العربية) بيروت، ط١، ١٩٧٩، ص ص٢٤-٢٧.

(٦٤) العبوسي، محمد جواد، مصدر سابق، **مشكلات التقدم الاقتصادي في العراق، القطاع الزراعي**، معهد الدراسات العربية، القاهرة،١٩٥٨، ص١٧١.

(٦٥) سالم، عماد عبد اللطيف، مصدر سابق، ص ٥٥.

(٦٦) راجع المبحث الأول من البحث.

(٦٧) كوتلوف، **ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق**، ترجمة عبد الواحد كرم، ط٢، بيروت، ١٩٧٥، ص٨٢؛ ص٨٨.

(٦٨) شكري، ياسين شهاب، مصدر سابق، ص ١٣٢.

(٦٩) حنا، بطاطو، العراق: **الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية**، ط٢، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٩٦، ص٢٧٦.

(٧٠) سالم، عماد عبد اللطيف، مصدر سابق، ص٤٧.

(٧١) المصدر نفسه، ص ٥٩.

(٧٢) صالح، زكي، **بريطانيا والعراق حتى عام ١٩٤١، دراسة في التاريخ الدولي والتوسع الاستعماري**، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٨، ص ٣٤.

(٧٣) كاثلين لانكلي، **تصنيع العراق**، ترجمة محمد حامد الطائي وخطاب العاني، مكتبة دار المتنبي، بغداد، ١٩٦٣، ص٢٦٤.

(٧٤) المصدر نفسه.

(٧٥) سالم، عماد عبد اللطيف، مصدر سابق، ص٧٩.

(٧٦) راجع المبحث الأول من البحث.

(٧٧) حسن، محمد سلمان، مصدر سابق، ج١، ص١٨١

(٧٨) راجع المبحث الأول من البحث.

(٧٩) سالم، عماد عبد اللطيف، مصدر سابق، ص ٤٨.

(٨٠) زين العابدين، محمد وفيق، **الامتيازات الأجنبية وأثرها في الإنحراف عن شرع الله**، شبكة الألوكة

https://www.alukah.net/sharia/0/53617/#ixzz67d37dveq

(٨١) المصدر نفسه.

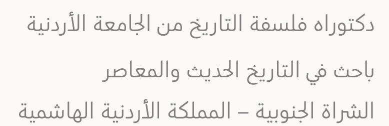
(٨٢) حرب، محمد (تقديم وترجمة)، **مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني**، ط٣، دار القلم، دمشق، ١٩٩١، ص ٧٠.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

النفط الإيراني من امتياز التنقيب إلى إسقاط حكومة التأميم (١٩٠١ - ١٩٥٣)





د. كايد الركيبات

دكتوراه فلسفة التاريخ من الجامعة الأردنية

باحث في التاريخ الحديث والمعاصر

الشراة الجنوبية – المملكة الأردنية الهاشمية

مُلَخّصْ

جاء الهدف من إعداد هذه الدراسة للبحث في تاريخ النفط الإيراني منذ اكتشافه في العام ١٩٠١م، إلى أن قررت الحكومة الإيرانية تأميمه في أيار/ مايو ١٩٥١م، وما نتج عن هذا القرار من أحداث مؤثرة في الساحة الإيرانية. واستخدم الباحث منهج البحث التاريخي في إعداد الدراسة من خلال استعراض سردية الأحداث ومن ثَمَّ تحليل القرارات والإجراءات التي اتخذتها حكومة التأميم ومدى مرونتها في التعامل مع التطورات والنتائج التي نجمت عن هذا القرار على الساحة المحلية والساحة الإقليمية والعالمية، من خلال الوقوف على الأسباب التي دعت لاتخاذه، والتبعات التي نجمت عن تنفيذه، ومدى قدرة الحكومة الإيرانية على الصمود في مواجهة التحديات الداخلية والخارجية المعارضة للاستمرار في تنفيذ هذا القرار، ومن ثَمَّ أثرها في إسقاط حكومة محمد مصدق في آب/ أغسطس ١٩٥٣م. وخلصت الدراسة إلى أن حكومة التأميم بزعامة محمد مصدق لم تستطع الصمود في وجه التحديات التي واجهتها بعد اتخاذها قرار تأميم قطاع النفط في البلاد، فشارفت على الانهيار بفعل عدد من العوامل الداخلية، مع ذلك لم تترك كل من بريطانيا والولايات المتحدة الفرصة تمر دون أن تتدخل وتنظم عملية سرية تهدف إلى الإطاحة بحكومة محمد مصدق، ولا شك أن لكل دولة منهما مبرراتها للإقدام على هذا العمل، ومصالحها التي تسعى للحفاظ عليها أو اكتسابها من وراء هذا التدخل.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٢	مارس	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٠٧	مايو	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

تأميم النفط؛ إيران؛ محمد مصدق؛ عملية أجاكس؛ الدول العربية؛ الاتحاد السوفيتي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.232546

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

كايد الركيبات. "النفط الإيراني من امتياز التنقيب إلى إسقاط حكومة التأميم (١٩٠١ - ١٩٥٣)".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثاني والخمسون؛ يونيو ٢٠٢١. ص ٢٠٧ – ٢٢١.

Corresponding author: kayedrkibat@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

إن دراسة تاريخ النفط ونفوذ الشركات العالمية التي تستحوذ على هذا القطاع الاقتصادي المهم، تفتح أمام الباحث آفاقًا واسعة لإدراك سياسات التدخل العالمي في شؤون الدول المنتجة للنفط، والاختراق الكبير الذي تقوم به هذه الشركات العملاقة بمساندة الدول الكبرى التي تنتمي إليها، في السيطرة الدائمة على قرارات وسياسات الدول المنتجة للنفط، بمختلف الوسائل والطرق، للحفاظ على مصالحها. من هنا جاءت هذه الدراسة للبحث في حيثيات وتبعات قرار تأميم النفط الإيراني وأسباب عدم نجاح الإيرانيين في تحقيق السيطرة الوطنية على مقدرات الثروة النفطية في بلادهم. وتكمن أهمية الدراسة في توضيح الظروف الداخلية والخارجية التي كان لها أثر في التعامل مع مسألة التنقيب عن النفط الإيراني ومن ثَمَّ تطورات ظروف الإنتاج، ومدى الاستفادة من عوائد الإنتاج في تحقيق التنمية في البلاد.

في حين تهدف الدراسة إلى التأكيد على الدور البريطاني والأمريكي في التأثير على القرارات السيادية للدولة الإيرانية لحماية مصالحهما الاقتصادية والاستراتيجية. أما أبرز الأسئلة التي جاء سياق الدراسة محاولاً الإجابة عليها فهي:

- ما هي أوليات تعامل حكومة الشاهنشاه مع مسألة التنقيب عن النفط في البلاد؟
- إلى أي مدى كانت الاتفاقيات المبرمة بين الحكومة وشركة النفط تحقق العدالة؟
- ما أسباب وحيثيات اتخاذ قرار التأميم؟
- هل استطاعت الحكومة إدارة مسألة التأميم والتجاوب مع تبعات القرار بشكل يخدم قضيتها في ظل المواقف الشعبية الإيرانية، والمواقف الدولية؟
- إذا كان قرار تأميم النفط الإيراني قرار وطني صائب لماذا أسقطت حكومة التأميم؟

وقد وظف الباحث المنهج التاريخي في إعداد الدراسة وذلك من خلال عرض السردية التاريخية للأحداث، ومن ثَمَّ تحليل المواقف والقرارات الحكومية على المستوى الإيراني الداخلي، أو المواقف والقرارات الخارجية التي فُرضت عليها، الأمر الذي ساعد في توضيح إجراءات حكومة التأميم لإدارة ملف النفط الإيراني، ووصول الأمور إلى ما وصلت إليه.

١-امتياز التنقيب واكتشاف النفط

كان أول امتياز للتنقيب عن النفط في بلاد فارس[١] يعود للعام ١٩٠١م، عندما منحت الحكومة الفارسية رجل الأعمال الإنجليزي وليم دارسي (1849- ١٩١٧) William D'Arcy امتياز التنقيب عن النفط واستثماره، بعد المفاوضات الأولية التي أجراها الجنرال أنطوان كيتابجي خان General Antoine Kitabgi Khan – والذي كان يشغل منصب مدير الجمارك في الحكومة الفارسية سابقًا – نيابة عن وليم دارسي، مع الحكومة الفارسية، في حين تمت المفاوضات النهائية وإقرار الاتفاق بشكل مباشر بين وليم دارسي ومظفر الدين شاه (١٨٩٦ - ١٩٠٦) شخصيًا[٢]. وإلى جانب امتياز التنقيب عن النفط منحت حكومة الشاه وليم دارسي حق إنشاء خطوط أنابيب نقل النفط من الآبار المنتجة للنفط إلى مصفاة التكرير، والمواني المعدة لتصدير المنتجات النفطية في عابدان[٣]، وحددت حقوق هذا الامتياز الحصري بمدة ستين عامًا[٤]. وتضمن الاتفاق التزام وليم دارسي بدفع مبلغ ٢٠ ألف جنيه إسترليني - كانت تعادل ١٠٠ ألف دولار أمريكي في ذلك الوقت – لخزينة الدولة، وتخصيص حصة من أسهم شركة التنقيب عن النفط – التي ستؤسس لاحقًا – للدولة بقيمة ٢٠ ألف جنيه أخرى، ودفع نسبة ١٦% من قيمة النفط المستخرج للحكومة[٥]. وخول هذا الامتياز لوليم دارسي حق التنقيب عن النفط في كل أقاليم بلاد فارس، ما عدا الأقاليم الخمسة الشمالية التي كانت تعتبر منطقة نفوذ لروسيا وهي: أذربيجان، وجيلان، ومازندران، وجرجان، وخرسان[٦].

وبذلك تكون مساحة منطقة امتياز وليم دارسي تقدر بنصف مليون ميل مربع، وأعفي من دفع الضرائب على نشاطه الاقتصادي الذي يتطلبه هذا الامتياز. وبدأ وليم دارسي عمليات الحفر والتنقيب عن النفط في بلاد فارس بداية الأمر بتمويل شخصي، لكن نتيجة الفشل المتكرر في العثور على النفط من الآبار التي كان يحفرها، اضطر وليم دارسي للبحث عن مصادر تمويل جديدة قادرة على تمويل عمليات التنقيب عن النفط في منطقة الامتياز؛ فبدأ عملية واسعة للاتصال مع الشركات الأجنبية في مجال النفط، ولتُحد الحكومة البريطانية من خطورة دخول الشركات الأجنبية للاستثمار في مجال النفط في بلاد فارس، لإدراكها أن أي تقصير في دعم استثمار حق الامتياز بالتنقيب عن النفط الذي حصل عليه وليم دارسي من الحكومة الفارسية سيفقدها السيطرة على ثرواتها النفطية، لذا قررت الحكومة البريطانية حث شركة نفط بورما Burma Oil - والتي تعود ملكيتها لمستثمرين بريطانيين – لمساعدة وليم دارسي

والمساهمة معه في تغطية نفقات التنقيب عن النفط في بلاد فارس[٧].

واستجابة لذلك رصدت شركة نفط بورما مبلغ ٦٠٠ ألف جنيه لمساعدة وليم دارسي في استغلال الامتياز الممنوح له، عندما بدأ وليم دارسي التنقيب عن النفط في مكان يدعى مسجد سليمان[٨] في محافظة خوزستان جنوب غرب البلاد، وتمكن من استخراج النفط بتاريخ ١٩٠٨/٥/٢٦م، ونتيجة لاكتشاف النفط في تلك المنطقة أُسست شركة النفط لأنجلو ـ فارسية (APOC) Anglo Persian Oil Company، ودفعت شركة نفط بورما مبلغ مليون جنيه لتغطية نفقات تطوير صناعة النفط في بلاد فارس، وطُرح للمساهمين بشراء الأسهم الممتازة لشركة النفط، أما وليم دارسي فقد رد إليه المبلغ الذي كان قد دفعه خلال تمويله لعمليات الحفر على نفقته الخاصة والبالغ ٢٢٥ ألف جنيه، ومنح مكافأة قدرها ٩٠٠ ألف جنيه في صورة أسهم في الشركة[٩].

وفي العام ١٩١٤م، اقترح ونستون تشيرشل (1874- 1965) Winston Churchill والذي كان يشغل منصب النائب الأول في وزارة الأركان البريطانية، على مجلس العموم البريطاني مقترح يتضمن أن تستثمر الحكومة البريطانية ٢.٢ مليون جنيه إسترليني في حصة شركة النفط الإنجلو - فارسية، مقابل الحصول على ٥١% من أسهم الشركة، وتعيين مديرين في الشركة يملكون سلطات الفيتو في المسائل المتعلقة بعقود الوقود البحري، والشؤون السياسية، وإبرام عقد تزويد البحرية البريطانية بحاجتها من الوقود[١٠].

٢-الخلافات بين الحكومة الفارسية وشركة النفط

شكلت نسبة ١٦% الواردة في نص الامتياز الذي منحته الحكومة الفارسية لوليم دارسي محور الخلاف بين الحكومة وإدارة شركة النفط، وظهر هذا الخلاف بشكل واضح بعد اكتشاف النفط وتسويقه بكميات تجارية، لعدم وضوح المعيار الذي يمكن أن يعتمد في احتساب هذه النسبة، في ظل غياب أي دور رقابي أو صلاحية قانونية للحكومة الفارسية، تمنحها الحق في الاطلاع على سجلات الشركة المالية، ومن جهة ثانية تقديم شركة النفط خصومات مالية لصالح البحرية البريطانية، التي يتم تزويدها بالوقود من مصفاة النفط في عبادان، ونتيجة لهذا الخلاف عقد في العام ١٩٢١م، اتفاق بين الحكومة الفارسية وشركة النفط، سمي اتفاق آرميتاج سمث (Armitage-Smith) وهو موظف في المالية البريطانية ويشغل في الوقت نفسه وظيفة المستشار المالي للحكومة الفارسية، حيث قام بتفسير معيار استيفاء حصة ١٦% المقررة للحكومة الفارسية، بأنه يشمل صافي الأرباح التي تحققها الشركة بكافة فروعها في العالم من عمليات استخراج النفط، واستثنى من ذلك فقط الأرباح المتحققة من عمليات نقل النفط، وتضمنت الاتفاقية قبول التحكيم في المسائل الخلافية داخل بلاد فارس، وتعيين شركة تدقيق حسابات بريطانية لهذه الغاية[١١].

٣-اتفاقية الامتياز لعام ١٩٣٣م

والخلاف الثاني الذي وقع بين الحكومة الفارسية وشركة النفط، كان في ١٩٣٢/١١/٢٧م، عندما أصدرت الحكومة الفارسية قرارًا بإلغاء الامتياز النفطي، وسلمت رسالة الإلغاء للسيد توماس جاكس Thomas Jax، الذي كان يشغل وظيفة ممثل شركة النفط في طهران، معللة قرارها بأن الامتياز يتعارض مع المصالح الوطنية الفارسية، وكانت ردة فعل إدارة شركة النفط رفض قرار إلغاء امتياز الشركة، ورفعت الحكومة البريطانية القضية لمجلس عصبة الأمم في ١٩٣٢/١٢/١٩م، وسلمت الدعوى لوزير الخارجية التشيكي ـ في ذلك الوقت ـ إدوارد بينيه Edward Binet، للتوصل إلى صيغة حل مناسبة بين الطرفين[١٢]. وفي أواخر نيسان/ ابريل ١٩٣٣م، وصل إلى طهران المدير التنفيذي لشركة النفط جون كادمان John Cadman، واستطاع التوصل مع الحكومة الفارسية إلى اتفاق جديد يحقق للدولة امتيازات وعوائد مالية أفضل من الاتفاقيات السابقة، وفي ١٩٣٣/٥/٢٠م، اقر البرلمان الفارسي هذا الاتفاق[١٣]. ومن أهم بنوده:

١- منح شركة النفط امتياز استخراج النفط واستثماره حتى العام ١٩٩٣م.
٢- تقليص مساحة الامتياز وحصرها بمئة ألف ميل مربع، بمعنى تخلي الشركة عن ٨٠% من المساحة التي كانت ضمن امتياز دارسي لسنة ١٩٠١م، والبالغة ٤٨٠ ألف ميل مربع.
٣- دفع أربع شلنات للحكومة عن كل طن من النفط يتم استخراجه من قبل الشركة، دون النظر إلى مكان استهلاكه سواءً كان هذا الاستهلاك داخل البلاد أو سيصدر للخارج.
٤- دفع ٢٠% من جميع الأرباح السنوية التي تحققها الشركة للحكومة.
٥- إلغاء الحق الحصري للشركة في مد أنابيب النفط وتشغيلها في منطقة الامتياز.
٦- تعهد الشركة بتزويد السوق الداخلية بالمنتجات النفطية مع خصم ٢٥% للحكومة، و١٠% للمواطنين.

٧- للحكومة الحق في تعيين مندوب يملك الصلاحية في الحصول على المعلومات التي تخص المساهمين، وله الحق في حضور اجتماعات مجلس الإدارة واللجان التي تقررها الشركة.

٨- العمل على تعيين الحرفيين والفنيين والكادر الإداري من المواطنين وإحلال العمالة المحلية محل العمالة الأجنبية في الشركة[١٤].

٤-الاتفاق التكميلي واقتراح تأميم النفط

على الرغم من أن اتفاق ١٩٣٣م، بين الحكومة الفارسية وشركة النفط حقق للدولة بعض المكاسب المالية، إلا أنه كان أقل من طموحات التي تتطلع إليها الحكومة الإيرانية، التي عاودت التفاوض مع إدارة شركة النفط الإنجلو - إيرانية[١٥] Anglo-Iranian Oil Company (AIOC)، واختتمت المفاوضات بتوقيع الاتفاق التكميلي المعروف باتفاقية (غاس - كلشائيان)، نسبة لنيفيل غاس ممثل شركة النفط، وعباس قلي كلشائيان وزير المالية الإيراني، وكان توقيع هذا الاتفاق في تموز/ يوليو ١٩٤٩م، وعلى الرغم من توقيع هذا الاتفاق فإنه لم يكن بمستوى طموحات الإيرانيين، لأنه بقي يغلب مصلحة شركة النفط على المصالح الإيرانية[١٦]. وتضمن الاتفاق البنود التالية:

١- تدفع الشركة للحكومة الإيرانية مبلغ خمسة ملايين وواحد وتسعون ألف جنيه خلال شهر من تاريخ توقيع الاتفاق.

٢- زيادة المبلغ المدفوع عن كل طن من النفط بحيث يصبح ٦ شلنات بدلاً من ٤ شلنات، وبأثر رجعي اعتبارًا من العام ١٩٤٨م.

٣- زيادة الدفعات على الإنتاج من ٩ بنسات إلى شلن واحدًا لكل طن وبأثر رجعي من العام ١٩٤٨م.

٤- التزام الشركة بدفع دفعة نقدية سنوية إضافية للحكومة الإيرانية تعادل ٢٠% من الاحتياطي السنوي للشركة، وبأثر رجعي اعتبارًا من العام ١٩٤٨م.

٥- زيادة نسبة الخصم على أسعار بيع المنتجات النفطية التي يتم استهلاكها داخل البلاد.

٦- تلتزم الشركة بدفع مبلغ (١٨,٦٦٧,٧٨٦) جنيه، تعادل (٨٠,٢٧١,٤٧٩) دولار، بدل رسوم وضرائب عن العام ١٩٤٨م، وتدفع مبلغ (٢٢,٨٩٠,٢٦١) جنيه تعادل (٩٨,٤٢٨,١٢٢) دولار بدل رسوم وضرائب عن العام ١٩٤٩م.

٧- إعفاء الشركة من دفع الضرائب للحكومة الإيرانية[١٧].

وقُدم هذا الاتفاق للبرلمان الإيراني في ١٩٤٩/٧/١٩م، قبل عدة أيام من انتهاء مدة الدورة البرلمانية الخامس عشرة، لينظر في هذا الاتفاق بسرعة، إلا أن المعارضة في البرلمان عرقلت النظر في الاتفاقية، وسعت إلى تأجيل مناقشته، حتى يُعرض على المجلس النيابي في الدورة السادس عشرة[١٨].

وبعد إجراء الانتخابات البرلمانية الإيرانية وتشكيل المجلس السادس عشر قدم رئيس الوزراء الإيراني علي منصور المولكي[١٩] الاتفاق لمجلس النواب، وفي ١٩٥٠/٦/٢١م، شُكلت لجنة برلمانية برئاسة محمد مصدق[٢٠]، لدراسة الاتفاق، مكونة من ١٨ عضوًا[٢١]، ونتيجةً للظروف السياسية في إيران، وحالة الغضب الشعبية، أُسقطت حكومة علي منصور المولكي بتاريخ ٦/٢٦/ ١٩٥٠م، وفي نفس هذا اليوم اجتمعت اللجنة البرلمانية المختصة بدراسة الاتفاق التكميلي، والتي بدورها قدمت تقريرها للمجلس، وكانت توصياتها برفض الاتفاق التكميلي بصيغته التي قدم بها، ورأت أنه لا يخدم المصالح الإيرانية[٢٢].

وفي مواجهة تقرير اللجنة البرلمانية المكلفة بدراسة الاتفاق التكميلي، قام رئيس الوزراء الإيراني علي رزمارا[٢٣] الذي خلف علي منصور المولكي، بسحب الاتفاقية من مجلس النواب، وبدأ يشن هجومًا على المجلس، ويؤكد على عدم قدرة الإيرانيين على إدارة قطاع الإنتاج النفطي في البلاد، ونتيجةً لموقفه المنحاز لشركة النفط، ومعارضته للبرلمان الإيراني في هذا الاتجاه، ولمناهضته رغبة المواطنين الإيرانيين في تأميم النفط، اغتيل في ١٩٥١/٣/٧م، على يد شاب إيراني اسمه خليل طهماسب[٢٤]، ولإثارة الشارع الإيراني اصدر آية الله كاشاني[٢٥] أوامره لأتباعه بالخروج في مظاهرات شعبية واسعة في مختلف أنحاء البلاد، تدعو إلى تأميم النفط الإيراني[٢٦].

ومما زاد من حدة التعامل الرسمي والشعبي مع شركة النفط، رفض الشركة لمطلب تقاسم صافي الأرباح بنسبة ٥٠%، كتلك الصيغة التي قدمتها شركة النفط العربية الأمريكية Arabian-American Oil Company (Aramco) للمملكة العربية السعودية[٢٧]، وعلى إثر هذه الأحداث قدم السفير البريطاني فرنسيس شبرد Francis Shepherd، خطابًا يتضمن موافقة الحكومة البريطانية على مبدأ مقاسمة صافي أرباح شركة النفط بنسبة ٥٠%، مع الحكومة الإيرانية، وتبين أن هذه الموافقة كانت صادرة عن الحكومة البريطانية في أوائل شهر آذار/ مارس، وأن السفير البريطاني أخر تسليمها لتوقعه أن الخلاف بشأن قرار تأميم النفط سيُحل سريعًا، ولن تكون هناك حاجة لموافقة الحكومة البريطانية السريعة على المطالب

الإيرانية، لكن الأمور جاءت عكس توقعاته، وأصبحت طموحات أعضاء البرلمان والشارع الإيراني تفوق الحديث عن مسألة المقاسمة، إلى مسألة التأميم الكامل لقطاع النفط في البلاد[٢٨]. وفي ١٥/٣/١٩٥١م، عرض محمد مصدق على مجلس النواب مقترحًا بتأميم النفط الإيراني، مستغلاً التظاهرات الشعبية، الداعية إلى قرار التأميم، وطلب من النواب المصادقة علية، وبعد اعتماد الاقتراح من المجلس النيابي أحيل إلى اللجنة المختصة لدراسة الإجراءات القانونية والتنفيذية التي تكفل تطبيق قرار التأميم[٢٩].

٥-تنفيذ قرار التأميم

لم يتمكن حسين علاء[٣٠] رئيس وزراء إيران، الذي عين بعد اغتيال علي رزمارا أن يستمر في منصبة طويلاً، حيث استقال بتاريخ ٢٨/٤/١٩٥١م، بعد إصرار البرلمان الإيراني على تبني مقترح تأميم النفط في البلاد، في حين كان مشروعه يتضمن التفاوض مع شركة النفط على مناصفة الأرباح، وإسناد بعض المسؤوليات والوظائف الرئيسية لموظفين إيرانيين، وقبول عضوية مدراء إيرانيين في مجلس إدارة الشركة[٣١]، وعين بعده محمد مصدق رئيسًا للوزراء، وبذلك يكون أحد أكثر أنصار مشروع تأميم النفط في إيران يملك السلطة التي تمكنه من تنفيذ المشروع[٣٢]. وبتاريخ ١/٥/١٩٥١م، صادق الشاه محمد رضا بهلوي[٣٣] على القانون الخاص بتأميم قطاع النفط وإلغاء الامتياز الممنوح لشركة النفط، وتأسيس الشركة الوطنية الإيرانية للنفط National Iranian Oil Company (NIOC)[٣٤]. وعمل محمد مصدق على تطبيق قرار التأميم لقطاع النفط، من خلال السيطرة على مقرات الشركة ومكاتبها، ومصادرة وثائقها، ومراقبة أفرادها، والإشراف المباشر من الحكومة على استلام العوائد المالية للشركة[٣٥].

وجاء في خطاب رئيس الوزراء الإيراني محمد مصدق الذي ألقاه بمناسبة إلغاء امتياز شركة النفط، ومصادرة أصولها داخل إيران قوله: " عندما نقضي على قوة تلك الشركة البريطانية، فإننا نقضي على الفساد والتآمر التي تأثرت بسببها شؤون بلدنا الداخلية، فعندما نوقف تلك الوصاية نهائيًا فان إيران تكون قد حققت استقلالها الاقتصادي والسياسي"[٣٦]. وهذا الطموح الكبير والحماس المتزايد الذي كان يمر به محمد مصدق والاندفاع الشديد لنداء الجمهور الإيراني لم يمّكن محمد مصدق من الاستماع لوجهة النظر المقابلة، والتي يتبناها الشاه محمد رضا بهلوي، حيث كان يرى أن إمكانيات إيران الاقتصادية عاجزة عن دفع رواتب العاملين في قطاع النفط الإيراني البالغ عددهم ٥٣ ألف عامل، في حال تعثر الإنتاج والتسويق، ولن تتمكن إيران من دفع أي تعويضات لشركة النفط لقاء استثماراتها في قطاع النفط، وحتى إذا لجأت إلى الاقتراض لهذه الغاية، فإن سداد هذه القروض سيستغرق وقتًا طويلاً، ربما يعادل الوقت المتبقي لانتهاء عقد الامتياز بشكل قانوني في العام ١٩٩٣م، بين إيران وشركة النفط[٣٧].

٦-المواقف الدولية من مسألة تأميم النفط الإيراني

١/٦-الموقف البريطاني

شكل قرار تأميم النفط الإيراني ضربة قاسية للاقتصاد البريطاني، لأن عائدات النفط الإيراني كانت تساعد في استقرار قيمة الجنيه الإسترليني، الذي كانت تتعامل به بريطانيا في سداد قيمة القروض المالية التي اضطرت لاستدانتها خلال الحرب العالمية الثانية، وأي تأثير في قيمة الجنيه الإسترليني سيؤدي إلى انخفاض الاحتياطي البريطاني من العملات الأجنبية، مما سيؤدي بدوره إلى ضعف في القدرة الشرائية البريطانية[٣٨].

حاولت بريطانيا التعامل مع قرار الحكومة الإيرانية بتأميم النفط بداية الأمر بدبلوماسية، في محاولة منها للوصول إلى تسوية مناسبة مع الحكومة الإيرانية، فالشركة استطاعت خلال سنوات عملها في إيران حفر ستة آبار نفط غزير الإنتاج، وقاموا ببناء مصفاة نفط ضخمة في عبدان، تبلغ طاقتها الإنتاجية ٢٤ مليون طن في السنة، وتمكنت الشركة من تجهيز موانئ لرسو سفن النفط، وبنت الشركة مساكن لأكثر من عشرة آلاف عامل من عمالها، ونتيجة لحجم هذا الاستثمار الذي كانت الشركة تمتلكه في إيران، عرض نائب رئيس مجلس إدارة شركة النفط، بازيل جاكسون Basil Jackson على الحكومة الإيرانية مقترحًا لتسوية الخلاف مع الشركة، يتضمن دفع الشركة مبلغ ٣ مليون جنيه إسترليني كل شهر للحكومة الإيرانية، وأن تدفع لها مقدمًا ١٠ ملايين جنيه إسترليني، على أن تستمر الشركة في إدارة الصناعات النفطية في إيران بالوكالة عن الشركة الوطنية الإيرانية للنفط التي أوجدتها الحكومة الإيرانية بدلاً من شركة النفط، بعد اتخاذها قرار التأميم، لكن الحكومة الإيرانية رفضت هذا العرض[٣٩].

ويمكن تفسير سبب الرفض الرسمي الإيراني لمقترحات بازيل جاكسون لقوة المعارضة الشعبية التي جندها كاشاني وأنصاره، التي تطالب بتأميم النفط، إضافة إلى طموحات محمد مصدق بالاستمرار في تنفيذ قرار التأميم الذي انتخبت حكومته لتنفيذه، والذي شكل المقوم الأساسي والأهم في إيجاد تحالف

مصدق وكاشاني، رغم التباعد الفكري بين نظرة كل منهما للشؤون السياسية والاقتصادية. فكلا الرجلين لم يكن يأخذ بالاعتبار قدرة شركة النفط وإمكانياتها الكبيرة في إدارة قطاع الإنتاج النفطي وعرقلة الجهود الإيرانية. وفي مواجهة الرفض الإيراني للاقتراح البريطاني، عملت بريطانيا على وضع المعيقات أمام الإيرانيين لإيقاف استخراج النفط، ووقف عمليات النقل، والتكرير، وذلك من خلال الإيعاز للكوادر العاملة في الشركة بعدم التعاون مع الحكومة الإيرانية ممثلة بإدارة الشركة الوطنية الإيرانية للنفط، وسحب الخبراء والفنيين البريطانيين الذين يمكنهم القيام بأعمال استخراج النفط، وتشغيل مصفاة تكرير النفط في عبدان واتفقت مع شركات النفط العالمية على حظر تصدير النفط الإيراني فيما لو تمكنت من استخراجه وتكريره، من خلال من تبقى من كوادر الشركة الأجانب، والإيرانيين[٤٠].

ولم تقف الأمور عند هذا الحد فقد جمدت بريطانيا الأصول المالية الإيرانية لديها[٤١]، وكثفت من وجود بحريتها العسكرية في الخليج العربي، وحشدت بعض قواتها العسكرية على الحدود العراقية الإيرانية، وعززت تواجدها العسكري في القاعدة البريطانية في قبرص، تمهيدًا لشن هجوم عسكري على إيران، إلا أن خطة الهجوم العسكري البريطانية لقيت معارضة شديدة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، فلجأت بريطانيا لمنع إيران من القيام بعمليات تصدير النفط، من خلال الإعلان في ٣٣ صحيفة، توزع في عشرين دولة، عن احتجاجها على قرار الحكومة الإيرانية بتأميم النفط، وأنه يخالف الاتفاقية المبرمة بين الطرفين، وحذرت ناقلات النفط من نقل النفط من إيران، وأن أي ناقلة تخالف ذلك فإنها تعتبر في نظر الحكومة البريطانية قد ارتكبت مخالفة قانونية، وأن الحكومة البريطانية لها الحق في مقاضاتها لدى المحاكم الدولية، والمحلية، وهذا ما حدث فعلاً عندما اعترضت القوات البحرية البريطانية ناقلة النفط روزماري Rosemary التي استأجرتها إيطاليا لنقل شحنة من النفط الإيراني، واحتجزتها في ميناء عدن[٤٢] وصادرت حمولتها، ونتيجة لهذه التحذيرات البريطانية ألغت كل من الهند، وتركيا، وإيطاليا عقود شراء النفط التي أبرمتها مع الحكومة الإيرانية[٤٣].

وفي الوقت ذاته عملت بريطانيا على جعل الخلاف القائم بين شركة النفط، والحكومة الإيرانية، يأخذ بعدًا دوليًا، فتقدمت بريطانيا بدعوى ضد إيران في ١٩٥١/٥/٢٦م، لدى محكمة العدل الدولية، وفي ١٩٥١/٦/٢٩م، أرسلت الحكومة الإيرانية وزير خارجيتها حسين فاطمي برسالة لمحكمة العدل الدولية ليشعرها برغبة إيران عدم تدخل المحكمة بالقضية لكونها خارج اختصاصها معتبرةً أن قرار تأميم النفط الإيراني شأن داخلي، لكن محكمة العدل الدولية أصدرت حكمها في ١٩٥١/٧/٥م، والمتضمن قرارًا يتعلق بالتدابير المؤقتة التي يجب على كلا الطرفين اتخاذها، والامتناع عما يحول بين الشركة والقيام بنشاطها التجاري والصناعي، كما كانت تمارسه قبل ١٩٥١/٥/١م، لكن الحكومة الإيرانية رفضت القرار، وقررت سحب اعترافها بقبول الولاية الجبرية لمحكمة العدل الدولية، فقررت المحكمة إعادة النظر بالنزاع وأصدرت حكمها الثاني في ١٩٥١/٧/٢٢م، بأغلبية ٩ أصوات ضد ٥ والمتضمن عدم اختصاص المحكمة بالقضية المعروضة عليها[٤٤].

وبعد اتخاذ محكمة العدل الدولية قرارها بعدم الاختصاص بالنظر في الخلاف الناشئ عن تأميم النفط الإيراني، قررت بريطانيا الاستمرار في تدويل الخلاف، وذلك من خلال رفع شكوى ضد إيران في مجلس الأمن الدولي بتاريخ ١٩٥١/١٠/٢٨م، تضمنت أن الحكومة الإيرانية تهدد الأمن والسلام الدوليين، وكان رد رئيس الوزراء الإيراني محمد مصدق على هذا الاتهام أمام أعضاء مجلس الأمن الدولي، أن الحكومة الإيرانية لم تعرض السلام والأمن الدوليين للخطر مطلقًا، وأكد لأعضاء مجلس الأمن الدولي في تلك الجلسة أن الشعب الإيراني لم يرض عن شركة النفط، لأنها لم تساعد في تنمية البلد، ولم تقدم الخدمات الفنية والصناعية المرجوة من نشاطها الاقتصادي، ولم تقم بتأهيل وتدريب الإيرانيين حتى يتمكنوا من الاعتماد على أنفسهم في تشغيل مرافق الشركة، وأيد ممثل الحكومة السوفيتية، واليوغسلافية، رأي الوفد الإيراني، واعتبروا القضية شأن داخلي، ليس من حق مجلس الأمن الدولي التدخل فيها، واقترح مندوب فرنسا أن تحفظ بريطانيا الدعوى التي تقدمت بها، إلى حين البت في أهلية مؤسسات الأمم المتحدة في النظر بمثل هذه الخلافات، وصوت اغلب الأعضاء إلى جانب هذا الاقتراح، وبذلك فشلت مساعي بريطانيا في تدويل الخلاف مع إيران بشأن تأميم النفط[٤٥].

لم يحقق هذا الانتصار الظاهري أمام المجتمع الدولي الذي أحرزته إيران في دفاعها عن وجهة نظرها من مسألة تأميم النفط أي فائدة لها، بل انه أثار الحكومة البريطانية ودعاها لانتهاج عمل استخباري للإطاحة بحكومة محمد مصدق، وتقوية موقف الشاه محمد رضا بهلوي أمام الحكومة الإيرانية لأنها كانت ترى به الشخص الوحيد القادر على الحفاظ على مصالحها في

إيران. وبدأ التعاون الفعلي بين بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية في مجال العمل الاستخباري لإسقاط حكومة محمد مصدق، بعد انتخاب دوايت إيزنهاور (1890- 1969) Dwight Eisenhower لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية[٤٦]، وأدار هذه المباحثات من الجانب البريطاني كل من كريستوفر مونتي Christopher Monty، ومونتاج وودهاوس Montague Woodhouse، وعن الجانب الأمريكي جون دالاس John Dulles والذي كان يشغل منصب وزير الخارجية الأمريكية، وشقيقة ألين دلاس Allen Dulles الذي كان يشغل منصب مدير المخابرات المركزية الأمريكية[٤٧].

٢/٦-الموقف الأمريكي

تعاطفت الحكومة الأمريكية برئاسة الرئيس الأمريكي هاري ترومان (1884- 1972) Harry Truman مع قرار الحكومة الإيرانية تأميم النفط واعتبرت قرارها قرارًا شرعيًا وطموحًا، وقررت إرسال مستشارها والتر ليفي Walter Levy إلى إيران ليحاول إقناع الحكومة الإيرانية بضرورة تقديم تسوية مالية تدفع خلالها إيران ثمن الأصول البريطانية المستثمرة في قطاع إنتاج النفط، لضمان نجاح مشروع التأميم، ومحذرة في الوقت ذاته من رفض إيران لهذه التسوية، لأنها بذلك ستعتبر قد صادرت قطاع النفط ولم تأممه[٤٨].

كما دعت وزارة الخارجية الأمريكية إلى سلسلة من المحادثات في آب/ أغسطس من العام ١٩٥١م، في طهران سميت (بعثة هاريمان) نسبة للسفير الأمريكي افريل هاريمان Averell Harriman، الأمر الذي لاق الترحيب من الحكومة البريطانية، على أساس الوساطة كطرف ثالث محايد بهدف الوصول إلى تسوية مرضية للطرفين[٤٩]، وتضمن الاقتراح الأمريكي إعلان مدة ستين يومًا، يستمر فيها إنتاج النفط، وتصديره، وأن يبقى الفنيون في وظائفهم، على أن يتم اتخاذ تدابير مالية مرحلية خاصة، وأضافت الحكومة البريطانية على هذا الاقتراح أن تكون عمليات الإنتاج والتصدير تحت إشراف شركة النفط، مع التأكيد على أن السفير الأمريكي في إيران، لا يملك حق التفاوض مع الإيرانيين نيابة عن بريطانيا وشركتها، لكن الحكومة الإيرانية لم تقبل بهذا المقترح[٥٠].

واستمرارًا للجهود السلمية حيال مسألة تأميم النفط، حاول الرئيس الأمريكي ترومان، ورئيس وزراء بريطانيا تشرشل، وإدارة البنك الدولي، في ١٩٥٢/٨/٢٧م، الوصول إلى حل للخلاف الإيراني مع الحكومة البريطانية، حيث تضمن الاقتراح البنود التالية ـ والتي لم تحض أيضًا بقبول الجانب الإيراني:

١. تحكيم محكمة العدل الدولية بشأن التعويضات التي يجب على الحكومة الإيرانية دفعها لشركة النفط.
٢. تعيين ممثلين من الحكومة الإيرانية وشركة النفط للإشراف على عمليات تصدير النفط.
٣. تلغي الحكومة البريطانية بعض القيود المفروضة على صادرات البضائع الإيرانية.
٤. التزام الحكومة الأمريكية بدفع معونة مالية لإيران لمساعدتها في حل أزمتها المالية[٥١].

وعلى الرغم من المسعى الذي قامت به الولايات المتحدة، للتغلب على الخلافات البريطانية الإيرانية، بشأن تأميم النفط، إلا أنها كانت تنظر لمصالحها الاقتصادية بالمقام الأول، لأن تأميم النفط الإيراني سيكفل كسر الاحتكار البريطاني لسوق النفط الإيراني، ويتيح الفرصة للخبرة ورأس المال الأمريكي بالدخول والمنافسة الحرة[٥٢]. وإلى جانب المصالح الاقتصادية تخوفت الولايات المتحدة من تطور علاقات اقتصادية وسياسية بين إيران والاتحاد السوفيتي لذا سارعت بتقديم معونات مالية للحكومة الإيرانية[٥٣]. وفي الوقت ذاته كان ينتاب الأمريكيين القلق من إقدام كل من إندونيسيا، وفنزويلا، والعراق بخطوات مماثلة لخطوات إيران، مما سيؤدي إلى انتقال السيطرة من أيدي الشركات الأمريكية لمصلحة الدول المنتجة[٥٤]، لهذا أنذرت الإدارة الأمريكية الحكومة الإيرانية بتجميد المعونات المالية والفنية التي تقدمها لها إذا لم يتم تقديم تسويات معقولة لقضية تأميم النفط تضمن حماية المصالح الأمريكية[٥٥]. فالموقف الأمريكي كان يميل للضغط على إيران، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية في مقابل ذلك تراعي كثيرًا من الاعتبارات، أهمها الحد من التعاون الإيراني السوفيتي، وإضعاف حزب تودة الإيراني[٥٦].

٣/٦-موقف الاتحاد السوفيتي

كان موقف الاتحاد السوفيتي من قرار تأميم النفط الإيراني إيجابيًا؛ لأن هذا القرار يضمن للسوفييت عدم وجود أي نفوذ أجنبي بريطاني قريب من حدوده، بالإضافة إلى إمكانية تغطية احتياجاتهم من النفط الإيراني، وفق قواعد العرض والطلب التي يحددها السوق النفطي، بعيدًا عن أي مؤثرات وعوامل أخرى تفرضها عليه الدول التي يعتبرها دولاً عدوة قريبة من حدوده البرية، وتشكل أداة تهديد لأمنه الاستراتيجي[٥٧]. وهذا ما يفسر الإصرار الدائم من قبل الاتحاد السوفيتي على معارضة منح امتيازات التنقيب عن النفط في المقاطعات الشمالية لإيران.

وهذا الموقف السوفيتي بدا واضحًا عندما منحت الحكومة الإيرانية شركة نفط اميرانيان Amiranian Oil Company وهي فرع من شركة سيبورد الأمريكية للنفط Seaboard Oil Company of Delaware امتياز التنقيب عن النفط في القسم الشمالي الشرقي من البلاد في العام ١٩٣٧م، بمساحة ١٠٠ ألف ميل مربع، تقل تدريجيًا حتى تصل إلى ١٠٠ ميل مربع في غضون ١٥ سنه، وأن تدفع الشركة للحكومة الإيرانية أربعة دولارات عن كل طن مستخرج من النفط، مع دفع مبلغ يمثل نسبة ٢٠% من صافي الأرباح(٥٨)، حيث كانت الحكومة الإيرانية تهدف من هذا الامتياز إيجاد قوة حليفة تتمركز في شمال البلاد لوقف أي تهديد سوفيتي تجاه إيران، وكان الخيار الإيراني يتجه نحو كسب تحالف أمريكي يؤدي هذا الدور(٥٩).

لكن الشركة الأمريكية اميرانيان تخلت في العام ١٩٣٨م، عن هذا الامتياز(٦٠)؛ بسبب المعارضة السوفيتية لمنح الامتياز لمنع أي تواجد أجنبي بالقرب من حدودها، إضافة إلى بعض الصعوبات الأخرى التي واجهت الشركة: والتي منها صعوبات نقل النفط في حالة استخراجه؛ وذلك لأن إنشاء خطوط نقل البترول، أو استخدام ناقلات النفط يستلزم المرور بمناطق امتياز شركة النفط الأنجلو إيرانية، أو اضطرار الشركة لاستخدام الأراضي السوفيتية، وهذه الحلول كان من الصعب قبولها في ذلك الوقت، مما اضطر الحكومة الإيرانية إلى سحب الامتياز، ومنحه لشركة رويال دتش شل Royal Dutch Shell وهي شركة هولندية بريطانية، ومُنحت هذه الشركة حق إنشاء المطارات، والسكك الحديدية، والطرق، وخطوط التلغراف، وتأسيس إذاعة خاصة بالشركة، وتم أيضًا إلغاء هذا الامتياز في العام ١٩٤٤م، نتيجة ردود الفعل السوفيتية المقاومة لمنح هذا الامتياز(٦١).

وفي الوقت ذاته أدى إقدام الحكومة الإيرانية على تأميم النفط، إلى إغلاق الباب أمام طلب الاتحاد السوفيتي الحصول على امتياز للتنقيب عن النفط في شمال إيران(٦٢). وأسفرت عن عدم قدرة الحكومة الإيرانية على التفاوض مع الحكومة البريطانية وإيجاد حلول مقبولة لكلا الدولتين أسفر على المدى القصير إلى ضعف حكومة محمد مصدق، وعدم قدرتها على تأمين احتياجاتها المالية، بعد تعطيل العمل في حقول النفط، وعدم القدرة على تصدير الكميات المخزنة لديها.

٤/٦-موقف الدول العربية

أما المنطقة العربية فقد أظهرت عبر صحافتها، تعاطفًا كبيرًا مع إيران حيال قرارها تأميم النفط، وأطلقوا على حركة مصدق لقب "الحركة المباركة"(٦٣). وقد عايشت الصحافة العربية أحداث الأزمة الإيرانية المرتبطة بتأميم النفط منذ بدايتها، وتابعوا أدق تفاصيلها، وذلك لأن اهتمام العرب ارتبط بمواقفهم ومشاعرهم السلبية تجاه بريطانيا، وما قدمته من مساعدة لإسرائيل، وتسببها في نكبة فلسطين، وقد زاد من مظاهر هذا التعاطف الأنباء الخاصة بسحب الاعتراف بإسرائيل(٦٤) كما جاءت على لسان آية الله كاشاني، الذي أعلن استعداد جماعة فدائيان إسلام(٦٥) التي يسيطر عليها لبذل دمائهم في سبيل هذه الغاية(٦٦).

فعلى الرغم من أن الاعتراف الإيراني بإسرائيل لم يكن اعترافًا رسميًا وإنما كان اعترافًا ضمنيًا كأمر واقع، لكنه كان يعني الكثير لإسرائيل فهي بهذا الاعتراف لن تسعى إلى مواجهتها عسكريًا أو المشاركة بعمل عسكري ضدها، وكان الموقف السياسي الرسمي الإيراني حيال فلسطين أثناء عضويتها في لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين المعروفة بلجنة يونسكوب (UNISCOP) يصب في اتجاه إقامة دولة فدرالية وحيدة تضم اليهود والعرب لإحلال السلام، لكن تصويت اللجنة في النهاية أسفر عن تبني الجمعية العامة للأمم المتحدة خطة التقسيم بموجب القرار رقم ١٨١ الصادر في ١١/٢٩/ ١٩٤٧م، وبعد أقل من ستة أشهر على هذا القرار أعلن استقلال إسرائيل(٦٧).

وحُمّل الشاه محمد رضا بهلوي مسؤولية الاعتراف بدولة إسرائيل، وسماحه بقيام علاقات دولية معها في مجال التمثيل السياسي، والمبادلات التجارية، والعلاقات العامة(٦٨)، واستفادت الحكومة الإسرائيلية من هذه العلاقات في تسهيل عمليات نقل وترحيل الكثير من يهود العراق، الذين غادروا العراق متوجهين إلى إيران التي اعتبرت بالنسبة لهم محطة مهمة للهجرة إلى إسرائيل، بواسطة شركة الطيران الوطنية الإيرانية، خلال الأعوام (١٩٤٨ – ١٩٥٠)(٦٩). وكانت إسرائيل تسعى دائمًا لإيجاد تحالف ضمني مع إيران وفق ما يعرف بالسياسة الخارجية الإسرائيلية بمبدأ بن غوريون، حيث يرتكز هذا المبدأ على أن إسرائيل مجبرة على إقامة تحالف مع الدول المحيطة بها من غير الدول العربية التي يستبعد إقامة سلام معها، ومن أبرز هذه الدول المستهدفة بمبدأ بن غوريون: إيران، وتركيا، وأثيوبيا، إضافة إلى إقامة ما يمكنها من علاقات وتحالفات مع الجماعات والأقليات الموجودة في البلاد العربية مثل الطوائف المسيحية في لبنان، وأكراد العراق، للاستفادة منها في إضعاف التكتل العربي ضدها(٧٠).

٧-أسباب إسقاط حكومة محمد مصدق

تراكمت العديد من الأسباب التي أدت إلى إسقاط حكومة محمد مصدق، التي استمرت في السلطة مدة ثمانية وعشرين شهرًا، فمن هذه الأسباب ما هو عائدًا لأسباب داخلية ترتبط بقدرة محمد مصدق السياسية والإدارية، ومنها ما يرتبط بمؤثرات دولية خارجية تمتلك أدوات تنفيذ داخلية في إيران ساعدتها في إنجاح مشاريعها، وهذه الأسباب هي:

١/٧-الأسباب الداخلية

أبرز الأعمال التي قام بها محمد مصدق إلى جانب تنفيذ قرار تأميم النفط في البلاد، إفراجه عن السجناء السياسيين، وسماحه لجريدة مردم الناطقة بلسان الحزب الشيوعي بالصدور، وإطلاق الحريات العامة في البلاد، وإلغاء الأحكام العرفية، وإلغاء كافة القرارات التي أصدرتها اللجنة القانونية المتعلقة بقضية محاولة اغتيال الشاه عام ١٩٤٩م، وجاء ذلك نتيجة تحالفه مع حزب تودة، لكن هذا التحالف انهار بعد توجهات محمد مصدق قبول المعونة المالية التي قدمها الأمريكان، الأمر الذي ادخله في مواجهات مع حزب تودة واضعف موقفه داخليًا[٧١].

وخلال مدة تسلمه السلطة استطاع محمد مصدق أن يستعيد السلطة الدستورية، ويضع القوات المسلحة تحت سيطرته، من خلال تمسكه بحق تعيين وزير الدفاع ـ الذي كان يعين من قبل الشاه ليضمن ولاءه له ـ وبذلك تمكن مصدق من انتزاع هذا المنصب، وأعلن نفسه وزيرًا للدفاع، إضافة إلى كونه رئيسًا للوزراء، وقام بتعيين العميد تقي ريحاني رئيسًا لأركان الجيش، ومعاونًا له في وزارة الدفاع، وأمره بعدم العودة للشاه في الأمور المتعلقة بالجيش، وأن يحصر المرجعية في ذلك بشخص رئيس الوزراء، وهكذا يكون محمد مصدق قد ضمن إبعاد المؤسسة العسكرية عن التدخل لصالح الشاه في حال تطورت الأحداث أو بدت مستجدات على المشهد الإيراني[٧٢].

وتمكن محمد مصدق من إدارة البلاد بحرية أكبر، فقرر إعادة جميع الأراضي والإقطاعيات التي استولى عليها الشاه إلى أملاك الدولة، واقتطع نسبة من ميزانية البلاط الشاهنشاهي وضمها إلى ميزانية وزارة الصحة، واقتطع نسبة ١٥% من ميزانية الجيش وأودعها في خزانة الدولة، ووضع الجمعيات الخيرية الملكية تحت رقابة الحكومة، وزاد عدد فرق المشاة في الجيش، وقام بالتخلص من العناصر الموالية للشاه في المؤسسة العسكرية، فابعد ١٣٦ من القادة والضباط، ونقل ١٥ ألف من رجال الجيش إلى قوات الجندرمة، وأسس لجانًا مكونة من رجال البرلمان، للتحقيق في الفساد المنتشر في المؤسس العسكرية، ومنع اتصال الشاه بالدبلوماسيين المعتمدين في إيران، وعين أحد المقربين منه وزيرًا للقصر، وزاد عدد حراس الشاه، ليكون دائمًا تحت المراقبة[٧٣].

كما ساهمت التغييرات الاجتماعية التي قام بها محمد مصدق في انقسام الجبهة الوطنية، وابتعاد الكثير من مؤيديه عنه، وشملت هذه التغييرات تأميم الشركات الكبرى في البلاد، وخصوصًا شركات النقل والهاتف، وتعيين المفكرين الليبراليين المناهضين لرجال الدين في وزارتي العدل والتعليم، وتدبير تعاون مع حزب تودة، وأدت هذه التغييرات الاجتماعية التي لم يعهدها الإيرانيون من قبل، إضافة إلى الدور الإعلامي الذي قام به مناوئي محمد مصدق باتهامه بالعداء للإسلام، وأنه يسعى لإقامة دكتاتورية اشتراكية في البلاد، إلى زعزعة الوضع السياسي في إيران[٧٤].

كما أدت إجراءات محمد مصدق العدائية تجاه آية الله كاشاني، وعزله عن أمور الدولة، وتجاهله لخدماته التي قدمها له، وبفضلها استطاع أن يصل إلى رئاسة الوزراء، إلى أن يكون وحيدًا عندما قرر مناوئيه القضاء عليه وإسقاط حكومته، لأن أول ما قاموا به هو القضاء على حلف مصدق مع جماعة فدائيان إسلام، وبذلك تمكنوا من القضاء عليه بسهولة[٧٥].

ومن الأسباب التي أدت إلى ظهور الخلافات بين محمد مصدق وآية الله كاشاني، الفارق الكبير بين رؤية كل منهما للأوضاع السياسية، وطريقة إدارة شؤون البلاد، فمحمد مصدق رجلاً وطنيًا ولاؤه الأساسي للدولة، والدين عنده مجرد أداة لدعم هذا الولاء، في حين كان آية الله كاشاني رجل دين، يرى أن الدين هو القاعدة الأساسية لكل عمل تقوم عليه الدولة، فكان يسعى إلى تنفيذ كل ما ينبغي من إصلاحات في ظل هذا الإطار، لهذا كان اعتراض آية الله كاشاني على قرارات وإجراءات محمد مصدق التي بدت له أنها في إطار السياسات والمذهبيات العلمانية[٧٦].

أدت الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي عاشتها إيران بعد قرار تأميم النفط، وعدم قدرة حكومة محمد مصدق إيجاد حلول سريعة للاستفادة من ثروة البلاد النفطية، إلى إصابة الإيرانيين باليأس، ولم يجد محمد مصدق أمامه من خيار غير طمأنة الشعب بقرب حل الأزمة، من خلال استئناف المفاوضات مع بريطانيا، وتهديدها بإخراج من بقي من رعاياها في المواقع النفطية، والتعاقد مع شركات نفطية أخرى لاستثمار النفط الإيراني[٧٧]، لكن هذه الجهود لم تنجح وشكلت سيطرة القوات

البحرية البريطانية على الخليج العربي وخليج عدن ضربة قوية للاقتصاد الإيراني من خلال منع تصدير النفط الإيراني.

وقد يكون وصف محمد مصدق بأنه "مخلصًا للغاية ووطني ومناضل لحقوق الشعب الإيراني لكنه كان فاشلاً من وجهة النظر العملية السياسية إذ لم يكن لديه فكرة عن التنظيم والإدارة"[٧٨]، صحيحًا إلى حد ما، وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال النتيجة التي قادت إلى وصول إيران إلى هذه الحالة السياسية والاقتصادية الصعبة التي تعزى لعدم قدرة محمد مصدق على التعامل بالمرونة السياسية والإدارية التي تتطلبها الضرورات في إدارة الأزمات، وبقي متعصبًا لقرار تأميم النفط، ومنحازًا للمطالب الشعبية الانفعالية في هذا الاتجاه، ولم يقدم تنازلات تكسب قضيته إمكانيات النجاح من خلال تحقيق صيغة تفاهم قابلة للتطبيق لكل من الدولة الإيرانية وشركة النفط ومن وراءها بريطانيا، عندما سنحت الفرصة لذلك.

٢/٧-المؤثرات الخارجية

لم يكن في حسبان محمد مصدق أن من سيخطط للانقلاب عليه وإسقاط حكومته هم الأمريكان، فقد كان حرص الأمريكان على التخلص من حكم محمد مصدق متزايدًا بعد ملاحظتهم التقارب الكبير بين محمد مصدق وحزب تودة، وقلقهم من تطور هذا التقارب لإقامة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي، يمكن أن تساهم في إيجاد فرصة مناسبة للتغلغل السوفيتي في إيران[٧٩]، إضافة إلى حصول الأمريكان على معلومات استخبارية تفيد بأن البريطانيين على وشك القيام بعملية سرية لإسقاط حكومة محمد مصدق، لذا سارع الأمريكان في تنفيذ خطتهم بالإطاحة بحكومة محمد مصدق؛ حتى لا يدعوا فرصة لنجاح البريطانيين في هذه المهمة، الأمر الذي يترتب عليه استئثار البريطانيين بالسيطرة على مقدرات إيران الاقتصادية، والحد من النفوذ الأمريكي في إيران[٨٠].

وتم هذا الأمر للأمريكان من خلال تنفيذ عملية سرية وسريعة تديرها وكالة المخابرات المركزية (CIA) Central Intelligence Agency، بالتعاون مع جهاز الاستخبارات البريطاني (SIS) Secret Intelligence Service وعرفت هذه العملية عند الأمريكان باسم عملية أجاكس (TPAJAX)[٨١]، وعند البريطانيين باسم عملية الإطاحة (Boot)[٨٢]، وتمكن البريطانيون من التمهيد لهذه العملية من خلال استغلال شبكة الاستخبارات القوية التي كانت تمتلكها شركة النفط، إضافة إلى دور مكتب المعلومات المركزي في تعبئة الشارع الإيراني، وقام الأمريكان بدورهم باستمالة القبائل الإيرانية التي كانت تستفيد من أعطيات شركة النفط[٨٣].

وتبرز أهمية الدور الأمريكي في تنفيذ خطة الإطاحة بحكومة محمد مصدق نتيجة بقائهم في إيران في حين فرضت الظروف السياسية والأمنية على البريطانيين إغلاق سفارتهم في طهران، وهنا أصبح تحركهم الاستخباري صعبًا قياسًا بالوجود الاستخباري الأمريكي، والذي كان وقتها يعتبر أنه في موقف الحياد أو حالة عدم التدخل بالشأن الإيراني من وجهة النظر الرسمية لحكومة محمد مصدق[٨٤]، وتقوم الخطة الأمريكية (أجاكس) على أربعة أركان هي:

١. تحويل برنامج الدعاية السياسية (BEDAMN)[٨٥]، ضد رئيس الوزراء الإيراني محمد مصدق.
٢. تحريض البرلمانيين لمعارضة رئيس الوزراء محمد مصدق.
٣. استشارة الشاه محمد رضا بهلوي في إسقاط حكومة محمد مصدق وتعيين الجنرال فضل الله زاهدي[٨٦] بدلاً منه رئيسًا للوزراء.
٤. التعاون مع ضباط الجيش الموالين للشاه محمد رضا بهلوي، والمعارضين لمحمد مصدق[٨٧].

وللقيام بهذه المهمة تم اختيار ضابط المخابرات الأمريكية جون والر John Waller لإدارة العملية من واشنطن Washington، واختير كيرمت روزفلت Kermit Roosevelt الذي كان يرأس إدارة الشرق الأدنى وآسيا في المخابرات المركزية الأمريكية، لإدارة العملية من طهران[٨٨].

بدأ كيرمت روزفلت تحضيراته الفعلية للقيام بهذه المهمة منذ اليوم الخامس والعشرين من شهر حزيران/ يونيو ١٩٥٣م[٨٩]، وكان الاسم المستعار الذي عرف به لدى المتعاونون الإيرانيون مع المخابرات الأمريكية ـ جيمس لوكريدج James Lockridge ـ وينادونه اختصارًا (جيم)، وتضمنت العملية شن حملة نفسية مكثفة ضد محمد مصدق والإعلان عن طرد الشاه محمد رضا بهلوي من منصبه، وتكليف الوحدات العسكرية المتعاونة مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية أن يقضوا على أي محاولة للمقاومة من جانب محمد مصدق، ويتلو ذلك إعلان تعيين الجنرال فضل الله زاهدي رئيسًا للوزراء من قبل الشاه محمد رضا بهلوي[٩٠].

ولتحريك الشارع الإيراني ضد حكومة محمد مصدق، استفاد الأمريكيين من خدمات الإخوان (بوسكوس) الإيرانيين والذين يعملون لصالحهم، وثلاث إخوان آخرين هم إخوان الرشيد عملاء الاستخبارات البريطانية، وتم تحريض الممثل والرياضي الإيراني

شعبان جعفري، إضافة لرجال الدين الإيرانيين، لإثارة الشارع الإيراني على حكومة محمد مصدق[٩١]، وتمكنت وكالة الاستخبارات الأمريكية من الوصول لبعض القيادات العسكرية الإيرانية والتفاهم معهم لإنجاح عملية إسقاط الحكومة الإيرانية[٩٢].

وحُددت ساعة الصفر لانطلاق العملية مع مساء يوم السبت ١٥/٨/١٩٥٣م، والتي يسبقها من ساعات الصباح مظاهرات ومسيرات شعبية تندد بحكومة محمد مصدق وترفع صور الشاه محمد رضا بهلوي، وعند بدء تنفيذ الخطة كان على العقيد نصيري قائد الحرس الملكي الإيراني أن يتوجه إلى منزل رئيس هيئة الأركان الجنرال تقي ريحاني ويقبض عليه، ثم يتوجه بالقوة التي بصحبته إلى منزل رئيس الوزراء محمد مصدق ويقبض عليه، لكن الخطة سُربت لمحمد مصدق واستطاع أن يحبط محاولة الانقلاب ويقبض على العقيد نصيري وبعض الضباط المتمردين، وفي صباح اليوم التالي أذاع محمد مصدق بيانًا رسميًا بما حدث وأعلن إفشال محاولة الانقلاب التي نظمها الشاه محمد رضا بهلوي بالتعاون مع عناصر أجنبية[٩٣].

وبعد فشل المحاولة في ١٥ آب/ أغسطس، واستكمالاً لمخطط الإطاحة بحكومة محمد مصدق نجح البريطانيون والأمريكيون في استمالة رجال الدين الإيرانيين إلى جانبهم، وذلك لضمان تحريك الشارع الإيراني عن طريق إثارة المشاعر الدينية، ضد حكومة محمد مصدق، وبرر آية الله كاشاني موقفه المناوئ لمحمد مصدق؛ بأنه عمل ضده حتى لا ينتخب رئيسًا لمجلس النواب، واتهم أحد أقرباء محمد مصدق بالتخطيط لاغتياله؛ لأنه كان يعتبره خصمًا لمحمد مصدق[٩٤].

وتشير بعض المعلومات إلى أن الأمريكان والبريطانيين نجحوا في الاتصال برجال الدين أمثال آية الله أبو القاسم الكاشاني، وآية الله بورجيردي، وآية الله بهبهاني، وأكدت أن الاتصال مع آية الله أبي القاسم الكاشاني كان لأكثر من مرة في عامي ١٩٥٢/ ١٩٥٣م، وأن استمالته هو والقادة الدينيين كانت مقابل الحصول على الأموال للانفصال عن تحالفهم مع محمد مصدق، والوقوف إلى جانب الشاه محمد رضا بهلوي[٩٥].

وكانت عملية (أجاكس) تتضمن تعاون آية الله بهبهاني في إرسال رسائل مزورة تحمل ختم حزب تودة ومكتوبة بالحبر الأحمر تحتوي على تهديدات شديدة بشنق الملالي على أعمدة الكهرباء في مختلف المدن الإيرانية، وهذه الخدمات التي يقدمها آية الله بهبهاني للأمريكان والبريطانيين تكون مقابل حصوله على المال منهم، كما عملت المخابرات الأمريكية على التعاون مع صحفيين مثل كينيت لوف، من صحيفة نيويورك تايمز، ودون شويند من صحيفة الاسوشيتدبرس، للترويج لدعايتهم[٩٦]. وتضمنت الخطة إجراء عددًا من التفجيرات الوهمية بالقنابل لعدد من بيوت الملالي بأيدي أشخاص يدعون الانتساب لحزب تودة[٩٧].

وفي صباح يوم الأربعاء ١٩ آب/ أغسطس، كانت خطة كرمليت روزفلت بإعادة المحاولة من جديد للإطاحة بحكومة محمد مصدق، حيث تم تنظيم مسيرات ومظاهرات كبيرة استمرت حتى المساء، تنادي بهتافات الموت لمصدق، ولم يكن هناك مظاهرات مضادة لها؛ لأن مصدق اصدر تعليماته لرئيس الشرطة بمنع المظاهرات، وخاطب زعماء الأحزاب الموالية للحكومة وطالبهم البقاء في منازلهم؛ لأنه اعتقد أن المحاولة الانقلابية فشلت، ولن تتبعها محاولات أخرى، وكان كل ما يشغل فكره هو الإجراءات التي يجب أن تتم بعد فرار الشاه محمد رضا بهلوي من البلاد، فكانت هذه فرصة سانحة للانقلابيين لإعادة المحاولة وحصار محمد مصدق والقبض عليه، ونجحوا في ذلك يوم الخميس ٢٠ آب / أغسطس، وقُدم محمد مصدق للمحاكمة وحكم بالسجن لمدة ثلاثة أعوام، وبعد أن قضى مدة حكمه في السجن أفرج عنه، وألزم بالإقامة الجبرية في منزله في أحمد آباد، وبقي هناك حتى وفاته في ١٩٦٧/٣/٥م، عن عمر ناهز الخمسة وثمانون عامًا[٩٨].

خاتمةٌ

عاشت إيران ثمانية وعشرين شهرًا شكلت تجربة تاريخية من الصراع بين القوى السياسية الداخلية والقوى العظمى، وما يتبع لها من نفوذ في الأوساط السياسية الداخلية، فالوعي السياسي للمواطن الإيراني دفعه للمطالبة باتخاذ قرار تأميم القطاع النفطي في البلاد، آملاً من ذلك الحصول على عائدات الإنتاج النفطي، واستثمارها في التنمية، وخدمة مصالح الدولة الإيرانية.

وما إن اتخذت الحكومة الإيرانية قرار تأميم القطاع النفطي رسميًا وجرت المصادقة عليه في ١٩٥١/٥/١م، حتى بدأت المشاكل تحيط بإيران من كل الاتجاهات، فالإيرانيون كانوا عاجزين بمفردهم عن استخراج النفط من الآبار، وتشغيل خطوط الإنتاج، وعملت بريطانيا على تعزيز وجودها العسكري في مدخل الخليج العربي، في إشارة إلى محاصرة إيران ومنعها من تصدير النفط.

وعلى الصعيد السياسي دخلت إيران في مفاوضات متعاقبة لتبرير موقفها من قرار التأميم، واستطاعت بريطانيا أن تخرج نطاق الخلاف مع إيران من الشأن الداخلي ــ على اعتبار أن الشركة الأنجلو إيرانية للنفط، شركة ذات جنسية إيرانية من وجهة نظر إيران ـ إلى النطاق الدولي على اعتبار القدرة السيادية لبريطانيا، وعرضت القضية على المحكمة الدولية ومن ثَمَّ على مجلس الأمن، لكن في كلا المرتين أعيدت لعدم الاختصاص والولاية القانونية لمثل هذه القضايا.

وفي نهاية المطاف وصلت الأحوال الاقتصادية في إيران إلى حالة من التردي والضعف كان يصعب معها الاستمرار الشعبي في تأييد قرار تأميم القطاع النفطي، لعجز الحكومة الإيرانية في إيجاد حلول أو بديل يمكن الاعتماد علية في استثمار الإنتاج النفطي، فوقعت الحكومة بكل سهولة في انقلاب مدبر تم إدارته من قبل المخابرات المركزية الأمريكية، والمخابرات البريطانية، وتحالف بعض القوى الداخلية، أسفر عن الإطاحة بحكومة محمد مصدق، الذي كان أكثر أنصار حركة تأميم القطاع النفطي، ومنفذ قرار التأميم لقطاع النفط الإيراني.

الاحالات المرجعية:

(١) أعلن الشاه رضا بهلوي في العام ١٩٣٥م، أن الاسم الرسمي للدولة هو (إيران)، وهو الواجب استخدامه في مخاطباتها الرسمية في الداخل وفي تعاملاتها ومخاطباتها مع دول العالم كافة، وقد أشارت الحكومة إلى أن تسمية (فارس) ترتبط بمقاطعة فارس، بينما إيران تستحضر عظمة الآريين القدامى، وتضمن قرار الشاه رضا بهلوي أنه لن يسمح باستخدام اسم (بلاد فارس)، وأمر برد أي خطاب رسمي يرد للدولة ويكون معنونًا لبلاد فارس إلى الجهة التي أرسلته دون أن يفتح، حول قرار تغيير التسمية انظر: كينزر، ستيفن، **أتباع الشاه انقلاب أمريكي وجذور الإرهاب في الشرق الأوسط**، ترجمة: سهى الشامي، مدينة نصر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط(٢)، ٢٠١٤، ص ٨٥، ٨٦؛ إبراهيميان، أرنولد، **تاريخ إيران الحديث**، ترجمة: مجدي صبحي، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والآداب، ٢٠١٤، ص ١٢٥.

(٢) كينزر، **أتباع الشاه**، ص ٩٠.

(٣) **عبادان**: مدينة إيرانية تقع في الجزء الجنوبي الغربي من إيران وتبعد عن العاصمة طهران ٩٥٠ كم، تم بناء أكبر مصفاة للنفط فيها، بعد اكتشاف النفط في إيران، ومدت لها أنابيب النفط من حقول النفط الموجودة في مدينة مسجد سليمان، على بعد ٢٩٠ كم، وأصبحت المدينة تضم أكبر مرفأ تجاري في إيران لخدمة عمليات تصدير النفط، وأقيمت في المدينة مصانع الكيماويات والبترو كيماويات والبلاستك التي تقوم على خامات النفط، انظر: أبو حجر، آمنة، **موسوعة المدن الإسلامية**، عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع، ط(٢)، ٢٠١٠، ص ١٦٣، ١٦٤.

(٤) ولبر، دونالد، **إيران ماضيها وحاضرها**، ترجمة: عبدالنعيم محمد حسنين، القاهرة، لبنان: دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ط(٢)، ١٩٨٥، ص ١٣٣.

(٥) أوكنوز، ريتشارد، **بارونات النفط**، ترجمة: يونس شاهين، بيروت: مركز الطباعة الحديثة، (د.ت)، ص ١٨٩.

(٦) لونزوسكي، جورج، **البترول والدولة في الشرق الأوسط**، ترجمة نجدة هاجر وإبراهيم عبد الستار، بيروت: المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، ١٩٦١، ص ١٦.

(٧) العلواني، إياد كاظم جاسم، **بريطانيا ـ إيران الأزمة حول اتفاقيات النفط ١٩٣٣- ١٩٥١**، مجلة كلية التربية بالإسكندرية، مصر، مجلد ٢٣، عدد ٤، ٢٠١٣، ص ١٦١.

(٨) **مسجد سليمان**: مدينة إيرانية تقع في إقليم خوزستان، وتبعد عن جنوب غرب العاصمة طهران مسافة ٧٩٥كم، اشتهرت المدينة بعد اكتشاف النفط فيها بالصناعات الكيماوية والبترو كيماوية والصناعات البلاستيكية، وترتبط بالمدن الإيرانية الأخرى بشبكة متطورة من المواصلات والاتصالات، وتربطها بميناء عبادان خطوط أنابيب النفط، للمزيد انظر: أبو حجر، **موسوعة المدن الإسلامية**، ص ١٧٤.

(٩) أوكنوز، **بارونات النفط**، ص ١٩٢، ١٩٣.

(١٠) العلواني، **الأزمة حول اتفاقيات النفط**، ص ١٦١، ١٦٢.

(١١) العلواني، **الأزمة حول اتفاقيات النفط**، ص ١٦٣.

(١٢) المرجع نفسه، ص ١٦٥.

(١٣) المرجع نفسه، ص ١٦٦.

(١٤) ولبر، **إيران ماضيها وحاضرها**، ص ١٣٣؛ العلواني، الأزمة حول اتفاقيات النفط، ص ١٦٦، ١٦٧.

(١٥) بعد قرار الشاه رضا بهلوي إطلاق اسم إيران على الدولة أصبح اسم شركة النفط الأنجلو - فارسية، شركة النفط الإنجلو - إيرانية Anglo-Iranian Oil Company (AIOC)، وأجبرت الشركة في العام ١٩٣٨، على كتابة واجهات بواخرها باللغة الفارسية بعد أن منعها من استخدام اللغة الانجليزية، وخلال هذه الدراسة سيتم الإشارة لها اختصارًا باسم شركة النفط، للمزيد حول تغيير التسمية انظر: كينزر، **أتباع الشاه**، ص ٨٥؛ إبراهيميان، **تاريخ إيران الحديث**، ص ١٢٥؛ السبكي، آمال كامل، **تاريخ إيران السياسي بين ثورتين ١٩٠٦- ١٩٧٩**، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والآداب، ١٩٩٩، ص ٨٨.

(١٦) كاتوزيان، هوما، **مصدق والصراع على السلطة في إيران**، ترجمة الطيب الحصني، بيروت: جداول للنشر والتوزيع، ٢٠١٤، ص ١١٧.

(١٧) العلواني، **الأزمة حول اتفاقيات النفط**، ص ١٧٤.

(١٨) كاتوزيان، **مصدق والصراع على السلطة**، ص ١٢٢.

(١٩) **علي منصور المولكي**: رئيس وزراء إيران خلال المدة الواقعة بين آذار/ مارس ١٩٥٠م، إلى حزيران/ يونيو ١٩٥٠، وهو من مواليد العام ١٨٨٨، عمل بمنصب سكرتير ثاني في كل من وزارتي الخارجية والداخلية، وشغل منصب والي أذربيجان ١٩٢٦ و١٩٤١م، ثم عين وزيرًا للداخلية، وفيما بعد أصبح الحاكم العام لخراسان، ثم أذربيجان. انظر: البكاء، طاهر خلف، **التطورات الداخلية في إيران ١٩٤١- ١٩٥١**، بغداد: بيت الحكمة، ٢٠٠٢، ص ٢٥٦، ٣١٣.

(٢٠) **محمد مصدق** (١٨٨١- ١٩٦٧): من أبرز الشخصيات السياسية القيادية الإيرانية، وقائد الجبهة الوطنية الإيرانية، اجبره الشاه رضا بهلوي على التقاعد من العمل الحكومي نتيجة معارضته لوصول الأسرة البهلوية للحكم وإقصاء الأسرة القاجارية عن حكم إيران، ولم يتمكن من العودة لممارسة النشاط السياسي إلا بعد تنازل الشاه رضا بهلوي عن الحكم في العام ١٩٤١م، وكان مصدق أكثر المدافعين عن مسألة تأميم النفط الإيراني، وانتخب لرئاسة الوزراء في إيران في العام ١٩٥١م، وبقي في الحكم إلى أن أسقطت حكومته في العام ١٩٥٣م، وأُدخل السجن ومن ثم فرضت عليه الإقامة الجبرية حتى توفي في العام ١٩٦٧م، انظر: إبراهيميان، **تاريخ إيران الحديث**، ص ٢٧٦، ٢٧٧.

(٢١) أما بقية أعضاء اللجنة فهم: مكي، وهايرزاده، وشايغان، وصالح، وهؤلاء الأربعة أعضاء في الجبهة الوطنية التي يتزعمها محمد مصدق، وكان إلى جانبهم في عضوية اللجنة أيضًا جمال إمامي، وحسن علوي، وناصر ذو الفقار، وخسرو قاشقايي، وسيد علي بهبهاني، وجواد غنجهي، وجواد أميري، وفرماروي، وقاسمي، وفقيزاده، وباليزي، وهدايتي، وسارتيب زاده، انظر: كاتوزيان، **مصدق والصراع على السلطة**، ص ١٥٠.

(٢٢) كاتوزيان، **مصدق والصراع على السلطة**، ص ١٥٠، ١٥١.

(٢٣) **علي رزمارا**: رئيس وزراء إيران خلال المدة الواقعة بين حزيران/ يونيو ١٩٥٠م، إلى آذار/ مارس ١٩٥١م، وهو من مواليد العام ١٩٠١م، عين رئيسًا لأركان الجيش الإيراني أول مرة في العام ١٩٤٤م، وفي خريف العام ١٩٤٦م، قاد حملة عسكرية قضى من خلالها على حكومة أذربيجان الديمقراطية، وعرف عنه أنه ذو نزعة دكتاتورية، وشخص قوي الإرادة، وعين مرة أخرى رئيسًا لأركان الجيش ليشرف على مد نفوذ الجيش، وتوسيع سيطرته على مختلف دوائر الدولة في البلاد، انظر: البكاء، **التطورات الداخلية في إيران**، ص ٢٦١، ٣١٣.

(٢٤) **خليل طهماسب**: "كان يعمل نجارًا ويبلغ من العمر ٢٦ سنة، اعتقل فور تنفيذ عملية الاغتيال، لكن السلطات الإيرانية أطلقت سراحه تحت تهديد فدائيين إسلام والكاشاني،وفي عهد حكومة مصدق لقب البطل القومي، لكنه اعتقل في آب ١٩٥٣م، ونفذ فيه حكم الإعدام"، انظر: البكاء، **التطورات الداخلية في إيران** ، ص٢٧٢.

(٢٥) **أبو القاسم الكاشاني** (١٨٨٢- ١٩٦٣): أحد الزعماء الدينيين البارزين في إيران، فر من إيران إلى العراق في العام ١٩٢١م، بعد الحكم عليه بالإعدام لمواقفه المناهضة للاستعمار البريطاني، ومواقفه المعارضة لشاه إيران، وفي العام ١٩٥٠م، عاد إلى إيران، وأصبح عضوًا في البرلمان الإيراني، وكان يرى أن علماء الدين مطلوب منهم القيام بدور سياسي لأن الشريعة الإسلامية لها دور اجتماعي مهم تقوم به في المجتمع، وكانت له مشاركة في تأجيج المشاعر الدينية للإيرانيين للوقوف في صف قرارات حكومة محمد مصدق لتأميم النفط الإيراني، ثم انقلب عليه، وكان له دور في إثارة الشارع الإيراني ضده، انظر: الموصلي، أحمد، **موسوعة الحركات الإسلامية في الوطن العربي وإيران وتركيا**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط(٢)، ٢٠٠٥، ص ٣٧٠.

(٢٦) العلواني، **الأزمة حول اتفاقيات النفط**، ص ١٧٦، ١٧٨.

(٢٧) أوكنور، **بارونات النفط**، ص ٢٦٢.

(٢٨) الجاف، حسين كريم، **موسوعة تاريخ إيران السياسي**، مجلد(٤)، بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٨، ص ١٨٥، ١٨٦.

(٢٩) العلواني، **الأزمة حول اتفاقيات النفط**، ص ١٧٦، ١٧٨.

(٣٠) **حسين علاء**: رئيس وزراء إيران خلال المدة الواقعة بين آذار/ مارس ١٩٥١م، إلى نيسان/ ابريل ١٩٥١م، وهو من مواليد العام ١٨٨٤م، من عائلة إيرانية بارزة، عمل في السلك الدبلوماسي، شغل عدة مناصب وزارية كان أولها وزيرًا للأشغال العامة في العام ١٩١٨م، وشغل عضوية مجلس النواب الخامس وكان معارضًا لإلغاء حكم السلالة القاجارية، وشاركه في موقفه هذا محمد مصدق، انظر: البكاء، **التطورات الداخلية في إيران**، ص ٢٧٦، ٣١٣.

(٣١) الجاف، **موسوعة تاريخ إيران السياسي**، ص ١٨٧.

(٣٢) العلواني، **الأزمة حول اتفاقيات النفط**، ص ١٧٨.

(٣٣) **الشاه محمد رضا بهلوي** (١٩١٩-١٩٨٠): وصل إلى الحكم بعد تنازل والده عن الحكم، نتيجة الضغوط البريطانية والسوفيتية عليه خلال الحرب العالمية الثانية في العام ١٩٤١م، وتعززت سلطه الشاه محمد رضا بهلوي بشكل كبير بعد إسقاط حكومة محمد مصدق في العام ١٩٥٣م، واستمر في الحكم حتى اندلاع الثورة الإسلامية الإيرانية في العام ١٩٧٩م، وكانت وفاته في العام التالي بمرض السرطان، انظر: إبراهيميان، **تاريخ إيران الحديث**، ص ٢٧٣، ٢٧٤.

(٣٤) كينزر، **أتباع الشاه**، ص ١٤٢.

(٣٥) الموسوي، ربيع حيدر، والقصير، حسين محسن هاشم، **أثر الخلاف البريطاني ــ الإيراني على العلاقات الأنجلو ــ أمريكية ١٩٥١- ١٩٥٣**، مجلة القادسية في الآداب والعلوم، جامعة القادسية، العراق، مجلد ١٧، العدد ٣، سنة ٢٠١٧، ص ١٣٥.

(٣٦) القمص، بيشوي، **لا أحد يتعلم من التاريخ**، القاهرة: دار كيان للنشر والتوزيع، ٢٠١٧، ص ١١٥.

(٣٧) هيكل، محمد حسنين، **مدافع آية الله قصة إيران والثورة**، القاهرة: دار الشروق، ط(٦)، ٢٠٠٠، ص ٨٠.

(38) McMurdo, Torey L. The United States, Britain, and the Hidden Justification of Operation TPAJAX. CIA Studies in Intelligence, 2012, 56: 2, p 16, 22.

(٣٩) أوكنوز، **بارونات النفط**، ص ٣٦٤، ٣٦٦.

(٤٠) عجة، حسنين عبد الكاظم، **تجربة تأميم النفط الإيراني ١٩٥١-١٩٥٣ بين التحديات الداخلية والضغوط الخارجية (دراسة في وثائق البلاط الملكي العراقي)**، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة واسط، العراق، العدد٩، سنة ٢٠١٢، ص ٢٣٢.

(٤١) إبراهيميان، **تاريخ إيران الحديث**، ص ١٦٥.

(٤٢) **عدن**: مدينة يمنية على ساحل خليج عدن وهي ميناء بحري مهم، تبعد عن جنوب العاصمة اليمنية صنعاء مسافة ٤٢٠ كم، انظر: شامي، يحيى، **موسوعة المدن العربية والإسلامية**، الكتاب الأول، بيروت: دار الفكر العربي، ١٩٩٢، ص ١٤٠.

(٤٣) الجاف، **موسوعة تاريخ إيران السياسي**، ص ٢٠٣، ٢٠٤.

(٤٤) غازي، وداد جابر، **تأميم النفط الإيراني، وتداعياته على العلاقات الدولية (١٩٥١- ١٩٥٣)**، مجلة آداب المستنصرية، الجامعة المستنصرية، عدد ٦٠، سنة ٢٠١٣، ص ١٥.

(٤٥) غازي، **تأميم النفط الإيراني**، ص ١٦.

(٤٦) **كورتيس**، مارك، **التاريخ السري لتآمر بريطانيا مع الأصوليين**، ترجمة: كمال السيد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط(٢)، ٢٠١٤، ص ٩٤.

(47) Margaret, Maj, Operation Ajax: A Case Study on Analyst-Policy Maker Tensions and the Challenges of Estimative Intelligence, Kansas: School of Advanced Military Studies United States Army Command and General Staff College Fort Leavenworth, Advanced Military Studies Program, 2015, p 47, 48.

(48) Ibid, p 34.

(49) Ibid, p 34.

(٥٠) الموسوي، والقصير، **أثر الخلاف البريطاني ـ الإيراني على العلاقات الأنجلو ـ أمريكية**، ص ١٣٥.

(٥١) غازي، **تأميم النفط الإيراني**، ص ٣٠.

(٥٢) الصياد، محمد محمود، **إيران تؤمم بترولها**، جريدة الثقافة، العدد ١٤٦، ٩/٤/ ١٩٥١، القاهرة، ص٤.

(٥٣) McMurdo, the Hidden Justification of Operation TPAJAX, p 21.

(٥٤) إبراهيميان، **تاريخ إيران الحديث**، ص ١٦٧.

(٥٥) السبكي، **تاريخ إيران**، نقلاً عن موسى صبري، أخبار اليوم، ص ١٧٠.

(٥٦) **حزب تودة**: حزب سياسي إيراني، أسست نواته بعد احتلال الحلفاء لإيران عام ١٩٤١م، ودخول السوفييت إلى شمال إيران، حيث قامت السلطات **السوفييتية** بالإفراج عن ٥٢ سجيناً كانوا يقضون محكوميتهم بموجب قانون ضد الشيوعية، حيث قامت هذه المجموعة بتأسيس حزب أطلقوا عليه اسم حزب تودة والتي تعني (جماهير الشعب) ولم يظهر في بداية تأسيسه عن عقيدته الشيوعية، وإنما تبنى مبادئ تتوافق مع الدستور الإيراني، وتمكن من جذب الكثير من المثقفين والأنصار في صفوفه، وكان الحزب ضالعًا في محاولة اغتيال الشاه عام ١٩٤٩م، ودخل في تحالف مع محمد مصدق عند تبني قرار تأميم النفط الإيراني، ثم مالبثت الخلافات تدب في هذا التحالف بعد التقارب الإيراني الأمريكي الذي بدأ ينتهجه محمد مصدق، للمزيد انظر: مهابة، أحمد، **إيران بين التاج والعمامة**، القاهرة: دار الحرية للصحافة والطباعة والنشر، ١٩٨٩، ص ٢٥، ٢٦، ٢٧.

(٥٧) الصياد، **إيران تؤمم نفطها**، ص٤.

(٥٨) العلواني، **الأزمة حول اتفاقيات النفط**، ص ١٦٩، ١٧٠.

(٥٩) بالمبر، مايكل، **حراس الخليج**، ترجمة نبيل زكي، القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٥، ص ٢٣.

(٦٠) ولبر، **إيران ماضيها وحاضرها**، ص ١٣٥.

(٦١) العلواني، **الأزمة حول اتفاقيات النفط**، ص ١٦٩، ١٧٠.

(٦٢)الصياد، **إيران تؤمم بترولها**، ص٤.

(٦٣) أبو دية، سعد سالم، أزمة **حكومة مصدق مع القوى الكبرى في الصحافة الأردنية والمصرية البداية والنهاية ١٩٥١- ١٩٥٣**، المجلة الثقافية، الجامعة الأردنية، الأردن، عدد ٥٦، سنة ٢٠٠٢، ص ١٥٦.

(٦٤) من الآراء التي طرحت في سبب إسقاط حكومة محمد مصدق في إيران موقفه من قضية الاعتراف الإيراني بإسرائيل، حيث عارض مصدق توجهات شاه إيران حيال هذه القضية، واستدعى مصدق سفراء الدول العربية وابلغهم أنه سوف يجد وسيلة لسحب الاعتراف الإيراني بدولة إسرائيل، انظر: مليحة، نبيلة محمود، **السياسة الأمريكية تجاه إيران ١٩٤٥- ١٩٨١**، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ٢٠١٢، ص ٧٤، نقلاً عن هاشم عمرو، تطور العلاقات الإسرائيلية الإيرانية.

(٦٥) **جماعة فدائيان إسلام**: جماعة دينية شيعية جماهيرية، أسسها مجتاب صفوي وهو أحد طلاب العلم الشرعي، وكان ظهور هذه **الجماعة** في السياسة الإيرانية عام ١٩٤٥م، بعد قيامها بقتل المفكر القومي الإيراني أحمد كسروي، الذي هاجم المؤسسة الدينية الشيعية، ومن أهم أهداف هذه الجماعة العمل على إقامة نظام ديني، يسعى لتطبيق الشريعة الإسلامية في كل أوجه الحياة، وكان لهذه الجماعة دور مهم في تأجيج الشارع الإيراني لدعم قرار حكومة محمد مصدق بتأميم النفط الإيراني، انظر: الموصلي، **موسوعة الحركات الإسلامية**، ص٣٥٧، ٣٥٨.

(٦٦) أبو دية، **أزمة حكومة مصدق**، ص ١٥٥.

(٦٧) بارزي، تريتا، **حلف المصالح المشتركة: التعاملات السرية بين إسرائيل وإيران والولايات المتحدة**، ترجمة أمين الأيوبي، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠٠٨، ص ١٦، ١٧.

(٦٨) شاكر، محمود، **التاريخ الإسلامي: التاريخ المعاصر إيران وأفغانستان**، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٩٥، ص ٧٩.

(٦٩) عليان، عليان محمد، **العلاقات الأمريكية الإيرانية بعد النصف الثاني من القرن العشرين**، برلين: المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، ٢٠١٧، ص ١٠٦.

(٧٠) بارزي، **حلف المصالح المشتركة**، ص ١٧.

(٧١) محمد، نعيم جاسم، **حزب تدودة الإيراني ودوره في الحياة السياسية الإيرانية ١٩٤١- ١٩٥٣**، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، مجلد (١٠)، عدد(١-٢)، ص ١٩٢، ١٩٣.

(٧٢) الجاف، **موسوعة تاريخ إيران السياسي**، ص ٢٢٣.

(٧٣) إبراهيميان، **تاريخ إيران الحديث**، ص ١٦٦.

(٧٤) السبكي، **تاريخ إيران السياسي**، ص ١٧٢.

(٧٥) البرقعي، آية الله العظمى السيد أبو الفضل الرضا، **سوانح الأيام أيام من حياتي**، تحقيق خالد البدوي، ومجموعة الموحدين، ترجمة سعد رستم، (د.م): دار العقيدة للنشر والتوزيع، ٢٠١٣، ص ٦٠.

(٧٦) عبدالسلام، شيماء محمد صبحي، **انقلاب أغسطس عام ١٩٥٣ وسقوط مصدق**، مجلة الشرق الأوسط، جامعة عين شمس، مصر، عدد٢٩، سنة ٢٠١١، ص ٦٦٧.

(٧٧) عجة، **تجربة تأميم النفط الإيراني**، ص ٢٢٥.

(٧٨) هيكل، **مدافع آية الله قصة إيران والثورة**، ص ٧٩.

(79) Roosevelt, Kermit, Countercoup: the struggle for the control of Iran, United States of America: Kermit Roosevelt, 1979, p 8.

(٨٠) مهابة، أحمد، **إيران بين التاج والعمامة**، القاهرة: دار الحرية للصحافة والطباعة والنشر، ١٩٨٩، ص ٥٢، ٥٣.

(٨١) دريفوس، روبرت، **لعبة الشيطان دور الولايات المتحدة في نشأة التطرف الإسلامي**، ترجمة: اشرف رفيق، تقديم ومراجعة مصطفى عبدالرزاق، القاهرة: مركز دراسات الإسلام والغرب، ٢٠١٠، ص ١٣١.

(٨٢) كينزر، **أتباع الشاه**، ص ٢٦٩.

(٨٣) دريفوس، **لعبة الشيطان**، ص ١٣١.

(84) Roosevelt, Countercoup, p 13.

(٨٥) **برنامج الدعاية السياسية** (BEDAMN)، والذي كان يجري من خلال شبكة يديرها اثنان من الإيرانيين اسميهما الحركيان نيرن Nerren وسيلي Cilly وكانت عملياته موجهة في بادئ الأمر ضد الاتحاد السوفيتي، وحزب تودة، وتضمن البرنامج استئجار عصابات الشوارع، لتفريق اجتماعات حزب تودة، وتمويل المنظمات المعادية للمنظمات الشيوعية، مثل حزب سومكا Somka وحزب الرابطة الإيرانية Pan- Iranist، انظر: عبدالسلام، شيماء محمد صبحي، **انقلاب أغسطس عام ١٩٥٣ وسقوط مصدق**، مجلة الشرق الأوسط، جامعة عين شمس، مصر، عدد٢٩، سنة ٢٠١١، ص ٦٧٩.

(٨٦) **الجنرال فضل الله زاهدي** (١٨٩٧- ١٩٦٣): أحد كبار ضباط الجيش الإيراني، تسلم حقيبة وزارية في حكومة محمد مصدق والتي كان له دور مهم في تنفيذ عملية إسقاطها بالتعاون مع الأمريكان عام ١٩٥٣م، وتسلم على إثر ذلك مهام رئيس الوزراء في البلاد، اعتمد عليه الأمريكيين وساهموا في اختياره لمنصب رئيس الوزراء؛ لما عرف عنه من العداء للبريطانيين، الذين سجنوه في العام ١٩٢٤م، بسبب ما وجه له من اتهامات بمحاولة الاتصال بالألمان، وعند وصوله للحكم بعد تنفيذ الانقلاب كان له دور مهم في إعادة تنظيم الحصص المكونة لشركة النفط، من خلال شركة متعددة الجنسيات كونسورتيوم consortium حيث حصلت الولايات المتحدة الأمريكية من خلال عملية التنظيم الجديدة على نسبة ٤٠% من الحصص، أسوة ببريطانيا التي قلصت حصتها من ١٠٠% إلى ٤٠%، فيما ذهبت الحصص الباقية والبالغة ٢٠% لشركات نفط هولندية، وفرنسية بنسبة ١٤% و٦% على التوالي، للمزيد انظر: إبراهيميان، **تاريخ إيران الحديث**، ص ٢٧٠؛ مهابة، **إيران بين التاج والعمامة**، ص ٧٥.

(٨٧) عبد السلام، **انقلاب أغسطس**، ص ٦٦٩.

(٨٨) دريفوس، **لعبة الشيطان**، ص ١٣٣.

(٨٩) Roosevelt, Countercoup, p 1.

(٩٠) كينزر، **أتباع الشاه**، ص ٤٠.

(٩١) دريفوس، **لعبة الشيطان**، ص ١٣٣؛ كورتيس، **التاريخ السري**، ص ٩٦.

(٩٢) Roosevelt, Countercoup, p 9.

(٩٣) كينزر، **أتباع الشاه**، ص ٥٠.

(٩٤) مهابة، **إيران بين التاج والعمامة**، ص ٨٥.

(٩٥) دريفوس، **لعبة الشيطان**، ص ١٣١، ١٣٣؛ كورتيس، **التاريخ السري**، ص ٩٦.

(٩٦) دريفوس، **لعبة الشيطان**، ص ١٣٤.

(٩٧) كورتيس، **التاريخ السري**، ص ٩٧.

(٩٨) كينزر، **أتباع الشاه**، ص ٢٤١- ٢٦٣.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

جُولْ مِيشْلِيه (Jules Michelet)
ووَحيُ الثورة الفرنسية



د. ياسين زينون
أستاذ متعاقد تاريخ معاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – عين الشق
جامعة الحسن الثاني – المملكة المغربية

مُلَخّص

شكّلت ثورة ١٧٨٩ حدثا مُهِمًّا في تاريخ العالم، فلقد ساهمت في الانحدار العالمي للمَلكيات المُطْلَقَةِ واستبدالها بالجمهوريات، ووَسَّعَ بعض وثائقها المركزية، مثل: "إعلان حقوق الفرد والمواطن" (١٧٨٩) مَجَالَ حقوق الإنسان ليشمل المرأة والعبيد، ممّا وفَّرَ الإطار المرجعي لحركات التّحرر والاقتراع العام في القرن العشرين. لقد غيّرت هذه الثورة المفاهيم السّياسية السّائدة؛ من ذلك "إقرارها النّهاية الفعلية للعصور الوسطى حين أطلقت رصاصة الرّحمة على النظام الإقطاعي، وإشعالها عَبْرَ حروب الثورة الفرنسية (١٧٩٢- ١٨٠٢) فتيل صراعات عالمية مسلّحة أعادت تشكيل الخريطة الجيوسياسية في العالم بأكمله، وبثُّها اللّيبرالية الرّاديكالية والقومية والاشتراكية ونصرتها المرأة والعلمانية من ضمن مفاهيم أخرى عديدة، وتأسيسها لصعود البورجوازية ونظام الحكم الدّيكتاتوري واعترافها بحقوق الطّبقة العاملة". لأجل كل ذلك، فما كان للعصر الحديث أن يرى النّور لولا الثورة الفرنسية التي نهلت من إرثها كل الثورات والحركات اللّاحقة، فيما لازالت قِيَمُها ومؤسساتها تهيمن على السّياسة الفرنسية حتى اليوم. فجول ميشليه Jules Michelet (١٧٩٨ -١٨٧٤) الذي وُلِدَ بُعَيْدَ الثورة الفرنسية واعتاد منذ صباه أن يرى فيها خلاص العالم أراد تدريسها للأجيال الجديدة كما تَوَسَّمَهَا: كإنجيل للعدالة والسّلام، لِذا صاغ مؤلّفه: "تاريخ الثورة الفرنسية" "Histoire de la Révolution française" (١٨٤٧ - ١٨٥٣) في قالب قصيدة ملحمية من سبعة أجزاء بطلها الشّعب وهو مُجَسَّدٌ في دانتون Danton (١٧٥٩-١٧٩٤). نعم، فقليلة هي مقاطع هذا الكتاب التي لم يَطَلْهَا النّقد التّاريخي، إلاّ أنّ فُصُولاً من قبيل "السّيطرة على حصن الباستيل"، و"احتفال الاتحاد"، تبقى لها الجمالية الخالدة للإبداعات الأدبية الكبرى. ولربّما يظل هذا المؤرخ الوحيد ضمن مؤرّخي الثورة الفرنسية الذي تَغَنَّى بالحماسة السّاذجة والرّائعة والأمل اللاّنهائي الذي غَمَرَ فرنسا وأوربا سنة ١٧٨٩. وتروم هذه المساهمة استجلاء بُعْدِ الوَحي الذي خَصَّ به ميشليه الثورة الفرنسية، وذلك وِفْقَ مقاربة نقدية تأويلية تَتَّبِعُ المنهج التاريخي وتعتمد أهم المصادر والمراجع في الموضوع.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٨	مايو	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٢٧	مايو	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:
الوحي؛ الثورة الفرنسية؛ جول ميشليه؛ تاريخ فرنسا؛ الجمهورية؛ الاشتراكية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.232599

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

ياسين زينون. "جُولْ مِيشْلِيه (Jules Michelet) ووَحيُ الثورة الفرنسية".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثاني والخمسون؛ يونيو ٢٠٢١. ص ٢٢٢ – ٢٣٧.

Corresponding author: zainoune.yassine@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةٌ

يعَـرَّفُ الـوحي لغـة بأنّـه: "الإعـلام في الخفـاء أو الإشـارة السّـريعة، والإيمـاء والصّـوت والكتابـة والسّرـعة والإشـارة والإلقاء في الرّوح بسرعة وشدّة ليبقى أثره في النفس"[١]. إنّها تحديدًا المعاني التي كانت لثورة ١٧٨٩ مع ميشليه؛ فالثورة من منظور هذا المؤرخ هي" وَحْيٌ أعطى شكلاً جديدًا للمجتمع وأَذِنَ بميلاد عُمْرٍ ثانٍ للإنسانية، وصدًى إنساني للعدالة والحقيقة واحتفال للتآخي وإضاءة لِمَا وراء الرّوح، وهي تجَلٍّ للشّعب وهو في ذِرْوَتِهِ وقد أصبح في النّهاية ذو سيادة، وحدثٌ لا مثيل له أَطَلَّ على التاريخ العالمي أَفضى إلى كَسْرٍ في لُحْمَةِ الأسباب والنّتائج وإلى انقطاع في المسار التّاريخي، ما جعله بحق ارتجاجا عظيما وعميقا كزلزال."[٢].

كانت ثورة ١٧٨٩ انبعاثًا لفرنسا، فمن الأعماق الخفية للرّوح الإنسانية صَعَدَتْ ترنيمة مجيدة أَلْغَتْ حقيقة أصبحت عقيمة واحتفلت بقدوم إنسانية جديدة؛ فعلى هذا النّحو تلقّت أوربا كلمة الثورة، كما تَلَقَّتْ الإمبراطورية الرّومانية منذ زمن بعيد الخطاب الإنجيلي، لِيُفْتَحَ بالتّالي طريق جديد صادفت فيه القرون اللاّحقة جدورا. لم تكن الثورة الفرنسية مُجَرَّدَ عَمَلٍ حَالَفَهُ النّجاح، بل برنامجا لم يُدْرِكْ فرنسيو القرن ١٩ إن كانوا قد أنجزوه على أكمل وجه، وحدثا أَضاء سنة ١٧٨٩ مَثَّلَ خطّا فاصلاً بين نهايةِ عُمْرٍ أَوَّلٍ "للطّبيعة" وعُمْرٍ ثانٍ "للمسيحية" وبدايةِ عُمْرٍ ثالث "للمدينة الكونية والمقدّسة"[٣]. فما "الثّورة الوحي" من منظور ميشليه؟

أولاً: ثورة ١٧٨٩ أوِ العُمْرُ الثّالث

١/١-يَقِينٌ مُضْمَرٌ

غداة ثورة يوليوز المُصادرة[٤] تقاسم ميشليه[٥] القلقَ والفُضُولَ الرُّوحيان اللّذان يميّزان "مَرَضِ القرن" " Le Mal du siècle"[٦] وزَمَنَ ديوان "أغاني الشفق" " Les Chants de crépuscule"[٧] حيث يذيب هيجو Victor Hugo (١٨٠٢-١٨٨٥) الأسطورة. فإذا كان ميشليه قد تَعَلَّمَ من تيودور جوفروي Théodore Jouffroy (١٧٩٦- ١٨٤٢) "كيف تنتهي العقائد"[٨]، فهو لا يعتقد أن "الغرق الكوني للعقائد"[٩] يُعْلِنُ عن موت الله وعن عهد "اللاّمبالاة في مجال الدّين". لقد أَيَّدَ من جانبه وعن طيب خاطر السّؤال التالي الذي طرحه سانت بوف Sainte Beuve (١٨٠٤-١٨٦٩) على تلميذ ڤيكتور كوزان Victor Cousin (١٧٩٢- ١٨٦٧) تيودور جوفروي: "من قال لكم أن هذه الإيحاءات السّابقة، الحقيقية على مَرِّ الزّمن، والتقدمية على غرار الجنس البشري والتي هَذَّبَتْهُ وحوَّلته، لا ينبغي لها جميعُها أن تلتقي وتُحقق وَحْيًا نهائيا (...) سوف يُعفِي ويُعَظِّمُ الخالق، ويُسَكِّنُ ويُفْرِحُ البشرية؟"[١٠].

لاعتقاده أن بمقدوره الاستغناء عن أيّ شفيع لم يَكُنْ ميشليه لينتظر هذا الوحي "النّهائي" من القساوسة الفرنسيين حتّى وإن قَبِلَ المشاركة في إحدى الشّعائر الدّينية التي كان يترأسها الأب أونفونتان le Père Enfantin (١٧٩٦ - ١٨٦٤) بزنقة مينيلمونتان Ménilmontant. كمؤرخ، فهو يُحِسُّ أنّ بمقدوره الكشف بنفسه في مجرى الأحداث عن علامات عودة للمسيح شبيهة بتلك التي يُعْلِنُ عنها "الكتاب المقدّس" "l'Écriture"[١١] ؛ إلاّ أنها في نظره ليست مرادفة لعودة المسيح الموعود ليوم القيامة. فاستنادا إلى تعاليم جواكيم دوفلور"Joachim de Flore" (حوالي ١١٣٠ أو ١١٣٥-١٢٠٢) حتّى وإن لم يَذْكُرْ اسمه بعد يُعلن ميشليه في كتابه: "التّاريخ الرّوماني" "l'Histoire Romaine" (١٨٣١) عن انتظار عُمْرٍ ثالث للعالم سَيَلِي العهد المسيحي قائلا: "يَلْزَمُ ثلاثة قرون، ليَتِمَّ ترويض إله الطّبيعة من طرف إله الرّوح (...) هذا العُمْرُ الثّاني للعالم الذي بدأ مع الإمبراطورية (أي الإمبراطورية الرّومانية)، فهناك أحيانًا ألف عام، بدو أنّه سينتهي (أي العُمْر الثاني للعالم). آه! فإذا كان الأمر كذلك، فليأتِ الثّالث بسرعة إذن، وأسأل الله أن يُبقينا عالقين لوقت أقل بين العالم الذي ينتهي وذاك الذي لم يبدأ."[١٢]

تستندُ ثِقَةُ هذا المؤرخ في قدوم عُمْرٍ ثالث إلى ترجمته الجزئية لأيّام ثورة يوليوز ١٨٣٠ الفُجائية والإجماعية والفعّالة والسّلمية، بعد أن رأى في تَمَرُّدِ شعب باريس معجزة: إذ يشير في مؤلفه: "مدخل إلى التّاريخ العالمي" "Introduction à l'histoire universelle" (١٨٣١) إلى وحي جديد هو "الكلمة الاجتماعية" "Verbe Social" التي ستقيم باسم "المساواة أمام الله" "المدينة"[١٣] الشّاملة والمقدّسة"[١٤] . لقد خصَّ ميشليه الظّاهرة الثورية بهَيْبَةٍ روحانية تُمَيِّزُهَا عن غيرها من الوقائع التّاريخية الأخرى ودوّنها تلقائيا في سجلٍّ المَلْحَمَةِ، ففي حديثه عن ثورة ١٨٣٠ كتب يقول: "تُطْلِقُ لسانَ الشعبِ العبقرية المقدّسة للمجتمع. لاسيما أثناء الخطر، لَمَّا أضاءت شَمْسٌ ليوليوز الاحتفال، لَمّا أجابت النّار النّار، لمّا انساب الرّصاص والموت وعَاوَدَا الانسياب؛ عندئذ أصبح الغباء بليغا، والجُبْنُ شجاعا؛ فتفكك هذا الغبار الحيّ وَلَمَعَ، وأصبح جميلا بشكل رائع"[١٥]، ثورة يوليوز هذه التي ساهمت في نجاحها الصّحوة القويّة لذكرى أيام الثورة الفرنسية، وهي الذّكرى التي

رسّخها لدى ميشليه والده جون فرانسوا فورسي ميشليه Jean François Furcy Michelet (١٧٧٠ - ١٨٤٦) المنتمي إلى السانزكيلوت Les sans culottes [١٦].

مع ذلك يتأخّر "الوحي الجديد" في ترسيخ مكانه في مؤلّفات هذا المؤرخ؛ فكتابه الضّخم : "تاريخ فرنسا" " de France Histoire" (١٨٣٣ و١٨٦٧) يفرض صبرًا طويلاً يبعث معه بُعْدُ ١٧٨٩ كهدف نهائي على اليأس؛ يُعزا ذلك بالأساس إلى الحنين الذي يُغَذِّي "بَعْثَ" المسيحية الوسيطية وعظمتها لدى ميشليه؛ والذي يمنعه من تَبَنِّي أطروحات مارتن لوتر Martin Luther (١٤٨٣- ١٥٤٦) على الرغم من كل التقدير الذي يُكِنُّهُ لهذا المصلح؛ فهو لا يريد في عام ١٨٣٥ أن يُحرج الكنيسة أو "الأمُّ العجوز للعالم المعاصر" [١٧] على حد تعبيره. فإذا كان هذا المؤرخ قد بات يدخُلُ سنة ١٨٤١ في خانة "الفلاسفة والمُفَكِّرِينَ" فإن تفكيره بالاجتماع الفِصحي للمؤمنين [١٨] الذي حُرِمَتْ منه جان دارك Jeanne d'Arc (حوالي ١٤١٢-١٤٣١) المحتجزة قد اسْتَلَّ منه مع ذلك الاعتراف التّالي: "مُؤْمِنُ المستقبل الذي لايَطَّلِعُ بقلبه أكثر على الماضي، فليضع القلم من يده وليُغْلِقِ الكتاب؛ لا يمكنه التوقف عن القول: آه ! إنّي لست معهم، واحدا منهم، الأكثر بساطة، أُقل هؤلاء الأطفال شأنًا" [١٩].

٢/١- الجَهْرُ بالدّعوة

غير أنّ المستقبل يَفْرِضُ التزامات رَاهنة وجسيمة، فخلال الفترة الممتدة بين عامي ١٨٢١ و١٨٤٦ التي فَقَدَ فيهاَ ميشليه زوجته بولين روسو Pauline Rousseau (؟ - ١٨٣٩) وصديقه بول بوانسو Paul Poinsot (؟ - ١٨٢١) ووالده جون فرانسوا فورسي ميشليه وميّزها نضاله المستميت ضد الكهنوت بكوليج دوفرانس [٢٠]، قرّرَ هذا المؤرخ نشر إنجيله الجديد الذي يرى في الشّعب الفرنسي برمّته رسولا له. لِذَا أوقف مؤقتا صياغة كتابه: "تاريخ فرنسا" سنة ١٨٤٤ بعد أن وصل فيه إلى الجزء السادس، حتى يتفرغ لكتابة مؤلفه: "تاريخ الثورة الفرنسية" الذي صدر جزؤه الأول في ١٠ فبراير ١٨٤٧ [٢١]. ويؤرخ ميشليه بـ ٤ غشت ١٨٤٣غداة زواج ابنته أديل Adèle (١٨٢٤-١٨٥٥) لقطيعته النّهائية مع الكنيسة القائمة ولتحالفه مع "الإله الجديد للمستقبل" [٢٢] الذي زار فرنسا الثورية؛ ففي السّنة الفارطة، وخلال احتضار "ملاكه الأبيض" [٢٣] بول بوانسو ألقت به ثورته على الموت في قراءات قوية؛ فَتَعَرَّفَ على إسحاق Isaïe (القرن الثامن - القرن السابع قبل الميلاد)، سَعْيًا منه إلى الوصول إلى "الإيمان الرّاسخ لهذا الرّسول اليهودي الذي لم يَرَالوقائع كوقائع بل حَقًّا كما رآها الله، كُلُّ الأزمنة كانت قد انتهت، يوم الحساب." [٢٤].

بكوليج دو فرانس، انجذب هذا المؤرخ لنموذج ميكيويكز Mickiewicz (١٧٩٨- ١٨٥٥)؛ فمن منظور ميشليه فإذا كان الشّعب البولوني يعيش آلام المسيح [٢٥]، فإن الثورة التي أنجزها الشّعب الفرنسي تنطوي على حقيقة أكثر قدسية وَجَبَ استيلامها وتشكيلها في عقيدة. فمؤرخنا يبقى قريبا من الاعتقاد بأنّه يَتَقَلَّدُ مُهِمَّةً تُذَكِّرُ في الآن ذاته بتلك التي اضطلع بها كل من مُبَشِّرِي يسوع والرّسول بول Paul (حوالي بداية القرن الأول - حوالي ٦٤ استنادا إلى التقليد المسيحي و٦٧-٦٨ استنادا إلى غالبية المؤرخين)، لذا ما فتئ يؤكد على أن الثورة ما هي في الواقع إلاّ قصّة لوحي جديد؛ "ثورة" "Révolution" "وحي" "Révélation": قد يبدو الأمر للوهلة الأولى على أنّه لَعِبٌ بالكلمات؛ لكن ميشليه ينخرط في دعوته للدّيانة الجديدة بجدية وقدسية كبيرتين [٢٦].

ماذا وقع إذن؟ يكتب متسائلاً في مقدمة إنجيله الثوري، نستلهم الجواب من الصّيغة التي اختارها هذا المؤرخ ليطرح مجددًا سُؤاله التّالي: "أيُّ شعاع مقدّس له بذلك، لإجراء هذا التغيير؟ هل هي قوة فكرة، وإلهام جديد، ووحي من السّماء؟ (...) نعم كان هناك وحي" [٢٧]، هكذا نرى أن كلمة السر الوحي قد صدرت في النّهاية بشكل إيجابي. لكن يتعين أن لا نَتَسَرَّعَ ها هنا في تجريم مجاوزة البَلاغة الرومانسية المعروفة بتضليلها؛ فميشليه لم يتحدث جُبَال الوحي إلاّ بعد كلود فرانسوا فوشي Claude François Fauchet (١٧٤٤- ١٧٩٣) عضو الجمعية الدّستورية الذي صاح غداة السّيطرة على حصن الباستيل قائلا: "حلَّ يوم الوحي!" [٢٨].

لا يَميلُ هذا المؤرخ إلي اعتبار أن الثورة تنفذُ بالنّهاية وصايا الإنجيل، إنّما يتعاطى معها بالفعل كوحي جديد قائم بذاته. لهذا تظل الثورة الفرنسية من منظور ميشليه حدثًا فريدًا في العلاقة التي تقدّمها، فبخلاف الأحداث الهامّة الأخرى، تُحْدِثُ سنة ١٧٨٩ قطيعة في تسلسل الأسباب والنتائج، فهذا المؤرخ يعلن منذ البداية أن الثورة هي مجيء أكثر منها مجرد حدث، وهي القناعة التي يختزلها في: "أُعَرِّفُ الثورة على أنّها مجيء القانون"، [٢٩] من ثَمَّ الأهمية المتميزة للحلقات الأولى من مؤلفه: "تاريخ الثورة الفرنسية" ربّما الوحيدة التي تبقى ثورية بالفعل، وكذا الطّول المبالغ به للكتب الثلاثة من هذا المؤلّف التي تعيد عرض مسار عام ١٧٨٩- ١٧٩٠ وحده، من السّيطرة على حصن الباستيل في ١٤ يوليوز١٧٨٩ حتى احتفال الاتحاد في

١٤ يوليو١٧٩٠ والذي وسم ميشليه بشكل جرّيء محوره الأخير بـ"عن الدّيانة الجديدة" "De la religion nouvelle"، من ثم أيضا تـدَفُّقُ التّعابير والصّور والصيغ التي يمكنها بضرر أقل أن تُـورِدَ الثـورة الفرنسـية كواقعـة مجـرّدة مـن الأسـباب الكافيـة وكحاضـر لا يستنسـخ ولا يواصـل المـاضي وكظـاهرة غـير مسبوقة. أمّا بالنسبة لاستدعاء اتحادات الأقاليم، فهذا النّوع من الخطاب الافتتاحي تمت ممارسته بالفعل؛ فميشليه الرّاوي يُرَحِّبُ "بالعصر الحقيقي لميلاد شعب" ويؤكد على الطابع الفريد للّحظة، قائلاً: "كان الأمر جديدًا، ليس فقط في تاريخنا، بل حتّى في تاريخ العالم (...) كان ارتجاجًا عظيمًا وعميقًا، كزلزال"[٣٠]. لم تلبـث المعجـزة أن تجـدّدت في ٤ مـاي ١٧٨٩ يـوم افتتـاح المناقشات وهو ما عَبَّرَ عنه هذا المؤرخ بقوله: "بدأ أمرعظيم (...) وَهَجُ عرضٍ كهذا أسْكَتَ كل فكر آخر. يوم جميل، آخِرُ يَوْمِ سَلاَمٍ، والأوّل في مستقبل عظيم."[٣١].

غير أنّ الرّواية المؤسّسة بحق "لبُعْدِ الوحي" الذي خَصَّ به ميشليه الثورة الفرنسية هي تلك التي تتعلق بسيطرة الثوار على حصن الباستيل في ١٤ يوليوز ١٧٨٩، ففي وصفه لهذا الحدث نقرأ قوله: " يوم ١٣ يوليوز، لم تكن باريس تُفَكِّرُ إلاّ في الدّفاع، لكنها يوم ١٤ هاجمت، كانت هناك شكوك يوم ١٣ مساء، لكنها تبدّدت مع الصّباح. كان المساء مليئا بالاضطراب وسُخْطٍ عشوائي. أمّا الصّباح فكان مُشْرِقًا وذو سكينة رهيبة. مع الصّباح بزغت فكرة في باريس، ورأى الجميع نفس النّور، نور في الأفكار وفي قلب كل صوت: "إذهب، وستأخذ الباستيل! [.....]."[٣٢].

في مؤلَّف ميشليه "تاريخ الثورة الفرنسية" يَسْمَحُ نموذج ١٤ يوليوز ١٧٨٩ بالتمييز بين الأيّام الحقيقية للثورة من الباطلة؛ ففي ٦ أكتوبر ١٧٨٩ أدّت نساء الشّعب وهنّ تقتدن من ڤرساي إلى باريس "الخبّاز والخبّازة وفتى الخبّاز"[٣٣] عملاً أكثر ثورية حتّى وإن كان غير متوقّع، وهو ما عَلَّقَ عليه سييز Sieyès (١٧٤٨ - ١٨٣٦) الذي اكتسب مع ذلك جزءا من الخبرة مُهَمُّها : "لا أفهم شيئا هنا، هذا يمشي في اتجاه معاكس"[٣٤]. فمؤرخنا يكاد يُجْزِمُ أنّ المعجزة حدثت يوم ٢٠ يونيو أو ١٠ غشت ١٧٩١، بينما يُدخِلُ مجازر شتنبر[٣٥] في خانة الوقائع المدنّسةِ التي لاتنتمي من منظوره إلى المدوّنة المقدّسة للثورة[٣٦].

مُرَاعِيًا الأوقـات الحاسـمة في الثـورة الفرنسـية ذَكَّـرَ هـذا المـؤرخ في درسـه بكوليج دوفـرانس لسـنة ١٨٤٥ والموسوم بـ "روح ومـدى الثـورة"[٣٧] L'esprit et la portée de la Révolution أنّـه "لا يجـب قَـوْلُ الثـورة، بـل المؤسسـة"[٣٨]، و صـدرت عنـه في السّـنوات الـتي تلـت صِـيَغٌ أخـرى كثـيرة للـوحي الثوري؛ من ذلك قوله في درس ٤ مارس ١٨٤٧ المعنون "دراسة التـاريخ، ازدراء التـاريخ"" Etudier l'histoire, mépriser l'histoire": "التـاريخ مقتـول، التـاريخ يبـدأ"[٣٩]، فيمـا أَرْدَفَ في درس ٢٧ يناير ١٨٤٨، أي على بعد أسابيع من ثورة فبراير١٨٤٨[٤٠] قائلا: "الثورة تأتي، كل شيء يَتَغَيَّرُ"[٤١]. فهذه التّأكيدات المتكرّرة عـلى انقـلاب خـارق للعـادة تتطابق وقطيعـةً أخـرى تلاحـظ في إيديولوجية المؤرخ؛ لذا يتعين أن نأخذ ميشليه على محمل الجد وهـو يعـترف في يومياتـه لـ ٣١ مـاي ١٨٤٧ خُيَالَ مـدخل مؤلفـه "الثورة الفرنسية" الذي كتبه بشق الأنفس بأنّه مثّل بحد ذاته "ثورة في حياته"[٤٢] حتّى لا نقول اعتناقًا، بعد أن حثَّ فيه على القطيعـة ضـد الاسـتمرارية المنطقيـة والكرونولوجيـة، مُنْجِـزًا بالتّالي عملا جعل منه رجلا آخر مُكَلَّفاً بمُهِمّة جديدة[٤٣].

ثانيًا: ميشليه وثورة ١٧٨٩

٢/١ -مؤرِّخٌ خَارِجَ السِّرْبِ

يبدو الاختلاف جليّا إذا ما قارنا الوثبة الرّوحانية لميشليه بالطّريقـة الـتي يُفَكِّـرُ بهـا في الثـورة الفرنسـية المؤرخـون المعاصرون؛ "فوحده لاهـوتيُّ الشّـعب"[٤٤] يعتقد أنّـه فجأة في صباح ١٤ يوليوز ١٧٨٩ أخـذت فرنسا والعـالَمُ عطلـة مـن مـاضي الاستعباد برمّته. فالمؤرخون اللّيبراليون يهتمون جَيِّدًا بتفسير الثورة وإثبـات أسـبابها الرّاهنـة أو البعيـدة، ويـرون أنّ سـيطرة الثـوار عـلى حصـن الباسـتيل إنّمـا هـي مجـرّد اسـتهلاك لخـراب الملكية التّقليدية؛ بل ويطرحون فَرَضِيَةً أكثر اختزالا تقول: بأن حدث الثورة لا يستكمل تمركز فرنسا التي تم بناؤها بأناةٍ من طرف الملوك. من هذا المنطلق يشير ميني Mignet (١٧٩٦ - ١٨٨٤) في نهاية مدخل مؤلَّفِه: "تاريخ الثورة الفرنسية من ١٧٨٩ حتى ١٨١٤" Histoire de la Révolution française de1789 jusqu'en 1814" الصّادر سنة ١٨٢٤ إلى "أن اتحادات الأقاليم لم تفعل شيئا سوى الإعلان عن ثورة تَمَّتْ من قبل."[٤٥].

من جانبه وفي كـتابـه: "الحـالـة الاجتمـاعية لـفرنسا قبل ومنـذ ١٧٨٩" " l'Etat social et politique de la France avant et depuis 1789 " الصّادر سنة ١٨٣٦ يتبنّى أليكسي دوتوكفيل Alexis de Tocqueville(1805-1859) المنطِقَ ذاتـه، وهـو مـا يفصـح عنـه بقولـه: "ضـبطت الثـورة ونسّـقت وأضفت الشّرعية على تأثيرات قضية كبرى، أكثر ممّا كانت هذه القضية ذاتها."[٤٦]. من جهتهما وبعد أن حصراها في تاريخ جدير بالاحترام لكنّه ولّى دافع أودلف تيير Adolphe Thiers (١٧٩٧-١٨٧٧) وفرانسوا جيزو François Guizot (١٧٨٧- ١٨٧٤) عن الفكرة المُطمئنة للملكية البرجوازية والقائلة بأن الثورة انتهت

وانتهت تماما. إزّاء إيماءات الاختتام هاته تقف مع ميشليه بثبات حركة للانفتاح يصبح خلالها عام ١٧٨٩ حتى قبل وضع التقويم الثوري[٤٧] السنة الأولى للأزمنة الجديدة[٤٨].

بالتّأكيد يبقى من الصّعب أن نَتَّفِقَ مع "رولان بارت" "Roland Barthes" (١٩١٥ -١٩٨٠) في أنّه لم يوجد إلاّ ماهو بورجوازي في إيديولوجية ميشليه، بل وحتّى "بورجوازي صغير".[٤٩] لكن إذا كان من غير المُناسب تصنيف ميشليه دون إبطاء ضمن اللّيبراليين، فلن يكون بمقدورنا مسبقا حشر هذا المؤرخ الثوري على نَحْوٍ ديني في زمرة المسيحيين الرّومانسيين الذين رأوا في: "إعلان حقوق الفرد والمواطن" "Déclaration des droits de l'homme et de citoyen" (١٧٨٩) ترجمة مدنية وعصرية، "للخبر السعيد" "La Bonne Nouvelle"[٥٠]. كان ميشليه أوَّلَ من نأى بنفسه عن سَلَفَيْهِ بوشي Buchez (١٧٩٦- ١٨٦٥) وروكس Roux (١٨٠٢- ١٨٧٤) حتى وإن كان يستعين بمؤلّفهما الذي لا غنى عنه في هذا الإطار: "التّاريخ البرلماني للثورة الفرنسية" "Histoire parlementaire de la Révolution française" الصّادر بين عامي ١٨٣٤ و١٨٣٨، وقد رفض مع لامارتين Lamartine (١٧٩٠- ١٨٦٩) الذي حجب مؤلفه: "تاريخ الجيرونديين" "Histoire des Girondins" سنة ١٨٤٧ الجزء الأول من تاريخ الثورة الفرنسية لميشليه الطّرحين القائلين بأن: "الفكرة الدّيموقراطية" التي يؤرخ "لمجيئها" في ما يبدو بعام ١٧٨٩، ليست شيئا آخر سوى "انسيابا للمسيحية"، وأنّ "الفلسفة السّياسية للثورة" وهي غير قادرة على "ابتكار كلمة أكثر صدقا وأكثر كمالا وأكثر قدسية من المسيحية حتى تَكْشِفَ عن نفسها لأوربا" تبنّت بدورها "عقيدة وكلمة التآخي"[٥١].

نُسجِّل هنا قلق مؤرخنا سيما بعد قراءته في مؤلف صديقه إيدڭار كيني Edgar Quinet (١٨٠٣-١٨٧٥) "المسيحية والثورة الفرنسية" "Le Christianisme et la Révolution française" الصّادر عام ١٨٤٥، أن "المسيحية بقيت محتجزة داخل القبور حتى حان موعد الثورة حيث يمكن أن نقول إنها انبعثت"[٥٢]، حول هذه النقطة نشب خلاف بين رفيقي السّلاح هذين لم يتم تجاوزه أبدا. فكيني يُعَلِّلُ إضاعة أمل ١٧٨٩ بانخراط فرنسا في طريق "ثورة سياسية واجتماعية قبل أن تُتِمَّ ثورتها الدّينية"[٥٣]؛ بمعنى قبل أن تتجدّد مسبقًا. ويرى أن فرنسا على غرار الأمم المُنْضَمّةِ إلى الإصلاح يبقى إيمانها بالمسيح مُخَلِّصَهَا الوحيد، فيما يعتقد ميشليه جازما أن الثورة تحرّرتْ بشكل جيد من رعاية الإنجيل واضعًا في مقابل عقيدة المِنَّةِ[٥٤] تلك الخاصة بالعدالة، ومبيّنا أن "الصّراع بين المبدأين حقيقي إلى أقصى حد، وأنّها ليست معركةٌ بين الشيء ونفسه. مادام ثمة متحاربان (...) وفكران، القديم والحديث."[٥٥].

يُعَبِّرُ تضارب آراء ميشليه وغيره من المؤرخين حول ماهية الثورة عن حماسته للوحي الجديد "كراهب مبتدئ" إن صحّ التعبير، والواقع أنّه بينما يفترق عن غيره من مؤرّخي الثورة، فإنّه يرفض فلسفة تاريخه الأولى التي - وعلى الرغم من إضاءة برق ثورة يوليوز ١٨٣٠ وظهور جان دارك الذي يلي في مؤلفه: "تاريخ فرنسا" الحلقات المميّزة لحملة الفلاح أو ثورة فيري الأعظم Grand Ferré (١٣٣٠-١٣٥٩)[٥٦]- تستند إلى فرضية تطور مستمر موروث عن الأنوار؛ بل إن ميشليه كمُبَشِّرٍ بالثورة هذه المرّة أسكتَ تحديدا المؤرّخ المحترف الذي كان سنة ١٨٤٤ قد أظهر كيف ساهم لويس II Louis XI (١٤٢٣-١٤٨٣) بدوره بعد وقبل ملوك آخرين في الإعداد البطيء للوحدة الوطنية، فبعد أن نال هذا المؤرخ وحي الثورة التي قَلَبَتْ فكره وحتّى حياته بات يُجاهر الآن أن تاريخ الشّعب يمكِن أن يَعْرِفَ طفرات جذرية[٥٧].

٢/٢-الثورة كاتحاد وقطيعة

وهو غير متوقع وغير معقول وغير مألوف، قد يُعتبرُ العمل الثّوري سخيفا، لكنّه لا يلبث في نظر ميشليه يوحي ويفيض بالمعنى، وكأن الأمر يتعلّق بلغز؛ يرى هذا المؤرخ أن معنى الحدث يَكْمُنُ في إجماع الفاعلين. لِذَا ما فتئ يردد قائلا: "صوت الشعب، صوت الله" "*Vox populi, vox Dei*" ؛ هذا القول المأثور الذي لطالما اعترف له منذ شبابه وقراءته لمُنَظِّرِي "الحِسِّ السّليم"[٥٨] الأقل تديّنا منه بسلطة روحية، فالاتحاد الذي يعبئ سواعد شعب برمته يبقى هنا دليلا على الوحي ومعجزة في آن واحد[٥٩].

ماذا يعني هذا الاتحاد إذن؟ عن هذا السّؤال يقدم ميشليه إجابات مرتجلة ومحرجَةً أحيانًا لكنّها ليست نهائية بالمرّة؛ فهو يستخدم رمزية فرنسا للإشارة إلى الغاية الرّوحانية لزخم اتحادات الشتاء الأول للثورة، وهي القناعة التي يختزلها في: "تَجَاوَزَ التآخي جميع العقبات، فَكُلُّ الفدراليات ستتّحد بينها، فالاتحاد يؤدّي إلى الوحدة. كفانا فدراليات، فهي عديمة الجدوى، نحتاج واحدة فقط: فرنسا. فقد ظهرت في ضياء يوليوز [أي ثورة يوليوز ١٨٣٠]."[٦٠].

بعد ذلك، وكما حدث في يناير ١٧٩٣، لمّا صَوَّتَ المؤتمر[٦١] بالإجماع على "الإجراءات الكبرى للخلاص العام"[٦٢]، بنفسها فرنسا المجتمعة سعت إلى الوحدة؛ هذا الهدف العريق

لوساطة الفلاسفة وعلماء الدّين، يقول هذا المؤرخ: "منذ اليوم الأول الذي رأت فيه الفكرة الرّفيعة للوحدة الحقيقية (هذا الهدف السّحيق للجنس البشري) كانت فرنسا متحمّسة الرّوح، ومحجوزة في قلب الدّيانة"[٦٣]. بالتّالي تبدو"الدّيانة" وكأنها المَصْلَحَةُ المؤسسة لأي مجتمع ونظام اجتماعي. وهو في حاجة هذه المرّة إلى إعادة الاعتبار إلى الدّيانة الثورية، استعار ميشليه من البيولوجيا كما فعل سابقا في مؤلفه: "الشعب" " Le Peuple" (١٨٤٦) الخطاب التّالي: "لا حياة، خارج الوحدة. ولا بديهيةً آمنة. لم تكن مسألة فضول دراسي، إنّها مسألة خلاص الحياة ذاتها. فبالنسبة للكائنات العضوية فالانقسام يعني الموت، وكُلَّمَا كانت أكثر تنظيما [أي الكائنات العضوية]، كلّما كانت الوحدة الشّرط الأساسي لوجودها. فالإنسان يموت، إذا كان مُقسَّمًا: أما الثعبان المُقَطَّعُ فيستمر في العيش."[٦٤].

فالتّمركز السّياسي الذي من خلاله تتحدّد اليعقوبية Jacobinisme[٦٥]لا يكفي إذن لاستيفاء معنى الظّاهرة الثورية. في الطرف الآخر لايكفي هنا أيضا التّفسير ذو الطابع العضوي العزيز على صديق إيزيدور جوفروي سانت هيلير Isidore Geoffroy Sainte-Hilaire (١٨٠٥-١٨٦١)[٦٦] . فميشليه الرّاوي يأخذ بزمام المبادرة المتنازل عنها بصفة مؤقتة للمفكر، بتخلّيه عن تحديد السّبب وراء معجزة الاتحاد وبإبرازه فجأة خلال كل المجال الذي يتقدّم فيه الشعب المجتمِعُ، فمثلا عندما يبعثُ تَدَفُّقَ القرويين السافوار Savoyards المُهَرْوِلِينَ إلى شامبيري Chambéry في شتنبر ١٧٩٢ لاستقبال قوات الجمهورية الفرنسية اليافعة فهو يعطي الحدث بُعْدًا مَلْحَمِيًا حين يقول: " في اللّحظة التي عَلِمَ فيها هذا الشّعب الرّائع بقدوم محرّريه، لم تعد هناك طريقة لإيقافه؛ جاء بأكمله لمقابلتهم. كان الأمر شبيها بانتفاضة شاملة للبلد، فوحدهم الرّجال ذهبوا، ولكنّ الأشجار والحجارة وكل أرض ساقوا أرادت أن تمشي في الطريق."[٦٧].

بعد إخفاقه في تفسير الكَسْرِ النّاجم عن فِعْلِ الشعب الثّائر، سعى ميشليه إلى تبريره من الوجهة القانونية؛ فاحتجّ باقتحام الزّمن التّاريخي من زمن آخر يتعيّن أن يحمل اسما بديلاً، وهو ما برهن عليه بقوله: " في هذا اليوم كان كل شيء ممكنا (...) المستقبل تَحَوَّلَ إلى حاضر (...) وأعني بذلك وقتا أطول (....) بَرْقُ خلودٍ."[٦٨]. هكذا إذن كان الحدث الثوري أو"إرادة الشّعب هذه" "*ce Fiat du peuple*" في الأصل وإلى الأبد، والذي لم يَتَوَانَ هذا المؤرخ في تخليده في درسه بكوليج دو فرانس لـ ٢٧ فبراير ١٨٤٥ الموسوم بـ"المستقبل" "L'avenir"، إذ يرى أنّه ما من شيء في حالة كهذه من الفترة الزّمنية أو الحَدّ الذي يفصل بين الإعداد والتّنفيذ يجعل مرور الزّمن عاديا وملموسا؛ فخلال ليلة ١٣ إلى ١٤ يوليوز ١٧٨٩ التي تتجنّب السجلاّت العامّية سبر ظلماتها لم يَعُدِ الماضي الخاضع "للحكم النّهائي" للشعب يُسْتَخْدَمُ كابحا أو حتّى مرجعية، بعد أن غدا المستقبل هو الحاضر بالفعل، غير أن هذا الحاضر وهو بدون ماضي ولا مستقبل لم يعد ذاك الحاضر التاريخي الذي ينتمي إلى الزّمن القابل للقياس والمُؤَرَّخِ ، فهو يمزّق الزمن "كبرق خلود"[٦٩].

يجدر بنا هنا أن نتساءل عمّا إذا كانت الثورة تمثل ما هو متعالٍ وما يُفلت منها دائمًا؟ يرى ميشليه أن ثمة وحيٌ يبدو مُتَاحًا وقريبا؛ فهو يتخيل صوتا يعلو "خارج الزمن، خارج المستقبل وخارج الماضي،..."[٧٠] كما في ضواحي سيناء أخرى يخاطب الشّعب الذي سيهاجم الباستيل. ولكن من صاحب هذا الصّوت؟ فهل يُلقي كلمة حقيقية؟ فثمة إله يعمل في الرّواية التي يعطيها ميشليه للحلقات المميّزة للثورة تم استدعاءه بشكل احتفالي إلى ساحة مارس من طرف القائمين بقدّاس الاتحادات، بَيْدَ أنّ السّتار الذي يخفيه لا يتمزق كُلِّيَة، أو أنّه يتمزق ظاهريا فحسب، إذن فإلى إله مجهول "*nescio quis Deus*" أو رُبّما غائب يَتَوَجَّهُ الاتحاديون. فهل ستظل الثورة استنادا إلى ميشليه إن لم تكن كل ثورة وَحْيًا غير مكتمل في الأمل أو في الذّكرى؟

يقول هذا المؤرخ: "فَكُلُّ العالم أَقْسم أنّهُ من هذه اللّحظة الرّفيعة، ومن العديد من الأماني الخالصة والصّادقة، ومن الكثير من الدّموع المختلطة بالدفئ المُرَكَّزِ للعديد من الشّعلات في شعلة واحدة: سيُخلق إله. رآه وأحسّه الجميع (...) قرويّونا الهُمْجُ للماين Maine وفي مسيرات من لابروتان La Bretagne [٧١] والذين كان تعصُّبٌ خائن على وشك أن يقلبهم ضدنا، جاءوا بأنفسهم عندئذ، متأثرين، مستعطفين، للانضمام إلى اتحاداتنا ولتقبيل مذبح الإله المجهول."[٧٢].

فإذا كانت الثورة استنادا إلى ميشليه تحتفظ بصفتها كوحي، فهي تفرض على الفاعلين والشّهود وخلفِهم أهمّ الواجبات. إذن فكيف نعطي تتمة لحدث يبدو أنّه قطع خط الزمن؟ وكيف نعيش ونفكّرُ في الزّمن الذي يليه ويهدف إلى استئناف مساره العادي؟ يرى هذا المؤرخ أن ذلك سيتحقق عبر تخليد "يوم المَجْدِ" باعتماده في الحياة الحاضرة لا بإسناده إلى الذّاكرة حيث يُدرَجُ الماضي. فإذا كان من عاصروا السّيطرة على حصن الباستيل قد سَعَوْا إلى تخليد العمل المؤسس؛ فقد استلهم ميشليه من نموذجهم بعد أن أصبح المؤرّخ الذي يولي

اهتمامًا خاصًّا لاحتفالات الثورة، ومن شعائرهم تلك أدرك مدى التّحدي ونال الإلهام[٧٣].

يُبَيِّنُ هذا المؤرخ أن الشّعب يوم ١٤ يوليوز ١٧٨٩ أخِذَ على حين غِرَّةٍ، لذا سَيْطَرَ فقط على حصن الباستيل، أمّا في ١٤ يوليوز ١٧٩٠ فبات بإمكانه أن يُحَدِّدَ؛ فبإحياء ذكرى السيطرة على هذا المعتقل اكتمل العمل واكتشف الشعب في الوقت ذاته هويته الخاصّة. في الواقع، إذا كان اندفاع الجموع الهائجة أرْعَنًا، فتجمهر الاتحاديين كان مقصودا، لِذَا وبعد وَهَجِ الوحي، كان لزامًا الشّروع في تنفيذ الثورة. فسكّان الضّواحي وَهُمْ يتّجهون إلى ساحة مارس حَوَّلُوا إلى مجتمع روحي الاندفاع الأخوي الأوّل وأعطوا صورة مُشَرِّفَةً عن فرنسا، وهو المعطى الذي يوضّحه ميشليه بقوله: "كان لابد من عالم كامل من الأكاذيب الغير طبيعية لمنع النّاس من التّقارب. الجمارك الدّاخلية، رسوم لا حصر لها على الطرق والأنهار، وتنوع لا نهائي للقوانين والأنظمة (...) ذات صباح، سقطت هذه الحواجز، وانهارت هذه الأسوار القديمة. عندئذ بدأ النّاس يتواعدون، ويتعارفون وهم متشابهين، فقد اندهشوا كيف تمكّنوا من تجاهل بعضهم كل هذا الوقت، وندِموا على الأحقاد الشّعواء التي عزلتهم لقرون عديدة، فهم يُكَفِّرُونَ عنها، ويتقدّمون بعضهم في مقدمة البعض الآخر، وهم يستعجلون صَبَّ قلبهم."[٧٤].

بعد أن جَرَفَتْهُ "حركة الاتحادات" وعدوى التآخي كتب هذا المؤرخ الصّفحات الأكثر جمالية من مؤلفه: "تاريخ الثورة الفرنسية"، موظِّفًا في إحياء الذّكرى هذه الصّيغة التي نظنها خطأ أنها حِكْرٌ على الفعل المؤسس: "لحظة نادرة حيث يمكن أن يُولَدَ عَالَمٌ، ساعة مختارة مقدّسة!"[٧٥]. لكن هذا الحماس ما كان ليفقده بصره، بل حثه على أن يتصدّى بقوّة لكل احتفال ثوري يُقَلِّدُ بشكل هزلي المعجزة المحتفى بها؛ على سبيل المثال: لَمَّا وجّه بذكاء الفنّان التشكيلي جاك لويس داڤيد Jacques Louis David (١٧٤٨- ١٨٢٥) مَوْكِبَ ١٠ غشت ١٧٩٣؛ وهو مبعدٌ، فقد وَجَدَ الشّعب نفسه ممنوعا من القدّاس، وأيضًا لما أَفْسَدَ الحرص التنظيمي لروبسبيير Robespierre (١٧٥٨-١٧٩٤) قدّاس الكائن الأسمى l'Être Suprême[٧٦] لـ ٨ يونيو ١٧٩٤[٧٧].

حَرِيٌّ بنا أن نتساءل عمّا تبقّى من اتحاد الأمْسِ؟ فالانتكاسة فادحة لا يمكن تصحيحها؛ فعلى المستوى الاستطيقي قوّضت طقوس الكنيسة الرّومانية إرث ماضٍ يبدو أن "صاعقة" ٨٩ قد ضربته. بينما أُعْلِنَتْ على مستوى حِسِّ المواطنة أزمة الأخوّة الثورية؛ إذ تخوَّفَ منظّمو الاحتفالات البورجوازيون من ألا يتلاءم معها الأشخاص الصّغار، مفضّلين تقديم عرض شعبي بَدَلَ خلقِ قدّاس يوقظُ الشعور المقدَّس والهدّام للمساواة؛ بالتّالي أصبح التكرار بلا فائدة، ما دام لا يبعث اليوم العظيم الذي كانت فيه الثورة وَحْيًا[٧٨].

مِنْ ثَمَّ، تتأتّى رغبة ميشليه في النّجاح حيث أخفق داڤيد؛ فكتابةُ: "تاريخ الثورة الفرنسية" ليس على أيِّ حالٍ إلاّ خطابا تذكاريا يسعى سنة ١٨٤٧ وتحديدا عشية ثورة فبراير ١٨٤٨ إلى إعادة التّأكيد على فعل إيمان الأسلاف العظماء عبر التذكير به؛ سيما وأنّه في سنة ١٨٤٧ لم تكن قد لُفَّتْ بَعْدُ في "الكَفَنِ الأرْجواني" للتّاريخ الرّسمي المشكوك فيه بدوره ذاكرة الثورة التي تنتمي بالفعل إلى الذّاكرة الحيّة وتحافظ لدى الأحياء ممن عاصروا الثورة وتكتسي عند أبنائهم سمات التزام شخصي وقناعةً عادة ما تَحُلُّ مَحَلَّ الممارسة الدّينية[٧٩].

في ١٨ نونبر ١٨٤٦ فَقَدَ ميشليه أباه ذي الثلاث وسبعين سنة الذي كان عاملا في مطبعة الأسينيين Assignats[٨٠]. ففي مقدمة كتابه: "تاريخ الثورة الفرنسية" حَيَّى مرة أخيرة "الشّخص الذي حكى [له] الثّورة مرارا، الرجلَ الذي كان بالنسبة [إليه] الانطباع والشّاهد على القرن الكبير؛ أريد أن أقول: القرن الثامن عشر"[٨١]. فالابن يحس بأنّه معاصر للحكاية المقدّسة التي حكاها له والده بعد أن عاشها، فبالذات أسفل الباستيل تلقّى هذا المؤرخ خبر وفاة أبيه، وقد أشار إلى ذلك بقوله: "كنتُ في أسفل الباستيل، أرتادُ الحصن، أَرْفَعُ على الأبراج العَلَمَ الخالدَ (...) أتتني الضّربة غير متوقعة، كرصاصة من الباستيل"[٨٢].

إلاّ أنّ الماضي ما كان ليتم إلغاؤه بسبب وفاة النّاطق الرّسمي به؛ إذ ثمة شهود آخرون هم في كل مكان وقريبين جدّا، لم يَأْلُ ميشليه جهدا في حثّ مستمعيه بكوليج دوفرانس على سماعهم بدل الانغماس في قراءة أعمال المؤرّخين، وهي القناعة التي يختزلها في: "كل يوم، بينما أنتم هنا، في غرفتكم، تقرأون لست أدري أيَّ كتب، تواريخ الثورة، ربّما تاريخي، [أيْ مؤلف "تاريخ الثورة الفرنسية"]، في الواقع! أعتقد أنّه، في هذه اللّحظات، تسمعون أحيانا، دون أن تَعرفوا ذلك: الثورة. أقصد هذا الرجل الذي يبلغ من العمر ستّين سنة، وربّما أكثر، والذي، ينادي بسلعة معينة بصوت أَجَشٍّ (...) صدّقوني: إنّها الثورة التي تَمُرُّ (...) بحيث إذا وضعتم الرّأس في المفترق، فستجدون أنّه الشيء نفسه الذي تعتقدون قراءته في كتبكم والذي تُعطيكم عنه الكتب صورا غير دقيقة، إنّها الحقيقة التي لا تزال قائمة."[٨٣].

بهذه "الحقيقة" المنقولة من فَمٍ إلى أُذُنٍ كما كانت في زمن بعيد، يَكُونُ "الخَبَرُ السّعيدُ" أو كِتَابُ ميشليه "تاريخ الثورة الفرنسية" مُعْتَصَرًا ومُتَغَلْغِلاً. فإذا كان هذا المؤرخ يتباهى بأنّه أوّل من وظّف أرشيفات لوتيل دوفيل دوباري وولاية الأمن وسجلاّت الأقسام الباريسية في كتابة تاريخ ثورة ١٧٨٩، فهو يفتخر أكثر بتلقّيه "التقليد الوطني المتردّد على ألسنة الشعب"[٨٤]، لاسيما وأن مضمون هذا التّقليد هو ما يعطي الطّابع السّردي لإنجيله "تاريخ الثورة الفرنسية" الذي يشْتَنْسِخُ "صوت الشعب". يعتقد ميشليه جازما أنّه عندما لا تعطى الكلمة للفاعلين، فإنّه يتعيّن على المؤرخ أن يأخذها دون خَجَلٍ كحاكي بين الحكاة وشاهد بالوكالة أو المحاكاة بين الشهود يتولّى التّسجيل بغية تخليد دائمٍ لذكرى الوحي[٨٥].

يظل إنجيل ميشليه "تاريخ الثورة الفرنسية" احتفالا بالثورة باقتدار، بقدر ما يتَكَشَّفُ بدوره كاحتفال ثوري. فَهُوَ يلتمس من القارئ مشاركة إيجابية، يقتضيها نيابة عن الكاتب أوّلاً. يعطي ميشليه مثالاً عنها وهو يتواصل مع المحاربين القُدامى للمغامرة الكبرى، فبعد أن ألّف "ذاكرة" ١٤ يوليوز ١٧٩٠، فقد اشترك مع الاتّحاديين الذين قاموا بتلقينها في المساء ذاته بعد أن نَفَّذُوها شعور عيش "أفضل يوم في حياته"[٨٦].

إذن فميشليه أو هذا المؤلِّفُ الملهَمُ يُشْبِهُ الأخ وهومير Homère (القرن الثامن قبل الميلاد-القرن الثامن قبل الميلاد) الذي يَرْسُمُ مؤرخنا صورته في درسه الغَبْرِ مُلقًى بكوليج دوفرانس لـ ١٧ فبراير ١٨٤٨ قائلا: "الذي سيكون مُدمِجًا الأسطورة كثيرا وستكون في دمه، في لَيْفِهِ وفي عظامه، هذا الشّخص ستكون له موهبة؛ هي أن لَيْفَ الجميع سيتحرّك لكلمته و الكُلُّ سيَفْهَمُهُ، الجميعُ، قرويون، عمّال، وأكثرالعمّال جهلا (...) كل القلوب وهي مجتمعة حوله ستشكل للمُلَحِّنِ العظيم شبه بيانو ضخم وهو الذي سيُحرك أوتاره على هواه؛ وسيلعب بفرنسا بأكملها."[٨٧]

إنّه لقُدّاسٌ فَعَّال هذا الذي يُنَظِّرُ له ميشليه، لكن يجدُر بنا أن نتساءل عن العقيدة التي يَخْدِمُها، يلوح هنا واجب مضني؛ فإذا كان هذا المؤرخ يريد تعبئة طاقات العقيدة المستمدة بشكل عفوي من الثورة الفرنسية، فهو يحاكمها بلا رحمة. ويتجرأ أيضًا على الإقرار بأن الجمهورية الأولى (١٧٩٢-١٧٩٥) انهارت بسبب الافتقار إلى الرّمزية وأن الثورة رَخَّصَتْ نفسها وهي تَتَسَيَّسُ، وأنها لو بقيت دينية فإنّها كانت ستؤدي إلى تجديد حقيقي للنّظام الاجتماعي، وهي القناعة التي يفصح عنها بقوله: " خصبة بالقوانين، عقيمة من حيث العقائد، فهي لا تُكفي الجوع الدّائم للرّوح البشرية الجائعة أبَدًا، والتي أظمأها الله (...)، فالحزبان المفكّران: الجيروندّيون[٨٨] واليعاقبة لم يُعِرَا هذا إلاّ القليل من الاهتمام، فلاجيروند تجاهلت المسألة تمامًا، أما اليعاقبة فتَهَرَّبُوا منها، إذ اعتقدوا أنهم يَدْفَعُونَ للرّب بكلمة واحدة".[٨٩]

ثالثًا: ثورة ١٧٨٩، الواقع والرِّهانات

٣/١-الواقع

على الرغم من "صاعقة" ٨٩، في الواقع فما انفك الماضي يُلقي بكامل جموده على العاتق الثوري؛ كمثال على ذلك، عقد الثورة اتفاقا مع الكنيسة بإعدادها تسوية الدّستور المدني لرجال الدين[٩٠]. وهم سجناء لتربيتهم الدّينية، فقد استعان بها الثّوريون للتفكير بوحي ثورة ١٧٨٩ الفريد الذي شجّعوا في إطاره نماذج مستمدة من اللاّهوت التّقليدي؛ مثلا لمّا حبسوا أنفسهم في قضية الخلاص العام التي طرحها ريشليو Richelieu (١٥٨٥- ١٦٤٢) قَبْلَهُمْ بَدَلَ الرّجوع إلى العدالة التي تفترضها الثورة، وهو المعطى الذي يوضحه ميشليه بقوله: "العدالة، يُحَاجِجُ رقيبهم، فكرة إيجابية، مُطْلَقَةٌ، تكفي ذاتها. الخلاص هو فكرة سلبية، تستلزم إنكار الفناء، والموت، (...) فأولئك الذين قاموا بإنزال الثورة من العدالة إلى الخلاص، من فكرتها الإيجابية إلى فكرتها السّلبية، منعوا عبرذلك بالذّات، الثورة من أن تكون دينًا. أبَدًا لم تؤسس فكرة سلبية إيمانا جديدا، بالتّالي ينبغي أن ينتصر الإيمان القديم على الإيمان الثوري عاجلا أو آجلا"[٩١].

ارتكب رجال الثورة خطأ آخر لمّا اعتقدوا أنّ بمقدورهم ترجمة عقيدة وَحْيِهِمْ إلى لغة فلسفة الأنوار. فحتّى إن بَدَوْا هذه المرّة وقد تخلّصوا من التعليم الذي تلقّوه في كوليجاتهم فقد استسلموا على الرغم من ذلك إلى إغراء إنزال الثورة الفرنسية التي لم يسبق لها مثيل إلى مستوى ما سبق وسُمِعَ به، الحاضر إلى المستقبل، الثورة إلى التقليد؛ "فإعلان حقوق الفرد والمواطن"، فرض نفسه وهذا صحيح بعد رفض "الرغبة" الملكية، وهو ما برهن عليه ميشليه بقوله: "فعن الحق يتعيّن الحديث في لحظة كهذه (...) لقد اعتقدنا في السّابق، أن هناك واجبات فقط"[٩٢]، لكن تأييد مؤرخنا لا يخلو من بعض التحفظ، فلمّا تطرق بعد موت الجيرونديين للنّهاية الفتّاكة لسياسة السّلامة العامّة، تأسّف عَلَنًا دون إيراد تفاصيل عن عدم رضاه عن إسناد مسؤولية صياغة نصوص الاعتراف الأول[٩٣] "لعلماء منطق" الجمعية الدّستورية خُدَّام المنطق الفلسفي، وهو ما عَبَّرَ عنه بقوله: " لا تزيد الثورة ميراث الأفكار الحاسمة التي

ورّثتها لها فلسفة القرن. لقد نفذت في مؤسسات جزءا من هذه الأفكار، لكنّها أضافت لها القليل"[٩٤] وقد تكرَّرَ العَوَزُ اللاّهوتي لرجال الثورة لا سيما إبّان "بابوية" روبيسبيير، في هذا الصدد يتساءل ميشليه عن الجدوى من الاحتفال الأكاديمي والفخم للعقل لـ ١٠ نونبر ١٧٩٣ قائلاً: "لا، هذه الهيئة السّلبية، والمجرّدة لله، مَهْمَا كانت عظمتها وعُلُوُّهَا، لم تكن تلك التي تسألها القلوبُ ولا حاجة العصر. من أجل دَعْمِ مجهود الأبطال والشّهداء، كان يلزم إله آخر مقارنة بإله الهندسة."[٩٥].

علاوة على ذلك يبقى الكائن الأسمى غير شخصي مقارنة بذاك الذي اختلط بالمجتمعين في ساحة مارس يوم ١٤ يوليوز ١٧٩٠؛ فهو ليس الإلهَ الحيَّ بل إله الكاتب الذي لم يَسْبِقْ أن التقاه روبيسبيير إلاّ بمكتبته، وهو ما يوضحه ميشليه بقوله: " تَمَثَّلَ عَجْزُ علم الكلام في اعتقاده أنه يتعيّن البحث عن الله في كتاب، في صفحة معيّنة لروسو كما في القاموس، وليس في التّعرف عليه في الأشكال اللاّنهائية للحياة والعمل الوطني."[٩٦]، وكما يعلم الجميع جيّدًا فالجمهورية لم تُعَمِّرْ طويلاً بعد فشل الثورة الدّينية[٩٧].

يبرّئ ميشليه إلى حد ما المسؤوليين عن هذا الفشل الذين تفاجأوا بحجم واستعجال المهمة المراد إنجازها، لكنّه لا يُذعن لهذا الواقع. فهو يعتقد أنّه وبعد "عُمُرٍ أوَّلٍ (للثّورة) كان تعويضا عن الظّلم الطويل للجنس البشري، وزَخَمًا من العدالة" سيأتي "عاجلا أو آجلا عُمُرٌ ثانٍ ستخرج فيه الثورة من الصّيغ، وستَجد عقيدتها الدّينية، (حيث يتأسّس كل قانون سياسي)،..." [٩٨]. بَدَلاً "من الانتظار إلى حين " استنادا إلى القول الرّوحاني المأثور، ارتأى رسول كوليج دوفرانس التّعجيل بدورة "العُمُرِ الثاني" للوحي الحديث، وحاول الحديث عن "الإله المجهول" للاتّحاديين بِصَوْنِ خطابه من كل تقليد وعدْوى، "ليواصل هذه الميتافيزيقا الثّورية"[٩٩] في الجزء الثّالث من كتاب: "الشّعب" "Le Peuple" (١٨٤٦) حيث طرحَ "الانعتاق عن طريق الحب De l'affranchissement par l'amour" " الذي بدأه في درس ١٨٤٥، بينما ازدادت دعوته إلى الإنجيل الجديد في درس ١٨٤٧ الموسوم بـ "عن الثورة" "De la Révolution"[١٠٠] وفي الدّرُوس الممنوعة ولكن المنشورة على الفَوْرِ في كراريس خلال شهري يناير وفبراير ١٨٤٨ [١٠١] بعد أن جعلت أيّام ثورة فبراير عاجلة أكثر من أي وقت مضى كتابة دَرْسٍ يُلقى يوم الأحد وتنظيم قدّاس[١٠٢].

لقد غضب هذا المؤرخ من عدم تَشَرُّبِ الفرنسين بُعَيْدَ ثورة فبراير ١٨٤٨ لموروث الثورة الفرنسية؛ فراودته فكرة صياغة "إنجيل للشعب" "Bible du peuple "، ووضَعَ في ١٦ يونيو ١٨٤٨ خطّة " للتربية المشتركة والوطنية" قَدَّمَها إلى بيرونجي Béranger (١٧٨٠ -١٨٥٧)، وكل ذلك بحسبه: " قضية مستعجلة، وقضية مُلِحَّة، في رأيي: أن نَعْمَلَ مَعًا بِحَمَاسٍ لِغَمْرِ فرنسا بالنّسغ الجمهوري، الاستعاضة عن الإيمان بالعبادة، وعن الفكرة بالإنسان: وإلاّ، سنموت."[١٠٣]. إلاّ أن الأحداث سبقت جهوده المبذولة، فقد أحبطته أيّامُ يونيو ١٨٤٨[١٠٤]، فهل سيكون مآل الثورة هو التّلاشي في ارتجال مأساوي وأن لا تُبْلِجَ أَبَدًا العقيدة التي تَحْمِلُ في طيّاتها؟ في الوقت ذاته، وكمهتم بالدّيانة التي من شأنها أن تَضْمَنَ لصاعقة ١٧٨٩ مستقبلا دائما، واصل "لاهوتِيّ الشّعب" بِدَأْبٍ جهوده التّبشيرية في دروسه الأخيرة بكوليج دوفرانس حتّى إعفائه النّهائي في ١٢ أبريل ١٨٥٢ من مهامِّه كأستاذ بمنبر "التاريخ والعبرة" " l'histoire et la morale"بهذه المؤسسة[١٠٥] وفي الأجزاء المتبقية من مؤلَّفه: "تاريخ الثورة الفرنسية"، الذي صَدَرَ جزؤه الأخير سنة ١٨٥٣، وإزّاء هذه الخلفية شرع خلال شتاء ١٨٥٣-١٨٥٤ في صياغة كتابه: "المأدبة أو وحدة الكنيسة المقاومة" Banquet ou "Le l'unité de l'église militante" حتّى يكون ميثاقا للعقيدة الجمهورية، لكنّه لم يُتْمِمْهُ وتَخَلّى عن نشره[١٠٦]، وأصدر لاحقا مؤلفاته التّالية: "الذّاكرات الدّيمقراطية للشمال " "Légendes démocratiques du nord (١٨٦٣) الذي توالت حلقاته ابتداء من عام ١٨٥١، و"إنجيل البشرية" " Bible de l'humanité" (١٨٦٤) و"أبناؤنا" "Nos Fils"(١٨٦٩) الذي يفي جزئيًا بوعود التّربية الشّعبية لعام ١٨٤٨[١٠٧].

لا يتعيّنُ نسيان أن ميشليه يواصلُ كتابة أجزاء مؤلّفه: "تاريخ فرنسا" متطرّقا إلى مواضيع النّهضة[١٠٨] والإصلاح وإلغاء مرسوم نانت[١٠٩] وحرب الكاميزار[١١٠]. مع ذلك، فهو يظل غير مرتاح كعالم دينٍ مُختص بحقائق الإيمان، أكثر منه كراو للوَحْيْ الجديد. إذ يضع في معظم الأحيان إيدولوجية ذات طابع إنساني يستمد عناصرها من فلسفة الأنوار بَدَلاً من أن يستخلصها من نظرٍ جِدّي في سِرِّ الثورة. ففي مؤلّف "الشّعب" وفي دروس كوليج دوفرانس يتوقّف العرض فجأة عن أخذ مادّية الوقائع بعين الاعتبار. فميشليه لا ينتقل "عبرانحراف تام" إلى مثل هذا الخطاب الطّوباوي، إلاّ، عندما يتصرّف كمؤرخ، فهو يتظاهر بالإحجام. إذ لا يتعلق الأمر هنا بالدّيانة المعلنَةِ التي تتبلور بل بمدينة فاضلة أخرى، فرغم أنّها أَسْمَتْ "الكنيسة الكُبرى للعدالة، التي تُدخِلُ العديد من الشعوب والعصور، ظلّت قائمة

حتّى وصلت إلينا"[١١١]، فخاتمة مؤلَّفِهِ "إنجيل البشرية" لا تتيح دخول هذه الكنيسة ولا تُظهرها ولا تَفْتَحُ بَابَهَا [١١٢].

2/3- الرّهانات

واعيًا بعجزه حتّى وإن كان لا يُقِرُّ به عَلَنًا، وبعد أن اقتنع أن ساعة الكنائسية قد حانت سنة ١٨٥٤، فَكَّرَ ميشليه للحظة وتحديدا وهو بصدد صياغة مؤلّفه: "المأدبة، أو وحدة الكنيسة المقاوِمة" في الاعتماد على الاشتراكيين، ولا سيما على كل من إيميل بابوف Émile Babeuf (١٧٨٥ -١٨٤٢) الذي تُقرِّبُهُ منه ذكرى أبيه ڤراكشيس بابوف Gracchus Babeuf (١٧٦٠ - ١٧٩٧) الملتزم إزّاء أنصار المساواة[١١٣]، وفوريي Fourier (١٧٧٢ - ١٨٣٧) الذي لطالما أثار إعجابه؛ فتصوّر تحالفا بين"الكنيسة الجمهورية" والكنيسة الاشتراكية"، بين ذاكرة الثورة الفرنسية ونبوءة مجتمع جديد، بين التّقليد والعقيدة النّضالية للعدالة، وكل ذلك بحسبه: " الجمهورية وهي مُصابة اليوم ومُمَدَّدَةٌ، أحسّت أنّها في انبعاثاتها المقبلة ستمضي دائما، بشكل عابر، إذا هي اكتفت فقط بكتابة وإصدار القانون، وإذا هي لم تَجْعَلْهُ يَنْبُتُ في جِذْرٍ حي (...) وفهمت الاشتراكية، من خلال شهدائها، وهو ما عجز عن فَهْمِهِ كبارُ مثاليها في أحلامهم للوئام غير المشروط : أنّه، مَهْمَا كانت مصائر الإنسانية، فإن انسجامها يفترض دائما قطعة أُولَى ضرورية، حيث كل المؤشّرات، من الأرض إلى السّماوات: الواجب، ونكران الذّات، والتضحية. هذه، هي القطعة الذّهبية، إنّها الميدالية الخالدة التي وضعتها الثورة في أسس العالم الحديث."[١١٤]

إذا كان هذا المؤرخ قد بَدَا عاجزا عن أن يُحَدِّدَ بشكل مُسبقٍ الأساس والمضمون العقائدي لتحالف الدّيمقراطية المقدّس هذا، فقد اقترح له على الأقل عَبْرَ الإحالة على العشاء الأخير la Céne [١١٥] قدّاسا أكبر مقارنة بمأدبة أفلاطون Platon (٣٤٨- ٣٤٧ ق م/٤٢٨ - ٤٢٧ق م). فمادام أنّ "أي كِتَابٍ لم يُورِدْ بَعْدُ الرَّمْزَ الجديد"[١١٦] للدّيانة، [أي الاعتقاد في مبادئ ومكتسبات الثورة الفرنسية] فإنّه ينبغي تفضيل البادرة على المؤلّفات؛ ستتمثل هذه البادرة في القربان والاقتسام على مائدة مفتوحة: قربان طريف سيتطابق فيه نموذج الاحتفال الشّعبي الذي وضعه روسو في مؤلفه: "رسالة حول المهرجانات" "Lettre sur les spectacles" (١٧٥٨) مع نظيره القربان المقدّس، كما يشير إلى ذلك ميشليه بقوله: "أَنْ يَنْسَجِمَ الشّعب بنفسه، وقلبه، ويرى هناك مضيفه الخاص"[١١٧]. يبدو أنّه سيكون للإنسانية والعبادة الإنسية القول الفصل هنا، مع ذلك يُنَبِّهُ مؤرخنا سَيِّدُ الحفل فجأة إلى أنّ إله هذا الاحتفال حيث كل النّاس مدعوون كإخوة يمكنه أن يندمج مع إله الإنجيل الذي يدعو نفسه الأب "Le Père" مقترحا على الضّيوف أن يُصَلُّوا جميعا وِفْقَ الصّيغة التي علَّمَهَا المسيح، وهي القناعة التي يختزلها هذا المؤرخ قائلا: "أن يكون التزامنا تامًّا! فهذه هي الصّلاة العصرية، مواءمة الإنسان مع إله- الإله، نعني هنا بذلك أن نُسَمِّيَ الإله بالأب. يبقى من الأساسي قول هذا، لأنّه اليوم من بالتّالي، عَدَانَا نحن ربّما، يهتم به؟[١١٨].

إن رغبة ميشليه في إقامة المأدبة، تظل صادقة، متّقدة ومؤثرة لكنها طريدة، "فلاهوتيُّ الشعب" لا يقوم إلاّ بالكشف عن إمكانية توضيح عبر وحي العهد الجديد (أو القديم)[١١٩] الوحي الذي تلقّاه الثوريون الفرنسيون بدورهم. فإله الديانة التي يتبنّاها هذا المؤرخ يبقى بإصرار غير شخصي وأبكم، أمّا "الإرادة العامّة" التي تعمل في الثّورة فلا تقبل ديانة أخرى إلاّ وهي مُتَّخَذَةٌ بالإجماع، فعلى نقيض شعب إسرائيل أو القربان المقدَّس العالمي للقدّيسن[١٢٠]، فإن "شعب" ١٤ يوليوز تحالف مع نفسه فقط. فَكُلُّ ما قامت به الكنيسة الجمهورية أو الإشتراكية للمأدبة هو تقديس الجمهورية la République"، الجمهورية"" la *res publica* " أو المجتمع بشكل جرّيء. فهي تُنْكِرُ على إلهها التّسامي أو الوجود الذّاتي لإله الإنجيل، تاركة لمخرجي احتفالات الثورة تجريد الكائن الأسمى، محاولِةً في ذات الآن أن تُكَرِّسَ أمام "الثورة الكلاسيكية لروسو وروبيسبيير" "الثورة الرّومانسية التي تَـزْأَرُ مرتبكة خارج الأسوار كصوت للمحيط"[١٢١]، والتي يبقى ميشليه أحد أبنائها الشّرعيين والبررة.[١٢٢]

خاتمةٌ

تَوَسَّمَ ميشليه الثورة الفرنسية كإنجيل للتاريخ المعاصر يَحْمِلُ في طيّاته كل مقوّمات الدّيانة؛ لقد كانت أحداثها في نظره "سلوكيات لتَحَرُّكٍ جماعي ارتبط بفتح آفاق جديدة لمصير الإنسانية وإعطاء الحياة الفردية معنى آخر، أمّا الأحاسيس التي رافقت تجربة كهذه فظلت وهي منصهرة في قالب الوعي الثوري قادرة تماما على قلب الكائن والوعي السّائد."[١٢٣] من هذا المنطلق، وفي إطار سعيه إلى تأسيس ديانة للثورة الفرنسية تَغْمُرُ الجمهورية الفرنسية بتدين شعبي فقد أعطى هذه الثورة أو مؤسسة ١٧٨٩ على حد تعبيره سلطة وشرعية تكاد تكون مقدّسة، جاعلا من الشعب شخصية أسطورية أو "المسيح" في نسخته الحديثة.

لرُبَّمَا مع هذا المؤرخ فقط أخذت الثورة الفرنسية بُعْدًا دينيا غير مسبوق؛ وهو يحكي ميلاد المسيح الشّعب والأمل الذي تَوَلَّدَ وحياة ومغامرات الشعب كمُخَلِّصٍ جديد، تكون مقاربته للثّورة الفرنسية ما هي إلاّ محاكاة للنموذج الإنجيلي. فإذا كان جمهور المؤرخين يرى في هذا المنظور الشّبه ديني تساهلا لم يتَمَاشَ مع الدّقة التي تقتضيها الكتابة التاريخية، فقد أمدّها مع ذلك بقوة كبرى درامية لسرد الأحداث، وهو ما توضحه بول بوتيتيPaule Petitier (١٩٥٩- ...) بقولها: "انتقادُ ميشليه على افتقاره إلى الدقّة، كما أمكننا فعل ذلك؛ هو تجاهل القدرة الاستثنائية للمؤرخ والكاتب في الربط بين الجمالية الأدبية والذّكاء التاريخي في وصفه لاستيقاظ أمّة تكتشف أنّها ذات سيادة."(١٢٤).

الاحالات المرجعية:

(١) هناء حسين، **ما هو الوحي**، ٢- الوحي، موضوع أكبر موقع عربي بالعالم. / https:// mawdoo3.com
آخر تحديث: ١١:٠٨، ١٦ شتنبر٢٠١٨. - شوهد بتاريخ: ٨ ماي ٢٠٢١.

(2) Jean Pierre Rioux, La Révélation française de Michelet, L'âge de la Nature et celui du Christianisme, La Croix, De la-croix.com, proposé par Google, le 21/02/2019 à 06: 10 mis à jour le 21/02/2019 à 07:37.
- Vu le: 8 mai 2021.

(3) Romain Treffel, La Révolution française selon Michelet, La Révolution française constitue une rupture fondatrice, 1000-idées- de- culture-generale.fr
- Vu le: 8 mai 2021.

(٤) للمزيد حول موقف ميشليه من ثورة ١٨٣٠، راجع: -ياسين زينون، "**منطق الكتابة التّاريخية عند المؤرخ جول ميشليه Jules Michelet**"، أطروحة لنيل الدّكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس أكْدال، ٢٠١٣ - ٢٠١٤، ص ص: ١٧٢- ١٨٦.

(٥) **جول ميشليه**: (١٧٩٨-١٨٧٤)، مؤرخ فرنسي، من بين أهم مؤلفاته: "تاريخ فرنسا" "Histoire de France" الذي أصدره في سبعة عشر جزءا بين عامي ١٨٣٣-١٨٦٧. (التعاريف مستقاة من موسوعة Encyclopédie Universalis 2004).

(٦) **مرض القرن**: لَمَّا أصدر فرانسوا روني دوشاتوبريون François René de Chateaubriand (1768- 1848) سيرته الذاتية "روني" "René" سنة ١٨٠٢ كان قد بدا واضحا قلق الجيل الرّومانسي من فشله في إثبات وجوده وتجربته المريرة مع عدم توافق متطلّباته مع العالم والمجتمع. مثّل "مرضُ القرن" هذا الوعْيَ بعدم تَكَيُّفٍ جوهري للكائن المُرْهَفِ الحسّ مع محيطه الاجتماعي. لقد عَبَّرَ الكتّاب الرّومانسيون بذلك عن نوع من خيبة الأمل: فمن منظورهم فالعالم سيئ والمجتمع فاسد؛ هروبا من هذا الإحساس، انطوى الرومانسيون الشّباب على أنفسهم وأعطوا الأسبقية لحياتهم الدّاخلية، وحتّى يطردوا عنهم هذا الإحساس فقد كتبوا ورسموا ونحتوا ونقشوا.

(٧) **أغاني الشّفق**: ديوان شعري لفيكتور هيجو صدر عام ١٨٣٥، يطبعه الكرب والقلقُ اللّذان تسَلّلاَ إلى الحياة الشّخصية للشاعر. فَحُبُّهُ لجوليت دروي Juliette Drouet (١٨٠٦-١٨٨٣) أوحى له بهذه القصائد ذات الحماسة الكئيبة؛ في فترة تراجع فيها إيمانه الدّيني وأصبح يُحِسُّ في داخله " إزّاء الحاجة إلى الاعتقاد، بحاجة إلى الإلحاد". علاوة على ذلك، فقد أحبطته الحياة السياسية: إذ لم تَفِ ملكية يوليوز بوعودها اللّيبرالية، وتمت إعادة فرض الرّقابة على الصّحافة وحرية التعبير. ما حذا بهيجو في ديوانه هذا إلى محاولة استكشاف مستقبل فرنسا ثلاثينات القرن ١٩، بالتساؤل عمّا إذا كانت فترة الغروب المضطربة ستكون متبوعة بظلمة اليأس أم بفجر الأمل؟

(٨) كيف تنتهي العقائد: أصدر جوفروي مؤلّفه هذا سنة ١٨٢٣، وناقش فيه كيف تنتشر كل عقيدة إنسانية وتمتد وتُشْرَكُ وتختلط بحزب أو كنيسة إلى أن تغدو سائدة ومتصلبة ثم ضارة، فتندثر بالتالي فاسحة المجال لعقيدة أخرى.

(9) Alfred de Vigny, Servitude et grandeur militaires, Paris, éditions, Delloye et V. Lecou, 1838, p. 383.

(10) Charles Augustin Sainte-Beuve, Premiers lundis, t. II, deuxième édition, Paris, Michel Lévy frères, 1875, p. 28.

(١١) الكتابات المقدسة أو الكتابة المقدّسة في الخطاب المسيحي: هي الأقوال التي كتبها أو قالها القدّيسون رجال الربّ والمستوحاة من الرّوح القُدُسِ؛ فصفة "كتابي" "Scripturaire" (باللّاتينية سكريبتورا scriptura، كتابة écriture) تعني ما هو متعلق بالكتابات المقدّسة، والإنجيل هو تجميع للكتابات المشتركة بين الكنائس المسيحية.

(12) Jules Michelet, Histoire de la république romaine, t. III, Paris, Bibliothèque nationale, 7(ème) édition, pp. 235-236.

(١٣) للمزيد حول مفهوم المدينة عند ميشليه، راجع:- ياسين زينون، **"الأمّة الحداثية الفرنسية من منظور ميشليه"، دورية كان التاريخية**، السّنة الحادية عشرة، العدد التاسع والثلاثين، مارس ٢٠١٨ – جمادى ثاني ١٤٣٩، ثانيا: "الوطن" و"المدينة" كإطارين للأمّة الحداثية الفرنسية، ٢/٢ – مدينة الجميع، ص : ١٢.

(14) Jules Michelet, Introduction à l'histoire universelle, Paris, Ernest Flammarion, 1897, p. 467.

(15) Ibid., pp. 462-463.

(١٦) **السانزكيلوت**: كان الشّعب في مصطلح الثورة يعني الفلاّحين وعمّال المدن، فهو ذلك الخليط غير المتناسق الذي ضَمّ الجزارين والخبازين وصانعي الجعّة (البيرة) والبقّالين والطبّاخين والبائعين الجوّالين والحلاّقين وأصحاب المحلات والفنادق وتجار الخمور وصانعيها والنجّارين والبنائين الذين يَطْلُونَ البيوث والعاملين في مجال الزجاج وصانعي الجص وصانعي الأجر وصانعي الأحذية والخيّاطين والصبّاغين وعمال النظافة وصانعي الثياب والحدّادين والخدم وصانعي الآثاث وصانعي السّروج وصانعي العجلات والعربات والصّاغة وصانعي السّكاكين والنسّاجين والدبّاغين والعاملين في مجال الطّباعة وبائعي الكتب والعاهرات (المومسات) واللصوص. وكان هؤلاء العمّال يلبسون سراويل طويلة تصل إلى كفوف أقدامهم أكثر مما يرتدون السراويل القصيرة التي تصل إلى الرّكبة والمعروفة باسم "الكلتان" " Culottes" والجوارب على غرار أفراد الطبقات العليا، لذا فقد أطلِق على هؤلاء العمّال اسم "الفئة التي لاترتدي كلوتات" " Sans Culottes" صاحبة الدّور الحاسم في الثورة الفرنسية.

(17) Jules Michelet, Mémoires de Luther, écrits par lui-même, Bruxelles, éditions, Wouters frères, 1845, Introduction, p. 8.

(١٨) سر الأفخارستيا أو سر التّناول أو القربان المقدس: هو أحد الأسرار السّبعة المقدّسة في الكنيستين الكاثوليكية والأرتودوكسية أو أحد السرّين المقدّسين في الكنيسة البروتستانية. وهو تذكير بالعشاء الذي تناوله يسوع بصحبة تلاميذه عشية آلامه. يتم تخليد هذه الذكرى عبر تناول قطعة صغيرة ورقيقة من الخبز (تعرف بالبرشان) التي تمَثِّلُ جسد يسوع، وأحيانا تَذَوَّقُ أو غمس قطعة من الخبز في القليل من الخمر الذي يمثل دم يسوع.

(19) Jules Michelet, Histoire de France, t. V, Paris, Hachette, 1841, pp. 145-146.

(٢٠) بكوليج دوفرانس دخل ميشليه ابتداء من ١٨٤٠ في مواجهة مفتوحة مع القوى المناصرة للنظام القديم، للمزيد حول هذا الموضوع راجع: - يـ. زينون، **منطق الكتابة التاريخية...**، م. س، ص- ص: ١١٠- ١٢٦.

(21) Paul Viallaneix, Michelet, les travaux et les jours: 1798-1874, Paris, Gallimard, 1998, p. 561.

(22) Jules Michelet, Journal, t.I, (1828-1848), texte intégral, établi sur les manuscrits autographes et publié pour la première fois, avec une introduction des notes et de nombreux documents inédits par Paul Viallaneix, Paris, Gallimard, 1959, journal du 5 aout 1843, p. 517.

(23) Paul Viallaneix, Michelet et la Révélation de 1789, Romantisme, 1985, n° 50, Religions et religions, p. 62.

(24) J. Michelet, Journal, t .I, (1828-1848), op.cit., p. 39.

(٢٥) ساند ميشليه كفاح الشعب البولوني ضد الاحتلال البروسي والنمساوي والرّوسي، وفي هذا الإطار يندرج كتابه: "بولونيا الشهيدة" "La Pologne Martyr" الذي أصدره سنة ١٨٦٣، للمزيد حول هذا الموضوع، راجع:- يـ. زينون، **منطق** ...، م س، ص ص: ٢١٥-٢١٧.

(26) P. Viallaneix, Michelet et la Révélation de 1789, op.cit., p. 62.

(27) Jules Michelet, Histoire de la Révolution française, Paris, Robert Laffont, 1979, quatrième réimpression, 1998, t. I, Introduction, « De l'ancienne monarchie », p. 80.

(28) Ibid., t. II, p.198.

(29) Ibid., t.I , Introduction, « De la religion du Moyen – Age », p.51.

(30) Ibid., p.95.

(31) Ibid., p.102.

(32) J . Michelet, Histoire de la Révolution française, op.cit., tome. I, pp. 144-145, 153-154

(33) Ibid., tome. II, p. 245.

(34) Ibid., p.244.

(٣٥) **مذابح شتنبر**: كانت موجة من عنف العِصابات الذي استولى على باريس في الفترة ما بين ٢ إلى ٦ أو ٧ شتنبر ١٧٩٢، ما أسفر عن إعدام ما يقارب ١٢٠٠ سجين شنقا، وقد استمر العنف المفاجئ في أرجاء فرنسا ضد الكنيسة الكاثوليكية طوال العقد التّالي.

(36) P. Viallaneix, Michelet et la Révélation de 1789, op.cit., p. 63.

(٣٧) استمرت محاضرات هذا الدرس خلال الفترة الممتدة بين ١٦ يناير و٢٩ ماي ١٨٤٥، وكانت محاضرات الفصل الأول موسومة بـ: "ليس الثورة، بل المؤسسة"، واستمرت ما بين ١٦ يناير و٢٧ فبراير١٨٤٥ . أمّا دروس الفصل الثاني فانقسمت إلى فصلين: كان عنوان الفصل الأول "عن أنسنة الهمج" " homification des Barbares "De l'" وقد استمرت مابين ١٠ و٢٤ أبريل ١٨٤٥، أما دروس الفصل الثاني من هذا الفصل فكانت موسومة بـ "التّاريخ السّلبي للقرون الثلاثة الأخيرة" " Histoire négative des trois derniers siècles" وقد استمرت في الفترة ما بين ٨ و٢٩ ماي ١٨٤٥.

(٣٨) ينعَتُ ميشليه الثورة الفرنسية "بالمؤسّسة" لأنها مَثّلَتْ بمبادئها وتوصياتها قطيعة مع النّظام القديم، للمزيد حول هذا الموضوع، راجع:

- P. Viallaneix, Cours au Collège de France…, op.cit., tome. II, (1845-1851), cours de 1845, L'esprit et la portée de la Révolution, premier semestre :Non pas la Révolution mais la Fondation, pp. 17-47.

(39) Jules Michelet, Cours au Collège de France par Jules Michelet, tome. II, 1845-1851, publiés par Paul Viallaneix avec la collaboration d'oscar A Haac et d'Irène Tieder, Paris, Gallimard, 1995, cours de 1847, De la révolution, premier semestre : méthode et esprit de l'histoire, quatrième leçon, (jeudi 4 mars 1847), Etudier l'histoire, mépriser l'histoire, p . 208.

(٤٠) للمزيد حول موقف ميشليه من ثورة فبراير ١٨٤٨، راجع، يـ. زينون: **منطق**..، م. س، ص ص: ١٨٧- ٢٠٩.

(41) Jules Michelet, Cours professé au Collège de France par Jules Michelet 1847-1848, Paris, Chamerot 1848, septième leçon, 27 janvier 1848, (leçon non professée), p. 193

(42) J. Michelet, Journal, tome. I, (1828-1848), op.cit., p. 666.

(43) P. Viallaneix, Michelet et la Révélation de 1789, op.cit., p. 64.

(٤٤) لَقَّبَ ميشليه بهذا الاسم صديقه الشّاب أوجين نووويل Eugène Noël (١٨١٦ -١٨٩٩).

(45) François Auguste Mignet, Histoire de la Révolution française depuis 1789 jusqu'en 1814, tome. I, Paris, Didier et Cie et Firmin Didot Frères, 1869, Introduction, p. 38.

(46) Œuvres complètes d'Alexis de Tocqueville, publiés par Madame de Tocqueville, VIII, Mélanges : fragments historiques et notes sur l'Ancien Régime, La Révolution et l'Empire ; Voyages, Pensées : entièrement inédits par Alexis de Tocqueville, État social et politique de la France avant et depuis 1789, Paris, Michel Lévy Frères, 1865, p .52.

(٤٧) **التقويم الثوري** أو التقويم الجمهوري أو التقويم الجمهوري الفرنسي: أحدِثَ هذا التقويم في ١٥ ڤينديمير vendémiaire السنة الثانية الموافق لـ ٦ أكتوبر ١٧٩٣، واعتبرَ يوم إعلان الجمهورية بداية للتأريخ: ١ ڤنديمير السنة الأولى الموافق ٢٢ شتنبر ١٧٩٢. وقد تم اعتماده خلال الثورة الفرنسية وبين عامي ١٧٩٢ و١٨٠٦ ولفترة وجيزة من قبل كومونة باريس Commune de Paris (١٨ مارس ١٨٧١- ٢٨ ماي١٨٧١).

(48) P. Viallaneix, Michelet et la Révélation de 1789, op.cit., p. 64.

(49) Roland Barthes, Michelet, Paris, Seuil, 1995, p . 12.

(٥٠) **الخبر السعيد**: كلمة إنجيل من أصل يوناني وتعني البشارة المفرحة أو الخبر السّار، لذا وردت بصيغة المفرد. والخبر المفرح والسّار هو خبر واحد حمله السّيد المسيح، وهو خبر الخلاص الذي تمَّمَهُ بفدائه على خشبة الصّليب، فهذا هو الخبر السعيد الذي عمّ البشرية ابتداء من الرّب يسوع المسيح خلال وجوده على الأرض وإنجاز رسالته التي جاء من أجلها، ثم حَمَّلَ تلاميذه وَرُسُلَهُ مسؤولية حمل هذا الخبر إلى العالم. انظر: هل يوجد إنجيل واحد أم عدة أناجيل؟ ما معنى كلمة إنجيل معرفة: www.maarifa.org - شوهد بتاريخ : ٨ ماي ٢٠٢١.

(51) Alphonse de Lamartine, Histoire des Girondins, t. I, Paris, Furne et Cie W.Coquebert, troisième édition, 1847, p.47.

(52) Edgar Quinet, Le Christianisme et la Révolution française , Paris, édition, Au comptoir des imprimeurs-unis , deuxième édition, 1846, cinquième leçon, de la cité de dieu et de la cité de l'homme, p. 119.

(53) Ibid., treizième leçon, l'assemblée constituante et la convention, p. 334.

(٥٤) للمزيد حول مفهوم المِنّة عند ميشليه، راجع:

- J. Michelet, Histoire de la Révolution française, op.cit., tome. I, pp. 54-58.

(55) J. Michelet, Histoire de la Révolution française, op.cit, Introduction, « De la religion du Moyen-âge », p. 54.

(٥٦) **فيري الأكبر** (١٣٣٠ - ١٣٥٩): أحد الأبطال الفرنسيين خلال حرب المائة سنة والمنحدرين من منطقة بيكاردي.

- Cf.1- Colette Beaume, Le Grand Ferré ; Premier héros paysan.
-Et, Jean Froissant, Chroniques de Jean Froissart, Société de l'histoire de France, H. Champion, 1874, 428 p. (livre en ligne), p .38.

(57) P. Viallaneix, Michelet et la Révélation de 1789, op.cit., p.65.

(٥٨) **الحسُّ السّليم**: باعتبارها ترجمة لكلمة "Le sens commun" فهي حسن التقدير والحكمة التي تقوم على المفهوم البسيط للحالة أو الوقائع. من هذا المنظور تُعَادِلُ "الفطرة السّليمة" المعرفة والخبرة التي يمتلكها معظم الأفراد بالفطرة أو التي يستخدمها الشّخص، وهو المصطلح الذي يفترض وجوب فعلهم لذلك من عدمه. ويُعَرِّفُهَا قاموس كامبريدج (Cambridge Dictionary) بأنها المستوى الأساس للمعرفة العملية والحكم العملي الذي نَكُونُ جميعا في حاجة إليه لمساعدتنا على المعيشة بطريقة معقولة وآمنة.

(59) P. Viallaneix, Michelet et la Révélation de 1789, op.cit.p. 65.

(60) J. Michelet, Histoire de la Révolution française, op.cit, t.III, pp. 324-325.

(٦١) في فرنسا تولّىَ المؤتمر الوطني (١٧٩٢-١٧٩٥) السّلطة التنفيذية خلال السّنوات الأولى من عهد الجمهورية الأولى (١٧٩٢-١٨٠٤)، وقام بتشكيل الجمعية الدّستورية والتشريعية الفرنسية التي استمرت ما بين ٢٠ شتنبر ١٧٩٢ و٢٦ أكتوبر ١٧٩٥.

(٦٢) لجنة السّلامة العامة: أنشئت في ٦ أبريل ١٧٩٣ من طرف المؤتمر الوطني الفرنسي لمواجهة الأخطار التي تتهدّد الجمهورية (الاحتجاج والحرب الأهلية)، وتمت إعادة هيكلتها في يوليو من نفس العام وشكلت حكومة الأمر الواقع التنفيذية في فرنسا خلال عهد الإرهاب (٥ شتنبر ١٧٩٣- ٢٨ يوليوز ١٧٩٤).

(63) J. Michelet, Histoire de la Révolution française, op.cit., t. V, Paris, éditions. A. Le Vasseur, successions, 1800, p. 298.

(64) Jules Michelet, Histoire de la Révolution française, tome. V, Paris, A. Le Vasseur , 1800, pp. 297-298.

(٦٥) **اليعقوبية**: اتجاه سياسي يدافع عن السّيادة الشعبية وعدم تجزئة الجمهورية الفرنسية، وقد تأسس نادي اليعاقبة سنة ١٧٨٩ وتم حَلُّهُ في ١١ نونبر ١٧٩٤.

(66) Claude Blanckaert, "Les animaux « utiles » chez Isidore Geoffroy Saint - Hilaire : La mission sociale de la Zootechnie", Revue de Synthèse : IXe S.N os 3-4- Juillet - décembre 1992, p . 361.

(67) J. Michelet, Histoire de la Révolution française, op.cit., t. V, p. 180.

(68) Ibid., t. IV, p. 345.

(69) P. Viallaneix, Michelet et la Révélation de 1789, op.cit.p. 66.

(70) J.Michelet, Histoire de la Révolution française, op.cit., tome. I, p. 146.

(٧١) الماين ولابروتان منطقتان واقعتان في الشمال الغربي لفرنسا.

(72) J.Michelet, Histoire de la Révolution française, op.cit.,tome .IV p. 344.

(73) P. Viallaneix, Michelet et la Révélation de 1789, op.cit., p. 67.

(74) J.Michelet, Histoire de la Révolution française, op.cit.,, t. III, p. 325.

(75) Ibid., t. IV, p. 344.

(٧٦) **ديانة الكائن الأسمى**: كانت صيغة من الرّبوبية أسّسها ماكسيمليان روبيسبيير أثناء الثورة الفرنسية حتّى تكون الدين الرسمي للجمهورية الفرنسية الجديدة.

(77) P. Viallaneix, Michelet et la Révélation de 1789, op.cit., p. 68.

(78) Ibid.

(79) Ibid.

(٨٠) **أسينيا**: عملة ائتمان تَمَّ سكُّها إبّان الثورة الفرنسية، فَبَعْدَ "نظام لاو" "Système de Law" (١٧١٦ -١٧٢٠) كانت "الأسينيا" ثاني تجربة لعملة الائتمان تعرفتها فرنسا خلال القرن ١٨، لكن التجربتين فشلتا معا فشلا مُدَوِّيًا. في الأصل، كان يتعلق الأمر بسندات مديونية أصدرتها الخزينة سنة ١٧٨٩، تَمَّ ضمان قيمتها عبر رهن الأملاك الوطنية. وبعد أن أصبحت الأسنييات عملة التداول والتبادل سنة ١٧٩١، ضاعفت الجمعيات الوطنية إصدار هذه العملة ما أدّى إلى تضخمها، فتم إلغاء قانونيتها بموجب قانون ٢١ ماي ١٧٩٧.

- Cf. Albert Mathiez et Georges Le Febvre, Annales historiques de la révolution française, Firmin – Didot et Cie, 1988, p. 256.

(81) J. Michelet, Histoire de la Révolution française, op.cit.,tome.I, «Préface de 1847», p. 38.

(82) Ibid.

(83) J. Michlet, Cours professée..., op. cit., deuxième leçon (23 décembre 1847), pp. 59-60.

(84) J. Michelet, Histoire de la Révolution française, op.cit., tome.I, Préface de 1868, p. 45.

(85) P. Viallaneix, Michelet et la Révélation de 1789, op.cit., p. 69.

(86) Ibid.

(87) J.Michelet, Cours professé ..., op. cit. , dixième leçon, (17février 1848), (leçon non professée), pp. 290-291

(٨٨) **الجيرونديين**: هم أعضاء حزب سياسي نشأ أثناء الثورة الفرنسية، وسمي بهذا الاسم لانتماء معظم قادته لمقاطعة جيروند.

(89) Jules Michelet, Histoire de la Révolution française, t. VII, Paris. Editions. A. Le Vasseur, 1800, p. 169

(٩٠) **الدستور المدني لرجال الدين**: هو ظهير أعاد تنظيم الكهنوت العلماني وأسّس الكنيسة الدستورية بفرنسا تبنّته الجمعية الوطنية الدستورية في ١٢ يوليوز ١٧٩٠ ووافق عليه لويس ١٦ Louis XVI (١٧٥٤-١٧٩٣) مكرها في ٢٤ غشت ١٧٩٠. بعد أن أدان البابا بي السّادس Pie VI (1717-1799) هذا التنظيم الجديد في ١٠ مارس ١٧٩١ انقسم الكهنوت الفرنسي إلى دستوري ومنشق. وقد ألغِيَ هذا الظهير بموجب اتفاقية الكونكوردات الموقعة بباريس في ١٥ يوليوز ١٨٠١ بين نابليون بونابرت Napoléon Bonaparte (١٧٦٩-١٨٢١) والبابا بيوس السابع Pie VII (١٧٤٢-1823).

(91) Jules Michelet, Histoire de la Révolution française, t. II, Paris, éditions, J.Hetzel et Cie, « de la méthode et de l'esprit de ce livre », p. 124.

(92) Ibid., tome. II, p. 189.

(٩٣) بناء على مبادرة من نادي بريتون Club breton الذي سَيُعْرَفُ لاحقا باسم نادي اليعاقبة عقدت الجمعية التأسيسية الوطنية الفرنسية (١٧٨٩-١٧٩١) ليلة ٤ غشت ١٧٨٩ اجتماعا تم التصويت خلاله على الاعتراف الأول أو قانون إلغاء الامتيازات الإقطاعية.

(94) Jules Michelet, Histoire de la Révolution française, op.cit.,t. VII , Paris, 1800, A. Le Vasseur, pp. 168-169.

(95) J. Michelet, Histoire de la Révolution française,op.cit., tome. VII, p. 204.

(96) Jules Michelet, Histoire de la Révolution française, tome. VII, Paris, Chamerot,1853, p. 235.

(97) P. Viallaneix, Michelet et la Révélation de 1789, op.cit.,p. 70.

(98) J. Michelet, Histoire de la Révolution française, op.cit.,t. IV , p. 345.

(99) Jules Michelet, Le Banquet papiers intimes, Paris, Calmasin Lévy, Première édition, 1879, p.196.

(١٠٠) انقسم هذا الدّرس إلى فصلين: فمحاضرات الفصل الأول كانت موسومة بـ:" منهجية وفكر التاريخ" "Méthode et esprit de l'histoire" واستمرت ما بين ١١ فبراير و١٨ مارس ١٨٤٧، أمّا دروس الفصل الثاني فكان عنوانها:" حول القرن ١٨ والثورة" "Sur le XVIII siècle et la Révolution" واستمرت مابين ٦ ماي و١٧ يونيو ١٨٤٧.

(١٠١) أصدر ميشليه هذه الدروس العشرة سنة ١٨٤٨ عن دار النشر شامورو Chamerot تحت عنوان: "الدروس المُدَرَّسَة بكوليج دوفرانس " "Cours professé au Collège de France" . بعد

وفاته، نشرت أرملته أثينابيس ميالري Athènais Mialaret (1826-1899)سنة ١٨٧٧ هذا المؤلف موسومًا بـ: "الطّالب" "l'Etudiant" عن دار النشر كالمان ليفي Calmann Lévy. كان عنوان درس ١٨٤٨: "أن نريد التآخي" " Faire vouloir la fraternité "، وانقسم إلى فصلين: فدروس فصله الأول كانت موسومة بـ " أن يكون المثقفون غير مثقفين" "Que les lettrés se fassent illetrés" واستمرت ما بين ١٦ دجنبر١٨٤٧ و١٧ فبراير ١٨٤٨، أما دروس فصله الثاني فكان عنوانها "الديانة أخيرا ممكنة" La religion enfin possible" " واستمرت خلال الفترة الممتدة بين ٧ ماي و١١ يونيو ١٨٤٨.

(102) P. Viallaneix, Michelet et la Révélation de 1789, op.cit., p. 71.

(103) Lettre citée dans La Voie Royale, IV, I, édition, Flammarion, 1971, p. 373.

(١٠٤) **أيّام يونيو ١٨٤٨**: تمثل هذه الأيّام نهاية لثورة ١٨٤٨؛ ففي ٢١ يونيو ١٨٤٨ وبضغط من الجمعية الوطنية الدّستورية أصدرت اللّجنة التنفيذية مرسوما يُلزم الشباب أقل من ٢٥ سنة بالانخراط في الجيش ويُعلمُ الآخرين بالاستعداد للذّهاب إلى الضّاحية، وإلاّ فسيتم وقف أجورهم. كان هذا في الواقع حَلاًّ للأوراش الوطنية؛ ما خلّف استياء عارما لدى العمّال الباريسيين عبرّوا عنه في ٢٣ من الشهر ذاته بنصبهم المتاريس في العاصمة الفرنسية. في اليوم الموالي عهدت اللّجنة التنفيذية للجنرال كافينياك Cavaignac (١٨٠٢ -١٨٥٧) بكامل الصلاحيات لكبح جماح المتمرّدين. وفي مساء اليوم نفسه تمكن كافينياك من احتواء التمرّد، و استعادت قواته البانتيون Le Panthéon في صباح ٢٥ يونيو واقتحمت المتاريس بعد معارك دامية لقي فيها أسقف باريس دينيس آفر Denys Affre (١٧٩٣ -١٨٤٨) حتفه، فيما جرت آخر المعارك يوم ٢٦ يونيو. أسفرت هذه الأحداث عن مقتل ١٦٠٠ جندي نظامي و ٤٠٠٠ من المتمردين، وعن اعتقال ١٥ ألف متمرد وترحيل ٤٣٠٠ آخرين إلى الجزائر.

-Journées de juin 1848, Encyclopédie Larousse en ligne ; https://www.larousse.fr.

- Vu le: 8 mai 2021.

(١٠٥) للمزيد حول هذا الموضوع، راجع: ياسين زينون، "**منطق الكتابة التاريخية**..."، م ، س، ص: ١٤٤، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤.

(١٠٦) P. Viallaneix, Michelet et la Révélation de 1789, op.cit., p. 71.

(١٠٧) Ibid.

(١٠٨) للمزيد حول مفهوم النهضة الأوربية عند ميشليه، راجع: ياسين زينون، "مفهوم النهضة الأوربية عند ميشليه"، **مؤسسة مؤمنون بلاحدود للدراسات والأبحاث**، قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية، فئة مقالات، سبتمبر ٢٠١٧.

(١٠٩) **مرسوم نانت**: بعد خمسين عاما قضتها فرنسا في الصّراع الدّيني والانقسام الدّاخلي، وَقّعَ هنري الرّابع Henri IV (١٥٥٣-١٦١٠) في ١٣ أبريل ١٥٩٨ بمدينة نانت على هذا المرسوم الذي سمح للبروتستانت الفرنسيين أو الهيجونوت Huguenots بحكم حوالي مائة مدينة محصّنة لمدة ثماني سنوات، وضَمِنَ لهم حرية الاعتقاد والمساواة الاجتماعية والسياسية مع الأغلبية الرومانية الكاتوليكية وحرية العبادة. حتى وفاة الملك سنة ١٦١٠ طُبّقَ القرار بجدية، وفي سنة ١٦٨٥ ألغاه لويس ١٤ Louis XIV (١٦٣٨– ١٧١٥) ما أرغم نحو ٢٠٠،٠٠٠ هيجونوتي على النزوح من فرنسا.

(١١٠) **الكاميزار**: هم بروتستانت فرنسيون هيجونو من منطقة سيڤين Cévennes جنوب فرنسا، تمرّدوا ضد الاضطهاد الذي تلي إلغاء ميثاق نانت la Révocation de l'Édit de Nantes سنة ١٦٨٥ اختمرت لديهم فكرة التمرد خلال الفترة الممتدة بين عامي ١٦٨٥ و١٧٠٠. بعد أن تمت تصفية معظم رعاتهم وفرار بعضهم، وجد الكاميزار أنفسهم بدون قادة، فَحَلَّ الملهَمون محلَّ الرّعاة؛ والملهمون: هم رسل دون تكوين كانوا يَدْعُونَ أحيانا إلى الثورة العنيفة. في هذا السياق، تأتي حروب سيڤين (١٧٠٢-١٧٠٤) التي خاضها القرويون البروتستانت ضد القوات الفرنسية بسيڤين وبا لونكدوك Bas- Languedoc جنوب فرنسا.

-Cf. Philippe Joutand, Les Camisards, Gallimard, 1976, p.59.

(111) Jules Michelet, Bible de l'humanité, Paris, Chamerot, 1864, « Conclusion ». p. 486.

(112) P. Viallaneix, Michelet et la Révélation de 1789, op.cit pp. 71-72.

(١١٣) **مؤامرة أنصار المساواة**: هي محاولة فاشلة للانقلاب على حكومة الإدارة (١٧٩٥-١٧٩٩) قادها بابوف وزملاءه ضدا على غلاء المعيشة وتردي الوضع الاجتماعي وسيادة المجاعة في الأحياء العمّالية للمدن الكبرى وتنامي الخطر الملكي. ففي ٣٠ مارس ١٧٩٦ تشكّل مجلس ثوري بقيادة بابوف ضم كلا من بيير أنطوان أنطونيل Pierre Antoine Antonelle (١٧٤٧ -١٨١٧)، وفليب بيناروتي Philippe Bunarroti (١٧٦١ -١٨٣٧) وأوغستين دارتي Augustin Darthé (١٧٦٩ -١٧٩٧) وفليكس لوبولتيي Félix Lepeltier (١٧٦٧ -١٨٣٧) وسيلڤان ماريشال Sylvain Maréchal (١٧٥٠ -١٨٠٣). وقد استعان الانقلابيون بعدة عملاء، اثنان منهما بالجيش هما: شارل جرمان Germain Charles(١٧٧٠ -١٨٣٥) وجورج گْريزل Georges Grisel (١٧٦٥ -١٨١٢) إضافة إلى بعض رؤساء الأقسام الباريسية إبّان الثورة الفرنسية أمثال: تيريون ديديي Thirion Didier (١٧٦٣ -١٨١٥)، وكانوا يُعَوِّلُون على دعم ديموقراطيي العام الثاني وعلى منخرطي جريدة: "خطيب الشّعب" "Le Tribun du peuple" الذين لم يَدْخُلُوا السرية لجلب الفئات الشعبية في أفق أخذ السّلطة وإقامة دكتاتورية ثورية مؤقتة لتصريف الأعمال. لكن بعد إبلاغها من طرف العميل المزدوج گْريزل أوقفت الشرطة الفرنسية المتآمرين في ١٠ ماي ١٧٩٦؛ أربعة أشهر بعد ذلك، وفي علاقة بالمؤامرة، أُحبطت ليلة ٩- ١٠ شتنبر ١٧٩٦ محاولة تمرد في معسكر گْرونيل Grenelle، و تم اعتقال ١٣١ شخصا وإعدام ٣٠ آخرين، فيما حُكم بالإعدام على كل من بابوف ودارتي ونُفذ فيهما الحكم في ٢٧ ماي ١٧٩٧.

-Cf. Conjuration des Égaux (1796 -1797), Encyclopédie Larousse en ligne.

https://www.larousse.fr. - Vu le: 8 mai 2021.

(114) J. Michelet, Le Banquet, papiers intimes, op. cit, pp. 151-152.

(١١٥) **العشاء الأخير**: طبقًا للعهد الجديد هو عشاء عيد الفصح اليهودي التّقليدي، كان آخر ما احتفل به يسوع مع تلاميذه قبل أن يتم اعتقاله ومحاكمته وصلبه. يعتبر الحدث شديد الأهمية؛ فمن خلاله تأسّس سرّ القربان المقدّس وقدّم يسوع خلاصة تعاليمه ويمثل المقابل الإنجيلي لمناسبة خميس الأسرار. (يعرَفُ خميسُ الأسرار أيضًا بالخميس المقدّس وهو عيد مسيحي أو يوم مقدّسٌ يسبق عيد الفصح، يتم فيه إحياء ذكرى العشاء الأخير ليسوع المسيح مع تلاميذه وفق الإنجيل المسيحي).

(116) J. Michelet, Le Banquet, papiers intimes, op. cit., p.234.

(117) Ibid.,

(118) Ibid, pp. 284-285 .

(١١٩) **العهد القديم**: هو الجزء الأكبر من الكتاب المقدّس ويحتوي على جميع كتب اليهود بما فيها التوراة (الكتب الخمسة الأولى)، ويعرف بالتناخ وهي كلمة مركّبة من الحرف الأول لكل قسم من أقسامه: توراه (التوراة) نبييم (الأنبياء) وكتوبيم (الكتب). تبقى مواضيع هذه الأسفار مختلفة، فإذا كان سفر التّكوين قصصيًا بالأولى، فإن سفر اللاّويين تشريعيّ بالأخرى، أمّا سفرا المزامير ودنيال فهما على التّوالي تسبيحي ورؤيوي. أما العهد الجديد، فهو الجزء الثاني من الكتاب المقدّس لدى المسيحيين. يحتوي العهد الجديد على ٢٧ سِفْرًا وهي الأناجيل الأربعة: إنجيل مَتَّى، وإنجيل مُرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنّا، إضافة إلى أعمال الرّسل، وأربعة عشر رسالة لبولس الطرسوسي Paul de Tarse (حوالي القرن ٥ الميلادي- بين ٦٤ و٦٧ ميلادي.) وسبع رسائل لرسل وتلاميذ آخرين وسفر الرؤيا.

(١٢٠) **طائفة القديسين**: هي جماعة كل أولئك الذين تلقّوا من الرّوح القدس نعمة الاستصلاح الذي من خلاله هم أبناء الله المتعظون بالمسيح ويسمون القِدّيسين.

(121) J. Michelet, Histoire de la Révolution française, op.cit, tome . VII, A. Le Vasseur, 1800, pp. ٢٠٣ ٢٠٢.

(122) P. Viallaneix, Michelet et la Révélation de 1789, op.cit pp. 72-73.

(123) R. Treffel, La Révolution française selon Michelet, op.cit., La Révolution francaise est un événement de dimension religieuse, 1000- idées- de- culture-generale.fr

(124) Paule Petitier, Histoire de la Révolution Française de Jules Michelet (Tome.2), dialogues, Librairie, https://www.librairiedialogues.fr/livre/14795668-histoire-de-la-révolution-française-2-Jules-michelet-galliamard,
- Vu le: 8 mai 2021.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الكتابة المناقبية في الغرب الإسلامي
دراسة في بعض الملامح



د. رشيد اليملولي
دكتوراه وطنية في التاريخ الوسيط
أستاذ الثانوي التأهيلي
مكناس – المملكة المغربية

مُلَخّص

تُعَدّ الكتابة المناقبية، خاصةً تلك التي نهتم بتراجم الرجال من القضايا الإشكالية الجديرة بالاهتمام، بالنظر إلى طبيعة المادة المعرفية والمنهجية والتاريخية التي تقدمها، كما تعزى أهميتها الإشكالية أيضًا إلى طبيعة الكتابة نفسها، والتي وإن بدت متباينة في قيمتها مع باقي أصناف الكتابة في المجال الحضاري الإسلامي، فإنها في جوهرها امتداد طبيعي لمسار الكتابة عمومًا، في قدرتها على التعبير عن تطلعاتها وحاجاتها الاجتماعية والسياسية والقيمية، والدفاع عن خصوصيتها "الذاتية"، في خضم الصراع ضد باقي القوى الفاعلة في التاريخ الإسلامي. لذا لم تكن هذه الكتابة في حقيقتها إلا واجهة للدفاع عن شرعية الوجود والاختلاف معًا، أي أنها كباقي نظيراتها لا تدخر جهدًا ووسعًا في التعامل مع مناقبها وأخبارها، بالطريقة المعهودة عمومًا في الكتابة المُنافحة عن تيار أو فكرة وذلك باعتماد الطمس والإخفاء والانتقاء، وتصيد المناقب والإعراض عن المثالب. من هذا المنطلق تخوض هذه المحاولة في معرفة خصائص هذه الكتابة التي ميزنا فيها بين أنواع ثلاثة: مجالية، ورمزية، ونخبوية، كما تسعى معرفة منحى تطور هذه الكتابة ورصد سماتها، في أفق رصد الخلفيات الثاوية وراء كل نوع، والوحدة التي تؤلف فيما بين هذه الأنواع. إن إجالة النظر في هذه الكتابة يسمح لنا بالقول أننا إزاء تطور خاص ونوعي، قامت في مستواها الأول على الترجمة المجالية للحواضر المشهورة في الغرب الإسلامي، لتعبر في تقديرنا عن قاعدة اجتماعية لها هوية صوفية أصبح امتدادها واقعا ملموسا، لتعني المرحلة الثانية ارتقاء القاعدة الاجتماعية لإنتاج رموزها و"قادتها" سواء كانوا أسماء شائعة كأبي يعزى أو أبي مدين، أو الانتظام في سلك طائفة أو جماعة تنتظم نحو مؤسس يصيغ لها مبادئها وطقوسها، والكتابة في هذا المستوى هي محاولة إصلاحية وتصحيحية لما شاب ممارسات القاعدة الصوفية من شوائب اقتضت الضرورة إعادة تصويب المسار وتقويمه، لتتحول المرحلة الأخيرة إلى إدخال الممارسة الصوفية إلى عالم النخبة والفقه معا ليتجاوب مع قضاياها وهواجسها.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٢	مايو	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٣٠	مايو	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:
التصوف المجالي؛ التصوف الكاريزماتي؛ تصوف النخبة؛ الطائفة الماجرية والغماتية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.232613

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
رشيد اليملولي، "الكتابة المناقبية في الغرب الإسلامي: دراسة في بعض الملامح".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثاني والخمسون؛ يونيو ٢٠٢١. ص ٢٣٨ – ٢٥٦.

Corresponding author: rachidyamlouli@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

يعتقد الجابري[1] أن الحضارة الإسلامية حضارة فقه بامتياز بالنظر إلى حجم منتوجها ونوعيته، في حين يرى دارس مهتم[2] أن التصوف الإسلامي يبدو وكأنه المجال الإبداعي الذي انفرد بخاصية التنوع والتعدد، بل والخصوبة التي قل نظيرها. وإذا كانت هذه السمة عامل قوة فإنها بالمقابل تمثل عقبة أمام إمكانية دراسة هذا المجال دراسة علمية تستوفي كل النصوص المعبرة عن هذا المجال، سواء من حيث طبيعتها وخصوصيتها ومكوناتها، والضوابط الحاكمة والمنظمة لها قولاً وفعلاً.

انخرط الغرب الإسلامي مبكرًا في إنتاج أدبه الصوفي سعيًا منه لإثبات استمرارية هذا المتن في هذا الجناح الخاص به، ورغبة في تأكيد أحقيته وجدارته في التعبير عن خصوصيته وأصالته، وإن لم يكن في فلسفته غير منفصل عن مثيله في المشرق انفصالاً حديًا واضحًا، والحال أن التأليف المناقبي وعلى الرغم من أصالته وقدرته في تغطية بعض الجوانب من تاريخ الغرب الإسلامي، فإنه ظل مسكونًا بعطل لازمه منذ البداية، حيث جاء تاليا للتجربة غير مزامن لها، يحاول جاهدًا إعادة صياغة "الحدث" المناقبي بما يتساوق وهواجس المؤلف وضوابط الكتابة، أي أن تجربة التصوف العملية والتاريخية قد تفيد أنها تجاوزت التأليف واحتوته، حتى وإن سجل أعلامه ورموزه ومريديه، فقد كان قاصرًا عن الإحاطة الشاملة بمجمل الكتلة الصوفية، وما أخبار صلحاء رجراجة للمؤلف المجهول، والسر المصون للصدفي، ومستفاد التميمي (٦٠٣هـ أو٦٠٤هـ / ١٢٠٦م أو١٢٠٧هـ)، وتشوف التادلي (ت ٦٢٧هـ / ١٢٣٠م)، ودعامة العزفي (ت ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م)، إلا عناوين لا تختزل الظاهرة وتحيط بها، ولكن تقدم صورة مصغرة عن ظاهرة " فشلت " الكتابة في احتوائها في مؤلفات بعينها واختزالها في مجالات محددة وأسماء معينة.

تشير بعض الدراسات المتخصصة[3] أن القرن (٦هـ / ١٢م) امتاز بوجود نوعين من الكتابة المناقبية؛ تهدف الأولى إلى تقديم مبادئ التصوف وقواعده وتبسيطها، في الوقت الذي ترصد الثانية مناقب وتراجم أهل هذا المجال، يمثل العينة الأولى أبومدين (ت. ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م) وأبو محمد صالح (ت. ٦٣١هـ/ ١٢٣٤م)، ويدخل في خانة النموذج الثاني كل من التميمي وابن الزيات، وعلى خلاف ذلك ترى حلمية فرحات [4] أن المصادر المناقبية نوعان يضم الأول منها السر المصون، والمستفاد، والتشوف، ويدخل في النوع الثاني كل من المنهاج الواضح، والمقصد، والوسيلة، والسلسل، وتحفة المغترب، ويضاف إليهم كل من أنس الفقير، والمسند الصحيح.

تنتمي المجموعة الأولى -حسب الدراسة ذاتها-إلى العصر الموحدي وتترجم لآثار العقاب باستثناء السر المصون، ومن سمات هذه المجموعة تأثرها بمدرسة ألمرية، وبالأجيال الأولى لمريدي ابن العريف (ت. ٥٣٦ هـ ١١٤١م)، كما تشترك غالبيتها في علاقة التوتر مع السلطة المرابطية فيما سمي بعملية الإشخاص والتغريب. ونحسب أن الدارسة لم توفق في هذا التصنيف؛ إذ السر المصون للصدفي ومستفاد التميمي لا يعبران عن الآثار الناجمة للعقاب (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م)، وحتى مستفاد التميمي لا يعكس بالدرجة الأولى التوتر مع السلطة المرابطية، إذ الاعتراض السياسي لأولياء المستفاد لا يرقى إلى درجة الاقتناع بوجود مواقف ثابتة ومناهضة للسلطة القائمة مثلما هو الأمر بالنسبة لأولياء التشوف مثلاً مع السلطة المرابطية والموحدية. أما القسم الثاني من هذه المؤلفات (أواخر القرن ٧هـ/ ١٣م والقرن ٨هـ / ١٤م) فلا تشكل وحدة متكاملة تنفصل بموجبها عن المجموعة الأولى، إذ سارت على خط التذكير بالأولياء الأموات ومعجزاتهم وحياتهم المتألقة.

وصورة التجديد التي طبعتها هي تركيزها إما على إحدى الشخصيات الصوفية أو المجموعة الإثنية أو العائلة الروحية[5]، واستطاعت هذه العينة على خلاف النموذج الأول أن تصدح بمحاباتها للسلطة السياسية مثلما هو الشأن في مشروع السلسل العذب ورسالته، أومن خلال فلسفة المسند ومراميه المعلنة والخفية لعل أهمها الرفع من الرمزية "المناقبية" لسلطان سياسي إذا جارينا القول بإسناد هذا المؤلف التاريخي إلى كتب المناقب من خلال نوعية كتابته الميالة من حيث طبيعتها إلى هذا النوع من الأدب. وهذا التحول في مرامي الكتابة وأهدافها إنما يعزى إلى بداية الوعي بأهمية الكتابة ليس في منحاها العام الدال على كثرة المريدين والأتباع وتشعب انتماءاتهم، وإنما الدفاع عن خصوصية الخصوبة في امتداد المجال الصوفي وتحوله نحو الدور الذي لا يمكن تجاهله في حلبة الصراع الاجتماعي، وذلك إذا نظرنا إلى نوعية هذه الكتابة وطبيعة خطابها المباين في الكثير من الملامح لباقي أنواع الكتابة المعروفة في الثقافة الإسلامية والمختلف في نسق تشكله ورسالته.

وسيرًا على تقسيم التصوف سار دارس مهتم[6] على هدي التمييز في القرن (٨هـ/ ١٤م) بين تيارين؛ تمتد جذور الأول منهما إلى مدرسة أبي مدين (ت. ٥٩٤هـ / ١١٩٨م)، وتنبني على البعد

الأخلاقي القائم على محاسبة النفس وتقويم السلوك وفق ما يوصي به الدين، وضمنه تدخل جملة الطوائف منها الساحلية، والخزاعية، والبلفيقية، والأشعرية، والشاذلية وغيرها، وينتمي أنصار التيار الثاني إلى الصيغة الفلسفية في التصوف التي تؤمن بالتجلي والوحدة المطلقة، والرياضة الروحية للمعرفة والمكاشفة داخل حقل ما يسمى بالتصوف العرفاني ورموزه المعروفة كابن مسرة (ت ٣١٩هـ/ ٩٣٢م)، وابن العريف (٥٣٦هـ/ ١١٤١م)، وابن برجان (٥٣٦هـ/ ١١٤١م)، وابن قسي (٥٤٦هـ/ ١١٥١م)، وابن العربي الحاتمي (ت. ٦٣٨هـ /١٢٤٠م)، والشوذي (القرن ٧ هـ/ ١٣م)، وابن سبعين (٦٦٩هـ / ١٢٧٠م)، والششتري (٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م).

إلا أن هذه التقسيمات المعرفية والمنهجية وإن كانت مفيدة ودالة، لا تستطيع بحكم طبيعتها أن تختزل الكتابة المناقبية وتقحمها في أقسام ذات سمات محددة وفاصلة قد تحجب إمكانية النظر إليها في إطار سياقات ظهورها سواء كانت معلنة أو مضمرة، تجعل من الكتابة تعبيرًا عن مطالب اجتماعية أسماها الدفاع عن شرعية الوجود، ومشروعية الصراع وفق تصورها لهذا الصراع لضمان أحقية قيادة المجتمع ولو رمزيًا بعد أن استعصى الأمر ماديًا، ومنافسة باقي القوى ومنها السلطة والفقهاء. فالناظر إلى المؤلفات المناقبية يلاحظ أنها انتقلت من مستوى الترجمة المجالية لبعض الحواضر من خلال تركيز التشوف على مراكش وأعمالها، والتميمي على فاس وما والاها، والمقصد على الريف وما تبعه، نحو الدفاع عن تيار صوفي أو رمز للأولياء، أو جماعة معينة، أو الإشادة بطائفة كالماجريين والغماتيين على سبيل المثال لا الحصر، وهذا التحول لا يخلو في تقديرنا من رسالة وأفق مرهون بطبيعة الوجود الثقافي ضمن حظيرة الثقافة الإسلامية عموما وشرعنته، أو التركيز على الأحقية في الصراع من جانب الأدوات والوسائل التي ابتدعها هذا الأدب لتمرير خطابه والذود عنه.

ويبدو أن مسار ومنحى هذا التطور يعكس من وجه وعيا بتنامي الكتلة الصوفية واندراجها ضمن مصاف القوى الحية والمدافعة عن تيار اجتماعي، ويعني من جهة ثانية دفاعا عن شرعية رأي مخالف للفقهاء والسلطة معا، لترق هذه الهواجس باسم الكتابة إلى "مؤسسة" لها جهازها النظري والعملي المنافح عنها، سواء بالتركيز على الامتداد الجماعي، أو الاهتمام بالرموز الصوفية منذ العزفي ومرورًا بابن قنفذ (ت. ٨٠٧هـ/ ١٤٠٧. ١٤٠٨م) وصولاً إلى الصومعي، وهما عمليتان متوازيتان تخدمان الغرض ذاته في الدفاع عن هوية فكرية لها مرجعيتها الاجتماعية ووزنها العددي، ولها أيضًا رموز قيادتها ومنهم على وجه التحديد العزفي وأبو مدين.

أولاً: التصوف المجالي أو التغطية الإقليمية

إن النصوص التي تتحدث عن التصوف المجالي أو الترجمة "الإقليمية" عديدة، ومن سماتها الكبرى تفاوتها الزمني أي أنها لا تقتصر على فترة دون أخرى، والدال أن غالبيتها تتأطر زمنيًا في الفترة الوسيطة ومن أشهرها الصدفي في السر المصون، والمستفاد للتميمي، والتشوف للتادلي، والمقصد للبادسي (كان حيًا سنة ٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م)، وعنوان الدراية للغبريني (ت. ٧١٤هـ ١٣١٥م)، وهناك نصوص خارج هذه الفترة ومنها الروض العطر الأنفاس لابن عيشون (١١٠٩هـ / ١٦٩٧م) الذي ترجم لشخصيات انفردت بالعلم والعمل والصلاح اشتملت على مائة ترجمة من شيوخ القرن (١١هـ / ١٧م)[٧]، لذا سنركز على النصوص الخاصة بالعصر الوسيط دون أن يعني الأمر تجاهلا لما يوجد خارجها، فالأمر مرهون بطبيعة هذه الورقة التي تنبوعن الإحاطة بكل هذه المصادر ومنها الموجودة خارج مجال الدراسة.

اتبع الصدفي أسلوب التغطية المجالية، أي الترجمة لمجال يجمع بيئات ثلاثة هي المغرب والأندلس والحجاز، وقد سار وفق تحديد الأصول الاجتماعية والمشاغل المهنية لرجاله دون تجاهل تكوينهم العلمي[٨]، ومما يسترعي الانتباه أن الصدفي لا يعير اهتمامًا كبيرًا للزمن من خلال غياب سنوات الميلاد أو الوفاة أو غيرها من المعطيات المتعلقة بذلك، وذلك طيلة التراجم المبثوثة في السر المصون، وقد استعاض عن هذا الغياب بإيراد نماذج ترجمته وفق المجايلة، حيث أن جل المتصوفة الذين ذكرهم إما عايشهم أو سمع عنهم، كما استقى " مادتهم " من الرواية المباشرة سندنا في ذلك أن الصدفي استعمل صيغًا دالة على ذلك مثل "أخبرني من أثق به" [٩] ، أو "ذكر لي بعض أصحابه" [١٠]، إضافة إلى المعاينة المباشرة التي تدل عليها أفعال "لقيته" [١١]، أو "فارقته"[١٢]، أو "صحبته برهة"[١٣]، و "سمعته"[١٤].

توضح الصيغ المشار إليها آنفا أن الصدفي نهل من المصادر الشفوية المباشرة عن أسماء شيوخ، يصعب معرفة ثقلهم الروحي أو الصوفي أو إرثهم في هذا المجال، وإن أفصح في بعض الأحيان عن ذلك، فإن الصيغة المعبر بها تظل مبهمة، ولا أدل على ذلك من "حدثني بعض الصالحين"[١٥]، و"أخبرني بعض أصحابه وقال بعض أصحابه"[١٦]، مما يعني أننا بصدد مصادر إخبارية قوامها الذاكرة الخاصة بالمؤلف والناتجة أساسا عن تجواله وسياحته، وفي ذلك صدق رأي حليمة فرحات[١٧] حين

حسبت السر المصون التقاطا لذكريات سمعها الصدفي من شهود مشهود لهم بالإيمان، دون التفصيل في أي معطى تاريخي خاص بهم، وهو ما يجعل الكتابة المناقبية ومنها السر المصون كتابة ماهرة في استعمال الرواية الشفوية بما يلبي حاجتها ورغبتها في تأكيد روايتها[١٨]، وذلك الذي يدفع إلى افتراض أن الصدفي إنما جعل من الرواية الشفوية ومن مخبريه أصلاً خبريًا موثوقًا به وسندًا وحجة له في رواية تراجم رجاله.

ينطوي النص السالف على عطب منهجي يكمن في غياب مقدمة تفصح عن المنهجية في التبويب والفهرسة، إضافة إلى الدوافع أو الدافع الذي حركه للكتابة، ومرد هذا الغياب في تقديرنا وبناء على طبيعة النص المحقق أننا حيال نص مباشر يهتم قسرًا بالرجال وتراجمهم دون أي هاجس آخر سواء تعلق الأمر بالجانب الكلامي في التصوف، أو جوانبه الشرعية الخاصة بالأصول الشرعية للكرامة أو الولاية مثلاً. وتلازم السر المصون سمة أخرى هي الإعراض عن ذكر صاحب الإحياء وقضية الإحراق، وتعتقد دارسة مهتمة[١٩] أن هذا السكوت مستغرب ومن الصعب أن يكون صدفة، كما يعرض الصدفي إعراضًا تامًا عن ذكر الألقاب الخاصة بالسلطة مثل أمير أو سلطان فلاني، ونزعم أن هذا التجاهل وإن كان سمة تميز الكتابة المناقبية عمومًا، فلا يعكس إلا رغبة مؤطرة بخلفية موقف معين على الرغم من أن المؤشرات الدالة على ذلك من النص غائبة بشكل مباشر.

ومن بين أهم النصوص التي أسهمت في تأطير الحركة الصوفية في الغرب الإسلامي نص المستفاد للتميمي، الذي رنا ببصره نحو المتصوفة الذين عاشوا ما بين القرن (الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي)، في فاس ومحيطها حسب ما يشي به عنوان القطعة. ينطلق التميمي من المكان على حساب الزمن لصيغ خريطة حاضرة فاس وما يليها من الناحية الصوفية، إذ يعدد من مناقب رجاله من حيث التنشئة الاجتماعية والسلوك الشخصي، والانخراط في قضايا المجتمع[٢٠]، على أن السمة الغالبة على المستفاد هي عدم الانضباط لقاعدة زمنية أو مجالية محددة، على الرغم من أن العنوان يشير إلى حاضرة فاس وأعمالها، كما أن هوية الأولياء والزهاد غامضة ومبهمة[٢١].

اعتمد التميمي في عرض مترجميه على الأشياخ الصوفية بدرجة كبيرة؛ حيث سادت أساليب أخبرني/ حدثني الشيخ الفلاني، دون أن يعني ذلك أنها كانت مصدره الوحيد، فقد أخذ عن طريق السماع أيضًا[٢٢]، واستقى أيضًا من الجيران[٢٣]، والأصحاب[٢٤]، والتجار[٢٥]، وبعض أهل الرباط[٢٦]، أو من أبيه[٢٧]، أو أحد أبناء الولي[٢٨]، أو الثقاة من الرواة[٢٩]، ونادرًا ما يبني أخباره للمجهول "أخبرت عنه"[٣٠]، وهناك أخبار أخذها بشكل مباشر مثلما هو الأمر بالنسبة للشيخ أبي يعزى: "وإنما أذكر في هذا الباب ما شاهدت منه إلا حكايتين عن غيري."[٣١] كل ذلك يفيد أن التميمي استباح كل المصادر الممكنة للرقي بترجماته نحو الحجية المأمولة مضفيًا عليها صبغة المصدر الموثوق به، وقد أجاد دارس نابه[٣٢] في تحديد مصادر المستفاد والتي شكلت فيها مشاهدات المؤلف ومعايشته نسبة ٥٧،٤٥% أي مائة وثمانية وخمسون ترجمة، والرواية الشفوية نسبة ٩،٣٧٠% أي ما يعادل مائة واثنان ترجمة، في حين قدمت المصادر الكتابية خمسة عشر ترجمة أي نسبة ٥،٤٦%.

يوصف التشوف بالمصدر المناقبي الذي يختزن العديد من سمات هذا الأدب، وترتد هذه الأهمية لطبيعة المصدر؛ فهو تتويج لمسار الكتابة التي أرساها الصدفي والتميمي وأضرابهما، ولخصوصيته في توجيه الكتابة المناقبية التي جاءت فيما بعد، ونسجت على شاكلة التادلي إن تكملة أو نقدًا وتصويبًا، وإن وجدت تباينات فهي تخص سياق التأليف والدوافع الكامنة وراءه، أما نسق الكتابة فقد ظل ثابتًا. يغطي التشوف مجال مراكش وأعمالها ومن قدم إليها من الفضلاء، كما يذكر أهل هذه البلدة وإن ماتوا بغيرها[٣٣]، وقد وصل عدد المترجم لهم مائتان وتسعة وسبعون وليًا منهم تسعة عشر مجهولاً: "وقد ذكرت من جملة المجهولين والمجهولات، إذ المقصود إيراد عجائب أخبارهم لعل الله أن ينفع بها"[٣٤].

تعتقد حليمة فرحات[٣٥] أن التشوف أهمل ثقافة أوليائه، وترى على المنوال ذاته نيللي سلامة العامري[٣٦] أن التادلي لم يميز بين الأولياء في العرق أو السلم الاجتماعي أو الثقافي، وذلك حين جمع في خانة واحدة الهويات المضبوطة وغير المضبوطة، ونميل إلى الاعتقاد أن ابن الزيات انطلق في هذا المستوى من قاعدة اجتماعية تؤطر عموم الفئات التي اعتنقت التصوف في إشارة إلى حجمها وكتلتها وليس نوعيتها، والتفصيل الدقيق في تراجمها، لذلك زاوج ابن الزيات حسب أحد الدارسين[٣٧] في ترجماته بين الولي الوافد والأصيل بصرف النظر عن الفروق الثقافية بينهم، إذ كان هاجسه التعبير عن هوية المكان من الناحية الصوفية، وحتى الزمان الذي وإن كان حضوره أقل بالمقارنة مع المكان، فهو حاضر من خلال التركيز أحيانًا على سنة الوفاة التي غالبًا ما كانت قبل سنة التأليف (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م)[٣٨].

تحرى ابن الزيات النقل عن أهل الثقة والأمانة والصلاح والخير: "وربما ذكرت بإسنادي ما نقلته من ذلك، وربما سمعت الخبر من عدة طرق بألفاظ كثيرة، فاعتمدت على أصحها سندًا، وأقربها إلى الصواب لفظًا، ونبهت عند ذكر كل رجل ذكرته على مقامه المعلوم له"[٣٩]، وقد حاول الاقتصار على مَنْ عاصرهم أو سمع عنهم خاصةً الأموات دون الأحياء[٤٠]، واشتمل هذا التحديد على أفاضل العلماء والفقهاء والزهاد والورعين الذي يسري عليهم اسم الصوفي[٤١]. وظف صاحب التشوف العديد من الصيغ المعبرة عن مرجعيته في تقديم رجاله، وهو ما سماه الألفاظ الكثيرة، والذي يطالعنا في كل ترجمة بشكل خاص "حدثنا وأخبرنا"، وإرفاق ذلك بالشخصية الصوفية التي نقل منها الخبر، كما استعان بالسماع أيضًا من الشخصيات التي ذكرها بالاسم.[٤٢] لقد اتخذ النهل من الرواية القريبة أصنافًا عديدة سواء من الأب[٤٣]، أو من مخبر[٤٤] يبقى اسمه مجهولاً، أو حدثني غير واحد من الثقاة[٤٥]، وحدثني وأخبرني الثقة[٤٦]، وسمعت جماعة من خاصته[٤٧]، وحدثني بعض المريدين[٤٨]، وحضرت مجلسه[٤٩]، وحدثتني امرأة[٥٠]، وبعض الجيران.[٥١]

يفيد الحرص على توثيق الترجمة التزامًا من جانب صاحبه على المصداقية سواء في نقل الترجمة أوفي الكتابة، ولعل المزاوجة بين الرواية عن مصادر محددة، وعن رواية شفوية هوما يضفي طابعًا تاريخيًا على الرواية المنقبية، ويجعل منها مصدرًا لتقوية الشهادات والقرائن القادرة على تقوية الحقيقة التاريخية، إذا ما تم استثمار المنقبة بالقراءة الواعية واليقظة. ولا نشك في هذا السياق أن التشوف يحتفظ بقيمة رمزية واعتبارية قوتها المحاولات التي جاءت في عقبه وأثره تنسج مؤلفاتها على منواله وطريقته[٥٢]، ونزعم أن التشوف ومن قبله الصدفي والتميمي قد قدموا صورة اجتماعية وثقافية وذهنية تعبر عن مرجعية اجتماعية لتيار بدأ يرسي دعائم وجوده ويقويها بالوسائل التي يراها كفيلة بذلك[٥٣]، وبهذا المعنى نحن أمام مستويين متلازمين؛ مستوى القاعدة الاجتماعية التي يدعمها عدد المترجم لهم، والكتابة بوصفها إطارا للتعبير عن هموم وتطلعات وخصائص هذه الفئات، وهوما يدفع إلى القول أننا أمام منحى تطوري انتقل من شرعية الوجود العلمي عبر الاهتمام بأسانيد وأصول التصوف ومرجعياته، إلى الدفاع عن تيار وقوة اجتماعية يعبر عنها عدد المترجم لها في المصنفات قيد الدراسة.

زاوج ابن الزيات بين الزمان والمكان في وصف تراجم الرجال[٥٤]، ولا يفيد هذا الأمر إهمالاً للجانب الكلامي لعلم التصوف حسب ما جاءت به بعض الرؤى[٥٥]، إذ إن النظر إلى الأبواب الأولى من التشوف يعكس وعيًا بأهمية الدفاع عن علم التصوف، وتحديدًا في أحد جوانبه الخاصة بالكرامة، التي حشد لها العديد من النصوص الدالة على شرعيتها وحقيقتها[٥٦]، لدرجة تدفع إلى التأكيد أن إيراد الأمر بهذا الأسلوب إنما هو في جوهره دفاع عن مرتكز أساس ضد خصوم ومنكرين، فهو بذلك خطاب للإثبات وللإقناع معا للخصوم والمريدين. وكأي عمل يقدم التشوف مادة تاريخية إشكالية، إذ تفصح بالقدر الذي تسكت وتبين بالمستوى الذي تلغز، وآية ذلك سكوت جل الروايات المنقبية الواردة في التشوف عن ذكر أي مصطلح سياسي موحدي من مثيل لقب خليفة وأمير أو أسم أي سلطان وتكتفي بالمصامدة، ويأخذ هذا السكوت طابعًا مفارقًا حين نعلم أن ابن الزيات كان مسؤولاً موحديًا؛ فكيف يستقيم الأمر عن مسؤول دولة يصمت عن ألقابها وشاراتها ورموزها؟، ومما له دلالته أيضًا إعراضه أيضًا عن ذكر القاضي عياض المعروف بمناهضته للسلطة الموحدية[٥٧] من خلال دوره المحوري في ثورة سبتة. وهنا نقف أمام سؤال إشكالي قد يفت فيما أعلنه في بداية استعراضه لتراجم الرجال حين أدرج تحت اسم صوفي أضراب العلماء والفقهاء والعباد والزهاد والورعين[٥٨]، إلا إذا كان في الأمر موقف معين من القاضي عياض نفسه، وفي أقصى الأحوال عدم الاعتراف بعلمه أو فقهه أو مجاهداته ومن ثم نفيه عن عالم المتصوفة.

يتأسس المقصد الشريف على اقتناع صاحبه بضرورة تتميم ما أغفله ابن الزيات حسب ما جاء في مقدمة المؤلف: "ثم إن الأديب المحسن المتفنن يوسف ابن الزيات أتى في كتابه الموسوم بـ "التشوف إلى رجال التصوف" بآيات وذكر أن الحامل له على تأليف ذلك الكتاب ما أهمله من تقدم من المصنفين والكتاب من ذكر صلحاء المغرب الأقصى.... وغفل فيما آثره من الحسن والإحسان عن الريف الكائن ما بين مدينتي سبتة وتلمسان.... فرأيت تتميم صلته وتنظيم فيصلته بذكر من كان ببلاد الريف من ولي يجب به التعريف حتى يعلم أنه كان بريفنا المهمل من أحسن في الطاعة وأجمل"[٥٩]، ويتضح أن هذا النص هو استجابة لنزعة إقليمية رامت التعريف بالمنطقة في المجال الصوفي، فهي بذلك امتداد للنسق الذي أرساه التميمي وزاده رسوخًا التادلي، كما يعني مركزية الريف ودوره الحيوي الذي لا يقل أهمية في الحركة الصوفية وانتشارها الواسع في

جل ربوع المجال الوسيط، وإن نحن سايرنا حليمة فرحات[٦٠] ينضاف إلى المقصد نص الوسيلة للأوربي الذي اعتنى أيضًا بمجال الريف في الفترة الممتدة بين نهاية القرن الثاني عشر الميلادي وبداية القرن الرابع عشر الميلادي، وتعتقد الدارسة ذاتها أن البادسي يختلف عن التادلي؛ ففي الوقت الذي صرف التشوف نظره للاهتمامات الشخصية للتصوف وأفعاله تجاه الجماعة، منح المقصد عنايته للحقائق والمعطيات المحلية.

يتفرع المقصد إلى ثلاثة أقسام يعنى الأول بالمقامات والكرامات، ويهدف الثاني إلى إثبات حياة الخضر، ويهتم الثالث بالمشايخ[٦١]. يعتمد في القسم الأول على المصادر المتداولة في مجال التصوف كأبي طالب المكي (ت. ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م)، وأبو عبد الرحمن السلمي، والقشيري (ت. ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م)، والغزالي (ت. ٥٠٥هـ/ ١١١٢م)، والاسفرايني (ت. ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م)، وأبي زيد النفري القيرواني (ت. ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م)، وأبو بكر بن عربي (ت. ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م)، والباقلاني (ت. ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م)[٦٢]، كما اعتمد في بناء هندسة المقصد على ما صنعه أبو النعيم الأصفهاني (ت. ٤٣٠ هـ/ ١٠١٨م) في الحلية[٦٣]، ولم يفوت الفرصة دون الرد على ابن سبعين (ت. ٦٦٩ هـ/ ١٢٧٠م)[٦٤]، مما قد يفيد وبناء على المصادر المعتمدة في المقصد أنه يرفض التصوف الفلسفي على شاكلة النموذج الذي قدمه ابن سبعين، ويتبنى التصوف الذي دافع عنه رموز التصوف السني المعتدل، ومما له دلالته أن إشارة البادسي إلى التشوف في البداية، زكاها بإشارة ثانية إلى أبي محمد صالح صاحب الطائفة الماجرية: "وألف الشيخ أبو محمد صالح كتابًا في التصوف حسن الترتيب، كثير الإفادة نقله عن كتب التصوف سماه تلقين المريدين."[٦٥] وعلى غرار سابقيه قدم لرجال الريف وصلحائه من خلال الرواية الشفوية التي أخذها عما سماهم الشيوخ في العديد من الحالات[٦٦]، أو ما سمعه من بعض أهل بادس[٦٧]، أو الخدام[٦٨]، أو الجمهور[٦٩]، أو من النساء[٧٠]، أو من أبيه[٧١]، ومن النادر أن نقف عند ترجمة اعتمد فيها على مجهول.[٧٢]

يوحي كل ذلك أننا أمام تراجم عايشها المؤلف مسايرين في ذلك ما ذهبت إليه إحدى الدراسات[٧٣] وصلت إلى تسعة وأربعين وليا يغطون فترة تمتد من القرن (الثاني عشر الميلادي/ السادي الهجري) إلى القرن (الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي) خاصةً إذا علمنا أن البادسي ألف المقصد سنة (٧١١هـ/ ١٣١١م).

لقد كان رهان البادسي مبنيا على حقيقة مجالية لا تقل أصالة وقيمة عن باقي المجالات التي خصها التميمي والتادلي بالاهتمام والتتبع، جعلها تتفرد بخصائص هذا الإقليم المحايث للخطر النصراني والتحرشات الإيبيرية، ولن نجانب الصواب إذا ما حسبنا المقصد وثيقة "أمنية" تتحدث عن تجاوزات الأعراب وعمليات الأسر والقرصنة التي يطفح بها هذا المؤلف، وذلك ما يدفعنا إلى القول أن المقصد لا يعبر عن حاجة إقليمية أو جهوية "جوفاء"، بقدر ما يعكس هموم المجال ومشاكله، ورجاله الذين تصدوا لكل ما من شأنه أن يرق بإقليمهم، ذلك ما يفسر أن المقصد إضافة نوعية في مجال المعطيات التاريخية وميدان التأليف المناقبي، لأنه تراكم قوى من متن التميمي والتادلي على صعيد تغطية مجالات المغرب الأقصى. وكغيره من النصوص يثير المقصد سؤالا يتعلق بمسألة سياسية أجادت بعض الدراسات المهمة[٧٤] في الكشف عنها، وهي تغاضي وتجاهل صاحب المقصد عن مقتل عبد السلام بن مشيش سنة (٦٢٥هـ/ ١٢٢٧ -١٢٢٨م)، حيث لا يشير لأي إشارة أو مجرد تلميح، وهو بهذا لا يختلف عن سابقيه إذ تغاضى الصدفي عن الغزالي وإحراق إحيائه، والتادلي وعن ذكر القاضي عياض زعيم ثورة سبتة، وهي إشارات دالة على طبيعة العلاقة بين هذا الأدب وبعض الرموز المشهورة التي تستحق الوقوف عندها في محاولة مستقبلية.

وتماشيًا مع خط الترجمة المجالية والإقليمية يندرج الغبريني وعمله الموسوم بعنوان الدراية، نقطة التمايز تتجلى في حضور هاجس الزمن عند الغبريني منذ اللحظة الأولى مقارنة مع سابقيه، أي أنه جمع بين خصوصية مجال بجاية وعلماء المائة السابعة، والحال أن مصطلح العلماء غير منسجم مع مضمون النص، حيث لا نستطيع التمييز في الأسماء بين المتصوف (علم الباطن) والعالم الفقيه (عالم الظاهر)، إلا إذا كان الغبريني يعني أن كل عالم متصوف وكل متصوف عالم، يقول في هذا الصدد: "وإني قد رأيت أن أذكر في هذا التقييد من عرف من العلماء ببجاية في هذه المائة السابعة التي نحن في بقية العشر الذي هو خاتمتها ختمها الله بالخيرات.... وأذكر منهم من اشتهر ذكره، ونبل قدره، وظهرت جلالته، وعرفت مرتبته في العلم ومكانته" [٧٥]، إضافة إلى أن صاحب الدراية لم يلتزم بالإطار الزمني الذي رسمه، إذ وسع من دائرة زمنه بالانفتاح على علماء خارج المائة السابعة: "وقد رأيت أن أصل بذكر علماء المائة ذكر الشيخ أبي مدين والشيخ أبي علي المسيلي والفقيه أبي محمد عبد الحق الاشبيلي رحمهم الله ورضي عنهم، لقرب عهدهم بهذه

المائة، لأنهم كانوا في أعقاب المائة السادسة للتبرك بذكرهم ولانتشار فخرهم"[٧٦]، فهل يعزى عدم الانضباط هذا إلى دعم رمزية المجال بإيجاد نماذج خارج العصر لإضفاء القدسية اللازمة، والتغني بالإرث الخاص بمجال بجاية حسب ما يعنيه استحضار أبي مدين الغوث؟ أم أن الأمر يتعلق فقط بإحصاء للعلماء في مجال معين؟، والحال أن الغبريني أراد وصف مجال بجاية من خلال الدعامة التي يقدمها علماءها، بوصفها إرثًا دينيًا وصوفيًا يضاهي فاس التميمي ومراكش التادلي وريف البادسي، أي أن عنوان الدراية هو صورة معبرة عن طغيان ظاهرة الولاية واستكمال صورتها وأسمائها في عموم بلاد المغارب في العصر الوسيط.

يلاحظ محقق نص الغبريني أن هناك تشابهًا بين متن الغبريني وابن قنفذ إلى درجة الاعتقاد في وجود تطابق جوهري مع وجود اختلاف لا يسمو إلا إلى علامات شكلية[٧٧]، وهي سمة تطغى على جل التأليف المناقبي الذي يكاد يكون نصا واحدا مع اختلاف المجال والأسماء، وإذا رمنا النظر في الأطر المرجعية التي نهل منها صاحب الدراية فسنجدها غير متباينة مع باقي المصادر الأخرى؛ إذ استقى مادته من مصادر مكتوبة عبر عنها بـ "رأيت في فهرسة فلان"[٧٨]، و"رأيت نسخة من نسخه"[٧٩]، أو "ومن نقل من أثق بنقله"[٨٠]، أو "وقفت على مثل هذا المعنى".[٨١] وعن الشيوخ يتردد في عنوان الدراية وبشكل مستمر قوله: "أخبرنا شيخنا"[٨٢]، و"سمعت عن فلان"[٨٣]، ونادرًا ما كانت روايته القريبة مصدرًا لأخباره[٨٤]: "وصحبته كثيرًا وأخذت عنه"، على أن الغبرين كان أمينًا في نقل أخباره بدليل ما أورده في ترجمته لبعض الشيوخ في قوله: "ولم يصلني من أخبار أبي عبد الله" ولا "أعرف من أخبار أبي عبد الله".[٨٥]

ليس خافيًا أن الغبريني ما هو إلا استمرار للأسلوب الذي سنه سابقوه وفي طليعتهم التميمي والتادلي، ولم يكن عنوان الدراية إلى توسيعا لصورة الامتداد الصوفي في المائة السابعة لمجال معين هو بجاية، واستكمالاً للخريطة الصوفية في بلاد المغرب، حيث لم يكن لا أسلوبه وعرض علمائه ليشكل تحولا نوعيا في مجال الرؤية والتصور في الأدب المناقبي، بل كان استنساخًا لسابقيه أو مجايليه، وحتى "معطياته" عن أبي مدين ما هي إلا استيراد لمنتوج سابقيه وفي مقدمتهم التادلي.

إن قراءة متأنية للسر المصون، والمستفاد، والتشوف، وعنوان الدراية، توضح أننا أمام نصوص تكاد تتطابق في العديد من الخصائص على صعيد الأسلوب والمنهجية المتبعة في إيراد التراجم، وفي عرض السلوك الصوفي ومقوماته الدينية والاجتماعية، وكأن هذه النصوص على اختلافها في الاهتمام بأسماء الحواضر صورة لخريطة صوفية واحدة، يشكل كل نص امتدادًا للآخر وتتميما له، ومحافظًا على هويته وطباعه. إلا أن هذه القواسم المشتركة لا تجعل من هذه النصوص بالضرورة نصًا واحدًا يعيد ذاته، إذ يطال الاختلاف جملة من السمات وفي مقدمتها درجة التمايز في إيراد نماذج الاعتراض السياسي والتي تحضر بشكل أكثر حجمًا وعددًا وقوة في التشوف مقارنة مع التميمي والمقصد وعنوان الدراية، ومرد ذلك إلى طبيعة مجال تراجم التشوف (منطقة رجراجة) التي سارت على خط المعارضة السياسية للمشروع الموحدي، مقارنة بالحواضر الأخرى التي كانت أقل احتجاجا، لأن بناء المشروع لم يتم على حسابها، أو أنها تنتمي إلى فترات ضعف الدولة وبداية تراجعها كالمقصد وعنوان الدراية، أو بعدها عن العاصمة مراكش كما هو الحال بالنسبة للتميمي.

السمة السياسية الأخرى هي أن الإعراض عن السلطة شكل ثابتًا في جلّ النصوص، مع التأكيد أيضًا على الاختلاف؛ ففي الوقت الذي أعرض صاحب السر المصون عن ذكر صاحب الإحياء والقضية المرتبطة به (الإحراق)، تجاهل ابن الزيات القاضي عياض (ت. ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م) وهو الفقيه الذي عرف بمعارضته للسلطة الموحدية. أما السمة التي تلتقي فيها جل هذه النصوص فهي الإعراض "التام" عن ذكر أسماء السلاطين (السلطان الفلاني-الأمير الفلاني)، ونخال أن هذا الإعراض لا يمكن أن يكون مجرد موقف طبيعي عابر، بل له دلالته وأهدافه التي قد تدل على وجود معالم معارضة "صامتة".

إضافة إلى ذلك تعتمد المصادر المشار إليها بدرجة كبيرة على الرواية الشفوية سواء كانت مباشرة عن طريق شيوخ يعرفهم صاحب النص، أوعن سبيل التواتر في نقل الأخبار، والذي يسترعي الانتباه في هذه الرواية هو رفعها إلى درجة المصدر المميز والنوعي لدى كل النماذج التي سقناها، وذلك على حساب الرواية المكتوبة التي كان الاستناد عليها مبنيا على الحجاج والدفاع عن بعض قضايا التصوف كالكرامة والولاية، أو إيجاد أصل لسلسلة التصوف لدى النبي الكريم أو بعض الصحابة، أي أنها تدخل في إطار الحاجة إلى تقوية سبل الشرعية والممارسة المرتبطة بها، مع العلم أن "الأخبار الصوفية" يقين لا يطاله الشك ما دامت مأخوذة عن شيوخ لا تحتفظ كتب الطبقات بأسمائهم، أو متصلة بسند ممتد إلى النبي الكريم، والرواية الشفوية بهذا المعنى ليست نصا مكتوبا وإنما هو نص مستمد من قوة ذاكرة الأولياء والمتصوفة، والحال أن هذه

المرجعية قادرة على إغناء تاريخ الهامش والمهمشين الذي تجاهله المتن الرسمي بمختلف أصنافه.

ومن الإشكالات الكبرى التي تطبع جل هذه النصوص هي الاهتمام المتزايد بالمكان على حساب الزمن الذي كان حضوره خافتًا وضعيفًا، مع اختلاف طفيف بين جل هذه النصوص، وقد يعزى الأمر إلى طبيعة الكتابة المناقبية التي استعاضت عن الزمن والحدث الزمني بالكرامة التي لا تؤمن لا بالحدود الزمنية أو المكانية ما دام المتصوف متعاليًا على كل هذه التصنيفات. ونحدس أن نصوص التغطية المجالية تتشابه إلى حد كبير، أفصح بعضها عن ذكر مصادره ولاذ الآخر بالصمت، واللافت أن المقصد وعنوان الدراية أبانوا عن حس علمي في التصريح بمصادرهم، على عكس التادلي الذي اعتمد على التميمي ولم يصرح بذلك وإن وسع من رؤيته وأضفى عليها أسلوبه الخاص. إن جلّ هذه النصوص تلتقي عند نقطة جوهرية وهي الترجمة لقاعدة اجتماعية تنامى حجمها، ووصلت إلى درجة التعريف به وبخصائصه، وفي هذا يكمن سر قوته في التعبير عن التاريخ من أسفل وإمكانية إعادة كتابته. لذا نحن أمام مجال له نظامه الخاص وفلسفته المنافحة عنه سواء ضد المشككين والناكرين، أو ضد القوى المضادة والمنافسة ومنها الفقهاء والسلطة التي حاولت تهميش هذه الفئات ماديا ورمزيا بتوجيه الكتابة الرسمية لتجاهلها أو تسفيه قولها وفعلها.

ثانيًا: التصوف الكاريزماتي أو الطائفي

يُقصد بالتصوف الرمزي كل كتابة مناقبية سعت إلى إبراز خصائص أحد رموز التصوف وشخصياته في منحاها التعبدي والسلوكي ومسارها الزهدي، ويمتد هذا النوع إلى الطائفة التي تنبني على أحد رموز هذا المجال، ونحسب أن الطائفة في عمقها تعبير عن رمز من الرموز إذ تترجم للجماعة وسلوكها الصوفي من خلال دعامة صوفية واسم مشهور في عالم الولاية، لذا فالطائفة هي وجه لعالم ورمز صوفي وصورة له وشكل مجسد لتعاليم هذا الرمز أو ذاك.

وهناك العديد من هذه النماذج منها تحفة المغترب لأحمد بن إبراهيم بن يحيى الأزدي القشتالي الذي تعرض فيه لحياة أبي مروان من دراسة وسياحة في المغرب والأندلس والمشرق ولطريقته الصوفية[٨٦]، وابن مرزوق (ت. ٧٨١هـ/ ١٣٧٩م) في المناقب المرزوقية الذي يقدم فيه مناقب مجموعة من صلحاء بجاية وتلمسان، ويمزج بين هذه الترجمات وبين الأحداث العامة والترجمة الشخصية لعائلة ابن مرزوق[٨٧] التي تم التركيز عليها بشكل خاص، وهناك أيضًا ابن عبد العظيم الأزموري في مؤلفه المعروف بهجة الناظرين، الذي حاول فيه التعريف بأسرة تيط وإشعاعها الصوفي[٨٨]، ويضاف إلى هذه الأنواع مؤلف الوسيلة إلى المرغوب في كرامات المولى أبي يعقوب لمحمد الأوربي (٧٠١ -٧٨١هـ/ ١٣٠٢- ١٣٧٩م)) الذي عرف بأبي يعقوب يوسف الزهيلي (ت. ٧٣٤هـ/ ١٣٣٤م).

وإلى جانب هذه المؤلفات هناك نوع آخر وإن كان غرضه صلحاء فاس ومكناسة وسلا، فهولا يستطيع إخفاء طابعه الرسمي واهتمامه بإرضاء السلطة السياسية ممثلة في السلطان المريني أبو فارس عبد العزيز الذي أهدي له هذا المؤلف، حيث رتب الصلحاء في ثلاث طبقات رئيسة، عنوانها الرئيس اختيار متصوفة موزونين ومعروفين بالمسالمة ومعاداة الفوضى والاعتراض، وهذا ديدن الحضرمي في السلسل العذب والمنهل الأحلى [٨٩]، وفيما يخص المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق، فإذا جاز لنا أن نساير رأي دارس حصيف [٩٠] القائل بأن أسلوب هذه النص أقرب إلى أسلوب أدب المناقب حين يشيد بالإنجازات ولا يحدد أي موقع أو تاريخ، أمكننا إدراج هذا النص في الترجمة الرمزية المخصصة لشخصية أبي الحسن المريني (٧٣١- ٧٥٢هـ/ ١٣٣١- ١٣٥١م) الذي أراد لها ابن مرزوق أن تنافس زعماء ورموز التصوف ة تتجاوزهم. ودون الخوض في تفاصيل هذه النوع بإيراد نماذج هذا الصنف جميعها، نقف عند نموذجين دالين أصبح علمين في التصوف وفي عموم المجال المناقبي إن رمزية أو شهرة، وفي طليعتهما أبو يعزى وأبو مدين، الأول اعتنى بالترجمة له دعامة اليقين للعزفي، والمعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى للصومعي، والثاني لابن قنفذ الذي وقف عند أبي مدين وتلامذته وأصحابه في بلاد المغرب.

ينتصب نموذج آخر للكتابة المناقبية يوازي الأعمال السابقة الخاصة بما سميناه التغطية المجالية للحواضر كفاس ومراكش والريف وبجاية، أو المتعلقة بالمجال المتنوع وفق الصيغة التي قدمها الصدفي، ليضفي عليه القوة اللازمة ليس في كتلتها وحجمها العددي فقط، وإنما في الإعلاء من رموزها وشخصياتها الكاريزماتية، ويتجلى ذلك في دعامة اليقين للعزفي (٥٥٧ - ٦٣٣هـ/ ١١٦٢ -١٢٣٥م) الذي خصص عمله لشخصية أبي يعزى الرمزية، والتي تستمد من الإشعاع والأهمية التي طبعت مساره.

يستهل العزفي دعامته بالتأكيد على الدافع الذي حركه للكتابة عن أبي يعزى: "أشار علي من أمرهما رشيد متمثل وسرورهما وفضلهما بضرب المثل، أن أجمع من كرامات الشيخ الصالح بقية الأولياء السابق في حلبة الأصفياء أبي يعزى

يلنور"[٩١]، ودافع جمع كرامات هذا الشيخ لا يأتي فيه على ذكر الشخصيات التي حركته لتسجيل كرامات هذا الشيخ الدالة على تسنمه تلك المرتبة، وقبل أن يلج موضوعه آثر الوقوف عند دلالة الولي والولاية[٩٢]، وخصص الفاتحة/ المقدمة للتمييز بين خبر الآحاد وخبر التواتر[٩٣]، وذلك لغاية أساس هي ضبط الأسس الشرعية للكتابة بغية إضفاء الحجية اللازمة على الشخصية المراد الترجمة لها. إذا كانت المقدمة الأولى تروم الدفاع عن الكرامة وجوازها، فإن الذي يمكن استنتاجه أن الدعامة تجمع بين الدفاع عن نموذج الزعامة الأمية التي تفضل عن باقي الزعامات المعروفة في المجال السياسي والاجتماعي، والمنافحة عن "الأستاذية" التي وصلت إليها هذه الزعامة من خلال تتلمذ العديد من الشيوخ وبمختلف مشاربهم على يديها.

كما تنطوي هذه المقدمة على طابع سجالي/ دفاعي ينتصب ضد المنكرين لإثبات الزعامة الدينية الصوفية، وربما السياسية والدينية المعروفة، ونرجح أن هذه الخلفية كانت حاضرة في ذهنية العزفي إذا ما استحضرنا السياق العام الذي جاءت فيه الدعامة؛ إذ بناء على ما ورد في تقديم أحمد التوفيق يمكن أن يكون العمل قد جاء في الفترة الممتدة ما بين (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م) عام العقاب الشهير، وعام (٦٢١هـ / ١٢٢٤م) تاريخ اغتيال السلطان الموحدي محمد بن عبد الواحد (ت. ٦٢١هـ / ١٢٢٤م) وتنصيب العادل (ت. ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) مكانه من قبل أشياخ الموحدين، وهي فترة قد تفصح عن مشروع الدعامة بوصفه نقدًا معلنا لمسار الإجبار الديني الذي ارتبط بمرحلة التمهيد الموحدية عسكريا، مؤطرة بالعنف الذي صاغته مبادئ التومرتية ومبدأ العصمة، وما آلت إليه سياستها من فشل لعل من علاماتها توالي الثورات طيلة مراحل الدولة، والتي وفرت الأرضية المناسبة لهزيمة العقاب، أو سياسيًا من خلال غياب نموذج للسلطة القادرة على توفير الأمن والسكينة لعموم الفئات الاجتماعية.

إن الدعامة واستنادًا إلى الإرث الذي قدمه التميمي وابن الزيات، إنما تعني في خلفياتها المضمرة وعيا بأهمية الثورة على النموذج السياسي والعقدي المبني على الإجبار والإكراه، وموجه أساسًا لبناء النموذج القادر على الإلهام والبناء من خلال أبي يعزى، وما الأمية التي تلتصق بهذه الشخصية والمدى الذي وصلت له إلا كنز ثمين يجد سنده في عملية تحيين أمية النبي الكريم وبساطته التي قادته إلى الزعامة السياسية في توحيد القبائل العربية المتناحرة، وإقامة دولة تجمع بين الزعامة الدينية والسياسية، أي الكتلة المعبر عنها في التميمي والتادلي، إنما تجد أسسها القيادية في دعامة اليقين وزعامة المتقين، ونفترض أن هذه الزعامة الدينية ما هي إلا مقدمة لزعامة سياسية.

أما من حيث الأطر المرجعية التي صاغت أخبار الدعامة؛ فيمكن أن نميز فيها بين الرواية الشفوية التي تفهم من صيغ "سمعت من الشيخ الفلاني"[٩٤]، و"حدثني الشيخ الفلاني"[٩٥]، أو "حدثني ابنه"[٩٦]، وهو في هذا إنما يقتفي آثار من سبقه في الاعتماد بشكل خاص على الرواية الشفوية. أما المصادر المكتوبة فهمت الآيات القرآنية وبعض نصوص السنة النبوية، وفي مرتبة ثالثة رموز الأدب الصوفي ومنهم أبو يزيد البسطامي، واستنادًا إلى المرجعيتين نستطيع القول إن العزفي حاول إضفاء مصداقية على ترجمته التي قد تجعل منها مصدرًا له أهميته التاريخية.

واستمرارًا على النهج نفسه يمكن أن ندمج المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى والذي نصنفه ضمن الاستعادة ولكن في قالب جديد، حيث لم تكن المادة المقدمة من قبل الصومعي (ت. ١٠١٣هـ/ ١٦٠٨م) إلا تجميعًا للأخبار الخاصة بهذه الشخصية من المصادر المؤسسة كالتادلي على سبيل المثال، وتعبيرًا عن تكنيز للمعطيات المتراكمة التي حققها الأدب المناقبي في هذا المجال، ونعد الصومعي مجددًا فقط في استفادته من الرصيد الذي جمعه من خلال قراءته في مكتبة الصومعة.

افتتح صاحب المعزى عمله بتحديد الغاية من العمل مؤكدا:" قصدت التعريف ببعض مآثره والتنبيه على العشر من مفاخره....فقد ألح علي بعض الإخوان ممن ينتسب إلى هذا الإمام أن أقيد له ما صح عندنا وبان واتضح من كرائمه وما نقل إلينا من مفاخره ومآثره وسلسلته في عدة أشياخه" [٩٧]، ويعتقد محقق هذا النص أن هناك دوافع أخرى لا تقف عند ما أعلنه الصومعي، ومنها أن المؤلف شعر بالرغبة في تقييد أخبار كبار المتصوفة، سعيا لتسهيل تدريسها وتلقينها للمريدين وفق خطة تروم تأكيد ارتباطهم بالشيوخ، والنهل من المنهج الصوفي الذي أسسه هؤلاء الشيوخ، ولا يقتصر الأمر على ذلك فحسب، بل هناك دافع سياسي يجد مبرره في تسجيل موقف بعض السلاطين المتشدد من أرباب الزوايا ومشايخ الطرق الصوفية، وتأكيد مناقبهم في إشارة إلى ما يلحق السلاطين من عقاب، فتتحول الكتابة هنا إلى وسيلة للتحذير والتنبه من المآل الذي قد يلحق بمن يسيء لرموز التصوف.[٩٨] هذا العمل الذي انتهى من تبييضه ضحى يوم الأحد تاسع الأيام من شوال عام عشر مائة[٩٩]، يضم سبعة أبواب وكلها تتعلق بالشيخ سواء كراماته،

أو شيوخه، أو إخوانه، أو اتصال سلسلته بالنبي الكريم، أوفي أدبه زيارته[١٠٠]، ويعتقد المحقق أن الكتاب يمكن اختزاله في ثلاث مستويات، الأصول المشرقية للصوف المغربي، ومعالم الحركة الصوفية بالمغرب في عصر أبي يعزى، والتصوف المغربي انطلاقًا من القرن (٦هـ/ ١٢م) إلى نهاية القرن (١٠هـ/ ١٦م).

اقتفى الصومعي آثار سابقيه في جمع المادة الخاصة بأبي يعزى، والملاحظ أن المصادر المكتوبة تشكل الأساس الذي اعتمد عليه في سابقة اختلف بها عن باقي المؤلفين، ويرجع ذلك إلى المكتبة الهامة التي كانت بزاوية الصومعة[١٠١]، والمثير للانتباه اعتماده الكبير على ابن الزيات[١٠٢]، وعلى العزفي[١٠٣]، وصاحب النجم الثاقب[١٠٤]، وأحيانًا يذكر هذه المصادر مجتمعة في سرده لبعض الأخبار[١٠٥]، ويضيف إليها الشيخ أبو العباس زروق[١٠٦]، ويذكر أحيانًا أخرى ابن باديس وابن الخطيب[١٠٧]، وأبو العباس إبراهيم الأزدي[١٠٨]، وأبو العباس أحمد بن محمد الورنيدي[١٠٩]، وأبي سعيد الأعرابي[١١٠]، والجنيد[١١١]، وأحمد بن الحسين النوري[١١٢]، والأصفهاني[١١٣]، والغزالي[١١٤]، وبدرجة أقل صاحب إثمد العينين[١١٥]، وأبو عبد الله الساحلي[١١٦]، وابن قنفذ[١١٧]، والغبريني[١١٨].

أما المصادر الشفوية فقد أخذها عن الشيوخ الذين ذكرهم بالاسم[١١٩]، ولا يعزب عن البال أنه تحرى الدقة في قوله "قال" و"روى" و"حكى" وكثيرًا ما ينهي النقل بفعل "انتهى"، ويميز هذه النقول بعبارة "قلت"[١٢٠]، وهو ما نجده في جملة من سياقات الترجمة[١٢١]، ويرفق بعض تراجمه بتحديد زمنها[١٢٢]، وعلى خلاف سابقيه يذكر أحيانًا سلاطين الدول التي سبقت الدولة السعدية[١٢٣]. وبالمقابل لم يأت على ذكر أي سلطان سعدي باستثناء أحمد الأعرج عند كلامه على نقل رفات الشيخ الجزولي كما لاحظ الدارس.[١٢٤]

تبين أن الصومعي وسع من أخبار أبي يعزى فقط، ولم يقدم جديدًا أو إضافة على مستوى الكتابة بوجه عام أو على مستوى أخبار أبي يعزى، والصورة التي يحيل عليها المعزى هو أننا بصدد عالم جمع مادة سابقيه وأخرجها في النص المسمى المعزى، دون أن يكون لذلك أثر في توجيه أو تغيير الرؤية عن أبي يعزى، والدال أن استعادة هذا الشيخ في هذا السياق وتخصيص ترجمة له، إنما يجد سنده في رسالة لا تخلو من غاية مفادها وجود أنداد للسلطة قادرين على مجابهتها ومضاهاتها ومنافستها في سلطة الزعامة، بالإضافة إلى غاية تربوية تحض المريدين على ضرورة الاقتداء بالسلف الصوفي. وفي إطار نسق الكتابة المهتم برموز التصوف الكاريزماتي يأتي ابن قنفذ في عمله المعروف بأنس الفقير وعز الحقير، إذ يحاول صاحبه الذي ألفه في عام (٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م) أن يعرف بابن مدين الغوث وتلامذته وأصحابه، وهو بذلك صورة عن طبيعة الروابط بين الشيخ وتلامذته، أسس لها عبر الرحلة التي قام بها في بلاد المغرب في الفترة الممتدة بين سنتي (٧٦٠ -٧٧٠هـ/ ١٣٥٨-١٣٦٩م)[١٢٥].

وترى نيللي سلامة العامري[١٢٦] أن الأنس دليل التصوف المغربي خلال المائة الثامنة، وصورة عن الوضعية الدينية في مغرب القرن (الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي) بتعبير حليمة فرحات[١٢٧]، ولعل قيمة الأنس تتجلى في التأكيد على ما وصلت إليه الحركة الصوفية من تنظيم وتشعب تؤكده الطوائف الستة التي ذكرها[١٢٨]، وذلك ما يفسر هيمنة التصوف ورجحان كفته عددًا وتنظيمًا، ويحسب أحد الدارسين[١٢٩] أن هذه الطوائف تستند إلى المرجعية الزمنية الموحدية، حيث أن أغلب شيوخها عاشوا في العصر الموحدي، دون أن يعني ذلك أن تأسيسها قد تم في العصر نفسه، باستثناء طائفتي الأمغاريين والماجريين، ويضيف أن مجال تأسيس هذه الطوائف ينحصر بين دكالة وجبل درن، أي المنطقة التي شملها التشوف واحتضنت أكبر عدد من الرباطات، وتكمن أهمية الأنس في إلهام الأوربي الذي أضاف إلى معطيات ابن قنفذ حول الطوائف في نهاية القرن (الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي)، وذلك بتوسيعها نحو أقصى شمال المغرب.[١٣٠]

إن المجهود الذي قدمه ابن قنفذ يرتبط بمشاهداته واتصالاته الشخصية وذكر أخبار ومجاهدات أوليائه حسب ما ورد في تقديم التحقيق، ولا تشكل المعلومات التي قدمها عن دفين العباد أي قيمة تذكر لأنها مجرد استعادة لما ورد في التشوف، وإذا أمعنا النظر في هذا النقد الموجه لابن قنفذ فإننا نجده وجيها، حيث أن النهل من المصادر المباشرة الشفوية يؤكدها الأفعال التي وظفها من مثيل "رأيت"[١٣١]، و"حضرت"[١٣٢]، و"لقيت ورأيت"[١٣٣]، و"أدركت"[١٣٤]، أو النقل عن الشيوخ وهي التي تتردد بفعل أخبرني وحدثني[١٣٥].

أما دافع الكتابة، فقد أملته رغبة بعض أصحابه ومن الأكيد أن يكونوا من مريدي الشيخ: "رغب إلي من يكرم علي من بعض إخواني في الدين في تقييد شيء من كلام الشيخ أبي مدين نفع الله به وبأمثاله المسلمين"[١٣٦]، فكان ذلك حافزًا حركه: "إلى ذكر هذا الشيخ والتعريف به وما وصل إلي من خبره ونسبه"[١٣٧]، ونخال في هذا السياق أن محاولة ابن قنفذ ما هي إلا استنساخ وتحيين للمحاولة التي قام بها العزفي، وإن كان من تمايز أو

اختلاف فهو اختلاف في الدرجة لا المبدأ، أي التأكيد على أهمية وقيمة الرموز الصوفية ذات الشخصية الإشعاعية، وبصرف النظر عن أي تمايز يخص الشخصيتين والسياقات التاريخية والمعطيات المتعلقة بها، فإننا أمام نص وحيد يعيد إنتاج قيمة رموز التصوف المغربي وخصائص مسارهما الصوفي. إلا أن تساؤلاً كبيرًا يظل قائمًا وهو لماذا تأخر التعريف بأبي مدين الغوث إلى أواخر القرن (الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي) وهو من الأسماء الوازنة في تاريخ التصوف في العصر الوسيط؟ نرجح أن ابن قنفذ إنما راغ بمحاولته تلك التركيز على دور المغرب الأوسط في بناء الصرح الصوفي لبلاد المغرب، يضاهي به مكانة المغربين الأقصى والأدنى في إشارة إلى علاقة التأثير والتأثر بين هذه المناطق، وتبادل علاقات التفاعل والانسيابية بين مناطقه في المجال الثقافي إذا ما قورن بالمجال السياسي والعسكري الذي كان في الكثير من ملامحه مبنيًا على الاحتواء والضم والصراع والمكائد التي تؤكد مستوى معينًا من "القطيعة".

واستمرارًا على النهج نفسه، يمكن أن ندمج المنهاج الواضح في إطار الشكل الذي أسسه العزفي بالترجمة لرمز من رموز التصوف، على الرغم من الفروق الجوهرية بين الدعامة والمنهاج، من حيث الظرفية التاريخية وفلسفة الترجمة، فإذا كانت الدعامة محاولة للإعلاء من نموذجية أبي يعزى وصفاته الصوفية، فإن المنهاج دفاع عن شخصية مؤسسة لإحدى أهم وأشهر الطوائف، بعد الذي شاب مسارها من خلال غياب السلف الصوفي، وطغيان البدع والانحراف على الطريقة، وفي الوقت الذي استعادت فيه الدعامة شخصية محددة، حاول المنهاج الدفاع عن الطائفة من خلال استعادة الشخص السلف، وكأن بؤرة الاهتمام هي ذاتها شخصية صوفية رمزية، ومع ذلك يصنف النصان معًا في سياق الاستجابة للوضعية السياسية المهترئة، التي أفرزها التفكك الذي استشرى في أوصال دولة بني عبد المؤمن، ليعني النصان تقديم "بدائل" جادة لتجاوز الوضع بالإعلاء سواء من شخصية أبي يعزى أو أبي محمد صالح على الأقل في المستوى الديني.

يفصح المؤلف في البداية عن هدفه من المنهاج قائلاً: "أخذت في جميع فوائده ندبني العزم والحمية الحنفية إلى جمعها من كرامات شيخنا رحمه الله تعالى بعد وقوفي على بركتها في حفظها وسمعها لأصون بها ذكره، نفع الله به عن تأويل الجهالة من متعسفي العصر"[١٣٨]، ويتضح أن هدف المنهاج محاولة تصحيحية لإزالة ما علق بالطائفة، انبرى لها أحمد بن إبراهيم الماجري لتوضيح أهدافه ومراميه في نبعها الأصلي ومصدرها القح الذي كاد أن يندرس أثره ويطويه النسيان بفعل تكالب الجهل، لذا جاء توضيح الماجري: "لما نظرت بعين البصيرة في معظم بلاد المغرب قد أفل منها طريق التصوف أفول المغرب، وكانت به طائفة شيخنا أعظم الطوائف في المتابعة سنة وشرعا، وأزكاهم وأفضلهم توكلا وزهدًا وورعًا، ثم انقرض من هذه الطائفة سلفها، وكثر فيمن بقي من خلفها بالمخالفة تخلفها، خشيت مع اندراس هذه الطريق أن ينسب شيخنا رحمه الله إلى غير التحقيق."[١٣٩]

جعل أحمد بن إبراهيم مدار الكتاب على صدر وثلاثة أقطاب، رتب لها فصولاً محكمة دون حشو واحتطاب[١٤٠]، مستندًا في ذلك على حصيلة مصدرية قال عنها: "واعتمدت فيما ذكرت منها مرسلاً عن الثقات بشرط التواتر والاستفاضة"[١٤١]، ومشيرا أيضًا في هذا التوضيح إلى أنه استفاد من العزفي[١٤٢]، وما ألفه أبو محمد عبد اللطيف البغدادي في كتابه المسمى المنهاج الناظر في كرامات أبي الشيخ عبد القادر.[١٤٣] وفي إطار التصريح بروافده لم يتورع عن استخدام الرواية الشفوية التي اقتفى فيها أثر سابقيه سواء الصدفي أو التميمي، أو التادلي والعزفي، عبر الصيغ التي تكاد تسود صفحات المنهاج وفي طليعتها أخبرنا وحدثنا الشيخ الذي يذكره بالاسم، أو من خلال النهل من مصادر مكتوبة حسب ما تفيده عبارة: "منها ما نقلته من التأليف المذكور"[١٤٤]، أو من خلال أسماء محددة كالغزالي[١٤٥]، أوالقشيري.[١٤٦]

إن سمة الإعلان من المصادر المؤسسة للمنهاج إنما يدل على مستوى متقدم في الحجية وبناء التراجم الخاصة بزعيم الطائفة بواسطة الرواية الشفوية، أو بتقوية السند الشرعي للممارسة الصوفية بالاعتماد على مصادر شرعية محددة، وهذه المزاوجة لا تعني إلا هوسًا واحدًا ووحيدًا هو رص الروابط بين نموذج كاد يضيع، ونماذج يفترض بها الرجوع إلى الأصل في السلوك والتربية الصوفية وهو زعيم الطائفة في هذا المستوى. يتفرع المنهاج في تبويبه إلى ثلاث مراتب، الصدر ويضم خمسة فصول، والقطب الأول ويحتوي ثمانية فصول:" جلعت مدار هذا الكتاب على صدر وثلاثة أقطاب، ورتبت لها فصولا محكمة دون حشوا واحتطاب".[١٤٧]

أما القطب الثاني والثالث فهما سدة العمل، إذ خصصا للمترجم له من حيث أسرته، وشيوخه، وسيرته، وخاتمة ذات طابع أخلاقي من خلال الحض على الحج والإسهام في تنظيم قوافله. إن النظر إلى هذا التقسيم يجعلنا أمام منحى حاول بناء شرعية الطائفة على النصوص المؤيدة من الكتاب والسنة، وآثار

السلف الصالح وكبار شيوخ التصوف الإسلامي، إلى عصر الشيخ حسب ما جاء عند صاحب التحقيق، وفيما يخص الأبواب المتعلقة بالشيخ المؤسس (القطب الثاني والثالث)، فلا تنفصل عن رفع شأو هذا الشيخ وإظهار كراماته التي تجعل منه قطبًا صوفيًا كبيرًا وجب الاقتداء به والسير على خطاه.

ترتكز وثيقة المنهاج على أزمتين؛ أزمة الطريقة الماجرية بفعل الانحراف في العادات والتقاليد والطقوس والمبادئ التي شابت مسارها من قبل مريديها، وانتصاب أحد رموز سلالة الشيخ المؤسس لإحياء مرجعيتها في التربية الصوفية حتى تكتسي الطريقة الحلة والشرعية المناسبة لها، وتأخذ إشعاعها الذي تستحقه في خريطة التصوف المغربي. وأزمة سياسية من علاماتها الكبرى غياب سلطة سياسية قادرة على فرض النظام والأمن وإشاعة العدل، وكأن الارتكان إلى إحياء نموذج أبي محمد صالح هو في عمقه رغبة في تقديم نموذج لا على مستوى التعبد وارتياد عالم الفضيلة فقط، وإنما على مستوى نموذج السلطة أيضًا، وهكذا يمكن افتراض أن الدعامة والمنهاج وإن اتخذا نزوعا صوفيا على صعيد السلوك الصوفي، فقد كانا يلوذان بالنموذج الغائب غير الحاضر في الواقع السياسي، والعيش في كنفه على مستوى الرغبة والأفق، وما منهجية إضفاء الرمزية والقطبانية والإعلاء منها والمغالاة فيها إلا دليل على التماس النموذجية السياسية في السلوك الصوفي.

وسيرًا على المنهاج الواضح يدخل الإثمد في التعبير عن هواجس الطائفة الهزميرية عبر إعادة صياغة أسس ومبادئ هذه الطائفة بما يتماشى ومناقب الأخوين، وفي هذا يعد الإثمد محاولة لتجاوز أزمة الطائفة ما دام التعريف بالأخوين لا يمكن أن يكون مجرد الإعلام بمناقب الأخوين، إذ يتجاوزه إلى تقدير أهمية السير على منوال سلوك صوفي محدد يمثله نوع معين من الشخصيات الرمزية. لم يحد ابن تجلات عن الإطار العام لبنية الكتب المناقبية سواء تعلق الأمر بتراجم الرجال، أو تراجم الشخصيات الرمزية إن أفرادا أو طوائفًا، حيث ركز على تحديد مواضيع الأبواب المتكونة من اثنان وعشرون بابًا، تراوحت ما بين مبادئ عامة للتصوف (الباب الأول والثاني والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر)، أو التفصيل في قضايا الكرامات والدعاء والفقر والتمايز بين الغني والفقير(الباب الثاني والثالث، والثالث عشر، والخامس عشر)، وقد خصص الباب الحادي عشر والثاني عشر لمجاهدات الشيخين وكرامتهما التي تصل إلى ثمانين كرامة لكل واحد منهما أربعين كرامة.[١٤٨]

يطغى على أسلوب تنظيم الإثمد الآداب والسلوك الصوفي بالمقارنة مع الغاية من الإثمد والترجمة الشخصية لرمزي الطائفة، وهوما يدل على أننا أمام نص مهووس بتفاصيل التصوف وآدابه، والتي تجلت في شخصيتي الإثمد لغاية أساس هي التوجيه والتأطير في أفق استقطاب المزيد من الأنصار والمريدين، والكتابة وفق هذا الاتجاه هي تجاوز لفراغ أو أزمة تعرضت لها الطائفة أو تتعرض لها، وصون مكتسبات الطائفة باتخاذ أبي زيد وأخيه نموذجا للاقتداء، فالإثمد بهذا المعنى تجاوز لوضعية ما تطلبت من ابن تجلات إظهار تقاليد الطائفة والإلحاح على ذكر طقوسها وعاداتها كالمصافحة، والخلوة، جواز السماع، والإطعام، والسياحة.[١٤٩] سار ابن تجلات على خطى سابقيه في التصريح بمصادره، ويعتقد محقق العمل أن نسبة هامة من المادة أخذت عن طريق الرواية الشفوية، والمخبرون من عامة الناس الذين "لا صيت علمي أو رسمي" لهم[١٥٠]، وعلى صعيد المشاهدة المباشرة تندر الصيغ الدالة عليها، والتي وردت بشكل متعدد مثل "زرت".

أما الرواية الشفوية، وهي الغالبة فقد جمعت نوعين من الرواية، الرواية ذات السند القريب والتي غالبا ما تكون مسبوقة بقوله "حدثني فلان"، والرواية ذات السند البعيد وتكون مسبوقة غالبًا بقوله "حدثني فلان عن فلان عن فلان"[١٥١]، وهناك أيضًا أخبار من دون مصدر نسبتها محدودة جدًا.[١٥٢] أما على صعيد الصيغة الاجتماعية فلم تكن الطائفة بعيدة عن التقاليد التي ارتبطت بالشخصيات الصوفية أو الطوائف، كالتدخل لحل أزمات المجاعة والأمراض، أو تقوية أواصر التضامن بين المريدين من خلال بث قيم المساعدة سواء في حل مشاكل الزواج أو الإرث.[١٥٣] لكل ذلك نعد رأي الدارس وجيها حين وسم أسلوب ابن تجلات في تأطير الإثمد، أسلوبًا لا يكتسي أصالة فريدة، إذ يدخل في إطار التقليد الذي سارت عليه الكتابة الصوفية[١٥٤]، ونخال أن الإثمد هو امتداد من حيث الطبيعة والتصور لنموذج الكتابة الساعي إلى الدفاع عن "قيم" الطائفة، ورمزيتها الدينية التي تجسدت في المنهاج الواضح عمل الإثمد على اقتفاء أثرها.

يدخل هذا الصنف من الأدب الصوفي في إطار الترجمة لشخصيات صوفية سواء تلك التي اتخذت من بعض النماذج مقياسا للكتابة، أو تلك التي حاولت "الترجمة " لهذه الطائفة أو تلك، ومن الجائز افتراض أن النموذجين صيغة لنموذج واحد هو الإعلاء من الشخص أو الطائفة، وإعادة إحياء سلوكها الصوفي.

يلتقي العزفي وابن قنفذ عند دافع الكتابة الذي لم يكن نتيجة إرادة ذاتية أملتها اقتناعات معينة، وإنما حركتها رغبة بعض الإخوان الذين أشاروا إليهما بالتأليف، أو تقييد كلام الشيخ ومجاهداته وأدبه الخاص، على خلاف الصومعي الذي قصد التعريف بمآثر ومفاخر هذا الشيخ، وما اتضح منها بناء على رغبته الذاتية واقتناعه الشخصي الذي استمده من مطالعاته الكثيرة التي تفصح عنها مختلف التراجم التي اعتمدها. أما التصوف الخاص بالطائفة الماجرية أو الغماتية، فيدخل في إعادة الاعتبار لرموز الطائفتين، وإظهار منحاهما الصوفي، والذي لم يكن إلا بغرض تقوية الطائفتين وتكريس سلوكها الديني، بعد الذي اعترى الظرفية العامة من غياب النموذج نتيجة الأزمة الأخلاقية والسياسية معا، وفي كلا النموذجين يبدو الدافع الشخصي واضحًا.

أما منهجية بناء هذه المصادر فغالبيتها تفصح عن الهندسة الخاصة بكل مصدر، وتتباين في الاعتماد على الأطر المؤسسة لمجمل التراجم، حين تتسنم الرواية الشفوية موقع الريادة في جل المصادر، باستثناء الصومعي، الذي وظف بشكل كبير الرواية الكتابية مستفيدًا من اطلاعه على العديد منها، بالإضافة إلى أنه كان غير مزامن للفترة مدار الرصد والتتبع، وهي القيمة الممنوحة للرواية الشفوية المستقاة ممن تسميهم الرواية المناقبية "شيوخًا" في التصوف وهم المعروفون فقط في كتب المناقب ، تدفع إلى الاعتقاد بأهميتها وبالقدر نفسه تتساءل عن حجيتها ومصداقيتها.

وتتقاسم هذه الكتابة طابعًا مؤسسًا هو فلسفتها في توظيف واستثمار العدة الشرعية للكتاب والسنة وأعمال السلف الصالح، والتي لا تقتصر فقط على إيجاد شرعية مؤسسة للسلوك الصوفي تمتد إلى تأويل معين للقرآن الكريم ولأفعال الرسول الكريم، وإنما تتعداها إلى نسج الشرعية القادرة على إيجاد موقع "شرعي" ضمن الثقافة الإسلامية في عموميتها، والبحث عن شرعية الوجود الفعلي باستثمار آليات الصراع داخل الحقل الاجتماعي ضد منافسين فعليين أو محتملين.

أما إذا صوبنا النظر إلى الخلفيات غير المعلنة لهذه النصوص، فلن نعدم الحجة الدالة على وجود غاية تتجاوز التعريف والإطراء والتمجيد، والرفع من شأنها الشخصيات والطوائف، إلى طرح الأنا الخاصة في التصور والفعل ضد السلطة والفقهاء معا، حيث تخترق كل هذه النصوص نزعة الإعراض والاعتراض على السلطة سواء من خلال تجاهلها للأسماء والصفات الدالة على السلطة السياسية القائمة، أومن خلال طرح انتصارها الأبدي والدائم على كل أنواع الظلم السياسي الصادر من السلطة، وفي أقل الأحوال إدخالها في كنف السلطة والسير على منوال المتصوفة، لنرجح بذلك أن الكتابة المناقبية كانت تعبر عن "حاجة ما" في صراعها ضد السلطة، لذلك اختارت مسلك تجاهل اختيارات السلطة وإدانتها بشكل أحيانا علني وفي غالبيته مضمرًا، ومن الصعب فصل هذا الموقف من السلطة عن سياق تشكل الدولة، حيث تتعالى صور ذلك في الفترات المتعلقة بتراجع ظل الدولة وتنامي الأزمة الحضارية التي تمر بها هذه الدولة أو تلك، وهذا التلازم لا يعني بشكل آلي أن تطور التصوف يرتبط بأزمة الدولة.

ثالثًا: تصوف النخبة

إذا كانت الحركة الصوفية قد اعتمدت في مرحلتها التأسيسية على قاعدة اجتماعية تتكون وحداتها من مختلف الأصول والمهن، استطاعت في إطار تطورها الخاص أن تنتج لها رموزا وأسماء وجهت الحركة وأرست لها قواعد الممارسة والإلهام، فإنها نجحت في اقتحام مواقع كانت إلى عهد قريب تناصبها العداء، وتقف من طقوسها وممارساتها موقفًا معارضًا، وهذا الموقع هو موقع النخبة بشكله الفقهي الواضح لدى ابن خلدون في شفاء السائل، وموقع الأديب والشاعر ابن الخطيب.

بداية لا نساير القول بأن ابن الخطيب وابن خلدون يمثلان نموذجًا للتصوف الفكري[100]، إذ إن تفحص العملين معا يبرز أن مضمون الشفاء والروضة لا يناقشان الأطر المفاهيمية والمنهجية والفكرية للتصوف، بقدر ما يستعرض ابن خلدون مسار التصوف السني دون باقي الأنواع الأخرى، في الوقت الذي يحاول ابن الخطيب الدفاع عن الهدف نفسه بعدة تجمع بين النص الديني والفلسفي والشعري، ومختلف مصادر الحكمة التي أسسها القدماء، ويتضح التباين أيضًا بين النصين على مستوى الأسلوب الفقهي والمنهجي الحاضر بقوة عن ابن خلدون، على عكس اللغة الأدبية المتسمة بالسجع الكثير واختيار الألفاظ الملغزة لدى ابن الخطيب، على أن هذا التباين لا يحجب إمكانية الحديث عن المشروع ذاته لابن خلدون وابن الخطيب، فكلاهما أراد الانتصار لتصوف محدد مبني على السنة وأعمال السلف الصالح، والذي توافق في مبناه مع المنحى الصوفي الذي تبغيه السلطة وترتضيه منهاجا وطريقة.[101] والملاحظ أيضًا في هذا السياق وحسب الدارس ذاته أن أصحاب الفتوى في ضرورة الشيخ من عدمه هم من الفئة المقربة من السلطة، لذا يرجح أن تكون الرسالة المندسة هي احتواء خطر الطوائف الشعبية

خاصة في البوادي، وتقزيم دورها على أمل إضعاف امتدادها الاجتماعي وسيادته، بهدف سياسي واضح هو تحييد أي منافس حقيقي أو محتمل للسلطة.[١٥٧]

إن المحاولة التي خطها ابن خلدون تنتمي من حيث ظرفيتها التاريخية إلى تلك النزعة التي سادت العصر المريني بالخصوص، وتكمن في المحاولات الجادة للتقارب بين المتصوفة والفقهاء[١٥٨] في سعي لعقل الممارسة الصوفية، وإدراج تعبدها ضمن أطر الشرعية الدينية التي أوصى بها الدين، ورغبة في تليين الفقه وإضفاء اللمسة الصوفية عليه، وقد انخرط في هذا التقارب العديد من الفقهاء كأبي العباس القباب (ت. ٧٩٩هـ/ ١٣٧٧م)، وابن عباد الرندي (ت. ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م)، والشاطبي (ت. ٧٩٠ هـ/ ١٣٨٨م)، وابن خلدون (ت. ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م) في الشفاء.[١٥٩]

والظاهر أن هذا التقارب لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما تجدد في قضيتي السماع واتخاذ الشيخ [١٦٠]، ولن نجافي الصواب إذا ما حسبنا أن العصر الذي جاءت فيه محاولات التوفيق بين التصوف والفقه، ينتمي على مستوى الفعل الاجتماعي إلى تصاعد وثيرة البدع وسريان مفعولها في الممارسة الصوفية، لذا أجاد دارس مهتم[١٦١] في تفسير الأسباب الكامنة وراء ذلك، ومنها انحسار نفوذ الطوائف وضعف إشعاعها، ومن هنا يفهم تقريب التيار الشاذلي للوقوف في وجه التيار الطائفي المتجذر في الجنوب، وهوما أدى إلى توحيد المواقف بين نوعية محددة من الفقهاء المتزهدين، ورجال التصوف المتمسكين بالسلم واحترام الشريعة، ولم يكن ابن خلدون وابن الخطيب الوحيدان فقط، بل انضاف إليهما أحمد زروق (ت. ٨٩٩هـ/ ١٤٩٤م) في قواعد التصوف وعدة المريد الصادق، وابن الحاج والرجراجي.[١٦٢]

يستهل ابن خلدون شفاءه بالحديث عن الغاية التي حفزته للكتابة في موضوع التصوف قائلاً: "فقد وقفني بعض الإخوان -أبقاهم الله-على تقييد وصل من عدوة الأندلس وطن الرباط..... يخاطب بعض الأعلام من أهل مدينة فاس حيث الملك يزأر وبحار العلم والدين تزخر ....طالبا كشف الغطاء في طريق الصوفية أهل التحقق في التوحيد الذوقي والمعرفة الوجدانية، هل يصح سلوكه والوصول به إلى المعرفة الذوقية ورفع الحجاب عن العالم الروحاني تعلما من الكتب الموضوعة لأهله".[١٦٣]

وهكذا انبرى لتوضيح موقفه الفقهي من هذه المسألة واستدعى منه ذلك: "تحقيق طريق الصوفية وتمييزها من بين سائر الطرق وكيف استقرت عند الصدر الأول"[١٦٤]، ودون الدخول في تفاصيل الشفاء يمكن أن نكتشف بسهولة مشروع ابن خلدون بعيدا عما صرح به في دوافع التأليف؛ إذ الشفاء هو محاولة جادة لإيجاد سند شرعي عبر البحث في جينيالوجيا (Genealogy) التصوف وتحديدًا لدى النبي الكريم وصحابته وتابعيه، وهذه المحاولة لا تخلو من "إسقاط" يحاول إقحام تعبد السلف الصالح في خانة التصوف، أي أن ابن خلدون يعيد بناء التصوف على قواعد الشرع الإسلامي، داخل السياق السني دون غيره[١٦٥]، ومن الدعامات الدالة على تسنين التصوف هو أن الرعاية والإحياء تصنف في تقدير صاحب الشفاء ضمن كتب الهداية الوافية بشروط النهاية والبداية[١٦٦]، فقد انفرد خواص السنة المحافظون -حسب زعمه- على أعمال القلوب وهم المقتدون بالسلف الصالح في أعمالهم الباطنة والظاهرة لذلك استحقوا لقب المتصوفة[١٦٧] بعد أن صنفوا في ذلك وكتبوا: "مصنفات هي أمهات الإفادة، وإن كانت لا تتعدد كما فعله ابن عطاء الله والمحاسبي في كتاب (الرعاية) وتبعهما الغزالي في كتاب الإحياء".[١٦٨]

وبالمقابل، وفي إطار الدفاع عن سنية التصوف يقف ابن خلدون موقفًا حديًا من أي تصوف لا يساير النموذج المحتفى به؛ حيث إن: "رأي أصحاب التجلي والمظاهر والأسماء والحضرات وهو رأي غريب فيلسوفي إشارة ومن أشهر المتمذهبين به ابن الفارض، وابن برجان، وابن قوسي (قسي) والبوني، والحاتمي، وابن سودكين".[١٦٩] ويضيف أيضًا في إطار الدفاع عن التصوف السني أن رأي أصحاب الوحدة هو رأي أغرب من الأول في مفهومه وتعقله، ومن أشهر القائلين به ابن دهاق وابن سبعين والششتري وأصحابهم[١٧٠]، ولا ضير هنا أن يدعم ابن خلدون رأيه بآراء القشيري ويعده أستاذًا[١٧١]، ومن أراد الاستفاضة والمزيد فعليه بكتب الغزالي[١٧٢]، وغيره مثل الجنيد[١٧٣]، وابن عطاء الله[١٧٤]، وذو النون[١٧٥]، وهي مرجعيات لا تعكس فقط مرجعية التصوف المثال والنموذج، وإنما حجية لا يرقى إليها الشك.

ونحسب في كل هذا أن الغاية من الشفاء ليست إبداء الرأي في التقييد الذي وصله، من أجل البث في ضرورة الشيخ من عدمه، وإنما إقرار وضع عام وبفتوى فقهية دلالتها المباشرة لا توصف يعلو تصوف السنة وأكثر تحديدا تصوف السلطة واختياراتها، واستبعاد أي أساس شرعي لأي ممارسة صوفية لا تنهل من هذه المرجعية الصوفية التي قعد أسسها الفقهاء/ المتصوفة السالف ذكرهم، وهوما يرجح أن شفاء السائل واجهة فقهية لمشروع سياسي يكمن في توحيد الممارسة الصوفية وفق القالب السني فقط (وحدة الأمة على مستوى التعبد)، واستبعاد أي خطر مهما كانت طبيعته طبعا ضد

السلطة و"الدين". أما ابن الخطيب، فيعتقد دارس حصيف[١٧٦] أن الروضة لا تنفصل عن الاهتمام بإضفاء الطابع السني على التصوف، ومهاجمة التيار المتفلسف منه والتقرب من التيار الشعبي، وقد يصل الأمر في تقدير الدارس إلى حد وضع تعاليم صوفية ترضي الذوق المترف للفئة التي ينتمي إليها، وتنحية كل التيارات المبتدعة[١٧٧]، وهو في هذا المنحى لا ينماز في مشروعه عما رامه ابن خلدون، ونحسب أن تدقيقًا في الأمر يمكننا من إيجاد فوارق جوهرية بين الشفاء والروضة وإن اتحدا في المشروع.

يتضح منذ البداية أن دافع ابن الخطيب كان مختلفًا عن ابن خلدون؛ فقد صدر أمر الكتابة من السلطان أبو عبد الله بن أبي الحجاج يوسف إلى ابن الخطيب: "فصدرت إليّ منه الإشارة الكريمة بالإملاء في فنه والمنادمة على بنت دنه"[١٧٨]. قد تكون الدعوة إلى التأليف من قبل السلطة دعامة قوية للحديث عن مشروع سلطوي يستهدف تبيان حقيقة التصوف من منظورها، ما دام قد تم الأمر تحت رعايتها وبتوجيه منها، لذا لم يحد ابن الخطيب عن خط ابن خلدون في التقليل من التيارات الصوفية غير السنية والهجوم عليها، يقول في هذا السياق عن تيار الاتحاد والحلول: "وهما من مقالات النصارى وأن الإلهية حلت في عيسى أو اتحدت به"[١٧٩]، وهو باطل حسب زعمه بناء على الأدلة التي ساقها لهذا الغرض، ويردف قائلاً أن كثيرًا: "من الطوائف تدعي الحلول والاتحاد والكل متفقون على أنه لا يبقى في ذلك المقام إلا الله ومن كلف الحادثات للعبارة عن هذا المقام فقد ظلمه وعرضه للفصيحة الدائرة بين الكفر والحماقة".[١٨٠]

أما المقام الآخر الذي هاجم فيه أهل الوحدة المتوغلين، ومنهم الشوذي، وابن دهاق، وابن سبعين، وأبو الحسن الششتري، وابن مطرف الأعمى، وابن أحلى، والحاج المغربي والجم الغفير من أهل شرق الأندلس ووادي رقوط، فقد "ارتكبت هذه الطائفة الشوذية والسبعينية وأصحابهم مرتكبًا غريبًا من القول بالوحدة المطلقة، وهاموا به وموهوا ورمزوه واحتقروا الناس من أجله، وتقريره على سبيل الإطالة لا فائدة فيه."[١٨١] وفي هذا يلتقي ابن الخطيب مع ابن خلدون في استبعاد التصوف المغالي والمتطرف واستحضار النموذج السني فقط، بشكل قد يجعل من مشروعهما استجابة أمينة للعصر الذي عاشوا فيه، وحاولوا الدفاع عن اختياراته الصوفية والسياسية معًا، إن نحن ربطنا ذلك بالمسار السياسي لكلا الرجلين وتقلبهما في بلاط الحكم في العديد من "الأنظمة".

وفي مستوى آخر يتباين الشفاء مع الروضة في منهجية البناء وتصميم الموضوع، فابن خلدون يبدو أكثر وضوحًا وتدقيقًا في مقاربة موضوعه، على خلاف ابن الخطيب الذي يؤكد أنه ذهب في ترتيب الروضة أغرب المذاهب[١٨٢]، حين اجتلب: "الكثير من الحكايات وهي نوافل فروض الحقائق" ونقل شواهد من الحديث والخبر تجري صحائحها مجرى الزكاة من الأموال... وذلك لغاية أن: "يكون هذا الكتاب بعموم خيره مسرحًا للفاره وغيره"[١٨٣]، وقد صاغ كل ذلك في قالب يبدو فيها أديبًا أكثر منه فيلسوفًا أو فقيهًا أو متكلمًا أو مؤرخًا[١٨٤]، سار فيه على التفصيل في أنواع النفس ومراتبها[١٨٥]، وجدول العقل[١٨٦]، وأنواع الصحبة[١٨٧]، والحب[١٨٨]، وأهمية الذكر[١٨٩]، والولاية[١٩٠]، والصوفية.[١٩١]

هذه الهندسة تمت بناء على هاجس أساس عبر عنه بقوله: "وكنت وقفت من الكتب المؤلفة في المحبة على جملة منها... فكنت بما ذكر لا أقنع وأقول ما أصنع" [١٩٢]، جمع فيها بين العديد من المرجعيات المتباينة كالشيخ ابن سينا[١٩٣]، والطيب البغدادي[١٩٤]، وذو النون[١٩٥]، ويحيى بن معاذ الرازي[١٩٦]، والشبلي[١٩٧]، والدقاق[١٩٨]، وابن سبعين[١٩٩]، والمحاسبي[٢٠٠]، ومحي الدين بن عربي[٢٠١]، السهروردي[٢٠٢]، والحلاج[٢٠٣]، والبسطامي[٢٠٤]، والقشيري[٢٠٥]، وأبو مدين الغوث الذي يسميه شيخ العارفين[٢٠٦]، ولم يقتصر على ذلك فحسب، بل اعتمد على الحكماء من خارج دائرة المجال الحضاري الإسلامي كأرسطو[٢٠٧]، وأصناف من الحكماء من مختلف الأقوام.[٢٠٨]

ويلاحظ أنه جمع بين الفلاسفة والمتكلمين، ونوع من مصادر حجته، مما جعل من روضته نصًا غنيًا بالإحالات التي من المحتمل أن تكون سببًا في إدانته وإحراق كتبه واغتياله، بإيعاز من غياب الوحدة في صياغة مضمون الموضوع، وتقلل من إمكانية الحديث من داخل روضة التعريف عن نسق سني ينتصر لنفسه، ويهاجم باقي الطوائف والتيارات، بقدر ما هو موسوعة تجمع العديد من الآراء ذات حلة سنية وبعدة كلامية وفلسفية وكلامية وحكمية.

خَاتِمَةٌ

يعتقد أدونيس[٢٠٩] أن التجربة الصوفية فكرًا وكتابة تمثل انقلابًا معرفيًا في تاريخ الفكر العربي الإسلامي، ونحسب بناء على ما جاء في هذه الدراسة أن الرأي السالف ينظر إلى هذه الكتابة من الناحية الأدبية الصرفة، ولكن من الوجهة التاريخية يصعب علينا مجاراة هذا الرأي تبعًا للمؤشرات التي استخلصناها من بعض نماذج الكتابة المناقبية. يتنزل هذا المجهود في إطار معرفة الكتابة المناقبية الخاصة بتراجم الرجال، دون الكتابة الفلسفية والكلامية وذلك في مستواها التاريخي والمنهجي.

إن إجالة النظر في هذه الكتابة يسمح لنا بالقول أننا إزاء تطور خاص ونوعي، قامت في مستواها الأول على الترجمة المجالية للحواضر المشهورة في الغرب الإسلامي، لتعبر في تقديرنا عن قاعدة اجتماعية لها هوية صوفية أصبح امتدادها واقعا ملموسا، لتعني المرحلة الثانية ارتقاء القاعدة الاجتماعية لإنتاج رموزها و"قادتها" سواء كانوا أسماء شائعة كأبي يعزى أو أبي مدين، أو الانتظام في سلك طائفة أو جماعة تنتظم نحو مؤسس يصيغ لها مبادئها وطقوسها، والكتابة في هذا المستوى هي محاولة إصلاحية وتصحيحية لما شاب ممارسات القاعدة الصوفية من شوائب اقتضت الضرورة إعادة تصويب المسار وتقويمه، لتتحول المرحلة الأخيرة إلى إدخال الممارسة الصوفية إلى عالم النخبة والفقه معا ليتجاوب مع قضاياها وهواجسها.

إن منحى هذا التطور التدريجي في الكتابة يدل على أن الكتابة المناقبية كانت مسكونة بتأكيد شرعيتها في الحقل الثقافي والاجتماعي، من خلال التأكيد على وجودها الفعلي والرمزي، وبناء قسماتها الخاصة في إطار الصراع الاجتماعي مع مختلف القوى التي تتفاعل معها سلبًا وإيجابًا، وكأنها في هذا المنحى أسلوب لإدارة الصراع وتوجيهه نحو خدمة أفكارها وتصوراتها، والمثير في هذا المنحى أيضًا هو الجمع بين الترجمة لرجال التصوف ورموزه، والدفاع عن قضاياه وفي طليعتها الكرامة والولاية، وإن تباين ذلك بين المؤلفات فهو تباين في درجة الاهتمام لا في مبدئه، ولا أدل على ذلك من حضور المتن الصوفي المؤسس في غالبية هذه النصوص، ونعني بذلك الرسالة القشيرية وإحياء الغزالي وغيرها من النصوص التي تم تداولها في الغرب الإسلامي.

ظهرت الحركة الصوفية خلال القرن (٦هـ / ١٢م) وانتظمت أفكارها في تيارات خلال القرن (٧هـ / ١٣م)، واستطاعت أن تقحم الفقه الذي كان إلى وقت قريب "رافضًا" في صيرورة مناقشة أفكارها أو "بدعها". مسار الكتابة هذا جاء ليصنع تاريخًا، ينبني على إعادة إنتاج نموذج أسمى، ومن الطبيعي أن يرافق هذه العملية الأسلوب " المهذب " الذي يتورع عن ذكر المثالب ويغالي في ذكر المناقب، ويسهل كشف هذا الأمر في الكتابة، حين يحاول رموزها بمختلف أطيافهم المطابقة بين الولي المتصوف والنماذج التي قدمها الإسلام المؤسس سواء من خلال استعادة ممارستها، والتي يرفعها صاحب هذه المصدر أو ذاك "قسرًا" إلى درجة التصوف، أو من خلال التأويل الصوفي للآيات والأحاديث، والتي ترفع تعبد السلف الصالح إلى درجة التصوف دون أي حرج المهم أن يكون تصوفًا.

لذا تقتضي القراءة الواعية لهذه النصوص الحذر مما تقدمه القوالب الجاهزة والمتكررة التي صيغت على نمطها تراجم الرجال، والقائمة على الإطناب والإسهاب في إسبال الإطراء والتضخيم على الرموز، والمغالاة في وصف الأدوار الاجتماعية والسياسية أحيانًا، في ظل ضعف الحجة والدليل وكأن هذه المصادر لا تختلف عما تقدمه مثلاً الحوليات التاريخية، فمقابل الإطراء على الولي في كتب المناقب، ينتصب تضخيم السلطان وأفعاله ومنجزاته، ونظير شهرة السلطة تقف شهرة الولاية، وكأننا أمام صورة واحدة لخطابين مختلفين.

تقوم هذه الكتابة على الاختصار وهذا الأسلوب يفترض انتقاء للأحداث والمناقب وإقصاء لأخرى، وهذه العملية من شأنها أن تحول الكتابة المناقبية إلى مظهر آخر من مظاهر طمس الحقيقة التاريخية، فالتشوف باعتباره عمدة الكتابة المناقبية لا يتورع في تجاهل القاضي عياض وهومن الأسماء التي أسهمت في ثورة سبتة ضد الموحدين، كما لم يترجم للسهيلي صاحب الروض الأنف، في الوقت الذي تغاضى فيه عن عبد الله ابن ياسين وترجم لأستاذه وجاج بن زلو اللمطي، كما أن التميمي لم يذكر الغزالي وعملية الإحراق.

أما البادسي، فلا يشير إلى أي ملمح أو إشارة حول مقتل عبد السلام بن مشيش سنة (٦٢٥هـ/ ١٢٢٧ - ١٢٢٨م)، وعلى شاكلته سار الحضرمي في تجاهل دفين تلمسان أبي مدين الغوث، واقتفى صاحب السلسل هذه الخطى حيث انتقى "أولياءه" ممن اختاروا مسايرة السلطة والسير في ركابها، كما لم يساير المؤشرات غير الطبيعية والتدخلات غير العادية. ومن الطبيعي أن يكون الأمر كذلك خاصة إذا علمنا أن الحضرمي أهدى سلسله إلى السلطان المريني أبو فارس عبد العزيز (٧٦٨ - ٧٧٤هـ/ ١٣٦٧ - ١٣٧٢م)، وعلى المنوال ذاته ليس هناك

بالمغرب إلا رباطان وفق ما جاء عند صاحب المسند، هما رباط أبي محمد صالح، ورباط أبي زكرياء الحاجي شيخ ابن عاشر وهو مسعى غير بريء ينفي وجود طوائف أخرى ويلغيها من حساباته، وهنا مكمن "التواطؤ في نصه".

كل هذه المؤشرات تجعل النص المناقبي نصًا لا يختلف في بنيته وطبيعته عن باقي النصوص، لأنه وإن صرح بمصادره ومرجعياته في صوغ تراجمه، وحاول الرفع من قيمة الرواية الشفوية، فقد كان استمرارا لنزعة الانتقاء والتغاضي والتجاهل عن بعض الأسماء الصوفية الشهيرة، ليبني مشروعية الكتابة على تأويله الخاص للرجال والرموز معًا، وهو في هذا لا يشكل انقلابًا أو تحولاً جذريًا حسب زعم أدونيس، بل كانت السياقات استجابة لتطور الحركة الصوفية، حيث أن استعادة العزفي والصومعي مثلاً لم تكن بغاية التعريف بأبي يعزى، وإنما كانت تعبيرًا عن التراجع وغياب الأسماء الصوفية (الأعلام الكبار) وقلة الشيوخ، حتى العصر السعدي حين ظهر الحسن الشاذلي والجزولي وأحمد زروق.

الاحالات المرجعية:

(١) محمد عابد الجابري، **تكوين العقل العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١٠، بيروت ٢٠١٠، ص ٩١.

(٢) الميلودي شغموم، **المتخيل والقدسي في التصوف الإسلامي: الحكاية والبركة**، منشورات المجلس البلدي مكناس ١٩٩١، ص٢٧.

(٣) عبد الجليل لحمنات، **التصوف المغربي في القرن ٦هـ مقدمة لدراسة تاريخ التصوف بالمغرب**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠م، رسالة مرقونة، ص ٢١٧.

(4) Halima Ferhat, le Maghreb aux XII et XIII siècles, les siècles de la foi, Wallada Casablanca, p 14

(5) Halima Ferhat, le Maghreb .... p 22

(٦) الساحلي، أبو عبد الله المالقي، **بغية السالك في أشرف المسالك**، تحقيق عبد الرحيم العلمي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ج١، المملكة المغربية ٢٠٠٣، ص ١٥.

(٧) ابن عيشون، أبو عبد الله الشراط، **الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس**، دراسة وتحقيق زهراء النظام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة رسائل وأطروحات رقم ٣٥، ط١، الرباط ١٩٩٧، ص ١١.

(٨) الصدفي، طاهر بن محمد، **السر المصون في ما أكرم به المخلصون**، تحقيق وتقديم حليمة فرحات، دار الغرب الإسلامي، ط١، دار الغرب الإسلامي ١٩٩٨، ص ٢٧.

(٩) نفسه، ص ٤٨.

(١٠) نفسه، ص ٥٢ ـ ٥٦ ـ ٧٣.

(١١) نفسه، ص ٨٦.

(١٢) نفسه، ص ٨٧ ـ ٧٩ ـ ٨١.

(١٣) نفسه، ص ٥٥ ـ ٥٦.

(١٤) نفسه، ص ٤٩ ـ ٥٣ ـ ٦٢ ـ ٧٣ ـ ٨٢.

(١٥) نفسه، ٩٢.

(١٦) نفسه، ص ٦٣ ـ ٧٣ ـ ٧٦ ـ ٨١.

(17) Halima Ferhat, soufisme et les zaouayas au Maghreb: mérite individuel et patrimoine sacré: les éditions Toubkal, Casablanca 2003, p.13

(١٨) الصدفي، المصدر السابق، ص٣٥.

(١٩) من مقدمة تحقيق السر المصون للصدفي، ص ٢٩ ـ ٣٠.

(٢٠) التميمي، محمد بن عبد الكريم، **المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من العباد**، تحقيق محمد الشريف، ط١، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان ٢٠٠٢، ص ٢٢١.

(٢١) نفسه، ص١٧٠.

(٢٢) نفسه، ص ٤٨ ـ ٥٠ ـ ٧٣.

(٢٣) نفسه، ص ٥٨.

(٢٤) نفسه، ص٦٥.

(٢٥) نفسه، ص٦٥.

(٢٦) نفسه، ص٨٠.

(٢٧) نفسه، ص ٨٨.

(٢٨) نفسه، ص ١٦٣.

(٢٩) نفسه، ص ١٠١.

(٣٠) نفسه، ص ٩٣.

(٣١) نفسه، ص ٢٨.

(٣٢) نفسه، ص ١٤٦.

(٣٣) ابن الزيات، التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف**، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب الرباط، ط٢، ١٩٩٧، ص٣٣.

(٣٤) نفسه، ص ٣٨.

(35) Halima Ferhat, le Maghreb........... p 19

(٣٦) نيللي سلامة العامري، **الولاية والمجتمع مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي لإفريقية في العهد الحفصي**، دار الفارابي، ط٢، ٢٠٠٦، ص ٣٤ ـ ٣٥.
(٣٧) محمد مفتاح، **الخطاب الصوفي: مقاربة وظيفية**، ط١، مكتبة الرشاد الدار البيضاء ١٩٩٧، ص١١.
(٣٨) ابن الزيات، المصدر السابق، ص ٤١.
(٣٩) نفسه، ص ٣٣.
(٤٠) نفسه، ص ٤١.
(٤١) نفسه، ص ٣٤.
(٤٢) ابن الزيات، ص ٨٩ ـ ٢٣٣ ـ ٢١٦ ـ ٢٢٣ ـ ٢٢٨ ـ ٢٣٠.
(٤٣) نفسه، ص ١٦٨ ـ ٢٢٧.
(٤٤) نفسه، ص ٢٦٧ ـ ٢٧٣ ـ ٢٧٤ ـ ٣٣٤ ـ ٣٧٨.
(٤٥) نفسه، ١٦٩ ـ ١٧٠ ـ ١٧٥ أ ٢٠٦ ـ ٢١٥ ـ ٢١٩.
(٤٦) نفسه، ص ١٧١ ـ ٢٦٧ ـ ٣٦١ ـ ٣٦٤ ـ ٤٣٧ ـ ٤٠١ ـ ٤١٣ ـ ٤٢٠ ـ ٤٣٨.
(٤٧) نفسه، ص ٤١٨.
(٤٨) نفسه، ص ١٨٢ ـ ٣٤٤ ـ ٣٧٤.
(٤٩) نفسه، ص ٤٥٣.
(٥٠) نفسه، ص ١٣٦ ـ ١٣٧.
(٥١) نفسه، ص ٣٥٩.
(٥٢) من مقدمة التحقيق ص٧.
(٥٣) عبد الجليل لحمنات، المرجع السابق، ص ٢١٤.
(٥٤) ابن الزيات، المصدر السابق، ص ٣٦.
(٥٥) عبد الجليل لحمنات، المرجع السابق، ص ١٨٢.
ابن الزيات، المصدر السابق، الباب العاشر ص ٥٤ (٥٦)
(57) Halima Ferhat, le Maghreb........... p 17
(٥٨) ابن الزيات، المصدر السابق، ص ٣٤.
(٥٩) البادسي، عبد الحق بن إسماعيل، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، تحقيق سعيد أعراب، المطبعة الملكية ط٢، الرباط ١٩٩٣، ص ١٤ـ ١٥.
(60) Halima Ferhat, soufisme............. p 137
(٦١) البادسي، المصدر السابق، ص ١٦.
(٦٢) نفسه، ص ٢٧ ـ ٢٨ ـ ٣٠ـ ٣١ ـ ٣٣ ـ ٤٥ ـ ٣٩.
(٦٣) نفسه، ص ٥٠.
(٦٤) نفسه، ص ٣٢.
(٦٥) نفسه، ص ١٠٢.
(٦٦) نفسه، ص ٥٢ ـ ٥٣ ـ ٥١ ـ ٥٩ ـ ٦٠ ـ ٦١ ـ ٦٥ ـ ٦٨ ـ ٦٩ ـ ٧٢ ـ ٧٣ ـ ٧٤ ـ ٧٥ ـ ٨٩ ـ ٩٢.
(٦٧) نفسه، ص ٩٩.
(٦٨) نفسه، ص ١١٩ ـ ١٣٨.
(٦٩) نفسه، ص ٩٣.
(٧٠) نفسه، ص ٧١ ـ ١٢٧.
(٧١) نفسه، ص ٧٣.
(٧٢) نفسه، ص ٩٠.
(73) Halima Ferhat et Hamid Triki,Hagiographie et religion au Maroc médiéval, Héspéris Tamuda, vol XXIV, 1986, (17-51) p. 31
(74) Halima Ferhat, soufisme ....p. 140
(٧٥) الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد، **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق وتعليق عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة ط٢، بيروت ١٩٧٩، ص ٢٠.
(٧٦) نفسه والصفحة.
(٧٧) من مقدمة التحقيق، ص٢٩.
(٧٨) الغبريني، المصدر السابق، ص ٢٩.
(٧٩) نفسه، ص ٣٤.
(٨٠) نفسه، ص ٤٢.
(٨١) نفسه، ص ٥٠.
(٨٢) نفسه، ص ٣٤ ـ ٥٣ ـ ١٤٤.
(٨٣) نفسه، ص ٣٦ ـ ١٣٥ ـ ١٣٨ أ ١٤٨.
(٨٤) نفسه، ص ١٢٤.
(٨٥) نفسه، ص ٣٧.
(٨٦) محمد مفتاح، المرجع السابق، ص ١٨.
(٨٧) ابن مرزوق، أبو عبد الله محمد التلمساني، **المناقب المرزوقية**، دراسة وتحقيق سلوى الزاهري، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية ٢٠٠٨، ص ١٢٤.
(88) Halima Ferhat, soufisme............... P. 110
(89) Ibid p. 150.
محمد مفتاح، المرجع السابق، ص ١٧
(٩٠) السبتي، عبد الأحد، **بين الزطاط وقاطع الطريق أمن الطرقات في مغرب ما قبل الاستعمار**، ط١، دار توبقال ٢٠٠٩، ص ٢٧.
(٩١) العزفي، أبو العباس، **دعامة اليقين وزعامة المتقين مناقب الشيخ أبي يعزى**، تحقيق أحمد التوفيق، مكتبة خدمة الكتاب ١٩٨٩، ص١.
(٩٢) نفسه، ص٢.
(٩٣) نفسه، ص ٣.
(٩٤) نفسه، ص ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٤٠.
(٩٥) نفسه، ص ٤٨ ـ ٥١ ـ ٦٠ ـ ٦١ ـ ٦٢.
(٩٦) نفسه، ص ٥١.
(٩٧) الصومعي، أحمد التادلي، **كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى**، تحقيق علي الجاوي، جامعة ابن زهر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكادير ١٩٩٦، ص ٦١.
(٩٨) من مقدمة التحقيق، ص ٢٦ ـ ٢٧.
(٩٩) نفسه، ص ٤٣٠
(١٠٠) نفسه، ص ٦٢
(١٠١) نفسه، ص ٣٩
(١٠٢) نفسه، ص ٦٨ ـ ٧١ ـ ٧٤ ـ ٧٦ ـ ٧٧ ـ ١١٧ ـ ١٢٠ ـ ١٢٤ ـ ١٢٦ ـ ١٣٨ ـ ١٤٢ ـ ١٢٢ ـ ١٣٥.
(١٠٣) نفسه، ص ٦٧ ـ ١١٢ ـ ١١٦ ـ ١١٧ ـ ١٢١ ـ ١٢٢ ـ ١٢٧ ـ ١٢٨ ـ ١٥٠.
(١٠٤) نفسه، ص ٦٤ ـ ٦٧ ـ ١٢١ ـ ١٢٢ ـ ١٢٧ ـ ١٢٨ ـ ١٣٨ ـ ١٥٨.
(١٠٥) نفسه، ص ٦٧ ـ ١٢٢ ـ ١٢٧ ـ ١٢٨.
(١٠٦) نفسه، ص ١١٢ ـ ١٣٢ ـ ١٣٣ ـ ١٣٨.
(١٠٧) نفسه، ص ١٣٨ ـ ١٥٠.
(١٠٨) نفسه، ص ١٢٨.
(١٠٩) نفسه، ص ٧٠ ـ ١١٥ ـ ١٥٥.
(١١٠) نفسه، ص ١٠١.
(١١١) نفسه، ص ٨٣ ـ ٨٩.
(١١٢) نفسه، ص ٨٥.
(١١٣) نفسه والصفحة.
(١١٤) نفسه، ص ٨٥ ـ ٩٠.
(١١٥) نفسه، ص ١٦٤.
(١١٦) نفسه، ص ١٨١.
(١١٧) نفسه، ص ٤٠.
(١١٨) نفسه، ص ٤٢.
(١١٩) نفسه، ص ٦٧ ـ ١١٢ ـ ١١٦ ـ ١٢٣ ـ ١٢٨ ـ ١٣٢ ـ ١٤٠ ـ ١٤٢ ـ ١٥٢ ـ ١٥٣ ـ ١٥٦ ـ ١٦٣ ـ ١٧٢ ـ ١٨٦ ـ ١٩٧.
(١٢٠) نقلاً عن المحقق ص ٤٥.
(١٢١) نفسه، ص ٦٩ ـ ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧ ـ ٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨٧ ـ ١١٦ ـ ١٢٦ ـ ١٣١ ـ ١٣٤ ـ ١٣٥.
(١٢٢) نفسه، ص ٧٧ ـ ٧٨ ـ ١٨٠ ـ ١٨٥ ـ ١٨٦ ـ ٢٠٠.
(١٢٣) نفسه، ص ١١٥ ـ ١٦٤.
(١٢٤) نفسه، ص ٢٠.
(125) Halima Ferhat et Hamid Triki, Hagiographie ..... p 38
(١٢٦) نيللي سلامة العامري، المرجع السابق، ص٣٥

(127) Halima Ferhat, soufisme .... p 26

(١٢٨) ابن قنفذ، القسنطيني أبو العباس، **أنس الفقير وعز الحقير**، اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس كلية الآداب الرباط، ص٦٣-٦٤.

(١٢٩) أحمد المغراوي، **العلماء والصلحاء والسلطة في عصر الموحدين**، رسالة لنيل دكتوره دولة، جامعة محمد الخامس كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ٢٠٠١-٢٠٠٢، رسالة مرقونة، ص ٣٣٠.

(130) Halima Ferhat et Hamid Triki, Hagiographie ...p 38

(١٣١) ابن قنفذ، المصدر السابق، ص ٧٣ ـ ٨٤.

(١٣٢) نفسه، ص ٧١.

(١٣٣) نفسه، ص ٦٤.

(١٣٤) نفسه، ص ٦٧.

(١٣٥) نفسه، ص ٦٦.

(١٣٦) نفسه، ص ١.

(١٣٧) نفسه، ص ٢.

(١٣٨) الماجري، أحمد بن إبراهيم، **المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح**، تحقيق عبد السلام، ج١، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط١، ٢٠١٣، ص ٦٦.

(١٣٩) نفسه، ص٨٧.

(١٤٠) نفسه، ص ٦٧.

(١٤١) نفسه والصفحة.

(١٤٢) نفسه، ص ٦٨.

(١٤٣) نفسه، ص ٦٩.

(١٤٤) نفسه، ص ٤٨١ ـ ٥٢٣.

(١٤٥) نفسه، ص ١٧٣ ـ ٥١٢.

(١٤٦) نفسه، ص ١٩٨.

(١٤٧) نفسه، ص ٦٧.

(١٤٨) ابن تجلات، أبو عبد الله، **إثمد العينين ونزهة الناظرين في مناقب الأخوين**، تحقيق محمد رابطة الدين، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ج١، الرباط، ١٩٨٦، ص ٦.

(١٤٩) نفسه والصفحة.

(١٥٠) نفسه، ص ٢٢.

(١٥١) نفسه والصفحة.

(١٥٢) حول مزيد من التفاصيل يرجى النظر إلى مقدمة التحقيق من ص ٢٢ إلى ص ٢٥.

(١٥٣) نفسه، ص٦.

(١٥٤) نفسه، ص٢.

(١٥٥) أحمد بوزيدي، **العلماء والسلطة والمجتمع بالمغرب المريني**، رسالة لنيل دكتوراه الدولة، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز فاس ٢٠٠٧-٢٠٠٨، رسالة مرقونة، ص ٦٢.

(١٥٦) محمد مفتاح، المرجع السابق، ص٢٧٧.

(١٥٧) نفسه، ١٢٦ ـ ١٢٧.

(١٥٨) محمد القبلي، **المجتمع والحكم والدين بالمغرب في نهاية "العصر الوسيط"**، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، مطبعة المعارف الجديدة، ط١، الرباط المغرب ٢٠١٧، ص ٣٨١- ٣٨٢.

(١٥٩) انظر: ملحق الشفاء السائل الذي يتضمن ثلاث رسائل هي أجوبة للفقيه ابن عباد، والقباب، واليوسي، ص ١٦٧.

(١٦٠) أحمد بوزيدي، المرجع السابق، ص ١٩٣ وما بعدها.

(١٦١) محمد القبلي، المرجع السابق، ص ٣٨٣ ـ ٣٨٦.

(١٦٢) أحمد بوزيدي، المرجع السابق، ص٦٣.

(١٦٣) ابن خلدون، عبد الرحمن، **شفاء السائل وتهذيب المسائل**، تحقيق محمد مطيع الحافظ، ط١، دار الفكر دمشق، ودار الفكر المعاصر بيروت ١٩٩٦، ص٣٣ - ٣٤.

(١٦٤) نفسه، ص ٣٦.

(١٦٥) نفسه، ص ٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠.

(١٦٦) نفسه، ص ٣٤ ـ ٣٥.

(١٦٧) نفسه، ص ٤٣.

(١٦٨) نفسه، ص ٤٥.

(١٦٩) نفسه، ص ١٠٧.

(١٧٠) نفسه، ص ١١١.

(١٧١) نفسه، ص ٧٠ ـ ٧٢ ـ ٤٣ ـ ٧٩ ـ ١٢٣ ـ ١٢٧ ـ ١٣٠.

(١٧٢) نفسه، ص ٥٥.

(١٧٣) نفسه، ص ٦٩ ـ ٩٣.

(١٧٤) نفسه، ص ٧٥.

(١٧٥) نفسه، ص ٩٠.

(١٧٦) محمد مفتاح، المرجع السابق، ص ٢٠-٢٨٩.

(١٧٧) نفسه، ص ٢٩١.

(١٧٨) ابن الخطيب، لسان الدين، **روضة التعريف بالحب الشريف**، تحقيق وتعليق وتقديم عبد القادر أحمد عطا، ط١، دار الفكر العربي (من دون سنة)، ص٨٣.

(١٧٩) نفسه، ص ٢٠١.

(١٨٠) نفسه، ص ٥١١.

(١٨١) نفسه، ص ٦٠٢.

(١٨٢) نفسه، ص ٨٨.

(١٨٣) نفسه، ص ٩٠.

(١٨٤) انظر تصميم الكتاب من ص ٩٨ إلى ص ١٠٥.

(١٨٥) نفسه، ص ١٤١- ١٤٨ ـ ١٢٦ ـ ١٢٧.

(١٨٦) نفسه، ص ١٨٠ ـ ١٨٧.

(١٨٧) نفسه، ص ٢٢٣.

(١٨٨) نفسه، ص ٢٣٤.

(١٨٩) نفسه، من ص ٥٠٣ إلى ص ٥٠٤.

(١٩٠) نفسه، ص ٥١٩.

(١٩١) نفسه، ص ٦١٣ إلى ٦٧١.

(١٩٢) نفسه، ص ٨٦ ـ ٨٧.

(١٩٣) نفسه، ١١٤- ٤٣٥- ٤١٤- ٤١٨.

(١٩٤) نفسه، ص ١٤٧ ـ ١٧٣.

(١٩٥) نفسه، ص ٣٠٤- ٤٢٦- ٦٧٣.

(١٩٦) نفسه، ص ٤١٤- ٤٣٧.

(١٩٧) نفسه، ص ٤١٩- ٤٢٣- ٤٢٤.

(١٩٨) نفسه، ص ٤١٩- ٦٧١.

(١٩٩) نفسه، ص ٦٠٦.

(٢٠٠) نفسه، ص ٦٨٧.

(٢٠١) نفسه، ص ٥١٧ ـ ٥٤٠.

(٢٠٢) نفسه، ص ٥١٧.

(٢٠٣) نفسه، ص ٣٧٩- ٤٢٧.

(٢٠٤) نفسه، ص ٦٧٥.

(٢٠٥) نفسه، ص ٢٣٥- ٣٥٠- ٤٢٠- ٥١٥- ٦١٦.

(٢٠٦) نفسه، ص ٥٠٧- ٥٠٨- ٥١٦.

(٢٠٧) نفسه، ص ٥٥٩.

(٢٠٨) نفسه، من ص ٥٤٢ إلى ص ٥٥٠.

(٢٠٩) أدونيس، **الصوفية والسريالية**، ط ٣، دار الساقي بيروت لبنان ١٩٩١، ص١٧١.

Researches
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

The Donato - Catholic conflict and its repercussions in ancient North Africa (311- 411 D.C.)



Dr.Rabie Aissa Oulmi
Lecturer, Professor of Ancient History and Archaeology,
Department of History and Archaeology,
University of Batna (1) Algeria.

ABSTRACT

Donatism is an African schism, exclusively African ; as such it holds a special and very important place in the history of local Christianity. It was born in Carthage and Numidia. Thus, the Donatist schism has its origin in the persecutions of the emperor Diocletian during the period (303-305). The Donatist heresy appears in 311 following the consecration of the bishop of Carthage Caecilianus. It was Donat, the bishop of Carthage who gave his name to the Donatist schism.The African Church thus found itself divided between two bishops, two parties: the Donatist Church and the Catholic Church who excommunicated and accused each other. St. Augustine entered the race, and led the decisive struggle on the theological and polemical level, at the head of the episcopate of Hippo Regius (Annaba- Algeria) in 392, he presided over the synod of Hippo in 393, which condemned the Donatists. It is under the imperial aegis that the conference of Carthage was held in 411. The council pronounced a sentence condemning the Donatists, Donatism was abolished. This signals the decline of the schism. The Catholics having prevailed. The problem that arises is: What is the nature of the two churches Donatist and Catholic? What are their origins? How has the polemical confrontation between Donatists and Catholics evolved? What are its repercussions on ancient North Africa?

Keywords:

the Donatist church; the Catholic church; conflict; Carthage conference; St. Augustine; heresy; schism.

Research info:

Received: 26 March 2021
Accepted: 30 April 2021
DOI: 10.21608/KAN.2021.232714

Citation:

Rabie Aissa Oulmi, "The Donato - Catholic conflict and its repercussions in ancient North Africa (311- 411 D.C.)".- Historical kan Periodical. - Vol. (14) Issue (52); June 2021. Pp. 257 – 270.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: rabieoulmi@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Introduction

The idea of founding a religious movement called "Donatism", arose in Roman Africa at the beginning of the 4th century, following the persecution of Christians, under the orders of *Diocletian* during the period (303-305). And at the council held in Cirta on 5 March 305 (*Concili Cirtensis*) for the consecration of a new bishop of the city. (Papier, A., 1879 :109) The essential causes of the appearance of Donatism are due to the election and consecration of *Caecilianus* as Bishop of Carthage in 311, and to some faithful and clerics who had been compromised in the persecution of *Diocletian*, for having delivered the scriptures and holy books to the persecuting Roman power (the civil authority), to be burned.

The Donatists persisted during and after the great persecution at the time of *Diocletian* (284-305), to describe their Catholic enemies as "*Pars Caeciliani*", i.e. the party of *Caecilianus*, and "the church of the Traditores". For, they still believe that they represent the true Catholic Church (fig.1-2). Donatism appeared in Numidia, and more precisely in Bagai (near Khenchela), which is considered to be the home of Donatism. This city has been home to most of the events in the history of Donatism, such as the battle of 347, and the Primianist Council in 394. Was it not necessary to clarify the circumstances and root causes of the religious quarrels that troubled Roman Africa in the 4th century ? Should the social and religious unrest of this period in African history be put in relation to this deterioration of the African economy ?

Problematic:

What were the beginnings of the Donato-Catholic conflict in ancient *North Africa* ? Was Roman secular power involved in this conflict ? How did Donatism transform itself from a local religious movement to a socio-political movement that was able to stand up to Roman secular power and the Catholic Church (Fig. 1-2) in North Africa?

The importance of the study (objectives)

1-This study aims to highlight the roots of the Donatist schism and the nature of the Donati-Catholic conflict in ancient North Africa

2-Clarify the problem of division, which has been raised strongly within the African Church.

3-Denounce the persecutions of the emperor Diocletian towards Christians during the period (303 - 305 AD), which led to a large number of apostates.

4-Refer to the main causes of the division of the African Church which found itself divided between two bishops and two parties: the Donatist Church and the Catholic Church.

5-Clarify the role of Saint Augustine entered the battlefield on the theological and dialectical level since 392 AD at the head of the Epo-bishop of Hypo-Regius (today Annaba in the northeast of Algeria)

6-To know the essential causes and the consequences of the condemnation and the abolition of Donatism in the year 411 AD.

7- The objective of this study is to make some observations about the economic and social conditions under which the people of Roman Africa lived at the time of Donatism, and which led to the heresy and the Donato-Catholic conflict in ancient *North Africa.*

Research Methodology:

This study attempts to focus on the historical deductive analytical method in order to achieve the desired research results.

Study sections:

This study has been divided into an introduction and four titles and a conclusion. The first subject deals with The Birth of Donatism, the second subject studies the Origins of the Donato-Catholic conflict, the third subject addresses the Main periods of the Donato-Catholic conflict, finally the fourth subject deals with the role of Saint Augustine in the proscription of Donatism, and the conclusion that results from the results and recommendations of this study.

I- The Birth of Donatism

The history of the origins of Donatism remains in truth very obscure. (Monceaux, P., 1902 :193) The documents we have at our disposal, narratives or archival documents, (Duchesne, L., 1890 : 589-650) serve the purposes of the Catholic polemicists, who can hardly help but suspect them. (Julien, Ch. A. 1978 :215)

Church historians base themselves on the "Donatism Record" (Duchesne, L., 1890 :589) itself, which consists of administrative and ecclesiological documents dating between 314 and 330.

In fact, some Catholic clerics have been able to compile these documents in a special dossier for use in polemics with the Donatist polemicists, according to Duchesne. (Bouillet, M., 1878 : 1383) This file was in the hands of *Optat of Milev* (Boissier, G., 1891 : 82) considered the first Catholic polemicist, and from these documents he wrote the beginnings of the Donatist schism, addressing Donat's successor, *Parmenianus* (Cagnat R., 1913 : 66) around 366.

Donatism is an African schism, it occupies a special and very important place in the history of local Christianity. It was born in Carthage and Numidia from the passions and quarrels of the country, in ancient *North Africa*, it had an extraordinary success, it overexcited, like a new religion, the minds and passions of the people. It constituted an independent church, as powerful and rich in men and goods as the Catholic Church (fig.2). More powerful even for a century. He stood up to Catholicism and civil power, surviving for almost two centuries. It was finally defeated in the time of *St. Augustine*.

In this way, Donatism was an essential factor in the history, not only of local Christianity, but of Africa itself during the 4th and 5th centuries.

The African schism has been dealt with in important monographs, (Leschi, L., 1931: 262-293) or short sketches, (Optat de Milev, 1893 : 15) as it has attracted the attention of historians of the Church or of Africa (Monceaux, P., 1906 :314) or studies on the chronology of the origins of the African schism, (Duchesne, L., 1890 :589) archaeological and epigraphic discoveries (Leschi, L., 1931 : 262-293) , and some critical studies of the works of *Optat of Milev* and *Augustine* (Optat of Milev, 1893, XXVI, LI- LIII) and the restitution of a good part of Donatist literature. (Monceaux, P., 1906 : 314),

All this allows us to take up the question of Donatism on a new basis. It is not a question here of remaking the complete history of the African schism, but simply of laying down the milestones of this history, indicating the stages, marking with precision the essential features, determining the role of Donatism, in order to reconstitute the historical framework of our study.

The various literary and historical sources dealing with Donatism are very abundant and varied, reaching us from Constantine to *Honorius Flavius*, 16 who promulgated new anti-Donatist laws. (Bouillet, M., 1878 : 890)

In spite of the disappearance of many works and documents. To these sources we can add the recently discovered archaeological and epigraphic documents, ruins of basilicas, Benian or Numidian inscriptions.

Donatism appeared at the beginning of the 4th century, following the persecution of Christians under the orders of *Diocletian* during the period (303-305). However, the deep reason for the success of Donatism appears to be the social state of Africa, the discontent and misery of part of the population, and also the abnormal organisation of the African Church. The immediate causes of the schism were : the difficulty of resolving the situation of the faithful and clergy who had been compromised in the persecution of *Diocletian*. The question of *Lapsi* (Gaffiot, F. 1936 : 353) is at the origin of the Donatist schism. As for the definitive rupture between the two churches, it was the election and consecration of Caecilianus as Bishop of Carthage in 311.

The divergence of historians on the date of the appearance of Donatism, explains the diversity of causes, which led these historians to determine this appearance, sometimes to the persecution of *Diocletian*, sometimes to the Council of Cirta (*Concili Cirtensis*) (Monceaux, P., 1902 : 13) in 305 which brought together the Numidian bishops, sometimes to the alleged schism of Donatus of the Black Boxes (Bagai today) in 306, (Brisson J.P., 1958 : 237) and sometimes to the council of Numidian dissidents - led by the Primate Secundus - who in 312 pronounced the deposition of *Caecilianus*. In reality, the last date was the main cause of the schism, the other dates simply mark the stages of the misunderstandings from which the schism arose. However, Optat traces the origins of the rupture back to the persecution of *Diocletian*. . (Optat St., I, 13-14) But he adds that this rupture broke out after the ordination of *Majorinus* 21 in 312.

It seems, therefore, that the main cause of the Donatist schism was the difficulty in resolving the situation of the many bishops, both clerics and laity, who were compromised in the persecution. (Optat St., I, 15) It should not be denied either, that the manifesto of the martyrs of Abitina (Beschaouch, A., 1976: 255- 266) the scandalous scenes of the election and ordination of *Silvanus* (Monceaux, P., 1902 : 13) in Cirta, the attacks on *Mensurius* (Toulotte, 1892 :84) and his archdeacon *Caecilianus*, were certainly serious symptoms, but all this did not lead to the schism.

The various testimonies that have cited the beginning of the Donatist schism, have shown that the persecutions of the emperor *Diocletian* in ancient *North Africa* during the period (303-305), had surprised the African Church, and led to much disarray. (Optat St., I, 13- 14) Certainly the martyrs were numerous, which leads to necropolises (Fig. 3), but also the apostasies had been innumerable, especially in Numidia.

This caused the African Church to be divided, a Church that had always been unified throughout its history, as St. Cyprianus described it : *De Catholicae*

Ecclesiae Unitate. (Brisson, J.P, 1958 :70-71) These persecutions were fatal to the faithful, we had seen Christians denying their faith, clerics and bishops even hastening to hand over compromising holy books to magistrates. (Monceaux, P., 1902 :10) For the Donatists they were regarded as *Traditors* (Gaffiot, F., 1936 : 65) and *Lapsi*. On the other hand, many Christians courageously resisted persecution, were sacked and executed.

Whereas, the attitude of the Confessors was rigid towards the Traditors and Apostates, and rejected all contact with them after the appeasement of the persecutions in 305, following the abdication of *Diocletianus*. (Warmington B.H., 1954 :78)

The victims of these persecutions were none other than the martyrs of Abitina, near Carthage. After their interrogation and torture on February 12, 304, these Confessors were taken back to their prison in Carthage.

It seems that they had suffered a great deal, so they decided to excommunicate the Christians who had weakened in the persecution. They wrote a kind of proclamation which was considered a law, and was called the "*act martyrum*", (Julien, Ch. A., 1978: 209) and the text of which is as follows : "Whoever has been in communion with the translators shall not share with us in the heavenly kingdoms." (Monceaux, P., 1902 :4)

This proclamation invites all the Pure Ones and Saints on the need to apply the excommunication launched by the martyrs in Africa, on all the *Traditores*. (Allard, P., 1900 :261-273) As it had a virulent echo, and an extraordinary resonance, in various regions of ancient *North Africa* and especially in Numidia. And it became a weapon against *Mensurius* and his followers. (Monceaux, P., 1902: 13)

Since the incidents of Abitina on February 12, 304, the African schism begins its expansion, and its milestones to appear, after the last and violent persecution (311-312), and especially the persecutions of Emperor *Diocletian* which left a deep impact in the ancient *North Africa*. It is the schism of the African church, the church that has always remained unified, as mentioned before.

A curious document, and Catholic sources show that there were deep differences between the Numidian bishops, about the council held in Cirta (Papier, A., 1879 : 109) on March 5, 305 (*Concili Cirtensis*) for the consecration of a new bishop, after the death of *Paulus*. (Optat St., I, 13-14) In his place the Numidian bishops elected the sub-deacon Silvanus by intrigue and riot, despite the opposition of the clergy and notables, who accused him of felony, and he himself was compromised during the searches. (Augustine St., III, 27- 30)

It seems that the apostasy spread through Numidia, where the Council of Cirta was held to ordain *Silvanus*, under the presidency of Primate Secundus, twelve Numidian bishops are present, among them : *Donatus of Mascula*, *Victor of Rusicade, Marinus of Aquae Tibilitanae, Donatus of Calama, Purpurius of Limata, Victor of Garbe, Felix of Rotarium, Nabor of Centurionis, Secundus minor*, all or almost all future Donatists. (Papier, A., 1879 :109)

The Numidian bishops present at the Council of Cirta in 305, became - seven years later - the main founders of the schismatic church. No doubt they would have used a different tone, consecrating the Bishop of Carthage. They considered themselves -*the Saints and the Pure*-. (Monceaux, P., 1902: 17)

The African Church underwent a radical change after the death of *Mensurius* Bishop of Carthage in 311, on his return from Rome, where he was received by the Emperor. This was a very significant event in the relationship between the secular power and the Church.

Following his death, the problem of the succession of the bishop of Carthage *Mensurius* begins, in an atmosphere of intrigue and conspiracy. This led to the evolution of the conflict over the episcopal consecration of the bishop of Carthage. The schism of the African Church begins there, to which is added an evolution in the empire with the arrival of *Constantine*. (Monceaux P., 1902: 14)

Following the election of *Caecelianus*, who was Diaconus of *Mensurius*, this Ordination took place in the absence of the Primate of Numidia, and outside the traditions of the African Church. The schismatic church quickly organized itself, Secundus Bishop of Tigisis and Primate of Numidia, (Episcopus Primae Sedis) therefore convened a council of seventy (70) bishops in Carthage, in the house of *Lucilla* (Mesnage, J.P., 1912 : 277) matron of the community of Carthage, in 312. They summoned *Caecilianus*, who refused to appear ; he was excommunicated and the council elected *Majorinus*, a reader of the Church of Carthage, to replace him. The consecration of *Caecilianus* was invalidated because *Felix of Abthugni* (Babelon, M., 1893, I, 42, 52) was himself accused of having been a translator during the time of the persecutions. (Jacques-Paul D., 1847 : 646- 647) Along with two other clerics, *Botrus* and *Caelestius*, also accused of having ordained *Caecelianus*. (Mourre, M., 1978 : 1408)

According to the discipline of the Church of Africa, a consecration made by a translator was null and void.

They elected *Majorinus*, who was soon replaced by *Donat*. (Optat St., I, 19) The schism begins there. But it is based on a different doctrinal approach to the ecclesial question and to the question of baptism, so it was soon considered a heresy and therefore treated as such by the civil Roman authority. (Raynal D., 1973 : 46-47)

It is said that the interests of the Carthaginians opposed to those of *Caecelianus*, with the accusations of the Numidian bishops were able to concretize the schism in the African Church. Minutes of the consecration, cited that a wealthy and influential Carthaginian woman of Spanish origin named *Lucilla*, played a key role in the deposition of *Caecelianus*, and the consecration of a new bishop, the reader of Carthage *Majorinus*, a protégé of *Lucilla*. (Augustine St., *Epist.* 43, 2, 4)

If Augustine accused *Lucilla* around 400 - following investigations made after the ordination of *Majorinus*- of having corrupted the bishops of the Council of Carthage, by paying them a considerable sum which they shared out among themselves without giving anything to the poor or to the clergy, he was able to achieve his goal. (Augustine St., 43, 6, 17)

Martroye brings up the misunderstandings between the matron of Carthage *Lucilla* and *Caecilianus*, and that she did not forgive *Caecilianus* a reprimand which the latter had had to address to her while he was still a Deacon. (Martroye F., 1904 : 361) In my opinion, these misunderstandings between *Lucilla* and *Caecilianus*, reveal the deep conflicts between the church of Numidia, and the church of Carthage led by *Mensurius* and then *Caecilianus*, both compromised during the persecutions, for having delivered the scriptures and holy books to the pagan Roman power.

Majorinus was only a ghost, he disappeared quickly, he died after a few months, in 313 during the assizes of the Council of Rome, he was replaced by *Donatus of Carthage* known as "*Donatus the Great*", he was the author of the rupture, and yet we have many reasons to identify him with *Donatus* of the Black Boxes known as "*Donatus of Bagai*". (Augustine St., *Epist.* 43, 5, 16)

In any case, *Donatus of Carthage* had the qualities of a true leader : he constituted and strengthened -by all means - the new church, which claimed to be the true Catholic church, the church of the martyrs. He also gave his name to the Donatist movement which was called the party of Donat "Pars Donati", or Donatism. (Augustine, St., *Epist.* 88, 2)

The African church is thus divided, the schism is consumed : for more than a century, the unity of Christian Africa had been achieved. The Catholic Church under *Caecilianus*, allied with the secular power, and the schismatic church under *Donatus* had against it the authority of the emperor and his representatives in Africa. It was persecuted by most Roman emperors. (Maier, J.L., 1973 : 95, 453)

Each party went to defend its opinions and convictions. The Donatists used every means to defile the Catholics. In return, the Catholics abused their share to denounce the Donatists.

This conflict led to a polemical confrontation between Donatists and Catholics. Although the Donatists refused - many times - to witness the polemics with the Catholics, who are, according to the Donatists, the translators and persecutors of the Donatist Church. (Lancel, S., 1972 : 9-25)

The conflict that divided Christians in Africa for a hundred years, and caused much bloodshed on more than one occasion in Africa in the fourth century, in religious quarrels, pushed the secular power to intervene. The Catholics, determined to put an end to these quarrels, sent an embassy to the Emperor *Honorius* through their council held in Carthage on June 14, 410, exposing the situation, asking for the repeal of the edict of tolerance, and the convening of a general conference between the two parties. (Augustine St., *Brevic. Collat.,* III, 2, 2; 3)

Immediately, the Emperor Honorius, by a constitution dated 25 August 410, annulled the edict of tolerance, and imposed the death penalty or proscription on all heretics who held assemblies. (Cod.Theod., XVI, 5, 51)

At the same time, he accepted the proposed conference and took steps to make it happen. He instructed *Marcellinus*, senator and tribune, and imperial notary, as a special commissioner, to go to Carthage, by the constitution of October 14, 410, to convene the conference. (Cod.Theod., XVI, 11, 3)

The Donatists only decided to attend the Carthage Conference in 411, under pressure and threats, and yet they knew that *Marcellinus* was Catholic. Their presence in Carthage led to the evolution of the controversy between the thinkers of two churches, some of whom played decisive roles in the evolution of Christian thought, such as *Tyconius*, (Brisson, J.P., 1958 : 84) and *St. Augustine*. (Congar, Y., : 80)

In conclusion, the history and organization of Donatism allow us to determine with sufficient precision the real and lasting causes of the schism, its principles, aspirations, and social and political role.

First of all, a distinction must be made between the apparent, accidental causes and the deep-rooted causes of the schism. The immediate origin of Donatism lies in the surprises of the persecution of the Emperor *Diocletian*, in the question of the *lapsi* which had already produced the schism at the time of *St. Cyprian*. In the difficulty of resolving the situation of countless Christians who had weakened in one way or another in the face of the persecutors. Misunderstandings erupted even before the restoration of religious peace, and appeared in the manifesto of the martyrs of Abitina in 304, in the meeting of the Numidian bishops in Cirta in 305, in the correspondence of Primate Secundus with *Mensurius*. (Optat, St., I, 13-16) To these misunderstandings are added personal quarrels, jealousies, grudges, the intrigues of *Donatus* of the Black Boxes, of *Lucilla*. (Augustine, St., III, 27-30) All these misunderstandings and intrigues lead to a definitive break, after the election of *Caecilianus* as Bishop of Carthage in 311. . (Optat, St., I, 19-20) But the rapid spread of Donatism, and its popularity is due to deep causes :

- ***The first cause*** was in the abnormal organization of the African Church where the ecclesiastical provinces never had true autonomy. From the Cyrenaica to the Tingitana border all depended on the Bishop of Carthage. (Monceaux, P., 1902 : 164)

- ***The second cause***, related to the first, was the traditional rivalry between the primacy of Numidia and the bishop of Carthage, the circumstances of the election of *Caecilianus* in 311 were abrupt, and in the absence of the Numidians (Augustine, St., I, 10, 16)

- ***The last cause*** is in the social state of Africa, where misery had been great since the middle of the third century. (Toutain, J., 1895 : 362)

To these rivalries and jealousies between the bishops of the various African provinces, we must add other causes, of a psychological, moral or even political nature. (St. Cyprien, *Epist.*, 69-74)

Thus, the history of the relationship between Christianity and Roman power over three centuries has been characterized by grudges and violent conflicts. Secular power used every means to destroy the Donatist Church, because it saw in it a factor of destruction of the Roman Empire.

II- Origins of the Donato-Catholic conflict

After the deposition of *Caecilianus*, the intrigues and plots continue to grow. By a twist of fate changed Christianity's relationship with the state : *Constantine's* victory, (Bouillet, M.N., 1878 : 452) soon followed by the Edict of Milan in 313, which guaranteed the persecuted not only full freedom of conscience and worship, but also the official protection of the state. (Lactantius, 1903: 44, 48 & Eusèbe, de Césarée, 1687 : X, 5, 2)

The end of the persecution (edict of *Licinius* 311) against Christians was followed by an unexpected turnaround in the situation of the Church. The conversion of *Constantine*, who embraced their religion and declared it the religion of the empire, by a famous edict issued in Milan in 313. As the sole master of the empire, he made the persecuted ancient church a protégé and then an ally of the state. (Meslin M., & Hadot P., 1957: 143)

Since *Constantine* took power in Rome, his vision has changed towards the Christians of Africa. He became interested in the affairs and quarrels of the ancient *North Africa*. He manifested himself in the need to restore and restore the property of the African Church after Diocletian's persecutions. Wishing to repair the injustices of the past, he ordered Proconsul Anulinus, during the period 212-213, to return the confiscated property of the Christian community. (Eusebius, 1687 : X, 5 ; 15- 17).

The situation worsened in the ancient *North Africa*, around the time of *Constantine's* death on 22 May 337, (Martroye F., 1914: 392) at the time of his son *Constantine*, (Bouillet, M.N., 1878: 451) who believed, after having taken rigorous measures against schismatics, that he had succeeded where his father had failed. He addressed an imperial constitution "to the Africans" in 338, (Cod. Theod., IX, 34, 5) in the context of the battle of pamphlets between Catholics and Donatists. He must have regretted his imprudence, in changing his policy, he first tried to be gentle, sending to Africa two commissioners : *Paulus* and *Macarius*, (Monceaux P., 1902:34) charged with preparing the union of the two churches, bringing back the sectarians, if he could, by persuasion, distribute relief to the communities, and probably gifts to the influential leaders of the party. (Brisson J.P., 1958: 292)

These two commissioners *Paulus* and *Macarius* are famous in the religious history of the ancient *North Africa*. They are the famous "artisans of unity", (*operarii unitatis*), so often accused, reviled,

slandered and cursed by generations of Donatists (Optat St., I, 6-7 ; III, 4-6).

Donatus primate of Carthage, and head of the schismatic church, received them very badly. He gave them a very haughty answer, which was summed up in this threatening formula : "What does the emperor have in common with the church ? ». *Donatus* had to deal with the effects of corruption, and he sent a circular letter to the schismatic communities and faithful forbidding them to accept help and alms, and the attempt was unsuccessful. (Julien Ch.A., 1978:217).

No one in the Donatist camp disobeyed *Donatus*. They soon realized that they would achieve nothing unless they were clearly authorized to use violent means. They had to refer the matter to the emperor, to whom *Donatus*, for his part, wrote an insulting letter (Optat St. John the Baptist, III, 3) In the middle of 347, *Constantius* decided to issue an edict of union, ordering the merger of the two rival churches, i.e. the dissolution of all schismatic communities, and the attribution of all Basilicas and other properties to the Catholic Church. (Augustine St., Psalm. C. Part. Donati., 145)

The edict of "Union" or "unity" promulgated by *Constantius* in 347, simply reinstated only the law of his father *Constantine* 316, which was never repealed, but whose application had been suspended by the edict of tolerance of 321 (Cod. Theod., XVI, 6, 2).

In the eastern part of the ancient *North Africa*, the edict of "Union" was executed in the Proconsular, Byzacena, and Tripolitania without too much resistance (Optat St. Peter, III, 4) Because the schismatics were, probably, less numerous ; they did not form compact groups ; or perhaps they had lost some of their fierce energy, during the thirty years of peace and prosperity that the ancient *North Africa* experienced from 316 to 347. (Optat St., III, 1)

On the other hand, violent incidents between the imperial commissioners and the Donatistas took place in Carthage, where there were many dissidents, since that city was the official capital of the party, the residence of the head of the dissident church, the venue for regular council meetings, and the centre of political action. (Monceaux P., 1902: 125)

These violent incidents date back to August 15, 347, when a proconsular edict was posted, relating to the union of the churches, probably to the measures taken by the consul, in agreement with the commissioners, to ensure the execution of the imperial edict (Passio Maximiani & Isaac, 768) A certain *Maximianus* could not contain his indignation, decree 'poster. He was arrested by order of the governor, and put to torture. Another Donatist, named *Isaac*, who was present at the scene, insulted the Catholics ; he had the same fate. (Passio Maximiani & Isaac, 769-770)

The two fanatics were then condemned to exile. *Isaac* died in prison on August 15, pushed, it is said by the Catholics, the proconsul would have had the dead and the living thrown into the sea. But Lamer was an accomplice of the Donatists of Carthage ; his waves brought the bodies of their two martyrs ashore (Pallu de Lessert, 1901:243).

In Numidia, the Edict of *Constantius* unleashed a religious war in the regions of Thamugadi (Timgad), Theveste (Tébessa), and Bagai (near Khenchela), the centre of the dissidents, Donatism became a national religion, and schismatic communities were more numerous and more powerful than the Catholic communities. The city of Bagai was one of the regions that stood up to the imperial commissioners. Bishop *Donatus Casae Nigrae*, a fanatic who was resolute in everything, organized the defence of Bagai and appealed to the Circumcellions. He wrote a proclamation, which was shouted in the towns and markets of Numidia, urging true Christians to save their church. (Bouillet, M.N., 1878:1827).

Donatus fortified his city, turned his basilica into a granary, piled up supplies for his encounter troops. On learning of these preparations for war, the imperial commissioners did not hesitate to ask for the support of *Sylvester*, Count of Africa (Petit, P., 1974: 73-74) An army marched against the Circumcellions at Bagai, this time commanded by a bishop. In the vicinity of Bagai, a vanguard was mistreated by a group of Donatist supporters. The Roman officers were unable to hold back their attacking troops, and massacred a large number of Bagai's inhabitants (Optat, St., III, 4) *Donatus of Bagai* perished in the battle ; he was honoured as a martyr. (Augustine St., II, 20, 46)

As a result of these incidents, a Donatist Council met in Numidia in the summer of 347 to protest against the repressive measures led by *Macarius* and to advise on ways to restore peace and security in the region. The memory of this intervention has been preserved in our memory by a writer of the Donatist sect, who says: "a council of our bishops gathered, sent an embassy to *Macarius*, ten eminent bishops, chosen from the assembly, the deputies were to give *Macarius* salutary warnings, to divert him from such a great crime, or at least (which happened) to rush first to the field of religious battle

where the law was fighting. (Monceaux P., 1902: 335- 336)

The ten Donatist deputies met with the Imperial Commissioner in Vegesela, (Cayrel, P., 1934:114 & Duval, N., 1989:174) and were to protest against the repression, and to try to restore peace. Before explaining the situation to him, they thought it necessary to insult him. They spoke with such insolence that *Macarius* ne was able to contain his anger and ordered them to be tied to columns and beaten (Monceaux, P., 1902: 37) The public castigation of these bishops and ambassadors must have stirred up the schismatic population of the region. This led to fights between *Macarius'* army and the crowd, resulting in casualties. There perished the martyr *Felicianus*, whose reliquary has been found, and who, according to the inscription, appears to have been killed at Vegesela on June 29, 347. (Birebent J., 1961:364-365 & Gsell S., 1899 : 455)

The imperial envoy released nine of the bishops sent by the Council of Cirta, but retained the tenth prisoner, who had been marked by his insolence, a certain *Marculus*. He dragged him to several towns in Numidia, and then finished him off. According to the Catholics he committed suicide (Courcelle, P., 1936:166-197) by rushing from the top of a rock near Nova Petra, (Ragot, W., 1874:228) on November 24, 347 (Julien, Ch. A., 1978:217).

Later, *Optat of Mileva* reported that the Donatists affirmed that *Marculus* was thrown alive by the executioners of *Macarius*, and that his tomb became a very popular place of pilgrimage for schismatics. (Optat St. John the Baptist and the Donatists, III, 6) In reality, the edict of *Constantius* had raised a large part of the African population - according to Augustine -, and with the repression of the "artisans of unity", many bishops and clerics fled from Carthage and Numidia to other more secure cities. (Augustine St., LXXXVIII)

The dissidents fought real battles with the army of the "artisans of unity", which cost them many martyrs. For them it was the time of Macarius, (Macariana tempora), (Optat St., III, 1) or the persecution of *Macarius* (Macariana persecutio) (Augustine St., 44, 3, 5) And for whom the Catholics, accomplices of the executioner, became the (Macariani), the party of *Macarius* (Pars Macarii), and the Church of *Macarius* (Macariana Ecclesia) (Augustine St., XLIII, 9).

To complete the work of union and repression, *Donatus of Carthage* was exiled from Africa, and the principal bishops, as the basilicas were confiscated for the benefit of the Catholics, it was a triumph for them.

The Catholics believed that the schism was the punishment for the schism, God had willed it. 108 This belief in divine intervention gave the Catholics back their confidence and they took the offensive. Three months after the Council of Cabarsussa, a great Catholic council met at Hippo Regius, *Augustine's* city, on October 8, 393, under the presidency of *Aurelius of Carthage*. (Mesnage J.P., 1912:5) This council contributed to the reorganization of the African Church, and decided on reforms, and canons that directly aim at the destruction of Donatism, among which we can quote:

1- To preserve the dignity of Donatist clerics who have rallied to the Catholics.

2- The ordination of converts baptized in their childhood by dissidents as clerics. (Monceaux P., 1902: 60)

It is said that these canons were inspired by *Augustine*, or it was the Council of Hippo Regius that suggested to him the idea of fighting the schism by all means in order to restore religious peace and the unity of the African Church. (Monceaux P., 1902: 61).

In spite of the sentence of the Council of Cabarsussa, the majority of Donatists rallied to *Primianus*, his followers responded to his call when he summoned them in 394, to attend the Council of Bagai (Mesnage, J.P., 1912 :253) Three hundred and ten bishops responded to *Primianus'* call on April 24, 394, under the presidency of *Primianus* himself. The sentence of the Council was as follows :

- The excommunication of *Maximianus* and the twelve bishops who had ordained him...

- To threaten the other *Maximianus* with the same punishment if they did not make amends within eight months.

Synodal letters were sent to all the African provinces threatening all the sects that dissented from the Primianist anathema (Brisson J.P., 1958: 226). Both sides sought the help of the secular powers to restore the Church's property to their adversary. The Primianists sometimes used violence to restore their Maximianist members. This confrontation ended with the victory of the Primianists in 397. They finally decided to shelter the repentant Maximianist bishops within the Donatist Church. (Monceaux, P., 1902:130)

It was probably around this time that the Donatist councils, mentioned by Augustine (fig. 4), forbade voluntary martyrdom to their faithful, which

had become a scandal for the Donatists because of the number of victims or the staging of suicides,116 and which was increasingly fashionable among circumcision, fanatics, or party adventurers.In spite of prohibition, the epidemic of devout suicides that Africa had never seen so dreadful could not stop during the first twenty years of the fifth century. (Brisson, J.P., 1958:351).

It seems that Donatism spread in a prodigious way, it crossed the limits of Numidia, to reach the Proconsular, Byzacene, Tripolitania, and Mauritania, it took advantage of the circumstances of that period, and was able to stand up to the Catholics.

III -Principal periods of the Donato-Catholic Conflict

The Donato-Catholic conflict, has known through its history four periods, three of them during the Roman period, it is weakened at the end of the Vandal period, before disappearing during the Byzantine period at the end of the VI century. We can distinguish three periods during the Roman period:

III - 1- the beginnings of the Conflict (305-316)

This period starts from the holding of the Council of Cirta in 305, before two months of the abdication of Emperor *Diocletian*, until 316 date of the condemnation of the Donatist Church by Emperor *Constantine*. (Monceaux, P., 1902 :365)

This period saw a further escalation of persecution, which led some bishops to apostasy and being translators, to have obeyed imperial edicts to hand over to secular power and then burn the scriptures and sacred books.

The Protocol of Cirta (*Concili Cirtensis*) marked the rupture between those who resisted (Donatist Church) and those who betrayed their faith (Catholic Church) and delivered the Scriptures to the persecutors. The protocol of Cirta was the beginning of a series of councils between the Donatist and Catholic Churches.

The persecutions of Abitina in 304, had produced a state of unease and general discontent among the population of ancient *North Africa*. The manifesto of the martyrs of Abitina (act martyrum) became a kind of religious and social charter. (Martroye, F., 1904, 354) In memory of these martyrs stelae (fig. 5) have been erected throughout various cities of the ancient *North Africa*. (Monceaux, P., 1920 : 4)

III - 2- Period of persecution and repression (317-392)

This period saw a very active movement in the history of the conflict between the two churches, the Donatist Church on the one hand, and the Catholic Church supported by the secular power on the other hand. This period starts from the first persecution in 317 in the time of *Constantine* until 392 when *St. Augustine* entered the battle, and leads the decisive struggle on the theological level, confronting the Donatist Church at the head of the episcopate of Hippo Regius (Annaba).

This period is marked by important events such as : the promulgation of the Edict of Tolerance in 321, (Audollent A., 1890 :526) and the Edict of Union of Emperor *Constantius* in 347, and the violent response of Emperor *Julian the Apostate* in 367, followed by a number of edicts aimed at the destruction of the schismatic Church in 373.

Following the condemnation of the detractors of *Caecilianus*, which only overexcited the disgruntled, and after some disturbances in Numidia, *Constantine* was forced to use rigor, he decided to promulgate a law that pronounced the confiscation, for the benefit of the tax authorities, of the basilicas and all the places where the dissidents held their assemblies. (Cod.Theod., XVI, 6, 2) The emperor ordered his commissioners on the necessity of watching over the practice of the law with rigour. Secular power with the help of the clerics of the official church prevented the Donatists from entering or taking refuge in the churches. (Augustine St., 92) The Donatists only had to retaliate against *Constantine's* Law of 317, bloody confrontations occurred in various churches in Carthage, many sectarians were massacred, and they were buried in basilicas where they had died. (Martroye F., 387-388)

It is said that *Constantine* was forced to follow a repressive policy after his victory over his enemy *Maxentius*. *Caecilianus* was the only one in ancient *North Africa*, to have benefited from this policy. This prompted the Bishop of Carthage to take action against the schismatic Church, and the condemnation of Donatism.

IV- Augustine and the proscription of Donatism (392-411)

The schismatic Church remained solid, unified for more than eighty years, it was able to stand up to the Catholic Church, considered as the official church supported by the Roman power. It was able to put the politics of this power out of harm's way,

from the election of Bishop *Majorinus* at the head of the Church of Carthage in 312, after the death of *Mensurius* in 311, until 392, when ancient *North Africa* experienced two important events: the first was the death of the heads and protagonists of the two churches, *Genethlius* (Mesnage, J.P., 1912 : 5) bishop of the Catholic Church of Carthage, who was replaced by *Aurelius*, and the death of *Parmenianus* the most famous of the bishops and heads of the Donatist Church, who had reconstituted the schismatic Church and restored it to full power, and who presided over its destiny for thirty years. (Monceaux, P., 1902 : 337) The second event was the ordination of St. Augustine as head of the episcopate of Hippo-Regius (Annaba), (Augustine St., XLIV, 5, 12) who played a major role in infiltrating the schism into the Donatist Church and using all means, including the legitimacy of violence, to reintegrate the dissidents into the Catholic Church. (Lepeley, C., 1967 :194)

In his campaign against the Donatists, and in the context of the controversy between the two churches, *St. Augustine* multiplied his speeches and writings, and was led by the necessities of the struggle, to clarify the essence of the Church, and to formulate a formidable principle, the need for a "useful terror" exercised by the public powers to bring the heretics back to Orthodoxy (the Catholic Church), in the name of Christ: "force them to enter" (*Compelle Intrare*). He legitimated the coercion of the state. (Julien, Ch.A., 1978:226- 227)

After the death of *Parmenianus*, leader of Donatism in 392, the Donatists elected *Primianus* (Mesnage, J.P., 1912 : 5, 202) in his place. (Monceaux, P., t.V, 224 ; t VI., 111)

But the new Numidian primate had not been slow to sow anxiety and mistrust around him. From the very first months of his episcopate, by his incoherent policy, made up of clumsiness, tyranny, and partiality. Thus, *Primianus* was definitively condemned by the Council of Cabarsussa in Byzacene in 393, when he was stripped of the episcopate and excommunicated for a large number of faults which were reproached to him and which are reported, as grounds for the sentence pronounced against him, this condemnation was pronounced on June 24, 393. After Primianus' deposition, his enemy *Maximianus* was elected in his place, and was ordained in Carthage by twelve bishops. (Monceaux P., 1902: 224) Now the church in Carthage has three bishops, and in the whole of the eastern half of Donatist Africa a Maximianist church was organized opposite a Primianist church.

So far, nothing has changed the imperial policy towards dissidents. It can even be concluded that from 392 to 405 the civil authority allowed the two rival churches to empty their quarrel into the field of the Africans.

It was only in 405 that Emperor *Honorius* took a clear stand against Donatism, proclaiming the assimilation of schismatics to heretics, and promulgating a new edict of union on February 12, 405.

The Catholic bishops decided to put an end to the dissidents, ensuring success through the intervention of the secular power. For this reason, they held a council in Carthage in 410, sending an embassy to the emperor to explain the situation, to ask for the abrogation of the edict of tolerance, and the convocation of a general conference between the two parties. (Augustine St., IV, 6,) Thus *Honorius*, by a constitution dated August 25, 410, annulled his previous edict, at the same time accepting the project of a conference. On October 14, 410, he charged a special commissioner, *Marcellinus*, senator, tribune and imperial notary, to go to Carthage, to convene the conference, to preside over its debates, in order to re-establish religious unity in Africa. (Cod.Theod., XVI, 11, 3) It was a solemn moment, an epoch in the history of Christian Africa, when the Carthage conference was to bring out the definitive condemnation of the Donatist schism.

The debates took place on June 1, 411, and lasted 8 days, in a vast and luxurious building in Carthage, the Thermae Gargilianae. (Augustine St., Brevic. Collat., I, 14) the two parties were about equally strong. 286 Catholic bishops were present, 120 absent, 64 seats vacant ; on the Donatist side, 279 bishops were present, about as many absent and vacant seats as for the Catholics. It was the third session of June 8 that decided the fate of the schismatics, and the sentence was proclaimed : Donatism is officially proscribed. (Collat. Carthag., III, 1)

Conclusion

The study reached a number of results, the most important of which are:

1-Donatism, which had not changed at all since his birth. It is not certain, therefore, that *Augustine* is right on this point against *Cresconius*, the Donatist polemist. But the legal fact had been established : since the law of 405, confirmed by many others, and except for the short entr'acte of the conference of Carthage in 411. Donatism was definitively assimilated to heresy, treated and outlawed as such.

2-It is said that the invasion of ancient *North Africa* by the Vandals (Evagre, 1686, IV, 16 & Courtois, C., ,1955 :15-19) in 430, contributed indirectly to safeguard what remained of Donatism. This invasion must have weakened the Roman power, which was the greatest enemy of the Donatist schism, a power that began to lose these African provinces, one after the other, on the one hand, and the Vandal persecutions that reached the Catholic Church on the other hand.

3-We can conclude from this historical shortcut that Donatism presents itself as a schismatic attitude and a form of heresy in ancient *North Africa*, through deep doctrinal divergences in the ecclesiological and sacramental fields. But to this is added a rejection of a new attitude of the Catholic Church towards Roman power, in favour of Constantinian peace.

4-In spite of the proscription of Donatism, and until the end of the sixth century, Donatist communities will remain, or they will never be dissolved, or they will be reconstituted after the turmoil, despite the support of the secular power.

Appendices

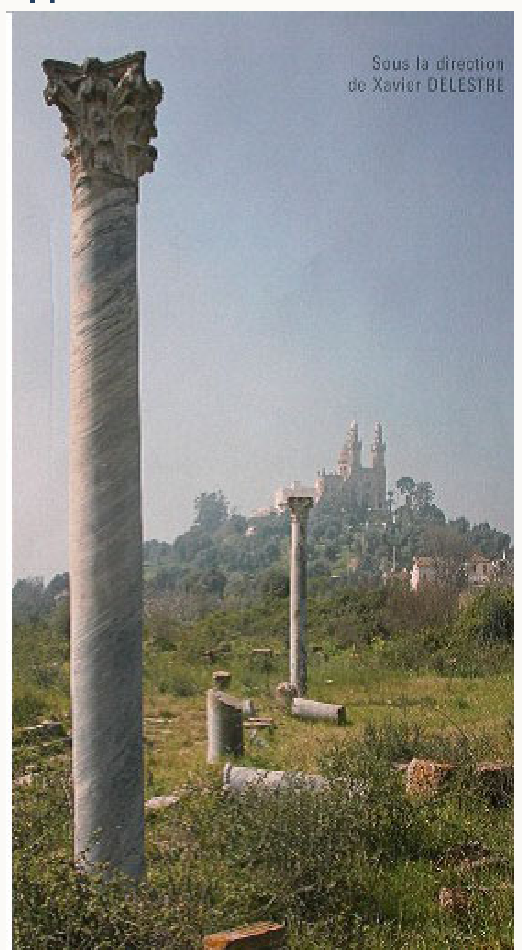


Fig.1 : Church of Saint Augustine in Annaba (Algeria) Xavier Delestre, Hippone the city of Saint Augustin : an archaeological unknown, p. 5.

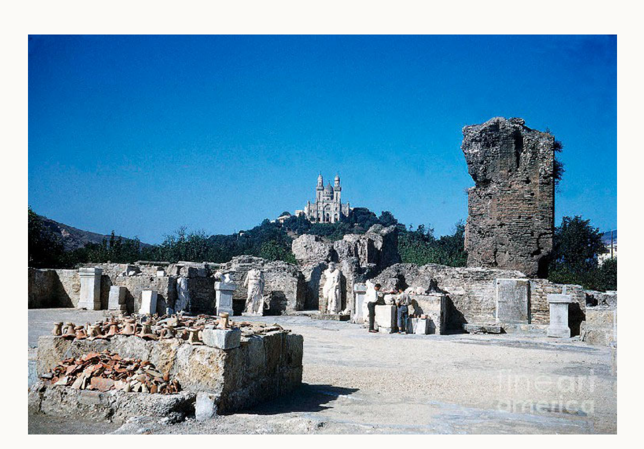


Fig. 2: Catholic Church of Saint Augustine in Annaba from the inscriptions of the forum portal (Algeria) Xavier Delestre, p. 11.

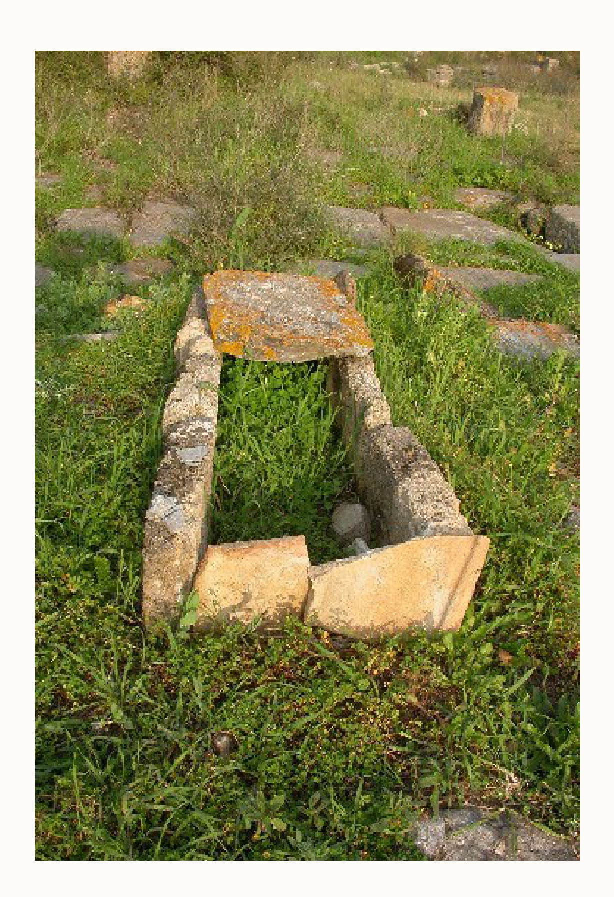


Fig. 3: Necropolis of the Martyrs near the Northern Baths, Xavier Delestre, p. 49.



Fig. 4: Byzantine inscription mentioning A(u) gustinus. Xavier Delestre, p. 54



Fig. 5: Paleochristian funerary stele
Xavier Delestre, p.53.

Bibliography:

1. Allard, P. (1900), *la persécution de Dioclétien et le triomphe de l'église*, Paris.
2. Audollent, A. (1901), *Roman Carthage*, Paris.
3. Audollent, A. (1890), " *Mission Epigraphique en Algérie* ", M.E.F.R.A.
4. Augustin St., *Breviculus Collationis cum donatistis*, I, 14.
5. Augustine St., *Contra Cresconium*, III, 27- 30.
6. Augustine St., *Contra Epistulam Parmeniani*, I, 10-13.
7. Augustine St., *Contra Epistulam Parmeniani*, 43, 6, 17.
8. Augustin St., *Contra Litteras Pétiliani*, 92.
9. Augustine St., *Psalmus Contra Partem Donati*, 145.
10. Beschaouch, A. (1976)," *Sur la localisation d'Abitina*... ", C.R.A.I., p. 255-266.
11. Birebent, J. (1961), *Aquae Romanae*, Service des antiquités de l'Algérie.
12. Boissier, G. (1891), *la fin du Paganisme*, t. I, Paris.
13. Bouillet M.N., *Dictionnaire Universel d'Histoire et de Géographie*, Paris, 1878.
14. Brisson J.P., *Autonomisme et christianisme dans l'Afrique Romaine*, Paris, 1958.
15. Cagnat R., l'Ar*mée Romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs*, E. Leroux, Paris, 1913.
16. Cayrel P., " *une basilique donatiste de Numidie* ", M.E.F.R., LI, 1934, p. 114- 142. Claude Augé, *Dictionnaire Universel Encyclopédique*, t. III, Paris, Larousse.
17. Claude Lepelley, *Primauté Romaine et Autonomie Africaine au Vè S.*, C.T., n° 5-6, 1967.
18. Codex Theodosianus, ed. Th. Mommsen, and P. Meyer, Berlin, 1954. IX.
19. Congar Y., *Note complémentaire* n° 10, " *Parmenianus et Tyconius* ", B.A., 28, pp. 718-721.
20. Courcelle P., "*Une deuxième campagne de fouilles à Ksar El Kelb*," M.E.F.R., 1936, pp. 166-197.
21. Courtois Chr., *les Vandales et l'Afrique*, Paris, 1955.
22. Duchesne L., "*le Dossier du Donatisme*", M.E.F.R.A., X, 1890, pp. 589-650.
23. Duval N., a *new edition of "le Dossier du Donatisme*", R.E.A., n°35, 1989.
24. Eusebius of Caesarea, *Ecclesiastical History*, By Cousin, t. I, Paris, 1687.
25. Gaffiot F., *Dictionnaire Abrégé Latin Français*, Hachette, Paris, 1936.
26. Gsell S., *Fouilles de Benian, (Ala-Miliaria),* published under the auspices of the Historical Association for the Study of North Africa, Ernest Leroux, Paris, 1899.
27. Gsell S., *Atlas Archéologique de l'Algérie*, cartes et textes, Paris, Algiers, 1911.
28. Gsell S., *Les Monuments Antiques de l'Algérie*, T. II, Paris, 1901.
29. Gsell S., *Notes d'archéologie Algérienne*, B.C.T.H., 1899.
30. Gsell S., *L'Algérie dans l'antiquité*, Adolphe Jourdan, Algiers, 1903.
31. Jacques-Paul D., Pluquet l'abbé, *Dictionnaire des Hérésies, des erreurs et schismes*, t. I, Ateliers catholiques, Paris, 1847.
32. Julien Ch. A., *Histoire de l'Afrique du nord*, Algiers, 1978.
33. Lactantius, *De Mortibus Persecutorum*, in R.Q.H., t. LXXIV, 1903.
34. Lancel S., *Actes de la Conférence de Carthage en 411*, t. I : Introduction, S.C., n° 194, Paris, 1972.
35. Leschi L., *Recherches épigraphiques dans le pays des Nememchas*, Rev.Afri., n° 72,1931, p. 262-293.
36. Maier J.L. *l'épiscopat de l'Afrique Romaine, Vandale et Byzantine*, Bibliothéca Helvetica Romana, XI, Swiss Institute in Rome, 1973.
37. Martroye F., " *une tentative de révolution, sociale en Afrique, Donatistes et circoncellions* ", R.Q.H., t.32, Paris, 1904, p.353-416.
38. Martroye F., *la répression du donatisme et la politique religieuse de Constantin et de ses successeurs en Afrique*, M.S.N.A.F., 1914, p.134-135.
39. Meslin M., Hadot P., " *À propos du donatisme* ", Archives de sociologie des religions, n° 4, 1957, p.143-148.
40. Mesnage J.P., *l'Afrique chrétienne*, Ruines Antiques et évêchés, Paris, 1912.
41. Babelon M., Cagnat R., Reinach S., *Atlas Archéologique de Tunisie*, Paris, 1893.
42. Monceaux P., "les premiers temps du donatisme et la Question de deux Donat ", C.R.A.I., n° 1, 1916.
43. Monceaux P., Enquête sur l'épigraphie chrétienne d'Afrique, C.R.A.I., 1907.
44. Monceaux P., Revue de philologie. 1909, p.112.
45. Monceaux P., Histoire Littéraire de l'Afrique chrétienne depuis les origines jusqu'à l'invasion arabe, t. I, t. IV, Paris, 1902.
46. Monceaux P., Les ouvrages de Gaudentius, évêque donatiste de Thamugadi (Timgad) au temps *d'Auguste*, C.R.A.I., n° 5, 1906, p. 314.
47. Mourre M., *Dictionnaire encyclopédique d'histoire*, Bordas, 1978.

48. Optat de Milev, *de schismate donatistarum*, edition C. Ziwsa, C.S.E.L., t. XXVI, Vienna, 1893.
49. Pallu de lessert, *Fastes des provinces africaines* sous *la domination romaine*, t. II, Paris, 1901.
50. Paper A., *Hammam Meskhoutine (Aquae* Tibilitanae), B.A.H., n° 14, 1879.
51. Petit P., *Histoire Générale de l'empire Romain*, t. I, le Haut- Empire (27 B.C.- 161 A.D.), Paris, 1974.
52. Ragot W., "*le Sahara de la province de Constantine* ", R.S.A.C., XVI, 1874.
53. Raynal D., *Culte des martyres et propagande Donatiste à Upenna*, C.T., t. XXI, n° 81- 82, 1973.
54. Tillemont, *Mémoires sur l'histoire ecclésiastique*, t.VI, 1-193.
55. Tissot Ch., *Géographie Comparée de la province Romaine d'Afrique*, Paris, 1888.
56. Toulotte Mgr, *Geography of Christian Africa*, Paris, 1892.
57. Toutain J., *les cités Romaines de la Tunisie*, Paris, 1895.
58. Warmington B.H., *The North African provinces from Diocletian to the Vandal conquest*, Cambridge, 1954.

ملخص الدراسة:

الصراع الدوناتي الكاثوليكي
وآثاره في الشمال الأفريقي القديم
(٣١١-٤١١م)

د. الربيع عيسى عولمي
أستاذ محاضر-قسم التاريخ وعلم الآثار
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باتنة -١-الجزائر

شكلت اضطهادات الإمبراطور "ديوكليتيانوس" للمسيحيين خلال الفترة (٣٠٣م-٣٠٥م) القطرة التي أفاضت الكأس، مما أدى إلى بروز مشكلة الانقسام والانشقاق بقوة داخل الكنيسة الإفريقية. هذا الانشقاق الذي تكرس على إثر سيامة الأسقف "كايكليانوس" بعد وفاة الأسقف "مونسوريوس" أسقف كنيسة قرطاجة سنة ٣١١م، لذا وجدت الكنيسة الإفريقية نفسها منقسمة بين أسقفين وحزبين: الكنيسة الدوناتية والكنيسة الكاثوليكية. وقد لعب القديس "أوغسطين" دورًا بارزًا فيما عرف في أدبيات الكنيسة بالصراع الدوناتي-الكاثوليكي في الشمال الأفريقي القديم. وكان قد دخل حلبة الصراع على الصعيد اللاهوتي والجدلي منذ ٣٩٢م على رأس أسقفية هيبو-ريجيوس (عنابة حاليًا شمال شرق الجزائر)، وترأس مجمع هيبون سنة ٣٩٣م الذي أدان الدوناتيون. وعلى مدى أكثر من قرن من الزمن احتدم الصراع بين الكنيستين الدوناتية مدعمة من قبل الجماهير الشعبية ومن الريفيين الأوراسيين من جهة، والكاثوليكية حليفة السلطة الزمنية الرومانية من جهة ثانية، والتي دعمتها في كل المحافل حتى انعقدت مناظرة قرطاجة بطلب من الإمبراطور "هونوريوس" والتي أقرت مبدأ حظر وتحريم الدوناتية رسميًا سنة ٤١١م.

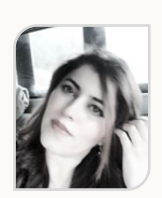
الكلمات المفتاحية: الانشقاق الدوناتي؛ الهرطقة؛ الكنيسة الدوناتية؛ الكنيسة الكاثوليكية؛ القديس أوغسطين؛ مناظرة قرطاجة

Researches
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

Critically evaluate the utility of the US use of force in the (2003) Iraq war



Dr.khalil M. Othman
Dep. of history, college of Arts
University of Duhok
Kurdistan region – Iraq.



M.A. Diman I. Ameen
Dep. of history, faculty of Scince and Education
University of Duhok
Kurdistan region – Iraq.

ABSTRACT

The war in Iraq is a significant event for removing Saddam Hussein from power. Furthermore, an American strategy built around the principle of regime change would have used the utility of force against Iraq to change the regime of Iraq. Although, according to many studies the USA sought to support democracy in Iraq but in fact they did not bring any real democracy to Iraq. The USA attacked Iraq not because of democracy or destruction of mass weapons, the reason was to get natural resources. Consequently, after invasion of Iraq the situation became even worse to promote and install democracy due to internal conflict and violence. The utility of the US use of force was counterproductive due to the negative consequences of this force on Iraq. The US use of force was ineffective because it generated political instability and insecurity after 2003. Therefore, the conflict started inside Iraq after removing Saddam Hussein from power between Shias, Sunnis and Kurds. In addition, Al Maliki continue to establish his power inside Iraq. In this regard, this led to outbreak conflict between political powers. In addition, the conflict did not end between citizens during and after the war as it supports the group of terrorists in Iraq. What is more, the conflict between Arab and Kurds have been limited if compared to the conflict between Sunnis and Shias that have created major tensions. Furthermore, the conflict between Arab and Kurds have been a serious threat especially about the issues of Kirkuk and oil. Hence, hardship and a turmoil of violence surrounded the Iraqi troops and people. Despite this, America faced huge cost casualties in terms of military operations and human life. Thus, this cost had a negative impact on American's economy.

Keywords:

Iraq war; Use of force; United States of America; 2003

Research info:

Received: 19 Febuarey 2021
Accepted: 20 March 2021
DOI: 10.21608/KAN.2021.232720

Citation:

khalil M. Othman, Diman I. Ameen, "Critically evaluate the utility of the US use of force in the (2003) Iraq war".- Historical kan Periodical. - Vol. (14) Issue (52); June 2021. Pp. 271 – 279.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: culturalduhok@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Introduction

The utility of military force has been the most prominent in terms of political objectives of stability, economic development, democratisation and respect for human rights since the end of the cold war (Egnell, 2008). After the end of the cold war in 1989, the utility of military force has been the focus of more consideration (Angstrom and Duyesteyn, 2010). Therefore, military operations are likely to continue in the near future. It continues to play a significant role in these operations. However, according to General Sir Rupert Smith the utility of military force is a solution ''for a wide range of problems for which it was not originally intended or configured'' (Egnell, 2008: p3). Rupert Smith (cited in Burton and Nagl, 2008) also argues that the utility of force is less practical and beneficial in wars between the people.In this regard, the utility of force against Iraq was justified by the USA and Britain in December 1998, due to Iraq's agreement to accept international armaments monitoring and removing weapons of mass destruction (Weller, 1999, p.2). In Iraq, the utility of force appears to be more limited (Duyvesteyn 2008). Before starting the war in 2001, the Bush government re-evaluated the possibility costs and risks of removing Saddam Hussein from power and changing the regime of Iraq (Metz, 2010). Saddam Hussein and his regime was described by the Bush as a ''serious threat'' to the Middle East (Danchev and Macmillan, 2005: p35).Thus, the utility of force used in Iraq in 2003 to attain an operational objective; for example, to remove Saddam Hussein from power and his Ba'ath regime apparatus and also to destruct the Iraqi forces (Smith, 2006: p.271).

This essay will critically set the argument of the utility of force in the Iraq war, which was launched by the United States since 2003. Therefore, the argument of the paper will be as follow. Although, the United States succeeded in removing the local and regional threat of Saddam's regime by means of force, the US still did not use force effectively because the consequences of the Iraq war were counterproductive in terms of the lack of democracy, political instability, Kurdish issues and the escalation of violence and insurgency.

The utility of force in Iraq would be viewed in some important facts such as removing Saddam Hussein from power and changing the regime of Iraq by using the force of American strategy (Antic, 2009, p.p.88-113). In addition, according to Weller (1999, p.1), one of the aims of utility of force was to reduce Saddam's ability to reconstitute his weapons of mass destruction and control his power of threatening the world. Furthermore, the utility of force during and after the war was ineffective because the internal conflict did not end between citizens and terrorist attacks and insurgents were increasing day by day (Olsen, 2011). Hence, Duyvesteyn (2008) claims that the utility of force has four purposes, which are damaging, pressure, discouragement and control. Although, Kurdish people being Iraqi civilians, obtained many objectives after the war such as a semi-autonomous region, many issues were generated because of the poor political conditions between Kurdistan Regional Government (KRG) and the Iraqi central government of Al-Maliki. Therefore, this means that the US use of force rather generated political instability and semi civil-war in Iraq due to the different political parties and the fight for Iraqi resources such as oil (Cordesman and Khazai, 2013).

The utility of the US use of force in the (2003) Iraq war

1-The lack of democracy

Regime change was significant for spreading peace in the Middle East generally and for the Iraqi government particularly. Many studies have found that the purpose of the utility of force was to achieve some factors such as establishing democracy in Iraq. America tried to support democracy in terms of improving a peaceful society (Antic, 2009, p.p.88). Furthermore, President Bush and his neo-conservative allies believe that attacking countries is helpful to spread the democracy. Therefore, spreading democracy with using the military force is not a successful tactic to shape democracy in Iraq or in any other places (Mearsheimer, 2005, p.p.1-2). However, The USA did not bring a real democracy to Iraq and the real purpose of the invaders was not to organise the democracy (Antic, 2009, p.p.88-113).

Furthermore, the USA invaded Iraq neither because Iraq possessed weapons of mass destruction nor because of democracy, but their goal was for oil (Antic, 2009, p.p.88-113). In other words, the USA did not realise the minimum obligation for democracy during 2001 to 2004.According to a Gallup Poll (cited in Antic, 2009) in Baghdad from October 2003, only 1 percent of Iraqis thought that the USA invaded Iraq in order to establish democracy, and only 5 percent thought that the USA wanted to help Iraqis. The majority of respondents thought that motives for intervention were to control Iraqi oil or to reorganize Middle East according to the US interests. Hence, (Antic, 2009, p.p.88-113) states that the real purpose of the fighters was not to establish democracy but it was for controlling the natural resources. As a result, the

violence on Iraq was not justified and the people were not happy about the invasion of Iraq by external troops. (Antic, 2009, p.p.88-113).

On the whole, it could be argued that Iraq lacks the means of democracy because shaping democracy was problematic through using military force because it was not a successful tactic to build democracy in this way. Because if the utility of force was successful in shaping democracy, the current president of Iraq, Nori Al-Maliki would not control the Iraqi government according to his own interests and would not exploit his people such as ignoring the rights of Kurds and Sunni Arabs. In addition, the US use of force generated a divided country without democracy because Al-Maliki's reign brought about many conflicts among people. Therefore, the utility of force could not achieve sufficient democracy in Iraq in its interventions of 2003.

2- Political instability and internal conflict

Iraq is ethnically a varied nation, which includes Kurds, Shia and Sunni Arabs, Assirian and Kldan, and Turkman. However, this diversity generated political instability after the removal of Saddam Hussein. This division of Iraq's policy became impossible to discover the impact of Iraq's political struggles between Maliki as a prime minister and his challengers (Cordesman and Khazai, 2013). In this regard, the division between Sunnis, Shias and Kurds could importantly ''complicate the future development of Iraq's present fields, much less its proven and unproven reserves'' (Cordesman, 2003: p.547).

Thus, conflict accelerated inside Iraq in the post Saddam period between Sunnis, Shia and Kurds. Likewise, the danger of the civil war is still a serious threat to Iraq and the region (Cordesman and Khazai, 2013). The fragmentation of the Iraqi country during the capture and its invasion by challenging political groups, makes a difficult situation in Iraq. Therefore, it was difficult to recognize that who is conserving and who is threatening the recognized political demand (Dixon, 2009). In addition, there was violence and conflict into Iraq after 2003. Therefore the invasion of Iraq had a harmful impact on Iraqi society. As a result, Iraq's stability achievements stay fragile, and the future of Iraq is uncertain and there was much violence (al-Sheikh, Sky, 2011). It is thought that, Iraq cannot succeed in security, creating stability and providing a better life for civilians due to the increase level of violence (Cordesman and Khazai, 2013).

Thus, According to Dodge (2012: p107) after 2003, Iraq involved in a violent civil war because of instability. Therefore, after changing the regime, there were weaknesses in Iraq; for example, the dissolution of the Iraqi military and the weakness of troops (Dodge, 2012: p48). However, in 2007, the operation thrown was very successful to remove the violence from Iraq's streets and brought much security to many parts in Baghdad to end the violence, which had driven Iraq into civil war (Dodge, 2012: p107).

Additionally, Smith argues that the use of massive force was ineffective because it led to outbreak of a conflict in Iraq (Smith, 2006: p323). Hence, it did not solve any political problems. Despite this, the tactical utility of force contains deployment and employment of power towards political objectives (Duyvesteyn, 2008). Nouri al-Maliki the Prime Minister in Iraq (20th of May 2006-14th of August 2014) has continued to strengthen his power. In this regard Sunni political groups have tried to weaken him because he is as a threat for them. Their activities and political conflicts lead to increase violence across Iraq, political instability and important security challenges. (Cordesman and Khazai, 2013). Therefore, it is true that the violence in Iraq is the consequence of conflicts between Iraqi political powers.

This led to increase terrorism and authoritarianism through rising violence by both Sunni and Shi'ite terrorist groups at the side of Iraqi politics (Cordesman and Khazai, 2013).Therefore, in early 2011 others saw a harmful tendency. Despite this, according to a report on August 20, 2012 by CFR that, ''violence has fallen to its lowest level since 2003'' (Cordesman and Khazai, 2013: p15). However, Michael Knights of the Washington Institute states that Just in January 2012, Iraq had suffered mass-casualty attacks (Cordesman and Khazai, 2013).

It is argued that the use of force created a dividing country that led to bring civil war between different nations. For example, Sunnis are fighting Shias and the Shi'ite majority are controlling the power. Likewise, Kurds and Shias are not in agreement about Kirkuk. Therefore, the US use of force did not solve any political problems and the US failed to reduce internal conflict in Iraq through means of force. This is supported that by (Olsen, 2011) who claimed that such violence created a lack of relationship among the people of towards Iraq.

On the other hand, the Iraq's war faced with a huge cost of military casualties (Olsen, 2011). Since 2003 the costs for the invasion of Iraq especially for spending in military operations have been increased. Therefore the costs include finance for military operations, deployments and logistics of troops, organization of National reserves, food and materials, training of Iraqi militaries and military weapons (Stiglitz and Bilmes, 2006). Furthermore, the costs for military operation, security, embassy and reconstruction have been increasing during the war, for example, from 2003 it was increased by around 20%, $4.4 Billion to $7.1 Billion (Stiglitz, Bilmes, 2006).

Moreover, the Iraq war spent a lot of money onthe damagedequipment. The costs were increased for conscripting, disability and the medical treatment for those veterans who injured (Stiglitz and Bilmes, 2006). Thus, the total cost of the American war exceeded trillion dollars. In addition, the cost to human life was the essential part for the USA and also the cost of its soft power was significant. Thus, the cost of the war for America was 3 trillions of dollars (Antic, 2013) that can have negative effect on military and economy (members of the Iraq War Inquiry Group, 2012).

3- Kurdish Issues

Kurds in Iraq have their semi-autonomous area. Green Line is the informal border between them. The Kurds have their own government and parliament and their own militia named the Peshmerga. The Peshmerga helped the US to fight Saddam in both areas, Kurdish region and south of the Green Line in April 2003. After removing Saddam, Kurds established Kurdish Regional Government (KRG) (Senor, 2009).

There is no practical way to describe the levels of violence in Iraq that run from terrorism to insurgency and to civil conflict. The basic pressures that lead to a main civil war is that the conflicts between Arab and Kurd have created very limited violence if compared to the conflict between Arab Sunni and Shi'ite have shaped major tensions. Therefore, at the same time, the information available do not recognise between Sunni vs. Shi'ite violence and intra-Sunni and intra-Shi'ite violence. Overall, intra- Sunni violence was a main reason of efforts by the Iraqi's sons to decrease the level of violence in Iraq from 2007 to 2009 (Cordesman and Khazai, 2013).

In addition, the tensions between Kurds and Arab, and the central government and KRG have not still been a serious violence, but it may be a threat for the future. They can reach main compromises to decrease violence and bring security and stability. (Cordesman and Khazai, 2013).What is more, Iraq faces a potentially serious issues due to the level of pressure between Arab and Kurds, and between the Arab who control the central government and the Kurdish Regional Government (KRG), that could change the whole pattern of future violence in Iraq. Therefore, since the establishment of the Kurdish security region after the first Gulf War, the trends of violence between Arab and Kurds have been limited. However, since 2004, it is clear that the conflict could lead to civil war in terms of dominance of region, the level of autonomy for the KRG, control of security power and distribution of Iraq's oil export incomes and petroleum resources (Cordesman and Khazai, 2013).

However, there is an escalation of conflict between Arabs and Kurds. These tensions have related to the issue of Kirkuk because from the Kurds' standpoint, Kirkuk had a Kurdish majority. Therefore, Kirkuk and other near parts were ''disputed territories''. For the national government the oil of Kirkuk is a huge concern. From the Kurdish point of view, ''oil is part of a broader KRG strategy to draw international pressure on Baghdad to grant further Kurdish autonomy'' (Senor, 2009).

4- The escalation of violence and insurgency

The use of force was ineffective by the US Army because evidence proves that insurgency and violence was generated after the Iraqi invasion in 2003. Burton and Nagal state that the US did many things in Iraq in March without any doctrine, training and planning for opposing insurgency because there was weakness of counterinsurgency preparation in the United States military, especially the issues of Iraq became worse after Saddam Hussein (Burton and Nagal, 2008).

From 2004 to 2006 the war in Iraq shows the strategy of the utility of force was obviously understood by the lower positions (Duyvesteyn 2008). According to Jim Jeffrey (cited in Burton and Nagl, 2008) in September 2005, the US military was not sufficiently implementing a plan for victory. The process of insurgency was hard to be controlled. Therefore, the reconstruction of policy and economy was not going well. The national strategy for supporting Iraq and for reconstruction was successfully a plan by the US military to operate. But, infrastructure security was a big issue hindering its effective implementation (Burton and Nagl, 2008).Furthermore, between 2004 and 2006, there

were considerable developments in US military counterinsurgency processes but the strategy was problematic. Developing the insurgency and violence in Iraq encouraged America to make an effective counterinsurgency strategy in Iraq by 2007 (Burton and Nagal, 2008).

It is believed that according to Burton and Nagal (2008), the strategy of counterinsurgency principle in Iraq was improved by America but it was ineffective in Iraq's security by the end of 2006. Therefore, the strategy of American military was not to defeat insurgency, it was to work on bringing security to Iraq. The Bush administration tried to show this strategy for developing counterinsurgency and to emphasize victory (Burton and Nagl, 2008). However, the period after 2010 has not been a fight against terrorism or extremism. It has been the outcome of Iraq's failure in terms of political leaders to make a real governance. These facts are critical because they notify that there is no measure of success counterinsurgency and counterterrorism in order to bring Iraq into permanent stability or remove its violence (Cordesman and Khazai, 2013).Moreover, military force in counterinsurgency was to capture the motivation of people in order to bring security which has an important utility but there is no shortcut to success in terms of counterinsurgency (Burton and Nagl, 2008). The invasion of Iraq in 2003 was firstly conventional but after that it was transformed into counter-insurgency campaigns (Dixon, 2009). In counterinsurgency, military power is an essential utility to capture the will of the people through security. Terrorist attacks have increased on a large-scale and the threat on the regional countries and global security escalated because of the terrorists inside Iraq and their threat on other countries (Burton and Nagal, 2008).

The war in Iraq by the US government was as a war against terrorism particularly against al-Qaida. According to the Iraq study group report ''Al-Qaida is responsible only for a small portion of violence in Iraq'' (Antic, 2009: p102). Therefore, this report argues that ''Al-Qaida in Iraq is now largely Iraqi-run and composed of Sunni Arabs'' (Antic, 2009: p102). In addition, terrorist groups of Sunni and Shi'ite in Iraq often focus on a high level attacks or efforts to control region or increase impact through violence. In addition, according to many experts that the Sunni terrorist groups and particularly A- Qa'ida try to extend their attacks in Shi'ite and Kurdish territory to show that Shi'ite or Kurdish region is not safe. (Cordesman and Khazai, 2013).

Therefore, the government of Iraq observed with doubt Iraqis people who joined al-Qaeda and targeted innocent people just to change sides and claim to be aggressive against al-Qaeda (al-Sheikh, and Sky, 2011). On the other hand, insurgents, who combat against external invasion is a suitable term for these troops than terrorists. According to the report, many attacks on Americans related to the Sunni insurgency. 99.9% of the insurgency are Iraqis and a very small percentage are foreign fighters (Antic, 2009).The Sunni people more understood with the insurgency. Therefore, many insurgent groups are formed by the Sunnis, also control of the city of Falluja in Anbar province was assumed by insurgents (al-Sheikh and Sky, 2011). Thus, the Sunnis people gave a strong support to the insurgents (Antic, 2009). In this regard, there are many reasons for Iraqi violence. ''violence is more a symptom than a cause of Iraq's problems'' (Cordesman and Khazai, 2013: p5).

Therefore, there is a development between 2007 and 2009 but it does not mean that Iraq had removed the threat from violent Shi'ite and Sunni activities, and aggressive between national and sects groups. (Cordesman and Khazai, 2013).For developing the capability of Iraq and to establish the security in this country, it is important to carry out a campaign to defuse the insurgency and to defeat the terrorists because violence in Iraq was into the biggest cause of instability (Burton and Nagl, 2008).

In Iraq there is a high level of the threat of increased sectarian violence by opposition groups. Some of these groups have been working for long time in Iraq; for example, the Islamic State of Iraq and Al Qaida in Iraq Cordesman and Khazai, 2013). By 2006, the pressures between the nationalist insurgency and al-Qaeda became increased (al-Sheikh and Sky, 2011).Abu Musab al-Zarqawi was a leader of al-Qaida in Iraq in 2004.He was the Jordanian terrorist. He was against the Shi'ite civilians and American forces (Burton and Nagl, 2008). However, there are other groups that created recently such as militias on the Sunni side who control governorates and other groups on the Shia side such as AsaibAhl al-Haq and Kata'ibHizbullah. Sunni armed opposition groups have established their ability to adjust tactics and operations in terms of sustaining continuous stream of attacks in a high operational speed, keeping constant tension on the Iraqi security powers, testing their abilities and rending problematic the conduct of counterinsurgency operations'' (Cordesman and Khazai, 2013).

What is more, the Iraqi state is umbrella for groups of a number Iraqi insurgency organization which established on October 15, 2006. The group is supported and collected by different groups of insurgency. Therefore, these groups consistof ''its predecessor, the Mujahideen Shura Council, Al-Qaeda, Jeish al-Fatiheen, Jund al- Sahaba, Katbiyan Ansar Al-Tawhid wal Sunnah, Jeish al-Taiifa al-Mansoura, and other Sunni groups''. The purpose is to create a caliphate in the Sunni controlled areas of Iraq (Cordesman and Khazai, 2013: p8).

It could be argued that the US use of force was not utilised efficiently because it generated violence and insurgency rather than peace and stability. Likewise, it is clear that changing regime led to some terrorist groups particularly Al Qaida. Therefore insurgency could have negative effect on the security of Iraq. In addition removing Saddam Hussein from power created many terroristgroups and insurgency in Iraq. Thus this led to increasing violence and poor relationship between citizens over the war. In this regard, the US did many things inside Iraq but the process of counterinsurgency was not successful and it faced many issues that was difficult to control it.

On the other hand, Petraeus (cited in Dodge, 2012) states that it was essential that there were four areas in Iraq to be a surge; for example, the military, the civilian side of the US administration, the Iraqi powers and Iraqi political will (Dodge, 2012: p83). Despite this, during 2007 the US policy in Iraq was involved in a two phase military operation. The first step was the Baghdad security plan which is 'enforcing the law'. This looked at the counterinsurgency of military and also focused on the security of people inside and around Baghdad. The second stage, named Phanton Thunder and Phantom Strike, which was to concentrate on Baghdad's residential and surrounding areas, but more importantly it was presented as conservative military search to destroy missions especially in those places where large number of US military services were positioned to eliminate Radical Sunni groups (Dodge, 2012: p83). The surge started on 14 February 2007, according to Emma Sky (cited in Dodge, 2012: p84) ''population protection became the driving mantra of the command environment''. The plan was to bring great levels of the security to small parts of Baghdad and after that it was extended (Dodge, 2012: p84).

Furthermore, the second phase of the surge was began in June 2007, by using an extra conventional mass-military action. Odierno organised his troops in two concentric rings around Baghdad in order to break the groups of insurgency. Then, in the biggest military action, Phantom Thunder and Phantom Strike were started to stop insurgents groups working outside Baghdad (Dodge, 2012: p86).

From 2007 to 2008, the surge did not have the influence in changing the condition of Iraq. In addition, since 2007 the situations in Iraq have developed, but these changes were not due to the surge. When the surge began in Iraq, the Bush government's more lofty aims of changing Iraq into a constant, multinational democracy had become largely rhetorical. (Betts, Desch and Feaver, 2011).The strategy of surge and counterinsurgency was supported by Keane and continued to involve surge supporters within the government. (Marsh, 2012). Surge supporters argue that the security of people was necessary for permanent political stability and improvement in Iraq. Therefore, counterinsurgency strategy as a main factor for Iraq's stability wasparticularly supported by Generals Keane, Petraeus, and Odierno. It is argued that by surge challengers that the United States could only attain Iraq's stability by organising effective and self-sufficient Iraqi security powers. (Marsh, 2012).

However, the surge was a failure strategy because Iraq stays a violent place part. Therefore, in any situation, Bush does not justify credit for the surge's activities because he had to make a decision. In the meanwhile, he justifies responsibility for the strategy that did not work.Desch(cited in Betts, Desch and Feaver, 2011) argues that in 2007 strategy of surge was irrelevant because in Iraq the condition of security was improving without surge. He recently mentions that at the end of 2006 the security condition was improving. In this regard, creatingthe extra troops was irrelevant(Betts, Desch and Feaver, 2011).Desch also treats the surge in violent counterterrorism process as an ''alternative'' clarification for the development in security, rather than ''seeing this activity as integral to the overall surge'' (Betts, Desch and Feaver, 2011: p193).

Similarly, he states that in the summer of 2007, the surge did not participate to Moqtada al-Sadr's decision to announce a truce. Despite this claims that the surge in special actions attacks against the powers of Sadr no suspicion played a role(Betts, Desch and Feaver, 2011). It is believe that by the Chiefs that the surge would not succeed in attaining America's political and army goals in Iraq. In fact it would be counterproductive. ''The Pentagon has cautioned that a modest surge could lead to more attacks by al-Qaeda, provide more targets for Sunni insurgents and fuel the jihadist appeal for more foreign fighters to flock to Iraq to attack US troops,

the officials said. Thus, the Joint Chiefs of Staff (JCS) believed that the surge would inhibit security transfer and potentially worsen the violence in Iraq'' (Marsh, 2012: p420).

The surge of US troops was not enough to develop the security condition, but it was essential for the US and Iraq to realise objectives when the security condition was out of control (Betts, Desch and Feaver, 2011).Therefore, the strategy of 2007 shift contained more than the surge of additional troops and those other main parts sought to develop the security condition in Iraq. Therefore the new strategy tried to protect population over transition to control Iraq that played an important role to develop security in the country (Betts, Desch and Feaver, 2011). However,in Iraq, the troop surge could not assure that the security of people would translate into political development. In this regard, a set of serious threats if implemented was presented by the troop surge selection (Marsh, 2012).Until December 2006, Bush did not support the troop surge and also Bush did not develop the strategy of surge.But after the development selection by National Security Council (NSC) and Generals Kean, Odierno and Petraeus, on November 29, 2006, Bush sought to meet with Iraqi Prime Minister Maliki, and decided to support the troop surge. After this meeting the surge was the best and last chance to achieve our objectives in Iraq. (Marsh, 2012).

It seems that the purpose of the surge was to improve security power. Therefore, the surge was a key factor to reduce the violence, to provide security to Iraq and to break terrorist groups and insurgency. Hence, the surge failed because Bush's strategy to support surge was ineffective. It is evident that the surge was not successful in Iraq and it faced many issues such as escalation of violence and instability.

Conclusion

The war in Iraq is a significant event for removing Saddam Hussein from power. Furthermore, an American strategy built around the principle of regime change would have used the utility of force against Iraq to change the regime of Iraq. Although, according to many studies the USA sought to support democracy in Iraq but in fact they did not bring any real democracy to Iraq. The USA attacked Iraq not because of democracy or destruction of mass weapons, the reason was to get natural resources. Consequently, after invasion of Iraq the situation became even worse to promote and install democracy due to internal conflict and violence.

The utility of the US use of force was counterproductive due to the negative consequences of this force on Iraq. The US use of force was ineffective because it generated political instability and insecurity after 2003. Therefore, the conflict started inside Iraq after removing Saddam Hussein from power between Shias, Sunnis and Kurds. In addition, Al Maliki continue to establish his power inside Iraq. In this regard, this led to outbreak conflict between political powers. Also, the conflict did not end between citizens during and after the war as it supports the group of terrorists in Iraq. What is more, the conflict between Arab and Kurds have been limited if compared to the conflict between Sunnis and Shias that have created major tensions. Furthermore, the conflict between Arab and Kurds have been a serious threat especially about the issues of Kirkuk and oil. Hence, hardship and a turmoil of violence surrounded the Iraqi troops and people. Despite this, America faced huge cost casualties in terms of military operations and human life. Thus this cost had a negative impact on American's economy.

The utility of force was ineffective because when the war started, it led to increase the insurgency and terrorist groups,which has risen within the Iraqi society. Therefore, Sunni insurgents in Iraq continue to strike in their tactic in order to support the insurgency. Thus, increasing violence and insurgency in Iraq cannot bring security or stability to Iraqi society. Although, the US conducted counter insurgency operations in Iraq but the strategy was not successful in 2006 and the strategy of counterinsurgency was weak. In addition, terrorist groups especially al-Qaida tried to expand their attacks in a large scale. Consequently, the process of insurgency and terrorist groups was hard to control by the USA. On the other hand, there were two stages of starting surge in Iraq. The first one was on 14 February 2007, the main reason was to bring security into Iraq. The second one was in June 2007 in order to break the groups of terrorists and insurgency. However, the strategy of surge was failed because of increasing violence. Therefore, surge was not enough to develop security and stability in Iraq.

Bibliography

- Al-Sheikh, S. & Sky, E. 2011, "Iraq since 2003: Perspectives on a Divided Society", *Survival,* vol. 53, no. 4, pp. 119-141.
- Angstrom, J and Duyesteyn, I. (2010). ''Modern war and the utility of force: Challenges, methods and strategy''. Available at: http://scientiamilitaria.journals.ac.za/pub/article/viewFile/116/149 (Accessed: 17 February 2014).
- Antic, M. 2009, "Iraq war (2003): was it morally justified?" *Politickamisao,* vol. 46, no. 1, pp. 88-113.
- .Betts, R. Desch, M &Feaver, P. 2011, "Civilians, Soldiers, and the Iraq Surge Decision", *International Security,* vol. 36, no. 3, pp. 179-199.
- Burton, B. &Nagl, J. 2008, "Learning as we go: the US Army adapts to counterinsurgency in Iraq, July 2004-December 2006", *Small wars and insurgencies,* vol. 19, no. 3, pp. 303-327.
- Cordesman&Khazai. 2013, "Violence in Iraq: The Growing Risk of Serious Civil Conflict", Centre for Strategic & International Studies, [online]. Available at: https://csis.org/files/publication/120718_Iraq_US_Withdrawal_Search_SecStab.pdf [Accessed: 1 December 2013].
- Cordesman, A.H. 2003, *The Iraq War: strategy, tactics, and military lessons,* Praeger, Westport, Conn.
- Danchev, A. & MacMillan, J. 2005, *The Iraq War and democratic politics,* Routledge, New York.
- Dixon, P. (2009). ''Hearts and Minds? British counter-insurgency from Malaya to Iraq''. Available at: http://www.tandfonline.com/doi/pdf/10.1080/01402390902928172 (Accessed: 16 February 2014) (Accessed: 17 March 2014).
- Dodge, T. & International Institute for Strategic Studies 2012, *Iraq: from war to a new authoritarianism,* Published by Routledge for the International Institute for Strategic Studies, Abingdon, Oxon.
- Duyvesteyn, I. 2008, "Exploring the utility of force: some conclusions", *Small wars and insurgencies,* vol. 19, no. 3, pp. 423-443.
- Egnell, R., Institutionenförsäkerhetochstrategi (ISS), Försvarshögskolan&Strategiavdelningen 2008, "Between reluctance and necessity the utility of military force in humanitarian and development operations", *Small wars and insurgencies,* vol. 19, no. 3, pp. 397-422. [Online]. Available at: http://www.atlanterhavskomiteen.no/files/atlanterhavskomiteen.no/Publikasjoner/Sikkerhetspolitisk_bibliotek/Arkiv/2009/sik.pol_1_09.pdf
- Gifford, B. (2005). ''Combat Casualties and Race: What Can We Learn from the 2003−2004 Iraq conflict''. Available at: http://afs.sagepub.com.vezproxy.brunel.ac.uk:2048/content/31/2/201.full.pdf+html (Accessed: 15 February 2014).
- Olsen, F. 2011, ""Those About to Die Salute You": Sacrifice, the War in Iraq and the Crisis of the American Imperial Society", *GEOPOLITICS,* vol. 16, no. 2, pp. 410-437.
- Marsh, K.P. 2012, "The Intersection of War and Politics: The Iraq War Troop Surge and Bureaucratic Politics", *Armed Forces & Society,* vol. 38, no. 3, pp. 413-437.
- Mearsheimer, J. (2005). ''Hans Morgenthau and the Iraq war: realism versus neo-conservatism''. Available at:

  http://mearsheimer.uchicago.edu/pdfs/A0037.pdf (Accessed: 16 February 2014). (Accessed: 17 March 2014).
- Members of the Iraq War Inquiry Group, (2012). Why did we go to war in *Iraq? Available at:* http://www.google.co.uk/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&frm=1&source=web&cd=1&ved=0CCwQFjAA&url=http%3A%2F%2Fwww.mapw.org.au%2Ffiles%2Fdownloads%2FIraqBooklet-Full-FINAL.pdf&ei=xeuLUpXnL8O30QW1oYGABg&usg=AFQjCNFI5XMQgzRhqJxEA_qn1Nqk6hXbrw (Accessed 19 Nov 2013).
- Metz, S. (2010). Removing Saddam Hussein by Force. Available at:

  http://www.google.co.uk/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&frm=1&source=web&cd=2&ved=0CDYQFjAB&url=http%3A%2F%2Fwww.strategicstudiesinstitute.army.mil%2Fpdffiles%2Fpub970.pdf&ei=Lu6LUu2iMMG_0QXEyYGgDw&usg=AFQjCNGBTBznhMbUYbHmpDoDfCuBMd5sxA(Accessed 19 Nov 2013).
- Senor, D. 2009, *The Kurdish Issue Flares Up in Iraq,* Dow
- Jones & Company Inc, New York, N.Y.
- Smith, R. 2006. ''*The utility of force: the art of war in the modern world''.* Penguin, London.
- Stiglitz, J., Bilmes, L. & National Bureau of Economic Research 2006, *the Economic Costs of the Iraq War: An Appraisal Three Years after the Beginning of the Conflict,* National Bureau of Economic Research, Cambridge, Mass.
- Weller, M. 1999, "The US, Iraq and the use of force in a unipolar world", Survival, vol. 41, no 4, pp. 81-100.

ملخص الدراسة:

تقيم نقدي لمدى فائدة استخدام الولايات المتحدة الأمريكية للقوة في حرب العراق ٢٠٠٣

أ.م.د/ خليل مصطفى عثمان
قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية، جامعة دهوك، إقليم كوردستان العراق

م.م/ ديمن إبراهيم أمين
قسم التاريخ، كلية العلوم والتربية-عقرة، جامعة دهوك، إقليم كوردستان العراق

تُعَدّ الحرب في العراق حدث مهم للإطاحة بصدام حسين عن السلطة. لذلك فإن الاستراتيجية الأمريكية بُنيت على مبدأ أن تغير النظام يتطلب استخدام القوة ضد العراق. وبالاعتماد على الكثير من الدراسات سعت الولايات المتحدة الأمريكية من خلال هذه المهمة إلى دعم الديمقراطية في العراق ولكنها لم تجلب أي ديمقراطية حقيقية للعراق. لقد غزت الولايات المتحدة العراق ليس لجلب الديمقراطية أو تدمير أسلحة الدمار الشامل كما كان يُعتقد آنذاك، ولكن السبب الرئيس كان الوصول إلى الموارد الطبيعية. ونتيجة لذلك وعقب اجتياح العراق تدهور الوضع أكثر فيما يخص بناء وتعزيز الديمقراطية بسب الصراع الداخلي والعنف الذي نشب بين الأطراف المختلفة. لقد أدى استخدام الولايات المتحدة للقوة إلى مردود عكسي بسبب العواقب السلبية لهذه الاستخدام على المكونات العراقية في مختلف الأصعدة. لقد كان استخدام الولايات المتحدة للقوة غير مجدي لأنها أدت إلى عدم استقرار سياسي وفقدان الأمن بعد عام ٢٠٠٣ وبدأ الصراع داخل العراق بين الشيعة والسنة والكرد، أضف إلى ذلك استمر المالكي (رئيس الوزراء العراقي آنذاك) بتثبيت سلطته الفردية داخل العراق، مما أدى إلى نشوب الصراع بين القوى السياسية المختلفة. وكذلك لم ينتهي الصراع بين مكونات العراق خلال فترة الحرب وما بعدها.

أما الصراع بين العرب والكرد فإنه محدود إذا ما قورن بالصراع بين السنة والشيعة. وقد شكل هذا الصراع تهديدًا جديًا وخاصةً فيما يخص مسألة عائدية مدينة كركوك والنفط. لذلك أحاطت المصاعب وموجة من العنف بالعراق والقوات الأمنية العراقية، وتعرضت القوات الأمريكية للخسائر من ناحية العمليات العسكرية والبشرية وكان لهذه الخسائر تأثير سلبي على الاقتصاد الأمريكي بصورة عامة. كان استخدام القوة غير مجديًا لأن الحرب أفضت إلى زيادة المجاميع الإرهابية والتمرد داخل المجتمع العراقي. ولحد الأن يواصل المكون السني بإيقاع الضربات بنهجهم لدعم التمرد في مختلف المناطق السنية. لذا فإنه لا يمكن لتصاعد العنف والتمرد في العراق أن يجلب الأمن والاستقرار للمجتمع العراقي. رغم أن الولايات المتحدة قامت بعمليات مكافحة التمرد في العراق، إلا أن استراتيجية مكافحة الإرهاب لم تكن ناجحة بل كانت ضعيفة في ٢٠٠٦. أضف إلى ذلك حاولت المجاميع الإرهابية وخاصةً تنظيم القاعدة أن تصعد من هجماتها على نطاق واسع. ونتيجة لذلك كان من الصعب على الولايات المتحدة السيطرة على التمرد وعلى المجاميع الإرهابية. ومن ناحية أخرى، كانت هناك مرحلتان لبداية التصعيد في العراق، أولاهما كانت في ١٤ شباط من عام ٢٠٠٧ وكان السبب الرئيس هو جلب الديمقراطية بالقوة للعراق. والثانية كانت في حزيران من عام ٢٠٠٧، وذلك لمحاولة القضاء على المجاميع المسلحة، إلا أن استراتيجية التصعيد فشلت لأنها أدت إلى زيادة العنف. لذا فإن التصعيد لم يكن كافيًا لتوفير الأمن والاستقرار في العراق، بل على العكس من ذلك سلب الأمن والاستقرار، وأدى إلى نشوب صراع على أساس عرقي وطائفي في عموم العراق.

الكلمات المفتاحية: حرب العراق؛ تاريخ العراق المعاصر؛ الولايات المتحدة الأمريكية، الإرهاب؛ صدام حسين



Historical Kan Periodical
ISSN: 2090 – 0449 (Online).
Peer-reviewed, open-access journal,
indexed and abstracted in several
international databases.

https://www.facebook.com/historicalkan